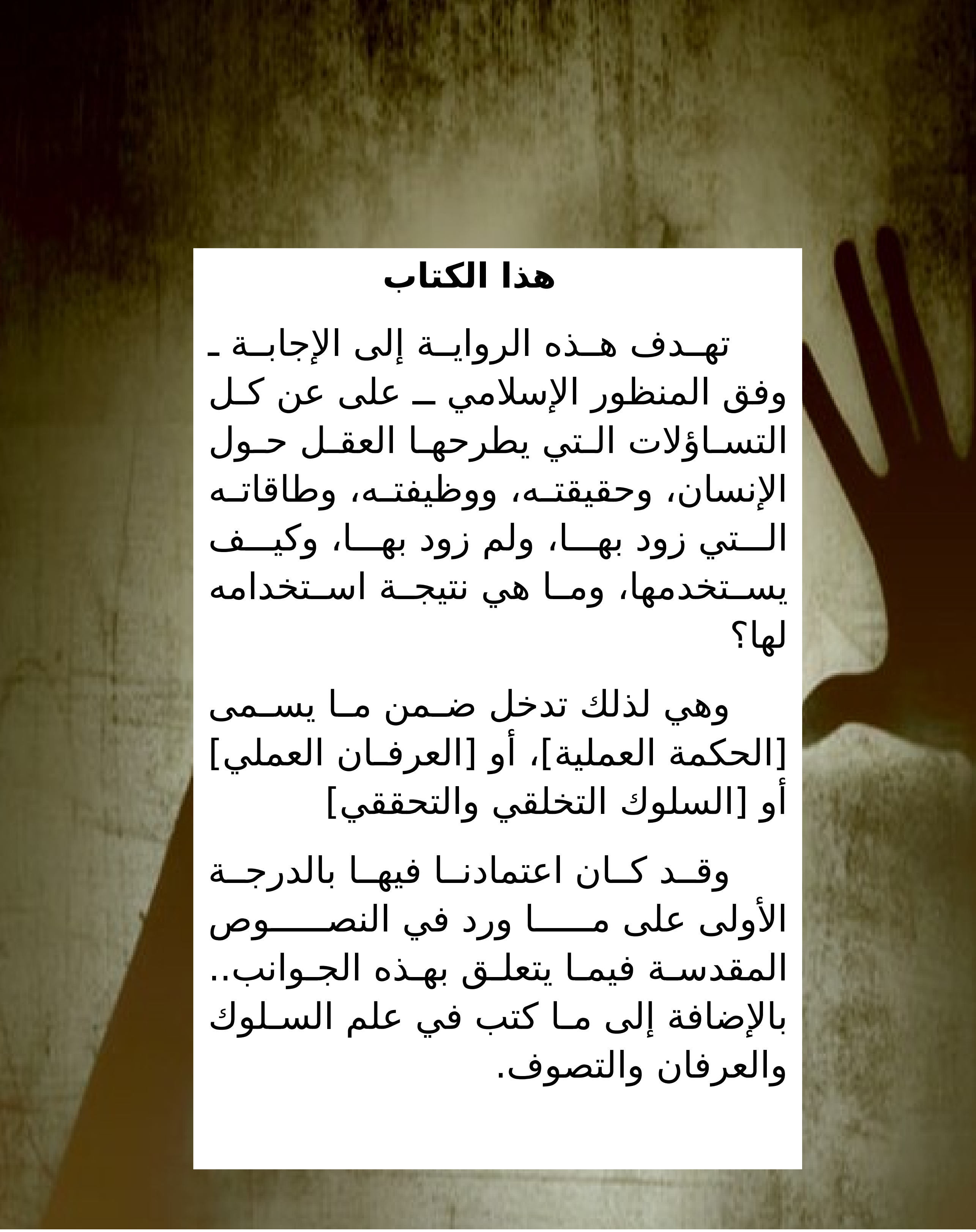

حقائق ورقائق
(١٤)
أسرار الإنسان
رواية
د. نور الدين أبو لحية



هذا الكتاب

تهدف هذه الرواية إلى الإجابة ـ وفق المنظور الإسلامي ـ على عن كل التساؤلات التي يطرحها العقل حول الإنسان، وحقيقته، ووظيفته، وطاقاته التي زود بها، ولم زود بها، وكيف يستخدمها، وما هي نتيجة استخدامه لها؟

وهي لذلك تدخل ضمن ما يسمى [الحكمة العملية]، أو [العرفان العملي] أو [السلوك التخلقي والتحققي]

وقد كان اعتمادنا فيها بالدرجة الأولى على ما ورد في النصوص المقدسة فيما يتعلق بهذه الجوانب.. بالإضافة إلى ما كتب في علم السلوك والعرفان والتصوف.

حقائق ورقائق

(14)

أسرار الإنسان

رواية

د. نورالدين أبولحية

www.aboulahia.com

الطبعة الأولى

1436 – 2015

دار الأنوار للنشر والتوزيع

بسم الله الرحمن الرحيم

فهرس المحتويات

المقدمة **7**

البداية **9**

أولا ـ الضعيف **21**

1 ـ الجهل **33**

2 ـ الجدل **42**

3 ـ الغرور **49**

الكفار: 51

العصاة: 55

العلماء: 56

العبَّاد: 62

4 ـ العجلة **69**

الحسنة: 70

السيئة: 74

5 ـ الهلع **78**

6 ـ الجبن **88**

7 ـ العجز **98**

ثانيا ـ القوي **108**

1 ـ اليقظة **112**

2 ـ الإرادة **118**

3 ـ المعاهدة **127**

4 ـ المراقبة **142**

مراقبة الصديقين: 145
مراقبة الورعين: 147
5 ـ المجاهدة 154
6 ـ المحاسبة 169
قبل العمل: 173
بعد العمل: 174
7 ـ المعاقبة 176
ثالثا ـ اللين 182
1 ـ الرحمة 185
2 ـ الحلم 191
3 ـ الألفة 202
4 ـ الكرم 207
5 ـ الحياء 212
6 ـ الرفق 217
7 ـ المودة 222
رابعا ـ الشديد 228
1 ـ الشجاعة 233
2 ـ القناعة 246
3 ـ العزة 250
4 ـ الغيرة 251
5 ـ الشهامة 254

6 ـ المروءة	259
7 ـ الثبات	263
خامسا ـ المتثاقل	270
1 ـ الدنيا	275
2 ـ المال	290
3 ـ الطعام	304
4 ـ الكلام	317
5 ـ التكاثر	330
6 ـ البنيان	334
7 ـ الجاه	340
سادسا ـ المتسامي	361
1 ـ الإخلاص	363
2 ـ الصدق	385
3 ـ الصبر	394
4 ـ الشكر	400
5 ـ الزهد	408
6 ـ التوكل	414
7 ـ المحبة	422
سابعا ـ الهابط	427
1 ـ الغافلون	431
2 ـ الفاسقون	441

3 ـ الظالمون 444
4 ـ المبتدعون 445
5 ـ المشركون 449
6 ـ الملحدون 453
7 ـ المنافقون 459
ثامنا ـ الصاعد 465
1 ـ العلماء 473
2 ـ العباد 481
3 ـ المتقون 484
4 ـ الزهاد 499
5 ـ الفتيان 505
6 ـ المجاهدون 510
7 ـ الصديقون 519
النهاية 530
هذا الكتاب 532

المقدمة

تهدف هذه الروايـة إلى نفس الأهـداف الـتي هـدف إليهـا مـا قبلها من الروايات من سلسـلة [حقـائق ورقـائق]، وهي إثبـات أن الإسـلام هـو الـدين الوحيـد الـذي يجيب عن كـل التسـاؤلات الـتي يطرحها العقل الإنساني، ويحتار في الإجابة عليها.

ومن أهم تلـك التسـاؤلات التسـاؤل عن الإنسـان، وحقيقتـه، ووظيفته، وطاقاته التي زود بهـا، ولم زود بهـا، وكيـف يسـتخدمها، وما هي نتيجة استخدامه لها.

وهـذا النـوع من الأسـئلة يجـاب عليـه عـادة في كتب الأخلاق والسلوك والتصوف، ولهذا كانت هذه الكتب هي مراجعنا الكـبرى، وقد اقتصرنا منها على ما يسمى [الحكمـة العمليـة]، أو [العرفـان العملي] أو [السـلوك التخلقي والتحققي]، أمـا المسـائل النظريـة المرتبطة بحقيقة الإنسان، وترتيبه في سـلم الوجـود، ونحـو ذلـك، فإننا لم نتطرق لها في هذه الرسالة لأسباب كثيرة.

لعـل أهمهـا أن فهم أكـثر تلـك المسـائل مرتبـط بالسـلوك التحققي والتخلقي.. لأن المعـارف المرتبطـة بهـا معـارف ذوقيـة، وهي من النوع الذي لا يمكن التعبير عنه، ومن عبر عنه سـيقع في الخطأ لا محالة.

بالإضافة إلى أن الكثير من تلـك المعـارف المبثوثـة في كتب العرفـان والتصـوف تختلـط بالأوهـام والثقافـات المختلفـة، ومن الصعب التمييز بينها..

لـذلك كـان الأسـلم والأحكم الاكتفـاء بمـا ورد في النصـوص المقدسـة من التعريـف بحقيقـة الإنسـان، وصـفاته ووظائفه[1] .. والاكتفاء بما ورد في التراث الإسلامي من تجـارب علمـاء الأخلاق والسلوك.

ولهذا فقد كـان ا بالدرجـة الأولى على مـا ورد في النصـوص

---

[1] تحدثنا عن حقيقة الإنسان ومكوناتها المختلفـة في كتـاب [سـلام للعـالمين] من هـذه السلسلة.

المقدسة فيما يتعلق بهـذه الجـوانب.. وخصوصـا القـرآن الكـريم، والسنة الصحيحة الموافقة للقرآن.

ومن كتب التراث كان اعتمادنا الأكبر على كتاب [إحياء علوم الـدين]، لاعتبـارات مختلفـة.. أولهـا أنـه كتـاب متفـق عليـه عنـد مدارس الأمة جميعا، ولهذا كنا نرجع إليه، ونقارن مـا فيـه بمـا في كتاب [المحجة البيضاء] للفيض الكاشاني.

بالإضافة إلى أن الغزالي في كتابه ذلـك، نقـل كـل مـا أورده سـلفه في أمثـال هـذه المسـائل من أمثـال [قـوت القلـوب] لأبي طالب المكي، و[الرعاية لحقوق الله] للحارب المحاسبي، وغيرها.

بالإضـافة إلى أن أكـثر مـا كتبـه المتـأخرون في أمثـال هـذه المسائل منقول بالحرف أو المعنى من كتب الغزالي.

وقد حرصنا في هذه الرواية ـ كمـا في غيرهـا من الروايـات ـ أن يكون أبطالها من جميـع المـذاهب والمـدارس الإسـلامية ممن اهتموا بالأخلاق والسلوك، وتركوا فيها آثارا، بناء على حرصـنا على الوحدة الإسلامية، وذلك لا يعني أننـا نوافـق هـذه الشخصـيات في كل ما سلكته أو رأته من آراء.

ونحب أن نــبين في الأخــير أننــا اختصــرنا الكلام في بعض القضايا في هذه الرواية، لا لعدم أهميتها، وإنمـا لأننـا خصصـنا لهـا كتبا خاصة بها، وخاصة في سلسلة [رسائل السـلام] الـتي تتنـاول بأجزائها جميعا هذا النوع من المسائل.

البداية

في ذلـك اليـوم العجيب، استـيقظت فزعـا مـذعورا من رؤيـا رأيتها.. كانت أبعد ما تكون في وضوحها وصفائها عن الرؤى.. لقـد كنت فيها ـ كما أنـا في اليقظـة تمامـا ــ بجميـع مشـاعري وقـواي وضعفي.. وكان الزمان فيها كالمكان ككل شـيء لا يختلـف تمامـا عما أراه في اليقظة وأشعر به وأعيشه.

سأقص عليكم ما بقي منها في خاطري.. فإن لها علاقة بهذه الرواية.. ولها علاقة كبرى بالرحلة العجيبة التي حدثني عنها الشيخ الغريب الصالح، والتي سـأرويها لكم بدوري كما رواها لي[1].

لقد رأيتني وحدي أنام على تـراب الأرض.. كـان ترابـا ممتلئـا بالماء.. وقد تحول نتيجة لذلك إلى طين.. بـل إنـه تغـير من طـول المكث، فصـار حمـأ مسـنونا.. لعلـه يشـبه الحمـأ المسـنون الـذي تشكل منه آدم ﵇.

استيقظت في تلك المتاهـة.. ولم أكن أعـرف من أيقظـني.. ولكني شعرت بيده الحانية تـربت على كتفي.. وتوقظـني بحنـان.. كان ذلك هـو أسـعد شـيء في رؤيـاي.. وليتهـا تـوقفت عنـد ذلـك الحـد.. ولم أتعـرض لتلـك الاختبـارات الـتي تعرضـت لهـا.. والـتي جعلت حلمي كابوسا ثقيلا ملأني رعبا.

سرت في تلك المتاهة خطوات طويلة إلى أن وجـدت قصـرا مكتنفـا بأشـجار كثـيرة.. وكـان تحت الأشـجار مـاء كثـير.. وأزهـار كثيرة.. وعشب جميل.

لقد كانت لي في ذلك الحلم جراءة لم أعهـدها في اليقظـة.. ولـذلك دخلت القصـر من غـير أن أطـرق بابـه.. فقـد كـان بابـه مفتوحا..

لكني مـع سـوء أدبي هـذا اسـتقبلني صـاحب القصـر أحسـن استقبال.. بل أتـاح لي في ذلـك القصـر والجنـة المحيطـة بـه من

1() نتبه إلى أن هذه الرؤيا التي نقصها هنا مجرد مثل.. والمثل لا يؤخذ به ـ كما هو معروف ـ بكل وجوهه.

المتاع ما لم أر مثله في حياتي..

بعد أن مكثت فترة في ذلك الجو الهادئ السعيد.. لم تطمئن نفسي لتلك الحياة التي ليس فيها إلا اللذة المجردة عن كل تكليف وكل مغامرة..

لذلك طلبت من صاحب القصر.. ذلك الرجل الكريم.. الذي أغدق علي من كرمه ما لم أر مثله في حياتي، أن يكلفني بأي وظيفة.. لقد قلت له، وأنا ممتلئ حماسة وقوة: لم لا تكلفني.. أنت تراني ممتلئ بالقوى العجيبة.. أنا أفكر.. وأحلل.. وأشعر.. وأتخيل.. وأطير في الأجواء التي لا يستطيع جسدي أن يطير إليها.

وقلت له: أنا أشق الشعرة بذكائي.. وأحول من تلك التربة التي كنت فيها جنات وقصورا لا تقل عن هذا القصر الذي أسكنتني فيه..

وقلت له: نعم أنا معك الآن.. وقريب منك.. ولكني أشعر أني مع هذا القرب بعيد.. بل أشعر أنك لا تريد إلا أن تهجرني عندما تشغلني بهذا النعيم عن الجلوس إليك ومنادمتك.

نظر إلي صاحب القصر بعين حانية ممتلئة بالشفقة، وقال: لقد جاء قبلك من طلب مني ما تطلب.. لكنه ما إن وضع قدمه على مقام التكليف حتى امتلأ عقله وقلبه وكل قواه بالتحريف.. فراح يصورني في أذهان الخلق بصورة المجرم..

قلت بغضب: ويل للمجرم.. أيقابل مثلك بهذا؟

قال: لا تهتم.. فقد نال جزاءه.. فإني مع كرمي الشديد لا أترك لأي أحد الفرصة أن يعبث بسمعتي أو بالرحمة والعدالة التي أشعر أن الله كلفني برعايتها، وعدم التقصير في رعايتها.

قلت: أهو مسجون في هذا القصر؟

ابتسم، وقال: القصر لا يسجن فيه.. أنا لدي من الزنازن ما يوضع فيه المجرمون ليردعوا نفوسهم الشريرة التي تحدثهم بالإجرام.

قلت: ما كنت أتصور أن لمثلك في حنانك ورحمتك ولطفك زنازن؟

قال: أحيانا تقتضي العدالة والرحمة أن تتخذ من الزنازن ما يحفظ لهما وجودهما وتوازنهما.

قلت: دعنا من هذا.. وهيا كلفني.. فستجدني قويا أمينا.. حفيظا عليما.. أسند إلي أي وظيفة.. بل أسند إلي أخطر الوظائف.. فإن لدي من القدرات ما يطيق أعلى الوظائف وأدقها.

ابتسم، وقال: سأعطيك كنزا..

قاطعته قائلا ـ وقد سال لعابي، ولم أملك أن أحبسه ــ : وما أفعل به؟

قال: لقد تعودت أن أتعهد قرية من القرى الضعيفة الفقيرة بما يكفيها من المال وغيره.. وأنا لا أطلب منك إلا أن توصل ذلك الكنز لتلك القرية.. وتوزعه عليها بحسب ما لديك من موازين العدالة التي ذكرتها لي.

قلت ـ وأنا ممتلئ زهوا ـ : ما أبسط ذلك.. وما أيسره.. نم هانئا.. فلن يجد أهل القرية مني إلا ما وجدته منك من الكرم والرحمة واللطف والحنان.. سأسير فيهم بما تعلمته منك.. فقد تعلمت منك الكثير.

قال: لكن احذر.. فهناك محتالون.. قد يخادعونك.. وقد يأخذون منك الكنز ليستأثروا به لأنفسهم، ويدعو أهل القرية للجوع والعراء.

قلت: لا تهتم.. أنا لم أذكر لك طاقاتي جميعا.. لدي طاقة تسمى الفراسة أتفرس بها الوجوه لأميز الخبيث من الطيب.. والكاذب من الصادق.. والخب من المغفل.

قال: واحذر أن تحدثك نفسك بأن تأخذ من هذا الكنز ما لم أتح لك منه..

قلت: لا تهتم.. فلي نفس ممتلئة بالزهد والعفاف.. وهي لن

تتحرك لأي إغراء.

قال: احذر.. فالأمر أخطر مما تتصور..

قلت: الأمر بسيط.. ولست أدري لم تعقده.

قال: لأنه معقد.. أنت لا تعلم عاقبة نجاحك أو فشلك.

قلت: لقد ذكرت لي أن عاقبة فشلي هي الزنزانة..

قال: لا تستهن بها.. فإن العذاب الذي فيها لا يمكن لأحد تخيله.

قلت: وما الجزاء إن نجحت؟

قال: ستعطى الجائزة الكبرى.

قلت: وما الجائزة الكبرى؟

قال: ستكون مفاجأة.. كل ما يمكن أن تعرفه عنها.. هو أن هذا القصر الذي تراه بالجنة التي تحيط به سيصبح ملكك.

قلت مندهشا: ملكي!؟

قال: ليس وحده.. هناك قصور كثيرة معه.. وفيها من كل شيء.

قلت: وأنت.. هل يمكنني أن أتصل بك وأجلس إليك.. إن هذا شيء مهم بالنسبة لي لا تغنيني عنه جميع قصور الدنيا؟

قال: لك ذلك.. ولكن بشرط واحد أن تؤدي هذه الأمانة الثقيلة إلى المحل الذي طلبت منك.

قلت: لا تهتم.. سأسير الآن.

قال: سر.. واعلم أن لي في كل خطوة تتحركها من العيون من ينقلها لي..

قلت: لن ترى مني إلا ما يسرك.

بعد أن قلت هذا سرت.. وبصحبة ذلك الكـنز العظيم الممتلئ بكل أصناف الجمال.. كنت في الطريق أنظر إليه كل حين.. وكنت إذا مـــا ارتحت في أي محـــل أنشـــغل بـــالنظر إليـــه عن الأكـــل والشرب..

بعد أيام من السـير صـرت مـدمنا على النظـر إليـه، والتمتـع بذلك..

وقـد وصــل بي الأمــر بعــد أيــام قلائــل إلى أن تــوقفت عن السير.. بل وصل بي الأمر إلى أن وضعت الكـنز في محـل رفيـع، ورحت أجثو بين يديه كما يجثو الوثني أمام أصنامه.

أذكر أني في تلك الرؤيا كنت أسمع التحـذيرات الشـديدة من الانشغال بالكنز عن الوظيفة التي كلفت بها.. لكـني لم ألتفت لأي ناصح أو محذر..

وذات يوم.. حصل مـا حـول من حلمي كابوسـا.. لقـد مـددت يدي لآخذ من ذلك الكنز.. فلم يعـد يكفيـني أن أنظـر إليـه.. وليت ذلك فقط كان، بل حدثتني حينهـا نفسـي أن أسـتأثر بـه لنفسـي.. وقال لي شيطاني: إنك لـو ملكت هـذا الكـنز، فستصـير كصـاحب ذلك القصر.. سيكون لك من الأمر ما هو له..

مددت يدي.. وليتني ما مددتها.. لقد تحـول ذلـك الكـنز الـذي كنت ممتلئا إعجابا به إلى حية كبيرة أحاطت بذراعي، ولم ينقـذني منها إلا صراخي، واستيقاظي بعده..

***

ملأتني تلك الرؤيا بالمخافـة.. ولسـت أدري كيـف سـرت إلى الشيخ الصالح ـ الـذي تشـرفت بزيارتـه ذلـك اليـوم ـ من حيث لا أشعر لأقصها عليه..

لكـني مـا إن دخلت عليـه حـتى خـاطبني بقولـه: هـل رأيت الإنسان؟

قلت: كيف لا أرى الإنسـان.. أنـا لا أرى إلا الإنسـان.. ألسـت

أنت وأنا وكل أولئك الذين يعمرون القارات أناسي؟

قال: لا.. ليسوا كلهم أناسي.. الإنسان هو الذي بقي إنسانا.. أما من لم يبق إنسانا، فلا يصح أن نطلق عليه هذا اللقب العظيم.

قلت: لم أفهم.

قال: أرأيت لو أن عنبا لذيذا حلالا حوله مجرم خمرا.. هل يبقى للعنب كرامة العنب؟

قلت: كيف تبقى له كرامة العنب، وقد نجس بتحويله خمرا؟

قال: فلو قال لك رجل من الناس: أعطني عنبا.. فأعطيته خمرا.. هل تكون مصيبا بفعلك هذا؟

قلت: بل أكون مصيبة بفعلي هذا.. فشتان بين الخمر والعنب.

قال: ولكن الخمر ليست سوى عنب.

قلت: هي عنب منحرف خبيث.. لا عنب مستقيم طيب.

قال: أخبثه وانحرافه يحذف منه كرامة اسمه؟

قلت: أجل.. كما تحذف من الخائن كل ألقاب الأمانة التي لقب بها.

قال: فهكذا الإنسان..

قلت: ما تقصد؟

قال: لقد خلق الله الإنسان مخلوقا طيبا بريئا ممتلئا بالطاقات العظيمة التي تؤهله للخلافة التي هي وظيفته الكبرى.. ولكن الكثير من الخلائق راحوا يمحون اسم الإنسان ليضعوا بدله اسم الشيطان.

قلت: لم أفهم.

قال: أرأيت لو أن صاحب مطعم أراد أن يجعل بعض عماله

نادلا لما رأى فيه من الخلال المناسبة لذلك.. لكنه فوجئ بأن يدي النادل تقطعان.. أو تشلان.. فهل يمكن أن يستمر صاحب المطعم على هذه النية؟

قلت: غبي إن هو استمر على هـذه النيـة.. فلا يمكن للقطيـع أو المشلول أن يحمل الطعام إلى فمه.. فكيف يحملـه إلى أفـواه غيره؟

قال: فهكذا الإنسان.. لقد وهب اللـه الإنسـان من القـوى مـا يستطيع أن يؤدي به الوظائف الخطيرة التي وكلت إليه.. لكنــه إن راح يقطعها ويصيبها بالشلل، فلن يطيق تحمل شيء.

قلت: فهلا ضربت لي مثالا على ذلك.

قال: ألا ترى هؤلاء الخلائـق الـذين راحـوا يتلاعبـون بـالكنوز التي جعلها الله أمانة في أعناقهم؟

أصابني رعب الكابوس، فقلت له: لقد ذكرتـني بمـا جئت من أجله.. لقد رأيتني أخون الكنز.. لقد مددت يـدي إليـه.. لكن الحيـة طوقت يدي.. وكادت تقضي علي لولا أن تداركتني اليقظة.

قال: وهكذا البشر جميعا لن ينقذهم من الحيات إلا اليقظة.

قلت: ولكنهم مستيقظون؟

قال: لا.. بل هم نائمون.. كل من غفل عن حقيقته نائم.. كـل من انشغل عن وظيفته نائم.. كل من مد يـده للكنـوز الـتي اؤتمن عليها غير مدرك عواقبها نائم..

قلت: فمن يوقظهم؟

قال: لقد أيقظهم الله بالرسل..

قلت: ولكن الرسل ماتوا.

قال: لقد تركوا من الورثة ما يخلفهم في هذه الوظيفة.

قلت: فهل يسمع الناس للورثة؟

قال: فهل سمعت أنت؟

قلت: في الحلم لم أسمع.

قال: ليس الشأن بالحلم.. الشـأن باليقظـة.. أنت لا تحاسـب على ما تفعله في الأحلام، بل تحاسب على ما تفعله في اليقظة.

قلت: فهل يمكنني أن أسـمع الورثـة الـذين لم أسـمعهم في الرؤيا؟

قال: ذلك يرجع إليـك.. أنت الـذي تقـرر.. ولا يمكن لأحـد في الدنيا أن يقرر بدلك.

قلت: لقد أرحتني بقولك هذا.. سأتدارك بتوفيق الله ما فاتني في الحلم أن أتداركه.

قال: إنك إن صدقت.. فلن تطوقك الحية.

قلت: لقد غفلنا بالحديث عن الرؤى عن الحـديث عن قصـتك التي أخبرتني أنك ستحدثني عنها، وطلبت مني كتابتها.

قال: قصتي مرتبطة بما كنـا نتحـدث عنـه.. لقـد تعـرفت من خلالها على الإنسان.. الإنسان الذي كـان لغـزا.. ولم يسـتطع أحـد في الدنيا أن يجرؤ على حله لولا الأشعة التي أنالنـا اللـه إياهـا من شمس محمد .

قلت: ما أشد شوقي لأن أسمع أشعة ترتبط بهذا.. فلا يعرف ربه من لا يعرف نفسه.

***

اعتدل الشيخ الصالح في جلسته، وحمد اللـه، وصـلى وسـلم على نبيه مستغرقا في كل ذلك، ثم قـال: بعـد أن قـدر اللـه لي من معرفته ما قدر.. وبعد أن هداني، فتخلصت من كل تلك القيود التي كانت تحول بيني وبين الإيمان بمحمد .. وبعد أن تـنزل علي من النور ما تنزل على من أراد الله هدايته.. بعد كل ذلـك شـعرت بشـوق عظيم يحركـني للتعـرف على ذاتي.. على حقيقتهـا..

ومكانتها.. والوظائف المناطة بها.

وكما تعودت في رحلاتي السابقة، فإن الله بفضله حرك أخي التوأم لأن يوفر لي من الجو ما ييسر لي التعـرض لهـذا النـوع من الأشعة.. فقد أرسلني إلى بقعة خالية في إقليم من أقـاليم الأرض لم أعرفـه.. ولا أحسـب أحـدا في الـدنيا يمكن أن يعرفـه.. لقـد طارت بي طائرة خاصة إلى ذلك الموقع، ثم تركتني فيه مـع بعض الزاد، ثم انصرفت..

لقد كانت البقعة خالية.. وكانت ممتلئة بـالطين.. وكـان بعض الطين قد تحـول إلى حمـأ مسـنون.. وبعضـه تحـول إلى صلصـال كالفخار..

قلت: عجبا.. لكأنك تذكر رؤياي.. لقد كـان هـذا مـا رأيتـه في رؤياي.

قال: لقد ذكرت لك أنك رأيت الإنسـان.. فلا يمكن أن يعـرف الإنسـان من لم يعـرف الطين والـتراب والحمـأ المسـنون.. ولكن هنـاك فرقـا كبـيرا بين رؤيـتي ورؤيتـك.. فـأنت رأيت الإنسـان في الحلم، أما أنا فقد أرانيه الله في اليقظة.

قلت: ما أراد أخوك بإرسالك إلى هذه البقعة الخالية؟

قـال: أراد أن يعـاقبني بفعلـه هـذا.. فقـد أوحى إليـه بعضـهم بأنني لن أكف عما أنا فيه إلا بتلك العزلة التي تعيد لعقلي اتزانه.

قلت: فكيف خرجت من هذه البقعـة؟.. وكيـف اسـتطعت أن تقوم برحلتك هذه فيها، وقد ذكرت لي أنه ليس فيها إلا التراب؟

قال: لقـد قـدر اللـه أن تكـون رحلـتي هـذه في تلـك البقعـة الخالية التي ليس فيها إلا التراب.

قلت: لقد ملأتني بالعجب.. كيف ذلـك؟.. وليس في الخلاء إلا الهباء.

قال: ببصرنا الضعيف نرى الهباء..ولكنا ببصر الحقيقة نرى ما لا يمكن تصوره.

قلت: لقد زدتني عجبا.. فحدثني كيف كان ذلك؟

قــال: عنــدما انصــرفت الطــائرة انصــرفت إلى أذكــاري وأورادي.. وقد شعرت بأنس عظيم وأنا في تلك الحال، وفي تلــك البقعة..

وفجأة.. وبينما أنا كـذلك إذا بي أرى صـاحبك (معلم السـلام) كالشــمس في ضــحاها، وكــالزهور في جمالهــا، وكــالبراءة في ابتسامتها.. ما رأيته حتى صحت بأعلى صوتي أريد أن أسـمعه: يـا من يمتلئ بالحكمة والنور.. تعال أخبرك أخبـارا سـارة.. لقـد يسـر الله لي الطريـق إليـه.. لقـد عـرفت محمـدا .. وعـرفت أنـه هـو الشمس التي دلتني عليها جميع الحقائق.

رأيت البشر على وجهه.. لكنه أشاح بوجهه عني، وهو يقــول: ليس الشـأن أن تعـرف الملـوك، ولكن الشـأن أن ترفـع الحجب عنك، فتدخل عليهم.. وليس الشأن أن تدخل عليهم، ولكن الشـأن أن تستقر عندهم.. وليس الشأن أن تستقر عنـدهم، ولكن الشـأن أن تصلح لمنادمتهم.. وليس الشـأن أن تنـادمهم، ولكن الشـأن أن تنصهر فيهم، فلا تميز عنهم، ولا يميزون عنك[1].

قلت: كيف لا أمـيز عنهم، ولا يمـيزون عـني.. وأنـا لي كيـاني الــذي لا يمكن أن ينــدمج في أي كيــان.. ولي دولــتي الــتي لا تستعمرها أي دولة؟

قــال: ذلــك عــالم الـتراب.. أمــا عــالم الأرواح الــذي يمثــل حقيقتك، فمختلف تماما.

قلت: فحــدثني عنــه.. لقــد بعث اللــه في من الأشــواق إلى معرفة ذاتي ما بعثه قبل ذلك لمعرفته.

قال: أنت تعلم دوري.. أنا دليـل.. والـدليل يـدلك على طـرق الحقيقة.. ثم يدعك تسير إليها.

قلت: لقد تعودت منك أن تـدلني على أبـواب الحقيقـة.. فمـا

---

[1] () نريد بهذا الإشارة إلى المعنى الرمزي للفناء.. أمـا الاتحـاد بمفهومـه الحسـي، فلا يقبلـه العقل المجرد، فكيف يقبله العقل المسدد بأنوار الوحي.

أبواب الـ (أنا)؟

قال: ثمانية.. عددها كأعداد أبواب الجنة الثمانية[1].

قلت: فما هي؟.. وكيف أهتدي إليها؟

قال: افتح عينيك.. وسيقيض الله لك من يدلك عليها.

قلت: أنا لا أرى في هذه البقعة إلا الهباء.. فكيف تطلب مني أن أفتح عيني، وأنت تراهما منفتحتين؟

قال: افتح عيني بصيرتك.. وسترى ما لا يراه بصرك.

قلت: بصيرتي ترى عالم الحقائق، لا عالم الأجساد.

قال: قد يجعل الله للحقائق أجسادا تعرف بها وتميز.

قلت: إنها حينذاك تتلوث بلوث الأجسام..

قال: من خلق الطهارة في عالم الحقائق، فلن يعجز عن خلق الطهارة في عالم الأجساد.

قلت: هل تقصد أني سأرى ببصيرتي أجسادا تتحرك؟

قال: لو فتحت بصيرتك، فسترى الحقائق تتحرك.. فلله من المعلمين ما له من الجنود.. ﴿ وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ..(31)﴾ (المدثر)

قلت: لا أزال لا أرى إلا الهباء.. فما أفعل حتى تنفتح بصيرتي؟

قال: إذا حجبك بصرك عن بصيرتك.. فأغلق بصرك لتعيش عوالم بصيرتك.

لست أدري كيف بدا أن أغلق بصري..

1() من الأحاديث الدالة على ذلك قوله ﷺ: (من قال: أشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأن محمدا عبده ورسوله، وأن عيسى عبد الله وابن أمته وكلمته ألقاها إلى مريم وروح منه، وأن الجنة حق، وأن النار حق، أدخله الله من أي أبواب الجنة الثمانية شاء) [رواه البخاري ومسلم]

وقد امتلأت عجبا.. فما إن أغلقته حتى رأيت رياحا عجيبة تهب من اللامكان تمتلئ بروائح مقدسة لا يمكن للواصف أن يصفها.. ثم تنجلي الغمامة عن مدينة عجيبة ممتلئة بكل الألوان.. بل - فوق ذلك - رأيتني أتحرك فيها بكل نشاط، وكأن شبابي قد عاد إلي، بل كأني ولدت في تلك اللحظة.

***

في تلك البلاد العجيبة التقيت كثيرا من أهل الله في مواطن مختلفة.. وقد تعلمت منهم جميعا أركان (الأنا) وأوصافها وأخلاقها وصعودها وهبوطها.

قلت: فهل ستحدثني بما أفادوك؟

قال: من كلامهم ما تسمح العبارة بنقله.. ومنه ما لا تطيقه عقول الجماهير.. ولا ينبغي للعاقل أن يتكلم بما لا تطيقه عقول الجماهير.

قلت: فهو معارض للشريعة إذن؟

قال: لا.. ما كان لأهل الله أن يعارضوا الشريعة، وهم لا يستقون إلا من حياضها الطاهرة.

قلت: عهدي بالشريعة اليسر والوضوح.

قال: هي كذلك.. ولكن فيها من الحقائق ما لا تطيق الجماهير فهمه.

قلت: لم أستوعب سر ذلك.

قال: هل ترى الجماهير تفهم الحقائق التي تنطوي عليها نظرية النسبية؟

قلت: هي نظرية تحتاج عقلا رياضيا..

قال: ومن حقائق الإيمان ما يحتاج عقلا عرفانيا.

قلت: فهل ستسر لي منها ما أستفيد منه لخاصة نفسي؟

قال: لن ينفعك ذلك.. فهذه الحقائق لا تنال بالألسن.

قلت: فبم تنال إذن؟

قــال: بالســلوك.. وبالتــدريب.. عنــدما تتطهــر في البحــار المقدسة.. وعندما يصفو قلبك.. حينها سـيتنزل عليـك من حقـائق العرفان ما تعرف به حقيقة حقائق الإنسان.

قلت: فهلم حدثني بما أطيق، وبما يطيق قومي.

قال: سأحدثك عن أسرار الإنسان الثمانيـة الـتي فتحهـا اللـه علي في هذه الرحلة.. وحسبك بها.

أولا ـ الضعيف

قلت: فما السر الأول منها؟ .. ما السر الأول من أسرار الإنسان؟

قال: لقد عبر عنه القرآن الكريم، فقال :﴿ يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُخَفِّفَ عَنْكُمْ وَخُلِقَ الْإِنْسَانُ ضَعِيفاً ﴾ (النساء:28)

قلت: تريد ضعف الإنسان؟

قال: أجل.. فلا يمكن أن تعرف الإنسان، وأنت تجهل ضعفه وقصوره وهوانه.

قلت: ألا ترى أن هذه الحقيقة ستؤدي بنا إلى التقصير في شكر ربنا.. فكيف نشكر الله على ضعفنا؟.. ثم ألا ترى أنا سنتهم ربنا ونعارضه لأنه خلقنا ضعفاء؟

قال: لا.. لن يكمل الإنسان حتى يشعر بضعفه.. ولن تتجلى فيه الحقائق حتى يلبس لباس قصوره.. ولن يدخل رياض الملكوت حتى يقول بكل كيانه (حطة).. ألم يأمر الله بني إسرائيل بأن يقولوا ذلك؟

قلت: بلى.. وقد نص على ذلك قوله تعالى :﴿ وَإِذْ قُلْنَا ادْخُلُوا هَذِهِ الْقَرْيَةَ فَكُلُوا مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ رَغَداً وَادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّداً وَقُولُوا حِطَّةٌ نَغْفِرْ لَكُمْ خَطَايَاكُمْ وَسَنَزِيدُ الْمُحْسِنِينَ﴾ (البقرة:58)

قال: انظر.. كيف أن الله رتب على قولهم لهذه الكلمة مغفرته لخطاياهم ومزيد فضله عليهم.

قلت: فما سر ذلك؟

قال: ألا ترى التربة الهينة اللينة الضعيفة.. كيف تثمر من كل الثمرات.. بينما الصخور الصلبة القوية لا تنبت شيئا؟

قلت: بلى..

قال: فقد خلق الله الإنسان من تراب.. فمن بقي يشعر

بضعف التراب ولين التراب أثمر من كـل شـيء.. ومن تحـول إلى صخرة صلبة قوية فإنه لن ينبت في أرض نفسه شيء.

قلت: فهمت هذا المثال.. فحدثني كيف عرفت أسرار ضـعف الإنسان، وما تحمله من معان سامية.

قال: في تلك المدينة العجيبـة ــ الـتي فتح اللـه لي فيهـا من علوم الإنسان ما كان منغلقا ـ سرت على غير هــدى إلى أن رأيت قصرا مهيبا ممتلئـا بجميـع ألـوان الزخـارف.. فحـدثتني نفسـي أن أسير إليه.. لأتأمل ما أودع فيه صانعوه من صنوف الجمال..

ما اقتربت من بابه حتى انتهرني حجابه الكثيرون.. فـانتهرت، ولم أنبس ــ دفاعـا عن نفسـي ــ ببنت شـفة، فقـد كـان لهم من البطش والقوة ما لا أستطيع معهما أن أرفض لهم أي أمر..

بينما أنـا كـذلك إذا بي أرى صـاحب القصـر يصـل في سـيارة ضـخمة إلى قصـره، وفي فمـه سـيجار عملاق.. وقـد عجبت لمـا رأيتـه.. فقـد كـان لـه من قـوة الجسـد، ومهابـة المنظـر، وحسـن الخلقة ما يملأ العيون..

ولكنه ـ للأسف ـ لم يكن يملك مع هذا الجسد أي عقل..

بمجرد نزوله من السـيارة تقـدم إليـه رجـل يشـبهه في قـوة جسده، وقسمات ملامحه.. وكأنهمـا أخـوان توأمـان.. لكن الفـرق بينهما شديد.. فبينما كان العتو والطغيان يطغيان على الأول.. كان التواضع والأدب تمتلئ به أسارير الثاني..

لم يطل الحديث بينهما حـتى رأيت الأول تتسـلط عليـه أنفـة شديدة.. ثم يمد يده يريد أن يبطش بمحدثه.. لولا أنه حمى نفسـه عنه..

فلم يجـد الأول إلا أن يكفهـر بوجهـه، ثم يـدخل قصـره، وهـو ممتلئ كبرياء وغرورا.. بل كأن جميع الغرور والكبرياء ركبتا فيه.

امتلأت حزنـا على الثـاني.. واقـتربت منـه لأسـليه، فقـال: لا تسليني أنا.. فهو أحوج مني إلى التسلية.

قلت: مـا تقـول.. النـاس عـادة يسـلون المستضـعفين لا المستكبرين..؟

قال: ذلك لعدم علمهم بحقيقة الإنسان.. ولـو علمـوا حقيقتـه لم يجدوا إلا أن يسلوا المستكبرين.. ذلك أن كـل مسـتكبر يحمـل في حقيبة نفسه المملوءة بالغرور جميع السـموم الـتي لا دور لهـا إلا الإجهاز عليه.

قلت: كيف ذلك؟

قال: ألم يخلق الله الإنسان من تراب؟

قلت: بلى.. فقـد قـال تعـالى : وَمِنْ آيَاتِـهِ أَنْ خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ إِذَا أَنْتُمْ بَشَـرٌ تَنْتَشِـرُونَ (الـروم:20)، وقـال مخـبرا عن حـديث الرجـل المـؤمن مـع صـاحبه الممتلئ بـالغرور : قـالَ لَـهُ صَاحِبُهُ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ أَكَفَرْتَ بِالَّذِي خَلَقَكَ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ سَوَّاكَ رَجُلاً (الكهف: 37)

قال: انظر كيف يربي ربك عباده بالتراب الذي خلقوا منه.

قلت: ما تعني؟

قال: إن ربك يأمر عباده بأن يتذكروا التراب الذي نشأوا منـه لئلا يحتقروا التراب الذي يمشـون عليـه.. ولا يحتقـروا من يمشـي معهم عليه.

قلت: لقـد ذكـرت لي أن من شـأنه التكـبر على هـذا الـتراب يحتاج إلى أن يعزى في نفسه.

قال: أجل.. لأن التراب الذي تكـبر عليـه سيضـمه لا محالـة.. وسيعرف الطريقة التي يضمه بها.. ألم تسمع خبر قارون؟

قلت: بلى..

ابتسم، وقال: لقد سمي هذا الرجـل الـذي كنت أتحـدث إليـه لشقائه باسم قارون.. كان اسمه الذي سـماه بـه والـده هـارون.. فأبى إلا أن يحول من الهاء قافا.. ويحول نفسه عن تواضع هـارون

ولينه[1] إلى كبرياء قارون وعتوه.

قلت: أرى أن لك به معرفة..

قال: هو أخي.. هو ابن أبي وأمي.. سماني والدي موسى.. كما سماه هارون تفاؤلا بأسماء الأنبياء.. لكن أخي بغى علينا، وكان أول ما فعله بعد أن تحول إلى قارون أن قطع بيننا وبينه كل صلة.. بل قطع بينه وبين ربه كل صلة..

كان يصيح في الناس كل حين كما يصيح قارون : إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَى عِلْمٍ عِنْدِي (القصص:78)

وكان الناس قد انقسموا لما رأوه قسمين:

أما أولهما، فردد ما ردده الغافلون الذين انشغلوا بزينة قارون عن الضعف الخطير الذي كان يحمله.. لقد رددوا ــ شعروا أو لم يشعروا ـ : يَا لَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَا أُوتِيَ قَارُونُ إِنَّهُ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ (79) (القصص)

وأما الثاني، ففريق من المؤمنين خاطبوه قائلين : لَا تَفْرَحْ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْفَرِحِينَ (76) وَابْتَغِ فِيمَا آَتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآَخِرَةَ وَلَا تَنْسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا وَأَحْسِنْ كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ وَلَا تَبْغِ الْفَسَادَ فِي الْأَرْضِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ (77) (القصص)

لكنه أجابهم بنفس إجابة قارون.. والتي ظل يرددها كل حين : إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَى عِلْمٍ عِنْدِي (القصص:78)

قلت: لكأني أرى قصة قارون تتكرر أمامي.

قال: هي لا تتكرر أمامك فقط.. بل هي تتكرر في جميع الأرض.. تتكرر بين الأفراد والجماعات.. وبين الأمم والشعوب.. كلهم يفخر ويزهو ببعض ما أوتيه من قوة غافلا عن القنابل

[1] يشير إلى لين هارون عليه السلام قوله تعالى : وَلَقَدْ قَالَ لَهُمْ هَارُونُ مِنْ قَبْلُ يَا قَوْمِ إِنَّمَا فُتِنْتُمْ بِهِ وَإِنَّ رَبَّكُمُ الرَّحْمَنُ فَاتَّبِعُونِي وَأَطِيعُوا أَمْرِي (90) قَالُوا لَنْ نَبْرَحَ عَلَيْهِ عَاكِفِينَ حَتَّى يَرْجِعَ إِلَيْنَا مُوسَى (91) قَالَ يَا هَارُونُ مَا مَنَعَكَ إِذْ رَأَيْتَهُمْ ضَلُّوا (92) أَلَّا تَتَّبِعَنِ أَفَعَصَيْتَ أَمْرِي (93) قَالَ يَا ابْنَ أُمَّ لَا تَأْخُذْ بِلِحْيَتِي وَلَا بِرَأْسِي إِنِّي خَشِيتُ أَنْ تَقُولَ فَرَّقْتَ بَيْنَ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَلَمْ تَرْقُبْ قَوْلِي (94) (طه).. فمع شدة موسى عليه السلام عليه، ومع ذلك تحدث معه بذلك اللين.

الموقوتة التي قد تدمر حياته كل حين.

قلت: قنابل موقوتة!؟

قال: أجل.. لقد ركب الله في أجهزة الإنسان من الضعف ما يستأصله إن بغى وطغى..

قلت: فالإنسان يشعل ـ إذن ـ في عتوه فتيلة تفجيره؟

قال: أجل.. هو يشعلها ــ من حيث لا يشعر ــ كما يشعل سيجارته..

لست أدري كيف قلت له من حيث لا أشعر: أنا طالب أبحث عن الإنسان.. وأحسب أن لك معرفة به.. فدلني عليه.

قال: لن تعرف الإنسان حتى تعرف ضعفه.. والقنابل الموقوتة التي يحملها في ضعفه.

قلت: فما هي؟

قال: للإنسان من الضعف عدد ما فيه من الخلايا.. وفيه من النقص عدد ما في ربه من الكمالات..

قلت: فلا يمكن إحصاء ضعفه إذن.

قال: ما دمنا لا نحصي كمال ربنا.. فلا يمكننا بحال من الأحوال أن نحصي ضعف نفوسنا.. بل إن ضعف نفوسنا هو المرآة التي تتجلى فيها كمالات ربنا.

قلت: لقد عرفت هذا في رحلتي للبحث عن الله.. وأنا أريد أن أعرف الإنسان.

قال: سأحدثك عن سبعة أركان لضعف الإنسان.. لا يليق بعاقل أن يجهلها.

قلت: فمن أين تعلمتها؟

قال: لقد شاء الله لي أن أنتمي إلى مدرسة من مدارس المعرفة.. وقد تعلمت من أساتذتها من أركان ضعف الإنسان ما

حماني من الوقوع في متاهة القوة المزيفة.

قلت: فأخبرني عن ذلك.. فما أحلى أحـاديث المـدارس، ومـا أعذبها.

قال: سأبدأ حديثي من أوله..

ذات يوم، دخلت الحمـام.. ثم لبسـت ثوبـا جديـدا.. ثم ركبت حصانا لي.. وكان حصانا في غاية القوة..

وبينا أنا كذلك إذا بهواتـف غريبـة تـدعوني للاسـتعلاء، وتقـول لي: أنت شاب قوي وسيم تملك كل أنواع القوة..

أنت إنسان مكرم قد سخر لك كل شيء.. فهذا الحصـان مـع قوته مستعبد لك لا يتحرك إلا بإذنك، ولا يسكن إلا بإذنك..

أنت لك من شدة الذكاء وقـوة الـذاكرة وحـدة الملاحظـة مـا تفرق في غيرك..

أنت لك..

بقيت هذه الخواطر تـتردد على خـاطري إلى أن أصـابني من الزهو الكاذب ما لا يمكن تصوره..

ما أصابني ذلك الزهو حتى رمـاني الحصـان من على ظهـره، وكأني قد ثقلت عليه، وقد أصابني من الكسور بسبب رميه لي مـا لا أزال أحمد الله عليه كل حين.

قلت: أتحمد الله على ما أصابك من الكسور؟

قـال: أجـل.. لقـد كـانت كسـور جسـدي هي المـراهم الـتي عولجت بهـا جـراح قلـبي.. وجـراح قلـبي أخطـر بكثـير من جـراح جسـدي.. لقـد كـان أول مـا فعلتـه بعـد أن شـفاني اللـه أن رحت أعتذر إلى ذلـك الحصـان الـذي سـخره اللـه لي، وأقـول لـه بكـل تواضع: اعـذرني.. فلسـت إلا عبـدا مثلـك ابتليت بي وابتليت بـك.. أمرت بأن أقول عندما أركبك : سُبْحَانَ الَّذِي سَـخَّرَ لَنَـا هَـذَا وَمَـا كُنَّا لَـهُ مُقْـرِنِينَ (13) وَإِنَّا إِلَى رَبِّنَـا لَمُنْقَلِبُـونَ (14) (الزخـرف)،

لكني أبيت إلا أن أذلك لنفسي، وأستعبدك لنفسي..

أمرت أن أركبك عبدا، لكني أبيت أن أركبك إلا ربا.. فحاق بي ما حاق بجميع من ادعى ما ليس له.

في ذلك الموقف الذي وقفته قيض الله لي رجلا من الصالحين علمت بعد ذلك أن اسمه (أحمد الرفاعي)[1]، رآني في تلك الحال، فابتسم، وقال: ها قد وجدت تلميذا جديدا لمدرستي.

ابتسمت قائلا: لقد تخرجت منذ زمن طويل من الجامعة، ونلت أرفع الرتب فيها.. فكيف تريدني تلميذا في مدرستي.

قال: مدرستي لا تفرق بين الأمي والعالم.. الكل تجده فيها.. الكل فيها يدرس ويدرِّس.

قلت: ما اسم مدرستك؟

قال: اسمها (مدرسة الضعفاء)، وبعضهم يطلق عليها اسم (مدرسة الفقراء)، وآخرون يطلقون عليها (مدرسة العجزة)

قلت: أنا أبحث عن المدرسة التي تعلمني القوة، لا المدرسة التي تعلمني الضعف..

قال: من لم يعرف ضعفه لم يصل إلى قوته.. ومن لم يصل إلى عجزه لن يصل إلى توفيقه.

قلت: أراك تشير إلى معان خفية عني.

قال: ما دمت قد فقهت أن تعتذر للحصان، فسيفتح الله لك من فهمها ما فتحه على أوليائه.

قلت: لا بأس.. ما دمت قد ذكرت لي هذا.. فهلم سر بي إليها.

---

[1] () أشير به إلى الولي الصالح أحمد بن علي بن أحمد بن يحيى بن حازم الرفاعي، أبو العباس البطائحي (500 ـ 578 هـ)، وهو الفقيه الزاهد،، مؤَسّس الطريقة الرفاعية.. كان والده مغربي الموطن، وسكن البطائح (من أعمال واسط)، فولد بها بعد أن توفّي والده وهو حمل.. تفقّه أوّلاً على مذهب الشافعي، فقرأ (التنبيه)، ثم تصوّف وانضم إليه خلق من الفقراء، وأحسنوا فيه الاعتقاد، وهم الطائفة الرفاعية ويقال لهم الأَحمدية أو البطائحية.. وللرفاعي كلام جميل جُمع في رسالة سُمّيت (رحيق الكوثر)

قال: هذه المدرسة لا يمكنك أن تسير إليها بهذه الحال.

قلت: وكيف أسير إليها؟

قال: أنت الآن في حلة فاخرة.. وهذه المدرسة لا يذهب إليها إلا من تخلى عن جميع حظوظه.. وأول الحظوظ هذا الكفن الــذي تكفن به جسدك؟

قلت: لقد رفع عنا الحــرج في اللبـاس، وقـد ورد في القـرآن قوله تعالى : ﴿ يَا بَنِي آدَمَ قَدْ أَنْزَلْنَـا عَلَيْكُمْ لِبَاسًـا يُـوَارِي سَـوْآتِكُمْ وَرِيشًا وَلِبَاسُ التَّقْوَى ذَلِكَ خَيْرٌ ذَلِكَ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ (26)﴾ (الأعراف)

وقــد روي عن أبي مطــر؛ أنــه رأى عليــا أتى غلامًــا حــدثًا، فاشترى منه قميصًا بثلاثة دراهم، ولبسه إلى ما بين الرسغين إلى الكعبين، يقول ولبسه: (الحمـد للـه الـذي رزقـني من الريـاش مـا أتجمل به في الناس، وأواري به عورتي)، فقيل: هذا شـيء ترويـه عن نفسك أو عن نبي الله ﷺ؟ قال: هذا شيء سـمعته من رسـول الله ﷺ يقول عند الكسوة: (الحمد لله الذي رزقني من الرياش مــا أتجمل به في الناس، وأواري به عورتي)[1]

وحدث أبو الأحوص عن أبيه أنّه قال: أتيت النّبيّ ﷺ في ثــوب دون فقال: (ألك مال؟)، قـال: نعم من كـلّ المـال. قـال: (من أيّ المال؟)، قال: قد آتـاني اللّـه من الإبـل والغنم والخيـل والرّقيـق، قال: (فإذا آتاك اللّه مالا فلير أثر نعمة اللّه عليك وكرامته)[2]

قال: وروي في الحديث عن عبد اللّه بن شقيق أنّه قال: كان رجل من أصحاب النّبيّ ﷺ عاملا بمصر فأتاه رجل من أصحابه فإذا هـو شـعث الـرّأس مشـعانّ[3]، قـال: (مـالي أراك مشـعانّا وأنت أمـير؟) قـال: كـان نـبيّ اللّـه ﷺ ينهانـا عن الإرفـاه[4]، قلنـا: ومـا

---

[1] رواه أحمد.

[2] رواه أحمد وأبو داود والنسائي.

[3] مشعانّ الرأس: المنتفش الشعر الثائر الرأس.

الإرفاه؟ قال: (التّرجّل كلّ يوم)(1)

وعن أبي أمامة الحارثيّ أنه ذكر أصحاب رسول اللّه يوما عنده الدّنيا، فقال رسول اللّه : (ألا تسمعون، ألا تسمعون، إنّ البذاذة(2) من الإيمان، إنّ البذاذة من الإيمان، يعني التّقحّل)(3)

وعن سراقة بن مالك أنّ رسول اللّه قال له: (يا سراقة ألا أخبرك بأهل الجنّة وأهل النّار؟) قلت: بلى يا رسول اللّه. قال: (أمّا أهل النّار فكلّ جعظريّ جوّاظ مستكبر، وأمّا أهل الجنّة فالضّعفاء المغلوبون)(4)

ولاشك أنك تحفظ قوله : (ربّ أشعث(5) مدفوع بالأبواب لو أقسم على اللّه لأبرّه)(6)، وقوله: (تعس عبد الدّينار وعبد الدّرهم وعبد الخميصة إن أعطي رضي وإن لم يعط سخط، تعس وانتكس وإذا شيك فلا انتقش، طوبى لعبد آخذ بعنان فرسه في سبيل اللّه، أشعث رأسه مغبرّة قدماه، إن كان في الحراسة كان في الحراسة، وإن كان في السّاقة كان في السّاقة، إن استأذن لم يؤذن له وإن شفع لم يشفّع)(7)

قلت: أتضرب النصوص المقدسة بعضها ببعض؟

قال: حاش لله.. ولكن أولياء الله الذين جعلهم الله أدلاء عليه قد اتفقوا على أن على المريد في أول سلوكه أن يتلخص

4() رواه النسائي.

1() الإرفاه: كثرة التدهن والتنعم.

2() البذاذة: رثاثة الهيئة وترك الزينة والمراد التواضع في اللباس وترك التبجح به.

3() رواه أبو داود وابن ماجة.

4() رواه البخاري.

5() أشعث: الأشعث الملبد الشعر المغبر.

6() رواه مسلم.

7() رواه البخاري.

من كل ما يشعره بأنانيته وقوته وغناه وعلمه.. فلا يمكن أن يصل إلى الله إلا من تحقق بقصوره..

وقد روي في هذا أن شاهداً عظيم القدر من أعيان أهل بسطام كان لا يفارق مجلس أبي يزيد، فقال له يوماً: أنا منذ ثلاثين سنة أصوم الدهر لا أفطر وأقوم الليل لا أنام ولا أجد في قلبي من هذا العلم الذي تذكر شيئاً وأنا أصدق به وأحبه، فقال أبو يزيد: ولو صمت ثلثمائة سنة وقمت ليلها ما وجدت من هذا ذرة! قال: ولم؟ قال: لأنك محجوب بنفسك، قال: فلهذا دواء؟ قال: نعم، قال: قل لي حتى أعمله، قال: لا تقبله، قال: فاذكره لي حتى أعمل، قال: اذهب الساعة إلى المزين فاحلق رأسك ولحيتك وانزع هذا اللباس واتزر بعباءة وعلق في عنقك مخلاة مملوءة جوزاً، واجمع الصبيان حولك وقل: كل من صفعني صفعة أعطيته جوزة، وادخل السوق وطف الأسواق كلها عند الشهود وعند من يعرفك وأنت على ذلك، فقال الرجل: سبحان الله! تقول لي مثل هذا! فقال أبو زيد: قولك (سبحان الله) شرك، قال: وكيف؟ قال: لأنك عظمتك نفسك فسبحتها وما سبحت ربك! فقال: هذا لا أفعله ولكن دلني على غيره! فقال: ابتدئ بهذا قبل كل شيء. فقال: لا أطيقه، قال: قد قلت لك إنك لا تقبل؟

قلت: ألا ترى أن هذه الوصفة مخالفة للشرع؟

قال: لا.. هذا دواء من الأدوية التي يعالج بها المربون النفوس الممتلئة بالكبر والغرور.. وقد أخبر ﷺ أن الله (ما أنزل داء إلا أنزل له شفاء أو دواء علمه من علمه وجهله من جهله)[1]

قلت: ذاك في طب الأجسام.

قال: أترى أن الله الرحيم الرحمن أنزل لكل داء من أدواء الأجساد ما يعالجه، ولم ينزل مثله ما يداوي أدواء الأرواح؟

قلت: الجسد مختلف عن النفس.

---

[1] رواه أحمد.

قال: لقد عبر أولياء الله من الجسد إلى النفس، فذكروا أن(2) مثال النفس في علاجها بمحو الرذائل والأخلاق الرديئة عنها وجلب الفضائل والأخلاق الجميلة عليها، مثال البدن في علاجه بمحو العلل عنه وكسب الصحة له وجلبها إليه.

وكما أن الغالب على أصل المزاج الاعتدال، وإنما تعتري المعدة الضرر بعوارض الأغذية والأهوية والأحوال، فكذلك كل مولود يولد معتدلاً صحيح الفطرة، وإنما أبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسناه - أي بالاعتياد والتعليم تكسب الرذائل –

وكما أن البدن في الابتداء لا يخلق كاملاً وإنما يكمل ويقوى بالنشو والتربية بالغذاء؛ فكذلك النفس تخلق ناقصة قابلة للكمال؛ وإنما تكمل بالتربية وتهذيب الأخلاق والتغذية بالعلم.

وكما أن البدن إن كان صحيحاً فشأن الطبيب تمهيد القانون الحافظ للصحة وإن كان مريضاً فشأنه جلب الصحة إليه؛ فكذلك النفس منك إن كانت زكية طاهرة مهذبة فينبغي أن تسعى لحفظها وجلب مزيد قوة إليها واكتساب زيادة صفائها، وإن كانت عديمة الكمال والصفاء فينبغي أن تسعى لجلب ذلك عليها.

وكما أن العلة المغيرة لاعتدال البدن الموجبة للمرض لا تعالج إلا بضدها فإن كانت من حرارة فبالبرودة، وإن كانت من برودة فبالحرارة، فكذلك الرذيلة التي هي مرض القلب وعلاجها بضدها. فيعالج مرض الجهل بالتعلم، ومرض البخل بالتسخي، ومرض الكبر بالتواضع، ومرض الشره بالكف عن المشتهى تكلفاً.

وكما أنه لا بد من الاحتمال لمرارة الدواء وشدة الصبر عن المشتهيات لعلاج الأبدان المريضة فكذلك لا بد من احتمال مرارة المجاهدة والصبر لمداواة مرض القلب بل أولى. فإن مرض البدن يخلص منه بالموت ومرض القلب مرض يدوم بعد الموت أبد الآباد.

وكما أن كل مبرد لا يصلح لعلة سببها الحرارة إلا إذا كانت

2() انظر: (كتاب رياضة النفس وتهذيب الأخلاق ومعالجة أمراض القلب)، وهو الكتاب الثاني من (ربع المهلكات)، من (إحياء علوم الدين)

على حد مخصوص فكذلك النقائض التي تعالج بها الأخلاق لا بد لها من معيار.

وكما أن معيار الدواء مأخوذ من عيار العلة حتى إن الطبيب لا يعالج ما لم يعرف أن العلة من حرارة أو برودة، فإن كانت من حرارة فيعرف درجتها أهي ضعيفة أم قوية؟ فإذا عرف ذلك التفت إلى أحوال البدن وأحوال الزمان وصناعة المريض وسنه وسائر أحواله ثم يعالج بحسبها، فكذلك طبيب النفوس لا يهجم عليهم بالرياضة والتكاليف في فن مخصوص وفي طريق مخصوص ما لم يعرف أخلاقهم وأمراضهم.

وكما أن طبيب الأجساد لو عالج جميع المرضى بعلاج واحد قتل أكثرهم فكذلك طبيب النفوس لو أشار على المريدين بنمط واحد من الرياضة أهلكهم وأمات قلوبهم.. بل ينبغي أن ينظر في مرض المريد وفي حاله وسنه ومزاجه وما تحتمله بنيته من الرياضة ويبني على ذلك رياضته.

قلت: إن ما ذكرته يجعل مما تقوله علما قائما بذاته.

قال: بل علوما قائمة بذاتها.

قلت: فأين أتعلم علمها؟

قال: في المدرسة التي دعوتك إلى الانتساب إليها.

قلت: فهلم سر بي إليها.. فما أحوجني إلى التخلص من درن نفسي.

1 ـ الجهل

سرت مع الرفاعي إلى أول قسم من المدرسة، وكان اسمه (قسم الجهل)، فسألته متعجبا: عادة المدارس أنها تعلمنا العلم، لا الجهل.

قال: لا يمكن أن يتعلم العلم من لم يعلم أنه جاهل.. فالعلم بالجهل هو مقدمة العلم.. وقد ذكر الله أن الأمم ما حجبت عن رسلها إلا بما توهمته من علمها.. لقد ذكر الله ذلك، فقال: فَلَمَّا

جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَرِحُوا بِمَا عِنْدَهُمْ مِنَ الْعِلْمِ وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ(83) (غافر)

قلت: أنت تذكرني بأخي قارون.. فقد كان عالما بالكيمياء وأسرارها، وقد أتيح له بسببها أن يكتشف مركبات استطاع أن يكتسب من خلال تصنيعها أموالا ضخمة.. وقد جعله غروره يصيح في كل حين :.. إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَى عِلْمٍ عِنْدِي..(78) (القصص)

قال: ويله : أَوَلَمْ يَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ قَدْ أَهْلَكَ مِنْ قَبْلِهِ مِنَ الْقُرُونِ مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً وَأَكْثَرُ جَمْعًا وَلَا يُسْأَلُ عَنْ ذُنُوبِهِمُ الْمُجْرِمُونَ (78) (القصص)

قلت: وعيت أهمية هذا القسم وضرورته.. فمن شيخه؟

قال: شيخه علم من أعلام هذه الأمة الكبار، وقد قدم من بخارى، واسمه [محمد بهاء الدين النبقشندي[1]] على اسم جده الأكبر مؤسس الطريقة النقشبندية.

دخلنا إلى القسم، فرأينا الراغب يخاطب تلاميذه المحيطين به بقوله: والآن.. سلوني ما بدا لكم.

قال بعض تلاميذه: لقد وعينا جميع ما ذكرت.. ونحن نسألك عن أصناف الناس في علاقة علمهم بالعمل.

قال: الناس في علاقة علمهم بعملهم على أربعة أصناف[2] :

الصنف الأول: من له العلم بما يجب أن يفعل، وله مع ذلك قوة العزيمة على العمل به، وهم الموصوفون بقوله تعالى في غير موضع : الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ..

والصنف الثاني من عدمهما جميعاً وهم الموصوفون بقول

1() أشير به إلى محمد بهاء الدين النقشبندي الأويسي البخاري شيخ الطريقه النقشبندية، والنقشبند ـ من حيث المعنى ـ تنقسم الى قسمين ، القسم الأول منها هو (النقش) وهو فعل يحمل نفس المعنى العربي، والقسم الثاني هو (البند) والبند باللغة الكردية الفارسية والتركية هي الحبل أو الوتر ، لذا يقصد بالنقشبند : بنقش إسم الجلالة (الله) على حبال وأوتار القلب وشغافه .

2() انظر: تفصيل النشأتين.

الله تعالى : إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِنْدَ اللَّهِ الصُّمُّ الْبُكْمُ الَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ (22) وَلَوْ عَلِمَ اللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَأَسْمَعَهُمْ وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّوْا وَهُمْ مُعْرِضُونَ (23) (الأنفال) وقوله : وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لَا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لَا يَسْمَعُونَ بِهَا أُولَئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُولَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ (179) (الأعراف)، وقوله : أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ إِنْ هُمْ إِلَّا كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا (44) (الفرقان)

والصنف الثالث: من له العلم وليس له قوة العزيمة على فعله، فهو في مرتبة الجاهل بل هو شرٌّ منه، كما روي أن حكيماً سئل: متى يكون العلم شرّاً من الجهل فقال: (أن لا يعمل به)، وروي عن أمير المؤمنين عليّ أنه قال: (من كانت ضلالته بعد التصديق بالحق فهو بعيد من المغفرة)

والصنف الرابع: من ليس له العلم لكن له قوة العزيمة، فهذا متى انقاد لأهل العلم وعمل بقولهم أنجح في فعله وصار من الموصوفين بقوله تعالى : وَمَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَئِكَ رَفِيقًا (69) (النساء)

قال آخر: فما مراتب الناس في الجهل؟

قال النقشبندي: الناس في الجهل على أربعة منازل:

الأوّل: من لا يعتقد اعتقادا لا صالحا ولا طالحا، فأمره في إرشاده سهل إذا كان له طبع سليم، فإنّه كلوح أبيض لم يشغله نقش، وكأرض بيضاء لم يلق فيها بذر، ويقال له باعتبار العلم النّظريّ: غفل، وباعتبار العلم العمليّ: غمر، ويقال له: سليم الصّدر.

والثّانيّ: معتقد لرأي فاسد، لكنّه لم ينشأ عليه، ولم يتربّ به، واستنزاله عنه سهل، وإن كان أصعب من الأوّل، فإنّه كلوح يحتاج فيه إلى محو وكتابة، وكأرض يحتاج فيها إلى تنظيف، ويقال له: غاو وضالّ.

والثّالث: معتقد لرأي فاسد قد ران على قلبه، وتراءت له صحّته، فركن إليه لجهله وضعف نحيزته، ممّن وصفهم اللّه تعالى بقوله : إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِنْدَ اللَّهِ الصُّمُّ الْبُكْمُ الَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ (22) وَلَوْ عَلِمَ اللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَأَسْمَعَهُمْ وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّوْا وَهُمْ مُعْرِضُونَ (23) (الأنفال) فهذا ذو داء أعيا الأطبّاء، فما كلّ داء له دواء، فلا سبيل إلى تنبّهه وتهذيبه.. كما قيل لحكيم يعظ شيخا جاهلا: ما تصنع؟ فقال: أغسل مسحا لعلّه يبيضّ.

والرّابع: معتقد اعتقادا فاسدا عرف فساده، أو تمكّن من معرفته، لكنّه اكتسب دنيّة لرأسه، وكرسيّا لرئاسته، فهو يحامي عليها، فيجادل بالباطل ليدحض به الحقّ، ويذمّ أهل العلم ليجرّ إلى نفسه الخلق، ويقال له: فاسق ومنافق، وهو من الموصوفين بالاستكبار والتّكبّر في مثل قوله تعالى : وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا إِلَى مَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَإِلَى الرَّسُولِ رَأَيْتَ الْمُنَافِقِينَ يَصُدُّونَ عَنْكَ صُدُودًا (61) (النساء)، وقوله : وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا يَسْتَغْفِرْ لَكُمْ رَسُولُ اللَّهِ لَوَّوْا رُءُوسَهُمْ وَرَأَيْتَهُمْ يَصُدُّونَ وَهُمْ مُسْتَكْبِرُونَ (5) (المنافقون) فنبّه تعالى أنّهم ينكرون ما يقولونه لمعرفتهم ببطلانه، لكن يستكبرون عن التزام الحقّ وذلك حال إبليس فيما دعي إليه من السّجود لآدم عليه السلام [1].

قال آخر: فما أصناف الذين جمعوا بين الجهل والظّلم.. أولئك الّذين جمعوا بين الجهل بالحقيقة والظّلم باتّباع أهوائهم؟

قال النقشبندي: قسمان[2]:

أولهما: أهل الجهل المركّب.. وأهل الجهل والضّلال.. أولئك الذين يحسبون أنّهم على علم وهدى.. أولئك الّذين يجهلون الحقّ ويعادونه ويعادون أهله، وينصرون الباطل ويوالون أهله.. أولئك: الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا (104) (الكهف).. أولئك الذين :.. يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ عَلَى شَيْءٍ أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ الْكَاذِبُونَ (18) (المجادلة)، فهم لاعتقادهم

1() الذريعة إلى مكارم الشريعة (131، 132.

2() انظر: اجتماع الجيوش الاسلامية على غزو المعطلة والجهمية (15- 17) بتصرف.

الشّيء على خلاف ما هـو عليـه بمنزلـة رائي السّـراب الّـذي :﴿.. يَحْسَبُهُ الظَّمْآنُ مَاءً حَتَّى إِذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا..(39)﴾ (النور)

وهكذا هؤلاء.. أعمالهم وعلومهم بمنزلة السّراب الّذي يكـون صاحبه أحوج ما هو إليه، ولم يقتصر على مجرّد الخيبـة والحرمـان كما هو الحال فيمن أمّ السّـراب فلم يجـده مـاء، بـل انضـاف إلى ذلـك أنّـه وجـد عنـده أحكم الحـاكمين، وأعـدل العـادلين سـبحانه وتعالى، فحسب له ما عنده من العلم والعمل فوفّاه إيّـاه بمثاقيـل الذّرّ، وقدم إلى ما عمل من عمل يرجو نفعه، فجعله هباء منثــورا؛ إذ لم يكن خالصا لوجهه، وصارت تلك الشّبهات الباطلة الّـتي كـان يظنّها علوما نافعة كذلك هباءا منثورا.

وثانيهما: أصحاب الظّلمات، وهم المنغمسون في الجهل، قــد أحاط بهم من كلّ وجه، فهم بمنزلة الأنعـام، بـل هم أضـلّ سـبيلا، فهؤلاء أعمالهم الّتي عملوها على غير بصيرة، بـل بمجـرّد التّقليـد واتّباع الآباء من غـير نـور من اللّـه تعـالى، كظلمـات عديـدة وهي ظلمة الجهل، وظلمة الكفر، وظلمة الظّلم واتّباع الهـوى، وظلمـة الشّكّ والرّيب، وظلمة الإعراض عن الحقّ الّـذي بعث اللّـه تعـالى به رسله- صلوات اللّه وسـلامه عليهم-، والنّـور الّـذي أنزلـه معهم ليخرجوا به النّاس من الظّلمات إلى النّور.

فإنّ المعرض عمّا بعث اللّـه تعـالى بـه محمّـدا ﷺ من الهـدى ودين الحقّ يتقلّب في خمس ظلمات: قوله ظلمة، وعمله ظلمــة، ومدخلـه ظلمـة، ومخرجـه ظلمـة، ومصـيره إلى الظّلمـة، وقلبـه مظلم، ووجهـه مظلم، وكلامــه مظلم، وحالــه مظلم؛ وإذا قــابلت بصـيرته الخفّاشـيّة مـا بعث اللّـه بـه محمّـدا ﷺ من النّـور جـدّ في الهرب منه، وكاد نـوره يخطـف بصـره، فهـرب إلى ظلمـات الآراء الّتي هي به أنسب وأولى كما قيل:

خفافيش أعشاها ووافقها قطع من

قال آخر: فقد آل الأمر إلى أن الجهل المركب أو البسيط هو منبع الرذائل ومرتعها.

قال النقشبندي: أجل.. ولهذا أسسـنا هـذا القسـم لنبحث في

أنواع الجهل، وكيفية الخروج منه.. فلا يمكن أن يعـرف نفسـه من لم يعرف جهله.

قال الرجل[1]: لقد ذكـر بعض الفلاسـفة والعلمـاء أنّ (العلم يسـاوي الأخلاق)، ونقلـوا عن سـقراط الحكيم أنّ العلم والحكمـة والمعرفـة هي المنبـع الرّئيسـي للأخلاق.. وأنّ الرّذائـل الأخلاقيّـة سببها الجهل.

قال النقشبندي: هذا الكلام ينبغي فهمه على ضـوء مـا سـبق أن ذكرتـه لكم من أصـناف النـاس في علاقـة علمهم بعملهم.. فهناك من يعملون بعلمهم ويعيشونه، وهناك من يعزلونه ويغفلـون عنه أو يتغافلون.

أمـا دور العلم في التربيـة، فلا شـك في ضـرورته.. فلا يمكن أن يؤسس بنيان الأخلاق من غير لبنات العلم النافع.

لقد أشار القرآن الكريم إلى ذلك في آيات كثـيرة منهـا قولـه تعـالى في بيـان الهـدف من البعثـة: ﴿ هُـوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِـهِ وَيُـزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَـابَ وَالْحِكْمَـةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ (2)﴾ (الجمعة)

و بناءً على ذلك، فإنّ النّجاة من الضّـلال المـبين، و الطّهـارة من الرّذيلة والذنوب تأتي بعد تلاوة الكتاب المجيد، وتعليم الكتـاب والحكمة، وهو دليلٌ واضحٌ على وجود العلاقة بين الاثنين.

وقد ذكـر القـرآن الكـريم للدلالـة على هـذه الحقيقـة نمـاذج كثيرة.. يكفيكم عشرة منها..

قالوا: فما أولها؟

قـال: **أولها**.. أن الجهـل مصـدرٌ للفسـاد و الإنحـراف.. قـال تعالى يقرر ذلك :﴿ أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ شَهْوَةً مِنْ دُونِ النِّسَاءِ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ (55)﴾ (النمـل)، فقـرن هنـا الجهـل، بـالإنحراف الجنسي والفساد الأخلاقي.

---

[1] () انظر: الأخلاق في القرآن لناصر مكارم الشيرازي.

قالوا: فما الثاني؟

قال: **ثانيها**.. أن الجهل سبب للانفلات و التّحلل الجنسي.. قال تعالى يقرر ذلك مخبرا عن دعاء يوسف ﷺ : رَبِّ السِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُنْ مِنَ الْجَاهِلِينَ (33) (يوسف)

قالوا: فما الثالث؟

قال: **ثالثها**.. أن الجهل أحد عوامل الحسد.. قال تعالى يقرر ذلك مخبرا عن حديث يوسف ﷺ مع إخوته: قَالَ هَلْ عَلِمْتُمْ مَا فَعَلْتُمْ بِيُوسُفَ وَأَخِيهِ إِذْ أَنْتُمْ جَاهِلُونَ (89) (يوسف)، أي أنّ جهلكم هو السبب في وقوعكم في أسر الحسد، الذي دفعكم إلى تعذيبه، و السّعي لقتله، و إلقائه في البئر.

قالوا: فما الرابع؟

قال: **رابعها**.. أن الجهل هو مصدر التّعصب و العناد و اللؤم..فقد ذكر الله تعالى أنّ تعصّب مشركي العرب في الجاهلية، كان بسبب جهلهم و ضلالهم، قال تعالى : إِذْ جَعَلَ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْحَمِيَّةَ حَمِيَّةَ الْجَاهِلِيَّةِ..(26) (الفتح)

قالوا: فما الخامس؟

قال: **خامسها**.. أن الجهل هو السبب الأكبر في تلك الذرائع التي كان يواجه بها الأقوام أنبياءهم.. قال تعالى يقرر ذلك : وَقَالَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ لَوْلَا يُكَلِّمُنَا اللَّهُ أَوْ تَأْتِينَا آيَةٌ كَذَلِكَ قَالَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ مِثْلَ قَوْلِهِمْ تَشَابَهَتْ قُلُوبُهُمْ قَدْ بَيَّنَّا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ (118) (البقرة)

قالوا: فما السادس؟

قال: **سادسها**.. أن الجهل هو المنبع الذي ينشأ عنه سوء الظنّ بالله.. قال تعالى يقرر ذلك: ثُمَّ أَنْزَلَ عَلَيْكُمْ مِنْ بَعْدِ الْغَمِّ أَمَنَةً نُعَاسًا يَغْشَى طَائِفَةً مِنْكُمْ وَطَائِفَةٌ قَدْ أَهَمَّتْهُمْ أَنْفُسُهُمْ يَظُنُّونَ بِاللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ ظَنَّ الْجَاهِلِيَّةِ.. (154) (آل عمران)

قالوا: فما السابع؟

قال: **سابعها**.. أن الجهل هـو المنبـع الـذي ينشـأ عنـه سـوء الأدب.. قال تعالى عند ذكر الّذين لا يحترمون مقـام النبـوة : إِنَّ الَّذِينَ يُنَادُونَـــكَ مِنْ وَرَاءِ الْحُجُـــرَاتِ أَكْثَـــرُهُمْ لَا يَعْقِلُـــونَ (4) (الحجـرات)، ففي قولـه تعـالى : أَكْثَـرُهُمْ لَا يَعْقِلُـونَ إشـارة لطيفة للسّبب الكامن وراء سوء تعاملهم، و قلّة أدبهم وجسارتهم.

قالوا: فما الثامن؟

قال: **ثامنها**.. أن اللـه تعـالى وصـف أصـحاب النّـار بـأنهم لا يفقهـون.. وأصـحاب النّـار هم أصـحاب الرذائـل، وهم الملوّثـون بألوان القبائح.. وفي ذلك إشارة إلى العلاقة بين الجهـل وارتكـاب القبائح، قال تعـالى : وَلَقَـدْ ذَرَأْنَـا لِجَهَنَّمَ كَثِـيرًا مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لَا يَفْقَهُـونَ بِهَـا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَا يُبْصِـرُونَ بِهَـا وَلَهُمْ آذَانٌ لَا يَسْـمَعُونَ بِهَـا أُولَئِكَ كَالْأَنْعَـامِ بَـلْ هُمْ أَضَـلُّ أُولَئِكَ هُمُ الْغَـافِلُونَ (179) (الأعراف)

قالوا: فما التاسع؟

قـال: **تاسعها**.. أن الجهـل هـو منبـع الضـعف الأكـبر.. قـال تعالى يقرر ذلك : يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ حَـرِّضِ الْمُـؤْمِنِينَ عَلَى الْقِتَـالِ إِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ عِشْـرُونَ صَـابِرُونَ يَغْلِبُـوا مِـائَتَيْنِ وَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ مِائَةٌ يَغْلِبُوا أَلْفًا مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَفْقَهُونَ (65) (الأنفال)

قالوا: فما العاشر؟

قال: **عاشرها**.. أن الجهل هـو منبـع النفـاق والفرقـة.. قـال تعـالى عنـد ذكـر يهـود (بـني النضـير)، وعجـزهم عن مُقاومـة المسـلمين، لأنّهم كـانوا مُختلفين و مُتفـرقين، رغم أنّ ظـاهرهم الوحدة والاتفاق : لَا يُقَاتِلُونَكُمْ جَمِيعًا إِلَّا فِي قُرًى مُحَصَّـنَةٍ أَوْ مِنْ وَرَاءِ جُدُرٍ بَأْسُهُمْ بَيْنَهُمْ شَدِيدٌ تَحْسَبُهُمْ جَمِيعًا وَقُلُـوبُهُمْ شَـتَّى ذَلِـكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَعْقِلُونَ (14) (الحشر)

قام رجل من الجالسين: صدقت.. وقد أخبر رسول الله أن فساد أمـر هـذه الأمـة يكـون على أيـدي الجهلـة السـفهاء خفيفي

العقول.. ففي الحديث عن جابر أنّ النّبيّ قال لكعب بن عجرة: ((أعاذك اللّه من إمارة السّفهاء). قال: وما إمارة السّفهاء؟ قال: (أمراء يكونون بعدي لا يقتدون بهـديي، ولا يسـتنّون بسـنّتي، فمن صدّقهم بكذبهم، وأعانهم على ظلمهم، فأولئك ليسوا منّي، ولست منهم ولا يــردون عليّ حوضــي، ومن لم يصــدّقهم بكــذبهم، ولم يعنهم على ظلمهم، فأولئــك منّي، وأنــا منهم، وســيردون عليّ حوضي)[1]

وعن عبس الغفــاريّ أنّــه لمّــا رأى النّــاس يخرجــون في الطّاعون قال: يا طاعون خذني (ثلاثا)، فقـال لـه رجـل: لم تقـول هذا؟: ألم يقل رسول اللّـه : (لا يتمنّ أحـدكم المـوت؛ فإنّـه عنـد انقطاع عمله. ولا يردّ فيستعتب) فقال: إنّي سمعت رسول اللّـه يقول: (بادروا بالموت ستّا: إمرة السّـفهاء، وكـثرة الشّـرط، وبيـع الحكم، واستخفافا بالدّم، وقطيعة الرّحم، ونشـوا يتّخـذون القـرآن مزامير، يقدّمونه يغنّيهم وإن كان أقلّ منهم فقها)[2]

وفي حـديث آخـر، قـال : (إنّ هلاك أمّـتي على يـدي غلمـة سفهاء من قريش)[3]

وقال: (إنّها ستأتي على النّـاس سـنون خدّاعـة، يصـدّق فيهـا الكاذب، ويكذّب فيها الصّادق، ويـؤتمن فيهـا الخـائن، ويخـوّن فيهـا الأمين، وينطق فيها الرّويبضة) قيل: وما الرّويبضة؟. قال: (السّفيه يتكلّم في أمر العامّة)[4]

وقال: (ضـاف ضـيف رجلا من بـني إسـرائيل وفي داره كلبـة مجحّ[5]، فقـالت الكلبـة: واللّـه لا أنبح ضـيف أهلي. قـال: فعـوى

---

[1] () رواه أحمـد واللفـظ لـه والـبزار ورواتهمـا محتج بهم في الصـحيح. ورواه ابن حبـان في صحيحه بنحوه. ورواه الترمـذي والنسـائي وقـال الترمـذي في أحـد أسـانيده: حـديث غـريب صحيح.

[2] () رواه أحمد وأبو عبيد في فضائل القرآن وابن أبي الدنيا والطبراني والحاكم وغيرهم.

[3] () رواه أحمد والحاكم وقال: صحيح الإسناد ولم يخرجاه.

[4] () رواه ابن ماجة وأحمد والحاكم وقال: صحيح الإسناد،.

[5] () مجحّ: أي حامل وقرب وقت ولادتها.

جراؤها في بطنها قال: قيل: ما هذا؟ قال: فأوحى اللّه- عزّ وجلّ- إلى رجل منهم: هذا مثل أمّة تكون من بعدكم يقهر سفهاؤها أحلامها)(1)

وقال: (يخرج في آخر الزّمان أقوام أحداث الأسنان، سفهاء الأحلام، يقولون من خير قول البريّة، لا يجاوز إيمانهم حناجرهم، فأينما لقيتموهم فاقتلوهم، فإنّ قتلهم أجر لمن قتلهم يوم القيامة)(2)

***

بقيت مدة في قسم الجهل.. أتعلم من النقشبندي وتلاميذه منابع الجهل وثماره ومحاله إلى أن أيقنت بجهلي وقصور علمي.. وأيقنت أن كل ما أوتيته من علم لا يستطيع أن يصد جحافل الجيوش التي ينشرها جهلي..

وقد ملأني هذا الشعور بالحياء.. فصرت أستحيي من ذكر شهاداتي التي كانت تملؤني فخرا وزهوا.

وقد أيقنت فوق ذلك أن العلم الذي تعلمته والذي لم يتحول إلى عمل لا يختلف عن جهلي بما لم أعلمه.. بل إن الأمر أخطر من ذلك.. وقد وعظنا - مرة - النقشبندي في هذا، فقال(3): لا تكونوا من الأعمال مفلسين، ولا من الأحوال خالين، وتيقّنوا أن العلم المجرد لا يأخذ باليد.. مثال ذلك ما لو كان على رجل في برية عشرة أسياف هندية مع أسلحة أخرى، وكان الرجل شجاعا وأهل حرب، فحمل عليه أسد عظيم مهيب، فما ظنّكم؟ هل تدفع الأسلحة شره عنه بلا استعمالها وضربها؟!

ثم أجاب قائلا: أنتم تعلمون أنها لن تدفع عنه إلا بالتحريك والضرب.. وهكذا لو قرأ رجل مائة ألف مسألة علمية وتعلمها، ولم يعمل بها: لا تفيده إلا بالعمل.

1() رواه أحمد والبزار والطبراني.

2() رواه البخاري ومسلم.

3() هذا النص من رسالة أيها الولد للغزالي.

بعد أن تعلمت هذه العلوم، وغيرها طلب مني النقشـبندي أن أسير إلى القسم الثاني..

2 ـ الجدل

سرت إلى القسـم الثـاني، وكـان اسـم شـيخه وأسـتاذه علم كبير من أعلام الإسلام اسمه أبو الحسن الشاذلي[1].

كان أول مجلس جلسته معه ومـع تلاميـذه في تفسـير قولـه تعـــالى : فَلَا رَفَثَ وَلَا فُسُـــوقَ وَلَا جِـــدَالَ فِي الْحَجِّ..(197) (البقرة)

ومما لا أزال أذكره من ذلك الدرس قوله[2]: الحكمة في أن الله تعالى ذكر هذه الألفاظ الثلاثة لا أزيـد ولا أنقص، وهـو قولـه : فَلاَ رَفَثَ وَلاَ فُسُـوقَ وَلاَ جِـدَالَ هي أنـه قـد ثبت في العلـوم العقلية أن الإنسان فيه أربعة قـوى: قـوة شـهوانية بهيميـة، وقـوة غضبية سبعية، وقوة وهمية شيطانية، وقوة عقلية ملكية.

وعلم كذلك بالضرورة أن المقصود من جميـع العبـادات قهـر القوى الثلاثة: الشهوانية، والغضبية، والوهمية.

ففي قوله : فَلاَ رَفَثَ إشارة إلى قهر الشهوانية..

وفي قوله : وَلاَ فُسُـوقَ إشـارة إلى قهـر القـوة الغضـبية التي توجب التمرد والغضب.

وفي قولـه : وَلاَ جِـدَالَ إشـارة إلى القـوة الوهميـة الـتي تحمـل الإنسـان على الجـدال في ذات اللـه وأفعالـه، وأحكامـه، وأسمائه، وهي الباعثـة للإنسـان على منازعـة النـاس وممـاراتهم، والمخاصمة معهم في كل شيء، وقد أشـار اللـه تعـالى إلى هـذه

---

[1] أشير به إلى الشيخ أبي الحسن علي بن عبد الله بن عبـد الجبـار الشـاذلي المغـربي، الزاهد، الصوفي الذي تنتسب إليه الطريقة الشاذلية، سكن الإسكندرية، ولـد 571هــ بقبيلـة الأخماس الغمارية، تفقه وتصوف في تونس، وسكن مدينة (شـاذلة) التونسـية ونسـب إليهـا، وتوفي الشاذلي بوادي حميثرة بصحراء عيذاب متوجهًـا إلى بيت اللـه الحـرام في أوائـل ذي القعدة 656هـ..

[2] انظر: التفسير الكبير للرازي.

القوة في قوله:﴿.. وَكَانَ الْإِنْسَانُ أَكْثَرَ شَيْءٍ جَدَلًا (54)﴾ (الكهف)

وقد وردت النصوص الكثيرة تأمر بتهذيب هذه القـوة الداعيـة إلى الجدل، وتعد بالوعد الجزيل من استطاع التحكم فيها، وتتوعـد بالوعيد الخطير من ركن لها، فراحت تتحكم فيه.

ففي الوعد ورد قوله ﷺ : (من ترك المراء وهو مبطل بـني له بيت في ربض الجنة، ومن تركه وهو محق بني له في وسـطها، ومن حسن خلقه بني له في أعلاها)[1]

وقـال: (أنـا زعيم بـبيت في ربض الجنـة، وبـبيت في وسـط الجنـة وبـبيت في أعلى الجنـة لمن تـرك المـراء وإن كـان محقـا، وترك الكذب وإن كان مازحا، وحسن خلقه)[2]

وفي الوعيد قال ﷺ: (ما ضل قوم بعد هـدى كـانوا عليـه إلا أوتوا الجدل)، ثم قرأ:﴿ مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلَّا جَدَلًا.. (58)﴾ (الزخرف)[3]

وقال: (إن أبغض الرجال إلى الله الألد[4] الخصم)[5]

وقال: (كفى بك إثما أن لا تزال مخاصما)[6]

وقال: (المراء في القرآن كفر)[7]

وروي عن جمع من أصحاب رسول اللـه ﷺ قـالوا خـرج علينـا

---

[1] رواه أبو داود والترمذي واللفظ له وابن ماجـه والـبيهقي وقـال الترمـذي حـديث حسـن ورواه الطبراني في الأوسط.

[2] رواه البزار والطبراني في معاجيمه الثلاثة.

[3] رواه الترمذي وابن ماجه وابن أبي الدنيا في كتاب الصمت وغيره وقال الترمذي حـديث حسن صحيح.

[4] الألد: هو شديد الخصومة.

[5] رواه البخاري ومسلم والترمذي والنسائي.

[6] رواه الترمذي وقال حديث غريب.

[7] رواه أبو داود وابن حبان في صحيحه ورواه الطبراني وغيره.

رسول الله يوما ونحن نتمارى في شيء من أمر الـدين فغضـب غضبا شديدا لم يغضب مثله، ثم انتهرنا، فقال: (مهلا يا أمة محمــد إنمـا هلـك من كـان قبلكم بهـذا.. ذروا المـراء لقلـة خـيره.. ذروا المراء فإن المؤمن لا يماري.. ذروا المراء فإن الممـاري قـد تمت خسارته.. ذروا المراء فكفى إثما أن لا تزال مماريـا.. ذروا المـراء فإن المماري لا أشفع له يوم القيامة.. ذروا المراء فأنا زعيم بثلاثة أبيات في الجنة في رباضها ووسطها وأعلاها لمن ترك المراء وهو صادق.. ذروا المراء فإن أول ما نهاني عنه ربي بعد عبادة الأوثــان المراء)[1]

وروي عن أبي سعيد قال: كنا جلوسا عند باب رسول اللــه نتذاكر ينزع هذا بآية، وينزع هذا بآيـة، فخـرج علينـا رسـول اللـه كما يفقأ في وجهه حب الرمان، فقـال: (يـا هـؤلاء بهـذا بعثتم؟ أم بهذا أمرتم؟ لا ترجعوا بعدي كفارا يضرب بعضكم رقاب بعض)[2]

قال بعض الحاضرين: كيف تقول هذا.. وقد ورد في النصوص المقدسة اعتبار الجدال وسـيلة من وسـائل الـدعوة، قـال تعـالى: وَلَا تُجَـادِلُوا أَهْـلَ الْكِتَـابِ إِلَّا بِـالَّتِي هِيَ أَحْسَـنُ إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُـوا مِنْهُمْ وَقُولُوا آمَنَّا بِالَّذِي أُنْزِلَ إِلَيْنَا وَأُنْزِلَ إِلَيْكُمْ وَإِلَهُنَا وَإِلَهُكُمْ وَاحِـدٌ وَنَحْنُ لَـهُ مُسْـلِمُونَ (46) (العنكبـوت)، وقـال: ادْعُ إِلَى سَـبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَـةِ الْحَسَـنَةِ وَجَـادِلْهُمْ بِـالَّتِي هِيَ أَحْسَـنُ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَـلَّ عَنْ سَـبِيلِهِ وَهُـوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَـدِينَ (125) (النحل)

قال الشاذلي: لقد قيدت هذه الآيات الكريمة الجدال بكونـه : بِــالَّتِي هِيَ أَحْسَــنُ ، وهــو قيــد يحــول من الجــدال حــوارا بالمعروف.. وشتان بين الحوار وبين الجدال.

قلت: فما الفرق بينهما؟

قال: لقـد ذكـر العلمـاء في هـذا أربعـة مصـطلحات بجميعهـا وردت النصوص.

1() رواه الطبراني في الكبير.

2() رواه الطبراني في الكبير.

قال الرجل: فما **أولها**؟

قال: الحوار، وهـو (تبـادل الحـديث)، أو (الكلام المتبـادل بين طرفين)، أو (الكلام وتبادل الرأي من أجل الوصـول إلى الحقيقـة) أو (هو تردد الكلام ـ أو ما يقوم مقامه ـ بين المتخاطبين على وجه المراجعة في القول وانتظار الجواب للوصول إلى الحقيقة)[1]

وهو ممدوح في كل الأحوال، لأنه وسيلة من وسـائل الـدعوة إلى الله، ووسيلة من وسائل طلب العلم.. ولهذا لم يذمـه القـرآن الكريم مطلقا، بل ورد ما يشير إلى مدحه، ومن ذلك قوله تعالى : : قَالَ لَهُ صَاحِبُهُ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ أَكَفَرْتَ بِالَّذِي خَلَقَكَ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ سَوَّاكَ رَجُلًا (37) (الكهف)، وقوله : قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَـوْلَ الَّتِي تُجَادِلُـكَ فِي زَوْجِهَـا وَتَشْـتَكِي إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ يَسْـمَعُ تَحَاوُرَكُمَا إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ (1) (المجادلة)

قال الرجل: فما **الثانية**؟

قال: المراء، وهو طعنك في كلام غيرك لإظهار خلل فيه لغير غرض سوى تحقير قائله وإظهار مرتبتك عليه.. وقد ذكرت لكم ما ورد في فضل تركه.

قال الرجل: فما **الثالثة**؟

قال: الجدل هو دفع المرء خصمه عن إفسـاد قولـه بحجّـة أو شبهة، أو هو ما يقصد به تصحيح كلامـه، أو هـو مـا يتعلـق بإظهـار الآراء وتقريرها.

وهو في أصله مذموم، كمـا ورد ذلـك في قولـه تعـالى : الْحَجُّ أَشْـهُرٌ مَعْلُومـاتٌ فَمَنْ فَـرَضَ فِيهِنَّ الْحَجَّ فَلا رَفَثَ وَلا فُسُوقَ وَلا جِدالَ فِي الْحَجِّ وَما تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ يَعْلَمْـهُ اللَّهُ وَتَـزَوَّدُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوى وَاتَّقُونِ يـا أُولِي الْأَلْبـابِ (197) (البقـرة)، وقوله: كَما أَخْرَجَكَ رَبُّكَ مِنْ بَيْتِكَ بِالْحَقِّ وَإِنَّ فَرِيقاً مِنَ الْمُؤْمِنِينَ لَكارِهُونَ (5) يُجادِلُونَكَ فِي الْحَقِّ بَعْدَ مـا تَبَيَّنَ كَأَنَّمـا يُسـاقُونَ إِلَى الْمَوْتِ وَهُمْ يَنْظُرُونَ (6) (الأنفـال)، وقولـه: وَمِنْهُمْ مَنْ يَسْـتَمِعُ

[1] انظر التفاصيل الكثيرة المرتبطة بهذا في رسالة (النبي الهادي)، فصل (المحاور)

إِلَيْكَ وَجَعَلْنا عَلى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ وَفِي آذانِهِمْ وَقْراً وَإِنْ يَرَوْا كُلَّ آيَةٍ لا يُؤْمِنُوا بِها حَتَّى إِذا جاؤُكَ يُجادِلُونَكَ يَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هذا إِلَّا أَساطِيرُ الْأَوَّلِينَ (25) (الأنعام)، وقوله: وَلا تَأْكُلُوا مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ وَإِنَّهُ لَفِسْقٌ وَإِنَّ الشَّياطِينَ لَيُوحُونَ إِلى أَوْلِيائِهِمْ لِيُجادِلُوكُمْ وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ (121) (الأنعام)، وقوله: وَإِنْ جادَلُوكَ فَقُلِ اللَّهُ أَعْلَمُ بِما تَعْمَلُونَ (68) اللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ يَوْمَ الْقِيامَةِ فِيما كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ (69) (الحج)، وقوله: إِنَّ الَّذِينَ يُجادِلُونَ فِي آياتِ اللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطانٍ أَتاهُمْ إِنْ فِي صُدُورِهِمْ إِلَّا كِبْرٌ ما هُمْ بِبالِغِيهِ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ (56) (غافر)، وقوله: أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يُجادِلُونَ فِي آياتِ اللَّهِ أَنَّى يُصْرَفُونَ (69) الَّذِينَ كَذَّبُوا بِالْكِتابِ وَبِما أَرْسَلْنا بِهِ رُسُلَنا فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ (70) إِذِ الْأَغْلالُ فِي أَعْناقِهِمْ وَالسَّلاسِلُ يُسْحَبُونَ (71) فِي الْحَمِيمِ ثُمَّ فِي النَّارِ يُسْجَرُونَ (72) (غافر)، وقوله: وَمِنْ آياتِهِ الْجَوارِ فِي الْبَحْرِ كَالْأَعْلامِ (32) إِنْ يَشَأْ يُسْكِنِ الرِّيحَ فَيَظْلَلْنَ رَواكِدَ عَلى ظَهْرِهِ إِنَّ فِي ذلِكَ لَآياتٍ لِكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ (33) أَوْ يُوبِقْهُنَّ بِما كَسَبُوا وَيَعْفُ عَنْ كَثِيرٍ (34) وَيَعْلَمَ الَّذِينَ يُجادِلُونَ فِي آياتِنا ما لَهُمْ مِنْ مَحِيصٍ (35) (الشورى)، وقوله : وَيُسَبِّحُ الرَّعْدُ بِحَمْدِهِ وَالْمَلائِكَةُ مِنْ خِيفَتِهِ وَيُرْسِلُ الصَّواعِقَ فَيُصِيبُ بِها مَنْ يَشاءُ وَهُمْ يُجادِلُونَ فِي اللَّهِ وَهُوَ شَدِيدُ الْمِحالِ (13) (الرعد)، وقوله : وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يُجادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلا هُدىً وَلا كِتابٍ مُنِيرٍ (8) (الحج)، وقوله : الَّذِينَ يُجادِلُونَ فِي آياتِ اللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطانٍ أَتاهُمْ كَبُرَ مَقْتاً عِنْدَ اللَّهِ وَعِنْدَ الَّذِينَ آمَنُوا كَذلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلى كُلِّ قَلْبِ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ (35) (غافر)

وقد يمدح إذا تقيد بالقيود الشرعية، وبالتالي يتحول من الجدل الذي لا يقصد منه إلا الغلبة إلى الحوار الممدوح.

قال الرجل: فما **الرابعة**؟

قال: الخصومة، وهي ثمرة من ثمار المبالغة في الجدل.. وقد وردت النصوص بذمه ذما شديدا.. ومن ذلك قوله تعالى : إِنَّا أَنْزَلْنا إِلَيْكَ الْكِتابَ بِالْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ بِما أَراكَ اللَّهُ وَلا تَكُنْ

لِلْخائِنِينَ خَصِيماً (105) وَاسْتَغْفِرِ اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ كانَ غَفُوراً رَحِيماً (106) وَلا تُجادِلْ عَنِ الَّذِينَ يَخْتانُونَ أَنْفُسَهُمْ إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ مَنْ كانَ خَوَّاناً أَثِيماً (107) يَسْتَخْفُونَ مِنَ النَّاسِ وَلا يَسْتَخْفُونَ مِنَ اللَّهِ وَهُوَ مَعَهُمْ إِذْ يُبَيِّتُونَ ما لا يَرْضى مِنَ الْقَوْلِ وَكانَ اللَّهُ بِما يَعْمَلُونَ مُحِيطاً (108) ها أَنْتُمْ هؤُلاءِ جادَلْتُمْ عَنْهُمْ فِي الْحَياةِ الدُّنْيا فَمَنْ يُجادِلُ اللَّهَ عَنْهُمْ يَوْمَ الْقِيامَةِ أَمْ مَنْ يَكُونُ عَلَيْهِمْ وَكِيلًا (109) (النساء)

وقال تعالى: وَلَمَّا ضُرِبَ ابْنُ مَرْيَمَ مَثَلًا إِذا قَوْمُكَ مِنْهُ يَصِدُّونَ (57) وَقالُوا أَآلِهَتُنا خَيْرٌ أَمْ هُوَ ما ضَرَبُوهُ لَكَ إِلَّا جَدَلًا بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ (58) إِنْ هُوَ إِلَّا عَبْدٌ أَنْعَمْنا عَلَيْهِ وَجَعَلْناهُ مَثَلًا لِبَنِي إِسْرائِيلَ (59) (الزخرف)

وفي الحديث، قال رسول الله : (كفى بك أن لا تزال مخاصما)[1]

وقال: (أبغض الرجال إلى الله الألد الخصم)[2]، أي كثير الخصومة.

قال الرجل: ولكن مع ما ذكرت فإنا أحيانا قد نجد أنفسنا مضطرين للخصومة.

قال: لقد ذكر العلماء أن الذم متوجه لمن خاصم بباطل، أو بغير علم.. ويدخل في الذم كذلك من طلب حقا، لكنه لا يقتصر على قدر الحاجة منه، بل يظهر اللدد والكذب للإيذاء أو التسليط على خصمه.. وكذلك من يحمله على الخصومة محض العناد لقهر الخصم وكسره.. وكذلك من يخلط الخصومة بكلمات تؤذي، وليس له إليها ضرورة في التوصل له إلى غرضه، فهذا هو المذموم.

أما المظلوم الذي ينصر حجته بطريق الشرع من غير لدد وإسراف وزيادة لجاج على الحاجة من غير قصد عناد ولا إيذاء

1() رواه الترمذي وقال غريب.

2() رواه البخاري.

ففعله هذا ليس مذموما ولا حراما، لكن الأولى تركه ما وجد إليه سبيلا ؛ لأن ضبط اللسان في الخصومة على حد الاعتدال متعذر والخصومة توغر الصدور وتهيج الغضب، فإذا هاج الغضب حصل الحقد بينهما حتى يفرح كل واحد منهما بمساءة الآخر ويحزن بمسرته ويطلق اللسان في عرضه، فمن خاصم فقد تعرض لهذه الآفات وأقل ما فيها اشتغال القلب حتى إنه يكون في صلاته وخاطره معلقا بالمحاججة والخصومة، فلا يبقى حاله على الاستقامة، والخصومة مبدأ الشر.

***

بقيت مدة في قسم الجدل.. أتعلم من الشاذلي وأصحابه كيف أوجه الجدل إلى الجهة الحسنى، وأتدرب على ذلك، وقد كانت تداريب في غاية الإرهاق والتعب..

وبعدما امتحنني الشاذلي ببعض الامتحانات، ورأى أني قد نجحت فيها أجازني في هذا القسم، وأمرني أن أسير إلى القسم الثالث..

3 ـ الغرور

سرت إلى القسم الثالث.. وقد كان شيخه الشيخ عبد القادر الجيلاني[1].. وكان أول ما سمعته منه قراءته بصوت خاشع لقوله تعالى: ﴿ وَذَرِ الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَهُمْ لَعِباً وَلَهْواً وَغَرَّتْهُمُ الْحَياةُ الدُّنْيا وَذَكِّرْ بِهِ أَنْ تُبْسَلَ نَفْسٌ بِما كَسَبَتْ لَيْسَ لَها مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيٌّ وَلا شَفِيعٌ وَإِنْ تَعْدِلْ كُلَّ عَدْلٍ لا يُؤْخَذْ مِنْها أُولئِكَ الَّذِينَ أُبْسِلُوا بِما كَسَبُوا لَهُمْ شَرابٌ مِنْ حَمِيمٍ وَعَذابٌ أَلِيمٌ بِما كانُوا يَكْفُرُونَ (70)﴾ (الأنعام)، وقوله: ﴿ يا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِنْكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ آياتِي وَيُنْذِرُونَكُمْ لِقاءَ يَوْمِكُمْ هذا قالُوا شَهِدْنا عَلى أَنْفُسِنا وَغَرَّتْهُمُ الْحَياةُ الدُّنْيا وَشَهِدُوا عَلى أَنْفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كانُوا كافِرِينَ (130)﴾ (الأنعام)، وقوله: ﴿ الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَهُمْ لَهْواً وَلَعِباً وَغَرَّتْهُمُ الْحَياةُ الدُّنْيا فَالْيَوْمَ نَنْساهُمْ كَما نَسُوا لِقاءَ يَوْمِهِمْ هذا وَما

[1] أشير به إلى الشيخ عبد القادر الجيلي أو الجيلاني أو الكيلاني (470 هـ - 561 هـ)، هو أبو محمد عبد القادر بن موسى بن عبد الله، لقبه أتباعه باز الله الأشهب وتاج العارفين ومحيي الدين وقطب بغداد.. وإليه تنتسب الطريقة القادرية الصوفية.

كـانُوا بِآياتِنـا يَجْحَـدُونَ (51) (الأعـراف)، وقولـه: ذلِكُمْ بِـأَنَّكُمُ اتَّخَذْتُمْ آياتِ اللَّهِ هُـزُواً وَغَـرَّتْكُمُ الْحَيـاةُ الـدُّنْيا فَـالْيَوْمَ لا يُخْرَجُـونَ مِنْها وَلا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ (35) (الجاثية)

سـأله بعض الحاضـرين قـائلا: إن هـذه الآيـات تتحـدث عن الغرور.. وتعتبره السبب الأكـبر فيمـا يقـع فيـه الإنسـان من أنـواع الضلال والانحراف.. فما الغرور[1]؟

قال: الغرور هو سكون النّفس إلى ما يوافـق الهـوى، ويميـل إليه الطّبع عن شبهة، أو خدعة من الشّيطان.. فمن اعتقد أنّـه في خير إمّا في العاجل أو في الآجـل عن شـبهة فاسـدة، أو وسـواس خادع فهو مغرور.

قال الرجل: فهو نوع من الجهل إذن؟

قال ابن الجوزي: أجـل.. فـالمغرور يشـارك الجاهـل في أنـه يعتقد الشّيء ويراه على خلاف ما هو عليه..

قال الرجل: فما الأصناف التي يصيبها هذا الداء؟

قال الجيلاني: أنبئني أولا عن الأصناف الـتي تصـلها وسـاوس الشيطان.

قال الرجل: وساوس الشيطان تصل إلى الكل.. فليس هناك من عصم منها إلا من عصمه الله بتقواه وإخلاصه.

قال الجيلاني: فالغرور يصـيب الكـل إذن إلا من عصـمه اللـه بتقواه وإيمانه وإخلاصه.

قال الرجل: عجبا.. كيف تذكر أنه يصيب الكـل.. وقـد وصـف الله به الكفار.

قال الجيلاني: كونـه صـفة للكفـار لا يعـني عصـمة المؤمـنين منه.. لقد ذكر رسول الله أوصاف المنـافقين، فقـال: (أربـع من

---

[1] () عرفه الجرجانيّ بقوله: (الغـرور هـو سـكون النّفس إلى مـا يوافـق الهـوى ويميـل إليـه الطّبع) (التعريفات للجرجاني ص 167)، وقال الحراليّ: (الغرور هو إخفاء الخدعة في صورة النّصيحة) (التوقيف على مهمات التعاريف لابن المناوي ص 252)

كنّ فيه كان منافقا خالصا، ومن كانت فيه خصلة منهنّ كـانت فيـه خصـلة من النّفـاق حتّى يـدعها: إذا ائتمن خـان، وإذا حـدّث كـذب، وإذا عاهد غدر، وإذا خاصم فجر) [1] .. فهـل تـرى هـذه الأوصـاف خاصة بالمنافقين.. أم أن من عوام المؤمنين من يقع فيها؟

قال الرجل: بل من عوامهم من يقع فيها؟

قال الجيلاني: فهكذا الغرور.. ومع ذلك فقد أخبر اللـه تعـالى أن الشيطان قد يصل بحبال غروره إلى خواص خواص عباد اللـه.. قـال تعـالى مخـبرا عن خـبر آدم وزوجـه مـع إبليس في الجنـة: ﴿ فَوَسْـوَسَ لَهُمَـا الشَّـيْطَانُ لِيُبْـدِيَ لَهُمَـا مَـا وُورِيَ عَنْهُمَـا مِنْ سَـوْآتِهِمَا وَقَـالَ مَـا نَهَاكُمَـا رَبُّكُمَـا عَنْ هَـذِهِ الشَّـجَرَةِ إِلَّا أَنْ تَكُونَـا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونَــا مِنَ الْخَالِــدِينَ (20) وَقَاسَــمَهُمَا إِنِّي لَكُمَــا لَمِنَ النَّاصِـحِينَ (21) فَـدَلَّاهُمَا بِغُـرُورٍ فَلَمَّا ذَاقَـا الشَّـجَرَةَ بَـدَتْ لَهُمَـا سَوْآتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِنْ وَرَقِ الْجَنَّةِ وَنَادَاهُمَا رَبُّهُمَا أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَنْ تِلْكُمَا الشَّجَرَةِ وَأَقُلْ لَكُمَا إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمَا عَـدُوٌّ مُبِينٌ (22)﴾ (الأعراف)

قال آخر: إن هذا يدعوك إلى أن تذكر لنا الحبـال الـتي يصـل بها الشيطان إلى بني آدم ليملأهم بالغرور.

قـال الجيلاني: هـذا هـو الهـدف الـذي من أجلـه أسـس هـذا القسـم.. إننـا نبحث فيـه عن الحبـال الـتي يـدليها الشـيطان إلى أصناف الخلق ليملأهم بالغرور.

قال الرجل: فحدثنا عما وصلتم إليه.

قال الجيلاني: ذلك كثـير.. لا يمكن وصـفه ولا حصـره.. ولكن سلوني ما بدا لكم عن أصناف النـاس، وسـأذكر لكم بعض الحبـال التي قد يصل الشيطان إليهم بسببها، فيملأهم غرورا[2].

الكفار:

---

[1] رواه البخاري ومسلم.

[2] استفدنا في هذا المبحث من كتاب (الكشـف والتبـيين في غـرور الخلـق أجمعين)، لأبي حامد الغزالي مع التصرف الذي ألفناه في هذه السلسلة.

قام بعض الحاضرين، وقال: فحـدثنا عن الحبـال الـتي يـدليها الشيطان للكفار، ليملأهم بها غرورا.

قـال الجيلاني: الكفـار في غـرورهم صـنفان.. صـنف غـرتهم الأماني والأهـواء والـدنيا بمـا فيهـا، وإليهم الإشـارة بقولـه تعـالى: ﴿ وَاسْـتَفْزِزْ مَنِ اسْـتَطَعْتَ مِنْهُمْ بِصَـوْتِكَ وَأَجْلِبْ عَلَيْهِمْ بِخَيْلِـكَ وَرَجِلِكَ وَشارِكْهُمْ فِي الْأَمْوالِ وَالْأَوْلادِ وَعِدْهُمْ وَما يَعِدُهُمُ الشَّيْطانُ إِلَّا غُرُوراً (64)﴾ (الإسراء)

وصنف غرهم باللـه الغـرور، وهم الـذي ذكـرهم اللـه، فقـال: ﴿ يُنـادُونَهُمْ أَلَمْ نَكُنْ مَعَكُمْ قـالُوا بَلى وَلكِنَّكُمْ فَتَنْتُمْ أَنْفُسَـكُمْ وَتَرَبَّصْتُمْ وَارْتَبْتُمْ وَغَرَّتْكُمُ الْأَمانِيُّ حَتَّى جـاءَ أَمْـرُ اللَّهِ وَغَـرَّكُمْ بِاللَّهِ الْغَرُورُ (14)﴾ (الحديد)

قال الرجل: فحدثنا عن الصـنف الأول.. أولئـك الـذين غـرتهم الحياة الدنيا.

قال الجيلاني: الذين غرتهم الحياة الدنيا هم الذين قاسوا هذه الأقيسة الفاسدة، فقالوا: النقـد خـير من النسـيئة.. ولـذات الـدنيا يقين.. ولذات الآخرة شك!!.. ولا يترك اليقين بالشك..

وكل هذا قياس فاسد.. وهو نفس قياس إبليس عندما قـال : ﴿ أَنَـا خَيْـرٌ مِنْـهُ خَلَقْتَنِي مِنْ نَـارٍ وَخَلَقْتَـهُ مِنْ طِينٍ (12)﴾ (الأعراف).. فظن أن الخيرية فى النسب..

قال الرجل: فما البلسم الذي يعالج به هذا النوع من الغرور؟

قـال الجيلاني: يعـالج هـذا الـداء ببلسـمين: بلسـم التصـديق، وبلسم البرهان.

قال الرجل: فما بلسم التصديق؟

قال الجيلاني: التصديق هـو أن يصـدق مـا ورد في النصـوص المقدسة المخبرة بأن الآخرة خير من الدنيا، وذلك كقوله تعـالى : ﴿ قُلْ مَتَاعُ الدُّنْيَا قَلِيلٌ وَالْآخِرَةُ خَيْـرٌ لِمَنِ اتَّقَى وَلَا تُظْلَمُـونَ فَتِيلًا (77)﴾ (النساء)، وقوله مخبرا عن مؤمن آل فرعون:﴿ وَقَـالَ الَّذِي

آمَنَ يَا قَوْمِ اتَّبِعُونِ أَهْدِكُمْ سَبِيلَ الرَّشَادِ (38) يَا قَوْمِ إِنَّمَا هَذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا مَتَاعٌ وَإِنَّ الْآخِرَةَ هِيَ دَارُ الْقَرَارِ (39) (غافر)

وفي الحديث قال رسول الله :(لو كانت الدنيا تعدل عند الله جناح بعوضة ما سقى كافراً منها شربة ماء)(1)

وقال : (ما الدنيا في الآخرة إلا كما يجعل أحدكم أصبعه في اليم، فلينظر بماذا ترجع)(2)

قال الرجل: فما بلسم البرهان؟

قال الجيلاني: البرهان هو أن يعرف وجه فساد قياسه.. وأن قوله: (الدنيا نقد والآخرة نسيئة) مقدمة صحيحة وأما قوله: (النقد خير من النسيئة)، فهو محل التلبيس.. فليس الأمر كما اعتقد.. بل إن كان النقد مثل النسيئة في المقدار والمقصود فهو خير.. وإن كان أقل منها، فالنسيئة خير منه.. ومعلوم أن الآخرة أبدية، والدنيا غير أبدية.. وأما قوله: (ولذات الدنيا يقين ولذات الآخرة شك) فهو أيضا باطل.. بل ذلك يقين عند المؤمنين..

وليقينه مدركان: أحدهما الإيمان والتصديق على وجه التقليد للأنبياء والعلماء كما يقلد الطبيب الحاذق في الدواء.. والمدرك الثاني: الوحى للأنبياء والإلهام للأولياء..

قال الرجل: عرفنا النوع الأول من غرور الكفار.. فما النوع الثاني؟

قال الجيلاني: هو الغرور بالله تعالى.. وقد حكاه الله عن الصاحب الكافر في سورة الكهف عندما قال : مَا أَظُنُّ أَنْ تَبِيدَ هَذِهِ أَبَدًا (35) وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً وَلَئِنْ رُدِدْتُ إِلَى رَبِّي لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِنْهَا مُنْقَلَبًا (36) (الكهف)

قال الرجل: فما سبب هذا الغرور؟

قال الجيلاني: سببه قياس من أقيسة إبليس الفاسدة.. ذلك

---

(1) رواه الترمذي وابن ماجة.

(2) رواه مسلم.

أنهم ينظرون مرة إلى نعم الله تعالى عليهم في الدنيا، فيقيسون عليها نعم الآخرة.. ومرة ينظرون إلى تأخير عذاب الله عنهم في الدنيا فيقيسون عذاب الآخرة كما أخبر الله تعالى عنهم، فقال : ﴿ وَيَقُولُونَ فِي أَنْفُسِهِمْ لَوْلَا يُعَذِّبُنَا اللَّهُ بِمَا نَقُولُ حَسْبُهُمْ جَهَنَّمُ يَصْلَوْنَهَا فَبِئْسَ الْمَصِيرُ (8)﴾ (المجادلة).. ومرة ينظرون إلى المؤمنين وهم فقراء، فيزدرونهم ويقولون :﴿ أَهَؤُلَاءِ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنْ بَيْنِنَا أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ بِالشَّاكِرِينَ (53)﴾ (الأنعام).. ويقولون :﴿ لَوْ كَانَ خَيْرًا مَا سَبَقُونَا إِلَيْهِ وَإِذْ لَمْ يَهْتَدُوا بِهِ فَسَيَقُولُونَ هَذَا إِفْكٌ قَدِيمٌ (11)﴾ (الأحقاف)

وترتيب القياس الذى نظم فى قلوبهم أنهم يقولون: (قد أحسن الله إلينا بنعم الدنيا.. وكل محسن فهو محب، وكل محب فهو محسن)

قال الرجل: أليس الأمر كذلك.. أليس كل محسن محب؟

قال الجيلاني: لا.. ليس الأمر كذلك.. بل ربما يكون محسناً ولا يكون محباً.. بل ربما يكون الإحسان سبب هلاكه على الاستدراج.. وذلك محض الغرور بالله.. كما قال الله تعالى :﴿ فَأَمَّا الْإِنْسَانُ إِذَا مَا ابْتَلَاهُ رَبُّهُ فَأَكْرَمَهُ وَنَعَّمَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَكْرَمَنِ (15) وَأَمَّا إِذَا مَا ابْتَلَاهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَهَانَنِ (16)﴾ (الفجر)، ثم قال :﴿ كَلَّا..(17)﴾ (الفجر) أي ليس الأمر كما تزعمون.

وقال في آية أخرى يكذب أصل قياسهم:﴿ أَيَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُمْ بِهِ مِنْ مَالٍ وَبَنِينَ (55) نُسَارِعُ لَهُمْ فِي الْخَيْرَاتِ بَلْ لَا يَشْعُرُونَ (56)﴾ (مريم)، وقال :﴿ فَذَرْنِي وَمَنْ يُكَذِّبُ بِهَذَا الْحَدِيثِ سَنَسْتَدْرِجُهُمْ مِنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ (44) وَأُمْلِي لَهُمْ إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ (45)﴾ (القلم)، وقال :﴿ فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّى إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً فَإِذَا هُمْ مُبْلِسُونَ (44)﴾ (الأنعام)

وقد رد الله على قياسهم ذلك في مواضع كثيرة من القرآن.. ومن ذلك قوله تعالى :﴿ فَلا تُعْجِبْكَ أَمْوَالُهُمْ وَلا أَوْلادُهُمْ إِنَّمَا يُرِيدُ

اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ بِهَا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنْفُسُهُمْ وَهُمْ كَافِرُونَ (55) (التوبة)، وقال : وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ خَيْرٌ لِأَنْفُسِهِمْ إِنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ لِيَزْدَادُوا إِثْمًا وَلَهُمْ عَذَابٌ مُهِينٌ (178) (آل عمران)، وقال : وَمَا أَمْوَالُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ بِالَّتِي تُقَرِّبُكُمْ عِنْدَنَا زُلْفَى إِلَّا مَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَأُولَئِكَ لَهُمْ جَزَاءُ الضِّعْفِ بِمَا عَمِلُوا وَهُمْ فِي الْغُرُفَاتِ آمِنُونَ (37) (سبأ)

قال الرجل: ففي أي أرض ينبت هذا الغرور؟

قال الجيلاني: هذا الغرور ينبت في أرض الجهل بالله تعالى.. فإن من عرف الله لا يقع في مثل هذا الوهم.. بل يأخذ العبرة من فرعون وهامان وثمود وماذا حل بهم.. مع أن الله تعالى أعطاهم من كل الأموال..

العصاة:

قام آخر، وقال: وعينا هذا.. فحدثنا عن الحبال التي دلاها الشيطان للعصاة.

قال الجيلاني: الحبال التي دلاها الشيطان للعصاة هي اتكالهم على عفو الله مع إهمالهم للعمل.. فهم يرددون كل حين إما بألسنة مقالهم أو ألسنة أحوالهم: الله غفور رحيم، ورحمته واسعة، ونعمته وشاملة، وكرمه عميم، ونحن موحدون ونحن نرجوه بوسيلة الإيمان والكرم والإحسان..

وربما غرهم بمن صلح من آبائهم.. وذلك نهاية الغرور، فإن آباءهم مع صلاحهم وورعهم كانوا خائفين.. ونظم قياسهم الذى سول لهم الشيطان: (من أحب إنساناً أحب أولاده.. فإن الله قد أحب أباكم فهو يحبكم فلا تحتاجون إلى الطاعات)، فاتكلوا على ذلك واغتروا بالله، ولم يعلموا أن نوحا ﵇ أراد أن يحمل ولده فى السفينة فمنع، وأغرقه إليه سبحانه وتعالى بأشد ما أغرق به قوم نوح..

ونسوا قوله تعالى : أَلَّا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى (38) وَأَنْ لَيْسَ لِلْإِنْسَانِ إِلَّا مَا سَعَى (39) وَأَنَّ سَعْيَهُ سَوْفَ يُرَى (40) ثُمَّ

يُجْزَاهُ الْجَزَاءَ الْأَوْفَى (41) (النجم)

ونسوا أن من ظن أنه ينجو بتقوى آبائه كمن ظن أنه يشبع بأكلهم أو يروى بشرابهم..

ونسوا ما ورد في النصوص المقدسة من أن التقوى فرض عين لا يجزى فيها والد عن ولده، كما قال تعالى : يَوْمَ يَفِرُّ الْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ (34) وَأُمِّهِ وَأَبِيهِ (35) وَصَاحِبَتِهِ وَبَنِيهِ (36) لِكُلِّ امْرِئٍ مِنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ (37) (عبس)

وقال : (الكيِّسُ من دان نفسه وعمل لما بعد الموت، والأحمق من أتبع نفسه وهواها وتمنى على الله الأماني)[1]

ومن هؤلاء من يغترون بتصورهم أن كفة حسناتهم ترجح على كفة السيئات، فترى الواحد منهم يتصدق بدراهم معدودة من الحلال والحرام، ويكون ما تناوله من أموال الناس والشبهات أضعافا.. وهو كمن وضع فى كفة الميزان عشرة دراهم، ووضع فى الكفة الأخرى ألفاً، وأراد أن تميل الكفة التى فيها العشرة.. وذلك غاية الجهل..

ومن هؤلاء من إذا عمل طاعة حفظها واعتد بها، كالذى يستغفر بلسانه أو يسبح فى الليل والنهار مثلا مائة مرة أو ألف مرة، ثم يغتاب المسلمين ويتكلم بما لا يرضاه الله طول النهار، ويلتفت إلى ما ورد فى فضل التسبيح.. ويغفل عما ورد فى عقوبة المغتابين والكذابين والنمامين والمنافقين.. وذلك محض الغرور، فحفظ لسانه عن المعاصى آكد من تسبيحاته.

وإلى هؤلاء جميعا يشير ما ورد في الحديث من أن النبي توضأ، فأحسن الوضوء ثمّ قال: (من توضّأ مثل هذا الوضوء، ثمّ أتى المسجد فركع ركعتين، ثمّ جلس غفر له ما تقدّم من ذنبه)، وقال: (لا تغترّوا)[2]

العلماء:

1() رواه الترمذي بسند حسن.

2() رواه البخاري.

قام آخر، وقال: ما دمت قد ذكرت بأن الغرور يصيب كل طوائف الخلق.. فهل يصيب العلماء؟

قال الجيلاني: ما دام العلماء من طوائف الخلق.. وما داموا يتعرضون لوساوس الشياطين.. وما دامت لهم نفوس أمارة.. فلاشك أن الغرور يصيبهم كما يصيب سائر الناس.

لقد ذكر الله ذلك، فقال : وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذِي آتَيْنَاهُ آيَاتِنَا فَانْسَلَخَ مِنْهَا فَأَتْبَعَهُ الشَّيْطَانُ فَكَانَ مِنَ الْغَاوِينَ (175) وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا وَلَكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الْأَرْضِ وَاتَّبَعَ هَوَاهُ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ الْكَلْبِ إِنْ تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَثْ ذَلِكَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَاقْصُصِ الْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ (176) (الأعراف)

قال الرجل: فحدثنا عن غرورهم.

قال الجيلاني: هم على فرق في ذلك.. سأكتفي لكم بتسعة منها.

قالوا: فما أولها؟

قال: أولهم **من** أحكموا العلوم الشرعية والعقلية وتعمقوا فيها واشتغلوا بها وأهملوا تفقد الجوارح وحفظها عن المعاصى وإلزامها الطاعات، فاغتروا بعلمهم وظنوا أنهم عند الله بمكان.. وأنهم قد بلغوا من العلم مبلغا لا يعذب الله تعالى مثلهم.. بل ظنوا أن الله يقبل عليهم ويقبل فى الخلق شفاعتهم، ولا يطالبهم بذنوبهم وخطاياهم..

ومثالهم في غرورهم مثال طبيب طب غيره وهو عليل قادر على طب نفسه ولم يفعل.. وهل ينفع الدواء بالوصف؟!.. هيهات لا ينفع الدواء إلا من شربه بعد الحمية.. وغفلوا عن قوله تعالى : قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا (9) وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا (10) (الشمس)، فلم يقل: من يعلم تزكيتها وأهمل علمها وعلمها الناس..

قالوا: وعينا هذا .. فما الثانية؟

قال: الثانية من أحكموا العلم والعمل الظاهر، وتركوا

المعاصى الظاهرة، وغفلوا عن قلـوبهم، فلم يمحـو منهـا الصـفات المذمومة عند الله كالكبر والريـاء والحسـد وطلب الرياسـة والعلا وإرادة الثنــاء على الأقــران والشــركاء وطلب الشــهرة فى البلاد والعباد، وذلك غرور سببه غفلتهم عن قوله تعالى : وَذَرُوا ظَـاهِرَ الْإِثْمِ وَبَاطِنَهُ إِنَّ الَّذِينَ يَكْسِبُونَ الْإِثْمَ سَيُجْزَوْنَ بِمَا كَانُوا يَقْتَرِفُونَ (120) (الأنعام)

ومثالهم في ذلك مثال مريض ظهر به الجرب فأمره الطـبيب بالطلاء وشـرب الـدواء.. فاشـتغل بـالطلاء وتـرك شـرب الـدواء.. فأزال ما بظاهره.. ولم يزل مـا بباطنـه.. وأصـل مـا على ظـاهره مما فى باطنه.. فلا يزال جربه يزداد أبدا مما فى باطنـه.. فكـذلك الخبائث إذا كانت كامنة فى القلب يظهر أثرها على الجوارح.

قالوا: وعينا هذا .. فما الثالثة؟

قال: الثالثة من علموا هذه الأخلاق.. وعلموا أنها مذمومة من وجه الشرع إلا أنهم لعجبهم بأنفسهم يظنون أنهم منفكـون عنهـا.. وأنهم أرفع عند الله من أن يبتليهم بـذلك.. وإنمـا يبتلى بـه العـوام دون من بلغ مبلغهم فى العلم.. فأما هم فإنهم أعظم عند الله من أن يبتليهم..

وبهذا الاعتقاد تسلل إليهم الشيطان، فظهـرت عليهم مخايـل الكبر والرياسة.. وطلبـوا العلـو والشـرف.. ولبسـوا على أنفسـهم بأن القصد من ذلك هو عز الدين، وإظهار شرف العلم..

ثم لبسـوا على أنفسـهم بـأن أطلقـوا لسـان فى الحسـد فى أقــرانهم، أو فيمن رد عليهم شـيئا من كلامهم، وقـالوا: إنمـا هـو غضب للحق، ورد على المبطل فى عدوانه وظلمه.. وهذ مغـرور.. فإنه لو طعن في غيره من العلماء من أقرانه ربما لم يغضب، بــل ربما يفرح، وإن أظهر الغضب عند الناس بأنه يحبه.. وربمـا يظهـر العلم ويقول: غرضى به أن أفيد الخلق.. وهـو هـراء لأنـه لـو كـان غرضه صلاح الخلق لأحب صلاحهم على يد غيره ممن هـو مثلـه أو فوقه.

وربما يدخل على السـلطان ويتـودد إليـه ويثـنى عليـه.. فـإذا

سئل عن ذلك قال: إنما غرضى أن أنفع المسلمين.. وأن أرفع عنهم الضرر.. وهو مغرور. ولو كان غرضه ذلك فرح به إذا جرى على يد غيره، ولو رأى من هو مثله عند السلطان يشفع فى أحد يغضب.. وربما أخذ من أموالهم فإن خطر بباله أنه حرام قال له الشيطان هذا مال لا مالك له وهو لمصالح المسلمين وأنت إمام المسلمين وعالمهم وبك قوام الدين..

قالوا: وعينا هذا .. فما الرابعة؟

قال: الرابعة من أحكموا العلم.. وطهروا الجوارح، وزينوها بالطاعات.. واجتنبوا ظاهر المعاصى.. وتفقدوا أخلاق النفس وصفات القلب من الرياء والحسد والكبر والحقد وطلب العلو.. وجاهدوا أنفسكم فى التبرى منها، وقلعوا من القلب منابتها الجلية القوية.. ولكنهم مغرورون إذ بقى فى زوايا القلب بقايا من خفايا مكايد الشيطان.. خبايا خدع النفس ما دق وغمض.. فلم يفطنوا لها.. وأهملوها..

ومثالهم في حالهم هذه كمثل من يريد تنقية الزرع من الحشيش فدار عليه.. وفتش عن كل حشيش فقلعه.. إلا أنه لم يفتش عما لم يخرج رأسه بعد من تحت الأرض وظن أن الكل قد ظهر وبرز فلما غفل عنها ظهرت وأفسدت عليه الزرع. وهؤلاء إن غيروا تغيروا.. وربما تركوا مخالطة الخلق استكبارا.. وربما نظروا إليهم بعين الحقارة.. وربما يجتهد بعضهم فى تحسين نظمه لئلا ينظر إليه بعين الركاكة..

قالوا: وعينا هذا .. فما الخامسة؟

قال: الخامسة من تركوا المهم من العلوم.. واقتصروا على علوم الفتاوى فى الحكومات والخصومات وتفصيل المعاملات الدنيوية الجارية بين الخلق لمصالح المعايش.. وربما ضيعوا مع ذلك علم الأعمال الظاهرة والباطنة، ولم يتفقدوا الجوارح.. ولم يحرسوا اللسان من الغيبة، والبطن عن الحرام، والرجل عن السعى إلى السلاطين.. وكذلك سائر الجوارح.. ولم يحرسوا قلوبهم عن الكبر والرياء والحسد وسائر المهلكات..

وهـؤلاء مغـرورون من وجهين: احـدهما: من حيث العمـل، ومثالهم في ذلـك كمثـل المـريض الـذى تعلم الـدواء من الحكمـاء ولم يعلمه أو يعمله وهؤلاء مشرفون على الهلاك حيث أنهم تركـوا تزكيـة أنفسـهم وتخليتهـا.. فاشـتغلوا بكتـاب الـديات والـدعاوى والظهار واللعان.. وضيعوا أعمارهم فيها..

والثانى: من حيث العلم وذلك لظنهم أنه لا علم إلا بذلك وأنه المنجى الموصـل.. وإنمـا المنجى الموصـل حب اللـه.. ولا يتصـور حب الله تعالى إلا بمعرفته..

ومثـال هـؤلاء مثـال من اقتصـر على بيـع الـزاد فى طريـق الحـاج.. ولم يعلم أن الفقـه هـو الفقـه عن اللـه تعـالى ومعرفـة صفاته المخوفة والزاجرة ليستشعر القلب الخوف ويلازم التقوى.

ومن هـؤلاء من اقتصـر من علم الفقـه على الخلافيـات ولا يهمه إلا العلم بطريق المجادلة والإلـزام.. وإقحـام الخصـم، ودفـع الحق لأجل المباهاة.. وهـو طـول الليـل والنهـار فى التفـتيش فى مناقضات أربـاب المـذاهب، والتفقـد لعيـوب الأقـران.. وهـؤلاء لم يقصدوا العلم.. وإنما قصروا مباهاة الأقران ولـو اشـتغلوا بتصـفية قلوبهم كـان خـيرا لهم من علم لا ينفـع إلا فى الـدنيا.. ونفعـه فى الدنيا التكبر.. وذلك ينقلب فى الآخرة نارا تلظى..

قالوا: وعينا هذا .. فما السادسة؟

قال: السادسة من اشتغلوا بعلم الكلام والمجادلة والرد على المخـالفين وتتبـع مناقضـاتهم.. واسـتكثروا من علم المقـولات المختلفة.. واشتغلوا بتعلم الطريق فى مناظرة أولئك وإفحامهم..

وهم على فرقتين: إحداهما: ضالة مضلة، والأخرى محقة.

أما غرور الفرقة الضالة فلغفلتها عن ضـلالتها وظنهـا بنفسـها النجاة.. وهم فرق كثيرة يكفر بعضهم بعضا.. وإنما ضلوا من حيث أنهم لم يحكمـوا شـروط الأدلـة ومناهجهـا.. فـرأوا الشـبه دليلاً.. والدليل شبهة.

وأما غرور المحقة، فمن حيث أنهم ظنوا أن الجـدال هـو أهم

الأمور وأفضل القربات فى دين الله تعالى.. وزعموا أنه لا يتم لأحد دينه ما لم يتفحص ويبحث.. وأن من صدق الله تعالى من غير بحث وتحرير دليل فليس ذلك بمؤمن وليس بكامل ولا بمقرب عند الله، ولم يلتفتوا إلى القرن الأول.. وأن النبي شهد لهم بأنهم على خير ولم يطلب منهم الدليل.

قالوا: وعينا هذا .. فما السابعة؟

قال: السابعة من اشتغلوا بالوعظ.. وأعلاهم نية من يتكلم فى أخلاق النفس وصفات القلب.. من الخوف والرجاء.. والصبر والشكر والتوكل.. والزهد واليقين والإخلاص والصدق.. وهم مغرورون لأنهم يظنون بأنفسهم إذا تكلموا بهذه الصفات.. ودعوا الخلق إليها فقد اتصفوا بها.. وهم منفكون عنها إلا عن قدر يسير لا ينفك عنه عوام المسلمين.. وغرورهم أساس الغرور لأنهم يعجبون بأنفسهم غاية الإعجاب..

ويظنون أنهم ما تبحروا فى علم المحبة إلا وهم من الناجين عند الله تعالى وأنهم مغفور لهم بحفظهم لكلام الزهاد مع خلودهم من العمل وهؤلاء أشد غرورا ممن كان قبلهم لأنهم يظنون أنهم يحببون فى الله ورسوله.. وما قدروا على تحقيق دقائق الإخلاص إلا وهم مخلصون ولا وقفوا على خطايا عيوب النفس إلا وهم عنها منزهون.. وكذلك جميع الصفات..

ومع ذلك فهم أشد الناس حبا للدنيا.. يظهرون الزهد فى الدنيا، وما ذلك إلا لشدة حرصهم عليها.. وقوة رغبتهم فيها.. ويحثون على الإخلاص وهم غير مخلصين.. ويظهرون الدعاء إلى الله وهم منه فارون.. ويخوفون بالله وهم منه آمنون.. ويذكرون بالله وهم له ناسون.. ويقربون إلى الله تعالى وهم منه متباعدون.. ويذمون الصفات المذمومة وهم بها متصفون.. ويصرفون الناس عن الخلق وهم على الخلق أشدهم حرصا.. لو منعوا عن مجالسهم التى يدعون فيها الناس إلى الله لضاقت عليهم الأرض بما رحبت.. ويزعمون أن غرضهم إصلاح الخلق، ولو ظهر من أقرانه أحدهم ممن أقبل الخلق عليه ومن صلحوا على يديه لمات غما وحسدا، ولو أثنى واحد من المترددين إليه على

بعض أقرانه لكان أبغض خلق الله تعالى إليه، فهؤلاء أعظم الناس غرورا وأبعدهم عن التنبيه والرجوع إلى السداد.

قالوا: وعينا هذا .. فما الثامنة؟

قـال: الثامنـة من عـدلوا عن المنهج الـواجب فى الوعـظ.. فاشتغلوا بالطامـات والشـطح وتلفيـق كلمـات خارجـة عن قـانون الشرع والعدل طلبا للإغراب.

وطائفة اشتغلوا بطيارات النكت وتسجيع الألفـاظ وتلفيقهـا.. وأكثر همهم فى الأسجاع والاستشهاد بأشعار الوصال.. والفـراق.. وغرضـهم أن يكـثر فى مجلسـهم التواجـد والزعقـات ولـو على أغـراض فاسـدة.. وهـؤلاء شـياطين الإنس ضـلوا وأضـلوا.. فـإن الأولين إن لم يصـلحوا أنفسـهم فقـد أصـلحوا غـيرهم وصـححوا كلامهم ووعظهم.. وأما هؤلاء فإنهم يصدون عن السبيل.. ويجرون الخلق إلى الغرور بالله بلفظ الرجـاء فيزيـدهم كلامهم جـرأة على المعاصى.. ورغبة فى الدنيا لا سيما إذا كان الواعظ متزينا بالثياب والخيل والمراكب ويقنطهم من رحمة الله تعالى.

قالوا: وعينا هذا .. فما التاسعة؟

قال: التاسعة من فتنوا بكلام الزهاد وأحـاديثهم فى ذم الـدنيا فيعيدونها على نحو ما يحفظونه من كلام حفظوه من غـير إحاطـة بمعانيهـا.. فبعضـهم بفعـل ذلـك على المنـابر.. وبعضـهم فى المحاريب.. وبعضهم فى الأسواق مع الجلساء.. ويظن أنه ناج عند الله.. وأنه مغفور له بحفظـه لكلام الزهـاد مـع خلـوه من العمـل.. وهؤلاء أشد غرورا ممن كان قبلهم.

العبَّاد:

قام آخر، وقال: ما دمت قـد ذكـرت بـأن الغـرور يصـيب كـل طوائف الخلق.. فهل يصيب أولئك الذين تفرغوا للعبـادة، فصـاروا مشهورين بين الخلق بالعبَّاد؟

قال الجيلاني: ما دام العبَّاد من طوائـف الخلـق.. ومـا دامـوا يتعرضـون لوسـاوس الشـياطين.. ومـا دامت لهم نفـوس أمـارة..

فلاشك أن الغرور يصيبهم كما يصيب سائر الناس.

قال الرجل: فحدثنا عن غرورهم.

قال الجيلاني: هم على فرق في ذلك.. سأكتفي لكم بعشـرة منها.

قالوا: فما أولها؟

قال: أولهم من أهملوا الفـرائض، واشـتغلوا بالنوافـل، وربمـا تعمقـوا حـتى خرجـوا إلى السـرف والعـدوان، كالـذى تغلب عليـه الوسوسة فى الوضوء فيبالغ فيها.. ويقدر الاحتمالات البعيدة قريبة من النجاسـة.. وإذا آل الأمـر إلى أكـل الحلال قـدر الاحتمـالات القريبة بعيدة وربما أكل الحرام المحض..

قالوا: وعينا هذا .. فما الثانية؟

قال: الثانيـة من غلبت عليهم الوسوسـة فى نيـة الصـلاة، فلا يدعهم الشيطان يعتقدون نية صحيحة.. بـل يوسـوس عليهم حـتى تفوتهم الجماعة، وتخرج الصلاة عن الوقت..

قالوا: وعينا هذا .. فما الثالثة؟

قـال: الثالثـة من غلب عليهـا الوسوسـة فى إخـراج حـروف الفاتحـة.. وسـائر الأذكـار من مخارجهـا.. فلا تـزال تحتـاط فى التشـديدات.. والفـرق بين الضـاد والظـاء.. لا يهمـه غـير ذلـك ولا يتفكر فى أسرار الفاتحة ولا فى معانيهـا.. ولم يعلم أنـه لم يكلـف الخلق فى تلاوة القرآن من تحقيق مخارج الحروف إلا ما جرت به عادتهم فى الكلام..

وهـذا غـرور عظيم.. ومثـالهم مثـال من حمـل رسـالة إلى مجلس السلطان وأمر أن يؤديها على وجهها.. فأخذ يؤدى الرسالة ويتأنق فى مخارج الحروف ويكررها ويعيدها مرة بعـد أخـرى وهـو مع ذلك غافـل عن مقصـود الرسـالة.. ومراعـاة حرمـة المجلس.. وبهذا يرد إلى دار المجانين ويحكم عليه بفقد العقل.

قالوا: وعينا هذا .. فما الرابعة؟

قال: الرابعة من اغتروا بقراءة القرآن.. فيهدرونه هدرا.. وربما يختمونه فى اليوم والليلة ختما.. وألسنتهم تجرى به.. وقلوبهم تتردى فى أودية الأماني والتفكر فى الدنيا.. ولا يتفكر فى معانى القرآن..لينزجر بزواجره.. ويتعظ بمواعظه.. ويقف عند أوامره ونواهيه.. ويعتبر بمواضع الاعتبار منه.. ويتلذذ به من حيث المعنى لا من حيث النظم.. ومن قرأ كتاب الله تعالى فى اليوم والليلة مائة مرة.. ثم ترك أوامره ونواهيه فهو مستحق العقوبة.. وربما قد يكون له صوت لين فهو يقرأ ويتلذذ به.. ويغتر باستلذاذه.. ويظن أن ذلك مناجاة الله سبحانه تعالى.. وسماع كلامه.. وهيهات ما أبعده.. إذا لذاته فى صوته.. ولو أدرك لذة كلام الله تعالى ما نظر إلى صوته وطيبه..ولا تعلق خاطره به..

قالوا: وعينا هذا .. فما الخامسة؟

قال: الخامسة من اغتروا بالصوم.. وربما صاموا الدهر.. وصاموا الأيام الشريفة وهم فيها لا يحفظون ألسنتهم من الغيبة.. ولا خواطرهم من الربا.. ولا بطونهم من الحرام عند الافطار ولا من الهذيان من أنواع الفضول.. وذلك غرور عظيم.. وهؤلاء تركوا الواجب.. وأبقوا المندوب.. فظنوا أنهم يسلمون.. وهيهات.. إنما يسلم من أتى الله بقلب سليم..

قالوا: وعينا هذا .. فما السادسة؟

قال: السادسة من أخذوا فى طريق الخشية والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ينكر على الناس.. ويأمرهم بالخير.. وينسى نفسه!.. وإذا أمرهم بالخير عنف وطلب الرياسة والعزة.. وإذا باشر منكرا أنكر عليه، وغضب وقال: أنا المحتسب.. فكيف تنكر علىَّ.. وقد تجمع الناس فى مجلسه أو مسجده.. ومن تأخر عنه أغلظ عليه القول.. وإنما غرضه الرياء والسمعة وحب الرئاسة.. وعلامة أنه لو قام بالمسجد غيره تجرأ عليه..

بل منهم من يؤذن ويظن أنه يؤذن لله تعالى.. ولو جاء غيره وأذن فى وقت غيبته قامت عليه القيامة.. وقال: لم أخذ حقى؟!.. وزوحمت؟!..

ومنهم من يتقيد إمام مسجد ويظن أنه على خير.. وإنما غرضه أن يقال: إنه إمام المسجد.. وعلامته: أنه لو قدم غيره وإن كان أروع منه.. وأعلم.. ثقل عليه ذلك..

قالوا: وعينا هذا .. فما السابعة؟

قال: السابعة من زهدوا فى المال وقنعوا من الطعام واللباس بالدون.. ومن السكن بالمساجد. وظنوا أنهم أدركوا رتبة الزهاد.. وهم مع ذلك راغبون فى الرياسة والجاه.. والزهادة إنما تحصل بأحد أشياء: إما بالتعلم أو بالوعظ.. أو بمجرد الزهد.. فلقد تركوا أهون الأمرين.. وباءوا بأعظم المهلكات.. فإن الجاه أعظم من المال.. ولو أخذ المال وترك الجاه كان إلى السلامة أقرب.. وهؤلاء مغرورون بظنهم أنهم من الزهاد فى الدنيا، ولم يفهموا كيف مكر بهم..

ومنهم من يعجب بعلمه.. ومنهم من يؤثر الخلوة وهو عن شروطها خال.. ومنهم من يعطى المال فلا يأخذه خيفة أن يقال بطل زهده.. وهو راغب فى الدنيا.. خائف من ذم الناس.. ومنهم من شدد على نفسه فى أعمال الجوامع.. حتى يصلى فى اليوم مثلا ألف ركعة ويختم القرآن وهو فى جميع ذلك لا يخطر له مراعاة القلب وتفقده وتطهيره من الرياء والكبر والعجب وسائر المهلكات.. وربما يظن أن العبادة الظاهرة ترجح بها كفة الحسنات.. وهيهات ذرة من ذى تقوى.. وخلق واحد من خلق الأكياس أفضل من أمثال الجبال عملا بالجوارح.. ثم قد يغتر بقول من يقول له: إنك من أوتاد الأرض.. وأولياء الله وأحبائه.. فيفرح لذلك.. ويطهر له تزكية نفسه.. ولو شتم يوما واحدا ثلاث مرات أو مرتين لكفر وجاهد من فعل ذلك به.. وربما قال لمن سبه: لا يغفر الله لك أبدا..

قالوا: وعينا هذا .. فما الثامنة؟

قال: الثامنة من حرصت على النوافل، ولم يعظم اعتدادها بالفرائض.. فتارة يفرح بصلاة الضحى، وصلاة الليل.. وأمثال هذه النوافل، فلا يجد لصلاة الفريضة لذة ولا خير من الله تعالى، لشدة

حرصه على المبادرة فى أول الوقت..

وترك الترتيب بين الخيرات من جملة الغـرور.. بـل قـد يتعين على الإنسان فرضـان: أحـدهما يفـوت والآخـر لا يفـوت.. أو نفلان أحدهما يضيق وقته والآخر متسـع وقتـه.. فـإن لم يحفـظ الـترتيب كان مغـرورا.. ونظـائر ذلـك أكـثر من أن تحصـى.. فـإن المعصـية ظاهرة.. وإنما الغامض تقديم بعض الطاعات على بعض.. كتقـديم الفرائض كلها على النوافل.. وتقديم فروض الأعيـان على فـروض الكفايات التى لا قائم بها على ما قدم بها غيره.. وتقديم الأهم من فروض الأعيان على ما دونه.. وتقديم مـا يفـوت مثـل تقـديم حـق الوالـدة على الوالـد.. وتقـديم الـدين على القـروض غـيره.. ومـا أعظم العبـد أن ينفـذ ذلـك.. ويرتبـه.. ولكن الغـرور فى الـترتيب دقيق خفى لا يقدر عليه إلا العلماء الراسخون فى العلم.

قالوا: وعينا هذا .. فما التاسعة؟

قال: التاسـعة **فرق اهتمـوا بالعبـادات المالية**.. وهـؤلاء أصناف متعددة..

فمنهم من يحرصـــون على بنـــاء المســـاجد والمـــدارس، ويكتبـون أسـماءهم عليهـا.. ليتخلـده ذكـرهم، ويبقى بعـد المـوت أثرهم.. وهم يظنون أنهم استحقوا المغفرة بذلك.. وقد اغتروا فيه من وجهين..

أحـدهما: أنهم قـد اكتسـبوها من الظلم والشـبهات والرشـا والجهات المحظورة.. وهم قد تعرضـوا لسـخط اللـه فى كسـبها.. والواجب عليهم فى التوبة ردها إلى ملاكهـا إن كـانوا أحيـاء أو إلى ورثتهم.. فإن لم يبـق منهم أحـد وانقرضـوا فـالواجب صـرفها فى أهم المصالح..

والثـانى: أنهم يظنـون بأنفسـهم الإخلاص وقصـد الخـير فى الانفاق.. وعلو الأبنية.. ولـو كلـف أحـد منهم أن ينفـق دينـارا على مسكين لم تسمح نفسه بذلك..

ومنهم آخـرون ربمـا اكتسـبوا الحلال.. واجتنبـوا الحـرام

وأنفقوه على المساجد، وهى أيضا مغرورة من وجهين:

أحدهما: الرياء وطلب السمعة والثناء.. فإنه ربما يكون فى جواره أو بلده فقراء، وصرف المال إليهم أهم.. فإن المساجد كثيرة.. والمساكين والفقراء محتاجون.

وإنما خف عليهم دفع المال فى بناء المساجد لظهور ذلك بين الناس.. ولما يسمع من الثناء عليه من الخلق، فيظن أنه يعمل لله وهو يعمل لغير الله.. والله أعلم بذلك..

والثانى: أنه يصرف ذلك فى زخرفة المساجد وتزيينها بالنقوش المنهى عنها.. الشاغلة قلوب المصلين لأنهم ينظرون إليها وتشغلهم عن الخشوع فى الصلاة.. وعن حضور القلب.. وهو المقصود.. وكلما طرأ على المصلين فى صلاتهم وفى غير صلاتهم فهو فى رقبة البانى للمسجد.. إذ لا يحل تزيين المسجد بوجه.. وغرور هؤلاء أنهم رأوا المنكر معروفا فاتكلوا عليه.

ومنهم من ينفقون الأموال فى الصدقات على الفقراء والمساكين.. ويطلبون بها المحافل الجامعة.. ومن الفقراء من عادته الشكر..والإفشاء للمعروف.. ويكرهون التصدق فى السر.. ويرون إخفاء الصدقة للفقير لما يأخذه منهم خيانة عليهم.. وكفرانا..وربما تركوا جيرانهم جائعين..

ومنهم من يحفظون الأموال، ويمسكونها بحكم البخل ويشتغلون بالعبادات الدينية التى لا يحتاجون فيها إلى نفقة.. كصيام النهار.. وقيام الليل.. وختم القرآن.. وهؤلاء مغرورن.. لأن البخل المهلك قد استولى على باطنهم.. فهم محتاجون إلى قمعه بإخراج المال.. فاشتغلوا بطلب فضائل وهم مشتغلون عنها..

ومثالهم في هذا مثال من دخلت فى ثوبه حية.. وقد أشرف على الهلاك.. وهم مشغول عنها بطلب الدواء الذي يسكن الصفراء.. ومن لدغته الحية كيف يحتاج إلى ذلك؟!.. ولذلك قيل لبشر الحافى: إن فلانا كثير الصوم والصلاة.. فقال: المسكين ترك حاله.. ودخل فى حال غيره.. وإنما حال هذا إطعام الطعام للجائع.. والإنفاق على المساكين.. فهو أفضل له من تجويع

نفسه.. ومن صلاته.. مع جمعه للدنيا ومنعه للفقراء..

ومنهم من غلب عليهم البخل.. فلا تسمح نفوسهم إلا بأداء الزكاة فقط.. ثم إنهم يخرجونها من المال الخبيث الردئ الذى يرغبون عنه.. ويطلبون من الفقراء من يخدمهم.. ويتردد فى حاجاتهم.. أو من يحتاج إليه فى المستقبل للاستئجار لهم فى الخدمة.. ومن لهم فيه غرض.. ويسلمونها إلى شخص بعينه واحد من الكبار.. ممن يستظهر بخشيته.. لينال بذلك عنده منزلة.. فيقوم بحاجته.. وكل ذلك مفسد للنية.. ومحبط للعمل.. وصاحبه مغرور.. يظن أنه مطيع لله تعالى.. وهو فاجر.. إذا يطلب بعبادة الله تعالى عوضا من غيره..

قالوا: وعينا هذا .. فما العاشرة؟

قال: العاشرة طائفة من عوام الخلق وأرباب والأموال والفقراء.. اغتروا بحضور مجالس الذكر.. واعتقدوا أن ذلك يغنيهم ويكفيهم.. فاتخذوا ذلك عادة ويظنون أن لهم على مجرد سماع الوعظ دون العمل.. ودون الاتعاظ أجرا.. وهم مغرورن لأن فضل مجالس الذكر لكونها رغبة فى الخير.. وإذا لم تهج الرغبة فلا خير فيها.. والرغبة محمودة.. لأنها تبعث على العمل.. وإن لم تبعث على العمل فلا خير فيها.. وربما يغتر بما يسمعه من الوعظ.. وإنما يداخله رقه كرقة النساء فيبكى!.. وربما يسمع كلاما مخوفا فلا يزال يصفر بين يديه ويقول: يا سلام سلم!.. ونعوذ بالله!.. والحمد لله.. وحسبى الله ولا حول ولا قوة إلا بالله!.. ويظن أنه قد أتى بالخير كله.. وهو مغرور..

ومثاله مثال المريض.. الذى يحضر إلى مجالس الأطباء.. ويسمع ما يصفونه من الأدوية ولا يعقلها.. ولا يشتغل بها ويظن أنه يجد الراحة بذلك. والجائع الذى يحضر عنده من يصف له الأطعمة اللذيذة..

فكل وعظ لا يغير منك صفة تغير بدونها أفعالك.. حتى تقبل على الله وتعرض عن الدنيا.. وتقبل إقبالاً قويا.. وإن لم تفعل فذلك الوعظ زيادة حجة عليك.. فإذا رأيته وسيلة لك كنت

مغرورا.

***

بقيت مـدة في قسـم الغـرور.. أتعلم من الجيلاني تلبيسـات إبليس، وحبـال غـروره إلى أن أيقنت بـأن لإبليس في كـل محـل وساوس ينبغي أن أحتاط لها.. فهو – بما أوتيـه من خـبرة بنفـوس البشر- لا يفرق في وساوسه بين الخير والشر، ولا بين الصـالحين والمنحرفين.. لا ييأس من أي منهم.. بل يستعمل مع كل صنف ما يتناسب معه.

وبعـدما امتحنـني الجيلاني ببعض الامتحانـات، ورأى أني قـد نجحت فيها أجازني في هذا القسم، وأمرني أن أسـير إلى القسـم الرابع..

4 ـ العجلة

سرت إلى القسم الرابع.. وقد كان شيخه رجلا عالمـا علامـة قدم من بلخ، كان الجميع يطلقون عليه تعظيما لقب مولانا.. وكان اسمه جلال الدين الرومي[1].

وقد عجبت من كثرة من كان في هـذا القسـم، وعجبت أكـثر لما رأيت من نشاطهم الكبير وحماسـتهم العظيمـة، وقـد أخـبرني شيخي الرفاعي أن أكثر حضـور ذلـك المجلس رجـال من الـدعاة إلى الله سقطوا في فخاخ العجلة، فراحوا يتسرعون في أحكامهم وفي محاولة قطف ثمار مجهوداتهم.. وقد جعلهم كل ذلك يقعــون في الشباك التي يقع فيها كل عجول، فلا الثمار قطفوا، ولا قواهم حفظوا.

كـان أول مـا سـمعته منـه عنـدما دخلت مجلسـه هـو ترتيلـه بخشوع لقوله تعالى :﴿ وَيَدْعُ الْإِنْسانُ بِالشَّرِّ دُعـاءَهُ بِـالْخَيْرِ وَكـانَ الْإِنْسانُ عَجُولًا (11)﴾ (الإسراء)

---

[1] أشير به إلى محمد بن محمد بن حسين بهاء الدين البلخي (604 هـ - 672 هـ) عـرف أيضا باسم مولانا جَلَال الدِّين الرُّومي: شاعر، عالم بفقه الحنفية والخلاف وأنواع العلـوم، ثم متصوف، وهو صاحب المثنوي المشهور بالفارسية، وصاحب الطريقة المولوية.

ثم قال بعدها: إن الله تعالى يقرر في هذه الآية صفة من صفات الإنسان، لا يمكن أن يعرف الإنسان من دون أن تعرف، ولا يمكن أن يسمو من دون أن توجه وتعالج بما وضع الشرع من بلاسم الشفاء.

قالوا: لاشك أنك تقصد العجلة؟

قال: أجل.. فالإنسان – كما تقرر الآية الكريمة- مفطور عليها.. وذلك بحكم الزمن المحدود الذي يعيشه، والأماكن المحدودة التي يمكن أن يعيش فيها.. وهو مع هذه المحدودية ذو نفس تواقة لا يملؤها شيء.. فلهذا تجده يستعجل كل شيء، ويتمنى أن يكون أمامه قبل أن يأتي عليه ما قدر عليه من الممات.

قالوا: فلم ليم عليها ما دامت قد طبعت فيه، وجبل عليها؟

قال: هو لا يلام على كونها طبعت فيه.. ولكنه يلام على توجيهها التوجيه السيء.

الحسنة:

قالوا: أيمكن أن توجه العجلة توجيها حسنا؟

قال: أجل.. وعلى ذلك تدل النصوص الكثيرة الداعية إلى المبادرة إلى الخيرات والعجلة فيها، كما يشير إلى ذلك قوله تعالى إخبارا عن موسى ﷺ: ﴿ وَمَا أَعْجَلَكَ عَنْ قَوْمِكَ يَا مُوسَى (83) قَالَ هُمْ أُولَاءِ عَلَى أَثَرِي وَعَجِلْتُ إِلَيْكَ رَبِّ لِتَرْضَى (84)﴾ (طه)

ومثل ذلك قوله تعالى :﴿ وَسارِعُوا إِلى مَغْفِرَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّماواتُ وَالْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ (133) الَّذِينَ يُنْفِقُونَ فِي السَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ وَالْكاظِمِينَ الْغَيْظَ وَالْعافِينَ عَنِ النَّاسِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ (134) وَالَّذِينَ إِذا فَعَلُوا فاحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ وَمَنْ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلَّا اللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّوا عَلى ما فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ (135) أُولئِكَ جَزاؤُهُمْ مَغْفِرَةٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَجَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهارُ خالِدِينَ

فِيها وَنِعْمَ أَجْرُ الْعامِلِينَ (136)) (آل عمران)

ومثل ذلك إخباره عن أنبياء اللـه ومسـارعتهم في الخـيرات: (وَزَكَرِيَّا إِذْ نادى رَبَّهُ رَبِّ لا تَذَرْنِي فَرْداً وَأَنْتَ خَيْـرُ الْـوارِثِينَ (89) فَاسْتَجَبْنا لَهُ وَوَهَبْنا لَهُ يَحْيى وَأَصْلَحْنا لَهُ زَوْجَهُ إِنَّهُمْ كانُوا يُسارِعُونَ فِي الْخَيْـراتِ وَيَـدْعُونَنا رَغَبـاً وَرَهَبـاً وَكـانُوا لَنـا خاشِـعِينَ (90)) (الأنبياء)

ومثل ذلك إخباره عمن قبلنا من الصالحين من أهل الكتـاب : (لَيْسُوا سَواءً مِنْ أَهْـلِ الْكِتـابِ أُمَّةٌ قائِمَـةٌ يَتْلُـونَ آيـاتِ اللَّهِ آنـاءَ اللَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ (113) يُؤْمِنُـونَ بِاللَّهِ وَالْيَـوْمِ الْآخِـرِ وَيَـأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُسارِعُونَ فِي الْخَيْراتِ وَأُولئِكَ مِنَ الصَّالِحِينَ (114)) (آل عمران)

ومثل ذلك إخباره عن صفة المؤمنين في كـل الأزمنـة :(إِنَّ الَّذِينَ هُمْ مِنْ خَشْيَةِ رَبِّهِمْ مُشْـفِقُونَ (57) وَالَّذِينَ هُمْ بِآيـاتِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ (58) وَالَّذِينَ هُمْ بِرَبِّهِمْ لا يُشْرِكُونَ (59) وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ ما آتَوْا وَقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلى رَبِّهِمْ راجِعُـونَ (60) أُولئِكَ يُسـارِعُونَ فِي الْخَيْراتِ وَهُمْ لَها سابِقُونَ (61)) (المؤمنون)

ومثل ذلك قوله آمرا بالمسارعة إلى الخيرات :(لِكُـلٍّ وِجْهَـةٌ هُوَ مُوَلِّيها فَاسْتَبِقُوا الْخَيْراتِ أَيْنَ ما تَكُونُوا يَأْتِ بِكُمُ اللَّهُ جَمِيعاً إِنَّ اللَّهَ عَلى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (148)) (البقرة)، وقوله :(وَأَنْزَلْنا إِلَيْـكَ الْكِتـابَ بِـالْحَقِّ مُصَـدِّقاً لِمـا بَيْنَ يَدَيْـهِ مِنَ الْكِتـابِ وَمُهَيْمِنـاً عَلَيْـهِ فَاحْكُمْ بَيْنَهُمْ بِما أَنْزَلَ اللَّهُ وَلا تَتَّبِعْ أَهْـواءَهُمْ عَمَّا جـاءَكَ مِنَ الْحَـقِّ لِكُلٍّ جَعَلْنا مِنْكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهاجاً وَلَوْ شـاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً واحِـدَةً وَلكِنْ لِيَبْلُوَكُمْ فِي ما آتـاكُمْ فَاسْـتَبِقُوا الْخَيْـراتِ إِلَى اللَّهِ مَـرْجِعُكُمْ جَمِيعاً فَيُنَبِّئُكُمْ بِما كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ (48)) (المائدة)

ومثل ذلك قوله آمرا المؤمنين بأن يحرصوا على الأولية الـتي لا يصلها إلا المسارعون: (قُلْ أَغَيْرَ اللَّهِ أَتَّخِذُ وَلِيًّا فاطِرِ السَّماواتِ وَالْأَرْضِ وَهُـوَ يُطْعِمُ وَلا يُطْعَمُ قُـلْ إِنِّي أُمِـرْتُ أَنْ أَكُـونَ أَوَّلَ مَنْ أَسْلَمَ وَلا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ (14)) (الأنعـام)، وقولـه قُـلْ إِنَّنِي هَدانِي رَبِّي إِلى صِراطٍ مُسْتَقِيمٍ دِيناً قِيَمـاً مِلَّةَ إِبْـراهِيمَ حَنِيفـاً وَمـا

كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ (161) قُلْ إِنَّ صَلاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيايَ وَمَماتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعالَمِينَ (162) لا شَرِيكَ لَهُ وَبِذلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ (163) (الأنعام)، قوله : قُلْ إِنِّي أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللَّهَ مُخْلِصاً لَهُ الدِّينَ (11) وَأُمِرْتُ لِأَنْ أَكُونَ أَوَّلَ الْمُسْلِمِينَ (12) قُلْ إِنِّي أَخافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ (13) (الزمر)، وقوله إخبارا عن موسى ﷺ : وَلَمَّا جاءَ مُوسى لِمِيقاتِنا وَكَلَّمَهُ رَبُّهُ قالَ رَبِّ أَرِنِي أَنْظُرْ إِلَيْكَ قالَ لَنْ تَرانِي وَلكِنِ انْظُرْ إِلَى الْجَبَلِ فَإِنِ اسْتَقَرَّ مَكانَهُ فَسَوْفَ تَرانِي فَلَمَّا تَجَلَّى رَبُّهُ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُ دَكًّا وَخَرَّ مُوسى صَعِقاً فَلَمَّا أَفاقَ قالَ سُبْحانَكَ تُبْتُ إِلَيْكَ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُؤْمِنِينَ (143) (الأعراف)، وقوله على ألسنة السحرة بعد أن آمنوا : إِنَّا نَطْمَعُ أَنْ يَغْفِرَ لَنا رَبُّنا خَطايانا أَنْ كُنَّا أَوَّلَ الْمُؤْمِنِينَ (51) (الشعراء)

ومثل ذلك إخباره عن فضل السابقين من المؤمنين، قال تعالى : وَالسَّابِقُونَ الْأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهاجِرِينَ وَالْأَنْصارِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُمْ بِإِحْسانٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي تَحْتَهَا الْأَنْهارُ خالِدِينَ فِيها أَبَداً ذلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ (100) (التوبة)، وقال : وَما لَكُمْ أَلَّا تُنْفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلِلَّهِ مِيراثُ السَّماواتِ وَالْأَرْضِ لا يَسْتَوِي مِنْكُمْ مَنْ أَنْفَقَ مِنْ قَبْلِ الْفَتْحِ وَقاتَلَ أُولئِكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً مِنَ الَّذِينَ أَنْفَقُوا مِنْ بَعْدُ وَقاتَلُوا وَكُلًّا وَعَدَ اللَّهُ الْحُسْنى وَاللَّهُ بِما تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ (10) (الحديد)

ومثل ذلك إخباره عن فضل الورثة السابقين، قال تعالى : ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنا مِنْ عِبادِنا فَمِنْهُمْ ظالِمٌ لِنَفْسِهِ وَمِنْهُمْ مُقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سابِقٌ بِالْخَيْراتِ بِإِذْنِ اللَّهِ ذلِكَ هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ (32) (فاطر)

ومثل ذلك إخباره عن فوز السابقين دون المتكاسلين، قال تعالى : اعْلَمُوا أَنَّمَا الْحَياةُ الدُّنْيا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفاخُرٌ بَيْنَكُمْ وَتَكاثُرٌ فِي الْأَمْوالِ وَالْأَوْلادِ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ الْكُفَّارَ نَباتُهُ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَراهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَكُونُ حُطاماً وَفِي الْآخِرَةِ عَذابٌ شَدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ مِنَ اللَّهِ وَرِضْوانٌ وَمَا الْحَياةُ الدُّنْيا إِلَّا مَتاعُ الْغُرُورِ (20) سابِقُوا إِلى مَغْفِرَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُها كَعَرْضِ السَّماءِ وَالْأَرْضِ أُعِدَّتْ

لِلَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ ذلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ (21)﴾ (الحديد)، وقال :﴿ إِنَّ الْأَبْرارَ لَفِي نَعِيمٍ (22) عَلَى الْأَرائِكِ يَنْظُرُونَ (23) تَعْرِفُ فِي وُجُوهِهِمْ نَضْرَةَ النَّعِيمِ (24) يُسْقَوْنَ مِنْ رَحِيقٍ مَخْتُومٍ (25) خِتامُهُ مِسْكٌ وَفِي ذلِكَ فَلْيَتَنافَسِ الْمُتَنافِسُونَ (26)﴾ (المطففين)

إن هذه النصوص جميعا تدل على العجلة الحسنة.. وهي العجلة التي دعا إليها رسول الله ﷺ حين قال: (التؤدة[1] في كلّ شيء إلّا في عمل الآخرة)[2]

وبين أسباب الدعوة إليها، فقال في أحاديث متعددة بصيغ مختلفة: (بادروا بالأعمال سبعا: هل تنظرون إلّا فقرا منسيا، أو غنى مطغيا، أو مرضا مفسدا، أو هرما مفندا، أو موتا مجهزا، أو الدّجّال، فشرّ غائب ينتظر، أو السّاعة فالسّاعة أدهى وأمرّ)[3]

وقال: (بادروا بالأعمال فتنا كقطع اللّيل المظلم، يصبح الرّجل مؤمنا ويمسي كافرا، أو يمسي مؤمنا ويصبح كافرا، يبيع دينه بعرض من الدّنيا)[4]

وقال: (تبادروا بالأعمال ستّا: طلوع الشّمس من مغربها، والدّجّال، والدّخان، ودابّة الأرض، وخويصة أحدكم، وأمر العامّة)[5]

وقال: (اغتنم خمسا قبل خمس، شبابك قبل هرمك، وصحّتك قبل سقمك، وغناك قبل فقرك، وفراغك قبل شغلك، وحياتك قبل موتك)[6]

وبين سعة أجر المسارعين للخيرات مقارنة بغيرهم، فقال:

---

[1] التؤدة: التأني والتمهل والرزانة.

[2] رواه أبو داود والحاكم والبيهقي.

[3] رواه الترمذي، وقال: حديث حسن.

[4] رواه مسلم.

[5] رواه أحمد وابن ماجة.

[6] رواه الحاكم وقال: صحيح على شرطهما.

(من اغتسل يوم الجمعة غسل الجنابة ثمّ راح فكأنّما قـرّب بدنـة، ومن راح في السّـاعة الثّانيـة فكأنّمـا قـرّب بقـرة، ومن راح في السّاعة الثّالثـة فكأنّمـا قـرّب كبشـا أقـرن، ومن راح في السّـاعة الرّابعة فكأنّما قرّب دجاجة، ومن راح في السّاعة الخامسة فكأنّما قرّب بيضة، فإذا خرج الإمام حضرت الملائكة يستمعون الذّكر)[1]

وروي أنه أمر أصحابه بالغزو، وأنّ رجلا تخلّف وقال لأهلـه: أتخلّف حتّى أصلّي مع رسول اللّه الظّهر ثمّ أسلّم عليه وأودّعـه فيدعو لي بدعوة تكون شافعة يـوم القيامـة. فلمّـا صـلّى النّـبيّ أقبل الرّجل مسلّما عليه فقال له رسـول اللّـه :(والّـذي نفسـي بيده لقد سبقوك بأبعد ما بين المشرقين والمغربين في الفضـيلة)[2]

ودعـا إلى المنافسـة الـتي تسـتدعي التعجيـل والمسـارعة، فقال: (لا تنافس بينكم إلّا في اثنتين: رجل أعطـاه اللّـه عـزّ وجـلّ القرآن فهو يقوم به آناء اللّيـل وآنـاء النّهـار ويتّبـع مـا فيـه فيقـول رجل: لو أنّ اللّه تعالى أعطاني مثل ما أعطى فلانا فأقوم به كمـا يقوم به. ورجل أعطاه اللّه مالا فهو ينفق ويتصـدّق فيقـول رجـل: لو أنّ اللّه أعطاني مثل ما أعطى فلانا فأتصدّق به..الحديث)[3]

بل مثل رسول الله بنفسه هـذه المسـارعة، ففي الحـديث عن أنس قال: كان النّبيّ أحسن النّاس، وأشجع النّـاس، وأجـود النّاس، ولقد فزع أهل المدينة، فكان النّبيّ سبقهم على فـرس، وقال: (وجدناه بحرا)[4]

السيئة:

قالوا: لقد عرفنا العجلة الحسنة.. فما العجلة السـيئة.. أو مـا الوجهة السيئة التي يمكن أن توجه إليها العجلة؟

1() رواه البخاري.

2() رواه أحمد.

3() رواه البخاري ومسلم.

4() رواه البخاري.

قال: هي تلك الوجهة التي أخبر الله تعالى أن أقوام الأنبياء أتوا منهم.. فقد كذبوا أنبياءهم واستعجلوا العذاب الذي توعدوهم به:

قال تعالى حاكيا عن عاد:﴿ وَاذْكُرْ أَخا عادٍ إِذْ أَنْذَرَ قَوْمَهُ بِالْأَحْقافِ وَقَدْ خَلَتِ النُّذُرُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ إِنِّي أَخافُ عَلَيْكُمْ عَذابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ (21) قالُوا أَجِئْتَنا لِتَأْفِكَنا عَنْ آلِهَتِنا فَأْتِنا بِما تَعِدُنا إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ (22)﴾ (الأحقاف)

وقال حاكيا عن ثمود:﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنا إِلى ثَمُودَ أَخاهُمْ صالِحاً أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ فَإِذا هُمْ فَرِيقانِ يَخْتَصِمُونَ (45) قالَ يا قَوْمِ لِمَ تَسْتَعْجِلُونَ بِالسَّيِّئَةِ قَبْلَ الْحَسَنَةِ لَوْ لا تَسْتَغْفِرُونَ اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ (46) قالُوا اطَّيَّرْنا بِكَ وَبِمَنْ مَعَكَ قالَ طائِرُكُمْ عِنْدَ اللَّهِ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ تُفْتَنُونَ (47)﴾ (النمل)

وقال حاكيا عن أقوام مختلفين:﴿ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعادٌ وَفِرْعَوْنُ ذُو الْأَوْتادِ (12) وَثَمُودُ وَقَوْمُ لُوطٍ وَأَصْحابُ الْأَيْكَةِ أُولئِكَ الْأَحْزابُ (13) إِنْ كُلٌّ إِلَّا كَذَّبَ الرُّسُلَ فَحَقَّ عِقابِ (14) وَما يَنْظُرُ هؤُلاءِ إِلَّا صَيْحَةً واحِدَةً ما لَها مِنْ فَواقٍ (15) وَقالُوا رَبَّنا عَجِّلْ لَنا قِطَّنا قَبْلَ يَوْمِ الْحِسابِ (16)﴾ (ص)

وقاليا حاكيا عن قوم النبي ﷺ :﴿ فَاصْبِرْ كَما صَبَرَ أُولُوا الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ وَلا تَسْتَعْجِلْ لَهُمْ كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَ ما يُوعَدُونَ لَمْ يَلْبَثُوا إِلَّا ساعَةً مِنْ نَهارٍ بَلاغٌ فَهَلْ يُهْلَكُ إِلَّا الْقَوْمُ الْفاسِقُونَ (35)﴾ (الأحقاف)، وقال:﴿ وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذابِ وَلَنْ يُخْلِفَ اللَّهُ وَعْدَهُ وَإِنَّ يَوْماً عِنْدَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِمَّا تَعُدُّونَ (47)﴾ (الحج)، وقال: ﴿ وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذابِ وَلَوْ لا أَجَلٌ مُسَمًّى لَجاءَهُمُ الْعَذابُ وَلَيَأْتِيَنَّهُمْ بَغْتَةً وَهُمْ لا يَشْعُرُونَ (53) يَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذابِ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكافِرِينَ (54) يَوْمَ يَغْشاهُمُ الْعَذابُ مِنْ فَوْقِهِمْ وَمِنْ تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ وَيَقُولُ ذُوقُوا ما كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (55)﴾ (العنكبوت)، وقال:﴿ أَفَبِعَذابِنا يَسْتَعْجِلُونَ (176) فَإِذا نَزَلَ بِساحَتِهِمْ فَساءَ صَباحُ الْمُنْذَرِينَ (177)﴾ (الصافات)، وقال:﴿ فَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا ذَنُوباً مِثْلَ ذَنُوبِ أَصْحابِهِمْ فَلا يَسْتَعْجِلُونِ (59) فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ يَوْمِهِمُ الَّذِي يُوعَدُونَ (60)﴾ (الذاريات)، وقال:

 اللَّهُ الَّذِي أَنْزَلَ الْكِتابَ بِالْحَقِّ وَالْمِيزانَ وَما يُدْرِيكَ لَعَلَّ السَّاعَةَ قَرِيبٌ (17) يَسْتَعْجِلُ بِهَا الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِها وَالَّذِينَ آمَنُوا مُشْفِقُونَ مِنْها وَيَعْلَمُونَ أَنَّهَا الْحَقُّ أَلا إِنَّ الَّذِينَ يُمارُونَ فِي السَّاعَةِ لَفِي ضَلالٍ بَعِيدٍ (18) (الشورى)

وقد أخبر الله تعالى أنه برحمته ولطفه بعباده لا يعجل لخلقه ما يطلبونه من شر، قال تعالى: وَلَوْ يُعَجِّلُ اللَّهُ لِلنَّاسِ الشَّرَّ اسْتِعْجالَهُمْ بِالْخَيْرِ لَقُضِيَ إِلَيْهِمْ أَجَلُهُمْ فَنَذَرُ الَّذِينَ لا يَرْجُونَ لِقاءَنا فِي طُغْيانِهِمْ يَعْمَهُونَ (11) (يونس)

ومثل هذا ورد النهي عن العجلة في أحاديث رسول الله مبينا خطر عواقبها، ففي الحديث قال : (التّؤدة[1] في كلّ شيء إلّا في عمل الآخرة)[2]

وقال: (السّمت الحسن والتّؤدة والاقتصاد جزء من أربعة وعشرين جزءا من النّبوّة)[3]

وقال: (يستجاب لأحدكم ما لم يعجل، فيقول: قد دعوت ربّي فلم يستجب لي)[4]

وروي أنّ رجلا من أعظم المسلمين غناء عن المسلمين في غزوة غزاها مع النّبيّ ، فنظر النّبيّ فقال: من أحبّ أن ينظر إلى رجل من أهل النّار فلينظر إلى هذا، فاتّبعه رجل من القوم وهو على تلك الحال من أشدّ النّاس على المشركين حتّى جرح فاستعجل الموت فجعل ذبابة سيفه بين ثدييه حتّى خرج من بين كتفيه فأقبل الرّجل إلى النّبيّ مسرعا فقال: أشهد أنّك رسول اللّه، فقال: وما ذاك؟ قال: قلت لفلان من أحبّ أن ينظر إلى رجل من أهل النّار فلينظر إليه، وكان من أعظمنا غناء عن المسلمين فعرفت أنّه لا يموت على ذلك، فلمّا جرح استعجل

1() التؤدة هي التأنّي والتمهل يقال: اتّئد في أمرك (أي تمهل وتأنّ).

2() رواه أبو داود.

3() رواه الترمذي، وقال: حديث حسن غريب.

4() رواه البخاري ومسلم.

الموت فقتل نفسه. فقال النّبيّ عند ذلك: (إنّ العبد ليعمل عمل أهل النّار وإنّه من أهل الجنّة، ويعمل عمل أهل الجنّة وإنّه من أهل النّار، وإنّما الأعمال بالخواتيم)(1)

وروي أنه عاد رجلا من المسلمين قد خفت فصار مثل الفرخ، فقال له : (هل كنت تدعوه بشيء أو تسأله إيّاه؟) قال: نعم. كنت أقول: اللّهمّ ما كنت معاقبي به في الآخرة فعجّله لي في الدّنيا. فقال رسول اللّه : (سبحان اللّه لا تطيقه، أفلا قلت: (اللّهمّ آتنا في الدّنيا حسنة وفي الآخرة حسنة وقنا عذاب النّار) وقال: فدعا اللّه له. فشفاه)(2)

وسمع رجلا يدعو في صلاته لم يمجّد اللّه ولم يصلّ على النّبيّ ، فقال له: (عجلت أيّها المصلّي)، ثمّ علّمهم رسول اللّه .. وسمع رجلا يصلّي فمجّد اللّه وحمده وصلّى على النّبيّ ، فقال : (ادع تجب وسل تعط)(3)

وعن عليّ قال: بعثني رسول اللّه إلى اليمن قاضيا، فقلت يا رسول اللّه، ترسلني وأنا حديث السّنّ ولا علم لي بالقضاء؟ فقال: (إنّ اللّه سيهدي قلبك ويثبّت لسانك، فإذا جلس بين يديك الخصمان فلا تقضينّ حتّى تسمع من الآخر كما سمعت من الأوّل؛ فإنّه أحرى أن يتبيّن لك القضاء)، قال: فما زلت قاضيا، أو ما شككت في قضاء بعد(4).

قام بعض الحاضرين، وقال: نحن قوم من الدعاة إلى الله كانت تنقصنا البصيرة.. وكانت تستفزنا العجلة.. وقد حصل لنا بسببها ما نحن نادمون عليه.. وقد قصدناك لنتدرب على الأناة.. فحدثنا عنها.. وحدثنا عن الفرق بين العجلة المحمودة والعجلة المذمومة.

---

(1) رواه البخاري ومسلم.

(2) رواه مسلم.

(3) رواه النسائي والترمذي، وقال: حديث حسن.

(4) رواه أحمد وأبو داود والنسائي وابن ماجة والحاكم، وقال: صحيح على شرطهما ولم يخرجاه.

قـال(1): العجلـة المحمـودة هي مـا كـانت ناشـئة عن تقـدير دقيـق للآثـار والعـواقب، وعن إدراك تـام للظـروف والملابسـات، وعن حسن إعداد وجودة ترتيب.. أما العجلة السيئة، فهي ما كانت مجــرد ثــورة نفســية، خاليــة من تقــدير العاقبــة ومن الإحاطــة بالظروف والملابسات، ومن أخذ الأهبة والاستعداد.

وهذا النوع الأخير هو الذي عناه الرسول حين قـال لخبـاب بن الأرت، وقد جاء إلى النبي يشـكو مـا يلقـاه هـو وإخوانـه من الأذى والاضطهاد، ويطلب منه أن يستنصـر ربـه، وأن يـدعوه قـال له: (قد كان من قبلكم يؤخذ الرّجل فيحفر له في الأرض، فيجعــل فيها فيجاء بالمنشار فيوضع على رأسه فيجعـل نصـفين، ويمشـط بأمشاط الحديد من دون لحمه وعظمه فما يصدّه ذلـك عن دينـه.. واللّــه ليتمّنّ هــذا الأمــر حتّى يســير الــرّاكب من صــنعاء إلى حضرموت لا يخاف إلّا اللّه والذّئب على غنمه ولكنّكم تسـتعجلون) (2)

***

بقيت مـدة في قسـم العجلـة.. أتعلم من مولانـا جلال الـدين الرومي وأصحابه كيف أوجـه العجلـة توجيههـا الصـالح الـذي حثت عليه النصوص المقدسة، وأتدرب على ذلك، وقد كانت تداريب في غاية الإرهاق والتعب..

وبعدما امتحنني مولانـا الـرومي ببعض الامتحانـات، ورأى أني قـد نجحت فيهـا أجـازني في هـذا القسـم، وأمـرني أن أسـير إلى القسم الخامس..

5 ـ الهلع

سـرت إلى القسـم الخـامس.. وقـد كـان شـيخه رجلا ربانيـا صالحا ممتلئا زهـدا وورعـا وعرفانـا من مفـرق رأسـه إلى أخمص

---

(1) انظر: (آفات على الطريق)، للدكتور السيد محمد نوح.

(2) رواه البخاري.

قدميه.. وقد كان الجميع يطلقون عليه (محمد ماضي أبو العـزائم) [3]، وقد علمت أنه قدم من مصر، وأن له فيها أتباعا كثيرين..

وقـد أحضـره شـيخي أحمـد الرفـاعي لغـرض تنقيـة نفـوس المريدين من مرض الهلع.

كان أول سمعته من بعض التلاميذ في حلقه الدرس قوله: يـا شيخ.. لقد سميتم هذا القسم (قسم الهلـع)، ونحن لا نعـرف هـذه الكلمة.. فما تريدون منها؟

قال: نريد منها ما أراده القرآن الكريم.

قال الرجل: فما أراد القرآن منها؟

قال: لقد ورد ذكر الهلع بلفظه في قوله تعـالى – وهـو يـذكر ما طبع عليـه الإنسـان من صـفات الضـعف- : إِنَّ الْإِنْسَـانَ خُلِـقَ هَلُوعًا (19) إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعًا (20) وَإِذَا مَسَّهُ الْخَيْـرُ مَنُوعًـا (21) (المعارج)

وقد عـبر القـرآن الكـريم عن هـذا المعـنى في آيـات أخـرى، فقال: وَلَئِنْ أَذَقْنَا الْإِنْسانَ مِنَّا رَحْمَـةً ثُمَّ نَزَعْناهـا مِنْـهُ إِنَّهُ لَيَـؤُسٌ كَفُـورٌ (9) وَلَئِنْ أَذَقْنـاهُ نَعْمـاءَ بَعْـدَ ضَـرَّاءَ مَسَّـتْهُ لَيَقُـولَنَّ ذَهَبَ السَّـيِّئاتُ عَنِّي إِنَّهُ لَفَـرِحٌ فَخُـورٌ (10) إِلَّا الَّذِينَ صَـبَرُوا وَعَمِلُـوا الصَّالِحاتِ أُولئِكَ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ (11) (هود)، وقال: وَإِذا أَنْعَمْنا عَلَى الْإِنْسانِ أَعْرَضَ وَنَأى بِجانِبِهِ وَإِذا مَسَّهُ الشَّرُّ كانَ يَؤُساً (83) (الإسراء)، وقال: لا يَسْـأَمُ الْإِنْسـانُ مِنْ دُعـاءِ الْخَيْـرِ وَإِنْ مَسَّهُ الشَّرُّ فَيَؤُسٌ قَنُوطٌ (49) (فصلت)

---

[3] أشير به إلى الشيخ الجليل محمد ماضـي أبـو العـزائم (1286 هـ/1869 م - 1356 هـ/ 1937 م) مؤسس الطريقة العزمية والمصلح المجدد المعروف، الذي قاله فيه الشيخ محمد الفحام شيخ الأزهـر الأسـبق: (لقـد عاصـرت في شـبابي فـترة من فـترات حيـاة الإمـام أبي العزائم، فلمست عن قرب جهاده في إعلاء كلمة الدين، وأسلوبه الحكيم في معالجة الأمـور بما يجب أن يكون عليه العلماء المرشدون، والأئمة الصالحون، وسيرة الإمـام محمـد ماضـي أبي العزائم تعتبر نبراسا للشباب، ومنارا للجيل يسير على هديها فيعـبر الطريـق إلى الحـق. وإن جهود الإمام أبي العزائم في إرساء قواعد التصوف على أساس سليم منزه مما علق به من شـوائب وجهـوده في لم شـعث الأمـة، والتنبيـه إلى مخـاطر الحزبيـة البغيضـة وتوجيـه نصـائحه إلى الزعمـاء، ودوره في ثـورة 1919م وفي أعقابهـا، ثم دوره الفعـال في مسـألة الخلافة الإسلامية، ما يشهد لهذا الرجل بأن يكون في طليعة المجاهدين الذين لا يسألون عن جهادهم أجرا، ولا عن عملهم شكراً) (الموسوعة الذهبية جـ 34 ص 302)

قال آخر: فهذا المرض مركب من مرضين؟

قال: يمكنك أن تقول ذلك.. بل إن بعضهم تتبع مواضع هذا اللفظ في اللغة العربية، فذكر أنه مركب من أربعة أمراض هي: الحرص، والجزع، والضجر، وقلة الصبر..

قال آخر[1]: بما أنّ الله تعالى خلق الإنسان من أجل السعادة الخالدة ونيل المقامات العالية، والكمالات المعنوية، فكيف يخلقه بهذه النقائص، وكيف يخلقه بهذا الضعف الذي يحجبه عن سلوك طريق الحقّ، ويصدّه عن السير في طريق الكمال والسعادة؟

قال: إن هذه الصفات ليست سلبية في حد ذاتها، ولكنها تصير سلبية عندما تتعلق بالإنسان الفاقد للإيمان.. ذلك أن طبع الإنسان المؤمن يتناغم مع الصبر والمثابرة والكرم، وأمثال ذلك.. ولكن عندما ينفصل عن دائرة الإيمان، فمن الطبيعي أن يجزع مقابل أقل مشكلة وأدنى شدّة لأنّه يفتقد السند والدعامة الأساسية في حياته العملية، ويجد نفسه وحيداً في مقابل تحدّيات الواقع الصعبة، فلذلك يتعامل مع الحياة من موقع الحرص والبخل ولا يجد في نفسه اعتماداً وتوكلاً على الله تعالى الّذي بيده مفاتح الغيب، وبالتالي لا يطمئن إلى غده، وما سيواجهه في المستقبل من حوادث وأزمات.

والشاهد على هذا هو أنّ الآيات الّتي جاءت بعد قوله تعالى: ﴿ إِنَّ الْإِنْسَانَ خُلِقَ هَلُوعًا (19) إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعًا (20) وَإِذَا مَسَّهُ الْخَيْرُ مَنُوعًا (21) ﴾ (المعارج) استثنت المصلين من هذا الحكم العام على الإنسان، قال تعالى:﴿ إِلَّا الْمُصَلِّينَ (22) الَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلَاتِهِمْ دَائِمُونَ (23) وَالَّذِينَ فِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ مَعْلُومٌ (24) لِلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ (25) وَالَّذِينَ يُصَدِّقُونَ بِيَوْمِ الدِّينِ (26) وَالَّذِينَ هُمْ مِنْ عَذَابِ رَبِّهِمْ مُشْفِقُونَ (27) إِنَّ عَذَابَ رَبِّهِمْ غَيْرُ مَأْمُونٍ (28) وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ (29) إِلَّا عَلَى أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ (30) فَمَنِ ابْتَغَى وَرَاءَ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْعَادُونَ (31) وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمَانَاتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ

---

[1] () انظر: الأخلاق في القرآن، للعلامة ناصر مكارم الشيرازي.

رَاعُونَ (32) وَالَّذِينَ هُمْ بِشَهَادَاتِهِمْ قَائِمُونَ (33) وَالَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ (34) أُولَئِكَ فِي جَنَّاتٍ مُكْرَمُونَ (35)ـ (المعارج)

بالإضافة إلى هذا.. فإن هذه الأوصاف السلبية تشير إلى وجود بُعدين في كيان الإنسان: أولهما البُعد الّذي يأخذ بالإنسان ويصعد به إلى أعلى علّيين.. والثاني ما يجره إلى أسفل السافلين.

بالإضافة إلى هذا.. فإنا لو تأملنا في هذه الأوصاف حق التأمل لوجدناها صفات إيجابية.. فالحرص - مثلا- صفة من الصفات الذاتية للإنسان، وهو متفرع من حبّ الذات، وهي في الأصل ليست من الرذائل لأن حبّ الذات الّذي تتولد منه هذه الصفات هو المحور الأساس الّذي يسوق الإنسان إلى الكمال المعنوي ويدفعه نحو طريق السعادة الخالدة.

فهذه الصفات إنّما تكون ذميمة وقبيحة فيما لو لم يستخدمها الإنسان في الطريق الصحيح واللائق، وفي الحقيقة أنّ هذه الصفات مثل سائر الصفات النفسانية الّتي إذا لزمت حدّ الاعتدال تُعدّ فضيلة، وإذا تجاوزت إلى جهة الافراط أو التفريط فإنّها تكون من الرذائل.

الجزع:

قال آخر: وعينا هذا.. فحدثنا عن الركن الأول من أركان الهلع.. ذلك الذي سمى القرآن المتسم به (جزوعا)[1]

قال[2]: الجزوع من الناس هو الذي يهتز عند مس الشر، ويتألم للذعته، ويجزع لوقعه، ويحسب أنه دائم لا كاشف له.. ويظن اللحظة الحاضرة سرمداً مضروباً عليه؛ فيحبس نفسه بأوهامه في قمقم من هذه اللحظة وما فيها من الشر الواقع به، ولا يتصور أن هناك فرجاً؛ ولا يتوقع من الله تغييراً.. ومن ثم يأكله

1() عرفه المناويّ بقوله: (الجزع حزن يصرف الإنسان عمّا هو بصدده، ويقطعه عنه قهرا، وهو أبلغ من الحزن).. وقال الجاحظ: (الجزع خلق مركّب من الخرق والجبن).

2() انظر: في ظلال القرآن.

الجزع، ويمزقه الهلع.

لقد ذكر رسول الله هذا الصنف الضعيف من النـاس، وبين دنو درجتهم وانحطاط همتهم ففي الحديث أنّ رسـول اللّـه أتي بمال، فقسمه، فأعطى رجالا وتـرك رجـالا، فبلغـه أنّ الّـذين تـرك عتبوا، فحمـد اللّـه ثمّ أثـنى عليـه ثمّ قـال: (أمّـا بعـد فـو اللّـه إنّي لأعطي الرّجل والّذي أدع أحبّ إليّ من الّذي أعطي، ولكن أعطي أقواما لما أرى في قلوبهم من الجزع والهلع، وأكل أقوامـا إلى مـا جعل اللّه في قلوبهم من الغنى والخير)[1]

وفي حـديث آخـر ذكـر رسـول اللـه أن من أغـراض البلاء تمييز المتجملين بالصـبر الجميـل عن الجـزعين الهلعين، قـال : (إذا أحبّ اللّه قوما ابتلاهم. فمن صبر فلـه الصّـبر ومن جـزع فلـه الجزع)[2]

وأخبر عن الفتنة التي قدر يجـر إليهـا الجـزع، فقـال: (لقـد كان فيمن كان قبلكم رجل به جرح فجزع، فأخـذ سـكّينا فحـزّ بهـا يده، فما رقـأ الـدّم حتّى مـات. قـال اللّـه تعـالى: (بـادرني عبـدي بنفسه، حرّمت عليه الجنّة)[3]

المنع:

قال آخـر: وعينـا هـذا.. فحـدثنا عن الـركن الثـاني من أركـان الهلع.. ذلك الذي سمى القرآن المتسم به (منوعا)

قال: إن المنوع هو ذاك الذي ذكره رسول الله ، فقال:(مـا آمن بي من بات شبعان وجاره جائع إلى جنبه وهو يعلم به)[4]

وذكره في حديث آخر، فقـال:(أيمـا أهـل عرصـة بـات فيهم

1() رواه البخاري.

2() رواه أحمد ورواته ثقات.

3() رواه البخاري ومسلم.

4() البزار، والطبراني في الكبير عن أنس.

امرؤ جائع فقد برئت منهم ذمة الله وذمة رسوله)[1]

قال الرجل: تقصد البخل بالمال عن المحتاجين إليه؟

قال: البخل بالمال بعض البخل.. فالبخل في أعماقه النفسية لا ينحصر في المال وحده.. فهناك من يبخل نصيحته، وهناك من يبخل بنصره.. وهناك من يبخل بكلمة.. وهناك من يبخل بابتسامة..

وهكذا فإن الإنسان الهلع المملوء بالجزع لا يمكنه إلا أن يثمر ثمارا مملوءة بالجفاف والقسوة.. إنه مثل نفسه الشحيحة تماما.

***

قالوا: عرفنا العلة.. فما **علاجها**؟

قال: لقد ذكره القرآن الكريم.. فقد ذكر سبع صفات من اتصف بها نجى من الهلع..

قالو: عرفناها.. ونحن نسألك عن سرها وعلاقتها بتخليص الإنسان من الهلع.

قال: سلوا ما بدا لكم.

قالوا: حدثنا عن الأولى.. حدثنا عن الصلاة.. فقد ذكر الله تعالى أن المصلين مستثنين من الهلع، ذكرهم في البداية، فقال: ﴿ إِلَّا الْمُصَلِّينَ (22) الَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلَاتِهِمْ دَائِمُونَ (23)﴾ (المعارج)، وذكرهم في النهاية، فقال :﴿ وَالَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ (34) ﴾ (المعارج)

قال[2]: أجل.. فالصلاة فوق أنها ركن الإسلام وعلامة الإيمان هي وسيلة الاتصال بالله والاستمداد من ذلك الرصيد، وهي مظهر العبودية الخالصة التي يتجرد فيها مقام الربوبية ومقام العبودية في صورة معينة..

---

[1] مسلم عن ابن عمر.

[2] انظر: في ظلال القرآن.

وصـفة الـدوام الـتي تخصصـها الآيـة الأولى تعطي صـورة الاسـتقرار والاسـتطراد، فهي صـلاة لا يقطعهـا الـترك والإهمـال والكسل، وهي صلة بالله مستمرة غـير منقطعـة.. فليس الاتصـال بالله لعبة توصل أو تقطـع حسـب المـزاج.. ولـذلك كـان من سـنة رسول الله الثبات.. فقد كان إذا عمل شـيئا من العبـادة أثبتـه - أي داوم عليه - وكان يقول: (وإن أحب الأعمال إلى الله تعالى مـا دام وإن قل)[3]

وذلـك لأنـه لا يمكن أن ترسـخ الصـفة مـا لم يـدمن صـاحبها عليها، فتسـتقر في كيانـه، وتثبت فيـه، وتقـوم بعـد ذلـك بتوجيهـه الوجهة الصالحة التي أرادها الله من عباده.

والصلاة – لتؤدي دورها- لا يكفي فيها الدوام.. بل تحتـاج إلى المحافظـة عليهـا.. والمحافظـة غـير الـدوام.. وهي تتحقـق بالمحافظة عليها في مواعيدها ، وفي فرائضها ، وفي سننها، وفي هيئتها ، وفي الروح التي تؤدى بهـا.. فلا يضـيعونها إهمـالا وكسـلا.. ولا يضيعونها بعدم إقامتها على وجهها.

قالوا: عرفنا الأولى.. فحـدثنا عن **الثانية**.. تلـك الـتي ذكرهـا اللـه، فقـال: وَالَّذِينَ فِي أَمْـوَالِهِمْ حَـقٌّ مَعْلُـومٌ (24) لِلسَّـائِلِ وَالْمَحْرُومِ (25) (المعارج)

قال: إن هـاتين الآيـتين الكريمـتين تشـيران إلى الزكـاة على وجه التخصيص والصدقات المعلومة القدر.. وهي حـق في أمـوال المؤمنين.. وهي تشير كذلك إلى معنى أشمل من هذا وأكبر.. وهو أن المؤمنين يجعلون في أموالهم نصيبا معلوما يشعرون أنـه حـق للسـائل والمحـروم.. وفي هـذا تخلص من الشـح واسـتعلاء على الحرص.. كما أن فيـه شـعورا بـواجب الواجـد تجـاه المحـروم في هذه الأمة المتضامنة المتكافلة..

والشعور بأن للمحتـاجين والمحـرومين حقـا في الأمـوال هـو شعور بفضل اللـه من جهـة ، وبآصـرة الإنسـانية من جهـة أخـرى، فوق ما فيه من تحرر شعوري من ربقة الحرص والشح.. وهـو في

3() رواه البخاري.

الوقت ذاته ضمانة اجتماعية لتكافل الأمة كلها وتعاونها، فهي فريضة ذات دلالات شتى ، في عالم الضمير وعالم الواقع..

قالوا: عرفنا الثانية.. فحدثنا عن **الثالثة**.. تلك التي ذكرها الله، فقال: وَالَّذِينَ يُصَدِّقُونَ بِيَوْمِ الدِّينِ (26) (المعارج)

قال: التصديق بيوم الدين شطر الإيمان، وهو ذو أثر حاسم في منهج الحياة شعورا وسلوكا.. والميزان في يد المصدق بيوم الدين غير الميزان في يد المكذب بهذا اليوم أو المستريب فيه، ميزان الحياة والقيم والأعمال والأحداث..

المصدق بيوم الدين يعمل وهو ناظر لميزان السماء لا لميزان الأرض ، ولحساب الآخرة لا لحساب الدنيا ويتقبل الأحداث خيرها وشرها وفي حسابه أنها مقدمات نتائجها هناك ، فيضيف إليها النتائج المرتقبة حين يزنها ويقومها..

أما المكذب بيوم الدين، فيحسب كل شيء بحسب ما يقع له منه في هذه الحياة القصيرة المحدودة ، ويتحرك وحدوده هي حدود هذه الأرض وحدود هذا العمر، ومن ثم يتغير حسابه وتختلف نتائج موازينه ، وينتهي إلى نتائج خاطئة فوق ما ينحصر في مساحة من المكان ومساحة من الزمان محدودة.. وهو بائس مسكين معذب قلق لأن ما يقع في هذا الشطر من الحياة الذي يحصر فيه تأملاته وحساباته وتقديراته ، قد لا يكون مطمئنا ولا مريحا ولا عادلا ولا معقولا ، ما لم يضف إليه حساب الشطر الآخر وهو أكبر وأطول، ومن ثم يشقى به من لا يحسب حساب الآخرة أو يشقى غيره من حوله، ولا تستقيم له حياة رفيعة لا يجد جزاءها في هذه الأرض واضحا.. ومن ثم كان التصديق باليوم الآخر شطر الإيمان الذي يقوم عليه منهج الحياة في الإسلام.

قالوا: عرفنا الثالثة.. فحدثنا عن **الرابعة**.. تلك التي ذكرها الله، فقال: وَالَّذِينَ هُمْ مِنْ عَذَابِ رَبِّهِمْ مُشْفِقُونَ (27) إِنَّ عَذَابَ رَبِّهِمْ غَيْرُ مَأْمُونٍ (28) (المعارج)

قال: هاتان الآيتان الكريمتان تذكران درجة أخرى وراء مجرد التصديق بيوم الدين، وهي درجة الحساسية المرهفة والرقابة

اليقظة والشعور بالتقصير في جنب الله على كثرة العبادة والخوف من تلفت القلب واستحقاقه للعذاب في أية لحظة والتطلع إلى الله للحماية والوقاية.

وفي قوله تعالى: إِنَّ عَذَابَ رَبِّهِمْ غَيْرُ مَأْمُونٍ (28) (المعارج) إيحاء بالحساسية الدائمة التي لا تغفل لحظة ، فقد تقع موجبات العذاب في لحظة الغفلة فيحق العذاب، والله لا يطلب من الناس إلا هذه اليقظة وهذه الحساسية، فإذا غلبهم ضعفهم معها، فرحمته واسعة ، ومغفرته حاضرة، وباب التوبة مفتوح ليست عليه مغاليق.. وهذا قوام الأمر في الإسلام بين الغفلة والقلق، والإسلام غير هذا وتلك، والقلب الموصول بالله يحذر ويرجو ، ويخاف ويطمع ، وهو مطمئن لرحمة الله على كل حال.

قالوا: عرفنا الرابعة.. فحدثنا عن **الخامسة**.. تلك التي ذكرها الله، فقال: وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ (29) إِلَّا عَلَى أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ (30) فَمَنِ ابْتَغَى وَرَاءَ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْعَادُونَ (31) (المعارج)

قال: هذه الآيات تشير إلى طهارة النفس والجماعة، فالإسلام يريد مجتمعا طاهرا نظيفا ، وفي الوقت ذاته ناصعا صريحا، مجتمعا تؤدى فيه كل الوظائف الحيوية، وتلبي فيه كل دوافع الفطرة، ولكن بغير فوضى ترفع الحياء الجميل ، وبغير التواء يقتل الصراحة النظيفة، مجتمعا يقوم على أساس الأسرة الشرعية المتينة القوائم، وعلى البيت العلني الواضح المعالم، مجتمعا يعرف فيه كل طفل أباه ، ولا يخجل من مولده، لا لأن الحياء منزوع من الوجوه والنفوس، ولكن لأن العلاقات الجنسية قائمة على أساس نظيف صريح ، طويل الأمد واضح الأهداف، يرمي إلى النهوض بواجب إنساني واجتماعي ، لا لمجرد إرضاء النزوة الحيوانية.

قالوا: عرفنا الخامسة.. فحدثنا عن **السادسة**.. تلك التي ذكرها الله، فقال: وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمَانَاتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ (32) (المعارج)

قال: رعاية الأمانات والعهود تبدأ من رعاية الأمانة الكبرى التي عرضها الله على السماوات والأرض والجبال فأبين أن يحملنها وأشفقن منها وحملها الإنسان.. وهي أمانة العقيدة والاستقامة عليها اختيارا لا اضطرارا.. ومن رعاية العهد الأول المقطوع على فطرة الناس وهم بعد في الأصلاب أن الله ربهم الواحد ، وهم بخلقتهم على هذا العهد شهود.. ومن رعاية تلك الأمانة وهذا العهد تنبثق رعاية سائر الأمانات والعهود في معاملات الأرض.

قالوا: عرفنا السادسة.. فحدثنا عن **السابعة**.. تلك التي ذكرها الله، فقال: وَالَّذِينَ هُمْ بِشَهَادَاتِهِمْ قَائِمُونَ (33) (المعارج)

قال: لقد ناط الله بأداء الشهادة حقوقا كثيرة ، بل ناط بها حدود الله ، التي تقام بقيام الشهادة، فلم يكن بد أن يشدد الله في القيام بالشهادة ، وعدم التخلف عنها ابتداء ، وعدم كتمانها عند التقاضي، ومن القيام بها أداؤها بالحق دون ميل ولا تحريف.. وقد جعلها الله شهادة له هو ليربطها بطاعته، فقال: وَأَقِيمُوا الشَّهَادَةَ لِلَّهِ..(2) (الطلاق)، وجعلها هنا سمة من سمات المؤمنين وهي أمانة من الأمانات.

***

بقيت مدة في قسم الهلع.. أتعلم من محمد ماضي أبي العزائم وأصحابه كيف أوجه الهلع إلى الجهة الحسنى، وأتدرب على ذلك، وقد كانت تداريب في غاية الإرهاق والتعب..

وبعدما امتحنني ببعض الامتحانات، ورأى أني قد نجحت فيها أجازني في هذا القسم، وأمرني أن أسير إلى القسم السادس..

6 ـ الجبن

سرت إلى القسم السادس.. وقد كان شيخه رجلا فاضلا عالما قدم من الهند، وقد سمعتهم يلقبونه بمجدد الألف الثاني،

وكانوا يطلقون عليه اسم (أحمد السرهندي)[1].. ولم أكن أدري سر هذه الألقاب والتسميات إلى أن علمت أن الرجل قد وقف في حياته نفس المواقف الشجاعة التي وقفها سميه من قبل أمام السلاطين الكبار المستبدين.

بعد أن سمعت ما سمعت من أخبار شجاعة السرهندي مما امتلأت نفسي له طربا سألت شيخي أحمد الرفاعي متعجبا، ونحن سائران إلى القسم، قلت: أليس من العجب أن يوضع هذه الشيخ الفاضل الشجاع في هذا القسم؟

ابتسم الرفاعي، وقال: إن قلع الجبن لا يمكن أن يكون إلا من طرف الشجاع الذي تحدى الصعاب.. هو وحده الذي لديه الخبرة الكافية لأن يخلص كل جبان من جبنه.. فليست الشجاعة إلا التخلص من الجبن والضعف الذي يفرزه الجبن[2].

دخلت القسم.. وكان أول ما سمعته في حلقه الدرس قول بعض التلاميذ: يا شيخنا.. لقد قدمنا هنا من بلاد بعيدة، ونحن نريد منك أن تخلصنا من الجبن.. فقد امتلأت قلوبنا رعبا، ونفوسنا ضعفا، وصرنا مسخرة للناس..

قال آخر: لقد وصفنا حالنا بعضهم، فقال: (إن أحسّ بعصفور طار فؤاده، وإن طنّت بعوضة طال سهاده، يفزع من صرير الباب، ويقلق من طنين الذّباب، إن نظرت إليه شزرا أغمي عليه شهرا،

---

[1] () أشير به أحمد بن عبد الأحد بن زين العابدين بن عبد الحي العُمَري، السرهندي - ويقال السهرندي - الهندي(971 ـ 1034 هـ) كان فقيهاً حنفياً، مدرّساً، من مشاهير الصوفية، يلقب بمجدد الألف الثاني، ولد بسهرند (بين دهلي ولاهور من بلاد الهند) سنة إحدى وسبعين وتسعمائة.. ودرس العلوم والتصوّف على أبيه، والعقليات على كمال الدين الكشميري، والحديث على يعقوب بن الحسن الصرفي، والقاضي بهلول البدخشي.. وانصرف للتدريس والتأليف، ولمّا توفّي أبوه سافر إلى دهلي، ولقي هناك رضي الدين عبد الباقي النقشبندي، فأخذ عنه الطريقة النقشبندية في التصوّف، وأجازه بإرشاد ووعظ المريدين كما شرع بتدريس الفقه والأُصول والكلام والتفسير والحديث.. وسجنه سلطان الهند جهانگير بن أكبر لمدة ثلاث سنين لامتناعه عن السجود تعظيماً له، وأطلقه بشرط الإِقامة معه في معسكره، فقبل ونفّذ الشرط، وبعد وفاة السلطان رخّصه ابنه شاهجهان، فعاد السهرندي إلى بلاده وأكبّ على التدريس حتى توفّي. له رسالة في إثبات النبوّة، ورسالة في المبدأ والمعاد، وتعليقات على (عوارف المعارف) للسهروردي، ومكتوبات في ثلاث مجلّدات وغير ذلك. (انظر: موسوعة أصحاب الفقهاء)

[2] () سنرى تفاصيل أخرى ترتبط بهذا الموضوع في مبحث (الشجاعة) في فصل (شديد) من هذه الرسالة.

يحسب خفوق الرّياح قعقعة الرّماح)

قال آخر: وقد علمنا أنه لا يمكن استئصال أمراض النفوس دون التعرف عليها، وعلى الجذور التي تمدها بالحياة.

قال آخر: لقد اكتشفت أن السبب الأكبر لجبني هو جهلي.. ذلك أني كلما أقدمت قيل لي: أنت متهور.. فصرت بعدها لا أفرق بين الشجاعة والتهور.. وقد أدى بي ذلك إلى ما أنا فيه من الجبن..

قال السرهندي: رويدكم.. سأجيبكم واحدا واحدا.. ولنبدأ من الأول.. لا بد أن تعلموا – أحبابي الكرام- أن الجُبن هو الخوف الّذي يورث الإنسان الذلّة والمهانة والسقوط، ويحطّ من قدر صاحبه، ويتلف طاقاته ما كان منها بالفعل أو بالقوة ويفضي به بعد ذلك إلى أن يتسلط عدوه عليه.

ومن وفقه الله فتخلص من الجبن رزق الشجاعة والشهامة والجرأة، وهي كلها المفاتيح التي لا يمكن أن يفتح أي باب من أبواب النصر والفلاح من دونها.

ولذلك ذم الله تعالى الجبن في مواضع كثيرة من القرآن الكريم، بل اعتبره من صفات المنافقين وضعيفي الإيمان.. قال تعالى واصفا المنافقين: أَشِحَّةً عَلَيْكُمْ فَإِذا جاءَ الْخَوْفُ رَأَيْتَهُمْ يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ تَدُورُ أَعْيُنُهُمْ كَالَّذِي يُغْشى عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ فَإِذا ذَهَبَ الْخَوْفُ سَلَقُوكُمْ بِأَلْسِنَةٍ حِدادٍ أَشِحَّةً عَلَى الْخَيْرِ أُولئِكَ لَمْ يُؤْمِنُوا فَأَحْبَطَ اللَّهُ أَعْمالَهُمْ وَكانَ ذلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيراً (19) يَحْسَبُونَ الْأَحْزابَ لَمْ يَذْهَبُوا وَإِنْ يَأْتِ الْأَحْزابُ يَوَدُّوا لَوْ أَنَّهُمْ بادُونَ فِي الْأَعْرابِ يَسْئَلُونَ عَنْ أَنْبائِكُمْ وَلَوْ كانُوا فِيكُمْ ما قاتَلُوا إِلَّا قَلِيلًا (20) (الأحزاب)

وقال يصفهم : وَإِذا رَأَيْتَهُمْ تُعْجِبُكَ أَجْسامُهُمْ وَإِنْ يَقُولُوا تَسْمَعْ لِقَوْلِهِمْ كَأَنَّهُمْ خُشُبٌ مُسَنَّدَةٌ يَحْسَبُونَ كُلَّ صَيْحَةٍ عَلَيْهِمْ هُمُ الْعَدُوُّ فَاحْذَرْهُمْ قاتَلَهُمُ اللَّهُ أَنَّى يُؤْفَكُونَ (4) (المنافقون)

وفي الحديث أن النّبيّ كان يتعوّذ من خمس: (من البخل،

والجبن، وفتنة الصّدر(1)، وعذاب القبر، وسوء العمر)(2)

وفي حديث آخر أن النبي كان يتعوذ، فيقول: (اللّهمّ إنّي أعوذ بك من الهمّ والحزن، والعجز والكسل، والبخل والجبن، وضلع الدّين(3)، وغلبة الرّجال... الحديث)(4)

وفي حديث آخر قال : (إنّ أنسابكم هذه ليست بسباب على أحد، وإنّما أنتم ولد آدم، طفّ الصّاع، لم تملؤوه، ليس لأحد فضل إلّا بالدّين أو عمل صالح، حسب الرّجل أن يكون فاحشا بذيّا بخيلا جبانا)(5)

وفي حديث آخر قال : (شرّ ما في رجل شحّ هالع وجبن خالع)(6)

وعن جبير بن مطعم قال: بينا أنا مع رسول اللّه ومعه النّاس مقبلا من حنين علقت رسول اللّه الأعراب يسألونه حتّى اضطرّوه إلى سمرة(7) فخطفت رداءه، فوقف رسول اللّه فقال: (أعطوني ردائي فلو كان عدد هذه العضاه نعما لقسمته بينكم ثمّ لا تجدونني بخيلا ولا كذوبا ولا جبانا)(8)

قال رجل منهم: وعينا هذا.. وما قدمنا هنا إلا لأجله.. ونحن نريد منك أن تبين لنا **الجذور التي ينبت منها الجبن في**

1() فتنة الصّدر: الصدر بالتحريك: رجوع المسافر من مقصده والمراد: رجوع الناس إلى خالقهم يوم المحشر فاستعاذ النبي من فتنة هذا اليوم.

2() رواه أحمد.

3() ضلع الدّين: ثقله، والضلع الاعوجاج أي يثقله حتى يميل صاحبه عن الاستواء.

4() رواه البخاري ومسلم.

5() رواه أحمد والطبراني وفيه ابن لهيعة وفيه لين وبقية رجاله وثقوا.

6() رواه أحمد.

7() سمرة: نوع من الشجر.

8() رواه البخاري.

أرض النفس(1).

قال: سبعة جذور.. لا تستقيم شجرة الجبن من دونها.

قالوا: فما **الأول**؟

قال: ضعف الإيمـان وسـوء الظنّ باللـه.. ذلـك أن من يعيش حقائق الإيمان بالله والثقة به، وينطلق في حياته من موقع التوكل والأمل برحمة اللـه ولطفـه والتصـديق بوعـده، لا يمكن أن يـذوق طعم الذلّة والمهانة والضـعف، ولا يمكن أن يـتردد أو يخـاف أمـام الحوادث الصعبة أو يهتز لتحديات الواقع الثقيلة.

لقد ورد هذا المعنى في القرآن الكريم في قوله تعالى، وهـو يشرح نفسية الجبناء : إِذْ جَاؤُوكُم مِّن فَـوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْـفَلَ مِنكُمْ وَإِذْ زَاغَتْ الأَبْصَارُ وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَـاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِاللَّهِ الظُّنُونَـا (10) هُنَالِكَ ابْتُلِيَ الْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا زِلْـزَالاً شَـدِيدًا (11) وَإِذْ يَقُـولُ الْمُنَـافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُـوبِهِم مَّرَضٌ مَّا وَعَـدَنَا اللَّهُ وَرَسُـولُهُ إِلاَّ غُرُورًا (12) (الأحزاب)

وفي المقابـل ذكـر موقـف المؤمـنين، فقـال : وَلَمَّا رَأَى الْمُؤْمِنُونَ الأَحْزَابَ قَالُوا هَـذَا مَـا وَعَـدَنَا اللَّهُ وَرَسُـولُهُ وَصَـدَقَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَمَا زَادَهُمْ إِلاَّ إِيمَانًا وَتَسْلِيمًا (22) (الأحزاب)

وقد أشار إلى هذا المعنى باب مدينة العلم في عهـده لمالـك الأشـتر حين قـال لـه: (اِنَّ الْبُخْـلَ وَالْجُبْنَ وَالْحِـرْصَ غَرَائِزٌ شَـتَّى يَجْمَعُهَا سُوءُ الظَّنِّ بِاللهِ)

قالوا: عرفنا الأول.. فحدثنا عن **الثاني**.

قال: الشعور بحقـارة النفس وهوانهـا.. ولهـذا نجـد أنـه كلّمـا كانت شخصية الإنسان نافذة وقوية وشعر الإنسان معها بالكرامـة واحترام الذات كان ذلك رافدا من روافد شجاعته وشهامته.. وقـد أشار إلى هذا المعنى قولـه : (تجـدون النّـاس معـادن، فخيـارهم في الجاهليّـة خيـارهم في الإسـلام إذا فقهـوا، وتجـدون من خـير النّاس في هذا الأمر أكـرههم لـه قبـل أن يقـع فيـه.. وتجـدون من

1() انظر: نفحات القرآن للشيرازي، ومثله لكتابه (الأخلاق في القرآن)

شرار النّاس ذا الوجهين الّذي يأتي هؤلاء بوجه وهؤلاء بوجه)[1]

وأشار إليه الإمام علي في قوله: (شِدَّةُ الْجُبْنِ مِنْ عَجْزِ النَّفْسِ وَضَعْفِ الْيَقِينِ)

قالوا: عرفنا الثاني.. فحدثنا عن **الثالث**.

قال: الجهل وقلّة المعرفة.. حيث أنهما يتسببان غالباً في نشر الخوف الموهوم، كما نرى في خوف الإنسان من الأشخاص أو الحيوانات الّتي لا يعرفها على وجه الدقة، ولكن عندما تتضح له الصورة ويتعرف عليها تذوب حالة الخوف في نفسه تدريجياً.

ويشير إلى هذا من القرآن الكريم قوله تعالى عن داود ﵇ : ﴿ وَهَلْ أَتَاكَ نَبَأُ الْخَصْمِ إِذْ تَسَوَّرُوا الْمِحْرَابَ (21) إِذْ دَخَلُوا عَلَى دَاوُودَ فَفَزِعَ مِنْهُمْ قَالُوا لا تَخَفْ خَصْمَانِ بَغَى بَعْضُنَا عَلَى بَعْضٍ فَاحْكُم بَيْنَنَا بِالْحَقِّ وَلا تُشْطِطْ وَاهْدِنَا إِلَى سَوَاء الصِّرَاطِ (22)﴾ (ص)

فداود ﵇ شعر بالخوف قبل أن يعرف حقيقتها، فلما عرفها زالت مخافته.

ومثل ذلك قوله تعالى عن إبراهيم ﵇ : ﴿ هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ الْمُكْرَمِينَ (24) إِذْ دَخَلُوا عَلَيْهِ فَقَالُوا سَلامًا قَالَ سَلامٌ قَوْمٌ مُّنكَرُونَ (25) فَرَاغَ إِلَى أَهْلِهِ فَجَاء بِعِجْلٍ سَمِينٍ (26) فَقَرَّبَهُ إِلَيْهِمْ قَالَ أَلا تَأْكُلُونَ (27) فَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً قَالُوا لا تَخَفْ وَبَشَّرُوهُ بِغُلامٍ عَلِيمٍ (28)﴾ (الذاريات)

ومثل ذلك قوله تعالى عن موسى ﵇ في شأن العصا :﴿ وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَا مُوسَى (17) قَالَ هِيَ عَصَايَ أَتَوَكَّأُ عَلَيْهَا وَأَهُشُّ بِهَا عَلَى غَنَمِي وَلِيَ فِيهَا مَآرِبُ أُخْرَى (18) قَالَ أَلْقِهَا يَا مُوسَى (19) فَأَلْقَاهَا فَإِذَا هِيَ حَيَّةٌ تَسْعَى (20) قَالَ خُذْهَا وَلا تَخَفْ سَنُعِيدُهَا سِيرَتَهَا الأُولَى (21) وَاضْمُمْ يَدَكَ إِلَى جَنَاحِكَ تَخْرُجْ بَيْضَاء مِنْ غَيْرِ سُوءٍ آيَةً أُخْرَى (22) لِنُرِيَكَ مِنْ آيَاتِنَا الْكُبْرَى (23)﴾ (طه)

قالوا: عرفنا الثالث.. فحدثنا عن **الرابع**.

---

[1] رواه البخاري ومسلم.

قال: طلب الراحة والعافية.. فالركون إلى الراحة والعافية من الأسباب الكبرى للجبن.. لأن الشجاعة تتطلب الخوض في دوّامة المشكلات، لكي يتسنّى للإنسان أن يخرج منها منتصراً، وهذا المعنى لا يتلاءم ولا ينسجم مع مزاج من يطلب الراحة والعافية.

لقد أشار القرآن الكريم إلى هذا الجذر من جذور الجبن عند ذكره للمواقف المختلفة في غزوة الأحزاب، قال تعالى :﴿ وَإِذْ قَالَت طَّائِفَةٌ مِّنْهُمْ يَا أَهْلَ يَثْرِبَ لا مُقَامَ لَكُمْ فَارْجِعُوا وَيَسْتَأْذِنُ فَرِيقٌ مِّنْهُمُ النَّبِيَّ يَقُولُونَ إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ وَمَا هِيَ بِعَوْرَةٍ إِن يُرِيدُونَ إِلاَّ فِرَارًا (13) وَلَوْ دُخِلَتْ عَلَيْهِم مِّنْ أَقْطَارِهَا ثُمَّ سُئِلُوا الْفِتْنَةَ لآتَوْهَا وَمَا تَلَبَّثُوا بِهَا إِلاَّ يَسِيرًا (14) وَلَقَدْ كَانُوا عَاهَدُوا اللَّهَ مِن قَبْلُ لا يُوَلُّونَ الأَدْبَارَ وَكَانَ عَهْدُ اللَّهِ مَسْؤُولاً (15)﴾ (الأحزاب)

فهذه الآيات الكريمة تشير إلى أن الحجاب الأكبر الذي حال بين هذه الطائفة وما أريد منها من النصرة هو تثاقلها إلى متاع الحياة الدنيا، ولهذا عقب الله تعالى على موقفهم ذلك بقوله: ﴿ قُل لَّن يَنفَعَكُمُ الْفِرَارُ إِن فَرَرْتُم مِّنَ الْمَوْتِ أَوِ الْقَتْلِ وَإِذًا لاَّ تُمَتَّعُونَ إِلاَّ قَلِيلاً (16)﴾ (الأحزاب)

قالوا: عرفنا الرابع.. فحدثنا عن **الخامس**.

قال: إن دروس الحوادث المُرة والمؤلمة قد يتسبّب غالباً في أن يعيش بعض الناس حالة الخوف والرعب، لأن هذه الحوادث المرة تترسخ في أذهانهم وتمتزج بالخوف الّذي قد يستمر بهم إلى آخر حياتهم، ولا يمكن التخلّص منه إلاّ بالتربية والعلاج.. ونحن بحمد الله نعالج مثل هذه الحالات في هذا القسم بما رزقنا الله من مراهم الإيمان.

قالوا: عرفنا الخامس.. فحدثنا عن **السادس**.

قال: الإفراط في سلوك طريق الحذر.. فمن شأنه أن يورث الخوف.. أو هو عامل من عوامل ايجاد الخوف في النفس.. لأن مثل هذا الإنسان يتوقى كلّ ما يحتمل فيه الخطر.. وذلك يؤدي به إلى أن يعيش حالة التردد والخوف من الإقدام.

لقد أشار القرآن الكريم إلى هذا المعنى عندما ذكر من مبررات الكفار التي حالت بينهم وبين الإيمان.. قال تعالى: ﴿ وَقَالُوا إِن نَّتَّبِعِ الْهُدَى مَعَكَ نُتَخَطَّفْ مِنْ أَرْضِنَا أَوَلَمْ نُمَكِّن لَّهُمْ حَرَمًا آمِنًا يُجْبَى إِلَيْهِ ثَمَرَاتُ كُلِّ شَيْءٍ رِزْقًا مِن لَّدُنَّا وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لا يَعْلَمُونَ (57)﴾ (القصص)

وأشار إليه عندما ذكر مقولة المنافقين عندما كان ﴿..يَسْتَأْذِنُ فَرِيقٌ مِّنْهُمُ النَّبِيَّ يَقُولُونَ إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ وَمَا هِيَ بِعَوْرَةٍ إِن يُرِيدُونَ إِلاَّ فِرَارًا (13)﴾ (الأحزاب)

قالوا: عرفنا السادس.. فحدثنا عن **السابع**.

قال: الحالة الروحية والمزاجية والبدنية لها دور لا يمكن إهماله.. فأنتم ترون أن بعض الأشخاص وبسبب ابتلائهم بضعف الأعصاب أو ضعف القلب يخافون من كلّ شيء، في حين يشعرون في نفس الوقت بالنفور من هذه الحالة والامتعاض من وجودها في واقعهم، ولكنهم لا يستطيعون التخلّص منها.. وهؤلاء يقولون عادة: (إنّ الخوف المتسرب في أعماقنا ليس باختيارنا، بل نجده مفروضا علينا)

وهذا غير صحيح.. فالإنسان ملك لإرادته.. وإرادته ملك للأفكار التي يحملها..

ونحن بحمد الله نعالج هذه الحالة في هذا القسم بمراهم الإيمان، فليس هناك شيء عصي على الإيمان.

قال رجل من الحاضرين: عرفنا الجذور التي تقوم عليها شجرة الجبن.. فما **المعاول التي تقطعها من أرض النفس**؟

قال: أنتم تعلمون أن علماء التربية والسلوك يذكرون علاجين لكل الأمراض النفسية.. من جمعهما وفقه الله لتطهير نفسه من أدرانها.

قالوا: أجل.. هما العلم.. والعمل.. فحدثنا عن **الأول**.

قال: يحتاج الجبـان أول مـا يحتـاج إلى تعميـق إيمانـه باللـه.. وبأن كل شيء بقضاء الله وقدره.. فإنـه لا يقضـي على المخـاوف شيء مثل هذا الإيمان العالي..

لقد روي في الأخبار أن سـعيد بن جبـير قـال للحجـاج عنـدما هدده الحجاج بالقتل:(لـو علمت أن المـوت والحيـاة في يـدك مـا عبدت إلها غيرك)

انظروا إلى هذا الموقف الشجاع من سعيد.. إنه لـولا إدراكـه أن ما يتشبث به الحجاج من قـوة وهم عظيم سـكن عقلـه، فاللـه تعالى هو مالك الآجال، لا الحجاج ولا أي طاغية غيره،

فمن اعتقد بما في قوله تعالى : وَلِكُـلِّ أُمَّةٍ أَجَـلٌ فَـإِذَا جَـاءَ أَجَلُهُمْ لا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلا يَسْـتَقْدِمُونَ (34) (لأعـراف)، ومـا في قوله : قُلْ لا أَمْلِكُ لِنَفْسِي ضَرّاً وَلا نَفْعاً إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ لِكُـلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ إِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ فَلا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلا يَسْتَقْدِمُونَ(49) (يونس)، وما في قوله : .. فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ (34) (الأعراف) لا تصيبه أدنى مخافة، ولا أدنى جبن.

ذلك أنه لا يفر من الموت إلا من سـيطر عليـه وهم الخـوف، فمنعـه من التفكـير السـليم، قـال تعـالى : قُـلْ إِنَّ الْمَـوْتَ الَّذِي تَفِـرُّونَ مِنْـهُ فَإِنَّهُ مُلاقِيكُمْ ثُمَّ تُـرَدُّونَ إِلَى عَـالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّـهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُـونَ (8) (الجمعـة)، وقـال : أَيْنَمَـا تَكُونُـوا يُدْرِكْكُمُ الْمَوْتُ وَلَوْ كُنْتُمْ فِي بُرُوجٍ مُشَيَّدَةٍ..(78) (النساء)، وقال : .. يَقُولُونَ لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ مَا قُتِلْنَا هَاهُنَا قُـلْ لَـوْ كُنْتُمْ فِي بُيُـوتِكُمْ لَبَـرَزَ الَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقَتْـلُ إِلَى مَضَـاجِعِهِمْ وَلِيَبْتَلِيَ اللَّهُ مَـا فِي صُـدُورِكُمْ وَلِيُمَحِّصَ مَـا فِي قُلُـوبِكُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِـذَاتِ الصُّدُورِ (154) (آل عمران)

بل إن الإيمان ليصل بصاحبه إلى مرتبة أعلى وأشـرف، وهي المرتبة التي يرى فيها المؤمن الموت الذي يخافه الجبـان بصـورة المحل الذي يلقى فيه كل ما هفت إليه نفسه في الـدنيا وقصـرت عنـه يـداه، فهـو البـاب الـذي تنفتح من كوتـه الأمـاني، وتتحقـق الرغبات، فهو قدوم على الله، ومن لا يحب القدوم على الله، وقد

قيل لأعرابي اشتد مرضه: إنك ستموت، فقال: وإلى أين يذهب بي بعد الموت؟ قالوا: إلى الله، فقال: ويحكم، وكيف أخاف الذهاب إلى من لا أرى الخير إلا من عنده؟

ولهذا قال يحيى بن معاذ:(لا يكره لقاء الموت إلا مريب، فهو الذي يقرب الحبيب من الحبيب)

ولهذا أخبر الله تعالى أن الملائكة تبشر المؤمنين، وتنهاهم عن الاستسلام لشبح الخوف والحزن، وتذكرهم بالمصير الذي يقدمون عليه، قال تعالى :﴿ إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلائِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا وَلا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ (30)﴾ (فصلت)

وانطلاقا من هذه المعارف الإيمانية صاح سحرة فرعون في وجه فرعون بقوة الإيمان :﴿ لَنْ نُؤْثِرَكَ عَلَى مَا جَاءَنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالَّذِي فَطَرَنَا فَاقْضِ مَا أَنْتَ قَاضٍ إِنَّمَا تَقْضِي هَذِهِ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا (72)﴾ (طه)

وعلى خطاهم سار الصالحون متحدين كل المشانق التي نصبت لهم، وعاصفين بكل رياح الخوف التي أرادت أن تجتثهم، كعمير بن الحمام الأنصاري الذي سمع النبي ﷺ يقول في غزوة بدر لأصحابه:(والذي نفسي بيده ما من رجل يقاتلهم اليوم - المشركين- فيقتل صابراً محتسباً مقبلاً غير مدبر إلا أدخله الله الجنة) فيقول عمير متعجبا:(بخ بخ)، فقال ﷺ:(مم تبخبخ يا ابن الحمام؟)، فقال:(أليس بيني وبين الجنة إلا أن أتقدم فأقاتل هؤلاء فأقتل؟ فقال ﷺ:(بلى)، وكان في يد عمير تمرات يأكل منها فقال: أأعيش حتى أكل هذه التمرات؟ إنها لحياة طويلة! وألقى التمرات من يده وأقبل يقاتل ويقول:

ركضاً إلى الله بغير زاد   إلا التقى وعمل المعاد

والصبر في الله على الجهاد   وكل زاد عرضة

غير التقى والصبر والرشاد(1)

1() تاريخ الطبري: 2/33.

ومثله أنس بن النضر الذي قاتل في أحد قتال من يطلب الموت، وعندما لقيه سعد بن معاذ قال له: يا سعد، الجنة ورب النضر: أجد ريحها من وراء أحد.

قالوا: وعينا هذا.. فهل هناك علاج علمي غيره؟

قال: أجل.. أن يتفكر الجبان في الآثار السلبية والعواقب الوخيمة لجبنه.. فعندما يطالع الجبان، والّذي يعيش حالة الخوف والرعب من كلّ إقدام مثمر الآثار السلبية للخوف الموهوم وما يترتب عليه من ذلّة وحقارة وتخلف وحرمان من الكثير من مواهب الحياة في حياته أو حياة الآخرين، فإنه سيتحرك في الغالب لتجديد فكرته ونظرته عن هذه الحالة ويسعى لتطهير نفسه منها.

قالوا: وعينا هذا.. فما العلاج الثاني.. ما **العلاج العملي**؟

قال: ذلك هو ما يشير إليه قول أمير المؤمنين علي بن أبي طالب: (اذا هبت امرا فقع فيه، فان شدة توقيه اعظم مما تخاف منه)

وهو ما نمارسه في هذا القسم في جناح التدريبات.. فهلم بنا إليه..

***

سرنا مع السرهندي إلى جناح التدريبات.. وهناك ظللنا مدة الطويلة نتدرب على قلع مرض الجبن.. إلى أن رأى في بعضنا الأهلية للتخرج منه، فأجازنا، وانتقلنا بعده إلى القسم السابع من أقسام المدرسة.

7 ـ العجز

سرت إلى القسم السادس.. وقد كان شيخه رجلا صالحا جمع بين العلم والعمل.. وقد علمت أنه قدم من ليبيا.. وأن أصله من الجزائر.. وأن له مريدين وأتباعا كثيرين.. وكان الجميع

يطلقون عليه لقب (السنوسي)[1]..

وقد عجبت لما سمعت من أخبار نشاطه، ونشاط أتباعه، ولكني لم أعجب أن يتولى التدريس في هذا القسم، فقد علمت أنه لا يخلص العجزة من عجزهم إلا من امتلأ نشاطا وهمة.

عندما دخلنا القسم.. سمعت بعض التلاميذ يسأله قائلا: يا شيخنا.. لقد ظللت مدة محتارا في سر وصف القرآن الكريم للمستضعفين بأنهم ظالمين لأنفسهم.. وأنهم يستحقون لذلك ما يحصل لهم من ألوان الآلام.. بل إن الله تعالى يتوعدهم بمزيد من العذاب يجدونه في الآخرة..

قال السنوسي: أراك تشير إلى قوله تعالى: إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّاهُمُ الْمَلآئِكَةُ ظَالِمِي أَنْفُسِهِمْ قَالُواْ فِيمَ كُنتُمْ قَالُواْ كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِي الأَرْضِ قَالْوَاْ أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةً فَتُهَاجِرُواْ فِيهَا فَأُوْلَئِكَ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَسَاءتْ مَصِيرًا (97) (النساء)

قال الرجل: أجل.. انظر كيف اعتبر الله تعالى هؤلاء ظالمين مع أنهم أقروا بأنهم كانوا مستضعفين.

قال السنوسي: اقرأ ما بعدها من الآيات لتعرف السر في لوم هؤلاء، وفي العقاب الذي حاق بهم.

قال الرجل: لقد قال الله تعالى بعد تلك الآية : إِلاَّ الْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاء وَالْوِلْدَانِ لاَ يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً وَلاَ يَهْتَدُونَ سَبِيلاً (98) فَأُوْلَئِكَ عَسَى اللَّهُ أَن يَعْفُوَ عَنْهُمْ وَكَانَ اللَّهُ عَفُوًّا غَفُورًا (99) (النساء)

قال السنوسي: إن هاتين الآيتين تجيبانك عن سؤالك.

[1] أشير به إلى الشيخ المربي محمد بن علي السنوسي الخطابي الحسني الإدريسي (1202 ـ 1276هـ) مؤسس الطريقة السنوسية، وُلد ببلدة مستغانم الجزائرية.. تعلم على يد علماء مسقط رأسه، ثم ارتحل طالبًا العلم في فاس، وبرع فيه. وعين مدرسًا بالجامع الكبير بفاس، وجاب مناطق الصحراء واعظًا ومربيا، وتجوّل في كثير من البلدان الإسلامية، فقد زار تونس وطرابلس وبرقة ومصر والحجاز واليمن.. وأنشأ أول زاوية له في جبل أبي قبيس بمكة، ثم عاد إلى برقة سنة 1255هـ - 1839م، وأقام بالجبل الأخضر، فبنى الزاوية البيضاء.. انتشرت طريقته، فارتابت الحكومة العثمانية في أمره، فضايقته، فانتقل إلى واحة جغبوب بجنوبي ليبيا حتى توفاه الله، مخلفًا وراءه نحو أربعين كتابًا ورسالة.

قال الرجل: لم أفهم..

قال السنوسي: إن الله تعالى لا يلـوم ولا يؤاخـذ عبـاده على العجز الفطري الجبلي الذي خلقوا به.. ولكنه يلـومهم أشـد اللـوم على العجز الذي يكسبونه بسبب خورهم وكسلهم..

قال الرجل: فالعجز عجز إذن؟

قال السنوسي: أجل.. واللـه تعـالى بعدلـه ورحمتـه لا يؤاخـذ عباده إلا بما كسبت أيدهم..

ومع ذلك.. فإن الله تعـالى ينهى المستضـعفين الـذين ملأتهم جبلتهم بـالعجز عن أن يقعـد بهم ضـعفهم الحسـي عن الاسـتعداد والهم، ولهذا يثني على الصالحين المستضعفين بقولـه : وَلا عَلَى الَّذِينَ إِذَا مَـا أَتَـوْكَ لِتَحْمِلَهُمْ قُلْتَ لا أَجِـدُ مَـا أَحْمِلُكُمْ عَلَيْـهِ تَوَلَّوْا وَأَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ حَزَناً أَلَّا يَجِدُوا مَا يُنْفِقُونَ (92) (التوبة)

ولهذا أثنى رسول اللـه على هـذا النـوع من المستضـعفين بقوله:(إن بالمدينة أقواماً ما قطعتم وادياً ولا سرتم سيراً إلا وهم معكم) قالوا: وهم بالمدينة؟ قال:(نعم حبسهم العذر)[1]

بل إن الله تعالى اشترط في هؤلاء المستضعفين النصـح للـه ورسوله في حـال قعـودهم وعجـزهم، فقـال تعـالى : لَيْسَ عَلَى الضُّـعَفَاءِ وَلا عَلَى الْمَرْضَـى وَلا عَلَى الَّذِينَ لا يَجِـدُونَ مَـا يُنْفِقُـونَ حَرَجٌ إِذَا نَصَحُوا لِلَّهِ وَرَسُـولِهِ مَـا عَلَى الْمُحْسِـنِينَ مِنْ سَـبِيلٍ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ (91) (التوبة)

قال الرجل: لم كان الأمر كذلك.. لم نظر الإسلام إلى العجـز بهذه النظرة السلبية؟

قـال: لأن دين اللـه تعـالى لا يقـوم بـه ولا يمثلـه إلا الأقويـاء أصحاب الهمم العالية، أما الـذين يتصـورون الـدين ضـعفا وتماوتـا وذلة، فهم لا يميتون شخصياتهم فقط، بل يميتون الدين أيضا.

ولهـذا كـان رسـول اللـه وهـو القـدوة الأول للمؤمـنين إذا

1() رواه البخاري ومسلم.

مشى أسرع في مشيته، كأنما ينحدر من صبب، يقول واصفه:(ما رأيت أحداً أحسن من رسول الله كأن الشمس تجرى في وجهه، ولا رأيت أحداً أسرع في مشيته منه، كأنما الأرض تطوى له، وإنما لنجهد أنفسنا، وإنه لغير مكترث)(1)

قال رجل من الحاضرين: أنت تعلم أنا قوم امتلأنا عجزا وكسلا.. وقد قدمنا إلى هذا القسم لنتطهر منه.. فما السبيل إلى ذلك؟

قال: سبيلان.

قال الرجل: علمناهما.. فحدثنا عن السبيل الأول.. حدثنا عن **العلم**.

قال: أولهما هو العلم.. وأعظم علم هو العلم بالله.. فمن عرف الله أعطاه الله من القوة ما يزحزح الجبال.. لقد قال رسول الله يشير إلى المعاني التي يختزنها الإيمان، فيملأه صاحبه بالقوة:(المؤمن القوي خير وأحب إلى الله من المؤمن الضعيف، وفي كل خير، احرص على ما ينفعك واستعن بالله ولا تعجز، وإن أصابك شيء فلا تقل: لو أني فعلت لكان كذا وكذا، ولكن قل قدر الله وما شاء فعل، فان لو تفتح عمل الشيطان)(2)

انظروا كيف جعل رسول الله الاستعانة بالله منافية وصادة لأوهام العجز..

ولهذا قال تعالى يذكر موقف رسول الله ، وهو في الغار يتحدى المشركين : إِلاّ تَنْصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا ثَانِيَ اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا فَأَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُ بِجُنُودٍ لَمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُوا السُّفْلَى وَكَلِمَةُ اللَّهِ هِيَ الْعُلْيَا وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ (40) (التوبة)

فشعور رسول الله بمعية الله جعله يتحدى كل ما أعد

---

(1) رواه الترمذي، وقال: حديث غريب، ورواه أحمد وابن حبان وابن سعد.

(2) رواه أحمد.

المشركين من وسائل الرصد التي تريد أن تغتاله وتغتال دينه.

وبمثل هذا القول علم الله تعالى موسى ﷺ مصححا تصوره لفرعون وزبانيته : كَلَّا فَاذْهَبَا بِآيَاتِنَا إِنَّا مَعَكُمْ مُسْتَمِعُونَ (15) (الشعراء)، وكأنه يقول له:(كلا يا موسى، فلا يساوي فرعون شيئا ما دمت معك)

ولهذا سار موسى ﷺ رابط الجأش، شجاعا، في عزة تقصر معها عزة كل ما أحيط بفرعون من هالة وزينة، فقد كان مع موسى ﷺ ربه تعالى، ولهذا أجاب بني إسرائيل بعد أن أدركهم فرعون وجنده بقوله الذي يستعيد فيه موسى ﷺ ماقيل له في ذلك اليوم : كَلَّا إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ (62) (الشعراء)

ولهذا الشعور تأثيره العظيم في بث العزيمة في نفس المؤمن، لأنه حينها لا ينظر إلى قوته المحدودة، وإنما ينظر إلى قوة الله التي تمده بالمدد كل حين، بل إنه ينفي قوته بجنب قوة الله، ولهذا قال تعالى : إِنْ يَنْصُرْكُمُ اللَّهُ فَلا غَالِبَ لَكُمْ وَإِنْ يَخْذُلْكُمْ فَمَنْ ذَا الَّذِي يَنْصُرُكُمْ مِنْ بَعْدِهِ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ (160) (آل عمران)، فاعتبر النصر من الله والخذلان من الله.

ولهذا تحدى الأنبياء ـ صلوات الله وسلامه عليهم ـ أقوامهم، فلم يبهرهم ما أعد لهم من صنوف الفتن، قال تعالى ذاكرا قول هودا ﷺ لقومه بعد تكذيبهم له : إِنِّي أُشْهِدُ اللَّهَ وَاشْهَدُوا أَنِّي إِنِّي أُشْهِدُ اللَّهَ وَاشْهَدُوا أَنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ (54) مِنْ دُونِهِ فَكِيدُونِي جَمِيعًا ثُمَّ لَا تُنْظِرُونِ (55) إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى اللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُمْ مَا مِنْ دَابَّةٍ إِلَّا هُوَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا إِنَّ رَبِّي عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ (56) (هود)

قال رجل من القوم: إنا نعتقد بكل ما تذكر.. ولكنا مع ذلك نجد في جوارحنا من الخدر ما يمنعنا من أي حركة.

قال: ذلك هو الكسل.. ذلك هو الذي وصف الله به المنافقين، فقال: إِنَّ الْمُنافِقِينَ يُخادِعُونَ اللَّهَ وَهُوَ خادِعُهُمْ وَإِذا قامُوا إِلَى الصَّلاةِ قامُوا كُسالى يُراؤُنَ النَّاسَ وَلا يَذْكُرُونَ اللَّهَ إِلَّا

قَلِيلًا (142) مُذَبْـذَبِينَ بَيْنَ ذلِـكَ لا إِلى هـؤُلاءِ وَلا إِلى هـؤُلاءِ وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَلَنْ تَجِدَ لَهُ سَبِيلًا (143) (النساء)

ووصف به آخرين من ضعاف الإيمان، فقال : وَما مَنَعَهُمْ أَنْ تُقْبَلَ مِنْهُمْ نَفَقاتُهُمْ إِلَّا أَنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَبِرَسُولِهِ وَلا يَأْتُونَ الصَّـلاةَ إِلَّا وَهُمْ كُسـالى وَلا يُنْفِقُـونَ إِلَّا وَهُمْ كـارِهُونَ (54) فَلا تُعْجِبْـكَ أَمْوالُهُمْ وَلا أَوْلادُهُمْ إِنَّما يُرِيـدُ اللَّهُ لِيُعَـذِّبَهُمْ بِها فِي الْحَياةِ الـدُّنْيا وَتَزْهَقَ أَنْفُسُهُمْ وَهُمْ كافِرُونَ (55) (التوبة)

ووصف به المخلفين المتثاقلين، فقال : يـا أَيُّهَـا الَّذِينَ آمَنُـوا مـا لَكُمْ إِذا قِيـلَ لَكُمُ انْفِـرُوا فِي سَـبِيلِ اللَّهِ اثَّاقَلْتُمْ إِلَى الْأَرْضِ أَرَضِيتُمْ بِالْحَياةِ الدُّنْيا مِنَ الْآخِرَةِ فَما مَتاعُ الْحَياةِ الدُّنْيا فِي الْآخِـرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ (38) إِلَّا تَنْفِرُوا يُعَذِّبْكُمْ عَذاباً أَلِيماً وَيَسْتَبْدِلْ قَوْمـاً غَيْـرَكُمْ وَلا تَضُرُّوهُ شَيْئاً وَاللَّهُ عَلى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (39) (التوبة)، وقال : فَرِحَ الْمُخَلَّفُونَ بِمَقْعَدِهِمْ خِلافَ رَسُولِ اللَّهِ وَكَرِهُوا أَنْ يُجاهِـدُوا بِأَمْوالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَقالُوا لا تَنْفِرُوا فِي الْحَرِّ قُلْ نارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَـرًّا لَـوْ كـانُوا يَفْقَهُـونَ (81) (التوبـة)، وقـال : وَإِذا أُنْزِلَتْ سُورَةٌ أَنْ آمِنُـوا بِاللَّهِ وَجاهِـدُوا مَـعَ رَسُـولِهِ اسْـتَأْذَنَكَ أُولُـوا الطَّوْلِ مِنْهُمْ وَقالُوا ذَرْنا نَكُنْ مَعَ الْقاعِدِينَ (86) رَضُوا بِأَنْ يَكُونُـوا مَعَ الْخَوالِفِ وَطُبِعَ عَلى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لا يَفْقَهُونَ (87) (التوبة)

قـال رجـل من الحاضـرين: لم نكن نتصـور أن الكسـل يصـل بأصـحابه إلى هـذه الدرجـة.. فلم كـان كـذلك؟.. لم كـان الكسـل عرضا من أعراض النفاق، ووصفا من أوصاف ضعاف الإيمان؟

قال: ذلك أن الإنسان لا تتحرك جوارحه إلا بإملاء من حقيقته التي هي روحه.. فإن كانت روحه منغمسة في الأوحال، مستغرقة في الظلمات لم تكد تحرك صاحبها نحو خير.

أرأيتم لو أن هذا الذي تكاسل عن أعمال الـبر الـتي يقتضـيها الإيمان عرض عليه ما يملأ خزائنـه بـالأموال.. هـل تـراه يقعـد عن ذلك؟

قالوا: لا.. إنا نرى نفوسنا ننشـط في هـذه المحـال نشـاطا لا نظير له؟

قــال: فــاعلموا إذن أن دواءكم في تقويــة إيمــانكم.. فليس الجسد إلا خادم بسيط للروح يأتمر لأمرها، وينتهي لنهيها.

قالوا: وعينا هذا.. فحدثنا عن العلاج العملي.

قال: ستعيشـونه هنـا في جنـاح التـدريبات في هـذا القسـم.. فلن يتخرج منه إلا من تخلص من أوثان عجزه وكسله، فلا يستقيم الإيمان مع العجز والكسل.

قال رجل من القوم: لقـد أثـر عن رسـول اللـه اسـتعاذات من الكســل، ومنهــا قولــه : (اللّهمّ إنّي أعوذبــك من العجــز والكسل، والجبن والبخل، والهرم وعذاب القـبر. اللّهمّ آت نفسـي تقواها، وزكّهـا أنت خـير من زكّاهـا. أنت وليّهـا ومولاهـا اللّهمّ إنّي أعوذبك من علم لا ينفع، ومن قلب لا يخشـع، ومن نفس لا تشـبع، ومن دعوة لا يستجاب لها)(1)

ونحن نقولها ونلتزم بها، ومع ذلك لم نـر حياتنـا تتغـير.. فـأين التقصير؟

قال: أرأيتم لو أن رجلا لا يصلي.. وظل يـدعو اللـه أن يجعلـه يصلي.. هل يكفه ذلك؟

قالوا: لا.. بـل عليـه أن يتحـرك بجوارحـه.. فـالأمر بين يديـه، وبيديه.

قال: فهكذا هذا الأمر.. لقد وضع لنا رسـول اللـه منظومـة كاملة من التشريعات والتوجيهات تخلصنا من كـل عجـز وكسـل.. فرحنا ننبذها، ونكتفي بالاستعاذة من الكسل.

قالوا: فهلا ذكرت لنا من هذه المنظومة بعضها.

قال: من ذلـك الاسـتيقاظ المبكـر، فلا يفسـد حيـاة الكسـول شـيء مثلمـا يفسـدها نومـه.. قـال يـذكر تـأثير الاسـتيقاظ في النشاط: (يعقد الشّـيطان على قافيـة رأس أحـدكم ثلاث عقـد إذا نام، بكلّ عقدة يضرب عليك ليلا طويلا. فإذا استيقظ، فـذكر اللّـه،

---

(1) رواه مسلم.

انحلّت عقدة. وإذا توضّأ، انحلّت عنه عقدتان، فإذا صلّى انحلّت العقد. فأصبح نشيطا طيّب النّفس، وإلّا أصبح خبيث النّفس كسلان)(1)

قالوا: وعينا هذا.. فهل هناك غيره؟

قال: من ذلك أن يحرص على العمل.. فلا يدمر حياة الكسول شيء مثلما يدمرها قعوده عن العمل، ففي الحديث أنّ رجلا من الأنصار أتى النّبيّ يسأله، فقال: (أما في بيتك شيء؟) قال: بلى، حلس نلبس بعضه ونبسط بعضه، وقعب نشرب فيه من الماء، قال: (ائتني بهما) فأتاه بهما، فأخذهما رسول اللّه بيده، وقال: (من يشتري هذين؟) قال رجل: أنا آخذهما بدرهم، قال: (من يزيد على درهم؟). مرّتين أو ثلاثا. قال رجل: أنا آخذهما بدرهمين، فأعطاهما إيّاه، وأخذ الدّرهمين وأعطاهما الأنصاريّ، وقال: (اشتر بأحدهما طعاما فانبذه إلى أهلك، واشتر بالآخر قدّوما فأتني به) فأتاه به، فشدّ فيه رسول اللّه عودا بيده ثمّ قال له: (اذهب فاحتطب وبع، ولا أرينّك خمسة عشر يوما) فذهب الرّجل يحتطب ويبيع، فجاء وقد أصاب عشرة دراهم، فاشترى ببعضها ثوبا وببعضها طعاما. فقال رسول اللّه : (هذا خير لك من أن تجيء المسألة نكتة في وجهك يوم القيامة، إنّ المسألة لا تصلح إلّا لثلاثة: لذي فقر مدقع، أو لذي غرم مفظع، أو لذي دم موجع)(2)

وفي حديث آخر قال : (الأيدي ثلاثة: فيد اللّه العليا، ويد المعطي الّتي تليها، ويد السّائل السّفلى، فأعط الفضل ولا تعجز عن نفسك)(3)

وفي حديث آخر قال : (لأن يأخذ أحدكم أحبلا، فيأخذ حزمة من حطب فيبيع فيكفّ اللّه بها وجهه خير من أن يسأل النّاس

1() رواه البخاري ومسلم.

2() رواه أبو داود والبيهقي بطوله وأخرج الترمذي والنسائي منه قصة بيع القدح فقط. وقال الترمذي: حديث حسن.

3() رواه أبو داود والحاكم.

أعطي أم منع)[1]

وقال : (لأن يغدو أحدكم فيحطب على ظهره، فيتصدّق به ويستغني به من النّاس، خير له من أن يسأل رجلا، أعطاه أو منعه ذلك. فإنّ اليد العليا أفضل من اليد السّفلى. وابدأ بمن تعول)[2]

قالوا: وعينا هذا.. فهل هناك غيره؟

قال: لقد ذكرت لكم أن منبع الكسل هو أفكار الكسول وتصوراته الخاطئة للحياة.. ولهذا، فإن النبي اعتبر ذلك من الهوى الحاجز عن العمل، ولا يمكن للكسول أن يتخلص من كسله، ولا للعاجز أن يتخلص من عجزه إلا إذا تخلص من تلك الأفكار المردية، قال : (الكيّس من دان نفسه، وعمل لما بعد الموت، والعاجز من أتبع نفسه هواها وتمنّى على اللّه)[3]

***

ما وصل صاحبي من حديثه إلى هذا الموضع حتى فوجئنا بجلبة داخل القصر.. ثم فوجئنا بالحرس جميعا يهرعون إلى حيث سمعنا الجلبة.. تاركين الأبواب مفتوحة لا حارس لها..

لم أدر إلا بموسى يسرع مع الجموع ليدخل القصر.. ولم أجد نفسي إلا معهم جميعا، وقد ارتفعت عني كل مخافة.

في داخل القصر رأيت صورة لا يمكنني أن أنساها ما حييت..

لقد رأيت ذلك الرجل العملاق الجميل الذي أوتي من بسطة الجسم وحسنه ما أوتي، وقد تغير حاله تغيرا تاما.

قلت: ماذا حصل له؟

قال: لقد كان في بيته كثير من الأجهزة سريعة الالتهاب.. وقد غفل المسكين عن سيجارته، فامتدت نيرانها لبعض تلك

1() رواه البخاري.

2() رواه البخاري ومسلم.

3() رواه مسلم.

الأجهـزة.. فحـولت بيتـه إلى رمـاد.. وحـولت وجهـه إلى شـبح.. وحولت جسده إلى هيكل مملوء بالعجز والضعف..

كان مغمى عليه حين دخلنا قصره..

ولم نلبث إلا قليلا حـتى جـاء طبيبـه الخـاص.. ومعـه جميـع الأجهزة الطبية التي يحتاجها..

بعد أن أجرى الطبيب فحوصـاته التفت إلينـا، وقـال: آسـف.. ليس هناك من أمل.. لقد امتد الحريـق إلى فـؤاده.. ولا يمكن لأي طبيب في الدنيا أن يعالج حريقا وصل إلى الفؤاد..

قلت: فقد مات الرجل إذن؟

قال: أجل.. ومن عجـائب الأقـدار أن موسـى هـو الـذي ورث قارون.. فلم يكن له وارث إلا أخاه..

لقد تحول القصر في ذلك المسـاء إلى موسـى.. وقـد عجبت إذ أن القارئ الذي جاء يقرأ القرآن تلك الليلة ــ كمـا تعـود النـاس أن يفعلوا مع موتاهم ـ كان أول ما بدأ به سورة الهمزة..

لقد أخذ يردد بصوت خاشع حزين: وَيْلٌ لِكُـلِّ هُمَـزَةٍ لُمَـزَةٍ (1) الَّذِي جَمَـعَ مَـالًا وَعَـدَّدَهُ (2) يَحْسَـبُ أَنَّ مَالَـهُ أَخْلَـدَهُ (3) كَلَّا لَيُنْبَـذَنَّ فِي الْحُطَمَـةِ (4) وَمَـا أَدْرَاكَ مَـا الْحُطَمَـةُ (5) نَـارُ اللَّهِ الْمُوقَدَةُ (6) الَّتِي تَطَّلِعُ عَلَى الْأَفْئِدَةِ (7) إِنَّهَـا عَلَيْهِمْ مُؤْصَـدَةٌ (8) فِي عَمَدٍ مُمَدَّدَةٍ (9) (الهمزة)

كانت دموع كثيرة حارة ترسم خطوطها على وجنتي موسى.. قام بعدها، وقال: أيها الجمع الكريم.. أشهدكم بأن هذا القصر بمـا فيه.. وأن جميع الأموال التي ورثتها من أخي.. قد وهبتهـا لليتـامى والمستضعفين..

قد جعلتها جميعا وقفـا للـه.. وأرجـو من اللـه العلي القـدير.. الكـريم الغفـور.. أن يمنح أخي من مغفرتـه وعفـوه، فهـو الغفـور الرحيم.

ثانيا ـ القوي

قلت: عـرفت السـر الأول من أسـرار الإنسـان.. فمـا السـر الثاني؟

قال: قوته..

قلت: عجبا.. لقد أقنعتني بضعفه وعجزه.. فكيف يستقيم هذا مع قوته.. ألا ترى أن هناك تناقضا بينهما؟

قال: أرى تكاملا بينهما لا تناقضا.

قلت: كيف ذلك؟

قال: لقد خلق الله الإنسـان مملـوءا بالضـعف.. ولـذلك زوده بـأنواع من القـوى يسـتطيع أن يخـرج بهـا من ضـعفه ليمـارس الوظيفة التي كلفه الله بهـا.. فلا يمكن أن تـؤدى الوظـائف إلا من الأقوياء..

انظـر..إن موسـى ﵇ مـا اسـتطاع أن يحسـن إلى المـرأتين، ويقوم بالواجب الذي تمليه المروؤة نحوهمـا لـولا أنـه كـان قويـا.. قال تعالى يذكر ذلك: ﴿ قَالَتْ إِحْدَاهُمَا يَا أَبَتِ اسْتَأْجِرْهُ إِنَّ خَيْرَ مَنِ اسْتَأْجَرْتَ الْقَوِيُّ الْأَمِينُ (26)﴾ (القصص)

والله تعالى أمر يحي ﵇ بأن يأخذ الكتاب بقوة.. قال تعالى : ﴿ يَا يَحْيَى خُذِ الْكِتَابَ بِقُوَّةٍ وَآَتَيْنَاهُ الْحُكْمَ صَبِيًّا (12)﴾ (مريم)

وأمر موسى ﵇ أن يأخذ الكتاب بقوة.. قـال تعـالى :﴿ َكَتَبْنَـا لَهُ فِي الْأَلْوَاحِ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ مَوْعِظَةً وَتَفْصِـيلًا لِكُـلِّ شَـيْءٍ فَخُـذْهَا بِقُوَّةٍ وَأْمُرْ قَوْمَكَ يَأْخُذُوا بِأَحْسَنِهَا سَـأُرِيكُمْ دَارَ الْفَاسِـقِينَ (145)﴾ (الأعراف)

وأمر بني إسرائيل بأن يأخذوا الكتاب بقوة، قال تعالى :﴿ وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ الطُّورَ خُذُوا مَا آَتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ وَاذْكُـرُوا مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ (63)﴾ (البقرة)

وأخبر أن ذا القرنين احتاج إلى القوة ليؤدي الوظيفة التي كلف بها.. قال تعالى : قَالَ مَا مَكَّنِّي فِيهِ رَبِّي خَيْرٌ فَأَعِينُونِي بِقُوَّةٍ أَجْعَلْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ رَدْمًا (95) (الكهف)

وأخبر أن معلم رسول الله كان قويا.. وكأنه يشير إلى أنه لم يكن ليؤدي وظيفته التي كلف بها لو لم يكن كذلك.. قال تعالى : وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَى (1) مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَى (2) وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَى (3) إِنْ هُوَ إلا وَحْيٌ يُوحَى (4) عَلَّمَهُ شَدِيدُ الْقُوَى (5) (النجم)

قلت: كل من ذكرتهم أقوياء.. فمن مثل الأنبياء.. ومن مثل الملائكة.. ومن مثل الأولياء؟

قال: لقد أعطى الله لكل مخلوق من القوى ما يتناسب مع الوظيفة التي أنيطت به.. حتى الطير في السماء أعطاه الله من قوى جسده وعقله ما استطاع أن يطير به.. وأن يعيش حياته الطبيعية وهو في أجواء السماء.

قلت: والمستضعفون.. المساكين.. الذين حرموا من كل قوة، وامتلأوا بكل ضعف؟

قال: لقد وبخ الله تعالى المستضعفين.. ووصفهم بأنهم ظالمون لأنفسهم، لأنهم نظروا إلى ضعفهم وقصورهم.. ولم ينتبهوا لتلك القوى التي جعلها الله فيهم.. وعدم انتباههم لها هو الذي جعلهم يضيعونها، فلا يستثمرونها.. اسمع البيان الإلهي، وهو يصور هذه الحقيقة : إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّاهُمُ الْمَلائِكَةُ ظَالِمِي أَنْفُسِهِمْ قَالُوا فِيمَ كُنْتُمْ قَالُوا كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِي الْأَرْضِ قَالُوا أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةً فَتُهَاجِرُوا فِيهَا فَأُولَئِكَ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَسَاءَتْ مَصِيراً (النساء: 97)

انظر.. إن هذه الآية تنبه المستضعفين إلى القوى التي جعلها الله فيهم.. وهي قوى لها علاقة بالإدراك والعلم..

فالذي يريد أن يهاجر يحتاج ــ أولا ــ إلى البحث عن الأرض التي يريد أن يهاجر إليها، والتي تسمح له بالحياة التي لا تتناقض

مع وظيفته.. ومثل هذا يستدعي القوة العلمية..

والذي يريد أن يهاجر يحتاج قوة حركية تمكنه من الانتقال..

قلت: وعيت هذا.. وأحسبني مستعدا لأن تحدثني عن المفتاح الذي فتح الله به عليك هذا السر.

قال: لك ذلـك.. فبعـد أن من اللـه علي، فعـرفت من أسـرار ضعف الإنسان ما ذكرته لك سرت في تلك المدينة العجيبة ـ الـتي فتح اللـه لي فيهـا من علـوم الإنسـان مـا كـان منغلقـا ــ فـرأيت النــاس.. جميــع النــاس.. يســرعون إلى بيــوتهم.. والــدموع تملأ عيونهم.. وهم يصـيحون: اللـه أكـبر.. لقـد استشـهد البطـل.. لقـد استشهد البطل..

لم أكن أتصور عندما طرقت هذه الكلمـة طبلـة أذني إلا رجلا قويا مفتول العضلات يستطيع بعضلاته أن يفتك بأعدائه..

لكني وجدت الأمر خلاف ذلك تماما..

قلت: ما وجدت؟

قال: لقد عرفت أن البطل الذي بكى عليه الناس.. كان رجلا ممتلئا بالعلل.. ولكنه كان في شـموخه وإبائـه وشـجاعته وحكمتـه كجبل أشم راسخ ممتلئ بجميع أنواع القوى.

قلت: لكأني بك تقصد الشيخ (..!؟)[1]؟

قاطعني، وقال: أجل.. لقد قدر الله أن يكون حادث استشهاد ذلك الشيخ البطل هـو المفتـاح الـذي ولجت منـه إلى مفتـاح هـذا السر من أسرار الإنسان.

في ذلك الصـباح مـررت على مقهى في ذلـك الشـارع الـذي كنت أسـير فيـه.. فـرأيت الجميـع محلقين بأبصـارهم إلى شاشـة التلفزيون التي كانت تعرض صورا لاستشهاده.. ثم عرضت خطبـة للشيخ قـال فيها: (إن الرسـالة الـتي نحملهـا هي رسـالة الإسـلام

[1] () لم نذكر اسم الشخصية في هذا المحل كعهدنا في هذه السلسلة من عدم ذكر الأسماء التي قد تجرح جهة من الجهات.

العظيمة، التي جاءت لتنقذ البشرية من الضلال إلى الهدى، ومن الظلمات إلى النور، قال تعالى: وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ (107) (الأنبياء).. لذلك لا بد أن يكون حملة هذه الرسالة العظيمة علماء تجردوا من الدنيا وشهواتها، وتعلقوا بالآخرة ونعيمها، ووحدة القلوب تجمعهم، ووحدة الأخوة تؤلف بينهم، الحب والتعاون شعارهم، همهم إنقاذ الناس من النار بالكلمة الطيبة، والموعظة الحسنة، والمعاملة العالية من الرفق والحنان والعطف، ومد يد المساعدة لإنقاذ من في النار إلى جنة عرضها السماوات والأرض، طريقهم طريق الأنبياء والرسل الكرام، طريقهم محفوف بالمخاطر، ولكنه في النهاية منتصر، طريقهم البذل والعطاء والصدق والأمانة والعفاف، والعاقبة للمتقين، قال تعالى: كَتَبَ اللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِي إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ (21) (المجادلة)

لست أدري كيف شعرت بقوة عجيبة تسري في أعضائي.. فنهضت، وأنا أصيح: لقد أدى الشيخ ما عليه.. وبقينا نحن.. فهلم نستيقظ من غفوتنا لنوقظ هذه الأمة التي طال نومها.

ما قلت هذا حتى قال الجميع: صدقت.. فهلموا بنا إلى (**مدرسة المسلم القوي**).. فلا يمكن أن نستيقظ ولا أن نوقظ ما دمنا لم ننتسب إليها.

تعجبت من قولهم هذا، وقلت: هل هناك مدرسة بهذا الاسم؟.. لم أسمع بها.

قالوا: كيف لم تسمع بها.. وقد كنت الساعة تدعونا للانضمام إليها.. ونحن ببركة دعوتك عزمنا على تلبية طلبك.. فقد رأينا فيه من الصدق ما رغبنا في الانضمام إليها.

قلت: اعذروني.. أنا صادق في إخباركم عن جهلي بهذه المدرسة.. وأنا طالب منكم أن تمنوا علي بدلالتي عليها.

قال أحدهم: لا بأس.. أنا أعرف موقعها.. فهلم بنا إليها.

وقف الجميع.. ووقفت معهم.. وسرنا جميعا في تلال

ومرتفعات عالية إلى أن لاحت لنا مدرسة في منتهى الجمال.. قصدناها.. فوجدنا رجلا هو كالشمس أو قريب من الشمس يقف على بابها، وهو يقول: مرحبا بكم في مدرسة المسلم القوي.. يشرفكم أن تنتسبوا إليها.. فلا يمكن للقوة أن تدب في قلوبكم، ولا يمكن للنشاط أن يسري بين جوارحكم ما لم تمتلئوا بالمعاني التي تعلمكم إياها هذه المدرسة.

قلت: أراك تعظم من شأنها.. فمن ترى مؤسسها؟

قال: ومن غيره؟.. إنه محمد رسول الله.. إنه الرسول الذي دعا إلى القوة بكل معانيها.. ونحن هنا ورثة من ورثته آلينا على نفوسنا أن ندرب كل من يقصدنا على تلك القوة..

قلت: فعلام تدربون من يقصدكم؟

قال: على سبعة معان.. أو سبع درجات[1].. من ارتقى في سلمها شعر بقوة عجيبة يهون أمامها كل صعب، ويسهل أمامها كل عسير.

1 ـ اليقظة

سرت مع الجمع إلى مدرسة المسلم القوي، وإلى أول قسم من أقسامها، وقد استقبلنا فيه رجل علمت بعد ذلك أن اسمه (الحكيم الترمذي)[2]، وقد علمت أنه قدمها من (ترمذ) بعد أن حصل له فيها مع أهلها بعض الخلاف، فقد أساءوا فهم ما يدعوهم إليه، فراحوا يشنعون عليه، كما هو عادة الأنبياء والأولياء مع أقوامهم..

---

[1] نحب أن ننبه هنا إلى أنه لدينا رسالة خاصة بهذا الموضوع من رسائل السلام سميناها (مرابطات النفس اللوامة)، وما نذكره هنا هو ملخص مختصر منها.

[2] أشير به إلى الولي الصالح أبي عبد الله محمد بن علي بن الحسن بن بشر، المعروف بالحكيم الترمذي (ت 320 هـ)، عالم بالحديث وأصول الدين، من أهل (ترمذ) نفي منها بسبب تصنيفه كتابا خالف فيه ما عليه أهلها، فشهدوا عليه بالكفر.. فجاء إلى بلخ (فقبلوه) لموافقته إياهم على المذهب.. من مؤلفاته (غرس الموحدين) و(الرياضة وأدب النفس) و(غور الامور) و(المناهي) و(شرح الصلاة) و(المسائل المكنونة) وكتاب (الاكياس والمغترين) و(بيان الفرق بين الصدر والقلب والفؤاد واللب)، و(العقل والهوى) و(العلل) (انظر: الأعلام للزركلي)

لكنه لم يركن إليهم.. بل جاء إلى هذا القسم ليبشر بما منع أن يبشر به في ترمذ.. وقد نال خلاف ما نال هناك.. فقد لقي من شيوخ المدرسة وأصحابها من الاحترام والتكريم وفوق ذلك من الطاعة ما هو أهل له.

عندما دخلت القسم وجدته بين تلاميذه كالهالة أمام الشمس.. وهو ينشدهم بصوت عذب قائلا:

مثّل لنفسك أيها   يوم القيامة والسماء
إذ كُوِّرتْ شمس النهار   حتى على رأس العباد
وإذا النجوم تساقطت   وتبدّلت بعد الضياء
وإذا البحار تفجّرت من   ورأيتها مثل الجحيم
وإذا الجبال تقلّعت   فرأيتها مثل السحاب
وإذا العشار تعطّلت   خلت الديار فما بها
وإذا الوحوش لدى   وتقول للأملاك أين
وإذا تقاة المسلمين   من حور عين زانهن
وإذا الموءودة سُئِّلتْ   وبأيّ ذنب قتلها
وإذا الجليل طوى   طيّ السجل كتابه
وإذا الصحائف عند ذاك   تُبدى لنا يوم القصاص
وإذا الصحائف نشِّرت   وهتّكت للمسلمين
وإذا السماء تكشطت   ورأيت أفلاك السماء
وإذا الجحيم تسجَّرت   فلها على أهل الذنوب
وإذا الجنان تزخرفت   لفتى علي طول البلاد
وإذا الجنين بأمه متعلَقٌ   يخشى القصاص وقلبه
هذا بلا ذنب يخاف   كيفَ المُصِرّ على

بعد أن انتهى من إنشاده الذي تحركت له القلوب، وسالت له العيون، نظر إلى تلاميذه، وقال: ما رأيتم؟

قال أحدهم: ما رأينا شيئا.

قال: ألم تروا أهوال القيامة، والصحف وهي تنشر، والموازين وهي تقام، والجحيم وهي تزفر، والجنة وهي تشتاق إلى أهلها.

نظروا إلى بعضهم بعضا، ثم قالوا: لا.. لم نر بعد شيئا.

قال: أنتم لا زلتم نائمون.. لا بد أن تستيقظوا.. فلا يمكن للنائم أن يبصر الحقائق.

قال أحد الحاضرين: الحقائق تعلم، ولا تبصر.

قال: الحقائق التي تعلم تبقى منحصرة في زوايا مهملة من الذهن.. ولا يمكن للحقائق أن تؤتي ثمارها النافعة إلا بعد أن تصبح رأي العين.. ألم تعلموا أنه (ليس الخبر كالعيان)(1)؟

ألم تعلموا أن إبراهيم ﷷ طلب الرؤية ليعبر إلى الطمأنينة الإيمانية.. لقد قال الله تعالى يذكر ذلك : ﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَى قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِن قَالَ بَلَى وَلَكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِي قَالَ فَخُذْ أَرْبَعَةً مِّنَ الطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ ثُمَّ اجْعَلْ عَلَى كُلِّ جَبَلٍ مِّنْهُنَّ جُزْءًا ثُمَّ ادْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْيًا وَاعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ (260)﴾ (البقرة)؟

قالوا: أجل.. ولكن كيف نرى كل ما ذكرت، وهو لم يحصل بعد؟

قال: لقد ورد في الحديث أن بعض الصحابة قال لرسول الله ﷺ:يا رسول اللّه، نكون عندك تذكّرنا بالنّار والجنّة، حتّى كأنّا رأي عين، فإذا خرجنا من عندك، عافسنا الأزواج والأولاد والضّيعات، نسينا كثيرا، فقال رسول اللّه ﷺ: (والّذي نفسي بيده إن لو تدومون على ما تكونون عندي، وفي الذّكر، لصافحتكم الملائكة على فرشكم وفي طرقكم، يا حنظلة، ولكن ساعة وساعة (ثلاث

(1) روى كثيرون منهم أحمد وابن حبان قوله ﷺ :(يرحم الله موسى ليس المعاين كالمخبر أخبره ربه تبارك وتعالى أن قومه فتنوا بعده فلم يلق الألواح فلما رآهم وعاينهم ألقى الألواح فتكسر منها ما تكسر)

مرّات)(1)

قال أحدهم: إن هؤلاء صحابة وواعظهم هو رسول الله ﷺ.. وأين نحن من الصحابة.. وأين أنت من رسول الله ﷺ ؟

بدا الغضب على وجه الترمذي، ثم راح يصيح فيهم: ويحكم أتريدون أن تكرروا ما فعله أهل ترمذ.. ويحكم ما فائدة الحقائق إن لم نعشها.. وما جدوى المعارف إن لم نبصرها.

أما الصحابة فهم بشر مثلكم.. ولستم أقل منهم شأنا إن أحسنتم.. فالله لا يحاسب خلقه إلا بأعمالهم.. ولا يرفع درجاتهم إلا بما كسبت أيديهم..

ثم لم لم تذكروا أنه إن فاتتكم الصحبة فإن أخوة رسول الله ﷺ لم تفتكم.. وأنتم تعلمون أن للأخوة من الفضل في كثير من الأحيان ما لا تدانيه الصحبة؟

قال أحدهم غاضبا: ما تقول يا شيخ؟.. وأين نحن من الأخوة التي تزعمها؟

قال: لعلكم لم تسمعوا بما ورد في الحديث من أن رسول الله ﷺ أتى المقبرة فقال: (السّلام عليكم دار قوم مؤمنين. وإنّا إن شاء اللّه، بكم لاحقون. وددت أنّا قد رأينا إخواننا) قالوا: أولسنا إخوانك يا رسول اللّه؟ قال: (أنتم أصحابي. وإخواننا الّذين لم يأتوا بعد)، فقالوا: كيف تعرف من لم يأت بعد من أمّتك يا رسول اللّه؟ فقال: (أرأيت لو أنّ رجلا له خيل غرّ محجّلة. بين ظهري خيل دهم بهم.. ألا يعرف خيله) قالوا: بلى. يا رسول اللّه! قال: (فإنّهم يأتون غرّا محجّلين من الوضوء. وأنا فرطهم على الحوض. ألا ليذادنّ رجال عن حوضي كما يذاد البعير الضّالّ أناديهم: ألا هلمّ! فيقال: إنّهم قد بدّلوا بعدك. فأقول سحقا سحقا)(2)

وفي حديث آخر عن عمر قال: كنت جالسا عند رسول الله ﷺ فقال: أتدرون أى الخلق أفضل إيماناً؟ قلنا: الملائكة. قال: وحق

---

(1) رواه مسلم.

(2) رواه مسلم.

لهم، بل غيرهم. قلنا: الأنبياء. قال: وحق لهم، بل غـيرهم. ثم قـال رسـول اللـه : (أفضـل الخلـق إيمانـاً قـوم في اصـلاب الرجـال يؤمنون بى ولم يرونى، يجدون وَرَقا فيعملون بما فيها وهم أفضـل الخلق إيماناً)[1]

قال الرجل: نعم ما ذكرت.. ولكن مـا علاقـة مـا تـذكره بهـذا القسم؟

قال الحكيم: إن اليقظة تتطلب أمرين لا يمكن أن تحقـق من دونهمـا: أن تعرفـوا الحقـائق الـتي يقـوم عليهـا هـذا الكـون.. وأن تعرفوا من أنتم وما محلكم منه..

إن هذا مثل المستيقظ من النوم تماما.. فالمسـتيقظ يعـرف حقيقته وحقيقة ما يحيط بـه.. بخلاف النـائم الـذي انشـغل عن كلا المعنيين.

قالوا: وعينا هذا.. ونحن نتعجب من دعوتنا إلى رؤية الحقـائق بدل علمها.

قال: لأن علمها موجود عندكم.. كما هو موجود عند كثـير من النـاس.. ولكن الكثـير ينشـغل عن العلم بالجهـل، فيغطي جهلـه علمه.. فلذلك يحتاج إلى أن يبصر الحقائق حتى يتغلب علمـه على جهله.

قالوا: اضرب لنا مثالا حتى نعي هذا.

قال: لاشك أنكم تعرفون الموت.

قالوا: ومن لا يعرفه؟

قال: ولكنكم في تعاملكم مع شؤون حياتكم تكادون تنسونه.

قـال رجـل منهم: أجـل.. ولـذلك قـالوا : لم نجـد يقينـا أشـبه بالشك من الموت.

قال: ذلك عند كل النـاس مـا عـدا المسـتيقظ.. فـإن المـوت

1() رواه أبو داود الطيالسى.

عنـده حقيقـة حاضـرة يعيشـها.. ويلـتزم بلوازمهـا.. فلا يـركن إلى الدنيا ولا يركن إلى الأهواء، ولا ينشغل بالعاجلة عن الباقية..

لقد حدث الصالحون عن الربيع بن خـثيم وغـيره من الأوليـاء أنهم كـانوا يرتـدون الأكفـان، ويتوسـدون الـتراب؟! ليستشـعروا حضور الموت، فيعملوا بمقتضيات علمهم به.

وحدثوا عن إبراهيم التيمي أنه قال: (مثّلت نفسي في الجنــة آكل من ثمارهـا، وأشـرب من أنهارهـا، ثم مثّلت نفسـي في النـار آكل من زقومها، وأشرب من صديدها، وأعـالج سلاسـلها وأغلالهـا، فقلت لنفسي : أي شيء تريدين؟ قـالت : أريـد أن أرد إلى الـدنيا فأعمل صالحا. قال : قلت : فأنت في الأمنية فاعملي)

وحدثوا عن سالم الخواص أنه كان يقرأ الآية ويكررها، ويتلذذ بذلك كما يتلذذ أحدنا بالعسـل، وعنـدما سـئل عن سـر ذلـك قـال: (كنت أقرأ القرآن ولا أجد له حلاوة ، فقلت لنفسي: اقرئيـه كأنـك سمعتيه من رسول الله ﷺ، فجاءت حلاوة قليلـة ، فقلت لنفسـي : اقرئيه كأنك سمعتيه من جبريل عليه السلام حين يخبر به النبي ﷺ فازدادت الحلاوة ، ثم قلت لها : اقرئيه كأنك سـمعتيه حين تُكِّلم بـه، فـأتت الحلاوة كلها)

انظروا إلى هذا المستيقظ كيف صار يسمع الكلام من ربــه.. هذه هي اليقظة الحقيقية..

لقد قلت ذلك لأهل ترمذ، فراحوا يرمونني بالدواهي.. فإياكم أن تكونوا مثلهم.. واسمعوا إلى اللـه، فـإنكم سـتجدونه يخـاطبكم خطابا مباشرا.. فإياكم أن تنشغلوا بالحجب عن خطابه.

***

بقينـا مـدة في صـحبة الحكيم الترمـذي إلى أن خـرقت لنـا الحجب، وفتحت لنـا الأبـواب، وانفتح من أعيننـا مـا كـان مغمضـا، ومن آذاننا ما كان مسدودا..

وبعد أن رأى الترمذي منـا هـذه الأحـوال طلب منـا أن نسـير إلى القسم الثاني.

سرنا إلى القسم الثاني، وكان إمامه إمام من أئمــة الحــديث والتقوى.. كان الجميع يسـمونه (الإمـام النسـائي)(1)، وقـد علمت أنه قدم فارا من دمشق بعد أن طلب بعض المبتدعة منه فيهــا أن يثني على بعض الظلمة.. فأبى، وقال لهم بكل قوة: إن الثناء على الظالم دعوة للظلم.. وإن الثناء على الظالم سب للمظلوم.. وإن الله أمرنا بلعنة الظالم الباغي، ولم يأمرنا بالترضي عنه أو الترحم عليه.. وإن الله قال: أَلَا لَعْنَـةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ (18) (هـود)، ولم يقل: (ألا رحمة الله على الظالمين)

بمجرد أن دخلنا قاعة القسم وجدنا نفرا من الناس يجادلونــه بكل قوة، قال أحدهم: ما تقـول يـا إمـام.. أنسـيت أن من تـذكره بهذه المثالب هو خال المؤمنين؟

قـال: حـتى لـو كـان أبـا للمؤمـنين أو ابنـا لهم.. لاشـك أنكم تعلمون أن صفية زوج رسول الله هي أم من أمهات المؤمنين.. فمن كان أبوها الذي هو جد المؤمنين؟

قـال أحـدهم والبسـمة على فمـه: هـو حـيي بن أخطب ذلـك الظالم المعتدي الذي أهدر رسول الله دمه.

قال: فهل أغنى كونه أبا لصفية عنه شيئا؟

---

(1) أشير به إلى أبي عبد الرحمن أحمد بن شـعيب بن علي الخراسـاني، النسـائي الكبـير (215-303 هـ) القاضي الإمام، أحد الأئمة المبرزين والحفاظ المتقنين، والأعلام المشهورين. طاف البلاد وسمع من ناس في خراسان والعراق والحجاز ومصر والشام والجزيرة وغيرهــا. قال الحاكم: كان النسائي أفقه مشـايخ مصـر في عصـره وأعـرفهم بالصـحيح والسـقيم من الآثار وأعرفهم بالرجال. لـه من الكتب: السـنن الكـبرى في الحـديث؛ المجتـبى وهـو السـنن الصغرى، خصائص عليّ؛ مسند عليّ؛ الضعفاء والمتروكون بمسند مالك.

وقد تعرض هو الآخر لمحنة سببها كتابه في في فضل الإمام علي بن أبي طـالب الـذي جمـع فيه الاحاديث الواردة في فضل الامام أمير المؤمنين وأهل بيته.. فقد ذكر المؤرخون أنه بعـد أن ترك مصر في أواخر عمره قصـد دمشـق ونزلهـا، فوجـد الكثـير من أهلهـا منحـرفين عن الامام علي بن أبي طالب، فأخذ على نفسه وضع كتاب يضم مناقبه وفضائله رجاء أن يهتـدي به من يطالعه أو يلقى إليه سمعه، فأتى به والقاه على مسامعهم بصورة دروس متواصلة.

وبعد ان فرغ منه سئل عن معاوية وما روي من فضائله، فقال: (أما يرضى معاوية ان يخــرج رأسا برأس حتى يفضل؟)، وفي رواية: (ما أعرف له فضيلة إلا لا أشبع الله بطنك)، فهجمــوا عليه وداسوه حتى أخرجوه من المسجد، فقال: احملوني إلى مكة، فحمل إليها، فتوفى بها.

قالوا: لا.. بل قد قال رسول الله لما نزل قوله تعالى : ﴿ وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ الأَقْرَبِينَ (214)﴾ (الشعراء): يا معشر قريش اشتروا لأنفسكم، لا أغني عنكم من اللّه شيئا.. يا بني عبد مناف، لا أغني عنكم من اللّه شيئا.. يا عبّاس بن عبد المطّلب، لا أغني عنك من اللّه شيئا.. ويا صفيّة عمّة رسول اللّه لا أغني عنك من اللّه شيئا.. ويا فاطمة بنت محمّد سليني ما شئت من مالي، لا أغني عنك من اللّه شيئا)[1]

قال أحدهم: وقد روى بعضهم أنه كان كاتبا للوحي[2].

قال: حتى لو فرضنا صحة ذلك.. فإنه لن يغني عنه من الله شيئا ألا تعلمون أن اثنين من كتبة الوحي قد ارتدا عن الإسلام؟

قال رجل منهم: أجل.. أعرف أحدهما.. إنه عبد الله بن سعد بن أبي السرح، وقد روي الثقاة من خبره في تفسير قوله تعالى : ﴿ يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ مَا قَالُوا وَلَقَدْ قَالُوا كَلِمَةَ الْكُفْرِ وَكَفَرُوا بَعْدَ إِسْلَامِهِمْ وَهَمُّوا بِمَا لَمْ يَنَالُوا وَمَا نَقَمُوا إِلَّا أَنْ أَغْنَاهُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ مِنْ فَضْلِهِ فَإِنْ يَتُوبُوا يَكُ خَيْرًا لَهُمْ وَإِنْ يَتَوَلَّوْا يُعَذِّبْهُمُ اللَّهُ عَذَابًا أَلِيمًا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمَا لَهُمْ فِي الْأَرْضِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ (74)﴾ (التوبة): أن رسول الله رجع قافلا من تبوك الى المدينة، حتى إذا كان ببعض الطريق مكر برسول الله ناس من أصحابه فتآمروا عليه أن يطرحوه في عقبة في الطريق، فلما هموا وبلغوا العقبة أرادوا أن يسلكوها معه، فلما غشيهم رسول الله أخبر خبرهم، فقال: (من شاء منكم أن يأخذ ببطن الوادي فانه أوسع لكم)، وأخذ رسول الله العقبة، وأخذ الناس ببطن الوادي إلا النفر الذين مكروا برسول الله لما سمعوا ذلك استعدوا وتلثموا وقد هموا بأمر عظيم، وأمر رسول الله حذيفة بن اليمان، وعمار بن ياسر فمشيا معه مشيا، وأمر عمارا أن يأخذ بزمام الناقة وأمر حذيفة أن يسوقها، فبينما هم يسيرون إذ سمعوا

---

[1] رواه البخاري.

[2] يذكر كثير من المدافعين عن الظلمة والمشرعين للاستبداد أن معاوية أحد كتاب الوحي، وهو غير صحيح من الناحية التاريخية، فلم يثبت أنه كتب الوحي قط، بل كان كاتباً من كتاب النبي في فترة وجيزة.. وذلك لا يغني عن شيئا.

بالقوم من ورائهم، قد غشوهم، فغضب رسول الله وأمر حذيفة أن يردهم وأبصر حذيفة غضب رسول اللـه فرجـع ومعـه محجن فاسـتقبل وجـوه رواحلهم، فضـربها بـالمجن وأبصـر القـوم وهم متلثمـون لا يشـعر انمـا ذلـك فعـل المسـافر، فـرعبهم اللـه حين أبصروا حذيفة وظنـوا أن مكـرهم قـد ظهـر عليـه فأسـرعوا حـتى خالطوا الناس، وأقبل حذيفة حتى أدرك رسول الله ، فلما أدركه قال: (اضرب الراحلة يا حذيفـة، وامش أنت يـا عمـار)، فأسـرعوا حتى استوى بأعلاها فخرجـوا من العقبـة ينتظـرون النـاس، فقـال رسول الله : (يا حذيفة، هل عرفت من هؤلاء الرهط، أو الـركب أو أحدا منهم؟) قال: عرفت راحلة فلان وفلان، وقال: كانت ظلمة الليل وغشـيتهم وهم متلثمـون فقـال رسـول اللـه : (هـل علمتم شأنهم وما أرادوا ؟) قالوا: لا، والله يا رسـول اللـه، قـال: (فـإنهم مكروا ليسيروا معي حتى إذا أظلمت في العقبـة طرحـوني منهـا، وان الله تعالى قد أخبرني بأسمائهم، وأسماء آبائهم، وهم عبد الله بن سـعد بن أبي السـرح، وابـو حاضـر الاعـرابي، وابـو عـامر، والجلاس بن سويد بن الصامت، ومجمـع بن جاريـة وفليح الـتيمي، وحصين بن نمير، وطعمة بن أبيرق وعبد الله بن عيينـة، ومـرة بن الربيع)، قيل: يا رسول الله، أفلا تأمر بهم فتضرب أعناقهم، قـال: أكـره أن يتحـدث النـاس، ويقولـوا: (ان محمـدا وضـع يـده في أصحابه)، فلما أصبح أرسل إليهم كلهم، فقـال: (أردتم كـذا وكـذا) فحلفوا بالله ما قالوا، ولا أرادوا الذي سألهم عنه[1].

قال آخر: وأنا أعرف الثاني.. وأعرف أن الأرض لفظتـه، فعن أنس قال: كـان هنـا رجـل من بـني النجـار، وقـد قـرأ البقـرة وآل عمران، كان يكتب للنبي فانطلق هاربا حتى لحق بأهل الكتـاب، قال: فرفعوه، قالوا: هذا كان يكتب لمحـد، فـأعجبوا بـه، فمـا لبث أن قصم الله عنقه فيهم، فحفروا له فواروه، فأصبحت الارض قـد نبذته على وجهها، ثم عادوا فحفروا لـه فـواروه، فأصـحبت الارض قد نبذته وجهها، ثم عادوا فحفروا له فواروه فأصـحبت الارض قـد نبذته على وجهها، فتركوه منبوذا[2].

1() رواه ابن أبي حاتم وابو الشيخ عن الضحاك والـبيهقي، عن عـروة عن حذيفـة وعن ابن اسحاق.

قال النسائي: فقد بان لكم أن هذا أيضا لن يغني عنه شيئا.

قالوا: فما الذي يغني عن الإنسان إن لم يغن عنه ما ذكرت؟

قال: وجهته التي توجه إليها، وقبلته التي استقبلها..

قالو: فإذا كان يتوجه للكعبة المشرفة كما يتوجه سائر المسلمين.

قال: رب متوجه بوجهه للكعبة، وهو متوجه بقلبه لعرش الشيطان.

قالوا: فكيف نميز بينهما؟

قال: بالإرادة نميز بينهما.. أنسيتم أنا في قسم الإرادة.. فلا يمثل الإنسان إلا إرادته وهمته..

قالوا: فحدثنا عنها.

قال: سأحدثكم عن إرادة أهل الله.. فنحن في هذا القسم لا نعلم إلا هذا النوع من الإرادة.

قالوا: فحدثنا عنها.

قال: لقد ذكرها الله تعالى، فقال : فَآتِ ذَا الْقُرْبَى حَقَّهُ وَالْمِسْكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ ذَلِكَ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يُرِيدُونَ وَجْهَ اللَّهِ وَأُوْلَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ (38) (الروم)

وذكر الله أهلها، وأثنى عليهم، فقال: وَلاَ تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِم مِّن شَيْءٍ وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِم مِّن شَيْءٍ فَتَطْرُدَهُمْ فَتَكُونَ مِنَ الظَّالِمِينَ (52) (الأنعام)

وقد ذكرها رسول الله في أحاديث كثيرة، فعن جابر بن عبدالله قال: كنا مع النبي ﷺ في غزاة فقال: (إن بالمدينة لرجالاً ما سرتم مسيرًا ولا قطعتم واديًا إلا كانوا معكم؛ حبسهم

2() رواه البخاري ومسلم.

المرض)، وفي رواية: (إلا شركوكم في الأجر)[1]

وفي حديث آخر قال ﷺ قال: (من سأل الله تعالى الشهادة بصدق بلَّغه الله منازل الشهداء وإن مات على فراشه)[2]

هل رأيتم منزلة الإرادة وقيمتها، حتى لو لم يكن معها عمل.. إنها تنزل المؤمن منازل الشهداء حتى لو مات على فراشه.. وتنزله منازل الكرماء حتى لو لم ينفق دينارا ودرهما.. وتنزله منازل المجاهدين حتى لو لم يخرج من بيته.

قالوا: عجبا .. كيف يكون ذلك؟

قال: لقد قسم رسول الله ﷺ أصناف الناس، فقال: (إنما الدنيا لأربعة نفر: عبد رزقه الله مالا وعلما فهو يتقي فيه ربه، ويصل فيه رحمه، ويعلم لله فيه حقا، فهذا بأفضل المنازل، وعبد رزقه الله علما ولم يرزقه مالا فهو صادق النية يقول: لو أن لي مالا لعملت بعمل فلان فهو بنيته فأجرهما سواء، وعبد رزقه الله مالا ولم يرزقه علما، فهو يخبط في ماله بغير علم لا يتقي فيه ربه، ولا يصل فيه رحمه، ولا يعلم لله فيه حقا، فهذا بأخبث المنازل، وعبد لم يرزقه الله مالا ولا علما فهو يقول: لو أن لي مالا لعملت فيه بعمل فلان فهو بنيته فوزرهما سواء)[3]

فقد أخبر رسول الله ﷺ بأن النية الصادقة، والرغبة الأكيدة، والإرادة الجازمة، يمكنها أن تصل بالإنسان وحدها إلى أرقى المراتب.

قالوا: لقد ملأت قلوبنا رغبة في الإرادة.. فما الطريق إليها؟

قال[4] : اعلموا ـ أيها الأحباب الكرام ـ يا من اصطفاكم الله

1() رواه مسلم.

2() رواه مسلم.

3() رواه الترمذي (2325) ، وأحمد (18031)

4() الكلام الوارد هنا منقول بتصرف من [رسالة آداب سلوك المريد] للشيخ الحبيب عبد الله بن علوي الحداد الحضرمي الشافعي.

لإرادته أن أول الطريق باعث قوي يقذف في قلب العبد يحثه على الإقبال على الله والدار الآخرة، والإعراض عن الدنيا وعما الخلق مشغولون به من عمارتها وجمعها والتمتع بشهواتها والاغترار بزخارفها.

وهذا الباعث من جنود الله الباطنة، وهو من نفحات العناية وأعلام الهداية، وكثيرا ما يفتح به على العبد عند التخويف والترغيب والتشويق، وعند النظر إلى أهل الله تعالى والنظر منهم، وقد يقع بدون سبب.

والتعرض للنفحات مأمور به ومرغب فيه والانتظار والارتقاب بدون التعرض ولزوم الباب حمق وغباوة.

ومن أكرمه الله بهذا الباعث الشريف فليعرف قدره المنيف، وليعلم أنه من أعظم نعم الله تعالى عليه التي لا يقدر قدرها ولا يبلغ شكرها فليبالغ في شكر الله تعالى على ما منحه وأولاه، وخصه به من بين أشكاله وأقرانه فكم من مسلم بلغ عمره ثمانين سنة وأكثر لم يجد هذا الباعث ولم يطرقه يوما من الدهر.

قالوا: وعينا هذا.. فكيف نقوي هذا الوارد.. وكيف نحفظ بركات تلك النفحات؟

قال: تقوونه بكثرة ذكر لله، والفكر فيما عند الله، والمجالسة لأهل الله.. وتحفظونه بالبعد عن مجالسة المحجوبين، والإعراض عن وسوسة الشياطين، وبأن تبادروا بالإنابة إلى الله تعالى، وبالصدق في الإقبال عليه.

لقد قال أبو الربيع داعيا إلى ذلك: سيروا إلى الله عرجا ومكاسير ولا تنتظروا الصحة فإن انتظار الصحة بطالة.. وقال ابن عطاء الله في الحكم: إحالتك العمل على وجود الفراغ من رعونات النفوس.

قالوا: فبم نبدأ لنصدق في إرادتنا؟

قال: أول شيء يبدأ به المريد الصادق في طريق الله تصحيح التوبة إلى الله تعالى من جميع الذنوب، وإن كان عليه

شيء من المظالم لأحد من الخلق فليبادر بأدائها إلى أربابها إن أمكن وإلا فيطلب الإحلال منهم، فإن الذي تكون ذمته مرتهنة بحقوق الخلق لا يمكنه السير إلى الحق.

وليكن المريد على الدوام في غاية من الاعتراف بالتقصير عن القيام بما يجب عليه من حق ربه، ومتى حزن على تقصيره وانكسر قلبه من أجله فليعلم أن الله عنده إذ يقول سبحانه: أنا عند المنكسرة قلوبهم من أجلي.

وعلى المريد أن يحترز من أصغر الذنوب فضلا عن أكبرها أشد من احترازه من تناول السم القاتل، ويكون خوفه لو ارتكب شيئا منها أعظم من خوفه لو أكل السم، وذلك لأن المعاصي تعمل في القلوب عمل السم في الأجسام، والقلب أعز على المؤمن من جسمه بل رأس مال المريد حفظ قلبه وعمارته.

وعلى المريد أن يجتهد في حفظ قلبه من الوساوس والآفات والخواطر الردية، وليقم على باب قلبه حاجبا من المراقبة يمنعها من الدخول إليه فإنها إن دخلته أفسدته، ويعسر بعد ذلك إخراجها منه.

وليبالغ في تنقية قلبه الذي هو موضع نظر ربه من الميل إلى شهوات الدنيا، ومن الحقد والغل والغش لأحد من المسلمين، ومن الظن السوء بأحد منهم، وليكن ناصحا لهم رحيما بهم مشفقا عليهم، معتقدا الخير فيهم، يحب لهم ما يحب لنفسه من الخير، ويكره لهم ما يكره لنفسه من الشر.

وعلى المريد أن يجتهد في كف جوارحه عن المعاصي والآثام، ولا يحرك شيئا منها إلا في طاعة، ولا يعمل بها إلا شيئا يعود عليه نفعه في الآخرة. وليبالغ في حفظ اللسان فإن جرمه صغير وجرمه كبير، فليكفه عن الكذب والغيبة وسائر الكلام المحظور، وليحترز من الكلام الفاحش، ومن الخوض فيما لا يعنيه، وإن لم يكن محرما فإنه يقسي القلب، ويكون فيه ضياع الوقت، بل ينبغي للمريد أن لا يحرك لسانه إلا بتلاوة أو ذكر أو نصح لمسلم أو أمر بمعروف أو نهي عن منكر أو شيء من

حاجات دنياه التي يستعين بها على أخراه

قالوا: وعينا هذا.. فما علامة المريد الصادق؟

قال[1]: لا يكون المريد مريدا حتى يجد في القرآن كل ما يريد، ويعرف النقصان من المزيد، ويستغني بالمولى عن العبيد، ويستوي عنده الذهب والصعيد.

المريد من حفظ الحدود، ووفى بالعهود، ورضي بالموجود، وصبر عن المفقود.

المريد من شكر على النعماء، وصبر على البلاء، ورضي بمر القضاء، وحمد ربه في السراء والضراء، وأخلص له في السر والنجوى.

المريد من لا تسترقه الأغيار، ولا تستعبده الآثار، ولا تغلبه الشهوات، ولا تحكم عليه العادات. كلامه ذكر وحكمة، وصمته فكرة وعبرة، يسبق فعله قوله ويصدق علمه عمله، شعاره الخشوع والوقار، ودثاره التواضع والانكسار، يتبع الحق ويؤثره، ويرفض الباطل وينكره، يحب الأخيار ويواليهم، ويبغض الأشرار ويعاديهم، خبره أحسن من خبره، ومعاشرته أطيب من ذكره، كثير المعونة، خفيف المؤونة، بعيد عن الرعونة.

المريد الصادق أمين مأمون، لا يكذب ولا يخون، لا بخيلا ولا جبانا، ولا سبابا ولا لعانا، ولا يشتغل عن بده، ولا يشح بما في يده، طيب الطوية، حسن النية، ساحته من كل شر نقية، وهمته فيما يقربه من ربه علية، ونفسه على الدنيا أبية، لا يصر على الهفوة، ولا يقدم ولا يحجم بمقتضى الشهوة، قرين الوفاء والفتوة، حليف الحياء والمروة، ينصف كل أحد من نفسه ولا ينتصف لها من أحد. إن أعطي شكر، وإن منع صبر، وإن ظلم تاب واستغفر، وإن ظلم عفا و غفر، يحب الخمول والاستتار، ويكره الظهور والاشتهار، لسانه عن كل ما لا يعنيه مخزون، وقلبه على تقصيره في طاعة ربه محزون، لا يداهن في الدين ولا يرضي المخلوقين بسخط رب العالمين، يأنس بالوحدة والانفراد، ويستوحش من مخالطة العباد،

1() هذه كلمات متفرقة من علامات المريد الصادق.

ولا تلقــاه إلا على خــير يعملــه، أو علم يعلمــه، يــرجي خــيره، ولا يخشى شره، ولا يؤذي من آذاه، ولا يجفو من جفاه.

المريــد الصــادق كالنخلــة تــرمى بــالحجر فــترمي بــالرطب، وكالأرض يطرح عليها كل قبيح ولا يخــرج منهــا إلا كــل مليح، تلــوح أنوار صدقه على ظاهره، ويكــاد يفصــح مــا يــرى على وجهــه عمــا يضمر في سرائره، سعيه وهمته في رضا مولاه، وحرصــه ونهمتــه في متابعة رسوله وحبيبه ومصطفاه، يتأسى به في جميع أحوالــه، ويقتدي به في أخلاقه وأفعاله وأقواله.

المريد الصادق من تراه في غايــة الحــرص على متابعــة نبيــه ممتثلا لأمر ربه وراغبا في الوعد الكريم وهاربا من الوعيد الأليم.

***

بقينا مــدة في صــحبة النســائي إلى أن دبت فينــا روح الإرادة والعزيمة، وتحركت قلوبنــا وجوارحنــا للعمــل بقتضــياتها.. وبعــد أن رأى النســائي منــا هــذه الأحــوال طلب منــا أن نســير إلى القســم الثالث.

3 ـ المعاهدة

سرنا إلى القسم الثالث، وكــان شــيخه إمــام جليــل قــدم من قلقشندة من أرض مصر.. وكان يقال له (عبد الوهاب الشــعراني)[1].. وقد امتلأ صلاحا من مفرق رأسه إلى أخمص قدميه.

عندما دخلنا القسم، رأيناه يحمل كتابا من تأليفه كان عنوانــه

1() أشير به إلى الشيخ عبد الوهــاب بن أحمــد بن علي بن أحمــد، أبــو محمــد الشــعراني أو الشــعراوي المصــري (898 ـ 973 هــ) الفقيــه الشــافعي، الصــوفي، ولــد في قلقشــندة (بمصــر)، ونشــأ بســاقية أبي شــعرة، وانتقــل إلى القــاهرة ســنة (911 هــ)، فقطن بجــامع الغمري، وحفظ بعض الكتب في الفقه والعربية، وقرأ على أمين الدين إمام الجامع المذكور. ثم جاهــد نفســه مــدة وقطــع العلائــق الدنيويــة، وأخــذ التصــوف عن: الخــوّاص، والمرصــفي، والشناوي.. وتصدى للتصنيف، فألّف كتباً، منهــا: (الأجوبــة المرضــية عن الفقهــاء والصــوفية)، و(البحر المورود في المواثيق والعهود)، و(الدرر المنثورة في زبد العلوم المشــهورة)، و(منح المنة في التلبس بالسنّة)، و(البــدر المنــير)، و(الأنــوار القدســية في معرفــة آداب العبوديــة)، و(درر الغوّاص)، و(المنهج المبين في أدلة المجتهدين)، و(لواقح الأنوار في طبقــات الأخيــار)، و(اليواقيت والجواهر في عقائد الأكابر)

ولا يخفى سر اختيارنا له في هذا المحل..

بمجـرد أن رآنـا قـال لنـا مرحبـا: مرحبـا بكم في قسـم المعاهدة.. هل أحضرتم معكم دفاتركم وأقلامكم؟

قلنا: لم يطلب منا من سبقك أقلاما ولا دفاتر.

قال: وحـق لهم أن لا يطلبـوا.. فقـد كـان الأول يـدعوكم إلى اليقظـة، والثـاني يـدعوكم إلى الإرادة، وكلاهمـا يبـدآن من النفس وينتهيان إليها.. أما أنا فلست أدعوكم إلا إلى المعاهـدة.. ولا يمكن أن تتحقـق المعاهـدة من دون أقلام وأوراق.. هـل تـرون مـوثقي العقود يستغنون عن الأوراق والأقلام؟

قلنا: لا.. ولكنك لست موثق عقود.

قال: ليس هناك من فرق بيـني وبين مـوثقي العقـود إلا أنهم يوثقون عقود الدنيا وأنا أوثق عقود الآخـرة.. وهم يوثقـون العقـود مع الخلق، وأنا أوثق العقود مع الخالق.

قلنـا: أفصـح عن غـرض هـذا القسـم حـتى لا ترميـك ظنوننـا بالدواهي.

قال: هذا القسم هو قسم المعاهدة.. والمعاهدة عقـد يجريـه من امتلأ همة وإرادة مع مولاه ليصلح من حياتـه مـا فسـد، ويبـني منها ما تهـدم.. وقـد يفتح اللـه عليـه بهـا فيعـرج المعـراج الـذي لا نزول بعده، ويسجد السجدة التي لا يقوم من سجدها.

قلنا: ما أعظم ما تقول.. فأنظرنا حتى نأتي بدفاترنا وأقلامنا.

قال: انتظروا.. فلا يمكن أن تقـدموا العقـود قبـل أن تعرفـوا

2() قـال الشـعراني في مقدمـة كتابـه هـذا مبينـا غرضـه من تأليفـه: (هـذا كتـاب نفيس لم يسبقني أحد إلى وضع مثاله ولا أظن أحدا نسج على منواله ضمنته جميع العهود الـتي بلغتنـا عن رسول الله صلى الله عليه و سلم من فعل المأمورات وترك المنهيات (وسـميته لـواقح الأنوار القدسية في العهود المحمدية) وكان الباعث لي على تأليفه ما رأيته من كثرة تفتيش الإخوان على ما نقص من دنياهم ولم أرى أحدا منهم يفتش على مـا نقص من أمـور دينـه إلا قليلا فأخذتني الغيرة الإيمانية عليهم وعلى دينهم فوضعت لهم هذا الكتاب المنبه لكل إنسان على ما نقص من أمور دينه فمن أراد من الإخـوان أن يعـرف مـا ذهب من دينـه فلينظـر في كل عهد ذكرته له في هذا الكتاب ويتأمل في نفسه يعرف يقينا ما أخـل بـه من أحكـام دينـه فيأخذ في التدارك أو الندم والاستغفار إن لم يمكن تداركه)

حقيقتها وأسرارها وآثارها وأركانها ومحلها من الدين ومن نصوصه المقدسة.

قلنا: بوركت.. فلا يحل أن نقدم على أمر قبل أن نعرف حكم الله فيه.. فحدثنا.. هل ورد في النصوص المقدسة الحديث عنها؟

قال: وكيف يفتح قسم لم تأذن النصوص المقدسة بفتحه..

قلنا: فنور أسماعنا بما ورد من كلام ربنا وهدي نبينا .

قال: لقد ذكر الله تعالى فضل من وفى بعهده مع الله، وصدق في بيعه وشرائه معه، فقال: إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِي التَّوْرَاةِ وَالْإِنْجِيلِ وَالْقُرْآنِ وَمَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ مِنَ اللَّهِ فَاسْتَبْشِرُوا بِبَيْعِكُمُ الَّذِي بَايَعْتُمْ بِهِ وَذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ (111) (التوبة)

بل اعتبر من بايع رسول الله وعاهده مبايعا لله ومعاهدا له، فقال : إِنَّ الَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللَّهَ يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ فَمَنْ نَكَثَ فَإِنَّمَا يَنْكُثُ عَلَى نَفْسِهِ وَمَنْ أَوْفَى بِمَا عَاهَدَ عَلَيْهُ اللَّهَ فَسَيُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا (10) (الفتح)

وذكر من صفات أولي الألباب الذين يعلمون ما أنزل الله على رسوله من الحقائق أنهم الَّذِينَ يُوفُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ وَلَا يَنْقُضُونَ الْمِيثَاقَ (20) (الرعد)

وذكر من صفات ورثة الفردوس أنهم .. الَّذِينَ هُمْ لِأَمَانَاتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ (8) (المؤمنون)

وأثنى على الأبرار الذين فهموا حقيقة البر ومارسوها، فقال: لَيْسَ الْبِرَّ أَنْ تُوَلُّوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ وَآتَى الْمَالَ عَلَى حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَالسَّائِلِينَ وَفِي الرِّقَابِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَالْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ أُولَئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ (177) (البقرة)

وأبلـغ في الثنـاء على رجـال من المؤمـنين بقولـه: مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُمْ مَنْ قَضَى نَحْبَهُ وَمِنْهُمْ مَنْ يَنْتَظِرُ وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلًا (23) لِيَجْزِيَ اللَّهُ الصَّادِقِينَ بِصِدْقِهِمْ وَيُعَذِّبَ الْمُنَافِقِينَ إِنْ شَاءَ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَحِيمًا (24) (الأحزاب)

ومع الثناء على أهل الله الموفين بعهد الله وردت النصوص مخبرة بوجوب هذا الوفاء، وأنه لا يقل في وجوبه عن أي وفاء آخر، قال تعالى: يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَوْفُوا بِعَهْدِي أُوفِ بِعَهْدِكُمْ وَإِيَّايَ فَارْهَبُونِ (40) (البقرة)، وقال : وَلا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّى يَبْلُغَ أَشُدَّهُ وَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ لا نُكَلِّفُ نَفْساً إِلَّا وُسْعَهَا وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدِلُوا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَى وَبِعَهْدِ اللَّهِ أَوْفُوا ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ (152) (الأنعام)، وقال : وَأَوْفُوا بِعَهْدِ اللَّهِ إِذَا عَاهَدْتُمْ وَلا تَنْقُضُوا الْأَيْمَانَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا وَقَدْ جَعَلْتُمُ اللَّهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلاً إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ (91) (النحل)

قلنا: هذه الآية الكريمة تتحدث عن العقود بين الخلق.. فكيف أدرجتها هنا؟

قال: وهل يكون الوفاء مع التاجر والأجير والمكاري أعلى درجة من الوفاء مع الله؟

لقد فهم الربانيون من الآيات الحاضة على وجوب الوفاء بالعقود أن أول العقود هو العقد الذي يجريه العبد مع ربه، قال تعالى: يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَوْفُوا بِالْعُقُودِ أُحِلَّتْ لَكُمْ بَهِيمَةُ الْأَنْعَامِ إِلَّا مَا يُتْلَى عَلَيْكُمْ غَيْرَ مُحِلِّي الصَّيْدِ وَأَنْتُمْ حُرُمٌ إِنَّ اللَّهَ يَحْكُمُ مَا يُرِيدُ (1) (المائدة)

فالعقود التي يجب الوفاء بها لا تتوقف على عقود البيع والشراء، بل تعم جميع العقود التي يعقدها العبد مع ربه، عن ابن عباس قال: (العهود ما أحل اللّه وما حرم، وما فرض وما حد في القرآن كله، ولا تغدروا ولا تنكثوا)

ولهذا كتب رسول اللّه كتاباً لعمرو ابن حزم، حين بعثه إلى

اليمن يفقه أهلها ويعلمهم السنّة، ويأخذ صدقاتهم، فكتب له كتاباً وعهداً، وأمره فيه بأمره، فكتب: (بسم اللّه الرحمن الرحيم هذا كتاب من اللّه ورسوله يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَوْفُوا بِالْعُقُودِ..(1) (المائدة) عهد من محمد رسول اللّه لعمرو بن حزم حين بعثه إلى اليمن، أمره بتقوى اللّه في أمره كلهن فإن اللّه مع الذين اتقوا والذين هم محسنون)(1)

ومما يبين خطورة هذه المعاهدات ووجوب الوفاء بها تأكيد القرآن الكريم على أن الله تعالى سيسأل عباده عن هذه العهود، قال تعالى: وَلا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّى يَبْلُغَ أَشُدَّهُ وَأَوْفُوا بِالْعَهْدِ إِنَّ الْعَهْدَ كَانَ مَسْؤُولاً (34)(الاسراء)، وقال: وَلَقَدْ كَانُوا عَاهَدُوا اللَّهَ مِنْ قَبْلُ لا يُوَلُّونَ الْأَدْبَارَ وَكَانَ عَهْدُ اللَّهِ مَسْؤُولاً (15) (الأحزاب)

قال رجل منا: نعم ما قرأته.. وصدق الله ورسوله وسلمنا لهما.. ولكن لمن نمد أيدينا بالمعاهدة والبيعة.. لقد قبض الله رسوله .. فكيف نبايع ومن نبايع؟

قال: إن كان محمد قد مات، فإن الله حي لا يموت..

قال الرجل: تقصد أن نبايع الله ونعاهده؟

قال: أجل.. ألم تسمعوا إلى الله تعالى، وهو يخبر عن بيعة المؤمنين لربهم ومعاهدتهم له، كما قال تعالى : مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُمْ مَنْ قَضَى نَحْبَهُ وَمِنْهُمْ مَنْ يَنْتَظِرُ وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلاً (23) (الأحزاب)؟

وقد ورد في سبب نزول هذه الآيات ما يدل على هذا المعنى، فعن أنس قال: نرى هذه الآيات نزلت في أنس بن النضر)(2)

وقد قص علينا ثابت قصة هذا العهد العظيم، فقال : كان أنس عمي (أنس بن النضر)، لم يشهد مع رسول اللّه يوم بدر

(1) رواه ابن جرير وابن أبي حاتم.

(2) رواه البخاري.

فشق عليه، وقال: أول مشهد شهده رسول اللّه غبت عنـه، لئن أراني اللّه تعالى مشهداً فيما بعد مع رسول اللّه لـيرين اللّـه مـا أصنع، قال: فهاب أن يقول غيرها، فشهد رسول اللّه يـوم أُحـد، فاستقبل سعد بن معاذ، فقـال لـه أنس: (يـا أبـا عمـرو أين، واهـاً لريح الجنة إني أجده دون أحـد)، قـال: فقـاتلهم حـتى قتـل، قـال: فوجد في جسده بضع وثمانون بين ضـربة وطعنـة ورميـة، فقـالت أخته عمتي الربيـع ابنـة النضـر: فمـا عـرفت أخي إلا ببنانـه، قـال: فنزلت هذه الآية : مِنَ الْمُـؤْمِنِينَ رِجَـالٌ صَـدَقُوا مَـا عَاهَـدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُمْ مَنْ قَضَى نَحْبَـهُ وَمِنْهُمْ مَنْ يَنْتَظِـرُ وَمَـا بَـدَّلُوا تَبْـدِيلاً (23) (الأحزاب)، قال: فكانوا يرون أنها نزلت فيـه وفي أصـحابه)[1]

قال الرجل: ولكن مع ذلك لا بد من الوسائط.. فقد قيــل: إن من ليس له شيخ، فشيخه الشيطان.

قال: صدقت.. لقد ذكر أولياء الله هذا..

قال رجل من الحاضرين يبدو التشدد على ملامحه: مـا تقـول يا شيخ؟.. هل نأخذ ديننا عن ربنا، أم عن من زعمت له الولاية؟

قال الشعراني: بل نأخذه عن ربنا.. ومعاذ اللـه أن يؤخـذ دين الله عن غير الله.. إنا إذن لمبتدعون.

قال الرجل: فكيف تخرج مما ذكرت.

قال الشعراني: لقد دلنـا ربنـا على ضـرورة الهـادي المرشـد المربي، فقال : وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ (7) (الرعـد)، وقـال : وَمَـا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولًا (15) (الإسراء)

قاطعه الرجل قائلا: إن ما تـذكره من النصـوص لا علاقـة لـه بالشيوخ.. إنه مرتبط بالرسل والأنبياء.

قال الشعراني[2]: صدقت.. وأنا من هذا البـاب أريـد أن أبين

1() رواه أحمد ورواه مسلم والترمذي والنسائي.

2() استفدنا بعض الأدلة الواردة هنا على ضرورة الشيخ من كتاب (الموسوعة اليوسفية في بيان أدلة الصوفية) للأستاذ الفاضل الشيخ يوسف خطار محمـد، وهـو من الكتب القيمـة في

لك وللحضور ضـرورة المرشـد.. ذلـك أن اللـه تعـالى يعلم حاجـة عباده لمن يدلهم على الطريق الصحيح، ويربيهم عليه.. فلـو تـرك الناس لأفكارهم وحدها، فإنها وإن سمت فإن العقل مهما بلغ فهـو محل للخطأ.. ولأن العلم وحده قـد يكـون طريـق الهلاك.. والأدلـة على ذلك في تواريخ الفلاسفة والمفكرين بين العقلـيين وأصـحاب المذاهب الاجتماعية المختلفة لا تكاد تحصى.

ومن هنا وجد الإشراف والتوجيه البشري في كل شيء سواء كان وظيفة أو تجارة أو تعليما أو احترافا أو إدارة أو غير ذلك.

ومن هنـا جـاء أمـر اللـه باتخـاذ القـدوة الصـالحة.. ولا تكـون القدوة حسـنة إلا إذا كـان اللـه غايتهـا،كمـا قـال تعـالى: ﴿.. وَاتَّبِـعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَيَّ..(15)﴾ (لقمان)، وقال :﴿ وَقَـالَ الَّذِي آمَنَ يَـا قَوْمِ اتَّبِعُونِ أَهْدِكُمْ سَبِيلَ الرَّشَادِ (38)﴾ (غافر)

وعندما ذكر الله أنماطا من أهل القدوة الصالحة الداعية إليه تعالى في سورة الأنعام قال لرسـوله ﷺ :﴿ أُولَئِكَ الَّذِينَ هَـدَى اللَّهُ فَبِهُدَاهُمُ اقْتَدِهْ..(90)﴾ (الأنعام)

بالإضـافة إلى هـذا.. هـل يمكن لأي إنسـان أن يقـرأ القـرآن قراءة صحيحة بغير مقرئ خبير؟ أو هـل يمكن أن يفهم الفقـه من غير فقيه نحرير؟.. وهكذا في عالم النفس المزدحم بالمشكلات لا يمكن أن يهتـدي الإنسـان إلى حلهـا من غـير طـبيب خبـير عـالم بمسالك النفس ومطالبها وأهواءها.

لقـد أشـار القـرآن الكـريم إلى هـذا، وإلى ضـرورته، فقـال : ﴿ فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ (43)﴾ (النحل)، وقـال :﴿ وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْـلُ خَبِـيرٍ (14)﴾ (فـاطر)، وقـال :﴿ أُولَئِكَ الَّذِينَ هَـدَى اللَّهُ فَبِهُدَاهُمُ اقْتَـدِهْ..(90)﴾ (الأنعـام)، وقـال :﴿ وَاتَّبِـعْ سَـبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَيَّ..(15)﴾ (لقمان)، وقـال :﴿ الـرَّحْمَنُ فَاسْـأَلْ بِـهِ خَبِـيرًا (59)﴾ (الفرقان)

إن هذه النصوص جميعا تدل على أنه لابـد للسـالك إلى اللـه من هاد ذي قدرة وذي ذكر خبير بوسائل الفرار إلى الله والهجــرة

هذا الباب.

إليه..

لقد اتفق على هذا كل أولياء الله..

فهذا أبو حامد الغزالي يقول: (يحتاج المريد إلى شيخ وأستاذ يقتدي به لا محالة ليهديه سواء السبيل، فإن سبيل الدين غامض، وسبل الشيطان كثيرة ظاهرة، فمن لم يكن له شيخ يهديه قاده الشيطان إلى طرقه لا محالة، فمن سلك سبل البوادي المهلكة بغير خفير فقد خاطر بنفسه وأهلكها ويكون المستقل بنفسه كالشجرة التي تنبت بنفسها فإنها تجف على القرب وإن بقيت مدة وأورقت لم تثمر فمعتصم المريد شيخه فليتمسك به)[1]

وقال: (كنت في مبدأ أمري منكرا لأحوال الصالحين ومقامات العارفين حتى صحبت شيخي (يوسف النساج)، فلم يزل يصقلني بالمجاهدة حتى حظيت بالواردات، فرأيت الله تعال في المنام فقال لي: يا أبا حامد دع شواغلك واصحب أقواما جعلتهم في أرضي محل نظري، وهم الذين باعوا الدارين بحبي قلت: بعزتك إلا أذقتني برد حسن الظن بهم، قال: قد فعلت، والقاطع بينك وبينهم تشاغلك بحب الدنيا، فاخرج منها مختارا قبل أن تخرج منها صاغرا، فقد أفضت عليك أنوارا من جوار قدسي، فاستيقظت فرحا مسرورا وجئت إلى شيخي (يوسف النساج) فقصصت عليه المنام فتبسم وقال: يا أبا حامد هذه ألواحنا في البداية، بل إن صحبتني ستكحل بصيرتك بإثمد التأييد)[2]

وقال: (إن الله عز وجل إذا أراد بعبد خيرا بصره بعيوب نفسه، فمن كانت بصيرته نافذة لم تخف عليه عيوبه، فإذا عرف العيوب أمكنه العلاج، ولكن أكثر الخلق جاهلون بعيوب أنفسهم، يرى أحدهم القذى في عين أخيه ولا يرى الجذع في عين نفسه، فمن أراد أن يعرف عيوب نفسه فله أربعة طرق)

وذكر منها (أن يجلس بين يدي شيخ بصير بعيوب النفس،

1() الإحياء.

2() نقلا عن: شخصيات صوفية لطه عبد الباقي سرور ص (154).. والله أعلم بمدى صحة هذه الرواية.

مطلع على خفايا الآفات، ويحكمه في نفسه ويتبع إشاراته في مجاهداته وهذا شأن المريد مع شيخه والتلميذ مع استاذه فيعرفه أستاذه وشيخه عيوب نفسه ويعرفه طريق علاجها)[1]

وقال: (فمما يجب في حق سالك طريق الحق أن يكون له مرشد ومرب ليدله على الطريق، ويرفع عنه الأخلاق المذمومة، ويضع مكانها الأخلاق المحمودة.. ومعنى التربية أن يكون المربي كالزارع الذي يربي الزرع، فكلما رأى حجرا أو نباتا مضرا بالزرع قلعه وطرحه خارجا ويسقي الزرع مرارا إلى أن ينمو ويتربى ليكون أحسن من غيره، وإذا علمت أن الزرع محتاج للمربي علمت أنه لابد للسالك من مرشد البتة)[2]

وقال ابن عطاء الله السكندري: (وينبغي لمن عزم على الاسترشاد وسلوك الرشاد أن يبحث عن شيخ من أهل التحقيق سالك للطريق تارك لهواه راسخ القدم في خدمة مولاه، فإذا وجهد فليمتثل ما أمر، ولينته عما نهى عنه وزجر)[3]، وقال: (لا تصحب من لا ينهضك حاله، ولا يدلك على الله مقاله)

وقال: (ليس شيخك من سمعت منه، وإنما شيخك من أخذت عنه.. وليس شيخك من واجهتك عبارته وإنما شيخك الذي سرت فيك إشارته.. وليس شيخك من دعاك إلى الباب وإنما شيخك الذي رفع بينك وبينه الحجاب.. وليس شيخك من واجهك مقاله وإنما شيخك الذي نهض بك حاله.. شيخك هو الذي أخرجك من سجن الهوى ودخل بك على المولى.. شيخك هو الذي ما زال يحدو مرآة قلبك حتى تجلت فيها أنوار ربك أنهضك إلى الله فنهضت إليه وسار بك حتى وصلت إليه وما زال محاذيا لك حتى ألقاك بين يديه فزجَّ بك في نور الحضرة وقال: ها أنت وربك)[4]

وقال سميي الشيخ عبدالوهاب العشراني في كتابه الذي بين

[1] الإحياء.

[2] خلاصة التصانيف في التصوف لحجة الإسلام الغزالي ص 18.

[3] مفتاح الفلاح ص 30.

[4] لطائف المنن ص 167.

يدي، والذي سماه (العهود المحمدية): (أخذ علينا العهد العـام من رسول الله أن نواضب على الركعتين بعد كل وضوء بشــرط أن لا نحدث فيهما أنفسنا بشيء من أمور الـدنيا أو بشـيء لم يشـرع لنا في الصلاة.. ويحتاج من يريد العمل بهذا العهد إلى شيخ يسلك به حتى يقطـع عنـه الخـواطر المشـغلة عن خطـاب اللـه تعـالى.. فاسلك يا أخي على يد شيخ ناصح يشغلك بالله تعالى حـتى يقطـع عنك حديث النفس في الصلاة، وإلا فمن لازمك حـديث النفس ولا يكاد يسلم لك منه صلاة واحـدة ولا فـرض ولا نفـل، فـاعلم ذلـك وإيـاك أن تريـد الوصـول إلى ذلـك بغـير شـيخ كمـا عليـه طائفـة المجادلين بغير علم فإن ذلك لا يصح لك أبدا)(1)

وقال: (ولو أن طريق القوم يوصل إليها بالفهم من غير شـيخ يسير بالطالب فيها لما احتاج مثـل حجـة الإسـلام الإمـام الغـزالي والشيخ عز الدين بن عبد السلام أخـذ أدبهمـا عن شـيخ مـع أنهمـا كانـا يقـولان قبـل دخولهمـا طريـق القـوم : كـل من قـال: (إن ثم طريقا للعلم غير ما بأيدينا فقد افترى على اللـه عـز وجـل)، فلمـا دخلا طريـق القـوم كانـا يقـولان: (قـد ضـيعنا عمرنـا في البطالـة والحجاب وأثبتا طريق القوم ومدحاها)(2)

وقال – يتحدث عن نفسه-: (وكانت صورة مجاهداتي لنفسي

من غـير شـيخ أنـني كنت أطـالع كتب القـوم كرسـالة القشـيري وعوارف المعـارف والقـوت لأبي طـالب المكي والإحيـاء للغـزالي ونحو ذلك وأعمل بما ينقدح لي من طريق الفهم ثم بعد مدة يبـدو لي خلاف ذلك فأترك الأول وأعمل بالثـاني.. وهكـذا فكنت كالـذي يدخل دربا لا يدري هـل ينفـذ أم لا؟ فـإن رآه نافـذا خـرج منـه وإلا رجع، ولو أنه اجتمع بمن يعرفه أمر الدرب قبـل دخولـه لكـان بين له أمره وأراحه من التعب، فهذا مثال من لا شيخ لـه، فـإن فائـدة الشيخ إنما هي اختصار الطريق للمريد، ومن سلك من غـير شـيخ تاه وقطع عمره ولم يصـل إلى مقصـوده، لأن مثـال الشـيخ مثـال

1() لواقح الأنوار القدسية في بيان العهود المحمدية:1/51.

2() لطائف المنن والأخلاق للإمام ا لشعراني: 1/25.

دليل الحجاج إلى مكة في الليالي المظلمة)[1]

قال الرجل: ولكنا نرى الكثير ممن ذكرت يتاجر بالإرشاد، ويزعم أن له من القدرات ما لم يجعله الله لرسله ولأنبيائه.

قال الشعراني: كما يوجد في الأطباء الدجالون، يوجد في المرشدين من ذكرت.. وكما لا يصح أن نحجب بالطبيب الدجال عن الطبيب الناصح، فكذلك لا يصح أن نحجب بالدليل الضال عن الدليل الهادي.

لقد ذكر سلفنا الصالح هذا، فقالوا: (إن هذا العلم دين فانظروا عمن تأخذون دينكم)، وقالوا: (العلم روح تنفخ لا مسائل تنسخ فليتنبه المتعلمون عمن يأخذون وليتبنه العالمون من يعطون)

بل قد ذكر ذلك رسول الله حين قال لابن عمر: (يا ابن عمر دينك دينك إنما هو لحمك ودمك، فانظر عمن تأخذ.. خذ الدين عن الذين استقاموا، ولا تأخذ عن الذين مالوا)[2]

قال الرجل: فكيف نميز بين الدجال المحتال والناصح المخلص؟

قال الشعراني: لقد ذكر أولياء الله للمرشد الكامل علامات بها يعرف، وبسيماها يميز:

منها ما ذكره أبو القاسم القشيري حين قال: (قد درج أشياخ الطريق كلهم على أن أحدا منهم لم يتصدر للطريق إلا بعد تبحره في علوم الشريعة، ولم يكن أحد في عصر ممن العصور إلا وعلماء ذلك الزمان يتواضعون له ويعملون بإشارته)[3]

ومنها ما ذكره أبو العباس المرسي حين قال: (من كان فيه خمس خصال لا تصح مشيخته: الجهل بالدين.. وإسقاط حرمة

---

[1] () لطائف المنن والأخلاق: 1/48.

[2] () رواه ابن عدي.

[3] () الأنوار القدسية للإمام الشعراني ص (63).

المسلمين.. والدخول فيما لايعني.. واتباع الهوى في كل شيء.. وسوء الخلق من غير مبالاة)

ومنها ما ذكره ابن عربي حين قال: (الشيوخ نواب الحق في العالم كالرسل - عليهم الصلاة والسلام - في زمانهم، بل هم الورثة الذين ورثوا علم الشرائع عن الأنبياء - عليهم السلام - غير أنهم لا يشرعون فلهم حفظ الشريعة في العموم، وليس لهم التشريع، ولهم حفظ القلوب، ومراعاة الآداب في الخصوص، وهم من العلماء بالله بمنزلة الطبيب، وقد جمع الشيخ بين الأمرين.. والشيوخ هم العارفون بالكتاب والسنة، قائلون بها في ظواهرهم، متحققون بها في سرائرهم، يراعون حدود الله تعالى، ويوفون بعهد الله، قائمون براسم الشريعة، لا يتأولون في الورع، آخذون بالاحتياط، مجانبون لأهل التخليط، مشفقون على الأمة، لا يمقتون أحدا من العصاة، يحبون ما أحب الله ويبغضون ما أبغض الله، يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر المجمع عليه، يسارعون في الخيرات، ويعفون عن الناس، يوقرون الكبير، ويرحمون الصغير، يميطون الأذى عن الطريق طريق الله وطريق الناس، يؤدون حقوق الناس، يبرون عباد الله، هينون لينون رحماء بين خلق الله)

قال الرجل: فإن لم يوجد في المشايخ من وصفت؟

قال الشعراني: يستحيل أن تخلو الأرض من ورثة الرسل – عليهم الصلاة والسلام-

قال الرجل: فما نفعل حتى نصل إليهم.

قال الشعراني: لقد قال الأولياء في هذا (جد صدقا تجد مرشدا)

قال الرجل: فقد ضيقت السبيل علينا إذن؟

قال الشعراني: كيف؟

قال الرجل: أليس غاية السلوك الوصول إلى الصدق والصديقية؟

قال الشعراني: أجل..

قال الرجل: فقد أوقعتنا في الدور.. فنحن نحتاج إلى الصــدق لنصل إلى الشيخ الذي يدلنا على الصدق.. أليس هذا دورا؟

قــال الشــعراني: شــتان مــا بين الصــدقين: الصــدق الأول للسالكين المريدين، والصدق الثاني للواصلين المقربين.

قال الرجل: فهل من سبيل غير ما ذكرت؟

قال الشعراني: لقد ذكر أولياء الله **الصحبة الصالحة**.. فلها من التـأثير مـا للمشـيخة.. فيمكن للأصـحاب أن تجـري بينهم من المعاهدات ما يستعينون به على السير إلى الله.

قال الرجل: إن هذا يسير.. فحدثنا عنه.

قال الشعراني: لقد أشـار القـرآن الكـريم إلى هـذه الصـحبة الشــريفة، فقــال : ﴿ يَــا أَيُّهَــا الَّذِينَ آمَنُــوا اتَّقُــوا اللَّهَ وَكُونُــوا مَــعَ الصَّادِقِينَ (119)﴾ (التوبة)

والصادقون هم الصفوة من المؤمنين الذين عناهم الله تعالى بقوله :﴿ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَـا عَاهَـدُوا اللَّهَ عَلَيْـهِ فَمِنْهُمْ مَنْ قَضَى نَحْبَهُ وَمِنْهُمْ مَنْ يَنْتَظِرُ وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلًا (23) لِيَجْـزِيَ اللَّهُ الصَّادِقِينَ بِصِدْقِهِمْ وَيُعَذِّبَ الْمُنَـافِقِينَ إِنْ شَـاءَ أَوْ يَتُـوبَ عَلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَحِيمًا (24)﴾ (الأحزاب)

وهم الذين أمر رسول الله ﷺ بالصبر على صحبتهم، كما قــال تعالى :﴿ وَاصْبِرْ نَفْسَـكَ مَـعَ الَّذِينَ يَـدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَـدَاةِ وَالْعَشِـيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ الْحَيَـاةِ الـدُّنْيَا وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَـهُ عَنْ ذِكْرِنَـا وَاتَّبَـعَ هَـوَاهُ وَكَـانَ أَمْـرُهُ فُرُطًـا (28)﴾ (الكهف)

وهم الذين بين الله عظم ندامة من لم يصحبهم، قال تعالى : ﴿ وَيَوْمَ يَعَضُّ الظَّالِمُ عَلَى يَدَيْهِ يَقُولُ يَا لَيْتَنِي اتَّخَذْتُ مَـعَ الرَّسُـولِ سَبِيلًا (27) يَا وَيْلَتَى لَيْتَنِي لَمْ أَتَّخِذْ فُلَانًا خَلِيلًا (28) لَقَدْ أَضَلَّنِي عَنِ الـذِّكْرِ بَعْـدَ إِذْ جَـاءَنِي وَكَـانَ الشَّـيْطَانُ لِلْإِنْسَـانِ خَـذُولًا (29)﴾

(الفرقان)، وقال : الْأَخِلَّاءُ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا الْمُتَّقِينَ (67) (الزخرف)

وفي الحديث، قال رسول الله : (إنما مثل الجليس الصالح وجليس السوء كحامل المسك ونافخ الكير، فحامل المسك إما أن يحذيك (يعطيك)، وإما أن تبتاع منه، وإما أن تجد منه ريحا طيبة، ونافخ الكير إما أن يحرق ثيابك، وإما أن تجد منه ريحا منتنة)[1]

وقال : (الرجل على دين خليله فلينظر أحدكم من يخالل)[2]

وقال:(إن من عباد الله لأناسا ما هم بأنبياء ولا شهداء يغبطهم الأنبياء والشهداء يوم القيامة بمكانهم من الله)، قالوا يا رسول الله تخبرنا من هم؟ قال: (هم قوم تحابوا بروح الله على غير أرحام بينهم ولا أموال يتعاطونها، فوالله إن وجوههم لنور، وإنهم على نور، لا يخافون إذا خاف الناس، ولا يحزنون إذا حزن الناس)، وقرأ هذه الآية : أَلَا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ (62) (يونس)[3]

وسئل : يا رسول الله أي جلسائنا خير؟ قال: (من ذكركم الله رؤيته، وزاد في علمكم منطقه، وذكركم في الآخرة عمله)[4]

وعن أبي ذر قال: يا رسول الله الرجل يحب القوم ولا يستطيع أن يعمل كعملهم ؟ قال: (أنت يا أبا ذر مع من أحببت) قال: فإني أحب الله ورسوله، قال: (فإنك مع من أحببت)، فأعادها أبو ذر فأعادها رسول الله [5].

قال الرجل: فكيف تجري المعاهد بين الإخوان؟

1() رواه البخاري ومسلم.

2() رواه أبو داود.

3() رواه الطبراني بإسناد حسن.

4() رواه أبو يعلى.

5() رواه أبو داود.

قال الشعراني: لقد ذكر أولياء الله تفاصيل ذلك، والتي ستعرفونها في تداريب هذا القسم.

قال الرجل: أنا لا أستطيع أن أقدم على أمر دون أن أعلم دليله.

قال الشعراني: لاشك أنك تعرف حديث زيارة سلمان لأبي الدرداء؟

قال الرجل: أجل.. فقد روي.. ولنا في السنة ما يدل عليه، ففي الحديث عن أبي جحيفة قال : آخى النبي بين سلمان وأبي الدرداء، فزار سلمان أبا الدرداء فرأى أم الدرداء متبذلة[1]، فقال: ما شأنك؟ قالت : أخوك أبو الدرداء ليس له حاجة في الدنيا، فجاء أبو الدرداء فصنع له طعاما، فقال له : كل فإني صائم، قال : ما أنا بآكل حتى تأكل فأكل، فلما كان الليل ذهب أبو الدرداء يقوم فقال له : نم، فنام، ثم ذهب يقوم فقال له : نم. فلما كان من آخر الليل قال سلمان: قم الآن، فصليا جميعا فقال له سلمان: (إن لربك عليك حقا، وإن لنفسك عليك حقا، ولأهلك عليك حقا، فأعط كل ذي حق حقه)، فأتى النبي ، فذكر ذلك له فقال : (صدق سلمان)[2]

التفت إلى الرجل، وقال: أرأيت كيف كان سلمان يأمر أخاه بالدرداء، ولم يكن أبو الدرداء يتردد في إجابته؟

قال الرجل: أجل..

قال الشعراني: فهكذا يفعل الإخوان مع بعضهم بعضا.. فإذا رأى في أخيه عيبا سارع لنصحه، وإذا رأى فيه تقصيرا سارع لتداركه.. وهكذا.

قال الرجل: سلمت لك بكل ما ذكرت.. وبورك فيك.

***

1() متبذلة : أي لابسة ثياب المهنة تاركة ثياب الزينة.

2() رواه البخاري.

بعد أن سمعنا كل هذا، سألنا الشعراني عن سر الدفاتر والأقلام التي طلب منا إحضارها، فقال: لابد أن نضع برنامجا نسير عليه في حياتنا.. برنامجا لكل يوم ولكل أسبوع ولكل شهر ولكل سنة ولعمرنا جميعا.. فلا يحق للسالك لطريق الله أن يدع لنفسه هواها تتحرك كيف تشاء..

***

بقينا مع الشيخ الشعراني مدة من الزمن نتدرب على وضع البرامج وتنفيذها والاستعانة بالمرشدين والأصحاب.. وبعد أن تمرنا على ذلك، وأتقناه طلب منا أن نسير إلى القسم الرابع من مدرسة (المسلم القوي)

4 ـ المراقبة

سرنا إلى القسم الرابع، وكان إمامه إمام من أئمة الحديث والتقوى.. وكان من أهل الدينور.. وقد علمنا أنه يقال له (ابن السني)[1]، وأنه تلميذ شيخ الإرادة (الإمام النسائي)، وعلمنا أنه سار على دربه في البحث عن أخلاق النبي ودعوة الناس إليها.

وقد عجبنا لما رأينا من كثرة الكاميرات والأضواء في هذا القسم، وعندما سألنا شيخه ابن السني عن ذلك، قال: أردنا من خلال هذه الكاميرات ومن خلال الإضاءة أن نشعر المتدربين على أنهم في مسرح، وأن كلا منهم ممثل من الممثلين.. وأن لكل منهم أن يختار الدور الذي يشاء.. دور الولي أو دور الشقي.

قلنا: ألستم تدفعونهم بذلك إلى الرياء؟

قال: نحن نربيهم على الشعور بأنهم مراقبون.. فإذا ما شعروا بذلك أعلمناهم بأن الكاميرات وإن أغلقت، والأضواء وإن أطفئت، فإن هناك من لا يغيب عنه شيء..

---

[1] أشير به إلى أبي بكر أحمد بن محمد بن إسحاق بن إبراهيم بن اسباط الدينوري المعروف بابن السني (284 ـ 364 هـ)، وهو محدث من تلاميذ النسائي.. سمع بالعراق ومصر والشام والجزيرة.. من كتبه (عمل اليوم والليلة) و(فضائل الاعمال) و(القناعة) و(الطب النبوي)، و(الصراط المستقيم)، و(المجتبي) اختصر به سنن النسائي.. شرفه الله بأن مات فجأة وهو يكتب.

قلنا: فأخبرنا من علوم هذا القسم، من أين استفدتموها؟

قال: كل علوم هذا القسم.. وكل علوم هذه المدرسة.. وكل علوم المدارس جميعا نقطة من فيض بحر كلام الله الذي لا تنتهي أمداده..

قلنا: فاذكر لنا منه ما تنشرح له صدورنا، وتقر به أعيننا.

قال: لقد ذكر الله أصل المراقبة الذي منه تبدأ، وإليه تنتهي، فقال : مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَى ثَلاَثَةٍ إِلاَّ هُوَ رَابِعُهُمْ وَلاَ خَمْسَةٍ إِلاَّ هُوَ سَادِسُهُمْ وَلاَ أَدْنَى مِن ذَلِكَ وَلاَ أَكْثَرَ إِلاَّ هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ (المجادلة، 7)، وقال: وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِ نَفْسُهُ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ (16) إِذْ يَتَلَقَّى الْمُتَلَقِّيَانِ عَنِ الْيَمِينِ وَعَنِ الشِّمَالِ قَعِيدٌ (17) مَا يَلْفِظُ مِنْ قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ (18) (ق)، وقال : وَأَسِرُّوا قَوْلَكُمْ أَوِ اجْهَرُوا بِهِ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ (13) أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ (14) (الملك)، وقال : وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ وَمَا تَتْلُو مِنْهُ مِنْ قُرْآنٍ وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ وَمَا يَعْزُبُ عَنْ رَبِّكَ مِنْ مِثْقَالِ ذَرَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ وَلَا أَصْغَرَ مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْبَرَ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ (61) (يونس)، وقال: وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَا تَسْقُطُ مِنْ وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِي ظُلُمَاتِ الْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ (59) وَهُوَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُمْ بِاللَّيْلِ وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُمْ بِالنَّهَارِ ثُمَّ يَبْعَثُكُمْ فِيهِ لِيُقْضَى أَجَلٌ مُسَمًّى ثُمَّ إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ ثُمَّ يُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (60) (الأنعام)، وقال مخبرا عن موعظة لقمان ﵇ لابنه: يَا بُنَيَّ إِنَّهَا إِنْ تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ فَتَكُنْ فِي صَخْرَةٍ أَوْ فِي السَّمَاوَاتِ أَوْ فِي الْأَرْضِ يَأْتِ بِهَا اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ (16) (لقمان)

وفي الحديث ذكر رسول الله فضل المراقبين لله المراعين لنظره، فقال عند ذكر من يظلّهم اللّه في ظلّه يوم لا ظلّ إلّا ظلّه: (سبعة يظلّهم اللّه في ظلّه يوم لا ظلّ إلّا ظلّه: الإمام العادل، وشاب نشأ بعبادة اللّه، ورجل قلبه معلّق في

المساجد، ورجلان تحابّا في اللّه اجتمعا عليه وتفرّقا عليـه، ورجـل دعتـه امـرأة ذات منصـب وجمـال فقـال إنّي أخـاف اللّـه، ورجـل تصدّق بصدقة فأخفاها حتّى لا تعلم شماله ما تنفـق يمينـه، ورجـل ذكر اللّه خاليا ففاضت عيناه)(1)

وفي وصية منه ﷺ لمعاذ، قال فيهـا: (اعبـد اللّـه كأنّـك تـراه، واعدد نفسك من الموتى، وإن شئت أنبأتك بما هـو أملـك بـك من هذا كلّه؟ قال: هذا.. وأشار بيده إلى لسانه(2).

بل اعتـبر مراقبـة اللـه درجـة من درجـات الإحسـان، ففي الحديث عندما سأله جبريل عليه السلام عن الإحسان، قال: (أن تعبـد اللّـه كأنّك تراه فإنّك إن لا تراه فإنّه يراك)(3)

قلنا: وعينا هذا.. فحدثنا عن **حقيقة المراقبة**.

قال: قال: حقيقة المراقبة هي ملاحظـة الـرّقيب، وانصـراف الهمم إليه، فمن احترز من أمر من الأمور بسبب غيره، يقـال إنّـه يراقب فلانا، ويراعي جانبه، ويعني بهـذه حالـة للقلب يثمرهـا نـوع من المعرفة، وتثمر تلك الحالة أعمالا في الجوارح وفي القلب.

أمّا الحالة فهي مراعاة القلب للرّقيب واشـتغاله بـه والتفاتـه إليه وملاحظته إيّاه وانصرافه إليه.

وأمّا المعرفة الّتي تثمر هذه الحالة فهي العلم بأنّ اللّه مطّلع على الضّمائر، عالم بالسّرائر، رقيب على أعمال العباد، قائم على كلّ نفس بما كسبت، وأنّ سـرّ القلب في حقّـه مكشـوف كمـا أنّ ظاهر البشرة للخلق مكشوف بل أشدّ من ذلـك.. فهـذه المعرفـة إذا صارت يقينـا، ثمّ اسـتولت بعـد ذلـك على القلب قهرتـه.. فـإذا قهرته جرته إلى مراعاة جانب الرّقيب وصرفت همّه إليه.

قلنا: فقد آل أمر المراقبة إلى المعرفة اليقينية.

1() رواه البخاري ومسلم.

2() رواه ابن أبي الدنيا بإسناد جيد.

3() رواه البخاري ومسلم.

قال: أجل.. فبقدر اليقين في المعرفة تكون قوة المراقبة.

قلنا: فهي درجات مختلفة إذن؟

قال: أجل.. هي كجميع أصول البر درجات بعضها فوق بعضها بها يميز المقربون من أهل اليمين.

قلنا: ما دمت قد ذكرت هذا.. فحدثنا عن **درجاتها**[1].. وابـدأ بأعلاها وأزكاها لعل هممنا تتحرك إليها.

مراقبة الصديقين:

قـال: أعلى درجـات المراقبـة هي **مراقبة المقـربين من الصديقين**.. وهي مراقبة التعظيم والإجلال.. وتتحقق بـأن يصـير القلب مستغرقاً بملاحظـة ذلـك الجلال ومنكسـراً تحت هيبتـه، فلا يبقى فيه متسع للالتفات إلى الغير أصلاً.

الجوارح في هـذه الدرجـة تتعطـل عن التلفت إلى المباحـات فضلاً عن المحظورات.

وهذا هو الذي صار همه هماً واحداً فكفاه الله سائر الهمـوم.. ومن نـال هـذه الدرجـة فقـد يغفـل عن الخلـق حـتى لا يبصـر من يحضر عنده وهو فاتح عينيه، ولا يسمع ما يقال له مع أنـه لا صـمم به وقد يمرّ على ابنه مثلاً فلا يكلمه، حتى كان بعضهم يجري عليـه ذلك فقال لمن عاتبه: إذا مررت بي فحركني.

قال رجل منا: أكائن هذا.. أيمكن للإنسان أن يصـل إلى هـذه الدرجة؟

قال: أجل.. لا تستبعدوا هذا، ففي القرآن الكريم إشارة إليه، فقد قال تعالى مخبرا عن حال النسـوة بعـد رؤيتهن ليوسـف ﵇: ﴿ فَلَمَّا سَمِعَتْ بِمَكْرِهِنَّ أَرْسَلَتْ إِلَيْهِنَّ وَأَعْتَدَتْ لَهُنَّ مُتَّكَأً وَآتَتْ كُلَّ وَاحِدَةٍ مِنْهُنَّ سِكِّينًا وَقَالَتِ اخْرُجْ عَلَيْهِنَّ فَلَمَّا رَأَيْنَهُ أَكْبَرْنَـهُ وَقَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ وَقُلْنَ حَاشَ لِلَّهِ مَا هَذَا بَشَرًا إِنْ هَذَا إِلَّا مَلَـكٌ كَـرِيمٌ (31)﴾

1() رجعنا في ذكر تفاصيل درجات المراقبة إلى الإحياء مع التصرف الذي التزمناه في هـذه السلسلة.

(يوسف)

بالإضـافة إلى هـذا، فـإنكم تجـدون لهـذا نظـائر في القلـوب المعظمة لملوك الأرض، حتى إن خـدم الملـك قـد لا يحسـون بمـا يجري عليهم في مجالس الملوك لشدّة اسـتغراقهم بهم.. بـل قـد يشتغل القلب بمهم حقـير من مهمـات الـدنيا فيغـوص الرجـل في الفكـر فيـه ويمشـي فربمـا يجـاوز الموضـع الـذي قصـده وينسـى الشغل الذي نهض له.

وقد قيل لعبد الواحد بن زيد: هل تعرف في زمانك هـذا رجلاً قد اشتغل بحالـه عن الخلـق؟ فقـال: مـا أعـرف إلا رجلاً سـيدخل عليكم الساعة فما كان إلا سريعاً حتى دخل عتبة الغلام، فقال لــه عبد الواحد بن زيد: من أين جئت يا عتبة؟ فقـال من موضـع كـذا ـ وكان طريقه على السوق ـ فقال: من لقيت في الطريـق؟ فقـال: ما رأيت أحداً.

وحكي عن بعضهم أنه قال: مـررت بجماعـة يـترامون وواحـد جالس بعيداً منهم، فتقدّمت إليه فأردت أن أكلمه فقال: ذكـر اللـه تعـالى أشـهى فقلت: أنت وحـدك؟ فقـال: معي ربـــي وملكـاي فقلت: من سبق من هؤلاء؟ فقـال: من غفـر اللـه لـه، فقلت: أين الطريـق؟ فأشـار نحـو السـماء وقـام ومشـى وقـال: أكـثر خلقـك شاغل عنك.

ودخل الشبلي على أبـي الحسين النووي وهو معتكف فوجده ساكناً حسن الاجتماع لا يتحـرّك من ظـاهره شـيء فقـال لـه: من أين أخذت هذه المراقبة والسـكون؟ فقـال: من سـنور كـانت لنـا، فكانت إذا أرادت الصيد رابطت رأس الحجر لا تتحرّك لها شعرة.

وقال أبو عبد الله بن خفيف، خـرجت من مصـر أريـد الرملـة للقاء أبـي علي الروذباري فقال لي عيسـى بن يـونس المصـري : إن في صور شاباً وكهلاً قد اجتمعا على حال المراقبة، فلو نظـرت إليهما نظرة لعلك تستفيد منهما؟ فدخلت صوراً وأنا جائع عطشان وفي وسطي خرقة وليس على كتفي شيء، فدخلت المسجد فإذا بشخصين قاعدين مستقبلي القبلة فسلمت عليهمـا فمـا أجابـاني،

فسلمت ثانية وثالثة فلم أسمع الجواب، فقلت: نشدتكما بالله إلا رددتما عليّ السلام فرفع الشاب رأسه من مرقعته فنظر إلي وقال: يا ابن خفيف الدنيا قليل وما بقي من القليل إلا القليل فخذ من القليل الكثير، يا ابن خفيف، ما أقل شغلك حتى تتفرّغ إلى لقائنا؛ قال: فأخذ بكليتي ثم طأطأ رأسه في المكان فبقيت عندهما حتى صلينا الظهر والعصر فذهب جوعي وعطشي وعنائي، فلما كان وقت العصر قلت: عظني فرفع رأسه إليَّ وقال: يا ابن خفيف نحن أصحاب المصائب ليس لنا لسان العظة، فبقيت عندهما ثلاثة أيام لا آكل ولا أشرب ولا أنام ولا رأيتهما أكلا شيئاً ولا شربا، فلما كان اليوم الثالث قلت في سري: أحلفهما أن يعظاني لعلي أن أنتفع بعظتهما، فرفع الشاب رأسه وقال لي: يا ابن خفيف عليك بصحبة من يذكرك الله رؤيته وتقع هيبته على قلبك، يعظك بلسا ولا يعظك بلسان قوله، والسلام؛ قم عنا.

مراقبة الورعين:

قلنا: وعينا هذا.. وما أشرفها من رتبة.. ولكنا لا نجد نفوسنا نطيقها.. فحدثنا عما هو دونها.

قال: الدرجة الثانية هي درجة الورعين، والذين سماهم القرآن الكريم (أصحاب اليمين)، كما في قوله تعالى : ﴿ وَأَصْحَابُ الْيَمِينِ مَا أَصْحَابُ الْيَمِينِ (27)﴾ (الواقعة)؛ وهم قوم غلب يقين اطلاع الله على ظاهرهم وباطنهم وعلى قلوبهم، ولكن لم تدهشهم ملاحظة الجلال، بل بقيت قلوبهم على حدّ الاعتدال متسعة للتلفت إلى الأحوال والأعمال، إلا أنها مع ممارسة الأعمال لا تخلو عن المراقبة.

نعم غلب عليهم الحياء من الله فلا يقدمون ولا يحجمون إلا بعد التثبت فيه، ويمتنعون عن كل ما يفتضحون به في القيامة فإنهم يرون الله في الدنيا مطلعاً عليهم فلا يحتاجون إلى انتظار القيامة.

قلنا: فهلا حدثتنا عن الفرق بين هذه الدرجة، والتي قبلها.

قال: تعرفون اختلاف الدرجتين بالمشاهدات؛ فإنكم في

خلوتكم قد تتعاطون أعمالاً فيحضركم صبي أو امرأة فتعلمون أنـه مطلـع عليكم فتسـتحون منـه فتحسـنون جلوسـكم وتراعـون أحـوالكم، لا عن إجلال وتعظيم بـل عن حيـاء.. وقـد يـدخل عليكم ملك من الملـوك أو كبـير من الأكـابر فيسـتغرقكم التعظيم حـتى تتركون كـل مـا أنتم فيـه شـغلاً بـه، لا حيـاء منـه.. فهكـذا تختلـف مراتب العباد في مراقبة الله تعالى.

ومن كـان في هـذه الدرجـة فإنـه يحتـاج أن يـراقب جميـع حركاته وسكناته وخطراته ولحظاته، بل جميع اختياراته.

قال رجل منا: كيف ذلك؟

قال: للمراقبين في هذه الدرجة نظران: **نظر قبل العمل، ونظر في العمل**.

قلنا: فحدثنا عن نظرهم **قبل العمل.**

قال: لقد أشار إلى هذا النـوع من النظـر قولـه تعـالى : ﴿ وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولًا (36)﴾ (الإسراء)

وفي الحديث، قال رسول اللـه ﷺ : (الحلال بيّن والحـرام بيّن وبينهما مشتبهات لا يعلمهنّ كثير من النّـاس. فمن اتّقى الشّـبهات استبرأ لدينه وعرضه، ومن وقـع في الشّـبهات كـراع يـرعى حـول الحمى يوشك أن يرتـع فيـه ألا وإنّ لكـلّ ملـك حمى ألا وإنّ حمى اللّه في أرضه محارمه ألا وإنّ في الجسد مضغة إذا صلحت صـلح الجسد كلّه، وإذا فسدت فسد الجسد كلّه، ألا وهي القلب)[1]

وقـال الإمـام علي: (الهـوى شـريك العمى، ومن التوفيـق التوقف عند الحيرة، ونعم طارد الهم اليقين، وعاقبة الكذب الندم، وفي الصدق السلامة، رب بعيد أقـرب من قـريب، وغـريب من لم يكن له حبـيب، والصديق من صـدق غيبـه، ولا يعـدمك من حبـيب سوء ظن، نعم الخلق التكرم، والحياء سبب إلى كل جميل، وأوثق العرى التقوى، وأوثق سبب أخذت به سبب بـينك وبـين الله تعالى

[1] رواه البخاري ومسلم.

إنما لك من دنياك ما أصلحت به مثواك، والرزق رزقان: رزق تطلبه ورزق يطلبك فإن لم تأته أتاك، وإن كنت جازعاً على ما أصيب مما في يديك فلا تجزع على ما لم يصل إليك، واستدل على ما لم يكن بما كان فإنما الأمور أشباه، والمرء يسره درك ما لم يكن ليفوته ويسوءه فوت ما لم يكن ليدركه، فما نالك من دنياك فلا تكثرن به فرحاً وما فاتك منها فلا تتبعه نفسك أسفاً، وليكن سرورك بما قدمت وأسفك على ما خلفت وشغلك لآخرتك وهمك فيما بعد الموت)

قلنا: وعينا ما أردت من النصوص، ولكنا لم نع مرادك من إيرادها.

قال: إن هذه النصوص تدل على هذا النوع من النظر.. إنها تدعونا إلى نظرين قبل العمل:

أما أولهما، فهو في مدى موافقة العمل للشريعة.. فلا يطاع الله إلا بما شرع.

وأما الثانية، فتدعونا إلى النظر في محركنا للعمل، أهو لله خاصة أو هو في هوى النفس ومتابعة الشيطان؟ فيتوقف فيه ويتثبت حتى ينكشف له ذلك بنور الحق، فإن كان لله تعالى أمضاه، وإن كان لغير الله استحيا من الله وانكف عنه ثم لام نفسه على رغبته فيه وهمه به وميله إليه وعرّفها سوء فعلها وسعيها في فضيحتها وأنها عدوّة نفسها إن لم يتداركها الله بعصمته.

وهذا التوقف في بداية الأمور إلى حدّ البيان واجب محتوم لا محيص لأحد عنه، وقد ورد في بعض الآثار: (إنه ينشر للعبد في كل حركة من حركاته وإن صغرت ثلاثة دواوين: الديوان الأوّل: لم؟ والثاني: كيف؟ والثالث: لمن؟ ومعنى (لمَ) أي لم فعلت هذا أكان عليك أن تفعله لمولاك أو ملت إليه بشهوتك وهواك؟ فإن سلم منه بأن كان عليه أن يعمل ذلك لمولاه سئل عن الديوان الثاني فقيل له: كيف فعلت هذا، فإن لله في كل عمل شرطاً وحكماً لا يدرك قدره ووقته وصفته إلا بعلم فيقال له: كيف فعلت

أبعلم محقق أم بجهل وظنّ؟ فإن سلم من هذا نشر الديوان الثالث وهو المطالبة بالإخلاص فيقال له: لمن عملت ألوجه الله خالصاً وفاء بقولك: (لا إله إلا الله) فيكون أجرك على الله؟ أو لمراءاة خلق مثلك فخذ أجرك منه؟ أم عملته لتنال عاجل دنياك فقد وفيناك نصيبك من الدنيا؟ أم عملته بسهو وغفلة فقد سقط أجرك وحبط عملك وخاب سعيك؟

فإذا عرف العبد أنه بصدد هذه المطالبات والتوبيخات طالب نفسه قبل أن تطالب، وأعد للسؤال جواباً، وليكن الجواب صواباً، فلا يبدىء ولا يعيد إلا بعد التثبت، ولا يحرّك جفناً ولا أنملة إلا بعد التأمل.

قال رجل منا: إن هذا النظر يدعو إلى العلم؟

قال: أجل.. بل لا يستطيع أن يعطي لهذه الدرجة حقها إلا صاحب العلم المتين والمعرفة الحقيقية بأسرار الأعمال وأغوار النفس ومكايد الشيطان، فمتى لم يعرف نفسه وربه وعدوّه إبليس ولم يعرف ما يوافق هواه ولم يميز بينه وبين ما يحبه الله ويرضاه في نيته وهمته وفكرته وسكونه وحركته، فلا يسلم في هذه المراقبة.. بل الأكثرون يرتكبون الجهل فيما يكرهه الله تعالى وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعاً.. بل يجسبون أنهم يعذرون بذلك، وهيهات بل طلب العلم فريضة على كل مسلم.. ولهذا كانت ركعتان من عالم أفضل من ألف ركعة من غير عالم، لأنه يعلم آفات النفوس ومكايد الشيطان ومواضع الغرور فيتقي ذلك، والجاهل لا يعرفه فكيف يحترز منه؟ فلا يزال الجاهل في تعب والشيطان منه في فرح وشماتة.

قال الرجل: خلاصة ما ذكرته في هذا النظر هو أن على العبد أن يراقب نفسه عند همه بالفعل وسعيه بالجارحة، فيتوقف عن الهم وعن السعي حتى ينكشف له بنور العلم أنه لله تعالى فيمضيه، أو هو لهوى النفس فيتقيه ويزجر القلب عن الفكر فيه وعن الهم به.

قال: أجل.. وبورك فيك.. فإنّ الخطوة الأولى في الباطل إذا

لم تـدفع أورثت الرغبـة، والرغبـة تـورث الهم، والهم يـورث جـزم القصد، والقصد يورث الفعل، والفعل يورث البوار والمقت.. فلهذا على العاقل أن يحسم مـادة الشـر من منبعـه الأوّل وهـو الخـاطر فإن جميع ما وراءه يتبعه.

قال الرجل: فإن أشكل عليه؟

قال: إن أشكل عليـه، فلم ينكشـف لـه فليتفكـر بنـور العلم، وليستعذ بالله من مكر الشيطان بواسطة الهـوى.. فـإن عجـز عن الاجتهاد والفكر بنفسه فليستضئ بنور علماء الـدين، وليفـرّ جهـده من العلماء المضلين المقبلين على الدنيا فراره من الشـيطان بـل أشدّ، فقد روي أن الله تعالى أوحى إلى داود ﵇: (لا تسـأل عـني عالمـاً أسـكره حب الـدنيا فيقطعـك عن محبـتي.. أولئـك قطـاع الطريق على عبادي)

فالقلوب المظلمة بحب الدنيا وشدّة الشـره والتكـالب عليهـا محجوبة عن نور الله تعالى، فـإن مستضـاء أنـوار القلـوب حضـرة الربوبـية فكيـف يستضـيء بهـا من اسـتدبرها وأقبـل على عـدوّها وعشق بغيضها ومقيتها وهي شهوات الدنيا؟

قلنـا: وعينـا هـذا.. فحـدثنا عن النظـر الثـاني.. حـدثنا عن **نظرهم عند العمل.**

قال: يكون ذلك بتفقد كيفية العمـل، ليقضـي حـق اللـه فيـه، ويحسن النية في إتمامه، ويكمل صورته، ويتعاطاه على أكمـل مـا يمكنه.. وهذا ملازم له في جميـع أحوالـه، فإنـه لا يخلـو في جميـع أحواله عن حركة وسكون، فإذا راقب اللـه تعـالى في جميـع ذلـك قدر على عبـادة اللـه تعـالى فيهـا بالنيـة وحسـن الفعـل ومراعـاة الأدب.

قلنا: فهلا ضربت لنا أمثلة على ذلك.

قال: لا يخلو العبد إما أن يكون في طاعة، أو في معصـية، أو في مباح:

فمراقبتـه في الطاعـة بـالإخلاص والإكمـال ومراعـاة الأدب

وحراستها عن الآفات.

ومراقبتــه في المعصــية بالتوبــة والنــدم والإقلاع والحيــاء والاشتغال بالتفكر.

ومراقبتـه في المبـاح بمراعـاة الأدب، ثم بشـهود المنعم في النعمة وبالشكر عليها.

وبما أن العبد لا يخلو في جملة أحواله عن بليـة لا بـدّ لـه من الصبر عليها ونعمة لا بدّ له من الشكر عليها فعليه بمراقبـة نفسـه في تلك الأحوال.

بل لا ينفك العبد في كل حال من فرض لله تعالى عليـه: إمـا فعل يلزمه مباشرته، أو محظـور يلزمـه تركـه، أو نـدب حث عليـه ليسارع به إلى مغفرة الله تعالى ويسـابق بـه عبـاد اللـه، أو مبـاح فيه صلاح جسمه وقلبه وفيه عـون لـه على طاعتـه.. ولكـل واحـد من ذلك حدود لا بدّ من مراعاتها بدوام المراقبة.

فينبغي أن يتفقــد العبــد نفســه في جميــع أوقاتــه في هــذه الأقسام الثلاثة، فإذا كان فارغاً من الفرائض وقــدر على الفضــائل فينبغي أن يلتمس أفضل الأعمال ليشتغل بها، فإنّ من فاته مزيــد ربح وهــو قــادر على دركــه فهــو مغبــون، والأربــاح تنــال بمزايــا الفضـائل، فبـذلك يأخـذ العبـد من دنيـاه لآخرتـه كمـا قـال تعـالى: ﴿ وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الـدَّارَ الْآخِـرَةَ وَلَا تَنْسَ نَصِـيبَكَ مِنَ الـدُّنْيَا..(77)﴾ (القصص)

بل إن الورع يراقب نفسه حتى في الساعات الـتي هـو فيهـا مشغول الجوارح بالمطعم والمشـرب، فإنـه مـع هـذا الاشـتغال لا يخلو عن عمل هو أفضل الأعمال وهو الذكر والفكر، فـإن الطعـام الذي يتناوله مثلاً فيه من العجائب ما لو تفكر فيـه وفطن لـه كـان ذلك أفضل من كثير من أعمال الجوارح.

والناس في هذا على أقسام: قسم ينظرون إليه بعين التبصر والاعتبــار، فينظــرون في عجــائب صــنعته وكيفيــة ارتبــاط قــوام الحيوانات به وكيفية تقدير الله لأسـبابه، وخلـق الشـهوات الباعثـة

عليه وخلق الآلات المسخرة للشهوة فيه.. وهذا مقام ذوي الألباب.

وقسم ينظرون فيه بعين المقت والكراهة ويلاحظون وجه الاضطرار إليه وبودهم لو استغنوا عنه، ولكن يرون أنفسهم مقهورين فيه مسخرين لشهواته، وهذا مقام الزاهدين.

وقسم يرون في الصنعة الصانع، ويترقون منها إلى صفات الخالق، فتكون مشاهدة ذلك سبباً لتذكر أبواب من الفكر تنفتح عليهم بسببه، وهو أعلى المقامات، وهو من مقامات العارفين، وعلامات المحبين، إذ المحب إإذا رأى صنعة حبيبه وكتابه وتصنيفه نسي الصنعة واشتغل قلبه بالصانع.

وقسم ينظرون إليه بعين الرغبة والحرص، فيتأسفون على ما فاتهم منه ويفرحون بما حضرهم من جملته، ويذمون منه ما لا يوافق هواهم ويعيبونه ويذمون فاعله فيذمون الطبيخ والطباخ، ولا يعلمون أن الفاعل للطبيخ والطباخ ولقدرته ولعلمه هو الله تعالى، وأن من ذم شيئاً من خلق الله بغير إذن الله فقد ذم الله.

قلنا: إن ما ذكرته شديد.. فهل لك من ترياق ييسره؟

قال: أجل.. أرأيتم لو طلب منكم مراقبة ساعة واحدة على الحال التي وصفت.. هل ترون ذلك يسيرا؟

قلنا: أجل.. ما أيسر ذلك.

قال: ما دمتم قد ذكرتم ذلك.. فاعلموا أن ساعات الإنسان ثلاثة: ساعة مضت لا تعب فيها على العبد كيفما انقضت في مشقة أو رفاهية.. وساعة مستقبلة لم تأت بعد لا يدري العبد أيعيش إليها أم لا، ولا يدري ما يقضي الله فيها.. وساعة راهنة ينبغي أن يجاهد فيها نفسه ويراقب فيها ربه.

فإن لم تأته الساعة الثانية لم يتحسر على فوات هذه الساعة، وإن أتته الساعة الثانية استوفى حقه منها كما استوفى من الأولى.. ولا يطول أمله خمسين سنة فيطول عليه العزم على المراقبة فيها، بل يكون ابن وقته، وكأنه في آخر أنفاسه، فلعله

آخر أنفاسه وهو لا يدري، وإذا أمكن أن يكون آخر أنفاسه، فينبغي أن يكون على وجه لا يكره أن يدركه الموت وهو على تلك الحالة.

***

بقينا مـع ابن السـني مـدة من الـزمن نتـدرب على المراقبـة بدرجاتها وأنواعها.. وبعد أن تمرنا على ذلك، وأتقنـاه طلب منـا أن نسير إلى القسم الخامس من مدرسة (المسلم القوي)

5 ـ المجاهدة

سرنا إلى القسم الخامس، وكان إمامه إمام من أئمـة الجهـد والدعوة.. وقد علمنـا أنـه قـدم من الهنـد على قدميـه خارجـا في سبيل الله.. وقد كان أهل هذا القسم يطلقون عليـه اسـم (محمـد إلياس)[1].. وهـو سـمي ذلـك الداعيـة الكبـير المؤسـس لجماعـة الدعوة والتبليغ.

عندما دخلنا القسم – وكنا قد انتهينا من صلاة المغرب- بادرنا بقوله: بسم الله والصلاة والسلام على رسول اللـه أيهـا الأحبـاب الكـرام نعلم جميعـاً أن نجاحنـا وفلاحنـا في الـدنيا والآخـرة في الامتثال الكامل لأوامر الله سبحانه وتعالى وعلى طريقة النـبي من أجل هذا أطلب منكم أن تصبروا قليلاً بعـد أذكـار الصـلاة لكي نتفكر سوياً في إحياء جهد النبي وجزاكم الله خيراً.

بعد أن أدينا ما طلب منا التففنا حوله، وقلنـا: حـدثنا.. مـا هـو الجهد الذي تطلبه منا؟

قال: اعلموا أولا (أنّ حالة دين الإنسان ليس فيها قرار، فإمـا أن يكـون الإنسـان لا يـزال راقيـاً في الـدين، وإمـا أن يكـون في انحطاط.. خذوا مثالاً لذلك المزرعة إذا زودت بالماء الحلـو والجـو

1() أشير به إلى الداعية الكبير الشيخ محمد إلياس بن محمد إسـماعيل بن غلام حسـين بن كريم بخش (ولد 1303 هـ) من أسرة معروفة بالعلم والتقـوى والـورع في القـارة الهنديـة.. تخرج من جامعة مظاهر العلـوم، ورافـق شـيخه في سـفره إلى الحجـاز للحج للمـرة الثانيـة ورأى في المنام أن الرسول قال لـه: سـنأخذ منـك عملاً دينيـاًّ في الهنـد.. فعـاد إلى الهنـد خائفاً مهموماً من الرؤيا، فما يدري ما المراد بالعمـل الـذي سـيؤخذ منـه.. وقـد كـان العمـل الذي ينتظره هو التنظيم المحكم الذي وضعه لجماعة الدعوة والتبليغ، والتي لا يزال نشاطها مستمرا رغم الظروف الخطيرة التي مر بها العالم الإسلامي.

المناسب فإنها لا تزال تخضر وتنمو وترقى في نضارتها وبهجتها، وأما إذا اختلف جوها أو لم تُسقَ بماء فإذاً لم تقف نضارتها وخضرتها ونموها في مكانها عند ذلك بل تبدأ في الانحطاط، فحالة دين الإنسان نفس هذه الحالة تماماً)[1]

قلنا: فكيف نتعهد مزارع نفوسنا بالسقي والإصلاح؟

قال: هل ترون الفلاح كيف يتعهد مزرعته بالسقي والإصلاح؟

قلنا: أجل.. ولكن الفلاح يتعامل مع التراب، ونحن نتعامل مع نفوسنا.

قال: ونفوسنا تراب كالتراب.. وهي تحتاج إلى جهد لتنقيتها من حجارة الكبر، وأشواك الغرور، وديدان الحسد، وغيرها من المعيقات التي تمنعها من إخراج الثمر الطيب.. وفوق ذلك تحتاج إلى سماد الإيمان، ومياه الطهارة، وأضواء العرفان.. وغيرها من العناصر التي لا تطيب ثمارها إلا بها.

قلنا: ولكن الفلاح يبذل جهدا كبيرا في ذلك؟

قال: وأنتم كذلك لا يمكنكم أن تطهروا أرض أنفسكم من دون جهد، ولا يمكنكم أن تغرسوا الصفات الفاضلة فيها من غير جهد[2].. ألم تسمعوا قوله تعالى: وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ

---

[1] () ما بين قوسين هو من كلام الشيخ محمد إلياس من كتابه (الملفوظات)

[2] () تركز جماعة التبليغ في منهجها التربوي على ست الصفات تعتبرها أم الصفات ومنبعها، وهي:

1- تحقيق اليقين على أنه لا إله إلا الله سبحانه وتعالى وحسن اتباع النبي

2- الصلاة ذات الخشوع والخضوع.

3- طلب العلم مع مداومة الذكر.

4- إكرام المسلمين وحسن الخلق.

5- تصحيح النية وإخلاصها لله تعالى.

6- الدعوة إلى الله وبذل الجهد للدين.

وهم لأجل التربية على هذه الصفات يطلبون من الناس تفريغ الأوقات، والخروج في سبيل الله فترات محددة بحسب الحاجة.

سُبُلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ (69) (العنكبوت)؟

قلنا: قد سمعنا قوله تعالى : طه (1) مَا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقَى (2) (طه)، وقوله تعالى: مَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُمْ مِنْ حَرَجٍ وَلَكِنْ يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمْ وَلِيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (6) (المائدة)

قال: صدق الله العظيم.. نعم دين الله ليس فيه حرج.. ولكن بعض النفوس فيها حرج.. وهي تحتاج إلى المجاهدة التي ترفع عنها الحرج.

قال رجل منا: نحن لا نعرف من المجاهدة إلا قتال الأعداء المتسلطين الظالمين.

قال: ذاك هو الجهاد الأصغر.. أما جهاد النفس في ذات الله فهو الجهاد الأكبر.

قال الرجل: ألست تحتقر الجهاد بقولك هذا؟

قال: معاذ الله.. ولكن هل ترون من غلبته نفسه قادرا على الخروج للجهاد؟

قلنا: لا..

قال: فلا يمكن إذن لأحد أن يخرج لجهاد أعداء الخارج إلا بعد أن يغلب أعداء الداخل.

قلنا: ذلك صحيح.

قال[1]: فلذلك كان أكبر وأصعب امتحان كتبه الله تعالى على الإنسان في هذه الحياة هو ابتلاؤه بنفسه، وعلى أساس نجاحه في هذا الامتحان يكون موقعه عند الله، ومستقبله الدنيوي والأخروي.. من هنا كانت المعركة مع النفس أشق وأخطر معركة يخوضها الإنسان في حياته.

وهي معركة حتمية لا خيار لأحد فيها، ولا يستثنى أحد منها

---

[1] () انظر: (النفس منطقة خطر)، للشيخ حسن الصفار.

حتى الأنبياء والأولياء.. وإذا كان الإنسان يستطيع اجتناب المعـارك والصـراعات مـع الآخـرين بطريقـة أو أخـرى فإنـه لا فـرار لـه من معركته مع نفسه.

وهي معركـة دائمـة مسـاحتها طـول عمـر الإنسـان منـذ أن يدركـه الـوعي وإلى أن تفارقـه الحيـاة.. وقـد يحصـل أن يكسـب إنسان المعركة ضد نفسه طيلة حياته، ثم يخسـرها في اللحظـات الأخيرة من عمره.

بالإضافة إلى هذا، فإنها معركة شاملة تسـتوعب كـل جـوانب حيـاة الإنسـان، ومختلـف شـؤونه، وتمتـد إلى جميـع الزوايـا والتفاصيل، فكراً وإحساساً، وعملاً وقولاً، وإشارة وصمتاً؛ حيث إن خطـر الأهـواء والشـهوات النفسـية يهـدد سـلامة معتقـد الإنسـان وأفكاره، وصـحة مشـاعره وأحاسيسـه، وصـدق أقوالـه ومواقفـه، واستقامة تعامله وعلاقاته.

والأدهى من كل ذلك قوة الارتباط وشدة العلاقة ووثاقتها بين الإنسان ونفسه، فالنفس أقرب شيء للإنسان، وهي متداخلة معه وملتصـقة بـه، وكم هـو صـعب على الإنسـان أن يعـايش عـدوه ويتداخل معه، ويكون قريباً منه ووثيق الصلة به!

لكل ذلك تصبح المعركة مع النفس أخطر معركة..

ولذلك ورد في الحديث التعبير عن جهاد النفس بكونه الجهاد الأكبر، فقد روي أن رسول الله بعث سـريَّة، فلمـا رجعـوا قـال: (مرحباً بقوم قضوا الجهـاد الأصـغرن وبقي عليهم الجهـاد الأكـبر)، قيل: يا رسول وما الجهاد الأكـبر؟ قـال: (جهـاد النفس)، ثم قـال: (أفضل الجهاد من جاهد نفسه التي بين جنبيه)[1]

وفي حديث آخر قال رسول الله : (ليس الشديد بالصـرعة، إنما الشديد الذي يملك نفسه عند الغضب)[2]

وعلى هذا اتفق أولياء اللـه.. فعن الإمـام علي قـال: (أشـجع

1() بحار الأنوار للمجلسي:70/64.

2() رواه البخاري.

الناس من غلب هواه)، وقال: (املكوا أنفسكم بدوام جهادها)، وقال: (صلاح النفس مجاهدة الهوى)

ويصور بعض تكتيكات المعركة مع النفس، فيقول: (إذا صعبت عليك نفسك فاصعب لها تذلّ لك، وخادع نفسك عن نفسك تنقد لك)، ويقول: (أقبل على نفسك بالإدبار عنها)، وقال: (دواء النفس الصوم عن الهوى والحمية عن لذات الدنيا)

وفي إحدى خطبه يقول: (واعلموا أنه ما من طاعة الله شيء إلا يأتي في كُره، وما من معصية الله شيء إلا يأتي في شهوة، فرحم الله امرؤاً نزع عن شهوته، وقمع هوى نفسه، فإن هذه النفس أبعد شيء منزعاً، وإنها لا تزال تنزع إلى معصية في هوى.. واعلموا - عباد الله- أن المؤمن لا يصبح ولا يمسي إلا ونفسه ظنون عنده، فلا يزال زارياً عليها، مستزيداً لها)

وفي وصية قدمها إلى شريح بن هاني يقول: (اتق الله في كل صباح ومساء، وخف على نفسك الدنيا الغرور، ولا تأمنها على حال، واعلم أنك إن لم تردع نفسك عن كثير مما تحب، مخافة مكروه، سمت بك الأهواء إلى كثير من الضرر، فكن لنفسك مانعاً رادعاً، ولنزوتك عند الحفيظة واقماً قامعاً)

ويؤكد الإمام الدور الحاسم لذات الإنسان في مقاومة نفسه فيقول: (واعلموا أنه من لم يعن على نفسه حتى يكون له منها واعظ وزاجر، لم يكن له من غيرها لا زاجر ولا واعظ)

ويقول: (وإنما هي نفسي أروضها بالتقوى لتأتي آمنةً يوم الخوف الأكبر)

وتسليطاً للضوء على طبيعة المعركة مع النفس وتحديد أطرافها ومواقعها يقول الإمام: (العقل صاحب جيش الرحمن، والهوى قائد جيش الشيطان، والنفس متجاذبة بينهما فأيهما غلب كانت في حيزه)، ويقول: (العقل والشهوة ضدان، مؤيد العقل العلم، ومزين الشهوة الهوى، والنفس متنازعة بينهما فأيهما قهر كانت في جانبه)

فالعقل هو رائد معركة الإنسان ضد نفسه، والعلم والمعرفة سلاح رئيسي في هذه المعركة، ولكل من طرفي المعركة وهما العقل والهوى جنود وأسلحة فهما جيشان: جيش الرحمن وجيش الشيطان يتصارعان على أرض نفس الإنسان.

قام رجل منا غاضبا، وقال: ما بالك تهجر القرآن إلى نصوص لا ندري هل تصح إلى أصحابها أم لا تصح.. حدثنا بكلام ربنا الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه.

قال: لا.. بأس.. هل ترون أن جرأة الإنسان على قتل أخيه الإنسان، ومصادرة حقه في الحياة جريمة؟

قلنا: بل هي أكبر جريمة، وأبشع جريمة.

قال: فقد نسب القرآن الكريم هذه الجريمة البشعة إلى النفس في حال استسلام صاحبها لها، وخسارته المعركة معها، قال تعالى في قصة ابني آدم: ﴿ فَطَوَّعَتْ لَهُ نَفْسُهُ قَتْلَ أَخِيهِ فَقَتَلَهُ فَأَصْبَحَ مِنَ الْخَاسِرِينَ (30)﴾ (المائدة)

وهكذا اعتبر القرآن الكريم البخل هزيمة للإنسان مع نفسه، قال تعالى :﴿ فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ وَاسْمَعُوا وَأَطِيعُوا وَأَنْفِقُوا خَيْرًا لِأَنْفُسِكُمْ وَمَنْ يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ (16)﴾ (التغابن)

واعتبر النفس هي التي تزين للإنسان وتدفعه للارتداد عن الدين وسوء التعامل مع قضاياه، كما حصل للسامريّ الذي أضل المؤمنين بتوجيههم لعبادة عجل صنعه من الحليّ، يقول قال تعالى :﴿ قَالَ فَمَا خَطْبُكَ يَا سَامِرِيُّ (95) قَالَ بَصُرْتُ بِمَا لَمْ يَبْصُرُوا بِهِ فَقَبَضْتُ قَبْضَةً مِنْ أَثَرِ الرَّسُولِ فَنَبَذْتُهَا وَكَذَلِكَ سَوَّلَتْ لِي نَفْسِي (96)﴾ (طه)

واعتبر أهواء النفس وراء ما يحصل من مخالفة للأنبياء ومن اعتداء عليهم، قال تعالى :﴿ فَكُلَّمَا جَاءَكُمْ رَسُولٌ بِمَا لَا تَهْوَى أَنْفُسُكُمُ اسْتَكْبَرْتُمْ فَفَرِيقًا كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقًا تَقْتُلُونَ (87)﴾ (البقرة)

واعتبر ما فعله إخوة نبي الله يوسف عليه السلام من تلك الجريمة

النكـراء - حيث ألقـوه في قـاع الجبّ، وهـو ذلـك الصـغير الوديـع المتفرد في جماله وحسنه – نتيجة لانحراف نفسـي أصـابهم، قـال تعـالى على لســان أبيهم يعقــوب ﷺ : قَـالَ بَـلْ سَـوَّلَتْ لَكُمْ أَنْفُسُكُمْ أَمْرًا فَصَبْرٌ جَمِيلٌ وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَى مَا تَصِفُونَ (18) (يوسف)

واعتـبر الحسـد حالـة مرضـية نفسـية بين الأفـراد أو الأمم والمجتمعات، قال تعالى : وَدَّ كَثِيرٌ مِنْ أَهْلِ الْكِتَـابِ لَـوْ يَـرُدُّونَكُمْ مِنْ بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِهِمْ مِنْ بَعْدِ مَـا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْحَـقُّ فَـاعْفُوا وَاصْـفَحُوا حَتَّى يَـأْتِيَ اللَّهُ بِـأَمْرِهِ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُـلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (109) (البقرة)

واعتبر التكبر مرضا يعشعش في أرجاء النفس، قال تعـالى : وَقَالَ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْنَا الْمَلَائِكَةُ أَوْ نَرَى رَبَّنَـا لَقَدِ اسْتَكْبَرُوا فِي أَنْفُسِهِمْ وَعَتَوْا عُتُوًّا كَبِيرًا (21) (الفرقان)

واعتبر الإعراض عن دين الله ورسـالة الأنبيـاء إنمـا ينشـأ من حالة انحراف نفسي يطلق عليـه القـرآن (سـفاهة)، قـال تعـالى : وَمَنْ يَرْغَبُ عَنْ مِلَّةِ إِبْرَاهِيمَ إِلَّا مَنْ سَفِهَ نَفْسَهُ وَلَقَدِ اصْـطَفَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ (130) (البقرة)

قال الرجل: حسبك.. فقد وفيت وأجدت.. فحـدثنا عن المنهج الذي ننتصر به على نفوسنا الأمارة بالسوء.

قال: لقد ذكر أولياء الله لذلك سـبلا.. منهـا أن تطلب صـحبة عبد من عباد الله مجتهد في العبادة، فتلاحظ أقواله وتقتـدي بهـا.. وقد ذكر بعضهم هذا السبيل، فقـال: (كنت إذا اعترتـني فـترة في العبادة نظرت إلى أحـوال محمـد بن واسـع وإلى اجتهـاده فعملت على ذلك أسبوعاً)

قال الرجل: فإن تعذر هذا العلاج.. فقد فقد في هـذا الزمـان أمثال محمد بن واسع.

قـال: إن فقـد محمـد بن واسـع، فلم تفقـد أخبـاره وأخبـار أصحابه من أولياء الله وأنبيائه.. فابحث فيهـا واسـمعها، فلا شـيء

أنفع للنفس من سماع أحوال الصالحين ومطالعة أخبارهم، وما كانوا فيه من الجهد الجهيد، وقد انقضى تعبهم وبقي ثوابهم ونعيمهم أبد الآباد لا ينقطع، فما أعظم ملكهم وما أشدّة حسرة من لا يقتدي بهم فيمتع نفسه أياماً قلائل بشهوات مكدرة ثم يأتيه الموت ويحال بينه وبين كل ما يشتهيه أبد الآباد.

قلنا: فهلا حدثتنا من أخبار اجتهادهم(1) ما يملؤنا همة.

قال: لقد حدث بعض أصحاب الإمام علي قال: صليت خلف علي الفجر فلما سلم انفتل عن يمينه وعليه كآبة فمكث حتى طلعت الشمس ثم قلب يده وقال: والله لقد رأيت أصحاب محمد وما أرى اليوم شيئاً يشبههم، كانوا يصبحون شعثاً غبراً صفراً قد باتوا لله سجَّداً وقياماً يتلون كتاب الله يراوحون بين أقدامهم وجباههم، وكانوا إذا ذكروا الله مادوا كما يميد الشجر في يوم الريح وهملت أعينهم حتى تبل ثيابهم وكأن القوم باتوا غافلين - يعني من كان حوله –

وذكر الحسن من رآه من المجتهدين من الصحابة والتابعين لهم بإحسان، فقال: أدركت أقواماً وصحبت طوائف منهم، ما كانوا يفرحون بشيء من الدنيا أقبل، ولا يتأسفون على شيء منها أدبر، ولهي كانت أهون في أعينهم من هذا التراب الذي تطؤونه بأرجلكم، إن كان أحدهم ليعيش عمره كله ما طوي له ثوب ولا أمر أهله بصنعة طعام قط، ولا جعل بينه وبين الأرض شيئاً قط، وأدركتهم عاملين بكتاب ربهم وسنة نبيهم إذا جنهم الليل فقيام على أطرافهم، يفترشون وجوههم، تجري دموعهم على خدودهم، يناجون ربهم في فكاك رقابهم، إذا عملوا الحسنة فرحوا بها ودأبوا في شكرها وسألوا الله أن يتقبلها، وإذا عملوا السيئة أحزنتهم وسألوا الله تعالى أن يغفرها لهم، والله ما زالوا كذلك وعلى ذلك ووالله ما سلموا من الذنوب ولا نجوا إلا بالمغفرة.

وروى سعيد بن كلثوم قال: كنت عند الصادق جعفر بن

1() في بعض الأخبار التي سنوردها بعض المبالغات التي لا يقر الشرع المداومة عليها، ولكنها مع ذلك قد تكون أسلوبا من الأساليب التي تعالج بها النفوس لترد إلى الطريق المستقيم.

محمّد فذكر أمير المؤمنين عليّ بن أبي طالب، فأطراه ومدحه بما هو أهله، ثمّ قال: (و اللّه ما أكل عليّ بن أبي طالب من الدّنيا حراما قطّ حتّى مضى لسبيله، وما عرض له أمران قطّ هما للّه رضا إلّا أخذ بأشدّهما عليه في دينه، وما نزلت برسول اللّه ﷺ نازلة قطّ إلّا دعاه ثقة به، وما أطاق أحد عمل رسول اللّه ﷺ من هذه الأمّة غيره وإن كان ليعمل عمل رجل كان وجهه بين الجنّة والنّار، يرجو ثواب هذه، ويخاف عقاب هذه، ولقد أعتق من ماله ألف مملوك في طلب وجه اللّه عزّ وجلّ والنجاة من النّار ممّا كدّ بيديه، ورشح منه جبينه، وإنّه كان ليقوت أهله بالزّيت والخلّ والعجوة، وما كان لباسه إلّا الكرابيس إذا فضل شيء عن يده من كمّه دعا بالجلم فقصّه، وما أشبهه من ولده ولا أهل بيته أحد أقرب شبها به في لباسه وفقهه من عليّ بن الحسين ، ولقد دخل ابنه أبو جعفر عليه السّلام عليه فإذا هو قد بلغ من العبادة ما لم يبلغه أحد فرآه قد اصفرّ لونه من السهر، ورمصت عيناه من البكاء، ودبرت جبهته، وانخرم أنفه من السجود، وورمت ساقاه وقدماه من القيام في الصلاة، قال أبو جعفر: فلم أملك حين رأيته بتلك الحال البكاء فبكيت رحمة له وإذا هو يفكّر فالتفت إليّ بعد هنيئة من دخولي، وقال: يا بني أعطني بعض تلك الصحف الّتي فيها عبادة عليّ بن أبي طالب فأعطيته فقرأ منها شيئا يسيرا ثمّ تركها من يده تضجّرا، وقال: من يقوي عبادة عليّ بن أبي طالب) [1]

وكان صفوان بن سليم قد تعقدت ساقاه من طول القيام، وبلغ من الاجتهاد ما لو قيل له القيامة غداً ما وجد متزايداً..

وقال بعضهم: ما أخاف من الموت إلا من حيث يحول بيني وبين قيام الليل.

وقال علي: سيما الصالحين صفرة الألوان من السهر وعمش العيون من البكاء وذبول الشفاه من الصوم، عليهم غبرة الخاشعين.

وقيل للحسن: ما بال المتهجدين أحسن الناس وجوهاً؟

1() المحجة البيضاء فى تهذيب الاحياء، ج4، ص: 235.

فقال: لأنهم خلوا بالرحمن فألبسهم نوراً من نوره.

وعن بعضهم قال: كان زمعة نازلاً عندنا بالمحصب - وكان له أهل وبنات - وكان يقوم فيصلي ليلاً طويلاً فإذا كان السحر نادى بأعلى صوته: أيها الركب المعرسون أكل هذا الليل ترقدون أفلا تقومون فترحلون؟ فيتواثبون فيسمع من هاهنا باك ومن هاهنا داع ومن ههنا قارىء ومن هاهنا متوضىء، فإذا طلع الفجر نادى بأعلى صوته: عند الصباح يحمد القوم السرى.

وقال بعض الحكماء: إنّ لله عباداً أنعم عليهم فعرفوه، وشرح صدورهم فأطاعوه، وتوكلوا عليه فسلموا الخلق والأمر إليه فصارت قلوبهم معادن لصفاء اليقين وبيوتاً للحكمة وتوابيت للعظمة وخزائن للقدرة، فهم بين الخلق مقبلون ومدبرون، وقلوبهم تجول في الملكوت وتلوذ بمحجوب الغيوم، ثم ترجع ومعها طوائف من لطائف الفوائد وما لا يمكن واصفاً أن يصفه فهم في باطن أمورهم كالديباج حسناً وهم الظاهر مناديل، مبذولون لمن أرادهم تواضعاً.

ويحكى أنّ قوماً دخلوا على عمر بن عبد العزيز يعودونه في مرضه، وإذا فيهم شاب ناحل الجسم، فقال عمر له: يا فتى ما الذي بلغ بك ما أرى؟ فقال: يا أمير المؤمنين أسقام وأمراض، فقال: سألتك بالله إلا صدقتني فقال: يا أمير المؤمنين ذقت حلاوة الدنيا فوجدتها مرّة وصغر عندي زهرتها وحلاوتها واستوى عندي ذهبها وحجرها، وكأني أنظر إلى عرش ربي والناس يساقون إلى الجنة والنار فأظمأت لذلك نهاري وأسهرت ليلي، وقليل حقير كل ما أنا فيه في جنب ثواب الله وعقابه.

التفت الشيخ محمد إلياس إلى الرجل، وقال: إن حدثتك نفسك بأن هؤلاء رجال أقوياء لا يطاق الاقتداء بهم فطالع أحوال النساء المجتهدات وقل لها: يا نفس لا تستنكفي أن تكوني أقل من امرأة فأخسس برجل يقصر عن امرأة في أمر دينها ودنياها..

قال رجل: **فهل كان في النساء أمثال هؤلاء الرجال**؟

قال: أجل.. فمن خلق الهمة العالية في الرجال لن يعجز أن

يخلق مثله في النساء.. أليس النساء شقائق الرجال؟

قال الرجـل: أجـل.. فحـدثنا من أخبـارهن، نعسـى أن نحتقـر نفوسنا فيحركها للاجتهاد في طاعة الله.

قال: من ذلك ما روي عن حبـيبة العدوية أنها كا نت إذا صلت العتمة قـامت على سـطح لهـا وشـدت عليهـا درعهـا وخمارهـا ثم قالت: إلهي قد غارت النجوم ونامت العيون وغلقت الملوك أبوابها وخلا كل حبــيب بحبــيبه وهـذا مقـامي بــين يـديك، ثم تقبـل على صلاتها فإذا طلع الفجر قالت: إلهي هذا الليل قد أدبر وهـذا النهـار قـد أسـفر فليت شـعري أقبلت مـني ليلـتي فأهنـأ أم رددتهـا عليّ فأعزّى؟ وعزتك لهذا دأبـي ودأبك ما أبقيتني، وعزتك لـو انتهرتـني عن بابك ما برحت لما وقع في نفسي من جودك وكرمك.

ويروى عن عجرة أنها كـانت تحيــي الليـل وكـانت مكفوفـة البصر فإذا كان في السحر نادت بصوت لهـا محـزون: إليـك قطـع العابدون دجى الليالي يستبقون إلى رحمتك وفضل مغفرتـك فبـك يا إلهي أسألك لا بغيرك أن تجعلـني في أوّل زمـرة السـابقين وأن ترفعني لديك في عليـين في درجة المقربـين وأن تلحقني بعبـادك الصالحين فأنت أرحم الرحماء وأعظم العظماء وأكرم الكرمـاء يـا كريم، ثم تخرّ ساجدة فيسمع لها وجبة ثم لا تزال تدعو وتبكي إلى الفجر.

وقال يحيـى بن بسطام: كنت أشـهد مجلس شـعوانة فكنت أرى ما تصنع من النياحة والبكاء، فقلت لصاحب لي: لو أتيناهــا إذا خلت فأمرناها بـالرفق بنفسـها؟ فقـال: أنت وذاك، قـال: فأتيناهـا فقلت لها: لو رفقت بنفسك وأقصرت عن هذا البكـاء شـيئاً فكـان لك أقوى على ما تريدين؟ قال: فبكت ثم قالت: والله لـوددت أني أبكي حتى تنفد دموعي ثم أبكي دمـاً حـتى لا تبقى قطـرة من دم في جارحــة من جــوارحي وأنى لي بالبكــاء وأنى لي بالبكــاء. فلم تزل تردد (وأنى لي بالبكاء) حتى غشي عليها.

وقال محمد بن معاذ: حدثتني امـرأة من المتعبـدات قـالت: رأيت في منـامي كـأني أدخلت الجنـة فـإذا أهـل الجنـة قيـام على

أبوابهم، فقلت: ما شأن أهل الجنة قيام؟ فقال لي قائل: خرجوا ينظرون إلى هذه المرأة التي زخرفت الجنان لقدومها فقلت: ومن هذه المرأة؟ فقيل: أمة سوداء من أهل الأيكة يقال لها شعوانة. قالت: فقلت: أختي والله، قالت: فبينما أنا كذلك إذ أقبل بها على نجيبة تطير بها في الهواء فلما رأيتها ناديت: يا أختي أما ترين مكاني من مكانك فلو دعوت لي مولاك فألحقني بك؟ قالت: فتبسمت إليَّ وقالت: لم يأن لقدومك ولكن احفظي عني اثنتين: ألزمي الحزن قلبك، وقدمي محبة الله على هواك ولا يضرك متى مت.

وقال عبد الله بن الحسن: كانت لي جارية رومية وكنت بها معجباً فكانت في بعض الليالي نائمة إلى جنبي فانتبهت فالتمستها فلم أجدها، فقمت أطلبها فإذا هي ساجدة وهي تقول: بحبك لي إلا ما غفرت لي ذنوبي، فقلت لها: لا تقولي بحبك لي ولكن قولي بحبي لك، فقالت: يا مولاي بحبه لي أخرجني من الشرك إلى الإسلام وبحبه لي أيقظ عيني وكثير من خلقه نيام.

وقال أبو هاشم القرشي: قدمت علينا امرأة من أهل اليمن يقال لها سرية فنزلت في بعض ديارنا، قال: فكنت أسمع لها من الليل أنيناً وشهيقاً، فقلت يوماً لخادم لي: أشرف على هذه المرأة ماذا تصنع قال: فأشرف عليها فما رآها تصنع، شيئاً غير أنها لا تردّ طرفها عن السماء وهي مستقبلة القبلة تقول: خلقت سرية ثم غذيتها بنعمتك من حال إلى حال، وكل أحوالك لها حسنة وكل بلائك عندها جميل، وهي مع ذلك متعرضة لسخطك بالتوثب على معاصيك فلتة بعد فلتة: أتراها تظن أنك لا ترى سوء فعالها وأنت عليم خبير وأنت على كل شيء قدير.

وقال ذو النون المصري: خرجت ليلة من وادي كنعان فلما علوت الوادي إذا سواد مقبل عليَّ وهو يقول :﴿.. وَبَدَا لَهُمْ مِنَ اللَّهِ مَا لَمْ يَكُونُوا يَحْتَسِبُونَ (47)﴾ (الزمر) ويبكي فلما قرب مني السواد إذا هي امرأة عليها جبة صوف وبيدها ركوة، فقالت لي: من أنت؟ غير فزعة مني، فقلت: رجل غريب، فقالت: يا هذا وهل يوجد مع الله غربة؟ قال: فبكيت لقولها فقالت: ما الذي أبكاك؟

فقلت: قد وقع الدواء على داء قد قرح فأسرع في نجاحه، قـالت: فإن كنت صادقاً فلم بكيت؟ قلت: يرحمك الله والصـادق لا يبكي؟ قالت: لا، قلت: ولم ذاك؟ قالت: لأن البكاء راحـة القلب، فسـكتُّ متعجباً من قولها.

وقال أحمد بن علي: اسـتأذنا على عفـيرة فحجبتنـا فلازمنـا البـاب، فلمـا علمت ذلـك قـامت لتفتح البـاب لنـا فسـمعتها وهي تقول: اللهم إني أعوذ بك ممن جاء يشغلني عن ذكـرك، ثم فتحت الباب ودخلنا عليها فقلنا لها: يا أمة اللـه ادعي لنـا، فقـالت: جعـل الله قراكم في بـيتي المغفرة، ثم قالت لنا: مكث عطـاء السـلمي أربعين سنة فكان لا ينظـر إلى السـماء، فحـانت منـه نظـرة فخـر مغشـياً عليـه فأصـابه فتـق في بطنـه، فيـا ليت عفـيرة إذا رفعت رأسها لم تعص ويا ليتها إذا عصت لم تعـد وقـال بعض الصـالحين: خـرجت يومـاً إلى السـوق ومعي جاريـة حبشـية فاحتبسـتها في موضع بناحية السـوق وذهبت في بعض حـوائجي وقلت: لا تـبرحي حـتى أنصـرف إليـك، قـال: فانصـرفت فلم أجـدها في الموضـع، فانصرفت إلى منزلي وأنا شديد الغضب عليها، فلما رأتني عـرفت الغضب في وجهي فقالت: يا مـولاي لا تعجـل علي إنـك أجلسـتني في موضـع لم أر فيـه ذاكـراً للـه تعـالى فخفت أن يخسـف بـذلك الموضع فعجبت لقولها وقلت لها: أنت حرّة. فقـالت: سـاء لي مـا صنعت كنت أخدمك فيكون لي أجران، وأمـا الآن فقـد ذهب عـني أحدهما.

وقال ابن العلاء السعدي: كانت لي ابنة عم يقال لها بريرة، تعبدت وكانت كثيرة القـراءة في المصـحف، فكلمـا أتت على آيـة فيها ذكر النار بكت، فلم تزل تبكي حـتى ذهبت عيناهـا من البكـاء فقال بنو عمها: انطلقوا بنا إلى هذه المرأة حتى نعـذلها في كـثرة البكاء قال: فـدخلنا عليهـا فقلنـا: يـا بريـرة كيـف أصـبحت قـالت: أصبحنا أضيافاً منيخين بأرض غربة ننتظر متى ندعى فنجيب، فقلنا لها كم هذا البكاء قد ذهبت عيناك منه؟ فقالت: إن يكن لعيني عند الله خير فما يضرهما ما ذهب منهما في الدنيا، وإن كان لهما عنـد الله شر فسيزيدهما بكاء أطول من هذا؟ ثم أعرضت. قال: فقـال القوم: قوموا بنا فهي واللـه في شـيء غـير مـا نحن فيـه. وكـانت

معاذة العدوية إذا جاء النهار تقول: هذا يومي الذي أموت فيه فما تطعم حتى تمسي، فإذا جاء الليل تقول: هذه الليلة التي أموت فيها فتصلي حتى تصبح.

وقال أبو سليمان الداراني: بت ليلة عند رابعة فقامت إلى محراب لها وقمت أنا إلى ناحية من البيت، فلم تزل قائمة إلى السحر فلما كان السحر قلت: ما جزاء من قوّانا على قيام هذه الليلة؟ قالت: ج زاؤه أن تصوم له غداً. وكانت شعوانة تقول في دعائها: إلهي ما أشوقني إلى لقائك وأعظم رجائي لجزائك وأنت الكريم الذي لا يخيب لديك أمل الآملين ولا يبطل عندك شوق المشتاقين، إلهي إن كان دنا أجلي ولم يقربني منك عمل فقد جعلت الاعتراف بالذنب وسائل عللي؛ فإن عفوت فمن أولى منك بذلك وإن عذبت فمن أعدل منك هنالك، إلهي قد جرت على نفسي في النظر لها وبقي لها حسن نظرك فالويل لها إن لم تسعدها، إلهي إنك لم تزل بي براً أيام حياتي فلا تقطع عني برك بعد مماتي ولقد رجوت ممن تولاني في حياتي بإحسانه أن يسعفني عند مماتي بغفرانه، إلهي كيف أيأس من حسن نظرك بعد مماتي ولم تولني إلا الجميل في حياتي، إلهي إن كانت ذنوبي قد أخافتني فإن محبتي لك قد أجارتني فتول من أمري ما أنت أهله وعد بفضلك على من غره جهله، إلهي لو أردت إهانتي لما هديتني ولو أردت فضيحتي لم تسترني فمتعني بما له هديتني وأدم لي ما به سترتني، إلهي ما أظنك تردني في حاجة أفنيت فيها عمري، إلهي لولا ما قارفت من الذنوب ما خفت عقابك، ولولا ما عرفت من كرمك ما رجوت ثوابك.

وقال الخواص: دخلنا على رحلة العابدة، وكانت قد صامت حتى اسودت وبكت حتى عميت وصلت حتى أقعدت، وكانت تصلي قاعدة فسلمنا عليها ثم ذكرناها شيئاً من العفو ليهون عليها الأمر، قال: فشهقت ثم قالت: علمي بنفسي قرح فؤادي وكلم كبدي والله لوددت أن الله لم يخلقني ولم أك شيئاً مذكوراً، ثم أقبلت على صلاتها.

قال رجل منا: نعم ما ذكرت يا شيخ.. ولكنهم كانوا في وقت

يجـدون فيـه أعوانـا على الخـير.. ونحن لا نجـد من ذلـك قليـل أو كثير.. والمصيبة إذا عمت طابت.

قال: ما ذكرته خدعة من خـدع النفس.. فلا تنخـدع بخـداعها، وقل لها: أرأيت لو هجم سيل جارف يغرق أهل البلـد، وثبتـوا على مواضعهم، ولم يأخذوا حذرهم لجهلهم بحقيقة الحال، وقدرت أنت على أن تفارقيهم وتركبـي في سـفينة تتخلصـين بهـا من الغـرق، فهـل يختلج في نفسـك، أن المصـيبة إذا عمت طـابت، أم تـتركين موافقتهم وتستجهلينهم في صنيعهم وتأخـذين حـذرك ممـا دهـاك، فـإذا كنت تـتركين مـوافقتهم خوفـاً من الغـرق وعـذاب الغـرق لا يتمادى إلا ساعة فكيف لا تهربـين من عـذاب الأبـد وأنت متعرضـة له في كل حـال؟ ومن أين تطيب المصـيبة إذا عمت ولأهـل النـار شـغل شـاغل عن الالتفـات إلى العمـوم والخصـوص؟ ولم يهلـك الكفار إلا بموافقة أهل زمانهم حيث قالوا : إِنَّا وَجَـدْنَا آبَاءَنَـا عَلَى أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَى آثَارِهِمْ مُهْتَدُونَ (22) (الزخرف)

***

بعـد أن حـدثنا الشـيخ محمـد إليـاس عن ضـرورة المجاهـدة، وأخبار المجتهدين والمجتهدات في طاعة الله تعالى شعرت بهمــة عجيبة تحركـني لسـلوك سـبيلهم.. وقـد شـعرت أنهـا تـنزلت على جميع من كان معي.

فلمـا رأى الشـيخ منـا هـذه الحـال طلب منـا أن نـذهب إلى محال التدريب على مجاهدات الصالحين لنتعلم كيف ندير معاركنـا مع نفوسنا، وكيف ننتصر عليها.

وبعد أن تمرنا على الكثـير من ذلـك طلب منـا أن نسـير إلى القسم السادس من تلك المدرسة.

6 ـ المحاسبة

سـرنا إلى القسـم السـادس، وكـان إمامـه إمـام من أئمـة الورع.. وقد علمنا أنه قدم من بغداد.. وقد كـان أهـل هـذا القسـم

يطلقــون عليــه لقب (المحاســبي)[1] لمــا علم عنــه من كــثرة محاسبته لنفسه.

ما إن دخلنا عليه القسم حتى وجدناه يخاطب نفسـه، ويقـول لها من غير أن يلتفت لنا أو يشـعر بوجودنا[2]: يـا نفس.. اسـمعي مـني خمسـة تنبيهـات مقابـل مـا تفـوهتِ بـه، وأنتِ منغمسـة في الجهل المركب، سادرة في نوم الغفلة على فراش الكسل..

يا نفسي الشقية!.. هل أن عمركِ أبدي؟.. وهـل عنـدك عهـد قطعي بالبقاء الى السنة المقبلـة، بـل الى الغـد؟.. فالـذي جعلـك تملين وتسأمين من الطاعة هو توهمك الأبدية والخلـود، فتظهـرين الدلال، وكأنك بترفك مخلدة في هذه الدنيا.

يا نفسي الشرهة!.. إنك يوميا تأكلين الخبز، وتشربين المــاء، وتتنفسين الهواء، أما يورث هذا التكـرار مللا وضـجرا؟.. كلا.. دون شـك.. لأن تكـرار الحاجـة لا يجلب الملـل بـل يجـدد اللـذة، لهـذا؛ فالطاعة التي تجلب الغذاء لقلـبي، ومـاء الحيـاة لـروحي، ونسـيم الهواء للطيفـة الربانيـة الكامنـة في جسـمي، لابـد أنهـا لا تجعلـك تملين ولا تسأمين أبدا.

يــا نفســي الجزعــة!.. إنــك تضــطربين اليــوم من تــذكر عنــاء العبادات التي قمت بها في الأيام الماضية، ومن صـعوبات الصـلاة وزحمة المصائب السابقة، ثم تتفكـرين في واجبـات العبـادات في الأيام المقبلة وخدمات أداء الصـلوات، وآلام المصـائب، فتظهـرين الجزع، وقلة الصبر ونفاده.. هل هذا أمر يصدر ممن له مسكة من عقل؟.

يا نفسي الطائشة!.. يا تـرى هـل أن أداء هـذه العبوديـة دون نتيجة وجدوى؟! وهل أن أجرتها قليلة ضئيلة حتى تجعلـك تسـأمين

---

[1]() أشير به إلى أبي عبد الله الحارث بن أسد (ت 243 هــ) أحـد مشـايخ الصـوفية.. كـان فقيهاً، متكلماً، كتب الحديث وعرف مذاهب النساك، وصـنّف كتبـاً كثـيرة في الزهـد وأصـول الديانات، وله أقوال مشهورة، وحكايات مع الجنيـد.. من كتبـه: آداب النفـوس، المسـائل في أعمال القلوب والجوارح، وهي رسالة، الرعاية لحقـوق اللّـه عـزّ وجـلّ، الخلـوة والتنقّـل في العبادة، رسالة المسترشدين، والتفكر والاعتبار.. ولا يخفى سر اختيارنا له في هذا الفصل..

[2]() ما نذكره من هذه المحاسـبة مقتبس من (الكلمـة الحاديـة والعشـرون) من (الكلمـات) للنورسي بالتصرف الذي ألفناه في هذه السلسلة.

منها؟. مع أن أحدنا يعمل إلى المساء ويكد دون فتور إن رغبه أحد في مال أو أرهبه.

إن الصلاة التي هي قوت لقلبك العاجز الفقير وسكينة له في هذا المضيف الموقت وهو الدنيا. وهي غذاء وضـياء لمنزلـك الـذي لابد أنك صائرة اليه، وهـو القـبر. وهي عهـد وبـراءة في محكمتـك التي لا شك أنك تحشـرين اليهـا. وهي الـتي سـتكون نـورا وبراقـا على الصراط المستقيم الذي لابد أنك سائرة عليـه.. فصـلاة هـذه نتائجها هل هي بلا نتيجة وجدوى؟ أم أنها زهيدة الأجرة؟

يـا نفسـي المغرمـة بالـدنيا!.. هـل أن فتـورك في العبـادة وتقصيرك في الصلاة ناشئان من كثرة مشاغلك الدنيوية؟ أم انــك لا تجدين الفرصة لغلبة هموم العيش؟!

فيا عجبا هل أنت مخلوقـة للـدنيا فحسـب، حـتى تبـذلي كـل وقتك لها؟. تأملي!! إنك لا تبلغين أصغر عصـفور من حيث القـدرة على تدارك لوازم الحياة الدنيا رغم أنك أرقى من جميع الحيوانات فطرة..

بعد أن قال هذا التفت إلينا، فرآنا متعجبين من حالـه، فقـال: ما بالكم.. أرى العجب في وجوهكم.

قال رجل منا: وكيف لا نعجب ونحن نراك تتحدث مـع نفسـك كما يتحدث المجانين.

ابتسـم المحاسـبي، وقـال: بـل المجنـون من لم يتحـدث مـع نفسه ليحاسبها.. ألا ترون كيف يحاسـب التـاجر نفسـه ليبحث في ربحه وخسارته؟

قال الرجل: ذلك التاجر.. ونحن نتحدث عن العابد.

قال: ألم تسمع قوله تعالى: يَـا أَيُّهَـا الَّذِينَ آمَنُـوا هَـلْ أَدُلُّكُمْ عَلَى تِجَـارَةٍ تُنْجِيكُمْ مِنْ عَـذَابٍ أَلِيمٍ (10) تُؤْمِنُـونَ بِاللَّهِ وَرَسُـولِهِ وَتُجَاهِدُونَ فِي سَـبِيلِ اللَّهِ بِـأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِـكُمْ ذَلِكُمْ خَيْـرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُـونَ (11) يَغْفِـرْ لَكُمْ ذُنُـوبَكُمْ وَيُـدْخِلْكُمْ جَنَّاتٍ تَجْـرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتِ عَـدْنٍ ذَلِـكَ الْفَـوْزُ الْعَظِيمُ (

12) (الصف)؟

ألم تسمع قوله : (من خاف أدلج، ومن أدلج بلغ المنزل، ألا إنّ سلعة اللّه غالية، ألا إنّ سلعة اللّه الجنّة)[1]؟

قال الرجل: بلى.. فما فيها مما نحن فيه؟

قال[2]: إن هذه النصوص المقدسـة تطلب من المؤمـنين أن يحرصوا على الربح والفلاح كما يحرص التجار.. فكمـا أن مطـالب المتعاملين في التجارات المشـتركين في البضـائع عنـد المحاسـبة سلامة الربح، وكما أن التاجر يستعين بشريكه فيسـلم إليـه المـال حتى يتجر ثم يحاسبه، فكذلك العقل هو التاجر في طريق الآخـرة، وإنما مطلبه وربحه تزكية النفس لأن بذلك فلاحها، كما قال تعالى: قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا (9) وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا (10) (الشمس)، وإنما فلاحها بالأعمال الصالحة، والعقل يستعين بـالنفس في هـذه التجارة إذ يستعملها ويستسخرها فيما يزكيها كمـا يسـتعين التـاجر بشريكه وغلامه الذي يتجر في ماله.

وكما أن الشريك يصير خصماً منازعاً يجاذبه في الربح فيحتاج إلى أن يشـارطه أولاً ويراقبـه ثانيـاً ويحاسـبه ثالثـا ويعاقبـه رابعـاً؛ فكـذلك العقـل يحتـاج إلى مشـارطة النفس أولاً فيـوظب عليهـا الوظـائف ويشـترط عليهـا الشـروط ويرشـدها إلى طريـق الفلاح ويجزم عليها الأمر بسلوك تلك الطرق، ثم لا يغفـل عن مراقبتهمـا لحظة، فإنه لو أهملها لم يـر منهـا إلا الخيانـة وتضـييع رأس المـال كالعبد الخائن إذا خلا له الجو وانفرد بالمال، ثم بعـد الفـراغ ينبغي أن يحاسبها ويطالبها بالوفاء بما شرط عليها فإن هذه تجارة ربحها الفـردوس الأعلى وبلـوغ سـدرة المنتهى مـع الأنبيـاء والشـهداء، فتـدقيق الحسـاب في هـذا مـع النفس أهم كثـيراً من تدقيقـه في أرباح الدنيا مع أنها محتقرة بالإضافة إلى نعيم العقبى

لقد اتفق على ضرورة المحاسبة كل أولياء الله..

1() رواه الترمذي وقال: هذا حديث حسن غريب.. ورواه الحاكم وصححه.

2() النص الوارد هنا من الإحياء بالتصرف الذي ألفناه في هذه السلسلة.

قال مالك بن دينار: (رحم اللّه عبدا قال لنفسه: ألست صاحبة كذا؟ ألست صاحبة كذا؟ ثمّ زمّها، ثمّ خطمها، ثمّ ألزمها كتاب اللّه- عزّ وجلّ- فكان لها قائدا)

وعن ميمون بن مهران قال: (لا يكون الرّجل تقيّا حتّى يكون لنفسه أشدّ محاسبة من الشّريك لشريكه)

وقال الغزاليّ: (عرف أرباب البصائر من جملة العباد أنّ اللّه تعالى لهم بالمرصاد، وأنّهم سيناقشون في الحساب، ويطالبون بمثاقيل الذّرّ من الخطرات واللّحظات، وتحقّقوا أنّه لا ينجيهم من هذه الأخطار إلّا لزوم المحاسبة، وصدق المراقبة، ومطالبة النّفس في الأنفاس والحركات ومحاسبتها في الخطرات واللّحظات، فمن حاسب نفسه قبل أن يحاسب خفّ في القيامة حسابه وحضر عند السّؤال جوابه، وحسن منقلبه ومآبه، ومن لم يحاسب نفسه دامت حسراته، وطالت في عرصات القيامة وقفاته، وقادته إلى الخزي والمقت سيّئاته، فلمّا انكشف لهم ذلك علموا أنّه لا ينجيهم منه إلّا طاعة اللّه وقد أمرهم بالصّبر والمرابطة فقال عزّ من قائل: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اصْبِرُوا وَصَابِرُوا وَرَابِطُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ (200)﴾ (آل عمران)

قلنا: وعينا هذا.. فعلمنا كيف نحاسب نفوسنا.

قال: للمحاسبة زمنان: قبل العمل.. وبعده.

قبل العمل:

قلنا: فحدثنا كيف نحاسب نفوسنا قبل العمل.

قال: إذا أصبح العبد، وفرغ من صلاة الصبح – التي هي أول فريضة من فرائض يومه- فينبغي عليه أن يفرغ قلبه بعض الوقت لمشارطة النفس، كما أن التاجر عند تسليم البضاعة إلى الشريك العامل يفرغ المجلس لمشارطته، فيقول للنفس: ما لي بضاعة إلا العمر، ومهما فني فقد فني رأس المال ووقع اليأس عن التجارة وطلب الربح، وهذا اليوم الجديد قد أمهلني الله فيه وأنسأ في أجلي وأنعم علي به، ولو توفاني لكنت أتمنى أن يرجعني إلى

الدنيا يوماً واحداً حتى أعمل فيه صالحاً، فاحسبي – يا نفس- أنك قد توفيت، ثم قد رددت، فإياك ثم إياك أن تضيعي هذا اليوم، فإن كل نفس من الأنفاس جوهرة لا قيمة لها، واعلمي يا نفس أن اليوم والليلة أربع وعشرون ساعة، وقد ورد في بعض الآثار: (أنه ينشر للعبد بكل يوم وليلة أربع وعشرون خزانة مصفوفة، فيفتح له منها خزانة فيراها مملوءة نوراً من حسناته التي عملها في تلك الساعة فيناله من الفرح والسرور والاستبشار بمشاهدة تلك الأنوار التي هي وسيلته عند الملك الجبار ما لو وزع على أهل النار لأدهشهم ذلك الفرح عن الإحساس بألم النار، ويفتح له خزانة أخرى سوداء مظلمة يفوح نتنها ويغشاه ظلامها، وهي الساعة التي عصي فيها فيناله من الهول والفزع ما لو قسم على أهل الجنة لتنغص عليهم نعيمها، ويفتح له خزانة أخرى فارغة ليس فيها ما يسره ولا ما يسوءه، وهي الساعة التي نام فيها أو غفل أو اشتغل بشيء من مباحات الدنيا فيتحسر على خلوها ويناله من غبن ذلك ما ينال القادر على الربح الكثير والملك الكبير إذا أهمله وتساهل فيه حتى فاته، ناهيك به حسرة وغبناً)

وهكذا تعرض عليه خزائن أوقاته طول عمره فيقول لنفسه: اجتهدي اليوم في أن تعمري خزانتك ولا تدعيها فارغة عن كنوزك التي هي أسباب ملكك، ولا تميلي إلى الكسل والدعة والاستراحة فيفوتك من درجات عليين ما يدركه غيرك وتبقى عندك حسرة لا تفارقك وإن دخلت الجنة، فألم الغبن وحسرته لا يطاق وإن كان دون ألم النار، وقد قال بعضهم: (هب أن المسيء قد عفي عنه أليس قد فاته ثواب المحسنين؟)

لقد أشار الله إلى هذا الغبن والحسرة، فقال : يَوْمَ يَجْمَعُكُمْ لِيَوْمِ الْجَمْعِ ذَلِكَ يَوْمُ التَّغَابُنِ وَمَنْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ وَيَعْمَلْ صَالِحًا يُكَفِّرْ عَنْهُ سَيِّئَاتِهِ وَيُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ (9) (التغابن)

بعد العمل:

قلنا: علمتنا كيف نحاسب نفوسنا قبل العمل.. فعلمنا كيف نحاسبها بعده.

قال: كما أن العبد يكون له وقت في أوّل النهار يشارط فيه نفسه على سبيل التوصية بالحق، فينبغي أن يكون له في آخر النهار ساعة يطالب فيها النفس ويحاسبها على جميع حركاتها وسكناتها، كما يفعل التجار في الدنيا مع الشركاء في آخر كل سنة أو شهر أو يوم حرصاً منهم على الدنيا، وخوفاً من أن يفوتهم منها ما لو فاتهم لكانت الخيرة لهم في فواته، ولو حصل ذلك لهم فلا يبقى إلا أياماً قلائل، فكيف لا يحاسب العاقل نفسه بما يتعلق به خطر الشقاوة والسعادة أبد الآباد؟ ما هذه المساهلة إلا عن الغفلة والخذلان وقلة التوفيق نعوذ بالله من ذلك.

قلنا: فكيف تكون هذه المحاسبة؟

قال: كما تكون المحاسبة مع الشريك تكون المحاسبة مع النفس.

قلنا: المحاسبة مع الشريك تكون بأن ينظر في رأس المال، وفي الربح والخسران ليتبين له الزيادة من النقصان، فإن كان من فضل حاصل استوفاه وشكره، وإن كان من خسران طالبه بضمانه وكلفه تداركه في المستقبل.

قال: فكذلك رأس مال العبد في دينه الفرائض، وربحه النوافل والفضائل، وخسرانه المعاصي.. وموسم هذه التجارة جملة النهار ومعاملة نفسه الأمارة بالسوء، فيحاسبها على الفرائض أوّلاً، فإن أداها على وجهها شكر الله تعالى عليه ورغبها في مثلها، وإنّ فو تها من أصلها طالبها بالقضاء، وإن أداها ناقصة كلفها الجبران بالنوافل، وإن ارتكب معصية اشتغل بعقوبتها وتعذيبها ومعاتبتها ليستوفي منها ما يتدارك به ما فرّط - كما يصنع التاجر بشريكه –

ثم ينبغي أن يحاسب النفس على جميع العمر يوماً يوماً وساعة ساعة في جميع الأعضاء الظاهرة والباطنة، كما نقل عن توبة بن الصمة وكان بالرقة وكان محاسباً لنفسه؛ فحسب يوماً فإذا هو ابن ستين سنة، فحسب أيامها فإذا هي أحد وعشرون ألف يوم وخمسمائة يوم، فصرخ وقال: يا ويلتي ألقى الملك بأحد

وعشرين ألف ذنب فكيف وفي كل يوم عشرة آلاف ذنب؟ ثم خرّ مغشياً عليه فإذا هو ميت، فسمعوا قائلاً يقول: يا لك ركضة إلى الفردوس الأعلى.

فهكذا ينبغي أن يحاسب العبد نفسه على الأنفاس وعلى معصيته بالقلب والجوارح في كل ساعة؛ ولو رمى العبد بكل معصية حجراً في داره لامتلأت داره في مدّة يسيرة قريبة من عمره، ولكنه يتساهل في حفظ المعاصي والملكان يحفظان عليه ذلك :.. أَحْصَاهُ اللَّهُ وَنَسُوهُ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ (6) (المجادلة)

***

بعد أن حدثنا المحاسبي عن ضرورة المحاسبة، وعلمنا كيف ننفذها في حياتنا، مكثنا مدة نتدرب على ذلك إلى أن رأى منا الأهلية للتخرج من هذا القسم، فقام بإرسالنا إلى القسم الأخير من هذه المدرسة، وهو القسم السابع.

7 ـ المعاقبة

سرنا إلى القسم السابع، وكان إمامه إمام من أئمة العلم والورع.. وقد علمنا أنه قدم من دمياط.. وقد كان أهل هذا القسم يسمونه (أحمد النحاس)[1]

ما إن دخلنا عليه القسم حتى وجدناه يحمل قضيبا في يده يضرب به رجله، ويقول: يا نفس ذوقي الألم.. فلا يكفك عن غيك غيره.. لطالما نصحتك ووجهتك، ولكنك أبيت إلا أن تقتحمي غمار غضب الله.. أتراك تطيقينه؟

ألم تسمعي ما أمر الله بني إسرائيل عندما اقتحموا نيران

---

[1] أشير به إلى أحمد بن ابراهيم بن محمد الدمشقي، ثم الدمياطي، المعروف بابن النحاس (ت 814 هـ)، كان عالما بالفرائض والحساب، والهندسة، والفقه، وغير ذلك.. وكان بالإضافة إلى ذلك مجاهدا، توفي شهيدا، قتله الفرنج في اكباب وحمل إلى دمياط..

من تآليفه (مشارع الاسواق إلى مصارع العشاق)، و(مثير الغرام إلى دار السلام)، و(تنبيه الغافلين في معرفة الكبائر والصغائر)، و(بيان المغنم في الورد الاعظم)، و(حاشية على شرح تجريد الكلام)

معاصيه.. لقد أمرهم بقتل أنفسهم، لقد قال تعالى يذكر ذلك : ﴿ وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ إِنَّكُمْ ظَلَمْتُمْ أَنْفُسَكُمْ بِاتِّخَاذِكُمُ الْعِجْلَ فَتُوبُوا إِلَى بَارِئِكُمْ فَاقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ عِنْدَ بَارِئِكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ (54)﴾ (البقرة)؟

ألم تعلمي ما رتب الله على معاصيه من العقوبات في الدنيا قبل الآخرة؟

ألم تعلمي أن الصالحين كانوا يذيقون أنفسهم آلام الدنيا لترتدع وتتذكر عذاب الآخرة..

إن لم تكوني تعلمي ذلك فاعلمي أن المحدثين ذكروا أنه انطلق رجل ذات يوم – في عهد النبي ﷺ - فنزع ثيابه وتمرّغ في الرمضاء فكان يقول لنفسه: ذوقي ونار جهنم أشدّ حرّاً أجيفة بالليل بطالة بالنهار؟ فبينما هو كذلك إذ أبصر النبي ﷺ في ظل شجرة فأتاه فقال: غلبتني نفسي فقال له النبي ﷺ: (ألم يكن لك بد من الذي صنعت، أما لقد فتحت لك أبواب السماء، ولقد باهى الله بك الملائكة)، ثم قال لأصحابه: (تزودوا من أخيكم)، فجعل الرجل يقول له: يا فلان ادع لي، يا فلان ادع لي، فقال النبي ﷺ: (عمهم)، فقال: (اللهم اجعل التقوى زادهم، واجمع على الهدى أمرهم)، فجعل النبي ﷺ يقول: (اللهم سدده)، فقال الرجل: اللهم اجعل الجنة مآبهم[1].

وحدث صاحب للأحنف قال: كنت أصحبه فكان عامة صلاته بالليل، الدعاء، وكان يجيء إلى المصباح فيضع أصبعه فيه حتى يحس بالنار ثم يقول لنفسه: يا حنيف ما حملك على ما صنعت يوم كذا؟ ما حملك على ما صنعت يوم كذا؟

وحدث إسحاق بن عمار قال : خرجت مع أبي عبد الله وهو يحدث نفسه، ثم استقبل القبلة فسجد طويلا، ثم ألزق خده الايمن بالتراب طويلا، قال : ثم مسح وجهه ثم ركب، فقلت له : بابي أنت وأمي لقد صنعت شيئا ما رأيته قط، قال : يا إسحاق إني ذكرت نعمة من نعم الله عزوجل علي فأحببت أن أذلل نفسي، ثم

1() رواه ابن أبي الدنيا في محاسبة النفس.

قال : يا إسحاق ما أنعم الله على عبده بنعمة فشكرها بسجدة يحمد الله فيها ففرغ منها حتى يؤمن له بالمزيد من الدارين.

ودخل ابن السماك على داود الطائي حين مات - وهو في بيته على التراب - فقال: يا داود سجنت نفسك قبل أن تسجن وعذبت نفسك قبل أن تعذب، فاليوم ترى ثواب من كنت تعمل له.

***

بعد أن سمعنا ورأينا منه بعض ما ذكرته لك التفت إلينا، فتعجب من حضورنا، وقال: أهلا بكم.. اعذروني.. عساني لم أطل عليكم.

قلنا: لا.. ولكنا قد امتلأت عجبا من حالك.. كيف تضرب نفسك؟

قال: لو تأدبت لما ضربتها.

قال رجل منا: لقد عهدنا أنه لا يضرب أحد نفسه إلا إذا كان مجنونا.

قال: فهذا الذي لا يضرب نفسه هل يضرب غيره إن أساء؟

قلنا: أجل.. ولكن ذلك شيء مألوف.

قال: فمن لم يردع نفسه، فكيف يجوز لنفسه أن يردع غيره؟ إن النفس أولى بالعقوبة من الغير.

قلنا: فما فعلته شيء خاص بك.. أم شيء تدعونا إليه؟

قال: بل شيء أدعوكم إليه.. ألستم في مدرسة المسلم القوي.. لا يمكن للمسلم أن يصير قويا ما لم يقهر نفسه التي بين جنبيه.

لقد ذكر أولياء الله هذا.. فقد ذكروا أنه مهما حاسب الإنسان نفسه فلم تسلم عن مقارفة معصية وارتكاب تقصير في حق الله تعالى، فلا ينبغي أن يهملها.. لأنه إن أهملها سهل عليه مقارفة

المعاصي، وأنست بها نفسه، وعسر عليه بعد ذلك فطامها، وكان ذلك سبب هلاكها، بل ينبغي أن يعاقبها، فإذا أكل لقمة شبهة بشهوة نفس ينبغي أن يعاقب البطن بالجوع، وإذا نظر إلى غير محرم ينبغي أن يعاقب العين بمنع النظر، وكذلك يعاقب كل طرف من أطراف بدنه بمنعه عن شهواته.. هكذا كانت عادة سالكي طريق الآخرة.

ومن لطائف العقوبات التي ذكروها أن مريد الله إذا رأى شرها في نفسه للطعام ألزمها بالصوم وتقليل الطعام، ثم يكلفها أن تهيئ الأطعمة اللذيذة ويقدمها إلى غيره وهو لا يأكل منها حتى يقوي بذلك نفسه فيتعود الصبر وينكسر شرهه.

ومثل ذلك إن رأى الغضب غالباً عليه ألزم نفسه الحلم والسكوت، بل سلط على نفسه من يصحبه ممن فيه سوء خلق، ويلزمها خدمته حتى يمرن نفسه على الاحتمال معه.

وقد حكى عن بعضهم في هذا أنه كان يعود نفسه الحلم ويزيل عن نفسه شدة الغضب، فكان يستأجر من يشتمه على ملأ من الناس ويكلف نفسه الصبر، ويكظم غيظه حتى صار الحلم عادة له بحيث كان يضرب به المثل.

وبعضهم كان يستشعر في نفسه الجبن وضعف القلب فأراد أن يحصل لنفسه خلق الشجاعة فكان يركب البحر في الشتاء عند اضطراب الأمواج.

قال رجل منا: فجوهر ما ذكرته في هذا هو أن تعاقب النفس بمخالفة شهواتها.

قال: أجل.. فلا يمكن أن تستقيم النفس وهي ترعى في مراعي شهواتها..

حدث الجنيد عن نفسه، قال: أرقت ليلة فقمت إلى وردي فلم أجد الحلاوة التي كنت أجدها، فأردت أن أنام فلم أقدر، فجلست فلم أطق الجلوس، فخرجت فإذا رجل ملتف في عباءة مطروح على الطريق، فلما أحس بي قال: يا أبا القاسم إلى

الساعة، فقلت: يا سيدي من غير موعد؟ قال: بلى سألت الله عز وجـل أن يحـرك إلى قلبـك، فقلت: قـد فعـل فمـا حاجتـك؟ قـال: فمتى يصير داء النفس دواءهـا؟ فقلت: إذا خـالفت النفس هواهـا، فأقبل على نفسـه فقـال: اسـمعي فقـد أجبتـك بهـذا سـبع مـرات فأبيت أن تسمعيه إلا من الجنيد ها قـد سـمعتيه، ثم انصـرف ومـا عرفته.

وقـال رجـل لعمـر بن عبـد العزيـز: مـتى أتكلم؟ قـال: إذا اشتهيت الصمت، قال: متى أصمت؟ قال: إذا اشتهيت الكلام.

وقـال علي: من اشـتاق إلى الجنـة سـلا عن الشـهوات في الدنيا.

وكان مالك بن دينـار يطـوف فـإذا رأى الشـيء يشـتهيه قـال لنفسه: اصبري فوالله ما أمنعك إلا من كرامتك علي.

قال آخر: ربما يكون بعض مـا ذكرتـه مقبـولا.. ولكن الـذي لا يقبلـه عقلي هـو أن يحمـل عاقـل مثلـك مـا تحملـه من القضـيب، لتضرب به نفسك.. فمن أين لك هذا؟

ابتسم النحاس، وقال: أنا لست مبتدعا في هـذا.. فلي سـلف صالح فيه.. إنه أبو مسلم الخـولاني، فقـد روي أنـه كـان قـد علـق سوطاً في مسجد بيته يخوّف به نفسه، وكان يقول لنفسه: قومي فوالله لأزحفن بـك زحفـاً حـتى يكـون الكلـل منـك لا مـني.. فـإذا دخلت الفترة تناول سوطه وضـرب بـه سـاقه، ويقـول: أنت أولى بالضرب من دابتي.

وكان يقول: أيظن أصحاب محمد أن يستأثروا به دوننا.. كلا والله لنزاحمهم عليه زحامـاً حـتى يعلمـوا أنهم قـد خلفـوا وراءهم رجالاً.

قال الرجل: دعنا من آراء الرجال.. وحدثنا عن سيد الرجال.. ذلك الذي لا يؤخذ الدين إلا عنه.

قال: لقـد روي في الحـديث أنـه أرسـل أبـا لُبَابـة إلى بـني قريظة، وكان حليفاً لهم، وكانت أمواله وولده في منطقتهم، فلمـا

رأوه قام إليه الرجال، وجَهَشَ النساء والصبيان يبكون في وجهه، فَرَقَّ لهم، وقالوا : يا أبا لبابة، أترى أن ننزل على حكم محمد؟ قال : نعم ؛ وأشار بيده إلى حلقه، يقول : إنه الذبح، ثم علم من فوره أنه خان الله ورسوله فمضي على وجهه، ولم يرجع إلى رسول الله حتى أتي المسجد النبوي بالمدينة، فربط نفسه بسارية المسجد، وحلف ألا يحله إلا رسول الله بيده، وأنه لا يدخل أرض بني قريظة أبداً. فلما بلغ رسول الله خبره - وكان قد استبطأه - قال: (أما إنه لو جاءني لاستغفرت له، أما إذ قد فعل ما فعل فما أنا بالذي أطلقه من مكانه حتى يتوب الله عليه)

وقد بقي أبو لبابة على تلك الحال إلى أن نزلت توبته، ورسول الله في بيت أم سلمة، قالت أم سلمة: فسمعت رسول الله من السحر يضحك، فقلت: مم تضحك يا رسول الله أضحك الله سنك؟ قال: تيب علي أبي لبابة، قلت: أفلا أبشره يا رسول الله؟ قال: بلى إن شئت.. فقامت على باب حجرتها، فقالت: يا أبا لبابة أبشر فقد تاب الله عليك، فثار الناس إليه ليطلقوه، فقال: لا والله حتى يكون رسول الله هو الذي يطلقني بيده الشريفة.

وقد أقام مربوطا ست ليالي أو سبع ليال، وقيل سبع عشرة ليلة.. وكان تأتيه امرأته أو بنته في وقت كل صلاة فتحله للصلاة، ثم يعود فيربط بالعمود حتى كاد يذهب سمعه وبصره.

وروي أنه قال للنبي بعد أن تاب الله عليه: (من تمام توبتي أن أهجر دار قوم أصبت فيها الذنب)، وروي أنه عاهد الله أن ينخلع من ماله فقال له :(يجزيك الثلث)[1]

التفت النحاس إلى الرجل، ثم قال: انظر كيف أقره رسول الله على فعله، ولو كان ذلك غير مشروع لنهاه.

***

بعد أن حدثنا (أحمد النحاس)عن ضرورة المعاقبة، وعلمنا كيف ننفذها في حياتنا، مكثنا مدة نتدرب على ذلك إلى أن رأى

[1] انظر: السيرة الحلبية: 2/674.

منا الأهلية للتخرج من هذا القسم، ومن هذه المدرسة.

وقـد رأيت بعيـني بركـات تلـك المدرسـة على تلـك الجماعـة الممتلئة بالضعف، فقد سارت بعد تخرجها بهمة عجيبـة إلى بلـدها تحرره من الطغاة المسـتبدين الظـالمين.. ولم يكلفهـا ذلـك شـيئا كثيرا.

بل بمجـرد أن رأى الطغـاة أنـوار الإيمـان والإرادة ذابـوا كمـا يـذوب الملح في المـاء، أو كمـا يـذوب الثلج عنـدما تشـرق عليـه الشمس..

لقد حصل لهم نفس مـا حصـل للـدجال عنـد رؤيتـه للمسـيح عليه السلام.

ثالثا ـ اللين

قلت: عرفت السر الثاني من أسرار الإنسان.. فما السر الثالث؟

قال: لينه..

قلت: ما تقصد بذلك؟

قال: كما أن في التربة ما هو لين سهل طيب، فكذلك من طباع الإنسان ما يجعله كذلك.. لقد ذكر ربنا هذا الطبع في الإنسان، فقال عند بيانه لتأثير قراءة القرآن الكريم في النفوس : ﴿ اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتاباً مُتَشابِهاً مَثانِيَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلى ذِكْرِ اللَّهِ ذلِكَ هُدَى اللَّهِ يَهْدِي بِهِ مَنْ يَشاءُ وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَما لَهُ مِنْ هادٍ (23)﴾ (الزمر)

وقد دعا الله تعالى أنبياءه إلى مخاطبة أقوامهم بالأسلوب الذي يتناسب مع هذا الطبع، كما قال تعالى عن موسى وهارون – عليهما السلام- :﴿ اذْهَبا إِلى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغى (43) فَقُولا لَهُ قَوْلًا لَيِّناً لَعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشى (44)﴾ (طه)

قلت: لقد ظللت مدة متعجبا من دعوة الله لهذين النبيين الكريمين لمخاطبة ذلك الجلف المستكبر الغليظ باللين.. لقد كنت أقول لنفسي: أليست الحكمة أن يخاطب كل امرئ بحسب حاله وخصاله.. فكيف يخاطب الغليظ باللين؟

قال: لأن الغليظ وإن كان غليظا.. والجلف وإن كان جلفا، فإن فيه من اللين ما يجعله قد يرى الحقائق من خلاله.. لقد ذكرت لك أن عجينة الإنسان فطرت على اللين كما فطرت على الخشونة.. وقد يأتيك باللين ما لا يأتيك بالخشونة..

لقد ذكر الله تعالى ذلك، فقال مخبرا عن نبيه ﷺ :﴿ فَبِما رَحْمَةٍ مِنَ اللَّهِ لِنْتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ فَإِذا عَزَمْتَ

فَتَوَكَّلْ عَلَى اللّهِ إِنَّ اللّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ (159) (آل عمران)

قلت: وعيت هذا.. فهل لاستفادتك لهذا السر قصة؟

قال: أجل.. فبعد أن من الله علي، فعرفت ما ذكرته لـك من أسرار في تلك المدينة العجيبة - التي فتح الله لي فيهـا من علـوم الإنسان ما كان منغلقا – سرت، كما تعودت، على غـير هـدى، إلى أن وجدت رجلين يتحاوران، وقد شدني حـديثهما، فقعـدت أسـتمع إليهما.

كان أولهما غليظا شديدا.. ولكنه مع ذلـك يحمـل قلبـا ممتلئـا رحمة ولينـا.. ولكن غلظتـه طغت على لينـه، وشـدته قسـت على رحمته.. فلم يبدو إلا غليظا قاسيا.

وكان ثانيهما على عكس صاحبه لينا رفيقا.. ولو أنه هو الآخـر يحمـل في نفسـه اسـتعدادا للغلظـة والشـدة.. ولكن لينـه غلب شدته، ورحمته غلبت قسوته.. فلم يبدو إلا لينا لطيفا رؤوفا.

سأحكي لك ما دار بينهما من حـوار.. فقـد كـان هـو المفتـاح الذي فتح الله لي به علي أسرار اللين..

قال أولهما للثاني: ألا ترى أنك بهـذا سـتفتح أبوابـا للشـر قـد يصعب عليك غلقها؟

قال الثاني: لا.. لا يمكن أن يـأتي اللين بالشـر.. وكيـف يـأتي بالشر، وقد كان رسول الله لينـا هينـا سـهلا.. وقـد وصـفه ربنـا، فقـال : عَزِيــزٌ عَلَيْــهِ مــا عَنِتُّمْ حَــرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِـالْمُؤْمِنِينَ رَؤُفٌ رَحِيمٌ (التوبـة) فهـو رؤوف رحيم شـفيق، ومن شـفقته على الأمة تخفيفـه وتسـهيله عليهم وكراهتـه أشـياء مخافـة أن تفـرض عليهم كقوله: (لولا أن أشق على أمتي لأمرتهم بالسـواك مـع كـل وضوء)(1)، ومثل ذلك نهيه عن الوصال، وكراهته دخول الكعبة لئلا يعنت أمته، وكان يسمع بكـاء الصـبي فيتجـوز في صـلاته.. وهكـذا مما وردت النصوص الكثيرة تخبر عنه، وتدل عليه.

(1) رواه الترمذي وغيره.

قال الثاني: لكأني بك تنتقي من الأدلة ما تشاء، وتختار من الشمائل ما تهوى..

قال الأول: لا.. معاذ الله.. فكل من وصف النبي أخبر عن هذا.. ولولا أن هذه هي الصفة الغالبة لرسول الله ما وردت كل تلك النصوص تدل عليها.

قال الثاني: فأين أنت – إذن – من موقفه ﷺ لما رأى بعض أصحابه يختلفون في آية من القرآن، فتماروا فيها حتّى ارتفعت أصواتهم، فخرج رسول اللّه مغضبا، قد احمرّ وجهه، ويقول: (مهلا يا قوم، بهذا أهلكت الأمم من قبلكم، باختلافهم على أنبيائهم، وضربهم الكتب بعضها ببعض. إنّ القرآن لم ينزل يكذّب بعضه بعضا، بل يصدّق بعضه بعضا، فما عرفتم منه فاعملوا به، وما جهلتم منه فردّوه إلى عالمه)[1]؟

وأين أنت مما روي أنه ﷺ خرج على بعض أصحابه، وهم يتنازعون في القدر فغضب حتّى احمرّ وجهه حتّى كأنّما فقيء في وجنته الرّمّان، فقال: (أبهذا أمرتم، أم بهذا أرسلت إليكم؟ إنّما هلك من كان قبلكم حين تنازعوا في هذا الأمر، عزمت عليكم، عزمت عليكم ألّا تتنازعوا فيه)[2]؟

وأين أنت من حروبه التي حارب بها أعداء دينه.. أليست تلك الحروب خير مثال على الشدة التي جاء بها هذا الدين؟

قال الأول: نعم أقر بما ذكرت.. ولكنه قليل بجنب ما ورد من رحمته ولينه.. بالإضافة إلى أنك لو تأملت جيدا ما ذكرته، فستجد أن غضبه في هذه المواقف كان غضب رحمة ولطف، لا غضب قسوة وشدة.

إنه كما قال الشاعر:

فقسا ليزدجروا ومن   فليقسُ أحياناً على

(1) رواه أحمد.

(2) رواه الترمذي.

***

بينما هما في هـذه الأحـاديث وغيرهـا إذ دخـل عليهمـا رجـل، وقال: هلما بنا لنحضر حفل افتتاح مدرسة جديدة بناهـا بعض أهـل الله في هـذه البلـدة.. وهـو من الكـرام الـذين شـرفهم اللـه بـأن يتسموا باسنم إبراهيم الخليل.. وقد سماها (مدرسة الرفق)، وقـد ذكر لي أنه يريـد من خلالهـا أن يحـيي سـنة الرفـق الـتي يـرى أن هناك من يحاول إماتتها.

لم أجد إلا أن أسـير معهمـا إلى هـذه المدرسـة.. وقـد رأيتهـا كسائر المدارس تضم أقساما كثيرة.. وقد شـرفني اللـه، فتعلمت في سـبعة أقسـام منهـا.. وعلى مشـايخ لا زلت أفخـر بالانتسـاب إليهم، والتعلم على أيديهم.

1 ـ الرحمة

قلت: فمن أولهم.. من أول مشـايخك في هـذه المدرسـة؟ وماذا تعلمت على يديه؟

قال: أول مشايخي في هذه المدرسة رجل من أهل أصـفهان امتلأ علما بجهله، ثم امتلأ علمـا بعلمـه، فصـار من الـذين يـدرون، ويدرون أنهم يدرون.. كان يقال لـه (أبـو القاسـم الاصـفهاني)[1]، وهو يعرف بين تلاميذه بالراغب.

قلت: مـا أوقح هـؤلاء التلاميـذ.. كيـف اختـاروا لشـيخهم هـذا الاسم؟

قال: هم لم يريدوا مـا فهمت.. هم لا يعرفـون من الرغبـة إلا الرغبة في الله، وفيما عنـد اللـه.. ولـذلك كـان شـيخهم يحب هـذا الاسم، ويجيب من يناديه به.

1() أشير به إلى الراغب الاصفهاني (ت 502 هـ) وهو الحسين بن محمد بن المفضـل، أبـو القاسم الأصفهاني (أو الاصبهاني) المعروف بالراغب: أديب، من الحكماء العلمـاء.. من أهـل (أصبهان) سـكن بغـداد، واشـتهر، حـتى كـان يقـرن بالامـام الغـزالي.. من كتبـه (محاضـرات الأدبـاء)، و(الذريعـة إلى مكـارم الشـريعة) و(الأخلاق) ويسـمى (أخلاق الـراغب) و(جـامع التفاسير) أخذ عنه البيضاوي في تفسيره، و(المفردات في غريب القرآن) و(حـل متشـابهات القرآن) و(تفصيل النشأتين) في الحكمة وعلم النفس، و(تحقيق البيان) في اللغـة والحكمـة، وكتاب في (الاعتقاد) و(أفانين البلاغة) (انظر: الأعلام للزركلي)

قلت: فحدثني عن العلوم التي استفدتها منه.

قال: كل العلوم التي نلتها منها تنبع من بحار الرحمة.. لقد حاول بكل الأساليب أن يملأ قلبي وقلوب تلاميذه بالرحمة..

كان أول ما سمعناه منه عند دخولنا عليه قراءته الخاشعة لقوله تعالى : فَبِمَا رَحْمَةٍ مِنَ اللَّهِ لِنْتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ (159) (آل عمران)

ثم قال لنا: انظروا ما تفعله الرحمة.. إن الله تعالى يعتبر الرحمة التي كان عليها رسول الله هي السبب الأكبر في اجتماعهم حوله.. وهو ينبهنا بذلك إلى أن نجمع القلوب حولنا بهذه السنة العظيمة من سنن رسول الله ..

قلنا: فعلمنا كيف نتحلى بها.

قال: لا يمكن أن تتعلموا الرحمة إلا من الرحماء.. فاقتدوا بهم لتتعلموا على أيديهم.

قلنا: فمن هم الرحماء الذين ترشدنا أن نتعلم على أيديهم قوانين الرحمة وأخلاقها؟

قال: **أعظمهم هو الله**.. فالله هو الرحمن الرحيم الذي ملأت رحمته أقطار الكون..

قلنا: فحدثنا عن سعتها.

قال: لا يمكن التعبير عن سعة رحمة الله، ولا عن حدودها، لأنه لا حدود لها.. فكل ما نراه في الكون هو مظهر بسيط من مظاهر رحمة الله التي لا حدود لها.

وقد روي أنه رأى امرأة من السبي قد فرق بينها وبين ولدها، فجعلت كلما وجدت صبياً من السبي أخذته فألصقته بصدرها وهي تدور على ولدها، فلما وجدته ضمته إليه وألقمته ثديها، فقال رسول اللّه :(أترون هذه طارحة ولدها في النار

وهي تقدر على أن لا تطرحه؟)، قالوا:(لا يا رسول اللّه)، قال:(فواللّهِ، للّه أرحمُ بعباده من هذه بولدها) ([1])

بل إن رسول الله أخبرنا بأن هذه الرحمة التي وقفتها هذه الأم ليست سوى تجل من تجليات رحمة الله، قال :(جعل اللّه الرحمة مائة جزء فأمسك عنده تسعة وتسعين جزءاً وأنزل في الأرض جزءاً واحداً، فمن ذلك تتراحم الخلائق، حتى ترفع الدابة حافرها عن ولدها خشية أن تصيبه) ([2])

ولذلك كان أكثر أسماء الله الحسنى يصب في بحر الرحمة، فتوبة الله على عباده، وتجاوزه عنهم من رحمته بهم.

بل إن رسول الله يحكي عن ربه قوله لعباده:(إذا تقرب إلي العبد شبرا تقربت إليه ذراعا وإذا تقرب إلي ذراعا تقربت إليه باعا وإذا أتاني يمشي أتيته هرولة) ([3])، وقوله:(يا ابن آدم قم إلي أمش إليك وامش إلي أهرول إليك) ([4])

والله هو الودود الذي يحب عباده، ويفيض عليهم لمحبته لهم كل أنواع الخير، ولا يحول بينه وبين التودد إليهم ما يبارزونه به من الخطايا والمعاصي، وفي الأثر الإلهي يقول الله تعالى: (إني والجن والإنس في نبإ عظيم، أخلق ويعبد غيري، وأرزق ويشكر سواي)([5])

وفي أثر آخر:(ابن آدم، ما أنصفتني، خيري إليك نازل، وشرك إلي صاعد، أتحبب إليك بالنعم وأنا عنك غني، وتتبغض إلي بالمعاصي، وأنت فقير إلي)

وفي أثر آخر:(يا ابن آدم ما من يوم جديد إلا يأتيك من

---

[1] () رواه البخاري.

[2] () رواه البخاري ومسلم.

[3] () رواه البخاري.

[4] () رواه أحمد.

[5] () رواه الحكيم والبيهقي.

عندي رزق جديد، وتـأتي عنـك الملائكـة بعمـل قـبيح، تأكـل رزقي وتعصيني، وتدعوني فأستجيب لك، وتسألني فأعطيك، وأنا أدعـوك إلى جنتي فتأبى ذلك)

وفي أثر آخر:(يا ابن آدم إنك ما دعوتني ورجوتني غفرت لك على ما كان منك ولا أبالي يا ابن آدم لو بلغت ذنوبك عنان السماء ثم استغفرتني غفرت لك ، يـا ابن آدم لـو أتيتـني بقرابـة الأرض - بضم القاف ويجوز كسرها أي قـريب ملئهـا - خطايـا ثم لقيتـني لا تشرك بي شيئا لأتيتك بقرابها مغفرة) (1)

وقد أخبر القرآن الكريم أن ﴿الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَـرْشِ اسْـتَوَى﴾ (طـه:5)، وفي ذلـك إشـارة إلى أن مملكـة هـذا الكـون الواسـعة مبنية على أساس الرحمة الإلهية ومنتهية إليها.

فالله تعالى في تلك الآية الكريمة لم يختر من أسمائه إلا هذا الاسم الجليل الذي يجمع بين الدلالة على منتهى الرحمـة وكمالهـا والعلمية على الذات ليدل على هذا المعـنى، فإنـه إذا قيـل:(حكم الملك الشجاع) دل ذلك على ان أكبر منجزات هذا الملك مؤسسة على شجاعته، وإن قيـل:(حكم الملـك العـادل) دل ذلـك على أن أبرز ما يظهر في مملكته هو عدله، وهكذا.

وهذه الآية تدل على أن الخـبراء بالله العـارفين بـه يـدركون هذا المعنى، فلذلك كان أكثر كلام العارفين في التحـبيب في اللـه والدلالة على أبواب رحمته، بل كان أعظم العارفين ﷺ هو الرحمـة المهداة.

ولهذا يربط القرآن الكريم بين ملك الله الذي يعني تدبير الله للأشياء وبين رحمته تعالى، كما قال تعـالى:﴿ الْمُلْـكُ يَوْمَئِذٍ الْحَـقُّ لِلرَّحْمَنِ وَكَانَ يَوْماً عَلَى الْكَافِرِينَ عَسِيراً﴾ (الفرقان:26)

ولـذلك ورد في القـرآن الكـريم الإخبـار عن سـعة الرحمـة الإلهية وشمولها باعتبار الكون مؤسسا عليها إنشـاء وتـدبيرا، قـال تعالى:﴿ وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ ﴾(الأعـراف:من: 156)، وقـال تعالى:﴿ فَإِنْ كَذَّبُوكَ فَقُلْ رَبُّكُمْ ذُو رَحْمَةٍ وَاسِعَةٍ وَلا يُرَدُّ بَأْسُـهُ عَنِ

(1) رواه الترمذي.

الْقَوْمِ الْمُجْرِمِينَ (الأنعام:147)

قلنا: عرفنا الأول.. وأعظم به.. ولكنا نريد واحدا من البشر له ما للبشر، وعليه ما عليهم.

قال: فذاك هو **رسول الله أعظم الرحماء**.. ذلك الذي وصفه ربه، فقال : لَقَدْ جاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ ما عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَؤُفٌ رَحِيمٌ (128) فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ لا إِلهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَهُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ (129) (التوبة)، وقال : فَبِمَا رَحْمَةٍ مِنَ اللَّهِ لِنْتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنْتَ فَظّاً غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ (آل عمران:159)

وقد كان ﷺ - كما وصفه ربه - سهلا لينا يسيرا ما غضب لنفسه قط، ولا ضاق صدره بضعفهم البشري.. بل كان يقول لهم كل حين:(إنما أنا لكم مثل الوالد لولده)[1]

وكان يقول: (لولا أن أشق على أمتي لأحببت ألا أتخلف خلف سرية تخرج في سبيل الله، ولكن لا أجد ما أحملهم عليه، ولا يجدون ما يتحملون عليه، وشق عليهم أن يتخلفوا بعدي..)[2]

وكان يقول: (لولا أن أشق على أمتي لأمرتهم بالسواك عند كل وضوء، ومع كل صلاة)[3]

وحدث أنس قال: (ما رأيت أحدا كان أرحم بالعباد من رسول الله ﷺ)[4]

وعن مالك بن الحويرث قال: كان رسول الله ﷺ رحيما، رفيقا، فأقمنا عنده عشرين ليلة، فظن أنا قد اشتقنا إلى أهلنا،

1() رواه أبو داود والنسائي وابن ماجه وابن حبان.

2() رواه البخاري وغيره.

3() رواه مالك وغيره.

4() رواه مسلم.

فسألنا عمن تركنا عند أهلنا، فأخبرناه، فقال: (ارجعوا إلى أهليكم، فأقيموا عندهم) (1)

وعن أبي قتادة أن رسول الله ﷺ قال: (إني لأدخل في الصلاة، وأنا أريد أن أطيلها، فأسمع بكاء الصبي فأتجاوز في صلاتي مما أعلم من شدة وجدانه من بكائه)(2)

وعن أبي سعيد الخدري قال: صلى بهم رسول الله ﷺ بأقصر سورتين في القرآن، فلما قضى الصلاة، قال له أبو سعيد أو معاذ: صليت صلاة ما رأيتك صليت مثلها قط، قال: (أنا سمعت بكاء الصبي خلفي وترصف النساء، أردت أن تفرغ له أمه)(3)

وعن عائشة قالت: خرج رسول الله ﷺ من جوف الليل يصلي في المسجد، فصلى رجال صلاته، فأصبح الناس يتحدثون بذلك، فاجتمع أكثر منهم، فأصبح الناس يذكرون ذلك، فكثر أهل المسجد في الليلة الثالثة، فخرج فصلوا بصلاته، فلما كانت الليلة الرابعة عجز المسجد عن أهله، ففقدوا صوت رسول الله ﷺ، فجعل بعضهم يتنحنح، ليخرج إليهم، فلم يخرج إليهم رسول الله ﷺ، حتى خرج لصلاة الصبح، فلما قضى صلاته أقبل على الناس، ثم تشهد وقال: (أما بعد: فإنه لم يخف عني شأنكم الليلة، ولكن خشيت أن تفرض عليكم صلاة، فتعجزوا عنها، فصلوا في بيوتكم، فإن أفضل صلاة المرء في بيته إلا المكتوبة) (4)

وعن أبي هريرة قال: قبل رسول الله ﷺ الحسن ابن علي وعنده الأقرع بن حابس التميمي، فقال الأقرع: لي عشرة من الولد، ما قبلت منهم أحدا، فنظر إليه رسول الله ﷺ وقال: (إن من لا يرحم لا يرحم)(5)

1() رواه البخاري ومسلم.

2() رواه البخاري ومسلم.

3() رواه ابن أبي شيبة.

4() رواه البخاري ومسلم.

5() رواه البخاري ومسلم.

وعن عائشة قالت: جاء أعرابي إلى رسول الله ﷺ فقال: إنكم تقبلون الصبيان، وما نقبلهم، فقال رسول الله ﷺ:(أو أملك لك أن نزع الله تعالى الرحمة من قبلك) (1)

وعن عبد الله بن أبي بكر بن حزم قال: لما سار رسول الله ﷺ من العرج في فتح مكة رأى كلبة تهر على أولادها وهن حولها يرضعنها، فأمر رجلا من أصحابه يقال له جعيل بن سراقة أن يقوم حذاءها، لا يعرض أحد من الجيش لها، ولا لأولادها(2).

وعن ابن مسعود أن رسول الله ﷺ نزل منزلا فأخذ رجل بيض حمرة، فجاءت ترف على رأس رسول الله ﷺ، فقال: (أيكم فجع هذه في بيضها؟) فقال رجل: أنا يا رسول الله أخذت بيضها، فقال: (اردده، رحمة لها) (3)

***

بقينا مدة في صحبة الراغب الأصفهاني يعلمنا علوم الرحمة وأسرارها، ويذكر لنا من أخبار أهلها ما تتشوف له نفوسنا.. وبعد أن اختبرنا بعض الاختبارات، ورأى نجاحنا فيها أجازنا فيها وفي علومها.. ثم أمرنا بالسير إلى القسم الثاني من أقسام تلك المدرسة (مدرسة الرفق)

2 ـ الحلم

سرنا إلى القسم الثاني، وكان إمامه إمام من أئمة التقوى والعرفان.. كان الجميع يطلقون عليه (أبو طالب المكي)(4) تشبيها له بذلك الولي الصالح الذي كتب في أحوال القلوب

1() رواه البخاري ومسلم.

2() رواه محمد بن عمر الأسلمي في مغازيه.

3() رواه البخاري في الأدب.

4() أشير به إلى أبي طالب محمد بن علي بن عطية الحارثي المكي (ت 386 هـ)، وهو واعظ زاهد، فقيه من أهل الجبل (بين بغداد وواسط) نشأ واشتهر بمكة.. ورحل إلى البصرة فاتهم بالاعتزال.. وسكن بغداد فوعظ فيها، فحفظ عنه الناس أقوالا هجروه من أجلها.. وتوفي ببغداد.. من كتبه (قوت القلوب)، وهو من أمهات كتب السلوك.

ومقاماتها وأعمالها ما تزودت به الأجيال، وتربت عليه الرجال.

عندما دخلنا عليه قال لنا: لا يمكنكم أن تكونوا مؤمنين صالحين ما لم تمتلئ قلوبكم بالحلم..

قلنا: ما الحلم؟

قال: هو الطّمأنينة عند سورة الغضب..

قلنا: ما أصعب هذا.. فكيف يملك أحدنا غضبه، وقد ركب فيه تركيبا.. فلا يكاد ينفك عنه؟

قال: من لم يملك جمرة غضبه أحرقته.. ألم تسمعوا بأن الغضب جمرة من النار؟

قلنا: لا.. كيف ذلك؟

قال[1]: لقد ذكر العارفون بالله مرشدو السالكين إلى طريق الله أن الغضب شعلة نار اقتبست من نار الله الموقدة التي تطلع على الأفئدة.. وذكروا أنها مستكنة في طي الفؤاد استكنان الجمر تحت الرماد، وإنما يستخرجها الكبر الدفين في قلب كل جبار عنيد، كاستخراج الحجر النار من الحديد.

وقد انكشف للناظرين بنور اليقين، أن الإنسان ينزع منه عرق إلى الشيطان اللعين، فمن استفزته نار الغضب فقد قويت فيه قرابة الشيطان حيث قال :﴿ أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ خَلَقْتَنِي مِنْ نَارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ (12)﴾ (الأعراف)، ذلك أن شأن الطين السكون والوقار، وشأن النار التلظي والاستعار، والحركة والاضطراب.

قلنا: وعينا هذا.. فما موقد هذه النيران الحارقة لحقيقة الإنسان، المقربة له من جنس الشيطان؟

قال: لقد روي في الأخبار أن نبي الله يحيى سأل المسيح - عليهما السلام -: أي شيء أشد؟ قال: غضب الله، قال: فما يقرب من غضب الله؟ قال أن تغضب، قال: فما يبدي الغضب وما ينبته؟

[1] انظر: إحياء علوم الدين.

قال عيسى: (الكبر والفخر والتعزز والحمية)

هـذا مـا أجـاب بـه المسـيح.. وقـد ذكـر مرشـدو السـالكين بالإضافة إلى ذلك الزهو والعجب والمزاح والهزل والهـزء والتعيـير والممـاراة والمضـادة والغـدر وشـدة الحـرص على فضـول المـال والجاه، وهي جميعا أخلاق رديئة مذمومة شرعاً.

قلنا: عرفنا العلة.. فما علاجها؟

قال: من عرف العلة سهل عليه علاجها.

قلنا: كيف ذلك؟

قال: لقد ذكر المرشدون أن العلل تداوى بأضدادها.. فـالزهو يعالج بالتواضـع.. والعجب يعـالج بمعرفـة النفس.. والمـزاح يعـالج بالتشاغل بالمهمات الدينية الـتي تسـتوعب العمـر وتفضـل عنـه.. والهزء يعالج بالتكرم عن إيذاء النـاس، وبصـيانة النفس.. والتعيـير يعالج بالحذر عن القول القـبيح وصـيانة النفس عن مـر الجـواب.. وشدة الحرص تعالج بالقناعة بقدر الضـرورة طلبـاً لعـز الاسـتغناء وترفعاً عن ذل الحاجة.

وكل خلق من هذه الأخلاق وصفة من هذه الصفات يفتقر في علاجـه إلى رياضـة وتحمـل مشـقة، وحاصـل رياضـتها يرجـع إلى معرفة غوائلها لترغب النفس عنها وتنفر عن قبحهـا، ثم المواظبـة على مباشرة أضدادها مدة مديدة حتى تصير بالعادة مألوفـة هينـة على النفس، فإذا انمحت عن النفس فقد زكت وتطهرت عن هذه الرذائل وتخلصت أيضاً عن الغضب الذي يتولد منها.

قال رجل منا: اسمح لي أن أذكر لك بأني – بحمد الله ومنته- ليس لدي من أسباب الغضب جميع مـا ذكـرت.. ولكـني مـع ذلـك أجدني أغضب أحيانا غضبا شديدا.. ولست أدري ما سبب ذلك؟

قال المكي: لعلك سمعت من يعتبر الغضب شجاعة ورجولية وعزة نفس وكبر همة.. وسمعت من يلقب من حاله هذه بالألقاب المحمودة.

قال الرجل: نعم.. فأنا قد ولدت في قوم ممتلئين أنفة وحمية.. وهم ينعتون كل من لم يكن حاله كذلك بالضعة والذل والمهانة..

قال المكي: لقد أخطأ قومك في هذا.. فتسمية الغضب وما ينتج عنه عزة نفس وشجاعة جهل، بل هو مرض قلب ونقصان عقل، وهو لضعف النفس ونقصانها، وآية أنه لضعف النفس أن المريض أسرع غضباً من الصحيح، والمرأة أسرع غضباً من الرجل، والصبي أسرع غضباً من الرجل الكبير، والشيخ الضعيف أسرع غضباً من الكهل، وذو الخلق السيئ والرذائل القبيحة أسرع غضباً من صاحب الفضائل.. فالرذل يغضب لشهوته إذا فاتته اللقمة، ولبخله إذا فاتته الحبة، حتى أنه يغضب على أهله وولده وأصحابه.. بل القوي من يملك نفسه عند الغضب كما قال رسول الله ﷺ: (ليس الشديد بالصرعة إنما الشديد الذي يملك نفسه عند الغضب) [1]

قال الرجل: فما علاج من هذا حاله؟

قال المكي: علاجه بمضادة سببه.

قال الرجل: كيف ذلك؟

قال المكي: ألم يكن قومك يذكرون شدة غضب الأكابر في معرض المدح بالشجاعة؟

قال الرجل: بلى.. ذلك صحيحا، وقد كنا نمتلئ بهم إعجابا لذلك.

قال المكي: فلذلك يعالج هذا الحال بعكس ذلك.. وذلك بأن تتلى حكايات أهل الحلم والعفو وما استحسن منهم من كظم الغيظ، فإن ذلك منقول عن الأنبياء والأولياء والحكماء والعلماء وأكابر الملوك الفضلاء، وضد ذلك منقول عن الجهلة والأغبياء الذين لا عقول لهم ولا فضل فيهم.

قال الرجل: فهلا حكيت لنا من ذلك ما يخمد نيران الغضب

---
[1] رواه البخاري ومسلم.

في قلوبنا.

قال المكي: لـك ذلـك.. وأولهم رسـول اللـه أشـرف خلـق الله.. وقد روي في أخبار حلمه ما لا تطيقه الرجال:

لقد تمكن ﷺ من أعدائـه الـذين صـبوا عليـه وأصـحابه جميـع أنـواع العـذاب، وسـلبوا أمـوالهم، وديـارهم، وأجلـوهم عن بلادهم، لكنه ﷺ قابل كل تلك الإساءات بـالعفو والصـفح والحلم قـائلاً: (يـا معشر قريش، ما ترون أني فاعـل بكم؟)، قـالوا: خـيرًا، أخ كـريم وابن أخ كريم، فقال ﷺ:(اذهبوا فأنتم الطلقاء)

لقد أنزل الله عليه: وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُمْ بِـهِ وَلَئِنْ صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِلصَّـابِرِينَ (النحـل:126)، فاختـار أن يعفـو عنهم ويصبر على مـا كـان منهم، وأن لا يعـاقب فقـال: (نصـبر ولا نعاقب)

حدث جابر أنه غزا مع رسول الله ﷺ، فلما قفل معه أدركتهم القائلة في في واد كثير العضاة فنزل رسول الله ﷺ وتفرق الناس يستظلون بالشجر، ونزل رسول الله ﷺ تحت سمرة فعلق سيفه، ونمنا نومة، فإذارسول الله ﷺ يدعونا، وإذا عنـده أعـرابي، فقـال: (إن هذا اخترط علي سيفي، وأنا نـائم، فاسـتيقظت وهـو في يـده فقال: من يمنعك مني؟) فقلت: الله ثلاثا، ولم يعاقبه وجلس[1].

وعن جابر أن رسول الله ﷺ جعل يقبض يوم حنين من فضـة في ثوب بلال، ويفرقها، فقال له رجل: يا رسول الله أعدل، فقال: (ويحك، من يعدل إذا أنا لم أعـدل؟ قـد خبت وخسـرت إن كنت لا أعدل) فقال عمر: ألا أضرب عنقه فإنه منافق؟ فقال: (معـاذ اللـه أن يتحدث أني أقتل أصحابي)[2]

وعن عبد الله بن مسعود قال: لما كان يوم حنين آثر رسـول الله ﷺ ناسا في القسمة ليؤلفهم، فأعطى الأقرع بن حابس مائـة من الإبـل، وأعطى ناسـا من أشـراف العـرب، وآثـرهم يومئـذ في

1() رواه البخاري.

2() رواه أبو الشيخ، وابن حبان.

القسمة، فقال رجل: إن هذه لقسمة ما عدل فيها، وما أريد بها وجه الله تعالى، قال: فقلت: والله لأخبرن رسول الله ﷺ فأتيته، فأخبرته بما قال، فتغير وجهه حتى كان كالصرف، ثم قال: (فمن يعدل إن لم يعدل الله ورسوله؟ ثم قال: (يرحم الله موسى ﵇، قد أوذي بأكثر من هذا فصبر)(1)

وعن عبد الله بن سلام: أن زيد بن سعية ــ وهو أحد علماء أهل الكتاب من اليهود ـ قال: إنه لم يبق من علامات النبوة شئ إلا وقد عرفتها في وجه محمد ﷺ حين نظرت إليه، إلا اثنتين لم أخبرهما منه: أن يسبق حلمه جهله، ولا تزيده شدة الجهل عليه إلا حلما، فكنت أتلطف له لأن أخالطه فأعرف حلمه، فابتعت منه تمرا معلوما إلى أجل معلوم، وأعطيته الثمن، فلما كان قبل محل الأجل بيومين أو ثلاثة، أتيته، فأخذت بجامع قميصه وردائه، ونظرت إليه بوجه غليظ، فقلت: يا محمد ألا تقضيني حقي؟ فوالله إنكم يا بني عبد المطلب لمطل، وقد كان لي بمخالطتكم علم، فقال عمر: أي عدو الله، أتقول لرسول الله ﷺ ما أسمع؟ فوالله لولا ما أحاذر فوته لضربت بسيفي رأسك، ورسول الله ﷺ ينظر إلى عمر في سكون، وتؤدة، وتبسم، ثم قال: (أنا وهو كنا أحوج إلى غير هذا منك يا عمر، تأمرني بحسن الأداء، وتأمره بحسن التباعة، اذهب يا عمر فاقضه حقه، وزده عشرين صاعا، مكان ما رعته)، ففعل عمر، فقلت: يا عمر، كل علامات النبوة قد عرفتها في وجه رسول الله ﷺ إلا اثنتين لم أخبر هما منه، يسبق حلمه جهله، ولا تزيده شدة الجهل عليه إلا حلما، فقد خبرتهما، فأشهدك أني رضيت بالله تعالى ربا، وبالإسلام دينا، وبمحمد ﷺ نبيا(2).

وعن عائشة قالت: ابتاع رسول الله ﷺ جزورا من أعرابي بوسق من تمر الذخيرة، فجاء منزله، فالتمس التمر، فلم يجده، فخرج إلى الأعرابي فقال: (عبد الله، إنا قد ابتعنا منك جزورك هذا بوسق، من تمر الذخيرة، ونحن نرى أن عندنا، فلم نجده)

1() رواه مسلم.

2() رواه ابن حبان، والحاكم.

فقـال: الأعـرابي: واغـدراه واغـدراه، فـوكزه النـاس وقـالوا: إلى رسول الله ﷺ تقول هذا؟ فقال: (دعوه، فإن لصاحب الحق مقالا) فردد ذلك رسول الله ﷺ مرتين أو ثلاثا، فلما رآه لا يفقه عنه قـال لرجل من أصحابه: (اذهب إلى خولة بنت حكيم بن أمية فقـل لهـا رسول الله ﷺ يقول لـك إن كـان عنـدك وسـق من تمـر الـذخيرة فسلفينا حتى نؤديه إليك إن شاء الله تعالى) فذهب إليهـا الرجـل، ثم رجـع قـال: قـالت: نعم هـو عنـدنا يـا رسـول اللـه، فـابعث من يقبضـه، فقـال رسـول اللـه ﷺ للرجـل: (اذهب فأوفـه الـذي لـه) فذهب، فأوفاه الذي له، قال فمر الأعرابي برسـول اللـه ﷺ، وهـو جالس في أصحابه، فقال: جزاك الله خـيرا، فقـد أوفيت وأطيبت، فقال رسول الله ﷺ: (أولئك خيار الناس الموفون المطيبون)(1)

وعنها قالت لرسول اللّه : يا رسول اللّه! هل أتى عليك يوم كان أشدّ من يوم أحد؟. فقال: (لقد لقيت من قومك. وكـان أشـدّ ما لقيت منهم يوم العقبة إذ عرضت نفسي على ابن عبد ياليل بن عبـد كلال فلم يجبـني إلى مـا أردت فـانطلقت وأنـا مهمـوم على وجهي فلم أسـتفق إلّا بقـرن الثّعـالب، فـرفعت رأسـي- فـإذا أنـا بسحابة قد أظلّتني، فنظرت فإذا فيها جبريل، فنـاداني، فقـال: إنّ اللّه- عزّ وجلّ- قد سمع قول قومك لك وما ردّوا عليك، وقــد بعث إليك ملك الجبال، لتأمره بمـا شـئت فيهم، فنـاداني ملـك الجبـال، فسلّم عليّ، ثمّ قال: يا محمّد! إنّ اللّه قد سمع قـول قومـك لـك، وأنا ملك الجبال، وقد بعثني ربّك إليك لتأمرني بأمرك، فما شئت؟ إن شئت أن أطبق عليهم الأخشبين. فقال له رسول اللّـه : (بـل أرجو أن يخرج اللّه من أصلابهم من يعبد اللّـه وحـده لا يشـرك بـه شيئا)(2)

عن أنس قـال: كنت أمشـى مـع رسـول اللـه وعليْـه بُـرُدٌ نجـرانىّ غليـظ الحاشـية، فأدركـه أعـرابىّ فجذبـه بردائـه جذبـة شديدة، فنظرتُ إلى صفحة عنق رسول الله وقد أثَّر بها حاشية الرَّداء من شدَّة الجذبة، ثم قـال: يـا محمـد مُـرْ لى من مـال اللـه

1() رواه أحمد، وأبو الشيخ.

2() رواه مسلم.

الذى عندك، فالْتَفتَ إليه فضحك، ثم أمر له بعطاء[1].

وعن أبي هريرة أن رجلا أتى رسول الله ﷺ يتقاضاه فأغلظ له، فهم به أصحابه، فقال رسول الله ﷺ:(دعوه فإن لصاحب الحق مقالا، ثم قال: اعطوه شيئا مثل سنة)، فقالوا: يا رسول الله، لا نجد إلا أفضل من سنه، قال: (اعطوها، وخيركم أحسنكم قضاء)[2]

وعن أنس أن يهودية أتت رسول الله ﷺ بشاة مسمومة، فأكل منها فجئ بها، فقيل: ألا تقتلها فقال: (لا)[3]

وعن عبد الله بن عبيد أن رسول الله ﷺ لما كسرت رباعيته، وشج وجهه يوم أحد شق ذلك على أصحابه، وقالوا: لو دعوت عليهم، فقال رسول الله ﷺ: (إني لم أبعث لعانا، ولكن بعثت داعيا ورحمة، اللهم اهد قومي، فإنهم لا يعلمون)[4]

قال الرجل: وعينا هذا.. فحدثنا عن حلم الورثة.

قال: لقد أخبر عن الورثة وما يجنونه من حلمهم وسعة صدرهم، فقال: (إذا جمع الخلائق نادى مناد: أين أهل الفضل؟ قال: فيقوم ناس وهم يسير، فينطلقون سراعاً إلى الجنة، فتتلقّاهمً الملائكة فيقولون: إنا نراكم سراعاً إلى الجنة فمن أنتم؟ فيقولون: نحن أهل الفضل. فيقولون: ما فضلكم؟ فيقولون: كنا إذا ظُلِمْنا صبرنا، وإذا أُسئَ إلينا حَلُمْنا. فيقال لهم: ادخلوا الجنة فنعم أجر العاملين)[5]

وقال يوسف بن أسباط: علامة حسن الخلق عشر خصال؛

1() رواه البخارى ومسلم.

2() رواه البخاري ومسلم.

3() رواه البخاري.

4() رواه البيهقي في شعب الإيمان، مرسلا، ورواه موصولا عن سهل بن سعد مختصرا: (اللهم: اغفر لقومي، فإنهم لا يعلمون)

5() رواه الأصبهانى، وابن المنذر.

قلة الحلاف، وحسن الإنصاف، وترك طلب العثرات، وتحسين ما يبدو من السيئات، والتماس المعذرة، واحتمال الأذى، والرجوع بالملامة على النفس والتفرد بمعرفة عيوب نفسه دون عيوب غيره، وطلاقة الوجه للصغير والكبير، ولطف الكلام لمن دونه ولمن فوقه.

وسئل سهل عن حسن الخلق فقال: أدناه احتمال الأذى وترك المكافأة والرحمة للظالم والاستغفار له والشفقة عليه.

روي أن إبراهيم بن أدهم خرج يوماً إلى بعض البراري فاستقبله رجل جندي فقال: أنت عبد؟ قال: نعم، فقال له: أين العمران؟ فأشار إلى المقبرة، فقال الجندي: إنما أردت العمران؟ فقال: هو المقبرة، فغاظه ذلك فضرب رأسه بالسوط فشجه ورده إلى البلد فاستقبله أصحابه فقالوا: ما الخبر؟ فأخبرهم الجندي ما قال له فقالوا، هذا إبراهيم بن أدهم! فنزل الجندي عن فرسه وقبل يديه ورجليه وجعل يعتذر إليه، فقيل بعد ذلك له: لم قلت له أنا عبد؟ فقال: إنه لم يسألني: عبد من أنت بل قال: أنت عبد؟ فقلت: نعم، لأني عبد الله، فلما ضرب رأسي سألت الله له الجنة، قيل: كيف وقد ظلمك؟ فقال: علمت أنني أؤجر على ما نالني منه فلم أرد أن يكون نصيبي منه الخير ونصيبه مني الشر.

ودعى أبو عثمان الحيري إلى دعوة - وكان الداعي قد أراد تجربته - فلما بلغ منزله قال له: ليس لي وجه، فرجع أبو عثمان فلما ذهب غير بعيد، دعاه ثانياً فقال له: يا أستاذ ارجع فرجع أبو عثمان، فقال له مثل مقالته الأولى فرجع، ثم دعاه الثالثة وقال: ارجع على ما يوجب الوقت فرجع، فلما بلغ الباب فإن له مثل مقالته الأولى فرجع أبو عثمان، ثم جاءه الرابعة فرده حتى عامله بذلك مرات وأبو عثمان لا يتغير من ذلك، فأكب على رجليه وقال له: يا أستاذ إنما أردت أن أختبرك فما أحسن خلقك! فقال: إن الذي رأيت مني هو خلق الكلب، إن الكلب إذا دعي أجاب وإذا زجر انزجر.

وروي عنه - أيضاً - أنه اجتاز يوماً في سكة فطرحت عليه إجانة رماد فنزل عن دابته فسجد سجدة الشكر، ثم جعل ينفض

الرماد عن ثيابه ولم يقل شيئاً، فقيل: ألا زبرتهم، فقال: إن من استحق النار فصولح على الرماد لم يجز له أن يغضب.

وروي أن أبا عبد الله الخياط كان يجلس على دكانه، وكان له حريف مجوسي يستعمله في الخياطة، فكان إذا خاط له شيئاً حمل إليه دراهم زائفة، فكان أبو عبد الله يأخذ منه ولا يخبره بذلك ولا يردها عليه، فاتفق يوماً أن أبا عبد الله قام لبعض حاجته، فأتى المجوسي فلم يجده فدفع إلى تلميذه الأجرة واسترجع ما قد خاطه فكان درهماً زائفاً، فلما نظر إليه التلميذ عرف أنه زائف فرده عليه، فلما عاد أبو عبد الله أخبره بذلك فقال: بئس ما عملت هذا المجوسي يعاملني بهذه المعاملة منذ سنة وأنا أصبر عليه وآخذ الدراهم منه وألقيها في البئر لئلا يغر بها مسلماً.

وقيل للأحنف بن قيس: ممن تعلمت الحلم! فقال: من قيس بن عاصم، قيل ما وبلغ من حلمه؟ قال: بينما هو جالس في داره إذ أتته جارية له بسفود عليه شواء فسقط من يدها فوقع على ابن له صغير فمات، فدهشت الجارية فقال لها: لا روع عليك أنت حرة لوجه الله تعالى.

وروي أن أويساً القرني كان إذا رآه الصبيان يرمونه بالحجارة، فكان يقول لهم: يا إخوتاه إن كان ولا بد فارموني بالصغار حتى لا تدموا ساقي فتمنعوني عن الصلاة.

وشتم رجل الأحنف بن قيس وهو لا يجيبه وكان يتبعه فلما قرب من الحي وقف وقال: إن كان قد بقي في نفسك شيء فقله كي لا يسمعك بعض سفهاء الحي فيؤذوك.

وروي أن علياً دعا غلاماً فلم يجبه فدعاه ثانياً وثالثاً فلم يجبه. فقام إليه فرآه مضطجعاً فقال: أما تسمع يا غلام؟ قال: بلى، قال: فما حملك على ترك إجابتي؟ قال: أمنت عقوبتك فتكاسلت، فقال: امض فأنت حر لوجه الله تعالى.

وقالت امرأة لمالك بن دينار: يا مرائي، فقال: يا هذه وجدت اسمي الذي أضله أهل البصرة.

وكـان ليحـيى بن زيـاد الحـارثي غلام سـوء فقيـل لـه: لم تمسكه؟ فقال: لأتعلم الحلم عليه.

وروي أن سارقاً دخل خباء عمار بن ياسـر بصـفين فقيـل لـه اقطعه فإنه من أعدائنا، فقال بل أستر عليه لعـل اللـه يسـتر علي يوم القيامة.

وجلس ابن مسعود في السوق يبتـاع طعامـاً فابتـاع ثم طلب الدراهم وكانت في عمامته فوجـدها قـد حلت فقـال لقـد جلسـت وإنها لمعي، فجعلوا يدعون على من أخذها ويقولـون: اللهم اقطـع يد السارق الذي أخذها اللهم افعل به كذا، فقـال عبـد اللـه: اللهم إن كان حمله على أخذها فبارك لـه فيهـا وإن كـان حملتـه جـراءة على الذنب فاجعله آخر ذنوبه.

وقـال الفضـيل: مـا رأيت أزهـد من رجـل من أهـل خراسـان جلس إلي في المسجد الحـرام ثم قـام ليطـوف فسـرقت دنـانير كانت معه فجعل يبكي فقلت أعلى الدنانير تبكي؟ فقال: لا. ولكن مثلتني وإياه بين يدي الله عـز وجـل فأشـرف عقلي على إدحـاض حجته فبكائي رحمة له؟

***

بقينـــا مـــدة في صـــحبة أبي طـــالب المكي يعلمنـــا الحلم وأسراره، ويذكر لنا من أخبار أهله ما تتشوف له نفوسنا.. وبعد أن اختبرنـا بعض الاختبـارات، ورأى نجاحنـا فيهـا أجازنـا فيـه وفي علومـه.. ثم أمرنـا بالسـير إلى القسـم الثـالث من أقسـام تلـك المدرسة.

3 ـ الألفة

سرنا إلى القسم الثـالث، وكـان إمامـه إمـام من أئمـة العلم والصلاح.. وكان يعرف بين الجميع بـ (شمس الأئمة)، وكـان - كمـا ذكر لي - من نسل العلامة الجليل محمد بن أحمد السرخسي[1]..

[1] () أشير به إلى العلامة محمد بن أحمد السرخسي (ت 490 هـ)، وهو محمد بن أحمـد بن أبي سهل، أبو بكر السَّرخسـي، الملقب بــ (شـمس الأئمـة)، كـان من كبـار فقهـاء الحنفيـة، أصولياً، مناظراً، من المجتهدين في المسائل.. صنّف كتبا كثـيرة مهمـة منهـا: شـرح (الجـامع

بمجرد أن دخلنا علينا قرأ علينا قوله تعالى: وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعاً وَلا تَفَرَّقُوا وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْداءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْواناً وَكُنْتُمْ عَلى شَفا حُفْرَةٍ مِنَ النَّارِ فَأَنْقَذَكُمْ مِنْها كَذلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آياتِهِ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ (103) (آل عمران)، وقوله تعالى : وَإِنْ يُرِيدُوا أَنْ يَخْدَعُوكَ فَإِنَّ حَسْبَكَ اللَّهُ هُوَ الَّذِي أَيَّدَكَ بِنَصْرِهِ وَبِالْمُؤْمِنِينَ (62) وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ لَوْ أَنْفَقْتَ ما فِي الْأَرْضِ جَمِيعاً ما أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلكِنَّ اللَّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ إِنَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ (63) (الأنفال)

ثم قرأ علينا قوله :(المؤمن مؤلّف، ولا خير فيمن لا يألف ولا يؤلف)[1]، وفي رواية: (المؤمن مألفة ولا خير فيمن لا يألف ولا يؤلف)، وفي أخرى:(المؤمن مألف مألوف حيي ولا خير فيمن لا يألف ولا يؤلف، وخير الناس أنفعهم للناس)[2]

وقوله : (إنّ أحبّكم إليّ أحاسنكم أخلاقا، الموطّئون أكنافا[3]، الّذين يألفون ويؤلفون، وإنّ أبغضكم إليّ المشّاءون بالنّميمة المفرّقون بين الأحبّة الملتمسون للبراء العيب[4])[5]

وقوله: (مثل المؤمنين في توادهم وتراحمهم وتعاطفهم مثل الجسد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى)[6]

الكبير)، وكتاب في الأُصول، وشرح مختصر الطحاوي، والنكت وهو شرح لزيادات الزيادات للشيباني.. وأملى (المبسوط) في الفقه، وهو محبوس في أوزجند بفرغانة.. وكان سبب سجنه كلمة نصح بها الخاقان.. ولما أطلق سكن فرغانة إلى أن توفي بها (انظر: الجواهر المضية 2/28)

[1] رواه أحمد.

[2] هذه الرواية رواها الديلمي في الفردوس.

[3] الموطئون أكنافا: الأكناف جمع كنف وهو الجانب والمراد الذين يلين جانبهم لإخوانهم.

[4] الملتمسون للبراء العيب: أي الذين يتهمون الأبرياء بعيوب ليست فيهم.

[5] رواه الطبراني في الصغير والأوسط والبزار.

[6] رواه البخاري ومسلم.

وقوله: (المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضا)(7)

وقوله: (ما أدخل رجل على مؤمن سروراً إلا خلق الله عز وجل من ذلك السرور مَلَكاً يعبد الله عز وجل ويوحَّده، فإذا صار العبد فى قبره أبتاه ذلك السرور فيقول: أما تعرفنى؟ فيقول له: مَن أنت؟ فيقول: أنا السرور الذي أدخلتنى على فلان، أنا اليوم أونس وَحْشتك، وأُلقِّنك حُجَّتَك، وأُثَبِّتك بالقول الثابت، وأُشهدك مشاهدك يوم القيامة، وأشفع لك إلى ربك، وأُريك منزلك من الجنة)(2)

سألناه عن المعاني التي تشير إليها هذه النصوص المقدسة، فقال: هذه النصوص تشير إلى خلق من أخلاق اللين التي دعا إليها الإسلام.. بل وضع منظومة من التشريعات لتخدمها.

ومن ذلك ما ورد في الحديث من قوله :(والذي نفسي بيده لا تدخلوا الجنة حتى تؤمنوا، ولا تؤمنوا حتى تحابوا، أولا أدلكم على شيء إذا فعلتموه تحاببتم؟ أفشوا السلام بينكم) (3)

ومن ذلك ما ورد في موعظة لقمان عليه السلام من قوله لابنه : وَلا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحاً إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ (لقمان:18)

ومن ذلك ما ورد في القرآن الكريم من التنبيه إلى كثير من أصول الآداب الاجتماعية، كآداب الاستئذان، كما في قوله تعالى : وَإِذَا بَلَغَ الْأَطْفَالُ مِنْكُمُ الْحُلُمَ فَلْيَسْتَأْذِنُوا كَمَا اسْتَأْذَنَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ (النور:59)

أو آداب الزيارة كما في قوله تعالى : لَيْسَ عَلَى الْأَعْمَى حَرَجٌ وَلا عَلَى الْأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلا عَلَى الْمَرِيضِ حَرَجٌ وَلا عَلَى أَنْفُسِكُمْ أَنْ تَأْكُلُوا مِنْ بُيُوتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ آبَائِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أُمَّهَاتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ إِخْوَانِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَخَوَاتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَعْمَامِكُمْ أَوْ بُيُوتِ

7() رواه البخاري ومسلم.

2() رواه ابن أبى الدنيا، وأبو الشيخ.

3() رواه مسلم.

عَمَّاتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَخْوَالِكُمْ أَوْ بُيُوتِ خَالاتِكُمْ أَوْ مَا مَلَكْتُمْ مَفَاتِحَــهُ أَوْ صَدِيقِكُمْ لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَأْكُلُوا جَمِيعــاً أَوْ أَشْــتَاتاً فَــإِذَا دَخَلْتُمْ بُيُوتاً فَسَلِّمُوا عَلَى أَنْفُسِكُمْ تَحِيَّةً مِنْ عِنْدِ اللَّهِ مُبَارَكَةً طَيِّبَــةً كَـذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الْآياتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ (النور:61)

أو آداب المجالس، كما في قوله تعالى : يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُــوا إِذَا قِيلَ لَكُمْ تَفَسَّحُوا فِي الْمَجَالِسِ فَافْسَـحُوا يَفْسَـحِ اللَّهُ لَكُمْ وَإِذَا قِيـلَ انْشُـزُوا فَانْشُـزُوا يَرْفَـعِ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُـوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُـوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ (المجادلة:11)

أو آداب الكلام، كما في قولـه تعـالى : وَاقْصِـدْ فِي مَشْـيِكَ وَاغْضُضْ مِنْ صَوْتِكَ إِنَّ أَنْكَرَ الْأَصْوَاتِ لَصَـوْتُ الْحَمِـيرِ (لقمـان: 19)، وقوله تعالى : يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَرْفَعُـوا أَصْـوَاتَكُمْ فَـوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ وَلا تَجْهَرُوا لَهُ بِالْقَوْلِ كَجَهْـرِ بَعْضِـكُمْ لِبَعْضٍ أَنْ تَحْبَـطَ أَعْمَالُكُمْ وَأَنْتُمْ لا تَشْعُرُونَ (الحجرات:2)

أو آداب التحيــة، كمــا في قولــه تعــالى : وَإِذَا حُيِّيتُمْ بِتَحِيَّةٍ فَحَيُّوا بِأَحْسَنَ مِنْهَا أَوْ رُدُّوهَا إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَى كُلِّ شَـيْءٍ حَسِـيباً (النساء:86)

أو آداب المشي، كما في قوله تعالى : وَلا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحاً إِنَّكَ لَنْ تَخْرِقَ الْأَرْضَ وَلَنْ تَبْلُغَ الْجِبَالَ طُولاً (الاسراء:37)

أو آداب التعامل مع مختلف أصناف الناس بما يناسـبهم، كمـا في قوله تعالى : لا تَجْعَلُوا دُعَـاءَ الرَّسُـولِ بَيْنَكُمْ كَـدُعَاءِ بَعْضِـكُمْ بَعْضاً (النور:63)

وقد كان يعلم أصـحابه أصـول هـذه الآداب وفروعهـا، وقـد قـال لهم مـرة:(إنكم قـادمون على إخـوانكم، فأحسِـنوا لباسَـكم، وأصلحوا رِحالكم، حتى تكون كأنكم شامَةٌ في الناس، فـإنَّ اللـه لا يُحبُّ الفُحشَ ولا التَفَحُّشَ)[1]، والنصوص والأمثلة على ذلك كثيرة تفيض بها كتب السنة.

بالإضـافة إلى هـذا.. فقـد **حمي التـآلف الاجتمـاعي من**

---

[1] () رواه أبو داود وأحمد والحاكم.

كل المنغصات التي قد تؤثر في العلاقات الاجتماعية، ومن ذلك ما نص عليه قوله تعالى : يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا إِنْ جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوا أَنْ تُصِيبُوا قَوْمًا بِجَهَالَةٍ فَتُصْبِحُوا عَلَى مَا فَعَلْتُمْ نَادِمِينَ (6) وَاعْلَمُوا أَنَّ فِيكُمْ رَسُولَ اللَّهِ لَوْ يُطِيعُكُمْ فِي كَثِيرٍ مِنَ الْأَمْرِ لَعَنِتُّمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ الْإِيمَانَ وَزَيَّنَهُ فِي قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ الْكُفْرَ وَالْفُسُوقَ وَالْعِصْيَانَ أُولَئِكَ هُمُ الرَّاشِدُونَ (7) فَضْلًا مِنَ اللَّهِ وَنِعْمَةً وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ (8) وَإِنْ طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا فَإِنْ بَغَتْ إِحْدَاهُمَا عَلَى الْأُخْرَى فَقَاتِلُوا الَّتِي تَبْغِي حَتَّى تَفِيءَ إِلَى أَمْرِ اللَّهِ فَإِنْ فَاءَتْ فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا بِالْعَدْلِ وَأَقْسِطُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ (9) إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ (10) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا لَا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِنْ قَوْمٍ عَسَى أَنْ يَكُونُوا خَيْرًا مِنْهُمْ وَلَا نِسَاءٌ مِنْ نِسَاءٍ عَسَى أَنْ يَكُنَّ خَيْرًا مِنْهُنَّ وَلَا تَلْمِزُوا أَنْفُسَكُمْ وَلَا تَنَابَزُوا بِالْأَلْقَابِ بِئْسَ الِاسْمُ الْفُسُوقُ بَعْدَ الْإِيمَانِ وَمَنْ لَمْ يَتُبْ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ (11) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا اجْتَنِبُوا كَثِيرًا مِنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ وَلَا تَجَسَّسُوا وَلَا يَغْتَبْ بَعْضُكُمْ بَعْضًا أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَنْ يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ رَحِيمٌ (12) يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ (13) (الحجرات)

وكان رسول الله يدرك أن بقاء هذه المة رهين بتآلف القلوب التي التقت على الحب في الله، وأن حتفها في تناحر قلوبها لذلك كان يحذر من أن يذر الخلاف قرنه فيقول: (الا تختلفوا فتختلف قلوبكم)[1]

وكان يجتث بذرة الخلاف قبل أن تتنامى.. فعن عبدالله بن عمر قال : هجّرت إلى رسول الله يوما فسمع أصوات رجلين اختلفا في آية، فخرج رسول الله يعرف في وجهه الغضب فقال : (إنما هلك من كان قبلكم باختلافهم في الكتاب)[2]

1() رواه البخاري.

2() رواه مسلم.

وعن النزال بن سبرة قال: سمعت عبدالله بن مسعود قال سمعت رجلا قرأ آية سمعت من رسول الله خلافها فأخذت بيده فأتيت به رسول الله فقال : (كلاهما محسن)، قال شعبة: أظنه قال : لا تختلفوا فإن من قبلكم اختلفوا فهلكوا)[1]

***

بقينا مدة في صحبة شمس الأئمة يعلمنا الألفة وأسرارها، ويذكر لنا من أخبار أهلها ما تتشوف له نفوسنا.. وبعد أن اختبرنا بعض الاختبارات، ورأى نجاحنا فيها أجازنا فيها وفي علومها.. ثم أمرنا بالسير إلى القسم الرابع من أقسام تلك المدرسة.

4 ـ الكرم

سرنا إلى القسم السابع، وكان إمامه من أئمة العلم والصلاح والكرم.. وكان أهل هذا القسم يطلقون عليه اسم (علي بن أحمد الكوفي)[2]، ولست أدري سر ذلك.. هل هو اسمه حقيقة.. أم أنهم يطلقون عليه ذلك لعلاقة بينه وبين سميه علي بن أحمد الكوفي عالم الأخلاق الكبير.

عندما دخلنا عليه سمعناه يقرأ لبعض تلاميذه الذين اجتمعوا إليه قوله : (إنّ اللّه كريم يحبّ الكرم، ويحبّ معالي الأخلاق، ويكره سفسافها[3])[4]

وحدثهم عن جرير بن عبد اللّه قال: لمّا بعث النّبيّ ، أتيته،

---

[1] رواه البخاري.

[2] أشير به إلى العلامة الجليل علي بن أحمد الكوفي (توفي 352هـ) كان عالماً في العديد من العلوم كالفقه، والأصول، والكلام. من مؤلفاته (الأنبياء)، و(مختصر الإمامة)، و(الرد على أرسطوطاليس)، و(معرفة وجوه الحكمة)، وله في الأخلاق كتابان؛ هما: الآداب، ومكارم الأخلاق، بالإضافة إلى كتابه الآنف الذكر (معرفة وجوه الحكمة) .. وقد عرّف السيد الصدر طريقته في كتاب (مكارم الأخلاق) أنه يذكر الأخلاق الحسنة والصفات الذميمة، ويبتدئ كل خصلة بالأخبار المروية عن النبي ﷺ وأهل بيته، ثم كلمات الحكماء، ويختم الحديث بذكر الأشعار التي عُنيت بها..

[3] السّفساف: الأمر الحقير والرديء من كل شيء، وهو ضد المعالي والمكارم، وأصله ما يطير من غبار الدقيق إذا نخل، والتراب إذا أثير.

[4] رواه الحاكم واللفظ له وقال: صحيح الإسناد، ورواه الطبراني في الكبير.

فقال: (يا جرير! لأيّ شيء جئت؟) قال: جئت لأسلم على يديك، يا رسول اللّه! قال: فألقى إليّ كساءه ثمّ أقبل على أصحابه، وقـال: (إذا جاءكم كريم قوم فأكرموه)، وقال: وكان لا يراني بعد ذلـك إلّا تبسّم في وجهي[1].

بعد أن روى هذا وغيره سألناه عما تدعو إليه هـذه النصـوص المقدسة، فقال: إنهـا تـدعو إلى خلـق من الأخلاق العظيمـة الـتي يتميز بهـا الصـاعدون عن الهـابطين.. والمؤمنـون المـترفعون من القاعدين المتثاقلين.

قلنا: ما أعظم هذا الخلق.. فما هو؟

قـال: إنـه الكـرم[2].. فـالكريم هـو الـذي آمن بـأن اللـه هـو الرزاق ذو القـوة المـتين، وذو الجـود العظيم.. فـدعاه إيمانـه إلى التخلق بأخلاق الله، والثقة في فضله.

قلنا: فدلنا على السبيل إليها، فإنا نجد في نفوسنا من البخـل ما يحول بيننا وبينها.

قال: أول السبل إليه وأعظمها هو العرفان، فمن عـرف اللـه وأحبه وتخلل الحب جميع وجدانه، فإنه لا محالة سيدعوه حبـه إلى التشبه بحبيبه الذي امتلأ قلبه بحبه.. فالله هو الكريم الّذي إذا قدر عفا، وإذا وعد وفى، وإذا أعطى زاد على منتهى الرّجاء، ولا يبـالي كم أعطى ولمن أعطى، وإن رفعت حاجـة إلى غـيره لا يرضـى، وإذا جفي عاتب، ولا يضيع من لاذبه والتجأ، بل يغنيه عن الوسـائط والشّفعاء.

قلنا: وعينا هذا.. فما غيره؟

قـال: حب العظيم الـذي شـهد لعظمتـه وسـمو أخلاقـه كـل شيء.. بدأ من ربه سبحانه الذي قال يخاطبه : ﴿ وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُـقٍ عَظِيمٍ (4)﴾ (القلم)

---

[1] () رواه ابن ماجة والبيهقي.

[2] () مما عرف به الكرم ما عرفه به ابن مسكويه، قال: الكرم إنفـاق المـال الكثـير بسـهولة من النّفس فى الأمور الجليلة القدر، الكثيرة النّفع (تهذيب الأخلاق لابن مسكويه:30)

قلنا: فحدثنا عن كرم رسول الله ..

قال: لقد حدث رسول الله ﷺ عن نفسه الممتلئة كرما وجودا، وكأنه يدعو كل محتاج لأن يمد يده إليه لينال من جوده، فقال (ألا أخبركم عن الأجود؟ الله الأجود، وأنا أجود ولد آدم، وأجودهم من بعدي رجل تعلم علما فنشر علمه، يبعث يوم القيامة أمة وحده، ورجل جاهد في سبيل الله حتى يقتل) (1)

وقال، وقد التفت إلى أحد: (والذي نفسي بيده ما يسرني أن أحدا يحول لآل محمد ذهبا، أنفقه في سبيل الله، أموت يوم أموت ما أدع منه دينارين، إلا دينارين أعدهما لدين إن كان) (2)

وقال: (لو عندي مثل أحد ذهبا ما سرني أن يأتي علي ثلاث ليال، وعندي منه شئ إلا شيئا أرصده لدين) (3)

وقد كان أصحابه والمقربون إليه يعرفون هذه الصفة فيه، ويصفونه بها:

فعن علي أنه كان إذا نعت رسول الله ﷺ قال: كان أجود الناس كفا (4).

وعن أنس قال: كان رسول الله ﷺ أجود الناس (5).

وكان من الصفات التي عرفه من خلالها الكل هو أنه كان أبعد الناس عن رد أي سائل يسأله، مؤتمرا في ذلك بما أمره الله تعالى به، قال تعالى: وَأَمَّا السَّائِلَ فَلا تَنْهَرْ (10) (الضحى)

وقد كانت الصفة التي عرف بها النبي ﷺ.. عرفه بها جميع الناس.. أنه لا يسأل شيئا إلا أعطاه.

1() رواه بقي بن مخلد وأبو يعلى.

2() رواه أحمد.

3() رواه البيهقي، وابن عساكر.

4() رواه ابن أبي خيثمة.

5() رواه ابن أبي شيبة.

قال أنس: ما سئل رسول الله ﷺ على الإسلام شيئا إلا أعطاه(1).

وقد ذكر نموذجا لذلك، فقال: فسأله رجل غنما بين جبلين فأعطاه إياها، فأتى قومه فقال: يا قوم أسلموا، فوالله إن محمدا ليعطى عطاء من لا يخاف الفقر(2).

قال أنس: وإن كان الرجل ليجئ إلى رسول الله ﷺ وما يريد بذلك إلا الدنيا، فما يمسي حتى يكون دينه أحب إليه من الدنيا وما بينها (3).

وعن علي قال: كان رسول الله ﷺ إذا سئل عن شئ، فأراد أن يفعله قال: (نعم) وإن أراد ألا يفعله سكت، وكان لا يقول لشئ لا (4).

وعن سهل بن سعد قال: كان رسول الله ﷺ حييا لا يسأل شيئا إلا أعطى (5).

وعنه أن امرأة جاءت النبي ﷺ ببردة منسوجة فيها حاشيتها، قال سهل: أتدرون ما البردة؟ قالوا: الشملة، قال: نعم، قالت: نسجتها بيدي لأكسوكها فخذها، فأخذها النبي ﷺ محتاجا إليها، فخرج إلينا وإنها لإزاره فقال الأعرابي: يا رسول الله بأبي أنت وأمي هبها لي، فقال: (نعم)، فجلس ما شاء الله في المجلس، ثم رجع فطواها فأرسل بها إليه، ثم سأله، وعلم أنه لا يسأل شيئا فيمنعه، قال: والله إني ما سألته لألبسها، إنما سألته لتكون كفني،

1() رواه مسلم.

2() رواه مسلم.

3() رواه مسلم.

4() رواه الخرائطي، والطبراني، و المراد من عدم قوله:(لا) ما يفهم منها عدم الإعطاء مع القدرة عليه، أما إذا كانت من باب الاعتذار، فلا حرج في ذلك، وقد قالها ﷺ، ففي القرآن الكريم حكاية عن النبي ﷺ: وَلا عَلَى الَّذِينَ إِذَا مَا أَتَوْكَ لِتَحْمِلَهُمْ قُلْتَ لا أَجِدُ مَا أَحْمِلُكُمْ عَلَيْهِ تَوَلَّوْا وَأَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ حَزَناً أَلّا يَجِدُوا مَا يُنْفِقُونَ) (التوبة:92)

5() رواه الدارمي.

رجوت بركتها حين لبسها رسول الله ﷺ، قال سهل: فكانت كفنه(1).

وعن هارون بن أبان قال: قدم للنبي ﷺ سبعون ألف درهم، وهو أكثر مال أتي به قط، فوضع على حصير من المسجد، ثم قام بنفسه، فما رد سائلا، حتى فرغ منه (2).

قلنا: وعينا هذا.. فحدثنا عن غيره.

قال: حب الورثة الذين تضمخت أرواحهم بعطر النبوة..

قلنا: فحدثنا عن كرمهم.

قال: عن عبد الله بن مسعود قال: لما نزلت :﴿ مَنْ ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَاعِفَهُ لَهُ أَضْعَافًا كَثِيرَةً وَاللَّهُ يَقْبِضُ وَيَبْسُطُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ (245)﴾ (البقرة) قال أبو الدحداح الأنصاري: يا رسول الله وإن الله ليريد منا القرض؟ قال: نعم يا أبا الدحداح قال: أرني يدك يا رسول الله. قال: فناوله يده قال: فإني قد أقرضت ربي حائطي. قال: وحائط له فيه ستمائة نخلة وأم الدحداح فيه وعيالها. قال: فجاء أبو الدحداح فناداها: يا أم الدحداح. قالت: لبيك قال: اخرجي فقد أقرضته ربي عز وجل(3).

وفي رواية: أن أبا الدحاح انطلق حتى جاء أمَّ الدّحاح وهى مع صبيانها في الحديقة تدور تحت النخل، فأنشأ يقول:

هداك ربى سبل ... إلى سبيل الخير

بينى من الحائط ... فقد مضى قرضاً

أقرضته الله على ... بالطّوْع لا مَنَّ ولا

إلا رجاء الضعف في ... فارْتحلى بالنفس

1() رواه البخاري، وابن ماجه، وابن سعد، والطبراني، والإسماعيلي والنسائي، زاد الطبراني: وأمر النبي ﷺ أن يصنع له غيرها، فمات قبل أن تنزع.

2() رواه الدارمي.

3() رواه ابن مردويه.

والبرُّ لا شك فخير قدمه المرء إلى

قالت أم الدحداح: ربح البيع!! بارك الله لـك فيمـا اشـتريت.. وأنشأت تقول:

بشرك الله بخير مثلك أدى ما لديه

قد متّع الله عيالى بالعجوة السوداء

والعبد يسعى وله ما طول الليالى وعليه

ثم أقبلت أم الدحـداح على صـبيانها تخـرج مـا في أفـواههم، وتنفض مـا في أكمـامهم حـتى أفضـت إلى الحائـط الآخـر، فقـال النبى : (كم من عَذْق رَدَاح ودار فياح لأبى الدحداح)

***

بقينـا مـدة في صحبة علي بن أحمـد الكـوفي يعلمنـا الكـرم وأسراره، ويذكر لنا من أخبار أهله ما تتشوف له نفوسنا.. وبعد أن اختبرنـا بعض الاختبـارات، ورأى نجاحنـا فيهـا أجازنـا فيـه وفي علومـه.. ثم أمرنـا بالسـير إلى القسـم الخـامس من أقسـام تلـك المدرسة.

5 ـ الحياء

ســرنا إلى القســم الخــامس، وكــان شــيخه علم من أعلام الهداية.. وكان قد قدم من بغداد، كان الجميـع يطلقـون عليـه (أبـا الفرج ابن الجَوْزي)[1].. ولست أدري هل كان ذلك اسمه حقيقــة، أم أنهم يسمونه بذلك لمـا وهبـه اللـه من الملاحظـة الدقيقـة.. أم أنهم يسمونه بذلك لما أوتيـه من قـدرة عجيبـة على الوصـول إلى القلوب بمواعظه الرقيقة.

1() أشير به إلى أبي الفرج بن الجَوْزي (510 ـ 597 هــ)، وهـو عبـد الرحمـان بن علي بن محمـد بن علي القرشـي التَّيمي البغـدادي، الحنبلي، يُعـرف بـابن الجـوزي، ويلقّب بجمـال الدين.. كان من كبار الوعّاظ ببغداد، فقيهاً، عالماً بالتـاريخ والحـديث، واسـع الاطّلاع، كثـير التصانيف.. قال عنه ابن الـدبيثي: إليـه انتهت معرفـة الحـديث وعلومـه.. وقـال ابن خلّكـان: علاّمة عصره، وإمام وقته في الحديث وصـناعة الوعـظ. صـنّف ابن الجـوزي كتبـاً كثـيرة في أنواع العلم من التفسير والحديث والفقه والأخبار والتاريخ وغير ذلك، بلغت في قول بعضــهم نحو ثلاثمائة كتاب.. وقد اخترناه هنا لأجل كتابه المعروف (تلبيس إبليس)

كان أول ما خاطبنا به عند دخولنا عليه قوله: (استحيوا من اللّه حقّ الحياء)(1)

قال رجل منا: (إنّا نستحيي والحمد للّه)

قال: (ليس ذاك، ولكنّ الاستحياء من اللّه حقّ الحياء: أن تحفظ الرّأس وما وعى، والبطن وما حوى، ولتذكر الموت والبلى، ومن أراد الآخرة ترك زينة الدّنيا، فمن فعل ذلك فقد استحيا من اللّه حقّ الحياء)

قلنا: فحدثنا عن الحياء.. فلا يمكن أن يستحيي من لا يعرف الحياء.

قال: الحياء هو تغيّر وانكسار يعتري الإنسان من خوف ما يعاب به.. أو هو انقباض النّفس من شيء وتركه حذرا عن اللّوم فيه.. أو هو ما يبعث على ترك القبح ويمنع من التّقصير في حقّ ذي الحقّ.. أو هو التّرقيّ عن المساوىء خوف الذّمّ.. أو هو انقباض النّفس من شيء حذرا من الملام.

قلنا: فما أنواعه؟

قال: عشرة(2): حياء جناية، وحياء تقصير، وحياء إجلال، وحياء كرم، وحياء حشمة، وحياء استحقار النّفس، وحياء محبّة، وحياء عبوديّة، وحياء شرف وعزّة، وحياء المستحيي من نفسه.

قلنا: فما حياء الجناية؟

قال: منه حياء آدم عليه السّلام لمّا فرّ هاربا في الجنّة.. فقال اللّه تعالى له: (أفرارا منّي يا آدم؟)، قال: لا يا ربّ.. بل حياء منك.

قلنا: فما حياء التّقصير؟

قال: كحياء الملائكة الّذين يسبّحون اللّيل والنّهار لا يفترون،

1() ما نذكره هنا من الحديث بين قوسين مما رواه الترمذي وقال: غريب، ورواه أحمد والحاكم والبيهقي. وقال الحاكم: صحيح وأقره الذهبي.

2() انظر: مدارج السالكين (2/ 272) بتصرف.

فإذا كان يوم القيامة قالوا: (سبحانك ما عبدناك حقّ عبادتك)

قلنا: فما حياء الإجلال؟

قال: هو حياء المعرفة، وعلى حسب معرفة العبد بربّه يكـون حياؤه منه.

قلنا: فما حياء الكرم؟

قال: كحياء النّبيّ من القوم الّذين دعاهم إلى وليمة زينب، وطوّلوا الجلوس عنده، فقام واستحيا أن يقول لهم: انصرفوا.

قلنا: فما حياء الحشمة؟

قـال: كحيـاء من اسـتحيا أن يسـأل رسـول اللّـه عن أمـور تتعلق بالدين يستحيا من ذكرها.

قلنا: فما حياء الاستحقار، واستصغار النّفس؟

قـال: كحيـاء العبـد من ربّـه عـزّ وجـلّ حين يسـأله حوائجـه، احتقارا لشأن نفسه، واستصغارا لها.

قلنا: فمّا حياء المحبّة؟

قال: هـو حيـاء المحبّ من محبوبـه، حتّى إنّـه إذا خطـر على قلبه في غيبته هاج الحياء من قلبه، وأحسّ به في وجهه ولا يــدري ما سببه.. وكذلك يعرض للمحبّ عند ملاقاته محبوبه ومفاجأتـه لـه روعة شديدة. ومنه قولهم (جمال رائع) وسبب هذا الحياء والرّوعة ممّا لا يعرفه أكثر النّاس.. فإذا فاجـأ المحبـوب محبّـه، ورآه بغتـة، أحسّ القلب بهجوم سلطانه عليه فاعتراه روعة وخوف.

قلنا: فما حياء العبوديّة؟

قال: هو حياء ممتزج من محبّة وخوف، ومشاهدة عدم صـلاح عبوديّته لمعبوده، وأنّ قدره أعلى وأجلّ منها. فعبوديّته لـه تـوجب استحياءه منه لا محالة.

قلنا: فما حياء الشّرف والعزّة؟

قال: هو حياء النّفس العظيمة الكبيرة إذا صدر منها ما هو دون قدرها من بذل أو عطاء أو إحسان، فإنّه يستحيي مع بذله حياء شرف نفس وعزّة.

قلنا: فما حياء المرء من نفسه؟

قال: هو حياء النّفوس الشّريفة العزيزة الرّفيعة من رضاها لنفسها بالنّقص، وقناعتها بالدّون، فيجد نفسه مستحييا من نفسه، حتّى كأنّ له نفسين، يستحيي بإحداهما من الأخرى، وهذا أكمل ما يكون من الحياء. فإنّ العبد إذا استحيى من نفسه فهو بأن يستحيي من غيره أجدر.

قلنا: وعينا هذا.. فعلمنا السبيل الذي يجعل للحياء محلا في سلوكنا.

قال: أولها معرفة الله ومحبته.. فمن عرف الله وأحبه لابد أن يسري إليه من الحياء ما يملؤه أدبا.. وقد روي في الحديث عن رسول الله : (إنّ ربّكم حييّ كريم يستحيي من عبده إذا رفع يديه إليه يدعوه أن يردّهما صفرا، ليس فيهما شيء)[1]

وعن أشجّ عبد القيس أنّه قال: قال لي رسول اللّه : (إنّ فيك خلّتين يحبّهما اللّه- عزّ وجلّ-)، قلت: ما هما؟ قال: (الحلم والحياء)، قلت: أقديما كان فيّ أم حديثا؟ قال: (بل قديما)، قلت: (الحمد للّه الّذي جبلني على خلّتين يحبّهما)[2]

قلنا: وعينا هذا.. فحدثنا عن سبيل آخر.

قال: محبة رسول الله .. فرسول الله هو معدن الأدب وإكسيره، وهو شمس الأخلاق الطيبة ونورها.. فمن تعرض لأشعته سرى إليه من فيضه ما ملأه حياء وأدبا..

قلنا: فحدثنا عن حياء رسول الله .

1() رواه الترمذي وأبو داود وابن ماجه والبيهقي في الدعوات، والحاكم وصححه على شرط الشيخين وأقره الذهبي.

2() رواه أحمد واللفظ له، وابن ماحه، وأصل حديث أشج عبد القيس رواه البخاري ومسلم من حديث ابن عباس.

قال: لقد حدث أبو سعيد الخدري قال: (كـان رسـول اللـه ﷺ أشد حياء من العذراء في خدرها، وكان إذا كـره شـيئا عرفنـاه في وجهه)[1]

وعن أنس قال: رأى رسول اللـه ﷺ على وجـه رجـل صـفرة فقال: (لو أمرتم هذا أن يغسل هذه الصفرة)، وكان لا يكاد يواجـه أحدا في وجهه بشئ يكرهه[2].

وعن عائشة قـالت: كـان رسـول اللـه ﷺ إذا بلغـه عن رجـل شيئا لم يقل له: قلت: كذا وكذا قال: (ما بـال أقـوام يقولـون كـذا وكذا)[3]

وعن سهل بن سعد قال: كان رسـول اللـه ﷺ حييـا لا يسـأل عن شئ إلا أعطى[4].

وعن هنـد بن أبي هالـة قـال: كـان رسـول اللـه ﷺ خـافض الطرف، جل نظره إلى الأرض أكـثر من نظـره إلى السـماء، جـل نظره الملاحظة[5].

وعن عائشة قالت: صنع رسـول اللـه ﷺ شـيئا فـرخص فيـه، فتنزه عنـه قـوم، فبلـغ ذلـك رسـول اللـه ﷺ فخطب، فحمـد اللـه تعالى، ثم قال: (ما بال أقوام يتنزهون عن الشئ أصـنعه؟ فواللـه إني لأعلمهم بالله تعالى، وأشدهم له خشية)[6]

***

1() رواه البخاري ومسلم.

2() رواه أحمد وأبو داود، ورواه البخاري في الأدب بلفظ: كان رسول الله ﷺ قـل مـا يواجـه الرجل بشئ يكرهه، فدخل عليه يوما رجل وعليه أثر صفرة، فلما قام قال لأصحابه: لو غـير، أو نزع هذه الصفرة.

3() رواه أبو داود.

4() رواه عبد بن حميد، وأبو الشيخ.

5() رواه البيهقي.

6() رواه البخاري في الأدب المفرد.

بقينا مدة في صحبة ابن الجوزي يعلمنا الحياء وأسراره، ويذكر لنا من أخبار أهله ما تتشوف له نفوسنا.. وبعد أن اختبرنا بعض الاختبارات، ورأى نجاحنا فيها أجازنا فيها وفي علومها.. ثم أمرنا بالسير إلى القسم السادس من أقسام تلك المدرسة.

6 ـ الرفق

سرنا إلى القسم السادس، وقد كان شيخه رجلا من كبار العلماء.. ومن الذين أوتوا حنكة ورأيا وذكاء حادا.. وقد كان يطلق عليه لأجل ذلك (أبو حنيفة)(1).. ولست أدري هل هو أبو حنيفة عاد إلى الحياة من جديد.. أم أن الرجل من نسل أبي حنيفة، وقد ورث من جده قوة عقله، وذكاءه الحاد.

عندما دخلنا عليه مجلسه سمعناه يقرأ بخشوع قوله تعالى : ﴿ فَبِما رَحْمَةٍ مِنَ اللَّهِ لِنْتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ فَإِذا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ (159)﴾ (آل عمران)، وقوله تعالى في خطابه لموسى وأخيه – عليهما السلام-:﴿ اذْهَبا إِلى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغى (43) فَقُولا لَهُ قَوْلًا لَيِّناً لَعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشى (44)﴾ (طه)

ثم حدثنا عن مالك بن الحويرث قال: أتيت النّبيّ ﷺ في نفر من قومي فأقمنا عنده عشرين ليلة وكان رحيما رفيقا فلمّا رأى شوقنا إلى أهالينا، قال: (ارجعوا فكونوا فيهم وعلّموهم وصلّوا،

1() أشير به إلى الفقيه الكبير صاحب المذهب المعروف أبي حنيفة (80 ـ 150 هـ)، وهو النعمان بن ثابت التيمي بالولاء، الكوفيّ، اختص بحماد بن أبي سليمان، ولازمه، وتفقّه به، وروى عنه، وعن الحكم بن عُتيبة، وزبيد اليامي، وسلمة بن كهيل، وعاصم بن أبي النجود، وعامر الشعبي، وعطية بن سعد العوفي، وأبي إسحاق السبيعي، ومحمد بن علي الباقر، ومحمد ابن مسلم الزهري، وآخرين.

روى عنه: إبراهيم بن طهمان، والحسن بن زياد اللؤلؤي، وابنه حمّاد بن أبي حنيفة، وعبد اللّه بن المبارك، وعبد الوارث بن سعيد، وأبو نعيم الفضل بن دكين، ومحمد بن الحسن الشيباني، ووكيع بن الجراح، والقاضي أبو يوسف، وعدة.

ومن أبرز شيوخه الإمام جعفر الصادق، الذي ذكره بقوله: ما رأيت أحداً أفقه من جعفر بن محمد، قال ذلك حين أجابه الصادق عن أربعين مسألة هيّأها له بطلب من المنصور العباسي.. وكان أبو حنيفة من جملة الفقهاء الذين ناصروا زيد بن علي بن الحسين، وساهم في الدعوة إلى الخروج معه، كما أنّه آزر محمد بن عبد اللّه بن الحسن وأخاه إبراهيم، وكان يحث الناس ويأمرهم باتباعه. (انظر: موسوعة أصحاب الفقهاء)

فإذا حضرت الصّلاة فليؤذّن لكم أحدكم وليؤمّكم أكبركم)(1)

وحدثنا أنّ يهود أتوا النّـبيّ ، فقـالوا: السّـامّ عليكم. فقـالت عائشـة: عليكم ولعنكم اللّـه وغضـب اللّـه عليكم، فقـال: (مهلا يـا عائشة عليك بالرّفق وإيّاك والعنف والفحش)، قالت: أو لم تسـمع ما قالوا؟. قـال: (أو لم تسـمعي مـا قلت رددت عليهم فيسـتجاب لي فيهم ولا يستجاب لهم فيّ)(2)

وحدثنا أن رسول الله ﷺ (ما خيّر بين أمرين إلّا أخذ أيسرهما ما لم يكن إثما، فإن كـان إثمـا كـان أبعـد النّـاس منـه، ومـا انتقم رسول اللّه لنفسه إلّا أن تنتهك حرمة اللّه فينتقم للّه بها)(3)

وحدثنا أنه ﷺ قال: (إنّ الرّفق لا يكون في شيء إلّا زانـه، ولا ينزع من شيء إلّا شانه)(4)

وقـال: (اللّهمّ من ولي من أمـر أمّـتي شـيئا فشـقّ عليهم فاشقق عليه، ومن ولي من أمر أمّتي شيئا فرفق بهم فارفق بـه) (5)

وقـال: (إنّ اللّـه إذا أراد بأهـل بيت خـيرا دلّهم على بـاب الرّفق)(6)

وقـال: (تلقّت الملائكـة روح رجـل ممّن كـان قبلكم، فقـالوا: أعملت من الخير شـيئا؟. قـال: لا. قـالوا: تـذكّر. قـال: كنت أداين النّاس فـامر فتيـاني أن ينظـروا المعسـر ويتجـوّزوا عن الموسـر. قال: قال اللّه عزّ وجلّ: تجوّزوا عنه)(7)

---

(1) رواه البخاري ومسلم.

(2) رواه البخاري.

(3) رواه البخاري ومسلم.

(4) رواه مسلم.

(5) رواه مسلم.

(6) رواه أحمد والبزار.

وقال: (ألا أخـبركم بمن يحـرم على النّـار، وبمن تحـرم عليـه النّار، على كلّ قريب هيّن سهل)(1)

وقال: (يسّروا ولا تعسّروا وسكّنوا ولا تنفّروا)(2)

وقـال: (من أعطي حظّـه من الرّفـق فقـد أعطي حظّـه من الخير، ومن حرم حظّه من الرّفق حرم حظّه من الخير)(3)

وقال: (من يحرم الرّفق يحرم الخير)(4)

وقال: (إنّي لأدخل في الصلاة وأنا أريد إطالتهـا فأسـمع بكـاء الصّبيّ فأتجوّز ممّا أعلم من شدّة وجد أمّه من بكائه)(5)

وقـال: (إنّ اللّـه كتب الإحسـان على كـلّ شـيء فـإذا قتلتم فأحسنوا القتلة، وإذا ذبحتم فأحسنوا الذبح، وليحدّ أحـدكم شـفرته وليرح ذبيحته)(6)

وقال: (إيّاكم أن تتّخذوا ظهـور دوابّكم منـابر، فـإنّ اللّـه إنّمـا سـخّرها لكم لتبلّغكم إلى بلـد لم تكونـوا بالغيـه إلّا بشـقّ الأنفس وجعل لكم الأرض، فعليها فاقضوا حاجتكم)(7)

وحدثنا أنّ النّبيّ رأى شيخا يهادى بين ابنيه، قـال: (مـا بـال هذا؟). قالوا: نذر أن يمشي، قال: (إنّ اللّه عن تعذيب هـذا نفسـه

7() رواه البخاري ومسلم.

1() رواه الترمذي، وقال: حديث حسن غريب.

2() رواه البخاري ومسلم.

3() رواه الترمذي، وقال: حديث حسن صحيح.

4() رواه مسلم.

5() رواه البخاري ومسلم.

6() رواه مسلم.

7() رواه أبو داود.

لغنيّ)، وأمره أن يركب(1).

وحدثنا أنه أمر بعض أصحابه بإمامة قوله، وقال له ناصحا: (أمّ قومك، فمن أمّ قوما فليخفّف فإنّ منهم الكبير، وإنّ فيهم المريض، وإنّ فيهم الضّعيف، وإنّ فيهم ذا الحاجة، وإذا صلّى أحدكم وحده فليصلّ كيف شاء)(2)

وعن جابر قال: كان رسول اللّه في سفر فرأى رجلا قد اجتمع النّاس عليه، وقد ظلّل عليه، فقال: (ماله؟). قالوا: رجل صائم فقال رسول اللّه : (ليس من البرّ أن تصوموا في السّفر)(3)

وحدثنا أن رسول اللّه ﷺ قال: (إيّاكم والوصال)، قالوا: فإنّك تواصل يا رسول اللّه، قال: (إنّكم لستم في ذلك مثلي إنّي أبيت يطعمني ربّي ويسقيني فاكلفوا من العمل ما تطيقون)(4)

وحدثنا أنه بعث خيلا قبل نجد، فجاءت برجل من بني حنيفة يقال له ثمامة بن أثال، فربطوه بسارية من سواري المسجد، فخرج إليه النّبيّ ، فقال: (ما عندك يا ثمامة؟ فقال: عندي خير يا محمّد إن تقتلني تقتل ذا دم، وإن تنعم تنعم على شاكر. وإن كنت تريد المال فسل منه ما شئت. فترك حتّى كان الغد، ثمّ قال له: (ما عندك يا ثمامة؟)، قال: ما قلت لك: إن تنعم تنعم على شاكر. فتركه حتّى كان بعد الغد، فقال: (ما عندك يا ثمامة؟) قال: ما قلت لك. فقال: (أطلقوا ثمامة)، فانطلق إلى نخل قريب من المسجد فاغتسل ثمّ دخل المسجد فقال: أشهد أن لا إله إلّا اللّه، وأشهد أنّ محمّدا رسول اللّه. يا محمّد، واللّه ما كان علي الأرض وجه أبغض إليّ من وجهك، فقد أصبح وجهك أحبّ الوجوه إليّ. واللّه ما كان من دين أبغض إليّ من دينك، فأصبح دينك أحبّ الدّين إليّ. واللّه ما كان من بلد أبغض إليّ من بلدك، فأصبح بلدك

(1) رواه البخاري ومسلم.

(2) رواه البخاري ومسلم.

(3) رواه البخاري ومسلم.

(4) رواه البخاري ومسلم.

أحبّ البلاد إليّ. وإنّ خيلك أخذتني وأنا أريد العمـرة. فمـاذا تـرى؟ فبشّره رسول اللّه وأمره أن يعتمـر. فلمّـا قـدم مكّـة. قـال لـه قائل: صبوت. قال: لا. ولكن أسلمت مع محمّد رسول اللّــه . ولا واللّه لا يأتيكم من اليمامة حبّة حنطة حتّى يأذن فيها النّبيّ)[1]

وحدثنا أنّ أعرابيا بال في المسجد فثار إليه النّاس ليقعوا به، فقال لهم رسول اللّه : (دعوه وأهريقوا على بوله ذنوبـا من مـاء أو سجلا من ماء فإنّما بعثتم ميسّرين ولم تبعثوا معسّرين)[2]

***

بعد أن قرأ علينا أبو حنيفـة هـذه النصـوص المقدسـة سـألناه عن الجامع بينها، فقال: هذه النصوص المقدسـة جميعـا تحث على الرفــق واللين وتعتبرهمــا من أركــان الأخلاق الكــبرى.. فلا يمكن لصاحب الخلق الحسن أن يكون كذلك إلا إذا كـان لينـا هينـا سـهلا رفيقا.

قلنا: فما السبيل إليه؟

قال: لقد ذكره رسـول اللـه .. ففي الحـديث أن رجلا شـكا إلى رسول اللّه قسوة قلبـه، فقـال لـه: (إن أردت تلـيين قلبـك فأطعم المسكين، وامسح رأس اليتيم)[3]

قلنا: ما معنى هذا؟

قـال: لقـد شـرحه بعض ورثتـه، وبين مجامعـه حين قـال: : (العلم بالتّعلّم، والحلم بالتّحلّم، ومن يتحرّ الخير يعطه، ومن يتـوقّ الشّرّ يوقه)

قـال رجـل منـا: أتقصـد أن الرفـق لا يحصـل لنـا إلا بـالترفق وتكلف الرفق؟

1() رواه البخاري ومسلم.

2() رواه البخاري.

3() رواه الحاكم.

قال: أجل..

قلنا: فما نفعل؟

قال: ستتدربون في هذا القسم على الترفق في كل شــيء.. فعسى أن تتحولوا منه إلى الرفق.

***

بقينا مدة في صحبة أبي حنيفة يعلمنا الرفق وأسراره، ويذكر لنا من أخبار أهله ما تتشـوف لـه نفوسـنا.. وبعـد أن اختبرنـا بعض الاختبارات، ورأى نجاحنا فيها أجازنا فيهـا وفي علومهـا.. ثم أمرنـا بالسير إلى القسم السابع من أقسام تلك المدرسة.

7 ـ المودة

سرنا إلى القسم السابع، وكان إمامـه إمـام من أئمـة الـورع والزهد والصلاح.. وكان يطلق عليه (مسكويه الرازي)، تشـبيها لـه بسميه[1] صاحب الكتب الكثيرة الطيبة في الأخلاق والآداب.

عنـدما دخلنـا عليـه مجلسـه سـمعناه يـذكر قولـه ﷺ:(مثـل المؤمـنين في تــوادّهم وتــراحمهم وتعــاطفهم، مثــل الجســد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالسّهر والحمّى)

وقوله: (ما تحاب اثنان في الله إلا كان أفضلهما أشدهما حبـا لصاحبه)[2]

وقوله: (ثلاث من كن فيه وجـد بهن حلاوة الإيمـان: أن يكـون اللَّه ورسوله أحبَّ إليه ممـا سـواهما، وأن يحب المـرء لا يحبـه إلا لله، وأن يكره أن يعود في الكفر بعد أن أنقذه اللَّه منه كما يكــره

---

[1] أشير به إلى مسكويه الرازي [325 ـ 421هـ]، من علماء القرن الرابع والخامس الهجريين، المشهور في مجال فلسفة الأخلاق من بين الفلاسفة المسلمين حتى عدّ أكبر فيلسوف أخلاق بينهم، له الكثير من المؤلفات في الأخلاق، بل تكاد تكون كل كتبه في هذا المجال، منها: (تهذيب الأخلاق وتطهير الأعراق)، و(ترتيب السعادات)، و(الفوز الأصغر)، (رسالة في العدل)، (الهوامل والشوامل)

[2] رواه ابن حبان.

أنْ يُقْذَفَ في النَّار)(1)

وقولـه: (إن اللَّه تعـالى يقـول يـوم القيامـة: أين المتحـابّون بجلالي؟ اليوم أُظِلّهم في ظلي يوم لا ظل إلا ظلي)(2)

وقوله: (قال اللَّه عَزَّ وَجَـلَّ: المتحـابّون في جلالي لهم منـابر من نور يغبطهم النبيون والشهداء)(3)

بعد أن انتهى من إيراد هذه الأحاديث وغيرها قـال لـه أحـدنا: إن كل ما ذكرته من الأحاديث يدعو إلى المحبة، ويعتبرهـا مظهـرا من مظـاهر الإيمـان، بـل إفـرازا من إفرازاتـه الـتي يعـبر بهـا عن نفسه.

قال مسـكويه: أجـل.. وقـد روي في الآثـار عن موسـى عليه السلام - مما يدل على هذا- أن الله تعـالى خاطبـه بقولـه:(هـل عملت لي عملاً قط؟) فقال موسى: إلهي إني صليت لـك وصـمت وتصـدقت وزكيت، فقال: إن الصلاة لك برهان، والصوم جنة، والصدقة ظـل، والزكاة نور، فأي عمل عملت لي؟ قـال موسـى: إلهي دلـني على عمل هو لك؟ قال: يا موسى هل واليت لي ولياً قط؟ وهل عاديت فيَّ عدوّاً قط؟

ولأجل هذا اشـتد تحـذير الصـالحين من فـراغ القلب من هـذا النـوع من الحب، وقـد قـال بعضـهم:(واللـه لـو صـمت النهـار لا أفطره، وقمت الليل لا أنامه، وأنفقت مالي غلقاً غلقـاً في سبـيل اللـه أمـوت يـوم أمـوت وليس في قلبـي حب لأهـل طاعـة اللـه وبغض لأهل معصية الله ما نفعني ذلك شيئاً)

وقال آخر في بعض كلامه :(هـاه تريـد أن تسـكن الفـردوس وتجـاور الـرحمن في داره مـع النبيـين والصـديقين والشـهداء والصـالحين؟ بـأي عمـل عملتـه؟ بـأي شـهوة تركتهـا؟ بـأي غيـظ كظمته؟ بأي رحم قـاطع وصـلتها؟ بـأي زلـة لأخيـك غفرتهـا؟ بـأي

(1) رواه البخاري ومسلم.

(2) رواه مُسْلِمٌ.

(3) رواه التِّرْمِذِيُّ، وَقَالَ: حَدِيْثٌ حَسَنٌ صحيح.

قريب باعدته في الله؟ بأي بعيد قاربته في الله؟)

قال الرجل: صدقت فيما رويت.. ولكن ألا ترى من العجب أن تدعو هذه النصوص للبغض.. فهل يمكن أن يحمل القلب الذي حوى جميع المشاعر الإيمانية النبيلة أي لون من ألوان البغض؟.. وهل يمكن أن يكون البغض شعورا نبيلا؟.. وهل يمكن للقلب الذي تقدس بالحب المقدس أن يتنجس بدنس البغضاء؟

قال آخر – وقد بدا عليه الغضب- : كيف تقول هذا، وأنت تقرأ في القرآن دعوة الله إلى البراءة من أعدائه، ولا تكون البراءة منهم إلا ببغضهم..

لقد قال تعالى يذكر ذلك : لا يَتَّخِذِ الْمُؤْمِنُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَلَيْسَ مِنَ اللَّهِ فِي شَيْءٍ إِلَّا أَنْ تَتَّقُوا مِنْهُمْ تُقَاةً وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ (28) (آل عمران)، فالآية الكريمة تنفي أي مكانة لمن يوالي الكافرين دون المؤمنين، وتعقب ذلك بالتحذير الشديد الذي يدل على خطر موالاة أعداء الله.

بل إن القرآن الكريم يجعل مولى القوم منهم، فمولى اليهود والنصارى لا يختلف عن اليهود والنصارى، قال تعالى: يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى أَوْلِيَاءَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنْكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ إِنَّ اللَّهَ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ (51) (المائدة)

وهو يخبر أن سبب تلك الموالاة هي خلو القلب من الإيمان الحقيقي الممتلئ بالحب لله، قال تعالى: وَلَوْ كَانُوا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالنَّبِيِّ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مَا اتَّخَذُوهُمْ أَوْلِيَاءَ وَلَكِنَّ كَثِيراً مِنْهُمْ فَاسِقُونَ (81) (المائدة)

أو أن سببها هو الغفلة عن الله، قال تعالى : اتَّبِعُوا مَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ وَلا تَتَّبِعُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ قَلِيلاً مَا تَذَكَّرُونَ (3) (الأعراف)

وهذا الجهل بالله هو الذي جعلها تعتقد العزة في أعداء الله،

قال تعالى: الَّذِينَ يَتَّخِذُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ أَيَبْتَغُونَ عِنْدَهُمُ الْعِزَّةَ فَإِنَّ الْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعاً (139) (النساء)

ولذلك ينفي أي منفعة يمكن انتظارها من أعداء الله، قال تعالى: إِنَّهُمْ لَنْ يُغْنُوا عَنْكَ مِنَ اللَّهِ شَيْئاً وَإِنَّ الظَّالِمِينَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُتَّقِينَ (19) (الجاثية)

والقرآن الكريم يرسم الصورة التي يضعها المؤمن في ذهنه ليتعامل على أساسها مع أعداء الله، وما يرتكبونه من الجرائم، ليكون ذلك محركا لقلب المؤمن لمعاداة أعداء الله، فالموالاة في الله، كمعاداة أعداء الله، كلاهما دليل الحب لله، قال تعالى: يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِمْ بِالْمَوَدَّةِ وَقَدْ كَفَرُوا بِمَا جَاءَكُمْ مِنَ الْحَقِّ يُخْرِجُونَ الرَّسُولَ وَإِيَّاكُمْ أَنْ تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ رَبِّكُمْ إِنْ كُنْتُمْ خَرَجْتُمْ جِهَاداً فِي سَبِيلِي وَابْتِغَاءَ مَرْضَاتِي تُسِرُّونَ إِلَيْهِمْ بِالْمَوَدَّةِ وَأَنَا أَعْلَمُ بِمَا أَخْفَيْتُمْ وَمَا أَعْلَنْتُمْ وَمَنْ يَفْعَلْهُ مِنْكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ (1) (الممتحنة)

قال مسكويه: صدق الله العظيم.. والشأن ليس فيما قرأت، وإنما فيما فهمت.. فما فهمت من هذه النصوص؟

قال الرجل: فهمت منها دعوتها للبغض في الله.. فكما أننا نحب في الله، فكذلك نبغض في الله.

قال مسكويه: صحيح ما ذكرت.. ولكن هناك فرقا بين البغض في الله والبغض في غير الله.

قال الرجل: ما تريد بذلك؟

قال مسكويه: أعني أن البغض في الله لا يعني بغض ذات المبغوض، وإنما يعني بغض ما يفعله.. وشتان ما بين الأمرين.

قال الرجل: أنا أرى أن كلا الأمرين واحد.

قال مسكويه: لا.. هناك فرق بينهما.. أجبني.. أرأيت لو أن لك ثلاثة أولاد: أحدهم ذكي بار، والآخر بليد عاق، والآخر بليد بار أو ذكي عاق.. كيف تصادف قلبك معهم.. هل قلبك يتساوى في

محبتهم جميعا؟

قال الرجـل: نعم.. فجميعهم أولادي.. ولا يمكن أن أفـرق في المحبة بينهم.

قـال مسـكويه: بغض النظـر عن ذلـك.. أيهم أحب إليـك من حيث سلوكه؟

قال الرجل: لاشك أنه الأول.. الذكي البار.

قال مسكويه: ولم زاد حبه على إخوانه؟

قال الرجل: بسبب سلوكه.

قال مسكويه: ولم نقص حبك لغيره؟

قال الرجل: بسبب سلوكهم.

قـال مسـكويه: فـأنت تبغض إذن سـلوكهم الـذين منعهم من الوصول إلى مرتبة أخيهم؟

قال الرجل: أجل..

قال مسكويه: فهذا هو البغض في الله.. فالأصل في المؤمن أنــه يحب الخلــق جميعــا باعتبــارهم خلقــا للــه، ويحبهم جميعــا باعتبارهم إخوة له، ولكنـه يبغض مـا يتلبسـون بـه من المعاصـي.. وهـو لـذلك بغض عرضـي لا ذاتي، وهـو كبغض الإنسـان للمـرض والبلاء والمصائب.

ودليـل عرضـية هـذا البغض أنـه يلتمس كـل الوسـائل لإزالـة أسباب البغض، فمن كان مريضا سـعى لشـفائه، ومن كـان مبتلى سعى لعافيته.

وهكــذا البغض في اللــه، والــذي هــو بغض عرضــي مرتبــط بمعصـية اللـه أو جحـوده يجعـل المـؤمن يسـعى لإزاحـة أسـباب البغضاء لإحلال المودة بدلها.

فهو بذلك بغض يحمل بذور مودة، أو هو مودة تكتسي لبــاس

البغض للمصلحة التي تستدعي تلك البغضاء.

ولذلك، فإن هذا البغض العرضي لا يجيز أي إيذاء أو عقوبة لا يستحقها المبغض، بل قد ورد في القرآن الكريم الحث على الإحسان إلى المبغض الذي آذى المحسن إليه أبشع إساءة، فقال تعالى: وَلا يَأْتَلِ أُولُو الْفَضْلِ مِنْكُمْ وَالسَّعَةِ أَنْ يُؤْتُوا أُولِي الْقُرْبَى وَالْمَسَاكِينَ وَالْمُهَاجِرِينَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلْيَعْفُوا وَلْيَصْفَحُوا أَلا تُحِبُّونَ أَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ (22) (النور)

***

بقينا مدة في صحبة مسكويه يعلمنا المودة وأسرارها.. وبعد أن اختبرنا بعض الاختبارات، ورأى نجاحنا فيها أجازنا فيها وفي علومها..

وقد من الله علي بعد تخرجي من تلك المدرسة بمشاعر عجيبة، جعلتني أحتضن كل شيء، وأعانقه، وأتعامل معه بكل ما آتى الله الإنسان من لطف ومودة ورحمة.

رابعا ـ الشديد

قلت: عرفت السر الثالث من أسرار الإنسان.. فما السر الرابع؟

قال: إنه السر الذي أشار إليه قوله تعالى : ﴿ مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ تَرَاهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِمْ مِنْ أَثَرِ السُّجُودِ ذَلِكَ مَثَلُهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَمَثَلُهُمْ فِي الْإِنْجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْأَهُ فَآزَرَهُ فَاسْتَغْلَظَ فَاسْتَوَى عَلَى سُوقِهِ يُعْجِبُ الزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ الْكُفَّارَ وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا (29)﴾ (الفتح)

وهو السر الذي جعل إبراهيم عليه السلام يقول لقومه : ﴿ أُفٍّ لَكُمْ وَلِمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ (67)﴾ (الأنبياء)

وهو السر الذي أمرنا الله أن نتخلق به عندما ننفذ أحكامه فيمن أراد تأديبهم :﴿ الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي فَاجْلِدُوا كُلَّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا مِائَةَ جَلْدَةٍ وَلَا تَأْخُذْكُمْ بِهِمَا رَأْفَةٌ فِي دِينِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلْيَشْهَدْ عَذَابَهُمَا طَائِفَةٌ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ (2)﴾ (النور)

وهو السر الذي خاطب الله لأجله نبيه ﷺ، فقال:﴿ مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَنْ يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوا أُولِي قُرْبَى مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ ﴾ (التوبة:113)، وقال:﴿ اسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ إِنْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَاللَّهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ﴾ (التوبة:80)، وقال:﴿ وَلَا تُصَلِّ عَلَى أَحَدٍ مِنْهُمْ مَاتَ أَبَدًا وَلَا تَقُمْ عَلَى قَبْرِهِ إِنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَمَاتُوا وَهُمْ فَاسِقُونَ (84)﴾ (التوبة)

فهذه الآيات تنهى رسول الله ﷺ أن ينساق وراء ما تمليه عليه الرحمة التي جبله الله عليها، والتي جعلته يخاف أن ينال أي أحد عذاب الله حتى لو كان كافرا، فلذلك كان يستغفر الله لهم ويصلي عليهم إلى أن نهي عن ذلك.

قلت: إن ما ذكرت من النصوص المقدسة يشير إلى الشدة.

قال: فهذا هو السر السادس من أسرار الإنسان.. فلا يكمل الإنسان إلا بتوجيه شدته توجيها صحيحا يتناسب مع الوظيفة التي كلف بها.

قلت: ولكن الذي أعلمه هو أن الإنسان لا يكمل إلا بقمع شدته.

قال: لا يصلح الإنسان بالقمع.. القمع كبت.. والكبت يقهر به الإنسان، ولا يكمل.. وينزل به الإنسان ولا يصعد.

قلت: فكيف يوجه الإنسان شدته لتسير في الطريق الصحيح.

قال: لهذا قصة.. سأحكيها لك.. ومن خلالها تكتشف الطريق.. أو أمارات الطريق.

قلت: يسرني ذلك..

قال: في ذلك اليوم، وبعد أن من الله علي، فعرفت ما ذكرته لك من أسرار في تلك المدينة العجيبة - التي فتح الله لي فيها من علوم الإنسان ما كان منغلقا – سرت، كما تعودت، على غير هدى، إلى أن وجدت رجلا غليظا شديدا، له صوت جهوري قوي، وعضلات مفتولة، وطول فارع..

كان يتكلم إلى نفر من الناس امتلأوا ضعفا حتى لو أن الريح أرادت أن تحملهم لحملتهم.

في البداية.. وعندما رأيته - من بعيد - يتكلم بتلك الشدة والغلظة خلته ظالما مستبدا يفرغ قوته في ضعفهم، وجبروته في لطفهم.. لكني عندما اقتربت منه عن كثب.. وعندما سمعت حديثه إليهم ارتفع عني ذلك الوهم، بل صرت أراه كما أرى الأولياء والقديسين.

كان اسم الرجل كما علمت بعد ذلك هو (نوح)[1].. وقد تذكرت بمجرد أن رأيته نوحا ﷺ ذلك النبي الكريم الذي لم يفتر لحظة من دعاء قومه وخطابه لهم بكل صنوف الخطاب.

قلت: لقد شوقتني إلى حديثه.. فما الذي كان يقول لهم؟

قال: لقد كان يدعوهم إلى الخروج من الشرانق التي نسجوها لأنفسهم، أو نسجها لهم ضعفهم.. وكان يطالبهم بتكسير القيود التي قيدهم بها استبداد ملوك أهوائهم أو أهواء ملوكهم.. وكان ينفخ فيهم من الشجاعة ما يدعوهم إلى أخذ قرارات حاسمة بشأن الحياة التي يعيشونها، والتي كانت لا تختلف عن حياة الجعلان والخنافس.

قلت: فما الذي أجابوه إليه؟

قال: في البداية جابهوه بما جابه به قوم نوح نبيهم.. ولكنهم - وبعد إلحاحه الشديد – صاروا كقوم يونس ﷺ.. أولئك الذين ذكرهم الله تعالى فقال :﴿ فَلَوْلَا كَانَتْ قَرْيَةٌ آمَنَتْ فَنَفَعَهَا إِيمَانُهَا إِلَّا قَوْمَ يُونُسَ لَمَّا آمَنُوا كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَتَّعْنَاهُمْ إِلَى حِينٍ (98)﴾ (يونس)

بل ذكر الله عددهم، فقال :﴿ وَأَرْسَلْنَاهُ إِلَى مِائَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ (147) فَآمَنُوا فَمَتَّعْنَاهُمْ إِلَى حِينٍ (148)﴾ (الصافات)

قلت: فهل اكتفى بوعدهم له؟

قال: أصحاب الشدة والبأس لا يكتفون بالوعود.

قلت: فهل أخذ عليهم المواثيق الشديدة؟.. أو هل كلفهم بأن يقسموا له بالأيمان المغلظة؟

قال: أنت تعلم أن كل ذلك لا يكفي.

قلت: فما الذي يكفي إذا لم تكف الأيمان المغلظة؟

---

[1] اخترناه هنا لما ورد في القرآن الكريم من الإشارة إلى شدته، كقوله في الدعاء على قومه:﴿ رَبِّ لَا تَذَرْ عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّارًا (26)﴾ (نوح)

قال: إعادة صياغة الإنسان لتنسجم مع الأسرار الـتي أودعت فيه.

قلت: في أي معمل تتم هذه الصياغة؟

قال: إعادة الصياغة تكون في المدارس المؤسسة على هدي الأنبياء.

قلت: فقد دعاهم إلى الدخول إلى مدرسته إذن.

قال: بل دعاهم إلى مدرسة من مدارس الأنبياء كـان اسـمها (مدرسة الشدة الإيمانية)

قلت: فهل ساروا معه إليها؟

قال: أجل.. وقد سرت معهم.. وتشرفت بأن أتتلمـذ وأتـدرب معهم على دروسها وتداريبها.

قلت: فحدثني عن ذلك.. فما أجمل أحاديث مدارس الإيمان.

قـال: لم تكن تلـك المدرسـة كسـائر المـدارس في شـكلها العـام.. لقـد كـانت أشـبه بالصـحراء.. بـل هي أشـبه بالتيـه منهـا بالمدرسة.. وكان المعلمون فيها هم الواحـات الـتي اسـتظللنا بهـا في فترة تيهنا.. ولولا العلوم الـتي علمونـا إياهـا والتـداريب الـتي دربونا عليها لبقينا في تلك الصحراء، ولم نخرج منها.

قلت: ما أعجب مـا تـذكره عن هـذه المدرسـة.. هـل قعـدت بصاحبها الفاقة عن أن يبنيها ويحسن بناءها؟

قال: لا.. لقد ذكر ما أمر الله ببني إسرائيل من السكون في التيه، فـراح يطبـق ذلـك على أولئـك المستضـعفين.. فلا يمكن أن يصلح المستضعفين إلا التيه.

قلت: لم؟

قـال: لقـد ركن الإسـرائيليون إلى ضـعفهم.. ولم يسـتجيبوا لنـبيهم الحـريص عليهم.. فلـذلك أمـروا أن يـتيهوا في الأرض.. ويكتسبوا في ذلك التيه من القوة والإرادة ما يستطيعون به دخول

الأرض المقدسة التي جبنوا عن الدخول إليها..

لقد ذكر الله تعالى ذلك، فقال : وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَعَلَ فِيكُمْ أَنْبِيَاءَ وَجَعَلَكُمْ مُلُوكًا وَآتَاكُمْ مَا لَمْ يُؤْتِ أَحَدًا مِنَ الْعَالَمِينَ (20) يَا قَوْمِ ادْخُلُوا الْأَرْضَ الْمُقَدَّسَةَ الَّتِي كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَرْتَدُّوا عَلَى أَدْبَارِكُمْ فَتَنْقَلِبُوا خَاسِرِينَ (21) قَالُوا يَا مُوسَى إِنَّ فِيهَا قَوْمًا جَبَّارِينَ وَإِنَّا لَنْ نَدْخُلَهَا حَتَّى يَخْرُجُوا مِنْهَا فَإِنْ يَخْرُجُوا مِنْهَا فَإِنَّا دَاخِلُونَ (22) قَالَ رَجُلَانِ مِنَ الَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمَا ادْخُلُوا عَلَيْهِمُ الْبَابَ فَإِذَا دَخَلْتُمُوهُ فَإِنَّكُمْ غَالِبُونَ وَعَلَى اللَّهِ فَتَوَكَّلُوا إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ (23) قَالُوا يَا مُوسَى إِنَّا لَنْ نَدْخُلَهَا أَبَدًا مَا دَامُوا فِيهَا فَاذْهَبْ أَنْتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلَا إِنَّا هَاهُنَا قَاعِدُونَ (24) قَالَ رَبِّ إِنِّي لَا أَمْلِكُ إِلَّا نَفْسِي وَأَخِي فَافْرُقْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ (25) قَالَ فَإِنَّهَا مُحَرَّمَةٌ عَلَيْهِمْ أَرْبَعِينَ سَنَةً يَتِيهُونَ فِي الْأَرْضِ فَلَا تَأْسَ عَلَى الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ (26) (المائدة)

قلت: فهل مكثت معهم في تيههم أربعين سنة؟

قال: لا.. لقد اكتفوا بأربعين يوما.. واكتفيت معهم بذلك بفضل الله ومنته.

قلت: فكيف أجزتم لأنفسكم أن تحولوا من أربعين سنة أربعين يوما؟

قال: لقد ذكر الله أن ليلة واحدة يمكنها أن تعدل ألف شهر.. وقد من الله علينا في ذلك التيه.. فعدل كل يوم منها سنة من سنين بني إسرائيل.

قلت: لا أزال لا أفهم.

قال: هل يتساوى الناس في بقائهم في المستشفيات؟

قلت: لا.. بل يختلفون.

قال: لم؟

قلت: يختلفون بحسب شدة المرض، وضعفه.. وبحسب

أنواع الأمراض.

قال: ولذلك فقد من الله علينا.. فخلصنا قبل دخولنا المدرسة من كثير من الأمراض التي كان تئن من وطأتها قلوب بني إسرائيل.

1 ـ الشجاعة

قلت: وعيت هذا.. فحدثني عن أول أساتذتكم في هذه المدرسة.. وما الذي تعلمتم منه؟

قال: لقد كان أول أستاذ لنا في تلك المدرسة رجل ممتلئ نورا وقوة.. وقد كان أشبه الناس في صفاته بحمزة بن عبد المطلب ذلك الصديق الولي صاحب رسول الله ﷺ وعمه.. وقد كان الجميع يطلقون عليه لذلك حمزة..

قلت: فقد تعلمتم على يديه علوم الشجاعة إذن؟

قال: أجل.. فلا يعلم الشجاعة إلا الشجعان.

قلت: فحدثني عما تعلمتم على يديه.

قال: لا يمكن إحصاء ذلك في هذا المجلس.. ولذلك سأكتفي بأول درس تلقيناه منه.. وفيه كثير مما يغنيك.

قلت: فحدثني عنه.

قال: عندما دخلنا عليه مجلسه في ذلك التيه.. خاطبنا بقوله: لن تتخلصوا من هذه المتاهة إلا بالشجاعة.. فلا يمكن للجبان أن يخرج من تيه نفسه، ولا من تيه الصحراء.

قلنا: فما الطريق إلى ذلك؟

قال: أول الطريق إلى ذلك التأسي بالشجعان، وتقمص شخصياتهم..

قال رجل منا: أنت تطلب منا أن نقرأ سيرة عنترة إذن.

قال: لا.. سيرة عنترة سيرة تختلط فيها الحقيقة بالخرافة.. ولا يمكن للخرافة أن تصلح أحدا.

قال آخر: فأين نجد سير الشجعان إذن؟

قال: في القرآن الكريم.

تعجبنا من قوله هذا، فقال: لا تتعجبوا.. ففي القرآن خبر كل شيء..

قلنا: فحدثنا عن الشجعان الذين ذكرهم القرآن الكريم.

قال: لا يمكن إحصاء ذلك.. ولذلك سأكتفي لكم بسبعة نماذج.. كل واحد منهم مدرسة من مدارس الشجاعة، وأستاذ من أساتذتها[1]..

قلنا: فحدثنا عن **أولهم**.

قال: أولهم إبراهيم ﵇.. ذلك النبي الكريم الذي وردت قصته في مواضع من القرآن الكريم.. فإبراهيم ﵇ فيها جميعا كان بطل التوحيد مقابل عبدة الأصنام من قومه الّذين كانوا يعيشون التعصّب واللجاجة والخشونة.

إن القرآن الكريم يذكر – بأسلوبه الفريد المؤثر- كيف تصدّى هذا النبي العظيم لأقوى سلطة في تلك الفترة لوحده ومن دون أن يكون له ناصر من قومه، في مقابل كثرة الأعداء الغاضبين، والذين كانوا يمثلون خطراً عليه، حيث كانوا يتمتعون بدعم الحكومة والسلطة في ذلك الزمان.

وقد ذكر الله تعالى السر الأول في تلك الشجاعة، وهو ما أوتيه إبراهيم ﵇ من مؤهّلات كثيرة منحته القدرة على تحمّل تلك المسؤولية العظيمة، والاستفادة مما أوتيه من مواهب وقابليات لتقوية دعائم الإيمان والتوحيد والتصدّي للعامل الأساس في شقاء البشرية، عبادة الأصنام والأوثان.. قال تعالى يذكر ذلك:﴿ وَلَقَدْ

1() رجعنا في هذه المواضع إلى (نفحات القرآن) للشيرازي، ومثله لكتابه (الأخلاق في القرآن)

آتَيْنَا إِبْرَاهِيمَ رُشْدَهُ مِنْ قَبْلُ وَكُنَّا بِهِ عَالِمِينَ (51) (الأنبياء)

وقد ذكر الله تعالى بعد هذه الآية الكريمة المظهــر الأول من مظاهر شجاعته.. وهو شجاعة الكلمة.. قال تعالى: إِذْ قَـالَ لِأَبِيـهِ وَقَوْمِهِ مَا هَذِهِ التَّمَاثِيـلُ الَّتِي أَنْتُمْ لَهَـا عَـاكِفُونَ (52) قَـالُوا وَجَـدْنَا آبَاءَنَا لَهَا عَابِدِينَ (53) قَالَ لَقَدْ كُنْتُمْ أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ فِي ضَــلَالٍ مُبِينٍ (54) قَالُوا أَجِئْتَنَا بِـالْحَقِّ أَمْ أَنْتَ مِنَ اللَّاعِبِينَ (55) قَـالَ بَـلْ رَبُّكُمْ رَبُّ السَّـــمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ الَّذِي فَطَـــرَهُنَّ وَأَنَــا عَلَى ذَلِكُمْ مِنَ الشَّاهِدِينَ (56) (الأنبياء)

ثم ذكر الله تعالى بعد هذا مظهرا آخر من مظاهر الشـجاعة، وهو شجاعة الفعل والتنفيذ، قال تعالى : وَتَاللَّهِ لَأَكِيدَنَّ أَصْـنَامَكُمْ بَعْدَ أَنْ تُوَلُّوا مُدْبِرِينَ (57) فَجَعَلَهُمْ جُذَاذًا إِلَّا كَبِيرًا لَهُمْ لَعَلَّهُمْ إِلَيْـهِ يَرْجِعُونَ (58) (الأنبياء)

وهكـذا تـرجم إبـراهيم عليه السلام قولـه في ميـدان العمـل بعـد أن استغلّ الفرصة المناسبة لذلك، فكسّر الأصـنام جميعهـا إلاّ الصـنم الأكـبر لعلّهم يثوبـون إلى رُشـدهم أو يرجعـون الى الصـنم الاكـبر المسبب لهذه الحادثة ليسألوه.

ثم ذكر الله تعالى بعد هذا مظهرا آخر من مظاهر الشـجاعة، وهو شجاعة الثبات على الموقف واسـتثماره إلى آخـر اللحظـات، قال تعالى : قَـالُوا مَنْ فَعَـلَ هَـذَا بِآلِهَتِنَـا إِنَّهُ لَمِنَ الظَّالِمِينَ (59) قَالُوا سَمِعْنَا فَتًى يَذْكُرُهُمْ يُقَـالُ لَـهُ إِبْـرَاهِيمُ (60) قَـالُوا فَـأْتُوا بِـهِ عَلَى أَعْيُنِ النَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَشْـــهَدُونَ (61) قَـــالُوا أَأَنْتَ فَعَلْتَ هَـــذَا بِآلِهَتِنَا يَا إِبْرَاهِيمُ (62) قَـالَ بَـلْ فَعَلَـهُ كَبِيرُهُمْ هَـذَا فَاسْـأَلُوهُمْ إِنْ كَـانُوا يَنْطِقُــونَ (63) فَرَجَعُــوا إِلَى أَنْفُسِــهِمْ فَقَــالُوا إِنَّكُمْ أَنْتُمُ الظَّالِمُونَ (64) ثُمَّ نُكِسُـوا عَلَى رُءُوسِـهِمْ لَقَـدْ عَلِمْتَ مَـا هَـؤُلَاءِ يَنْطِقُونَ (65) قَالَ أَفَتَعْبُـدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَـا لَا يَنْفَعُكُمْ شَـيْئًا وَلَا يَضُـرُّكُمْ (66) أُفٍّ لَكُمْ وَلِمَـا تَعْبُـدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَفَلَا تَعْقِلُـونَ (67) (الأنبياء)

ثم ذكر الله تعـالى نصـره لأوليائـه الـذين هـانت أرواحهم في سبيله، قال تعالى: قَالُوا حَرِّقُوهُ وَانْصُرُوا آلِهَتَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ فَاعِلِينَ

(68) قُلْنَا يَا نَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلَامًا عَلَى إِبْرَاهِيمَ (69) وَأَرَادُوا بِهِ كَيْدًا فَجَعَلْنَاهُمُ الْأَخْسَرِينَ (70) (الأنبياء)

والقرآن الكريم يذكر موقفا آخر من مواقف شجاعة إبراهيم ﷺ.. وهو قد يكون أشد من الأول وأعظم منه.. إنه حواره مع الملك، قال تعالى : أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِي حَاجَّ إِبْرَاهِيمَ فِي رَبِّهِ أَنْ آتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا أُحْيِي وَأُمِيتُ قَالَ إِبْرَاهِيمُ فَإِنَّ اللَّهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ (258) (البقرة)

تصوروا لو أن إبراهيم ﷺ كان صاحب قلب جبان ضعيف.. هل كان يمكنه أن يبقى له من العقل ما يستطيع أن يخاطب به ملكا ظالما مستبدا؟

قلنا: عرفنا الأول.. فحدثنا عن **الثاني**.

قال: هو موسى ﷺ.. فهو بجميع مواقفه نموذج، بل مدرسة من مدارس الشجاعة الكبرى.. ابتداء من أول رسالته إلى منتهاها، بل ابتداء من أول حياته إلى منتهاها..

اسمحوا لي أن أستعرض لكم بعض ما ورد في شأن شجاعته، وتأثيرها في حياته، بل في حياة أمة من الناس..

وسأنقل لكم ذلك من القرآن الكريم.. كتاب الحقائق والسلوك..

لقد قدم القرآن الكريم لحكاية موسى ﷺ ومواقفه الشجاعة بقوله : نَتْلُوا عَلَيْكَ مِن نَّبَإِ مُوسَى وَفِرْعَوْنَ بِالْحَقِّ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ (3) إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلا فِي الأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضْعِفُ طَائِفَةً مِّنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَاءهُمْ وَيَسْتَحْيِي نِسَاءهُمْ إِنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ (4) وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِي الأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ (5) وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِي الأَرْضِ وَنُرِي فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُم مَّا كَانُوا يَحْذَرُونَ (6) (القصص)

وفي ذلك إشارة جليلة إلى أن المستضعفين لا يمكنهم أن

يخرجوا من ضعفهم ما لم يتسلحوا بسلاح الشجاعة التي تتحدى كل الصعاب..

ثم ذكر الله موقفا شجاعا لأمه ما كان لها أن تقفه لو لم تتسلح بسلاح الإيمان، قال تعالى: ﴿ وَأَوْحَيْنَا إِلَى أُمِّ مُوسَى أَنْ أَرْضِعِيهِ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِي الْيَمِّ وَلا تَخَافِي وَلا تَحْزَنِي إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ (7) فَالْتَقَطَهُ آلُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا إِنَّ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا كَانُوا خَاطِئِينَ (8) وَقَالَتِ امْرَأَةُ فِرْعَوْنَ قُرَّةُ عَيْنٍ لِّي وَلَكَ لا تَقْتُلُوهُ عَسَى أَن يَنفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا وَهُمْ لا يَشْعُرُونَ (9) وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَى فَارِغًا إِن كَادَتْ لَتُبْدِي بِهِ لَوْلا أَن رَّبَطْنَا عَلَى قَلْبِهَا لِتَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ (10)﴾ (القصص)

ثم ذكر موقفا شجاعا لأخته.. وهي تتقصى في وسط تلك الظروف الصعبة عن أخيها المهدد بالقتل، قال تعالى: ﴿ وَقَالَتْ لأُخْتِهِ قُصِّيهِ فَبَصُرَتْ بِهِ عَن جُنُبٍ وَهُمْ لا يَشْعُرُونَ (11)﴾ (القصص)

ثم ذكر موقفا شجاعا آخر لأمه، وهي تتقدم مع جملة النسوة من غير أن تخاف أن يفطن لها، قال تعالى :﴿ وَحَرَّمْنَا عَلَيْهِ الْمَرَاضِعَ مِن قَبْلُ فَقَالَتْ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَى أَهْلِ بَيْتٍ يَكْفُلُونَهُ لَكُمْ وَهُمْ لَهُ نَاصِحُونَ (12) فَرَدَدْنَاهُ إِلَى أُمِّهِ كَيْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلا تَحْزَنَ وَلِتَعْلَمَ أَنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لا يَعْلَمُونَ (13)﴾ (القصص)

وفي كل هذه الإشارات السابقة دليل على أن الأمة تحتاج إلى الشجاعة بجميع أفرادها من غير أن تستغني عن أحد منهم.

ثم ذكر تعالى موقفا شجاعا لموسى ﷺ، وهو يقوم بنصرة المستضعف، قال تعالى :﴿ وَدَخَلَ الْمَدِينَةَ عَلَى حِينِ غَفْلَةٍ مِّنْ أَهْلِهَا فَوَجَدَ فِيهَا رَجُلَيْنِ يَقْتَتِلانِ هَذَا مِن شِيعَتِهِ وَهَذَا مِنْ عَدُوِّهِ فَاسْتَغَاثَهُ الَّذِي مِن شِيعَتِهِ عَلَى الَّذِي مِنْ عَدُوِّهِ فَوَكَزَهُ مُوسَى فَقَضَى عَلَيْهِ قَالَ هَذَا مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ عَدُوٌّ مُّضِلٌّ مُّبِينٌ (15)﴾ (القصص)

ثم ذكر موقفا شجاعا آخر له في نفس المحل، ومع نفس

الشخص، من غير أن يثنيه ما قد حصل له قبل ذلك معه، قال تعالى : فَأَصْبَحَ فِي الْمَدِينَةِ خَائِفًا يَتَرَقَّبُ فَإِذَا الَّذِي اسْتَنصَرَهُ بِالأَمْسِ يَسْتَصْرِخُهُ قَالَ لَهُ مُوسَى إِنَّكَ لَغَوِيٌّ مُّبِينٌ (18) فَلَمَّا أَنْ أَرَادَ أَن يَبْطِشَ بِالَّذِي هُوَ عَدُوٌّ لَّهُمَا قَالَ يَا مُوسَى أَتُرِيدُ أَن تَقْتُلَنِي كَمَا قَتَلْتَ نَفْسًا بِالأَمْسِ إِن تُرِيدُ إِلاَّ أَن تَكُونَ جَبَّارًا فِي الأَرْضِ وَمَا تُرِيدُ أَن تَكُونَ مِنَ الْمُصْلِحِينَ (19) (القصص)

ثم ذكر موقفا شجاعا آخر له، وهو يخرج من البلد الذي خاف على نفسه فيه.. وهكذا الشجاع، فهو مع شجاعته يعرف متى يقدم ومتى يفر، قال تعالى : وَجَاء رَجُلٌ مِّنْ أَقْصَى الْمَدِينَةِ يَسْعَى قَالَ يَا مُوسَى إِنَّ الْمَلأَ يَأْتَمِرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ فَاخْرُجْ إِنِّي لَكَ مِنَ النَّاصِحِينَ (20) فَخَرَجَ مِنْهَا خَائِفًا يَتَرَقَّبُ قَالَ رَبِّ نَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ (21) (القصص)

وهكذا تتسلسل المواقف الشجاعة لموسى ﷺ في مدين إلى أن قدر الله أن يكلف بالرسالة، وقد حصل له في بداية الرسالة من التدريب ما يزيد شجاعته شجاعة وقوته وقوة.. فالرسالة التي يكلف بها لا يتحملها الضعفاء، قال تعالى : فَلَمَّا قَضَى مُوسَى الأَجَلَ وَسَارَ بِأَهْلِهِ آنَسَ مِن جَانِبِ الطُّورِ نَارًا قَالَ لأَهْلِهِ امْكُثُوا إِنِّي آنَسْتُ نَارًا لَّعَلِّي آتِيكُم مِّنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ جَذْوَةٍ مِنَ النَّارِ لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ (29) فَلَمَّا أَتَاهَا نُودِي مِن شَاطِئِ الْوَادِي الأَيْمَنِ فِي الْبُقْعَةِ الْمُبَارَكَةِ مِنَ الشَّجَرَةِ أَن يَا مُوسَى إِنِّي أَنَا اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ (30) وَأَنْ أَلْقِ عَصَاكَ فَلَمَّا رَآهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَانٌّ وَلَّى مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ يَا مُوسَى أَقْبِلْ وَلا تَخَفْ إِنَّكَ مِنَ الآمِنِينَ (31) اسْلُكْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَاء مِنْ غَيْرِ سُوءٍ وَاضْمُمْ إِلَيْكَ جَنَاحَكَ مِنَ الرَّهْبِ فَذَانِكَ بُرْهَانَانِ مِن رَّبِّكَ إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ (32) (القصص)

ثم تتجلى الشجاعة بصورتها الكبرى في مواجهة أكبر طاغية ومستبد عرفه العالم في ذلك الزمان وفي كثير من الأزمنة ذلك الذي ادعى الربوبية.. وقف أمامه موسى ﷺ بشجاعة يخاطبه ويدعوه إلى ربه، ويجيبه عن كل التساؤلات التي يطرحها، قال تعالى : فَأْتِيَاهُ فَقُولا إِنَّا رَسُولا رَبِّكَ فَأَرْسِلْ مَعَنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ وَلا

تُعَذِّبْهُمْ قَدْ جِئْنَاكَ بِآيَةٍ مِّن رَّبِّكَ وَالسَّلامُ عَلَى مَنِ اتَّبَعَ الْهُدَى (47) إِنَّا قَدْ أُوحِيَ إِلَيْنَا أَنَّ الْعَذَابَ عَلَى مَن كَذَّبَ وَتَوَلَّى (48) قَالَ فَمَن رَّبُّكُمَا يَا مُوسَى (49) قَالَ رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى (50) قَالَ فَمَا بَالُ الْقُرُونِ الأُولَى (51) قَالَ عِلْمُهَا عِندَ رَبِّي فِي كِتَابٍ لاَّ يَضِلُّ رَبِّي وَلا يَنسَى (52) الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الأَرْضَ مَهْدًا وَسَلَكَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلاً وَأَنزَلَ مِنَ السَّمَاء مَاء فَأَخْرَجْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِّن نَّبَاتٍ شَتَّى (53) كُلُوا وَارْعَوْا أَنْعَامَكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِّأُوْلِي النُّهَى (54) مِنْهَا خَلَقْنَاكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَى (55) (طه)

ثم يرسم القرآن الكريم صورة أخرى من صور شجاعة موسى عليه السلام وهو يواجه السحرة، قال تعالى : قَالُوا يَا مُوسَى إِمَّا أَن تُلْقِيَ وَإِمَّا أَن نَّكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَلْقَى (65) قَالَ بَلْ أَلْقُوا فَإِذَا حِبَالُهُمْ وَعِصِيُّهُمْ يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِن سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَى (66) فَأَوْجَسَ فِي نَفْسِهِ خِيفَةً مُّوسَى (67) قُلْنَا لا تَخَفْ إِنَّكَ أَنتَ الأَعْلَى (68) وَأَلْقِ مَا فِي يَمِينِكَ تَلْقَفْ مَا صَنَعُوا إِنَّمَا صَنَعُوا كَيْدُ سَاحِرٍ وَلا يُفْلِحُ السَّاحِرُ حَيْثُ أَتَى (69) (طه)

ثم ذكر الله موقفا آخر من مواقف شجاعته، وهو في ذلك الموقف الصعب الذي وقف فيه حيث كان البحر أمامه والعدو وراءه.. في ذلك الحين تداركه إيمانه، فأنقذه، قال تعالى : فَأَتْبَعُوهُم مُّشْرِقِينَ (60) فَلَمَّا تَرَاءى الْجَمْعَانِ قَالَ أَصْحَابُ مُوسَى إِنَّا لَمُدْرَكُونَ (61) قَالَ كَلاَّ إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ (62) فَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى أَنِ اضْرِب بِّعَصَاكَ الْبَحْرَ فَانفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَالطَّوْدِ الْعَظِيمِ (63) وَأَزْلَفْنَا ثَمَّ الآخَرِينَ (64) وَأَنجَيْنَا مُوسَى وَمَن مَّعَهُ أَجْمَعِينَ (65) ثُمَّ أَغْرَقْنَا الآخَرِينَ (66) (الشعراء)

وهكذا.. لو تأملتم حياة موسى عليه السلام حسبما يورده القرآن تجدونه بطلا من الأبطال الكبار.. وشجاعا من الشجعان العظام.. وتجدون أنه لو لم يتخلق بهذا الخلق العظيم لما أمكنه أن يقوم بتلك المنجزات التي وفقه الله للقيام بها.

قلنا: وعينا هذا.. فحدثنا عن النموذج **الثالث**.

قال: النموذج الثالث ذكره القرآن في سياق إيراده لقصة موسى ﷺ.. إنهم السحرة..

لقد ذكر القرآن ماضي السحرة المملوء بالخنوع والذلة، فقال :﴿ فَجُمِعَ السَّحَرَةُ لِمِيقَاتِ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ (38) وَقِيلَ لِلنَّاسِ هَلْ أَنتُم مُّجْتَمِعُونَ (39) لَعَلَّنَا نَتَّبِعُ السَّحَرَةَ إِن كَانُوا هُمُ الْغَالِبِينَ (40) فَلَمَّا جَاء السَّحَرَةُ قَالُوا لِفِرْعَوْنَ أَئِنَّ لَنَا لأَجْرًا إِن كُنَّا نَحْنُ الْغَالِبِينَ (41) قَالَ نَعَمْ وَإِنَّكُمْ إِذًا لَّمِنَ الْمُقَرَّبِينَ (42) قَالَ لَهُم مُّوسَى أَلْقُوا مَا أَنتُم مُّلْقُونَ (43) فَأَلْقَوْا حِبَالَهُمْ وَعِصِيَّهُمْ وَقَالُوا بِعِزَّةِ فِرْعَوْنَ إِنَّا لَنَحْنُ الْغَالِبُونَ (44)﴾ (الشعراء)

ثم ذكر كيف تحولوا بفعل الإيمان إلى أبطال شجاع لم يستطع فرعون بكل ما أتي من وسائل الاستبداد أن يثنيهم عن الإيمان الذي زين الله قلوبهم به، قال تعالى :﴿ فَأُلْقِيَ السَّحَرَةُ سُجَّدًا قَالُوا آمَنَّا بِرَبِّ هَارُونَ وَمُوسَى (70) قَالَ آمَنتُمْ لَهُ قَبْلَ أَنْ آذَنَ لَكُمْ إِنَّهُ لَكَبِيرُكُمُ الَّذِي عَلَّمَكُمُ السِّحْرَ فَلأقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلافٍ وَلأصَلِّبَنَّكُمْ فِي جُذُوعِ النَّخْلِ وَلَتَعْلَمُنَّ أَيُّنَا أَشَدُّ عَذَابًا وَأَبْقَى (71) قَالُوا لَن نُّؤْثِرَكَ عَلَى مَا جَاءنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالَّذِي فَطَرَنَا فَاقْضِ مَا أَنتَ قَاضٍ إِنَّمَا تَقْضِي هَذِهِ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا (72) إِنَّا آمَنَّا بِرَبِّنَا لِيَغْفِرَ لَنَا خَطَايَانَا وَمَا أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ السِّحْرِ وَاللَّهُ خَيْرٌ وَأَبْقَى (73) إِنَّهُ مَن يَأْتِ رَبَّهُ مُجْرِمًا فَإِنَّ لَهُ جَهَنَّمَ لا يَمُوتُ فِيهَا وَلا يَحْيى (74) وَمَنْ يَأْتِهِ مُؤْمِنًا قَدْ عَمِلَ الصَّالِحَاتِ فَأُوْلَئِكَ لَهُمُ الدَّرَجَاتُ الْعُلَى (75) جَنَّاتُ عَدْنٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَذَلِكَ جَزَاء مَن تَزَكَّى (76)﴾ (طه)

إن هذا الموقف يبرهن برهانا صادقا على أن الإيمان هو الشجرة المباركة التي تنبت كل أصناف ثمار الخير الطيبة.

قلنا: وعينا هذا.. فحدثنا عن النموذج **الرابع**.

قال: لقد ذكره الله تعالى في سرده لقصة طالوت وجنوده الشجعان، قال تعالى :﴿ فَلَمَّا فَصَلَ طَالُوتُ بِالْجُنُودِ قَالَ إِنَّ اللَّهَ مُبْتَلِيكُم بِنَهَرٍ فَمَن شَرِبَ مِنْهُ فَلَيْسَ مِنِّي وَمَن لَّمْ يَطْعَمْهُ فَإِنَّهُ مِنِّي إِلاَّ مَنِ اغْتَرَفَ غُرْفَةً بِيَدِهِ فَشَرِبُواْ مِنْهُ إِلاَّ قَلِيلاً مِّنْهُمْ فَلَمَّا

جَـاوَزَهُ هُـوَ وَالَّذِينَ آمَنُـواْ مَعَـهُ قَـالُواْ لاَ طَاقَـةَ لَنَـا الْيَـوْمَ بِجَـالُوتَ وَجُنودِهِ قَالَ الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلاَقُوا اللَّهِ كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللَّهِ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ (249) وَلَمَّا بَرَزُواْ لِجَـالُوتَ وَجُنُودِهِ قَـالُواْ رَبَّنَـا أَفْـرِغْ عَلَيْنَـا صَـبْرًا وَثَبِّتْ أَقْـدَامَنَا وَانصُـرْنَا عَلَى الْقَـوْمِ الْكَـافِرِينَ (250) فَهَزَمُـوهُم بِـإِذْنِ اللَّهِ وَقَتَـلَ دَاوُدُ جَـالُوتَ وَآتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَهُ مِمَّا يَشَـاء وَلَـوْلاَ دَفْـعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ الأَرْضُ وَلَكِنَّ اللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْعَـالَمِينَ (251) (البقرة)

فهذه الآيات الكريمة نموذج للحاكم الشجاع الذي يعرف كيف ينتقي جنده.. وفيها دليل على أن الجبناء هم السبب الأكبر في كل هزيمة.. وفيها دليل على أن مزود الشجاعة الأكبر هو الإيمان بالله والثقـة بـه والاعتمـاد عليـه.. وفيهـا دليـل على أن المـرء لا يكـون شجاعا إلا إذا أمسك نفسه عن شـهواته، فـأول الشـجاعة القـدرة على قهر النفس والتحكم فيها.

قلنا: وعينا هذا.. فحدثنا عن النموذج **الخامس**.

قال: لقد ذكره الله تعالى عند عرضـه لقصـة الرسـل الـذين أرسـلهم اللـه لتـك القريـة الجاحـدة الـتي لم يكفهـا لا رسـول ولا رسولان، بل احتاجوا إلى أن يعززوا بثالث، قال تعالى : وَاضْـرِبْ لَهُم مَّثَلاً أَصْحَابَ الْقَرْيَةِ إِذْ جَاءهَا الْمُرْسَلُونَ (13) إِذْ أَرْسَـلْنَا إِلَيْهِمُ اثْنَيْنِ فَكَذَّبُوهُمَا فَعَزَّزْنَا بِثَالِثٍ فَقَالُوا إِنَّا إِلَيْكُم مُّرْسَلُونَ (14) قَالُوا مَـا أَنتُمْ إِلاَّ بَشَـرٌ مِّثْلُنَـا وَمَـا أَنـزَلَ الـرَّحْمن مِن شَـيْءٍ إِنْ أَنتُمْ إِلاَّ تَكْذِبُونَ (15) قَالُوا رَبُّنَا يَعْلَمُ إِنَّا إِلَيْكُمْ لَمُرْسَلُونَ (16) وَمَا عَلَيْنَا إِلاَّ الْبَلاَغُ الْمُبِينُ (17) قَـالُوا إِنَّا تَطَيَّرْنَـا بِكُمْ لَئِن لَّمْ تَنتَهُـوا لَنَـرْجُمَنَّكُمْ وَلَيَمَسَّنَّكُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ (18) قَالُوا طَائِرُكُمْ مَعَكُمْ أَئِن ذُكِّرْتُم بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ مُّسْـرِفُونَ (19) وَجَـاء مِنْ أَقْصَـى الْمَدِينَـةِ رَجُـلٌ يَسْـعَى قَالَ يَا قَوْمِ اتَّبِعُوا الْمُرْسَلِينَ (20) اتَّبِعُوا مَن لاَّ يَسْـأَلُكُمْ أَجْـرًا وَهُم مُّهْتَدُونَ (21) وَمَا لِي لاَ أَعْبُـدُ الَّذِي فَطَـرَنِي وَإِلَيْـهِ تُرْجَعُـونَ (22) أَأَتَّخِذُ مِن دُونِهِ آلِهَةً إِن يُرِدْنِ الـرَّحْمَن بِضُـرٍّ لاَّ تُغْنِ عَنِّي شَـفَاعَتُهُمْ شَـيْئًا وَلاَ يُنقِـذُونِ (23) إِنِّي إِذًا لَّفِي ضَـلاَلٍ مُّبِينٍ (24) إِنِّي آمَنتُ بِرَبِّكُمْ فَاسْمَعُونِ (25) قِيلَ ادْخُلِ الْجَنَّةَ قَالَ يَا لَيْتَ قَوْمِي يَعْلَمُونَ

(26) بِمَـا غَفَـرَ لِي رَبِّي وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُكْـرَمِينَ (27) وَمَـا أَنزَلْنَـا عَلَى قَوْمِهِ مِن بَعْدِهِ مِنْ جُندٍ مِّنَ السَّمَاء وَمَا كُنَّا مُـنزِلِينَ (28) إِن كَانَتْ إِلاَّ صَيْحَةً وَاحِدَةً فَإِذَا هُمْ خَامِدُونَ (29) (يس)

قلنا: وعينا هذا.. فحدثنا عن النموذج **السادس**.

قال: لقد ذكره الله تعالى عند عرضه لقصة ذلك الرجل المؤمن الذي كان يعيش في بلاط فرعون بكل ما فيه من ألوان المنعة والمتعة.. وكان الرجل مؤمنا.. وكان في إمكانه أن يظل كاتما لإيمانه.. ولكنه آثر أن يتحدى فرعون وزبانيته، ويصرح بالحق الذي كان يكتمه عندما رأى المصلحة في ذلك التصريح.. قال تعالى يذكر هذا الموقف، ويذكر حمايته لصاحبه : وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَى بِآيَاتِنَا وَسُلْطَانٍ مُّبِينٍ (23) إِلَى فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَقَارُونَ فَقَالُوا سَاحِرٌ كَذَّابٌ (24) فَلَمَّا جَاءهُم بِالْحَقِّ مِنْ عِندِنَا قَالُوا اقْتُلُوا أَبْنَاء الَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ وَاسْتَحْيُوا نِسَاءهُمْ وَمَا كَيْدُ الْكَافِرِينَ إِلاَّ فِي ضَلالٍ (25) وَقَالَ فِرْعَوْنُ ذَرُونِي أَقْتُلْ مُوسَى وَلْيَدْعُ رَبَّهُ إِنِّي أَخَافُ أَن يُبَدِّلَ دِينَكُمْ أَوْ أَن يُظْهِرَ فِي الأَرْضِ الْفَسَادَ (26) وَقَالَ مُوسَى إِنِّي عُذْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُم مِّن كُلِّ مُتَكَبِّرٍ لاَّ يُؤْمِنُ بِيَوْمِ الْحِسَابِ (27) وَقَالَ رَجُلٌ مُّؤْمِنٌ مِّنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ إِيمَانَهُ أَتَقْتُلُونَ رَجُلاً أَن يَقُولَ رَبِّيَ اللَّهُ وَقَدْ جَاءكُم بِالْبَيِّنَاتِ مِن رَّبِّكُمْ وَإِن يَكُ كَاذِبًا فَعَلَيْهِ كَذِبُهُ وَإِن يَكُ صَادِقًا يُصِبْكُم بَعْضُ الَّذِي يَعِدُكُمْ إِنَّ اللَّهَ لا يَهْدِي مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَّابٌ (28) يَا قَوْمِ لَكُمُ الْمُلْكُ الْيَوْمَ ظَاهِرِينَ فِي الأَرْضِ فَمَن يَنصُرُنَا مِن بَأْسِ اللَّهِ إِنْ جَاءنَا قَالَ فِرْعَوْنُ مَا أُرِيكُمْ إِلاَّ مَا أَرَى وَمَا أَهْدِيكُمْ إِلاَّ سَبِيلَ الرَّشَادِ (29) وَقَالَ الَّذِي آمَنَ يَا قَوْمِ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُم مِّثْلَ يَوْمِ الأَحْزَابِ (30) مِثْلَ دَأْبِ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَالَّذِينَ مِن بَعْدِهِمْ وَمَا اللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِّلْعِبَادِ (31) وَيَا قَوْمِ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ يَوْمَ التَّنَادِ (32) يَوْمَ تُوَلُّونَ مُدْبِرِينَ مَا لَكُم مِّنَ اللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ وَمَن يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ (33) وَلَقَدْ جَاءكُمْ يُوسُفُ مِن قَبْلُ بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا زِلْتُمْ فِي شَكٍّ مِّمَّا جَاءكُم بِهِ حَتَّى إِذَا هَلَكَ قُلْتُمْ لَن يَبْعَثَ اللَّهُ مِن بَعْدِهِ رَسُولاً كَذَلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ مُّرْتَابٌ (34) الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَانٍ أَتَاهُمْ كَبُرَ مَقْتًا عِندَ اللَّهِ وَعِندَ الَّذِينَ آمَنُوا كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَى كُلِّ قَلْبِ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ (35) وَقَالَ

فِرْعَوْنُ يَا هَامَانُ ابْنِ لِي صَـرْحًا لَّعَلِّي أَبْلُغُ الأَسْـبَابَ (36) أَسْـبَابَ السَّمَاوَاتِ فَـأَطَّلِعَ إِلَى إِلَـهِ مُوسَـى وَإِنِّي لأَظُنُّهُ كَاذِبًـا وَكَـذَلِكَ زُيِّنَ لِفِرْعَوْنَ سُوءُ عَمَلِهِ وَصُدَّ عَنِ السَّبِيلِ وَمَا كَيْدُ فِرْعَوْنَ إِلاَّ فِي تَبَابٍ (37) وَقَالَ الَّذِي آمَنَ يَا قَوْمِ اتَّبِعُونِ أَهْدِكُمْ سَبِيلَ الرَّشَادِ (38) يَـا قَوْمِ إِنَّمَا هَذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا مَتَـاعٌ وَإِنَّ الآخِـرَةَ هِيَ دَارُ الْقَـرَارِ (39) مَنْ عَمِلَ سَيِّئَةً فَلا يُجْـزَى إِلاَّ مِثْلَهَـا وَمَنْ عَمِـلَ صَـالِحًا مِّن ذَكَـرٍ أَوْ أُنثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُوْلَئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ يُرْزَقُونَ فِيهَا بِغَيْرِ حِسَـابٍ (40) وَيَا قَوْمِ مَا لِي أَدْعُوكُمْ إِلَى النَّجَـاةِ وَتَـدْعُونَنِي إِلَى النَّارِ (41) تَدْعُونَنِي لأَكْفُرَ بِاللَّهِ وَأُشْرِكَ بِهِ مَـا لَيْسَ لِي بِـهِ عِلْمٌ وَأَنَـا أَدْعُـوكُمْ إِلَى الْعَزِيزِ الْغَفَّارِ (42) لا جَرَمَ أَنَّمَا تَـدْعُونَنِي إِلَيْـهِ لَيْسَ لَـهُ دَعْـوَةٌ فِي الـدُّنْيَا وَلا فِي الآخِـرَةِ وَأَنَّ مَرَدَّنَـا إِلَى اللَّهِ وَأَنَّ الْمُسْـرِفِينَ هُمْ أَصْحَابُ النَّارِ (43) فَسَتَذْكُرُونَ مَـا أَقُـولُ لَكُمْ وَأُفَـوِّضُ أَمْـرِي إِلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ (44) فَوَقَاهُ اللَّهُ سَيِّئَاتِ مَا مَكَرُوا وَحَـاقَ بِآلِ فِرْعَوْنَ سُوءُ الْعَذَابِ (45) (غافر)

قلنا: وعينا هذا.. فحدثنا عن النموذج **السابع**.

قال: لقد مثل هذا النموذج صحابة رسول اللـه المنتجـبين.. فقد ذكر القرآن هذا الموقف الشجاع من مـواقفهم ليكـون عـبرة للأجيال، قال تعالى : وَلَمَّا رَأَى الْمُؤْمِنُونَ الأَحْزَابَ قَـالُوا هَـذَا مَـا وَعَـدَنَا اللَّهُ وَرَسُـولُهُ وَصَـدَقَ اللَّهُ وَرَسُـولُهُ وَمَـا زَادَهُمْ إِلاَّ إِيمَانًـا وَتَسْلِيمًا (22) (الأحزاب)

ثم أثنى الله عليهم بسبب هذا الموقف الشجاع، فقـال: مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُم مَّن قَضَى نَحْبَـهُ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِـرُ وَمَـا بَـدَّلُوا تَبْـدِيلاً (23) لِيَجْـزِيَ اللَّهُ الصَّـادِقِينَ بِصِدْقِهِمْ وَيُعَـذِّبَ الْمُنَـافِقِينَ إِن شَـاء أَوْ يَتُـوبَ عَلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ كَـانَ غَفُورًا رَّحِيمًا (24) (الأحزاب)

وتظهـر عظمـة هـذا الموقـف عنـدما نقارنـه بتلـك المواقـف الجبانة التي وصف الله أهلها، ووصف معها الموقف الشديد الـذي امتحنوا به، فقال: إِذْ جَـاؤُوكُم مِّن فَـوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْـفَلَ مِنكُمْ وَإِذْ زَاغَتْ الأَبْصَارُ وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِاللَّهِ الظُّنُونَـا (10) هُنَالِـكَ ابْتُلِيَ الْمُؤْمِنُـونَ وَزُلْزِلُـوا زِلْـزَالاً شَـدِيدًا (11) وَإِذْ يَقُـولُ

الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ مَّا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ إِلاَّ غُرُورًا (12) وَإِذْ قَالَت طَّائِفَةٌ مِّنْهُمْ يَا أَهْلَ يَثْرِبَ لا مُقَامَ لَكُمْ فَارْجِعُوا وَيَسْتَأْذِنُ فَرِيقٌ مِّنْهُمُ النَّبِيَّ يَقُولُونَ إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ وَمَا هِيَ بِعَوْرَةٍ إِن يُرِيدُونَ إِلاَّ فِرَارًا (13) وَلَوْ دُخِلَتْ عَلَيْهِم مِّنْ أَقْطَارِهَا ثُمَّ سُئِلُوا الْفِتْنَةَ لآتَوْهَا وَمَا تَلَبَّثُوا بِهَا إِلاَّ يَسِيرًا (14) وَلَقَدْ كَانُوا عَاهَدُوا اللَّهَ مِن قَبْلُ لا يُوَلُّونَ الأَدْبَارَ وَكَانَ عَهْدُ اللَّهِ مَسْؤُولاً (15) قُل لَّن يَنفَعَكُمُ الْفِرَارُ إِن فَرَرْتُم مِّنَ الْمَوْتِ أَوِ الْقَتْلِ وَإِذًا لاَّ تُمَتَّعُونَ إِلاَّ قَلِيلاً (16) قُلْ مَن ذَا الَّذِي يَعْصِمُكُم مِّنَ اللَّهِ إِنْ أَرَادَ بِكُمْ سُوءًا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ رَحْمَةً وَلا يَجِدُونَ لَهُم مِّن دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا وَلا نَصِيرًا (17) قَدْ يَعْلَمُ اللَّهُ الْمُعَوِّقِينَ مِنكُمْ وَالْقَائِلِينَ لإِخْوَانِهِمْ هَلُمَّ إِلَيْنَا وَلا يَأْتُونَ الْبَأْسَ إِلاَّ قَلِيلاً (18) أَشِحَّةً عَلَيْكُمْ فَإِذَا جَاء الْخَوْفُ رَأَيْتَهُمْ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ تَدُورُ أَعْيُنُهُمْ كَالَّذِي يُغْشَى عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ فَإِذَا ذَهَبَ الْخَوْفُ سَلَقُوكُم بِأَلْسِنَةٍ حِدَادٍ أَشِحَّةً عَلَى الْخَيْرِ أُوْلَئِكَ لَمْ يُؤْمِنُوا فَأَحْبَطَ اللَّهُ أَعْمَالَهُمْ وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا (19) يَحْسَبُونَ الأَحْزَابَ لَمْ يَذْهَبُوا وَإِن يَأْتِ الأَحْزَابُ يَوَدُّوا لَوْ أَنَّهُم بَادُونَ فِي الأَعْرَابِ يَسْأَلُونَ عَنْ أَنبَائِكُمْ وَلَوْ كَانُوا فِيكُم مَّا قَاتَلُوا إِلاَّ قَلِيلاً (20) (الأحزاب)

وفي محل آخر ذكر القرآن الكريم المواقف الشجاعة لهذه الثلة المؤمنة، وقارنهم بغيرهم من ضعاف النفوس أولئك الذين قذف الشيطان في قلوبهم الرعب، قال تعالى : وَمَا أَصَابَكُمْ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ فَبِإِذْنِ اللَّهِ وَلِيَعْلَمَ الْمُؤْمِنِينَ (166) وَلْيَعْلَمَ الَّذِينَ نَافَقُواْ وَقِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْاْ قَاتِلُواْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَوِ ادْفَعُواْ قَالُواْ لَوْ نَعْلَمُ قِتَالاً لاَّتَّبَعْنَاكُمْ هُمْ لِلْكُفْرِ يَوْمَئِذٍ أَقْرَبُ مِنْهُمْ لِلإِيمَانِ يَقُولُونَ بِأَفْوَاهِهِم مَّا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يَكْتُمُونَ (167) الَّذِينَ قَالُواْ لإِخْوَانِهِمْ وَقَعَدُواْ لَوْ أَطَاعُونَا مَا قُتِلُوا قُلْ فَادْرَؤُوا عَنْ أَنفُسِكُمُ الْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ (168) وَلاَ تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُواْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاء عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ (169) فَرِحِينَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ وَيَسْتَبْشِرُونَ بِالَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُواْ بِهِم مِّنْ خَلْفِهِمْ أَلاَّ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ (170) يَسْتَبْشِرُونَ بِنِعْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ وَفَضْلٍ وَأَنَّ اللَّهَ لاَ يُضِيعُ أَجْرَ الْمُؤْمِنِينَ (171) الَّذِينَ اسْتَجَابُواْ لِلّهِ وَالرَّسُولِ مِن بَعْدِ مَآ أَصَابَهُمُ الْقَرْحُ لِلَّذِينَ أَحْسَنُواْ مِنْهُمْ وَاتَّقَواْ أَجْرٌ عَظِيمٌ (172) الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ

جَمَعُـواْ لَكُمْ فَاخْشَـوْهُمْ فَـزَادَهُمْ إِيمَانـاً وَقَـالُواْ حَسْـبُنَا اللّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ (173) فَانقَلَبُواْ بِنِعْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ وَفَضْـلٍ لَّمْ يَمْسَسْـهُمْ سُـوءٌ وَاتَّبَعُــواْ رِضْــوَانَ اللَّهِ وَاللَّهُ ذُو فَضْــلٍ عَظِيمٍ (174) إِنَّمَــا ذَلِكُمُ الشَّيْطَانُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَـاءهُ فَلاَ تَخَـافُوهُمْ وَخَـافُونِ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ (175) (آل عمران)

وفي هــذه الآيــة دليــل آخــر على أن الشــجاعة بنت طيبــة للإيمان.. وأن الجبن ابن خسيس للشيطان.. فالشيطان هـو الـذي يقذف المخافة في القلوب الممتلئة بالجبن..

وفي موضـع آخـر يـذكر القـرآن الكـريم السـر الـذي جعـل المؤمنين يقدمون في جميع غزواتهم ولا يحجمـون ولا يـتزحزحون مهما كانت قوة العدو، قال تعالى : قُلْ هَلْ تَرَبَّصُونَ بِنَا إِلاَّ إِحْـدَى الْحُسْنَيَيْنِ وَنَحْنُ نَتَرَبَّصُ بِكُمْ أَن يُصِـيبَكُمُ اللَّهُ بِعَـذَابٍ مِّنْ عِنـدِهِ أَوْ بِأَيْدِينَا فَتَرَبَّصُواْ إِنَّا مَعَكُم مُّتَرَبِّصُونَ (52) (التوبة)

إن هذه الآية الكريمـة تشـير إلى أن شـجاعة أصـحاب النـبي الأكـرم تنطلـق من موقـع الإيمـان باللـه تعـالى، حيث أنّ هـؤلاء المؤمنين يرون أنفسهم في ميدان الحرب على مفـترق طـريقين، وكليهما يؤدّيان بهما إلى الجنّة ورضا الله تعالى: طريق يؤدي إلى الشهادة، وبالتالي إلى السعادة العظمى في الحياة الآخرة، والآخر يقودهم إلى النصر على العدو، وهـو أيضـاً مبعث الفخـر والاعـتزاز لهم في الــدنيا والآخــرة، في حين أنّ العــدو محكــوم بالهزيمــة والخسران بأيّة حال، فإما الموت الذليل والمهين في هـذه الـدنيا، أو عذاب الله في الآخرة.

وبديهي أنّ الشخص الّذي يعيش هذه الرؤيـة سـوف لن يـدع أيّ خــوف وضـعف يتســرّب إلى قلبـه، وبـذلك يتخلّص من هـذه الرذيلة الأخلاقية الكبيرة.

***

بعد أن مكثنـا مـدة في صـحبة حمـزة نتعلم على يديـه علـوم الشجاعة، ونتدرب بما تقتضيه من أنواع التـدريب، أمرنـا أن نسـير في المتاهة لنلقى الواحة الثانية التي تعلمنا فيها علوم القناعة..

2 ـ القناعة

قلت: فمن كان أستاذكم فيها؟

قال: رجل من أهل الله امتلأ قناعة وزهدا وورعا وعلما.

قلت: شوقتني إليه، فمن هو؟

قال: لقد سمعتهم يسمونه (ابن الحاج البَلْفِيقي)[1]

قلت: لم أسمع بهذا الاسم من قبل.

قال: فاسمع به.. فما أكثر ما أتحف الله به هذه الأمة من العلماء والأولياء ممن عرفهم الناس، وممن لم يعرفوهم.

قلت: فحدثني عما تعلمتم على يديه.

قال: لقد تعلمنا على يديه الكثير.. كان أول ما قال لنا عندما قابلناه في تلك الواحة الجميلة من واحات الإيمان:

إذا أظمأتْكَ أكفُّ اللئام ... كَفَتْكَ القناعةُ شبعاً وريّا
فكن رجلاً رجله في الثرى ... وهامة همّتهِ في الثريّا
أبيّاَ لنائلِ ذي ثروةٍ ... تراه بما في يديه أبيّا

ثم قال لنا: لا يمكن أن يشتد عود الإنسان ما لم يرزقه الله بالقناعة التي تدفع عنه ألم الحاجة، وترفع عنه ذل السؤال.. فالقنوع هو المتحرر من كل القيود التي تثقل كواهل المستضعفين.

قلنا: إن قولك هذا يحتاج إلى البراهين التي تؤيده.

---

[1] () أشير به إلى محمد بن محمد بن إبراهيم بن محمد السُّلَمي، أبو البركات ابن الحاج البَلْفِيقي (حدود 680 ـ 771 هـ)، قال ابن خلدون: كان شيخ المحدّثين والفقهاء والأُدباء والصوفيّة والخطباء بالأندلس. أخذ عنه: ابن خلدون، والحضرمي، وأبو زكريا السرّاج، ولسان الدين ابن الخطيب. وصنّف كتباً، منها: أسماء الكتب والتعريف بمؤلفيها، العلن في أنباء أبناء الزمن، الإفصاح فيمن عرف بالأندلس بالصلاح، مشتبهات مصطلحات العلوم، سلوة الخاطر، قد يكبو الجواد في غلطة أربعين من النقاد، وديوان شعره سماه: العذب والأُجاج. (انظر: شجرة النور الزكية 229 برقم 824) وقد اخترناه هنا لأجل الأبيات التي ذكرناها في متن الرواية.

قال: ما تقولون في الأسد.. هل هو قـوي شـديد.. أم ضـعيف لين؟

قلنا: لاشك في قوته وشدته وبطشه.. بل لا يخـالف في ذلـك أحد.

قال: ولكن المسكين.. وتحت وطأة الطمع يتحول إلى بهلوان يضحك الناس، ولا يخيفهم.

قلنا: صدقت.. فما المخرج من ذلك؟

قال: لا يخـرج الـذليل من ذلـه إلا القناعـة بمـا آتـاه اللـه من فضله.. فمن طمع وقع(1).

قلنا: فما القناعة؟

قال: هي تلك التي أثنى اللـه على أهلهـا خـير الثنـاء، فقـال : ﴿ لِلْفُقَراءِ الَّذِينَ أُحْصِـرُوا فِي سَـبِيلِ اللَّهِ لا يَسْـتَطِيعُونَ ضَـرْباً فِي الْأَرْضِ يَحْسَـبُهُمُ الْجاهِـلُ أَغْنِيـاءَ مِنَ التَّعَفُّفِ تَعْـرِفُهُمْ بِسِـيماهُمْ لا يَسْـئَلُونَ النَّاسَ إِلْحافـاً وَمـا تُنْفِقُـوا مِنْ خَيْـرٍ فَـإِنَّ اللَّهَ بِـهِ عَلِيمٌ (273)﴾ (البقرة)

ودعا إلى التمسك بها، فقال :﴿ وَابْتَلُوا الْيَتامى حَتَّى إِذا بَلَغُـوا النِّكاحَ فَإِنْ آنَسْتُمْ مِنْهُمْ رُشْـداً فَـادْفَعُوا إِلَيْهِمْ أَمْـوالَهُمْ وَلا تَأْكُلُوهـا إِسْرافاً وَبِداراً أَنْ يَكْبَرُوا وَمَنْ كانَ غَنِيًّا فَلْيَسْتَعْفِفْ وَمَنْ كانَ فَقِيراً فَلْيَأْكُلْ بِالْمَعْرُوفِ فَإِذا دَفَعْتُمْ إِلَيْهِمْ أَمْوالَهُمْ فَأَشْهِدُوا عَلَيْهِمْ وَكَفى بِاللَّهِ حَسِيباً (6)﴾ (النساء)

قلنا: فما منزلتها من الدين؟

قال: لقد ذكر رسول الله ﷺ ذلـك، فقـال: (طـوبى لمن هـدي إلى الإسلام، وكان عيشه كفافا وقنع)(2)

---

(1) تحدثنا بالتفصيل عن القناعة وأسبابها وكيفيـة التحقـق بهـا في رسـالة (كنـوز الفقـراء)، فلذلك نكتفي هنا بمختصر عنها.

(2) رواه الترمذي واللفظ له، وقال: هذا حديث حسن صـحيح. والحـاكم وقـال: صـحيح على شرط مسلم ووافقه الذهبي.

وقال: (قد أفلح من أسلم، ورزق كفافا، وقنّعه اللّه بمـا آتـاه)(1)

قلنا: فما أثرها.. وما قيمتها؟

قال: لقد ذكر رسول الله ذلك، فقال: (كن ورعا تكن أعبـد النّاس، وكن قنعا تكن أشكر النّاس، وأحبّ للنّاس ما تحبّ لنفسك تكن مؤمنا، وأحسن جوار من جاورك تكن مسلما، وأقـلّ الضّـحك، فإنّ كثرة الضّحك تميت القلب)(2)

وقال: (إنّ أغبط أوليـائي عنـدي لمـؤمن خفيـف الحـاذ(3) ذو حظّ من الصّلاة، أحسن عبادة ربّه وأطاعه في السّرّ، وكان غامضا في النّاس، لا يشار إليه بالأصابع، وكـان رزقـه كفافـا، فصـبر على ذلك)، ثمّ نفض بيده، فقال: (عجّلت منيّته، قلّت بواكيه، قلّ تراثـه)(4)

قلنا: فما السبيل إليها؟

قال: لقد ذكـر رسـول اللـه ذلـك، فقـال: (انظـروا إلى من أسـفل منكم، ولا تنظـروا إلى من هـو فـوقكم. فهـو أجـدر أن لا تزدروا نعمة اللّه)(5)

وكان يدعو، فيقول: (اللّهمّ قنّعني بمـا رزقتـني، وبـارك لي فيه، واخلف على كلّ غائبة لي بخير)(6)

وحدث حكيم بن حزام قال: سألت رسول اللّـه فأعطـاني،

1() رواه مسلم.

2() رواه ابن ماجة. والبيهقي في الزهد الكبير. وعند الترمذي بنحوه.

3() قال ابن الأثير: الحاذ في الأصل بطن الفخذ، وقيـل: هـو الظهـر، والمـراد في الحـديث: الخفيف الظهر من العيال، القليل المال، القليل الحظ من الدنيا. جامع الأصول (10/ 138)

4() رواه الترمذي واللفظ له وقال: هذا حديث حسن..

5() رواه البخاري ومسلم.

6() رواه الحاكم وقال: حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه ووافقه الذهبي.

ثمّ سألته فأعطاني، ثمّ سألته فأعطاني، ثمّ قال: (يا حكيم، إن هذا المال خضرة حلوة، فمن أخذه بسخاوة نفس بورك له فيه، ومن أخذه بإشراف نفس لم يبارك له فيه، كالّذي يأكل ولا يشبع. اليد العليا خير من اليد السفلى). قال حكيم: فقلت: يا رسول اللّه، والّذي بعثك بالحقّ لا أرزأ أحدا بعدك شيئا حتّى أفارق الدّنيا[1].

قال رجل منا: ولكن النفس تحب الغنى.

التفت إليه، وقال:(ليس الغنى عن كثرة العرض، ولكنّ الغنى غنى النّفس)[2]

قال آخر: ولكن الشريعة لم تحرم الغنى ولا كثرة المال.

التفت إليه، وقال:(ما طلعت شمس قطّ إلّا وبجنبتيها ملكان، إنّهما يسمعان أهل الأرض إلّا الثّقلين: أيّها النّاس، هلمّوا إلى ربّكم، فإنّ ما قلّ وكفى خير ممّا كثر وألهى، وما غربت شمس قطّ إلّا وبجنبتيها ملكان يناديان: اللّهمّ عجّل لمنفق خلفا وعجّل لممسك تلفا)[3]

***

بقينا على ذلك مدة نسأله، فلا يجيبنا إلا بكتاب ربنا وسنة نبينا.. ثم دربنا بما يرتبط بالقناعة من أنواع التداريب.. ثم أمرنا بالسير للبحث عن واحة أخرى من واحات الشدة الإيمانية.. لا يمكن أن تتحق الشدة الإيمانية من دونها.

3 ـ العزة

قلت: فمن كان أستاذها؟

قال: رجل امتلأ عزة ورفعة وشدة مع كونه في ظاهره من

1() رواه البخاري ومسلم.

2() رواه البخاري ومسلم.

3() رواه ابن السني في القناعة، والحاكم واللفظ له، وقال صحيح الإسناد ووافقه الذهبي.

أفقر الناس وأهونهم مقاما.. وقد سمعتهم يطلقون عليه لقب (زيد بن علي)[1] تشبيها له بذلك الشامخ الذي وقف بعزة الإيمان في وجه المستبدين الظالمين من أصحاب الملك العضوض إلى أن استشهد في سبيل الله.

قلت: فحدثني عن حديثكم معه.

انتفض رجل منا غاضبا، وقال: كيف تعتبر العزة من أخلاق الإيمان، وقد أخبر الله تعالى أنها من أخلاق الجاهلين، فقال حاكيا عن السحرة قبل إيمانهم : فَأَلْقَوْا حِبَالَهُمْ وَعِصِيَّهُمْ وَقَالُوا بِعِزَّةِ فِرْعَوْنَ إِنَّا لَنَحْنُ الْغَالِبُونَ (44) (الشعراء)

وقال مخبرا عن الجاهلين الذين تعززوا بأصنامهم : الَّذِينَ يَتَّخِذُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاء مِن دُونِ الْمُؤْمِنِينَ أَيَبْتَغُونَ عِندَهُمُ الْعِزَّةَ فَإِنَّ العِزَّةَ لِلّهِ جَمِيعًا (139) (النساء)

وقال مخبرا عن الذي أخذته الحمية الآثمة : وَإِذَا قِيلَ لَهُ اتَّقِ اللَّهَ أَخَذَتْهُ الْعِزَّةُ بِالإِثْمِ فَحَسْبُهُ جَهَنَّمُ وَلَبِئْسَ الْمِهَادُ (206) (البقرة)

وقال مخبرا عن الكفار في موقفهم من ربهم ومن أنبيائهم : وَاتَّخَذُوا مِن دُونِ اللَّهِ آلِهَةً لِّيَكُونُوا لَهُمْ عِزًّا (81) (مريم)، وقال : بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي عِزَّةٍ وَشِقَاقٍ (2) (ص)

قال ربعي: إن الله تعالى فيما ذكرت من الآيات لم يعتب على العزة نفسها، وإنما عتب على من تعزز بغير عزيز.. فأهان

---

[1] أشير به إلى زيد بن علي بن الحسين صاحب الثورة المعروفة ضد الظلم والطغيان، وقد روى الصدوق في [الأمالي] بسنده عن حمزة بن حمران قال : دخلت إلى الصادق جعفر بن محمد فقال لي : يا حمزة من أين اقبلت ؟ قلت من الكوفة. فبكى حتى بلّت دموعه لحيته. فقلت : يا ابن رسول الله مالك أكثرت البكاء ؟ فقال ذكرت عمّي زيداً وما صنع به فبكيت. فقلت له : وما الذي ذكرت منه ؟ فقال : ذكرت مقتله وقد أصاب جبينه سهم ، فجاءه ابنه يحيى فانكبّ عليه وقال له : أبشر يا أبتاه فانّك ترد على رسول الله ﷺ وعلي وفاطمة والحسن والحسين صلوات الله عليهم ؟ قال أجل يا بنيّ ثم دعا بحدّاد فنزع السهم من جبينه فكانت نفسه معه فجيء به إلى ساقية تجري عند بستان زائدة ، فحفر فيها ودفن , أجري عليه الماء. وكان معهم غلام سندي لبعضهم فذهب إلى يوسف بن عمر من الغد فأخبره بدفنهم إيّاه فأخرجه يوسف بن عمر فصلبه في الكنّاسة أربع سنين ثم أمر به فأحرق بالنار وذرّي في الرياح ، فلعن الله قاتله وخاذله وإلى الله جلّ اسمه اشكو ما نزل بنا أهل بيت نبيه بعد موته وبه نستعين على عدوّنا وهو خير مستعان) [بحار الأنوار ج 46 / 172]

نفسه بذلك.. ولذلك، فإن من تعزز بالله.. فإن الله يعزه ولا يذله..

ألم تسمع إلى قوله تعالى:.. وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لا يَعْلَمُونَ (8) (المنافقون)

قال آخر: كيف تجمع بين الآية التي ذكرتها وبين قوله تعالى: مَن كَانَ يُرِيدُ الْعِزَّةَ فَلِلَّهِ الْعِزَّةُ جَمِيعًا..(10) (فاطر)؟

قال زيد: لا تنافي بين الآيتين؛ لأنّ العزّ الّذي هو للرّسول والمؤمنين هو في الحقيقة ملك للّه ومخلوق له، وعزّه سبحانه هو المصدر لكلّ عزّ، ومن ثمّ يكون عزّ الرّسول والمؤمنين مستمدّ من عزّ اللّه تعالى.. وعلى هذا فالعزّ كلّه للّه، والعزّة الّتي عند الإنسان لا تكون فضيلة محمودة إلّا إذا استظلّت بظلّ اللّه، واحتمت بحماه.

***

بقينا مدة في صحبة زيد يعلمنا العزة وأسرارها وآدابها، ويدربنا على ما تقتضيه من الصفات.. وبعد أن رأى أهليتنا لهذا السر أمرنا بأن نسير لنبحث عن واحة أخرى من واحات الشدة الإيمانية.

4 ـ الغيرة

قلت: فمن كان شيخكم في الواحة الرابعة؟

قال: رجل من علماء هذه الأمة وصالحيها، قدم من لبنان، ومن جبله الشامخ جبل عامل..

قلت: ما أكثر العلماء من العامليين.. فمن هو منهم.

قال: سمعتهم يطلقون عليه اسم (بهاء الدين العاملي)[1]..

---

[1] () أشير به إلى العلامة بهاء الدين العاملي (953 ـ 1030 هـ)، قال عنه المحبّي الحنفي: كان أُمة مستقلة في الآخذ بأطراف العلوم والتضلّع بدقائق الفنون، وما أظن الزمان سمح بمثله ولا جاد بندّه، وبالجملة فلم تتشنّف الأسماع بأعجب من أخباره.

ولد ببعلبك، وانتقل به أبوه إلى إيران بعد استشهاد زين الدين العاملي (سنة 966 هـ) فأقام معه في قزوين، وتلمّذ عليه في علوم العربية والفقه والأُصول والحديث والتفسير إلى أن غادرها أبوه إلى هراة، فواصل هو دراسته فيها. مهر في العلوم الشرعية، وبرع في

ولست أدري هل كان ذلك هو اسمه الحقيقي أم أنه هو عينه ذلك العالم الجليل من علماء الإسلام.

قلت: فحدثني عن خبركم معه، والعلوم التي تعلمتومها على يديه.

قال: لقد وفقنا الله، فتعلمنا على يديه العلوم التي تملؤنا بالغيرة.. وقد تعجبنا كثيرا عندما أخبرنا أنه أستاذ الغيرة في تلك الواحة.. بل إن بعضنا انتفض غاضبا، وقال: بئس الأستاذ أنت.. وبئس ما تدرب عليه تلاميذك.

وقد أجابه بهاء الدين بكل هدوء: لم يا بني تقول لي هذا؟

قال الرجل: لأن الغيرة لا تنتج إلا شرا.. ولا تنبع إلا من شر.

قال العاملي: تلك هي الغيرة السلبية التي يمقتها الله..

قال الرجل: أهناك غيرة إيجابية؟

قال العاملي: أجل.. وقد جمع رسول الله بينهما، فقال: (إنّ من الغيرة ما يحبّ اللّه- عزّ وجلّ- ومنها ما يبغض اللّه- عزّ وجلّ- ومن الخيلاء ما يحبّ اللّه- عزّ وجلّ- ومنها ما يبغض اللّه- عزّ وجلّ- فأمّا الغيرة الّتي يحبّ اللّه- عزّ وجلّ- فالغيرة في الرّيبة. وأمّا الغيرة الّتي يبغض اللّه- عزّ وجلّ- فالغيرة في غير ريبة.. والاختيال الّذي يحبّ اللّه- عزّ وجلّ- اختيال الرّجل بنفسه عند القتال وعند الصّدقة. والاختيال الّذي يبغض اللّه- عزّ وجلّ- الخيلاء في الباطل)(1)

الرياضيات والهندسة والفلك، وصنّف بعض الكتب في عنفوان شبابه، ونظم الشعر.

صنّف ما يزيد على سبعين كتاباً ورسالة منها: الحبل المتين في إحكام أحكام الدين، الجامع العباسي في الفقه، رسالة في المواريث، رسالة في ذبائح أهل الكتاب، رسالة في الصلاة، رسالة في الحج، رسالة في القصر والتخيير في السفر، رسالتان كرّيتان، حاشية على (مختلف الشيعة إلى أحكام الشريعة) للعلاّمة الحلي، الاثنى عشريات الخمس في الطهارة والصلاة والزكاة والصوم والحج، مشرق الشمسين وإكسير السعادتين لم يتم، جمع فيه آيات الاَحكام وشرحها والاَحاديث الصحاح وشرحها، زبدة الأُصول، حاشية على شرح العضدي على مختصر الأُصول، الفوائد الصمدية في النحو، خلاصة الحساب، رسالة في حل إشكال عطارد والقمر، العروة الوثقى في التفسير، حاشية على (أنوار التنزيل) للبيضاوي، حاشية على رجال النجاشي، الكشكول، وديوان شعره بالعربية والفارسية.. (انظر: أعيان الشيعة: 9/234)

قلنا: فما السبيل إليها؟

قال: من امتلأ قلبه بحب مولاه سرت إليه من صفاته ما تطيقه ذاته.. ومن تلك الصفات الغيرة.. وقد عبر عن ذلك رسول الله ، فقال:(إنّ اللّه (تعالى) يغار وغيرة اللّه أن يأتي المؤمن ما حرّم اللّه عليه)(1)

وقال:(لا شيء أغير من اللّه)(2)

وقال: (المؤمن يغار. واللّه أشدّ غيرا(3))(4)

وقال:(ما من أحد أغير من اللّه، من أجل ذلك حرّم الفواحش، وما أحد أحبّ إليه المدح من اللّه)(5)

وقال: (يا أمّة محمّد! إن من أحد أغير من اللّه(6) أن يزني عبده أو تزني أمته. يا أمّة محمّد واللّه لو تعلمون ما أعلم لبكيتم كثيرا ولضحكتم قليلا. ألا هل بلّغت)(7)

وفي الحديث عن سعد بن عبادة قال: لو رأيت رجلا مع امرأتي لضربته بالسّيف غير مصفح(8) فبلغ ذلك رسول اللّه ، فقال: (تعجبون من غيرة سعد، واللّه لأنا أغير منه، واللّه أغير منّي، ومن أجل غيرة اللّه حرّم الفواحش ما ظهر منها وما بطن،

1() رواه أحمد وأبو داود والنسائي.

1() رواه البخاري ومسلم.

2() رواه البخاري ومسلم.

3() واللّه أشد غيرا (هكذا بفتح الغين وإسكان الياء، منصوب بالألف) وهو الغيرة.

4() رواه مسلم.

5() رواه البخاري ومسلم.

6() إن من أحد أغير من اللّه: إن نافية بمعنى ما.

7() رواه البخاري ومسلم.

8() غير مصفح هو بكسر الفاء، أي غير ضارب بصفح السيف، وهو جانبه، بل أضربه بحده.

ولا أحد أحبّ إليه العذر من اللّه[1]، ومن أجل ذلك بعث المبشّرين والمنذرين، ولا أحد أحبّ إليه المدحة من اللّه، ومن أجل ذلك وعد اللّه الجنّة)[2]

***

بقينا مدة في صحبة بهاء الدين يعلمنا الغيرة وأسرارها وآدابها، ويدربنا على ما تقتضيه من الصفات.. وبعد أن رأى أهليتنا لهذا السر أمرنا بأن نسير لنبحث عن واحة أخرى من واحات الشدة الإيمانية.

5 ـ الشهامة

قلت: فمن كان شيخكم في الواحة الخامسة من واحات الشدة الإيمانية؟ وما تعلمتم على يديه؟

قال: لقد كان شيخنا فيها رجل لم يرتض لنفسه إلا العلياء، ولم تناطح همته غير الجوزاء، وقد كان يطلق عليه في تلك الواحة (النابغة الجعدي)[3]

قلت: أذلك الذي قال:

بلغنا السّماء مجدنا وجدودنا وإنّا لنبغي فوق ذلك مظهرا

فقال له النبي : (الى أين المظهر يا أبا ليلى ؟ قال: قلت: الى الجنة قال: (كذلك ان شاء الله)[4]

قال: لست أدري هل هو بعينه حضر من زمنه البعيد إلى تلك

1() ولا أحد أحب إليه العذر من اللّه: أي ليس أحد أحب إليه الإعذار من اللّه تعالى، فالعذر بمعني الإعذار والإنذار، قبل أخذهم بالعقوبة، ولهذا بعث اللّه المرسلين.

2() رواه البخاري ومسلم.

3() أشير به إلى النابغة الجعدي (ت50 هـ) وهو قيس بن عبد الله بن عدس بن ربيعة الجعدي العامري، أبو ليلى: شاعر مفلق، صحابي من المعمرين.. اشتهر في الجاهلية.. وسمي (النابغة) لانه أقام ثلاثين سنة لا يقوم الشعر ثم نبغ فقاله. وكان ممن هجر الاوثان، ونهى عن الخمر، قبل ظهور الاسلام.. ووفد على النبي فأسلم، وأدرك صفين، فشهدها مع علي.. ثم سكن الكوفة، ثم أصبهان، ومات فيها وقد كف بصره، وجاوز المئة. وأخباره كثيرة، وجمعت المستشرقة مارية نلينو ما وجدت من متفرق شعره، في ديوان مع ترجمة إلى الايطالية وتحقيقات. (الأعلام للزركلي)

الواحة، أو أنه مجرد اسم سمي به شيخ تلك الواحة.

قلت: فما الذي تعلمتم على يديه؟

قال: لقد علمنا ودربنا على الشهامة(1)ورفع الهمة والبعد عن السفاسف.

قلت: فأخبرني عن حديثكم معه.

قال: عندما دخلنا عليه واحته الفيحاء سمعناه ينشد قائلا:

يقولون لي فيك انقباض وإنّما ... رأوا رجلا عن موقف الذّلّ
أرى النّاس من داناهم هان ... ومن أكرمته عزّة النّفس أكرما
ولم أقض حقّ العلم إن كان كلّما ... بدا طمع صيّرته لي سلّما
وما كلّ برق لاح لي يستفزّني ... ولا كلّ من لاقيت أرضاه منعما
إذا قيل هذا منهل قلت قد أرى ... ولكنّ نفس الحرّ تحتمل الظّما
أنهنها عن بعض ما لا يشينها ... مخافة أقوال العدا فيم أو لما؟
ولم أبتذل في خدمة العلم مهجتي ... لأخدم من لاقيت، ولكن
أأشقى به غرسا وأجنيه ذلّة ... إذن فاتّباع الجهل قد كان أحزما
ولو أنّ أهل العلم صانوه صانهم ... ولو عظّموه في النّفوس لعظّما
ولكن أهانوه فهان ودنّسوا ... محيّاه بالأطماع حتّى تجهّما

وعندما جلسنا إليه، وسألناه عنه قال لنا:

(أنا الذي) (2) ما أهويت كفّي ... ولا حملتني نحو فاحشة رجلي

4() رواه الحافظ السلفي، وعن أبي أمامة أن رسول الله ﷺ قال للنابغة إذ أنشده قصيدته: (لا يفضض الله فاك)، فما سقطت سن. (رواه البيهقي)، وفي رواية فكان أحسن الناس ثغرا إذا سقطت له سنة نبتت له أخرى، وعاش عشرين ومائة سنة وما ذهب له سن.

1() مما قيل في تعريف الشهامة: (الحرص على ما يوجب الذّكر الجميل في العظائم)، أو (هي الحرص على الأمور العظام توقّعا للذّكر الجميل) (التوقيف على مهمات التعاريف: 208)

ولا قادني سمعي ولا بصري لها ... ولا دلّني رأيي عليها ولا عقلي
ولست بماش ما حييت لمنكر ... من الأمر لا يمشي إلى مثله مثلي
ولا مؤثر نفسي على ذي قرابة ... وأوثر ضيفي ما أقام على أهلي
وأعلم أنّي لم تصبني مصيبة ... من الدّهر إلّا قد أصابت فتى مثلي

ثم التفت إلى بعضنا يخاطبه بقوله: كان لي شيخ ورع زاهد عرضت عليه الدنيا بقضها وقضيضها، فرفضها، وقد كان مما أوصاني به قوله: (كن - بني- إبراهيمياً فقد قال أبوك إبراهيم - صلوات الله عليه وسلامه – : لا أُحِبُّ الآفِلِينَ (76) (الأنعام)، وكل ما سوى الله آفل إما وجوداً وإما إمكاناً.. وقد قال سبحانه : مِّلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمينَ..(78) (الحج)

ومن ملة إبراهيم رفع الهمة عن الخلق، فإنه يوم زج به في المنجنيق تعرض له جبريل - عليه السلام – فقال: ألك حاجة؟ فقال: أما إليك فلا، وأما إلى الله فبلى، قال: فأسئله، قال: حسبي من سؤالي عمله بحالي.

فانظر كيف رفع إبراهيم - صلوات الله وسلامه عليه - همته عن الخلق ووجهها إلى الملك الحق، فلم يستغث بجبريل، ولا احتال على السؤال من الله، بل رأى الحق سبحانه أقرب إليه من جبريل ومن سؤله، فلذلك سلمه من نمروذ ونكاله، وأنعم عليه بنواله وأفضاله، وخصه بوجود إقباله.

ومن ملة إبراهيم معاداة كل ما شغل عن الله وصرف الهمة بالود إلى الله لقوله تعالى : فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِي إِلَّا رَبَّ الْعَالَمِينَ (77) (الشعراء)

قال ذلك، ثم أطرق طويلا، فقلنا له منبهين: نحن قوم قذفنا التيه إليك.. فدلنا على مخرج من المخارج.

قال: مخرجي هو الشهامة.. ورفع الهمة.. فلا يمكن أن يخرج من تيه نفسه.. ولا من تيه الصحراء.. ولا من تيه التخلف من

2() في أصل البيت (لعمرك)

قعدت به همته عن السير.

قلنا: فحدثنا عنها، ودربنا عليها.

قال: حسبكم من الحديث عنها ما حدث بـه معلم الإنسـانية.. فقـد روي عنـه فيهـا آثـار جليلـة من تأملهـا رفـع همتـه إلى أعلى الأعالي، فلم يأسره شيء، ولم يستطع تقييده أحد.

قلنا: فحدثنا.

قال: قال رسول الله يحثنا على رفع الهمة: (إنّ اللّه تعالى يحبّ معالي الأمور، وأشرافها، ويكره سفسافها[1])[2]

وعن أنس قـال: كـان النّـبيّ أحسـن النّـاس وأجـود النّـاس وأشجع النّاس، ولقد فزع أهل المدينـة، ذات ليلـة فـانطلق النّـاس قبل الصّوت فاستقبلهم النّبيّ قد سبق النّاس إلى الصّـوت وهـو يقول: (لم تراعوا، لم تراعوا)[3] وهو على فرس لأبي طلحة عري ما عليه سرج، في عنقه سيف، فقال: لقد وجدته بحـرا[4]، أو إنّـه لبحر)[5]

قلنا: وعينا هذا.. فحدثنا عن السبيل إليها.

قال: السبيل إليها هو الاقتداء بأصحاب الهمم العالية.

قلنا: فحدثنا عنهم.

قال: حدث سليمان بن بلال أنّ رسول اللّـه لمّـا خـرج إلى بدر أراد سـعد بن خيثمـة وأبـوه جميعـا الخـروج معـه، فـذكر ذلـك للنّبيّ ، فأمر أن يخرج أحدهما، فاستهما، فقال خيثمة بن الحارث

1() سفساف الأمور: الحقير الرّديء منها.

2() رواه الحاكم.

3() لم تراعوا: أي روعا مستقرّا، أو روعا يضركم.

4() بحر: أي فرس واسع الجري.

5() رواه البخاري ومسلم.

لابنه سعد: إنّه لابدّ لأحدنا من أن يقيم، فأقم مع نسائك، فقال سعد: لو كان غير الجنّة لاثرتك به، إنّي أرجو الشّهادة في وجهي هذا، فاستهما، فخرج سهم سعد، فخرج مع رسول اللّه ﷺ إلى بدر، فقتله عمرو بن عبد ودّ... الحديث[1].

وعن سعد قال: رأيت أخي عمير بن أبي وقّاص قبل أن يعرضنا رسول اللّه ﷺ يوم بدر يتوارى، فقلت: ما لك يا أخي؟، قال: إنّي أخاف أن يراني رسول اللّه ﷺ فيستصغرني فيردّني، وأنا أحبّ الخروج لعلّ اللّه أن يرزقني الشّهادة، قال: فعرض على رسول اللّه ﷺ فردّه، فبكى فأجازه، فكان سعد يقول: فكنت أعقد حمائل سيفه من صغره فقتل وهو ابن ستّ عشرة سنة[2].

***

بقينا مدة في صحبة النابغة الجعدي يحدثنا عن الشهامة، وعن أخبار من تحلوا بها.. وعندما رأى أسرارها تلوح علينا أذن لنا في أن نسير في ذلك التيه بحثا عن شيخ آخر وخلق آخر من أخلاق الشدة الإيمانية.

6 ـ المروءة

قلت: فمن كان شيخكم في الواحة السادسة من واحات الشدة الإيمانية؟ وما تعلمتم على يديه؟

قال: لقد كان شيخنا فيها رجل قوي جلد ذو همة وعلم، وكان يقال له (قيس بن سعد)[3]

قلت: ما أشرف من تعلمتم على يديه.. فما علمكم؟

---

[1] () الإصابة (2/ 25). والاستيعاب لابن عبد البر (4/ 143)

[2] () رواه البزار ورواته ثقات.

[3] () أشير به إلى قيس بن سعد بن عبادة الأنصاري الخزرجي، كان من كرام أصحاب النبي ﷺ، وكان أحد الفضلاء الجلة، وأحد دهاة العرب، وأهل الرأي والمكيدة في الحرب مع النجدة والبسالة، وكان شريف قومه غير مدافع هو وأبوه وجده، وكان لرسول الله ﷺ لما قدم مكة مكان صاحب الشرطة من الأمراء وأعطاه الراية يومئذ لما انتزعها من أبيه.. وكان واليا لعلي بن أبي طالب على مصر، ولم يفارق عليا إلى أن استشهد، ومات هو بالمدينة سنة ستين وقيل: سنة تسع وخمسين.

قال: لقد علمنا المروءة.

قلت: ما أشرف ما تعلمتم على يديه.. فحدثني عن خبركم معه.

قال: عندما دخلنا عليه واحته رأيناه يقف بجانب بعض النمل يطعمهم ويتعهدهم.. فاحترنا في موقفه هذا، بل إن بعضنا قال لنا يخاطبنا: هلم بنا نبحث عن واحة أخرى.. فلا شك أننا لن نجد في هذه الواحة طلبتنا.

التفت إليه قيس، وقال: رويدك يا بني.. فإنك لن تقطع هذا التيه ما لم تمر على هذه الواحة.. ولن يؤذن لك في واحة أخرى ما لم تمر علينا لتتعلم على أيدينا.

ضحك الرجل، وقال: وماذا أتعلم على أيديكم.. أأتعلم إطعام النمل.. إن وقتنا أعظم من أن يضيعه في مثل هذا؟

قال قيس: فما تقول فيما أخبر رسول الله أنه (بينما رجل يمشي بطريق، اشتدّ عليه العطش، فوجد بئرا فنزل فيها فشرب، ثمّ خرج فإذا كلب يلهث يأكل الثّرى من العطش، فقال الرّجل: لقد بلغ هذا الكلب من العطش مثل الّذي كان بلغ بي، فنزل البئر فملأ خفّه ماء ثمّ أمسكه بفيه، فسقى الكلب فشكر اللّه له. فغفر له) قالوا: يا رسول اللّه! وإنّ لنا في البهائم أجرا؟ فقال: (في كلّ ذات كبد رطبة أجر[1])[2]؟

وما تقول فيما أخبر من أنه بينما كلب يطيف[3] بركيّة[4] كاد يقتله العطش. إذ رأته بغيّ من بغايا بني إسرائيل. فنزعت موقها[5]، فسقته، فغفر لها به)[6] ؟

---

[1] في كل ذات كبد رطبة أجر: معناه في الإحسان إلى كل حيوان حي يسقيه، ونحوه، أجر. وسمي الحي ذا كبد رطبة لأن الميت يجف جسمه وكبده.

[2] رواه البخاري ومسلم.

[3] يطيف بالشيء: أي يدور حوله. يقال: طاف به وأطاف، إذا دار حوله.

[4] بركيّة: الركية البئر.

قال قيس ذلك، ثم رمى ما بيده من طعام إلى النمل، وقال: إني لأرجو الله منذ سكنت هذه الواحة أن لا أحرم أحدا من خير أطيفه حيوانا كان أو إنسانا..

قال رجل منا: إن ما تفعله هو المروءة عينها.

قال قيس: ولذلك، فإن أهل هذا التيه اعتبروني شيخ المروءة.. وهم لا يدلون أحدا على المخرج من هذا التيه ما لم يمر على واحتي، ويتعلم علوم المروءة على يدي.. ويتدرب على ما تقتضيه من السلوك.

قلنا: فحدثنا عن المروءة.. ما حقيقتها؟

قال: قيس: المروءة هي مراعاة الأحوال إلى أن تكون على أفضلها، حتّى لا يظهر منها قبيح عن قصد، ولا يتوجّه إليها ذمّ باستحقاق(1).. أو هي قوّة للنّفس تكون مبدأ لصدور الأفعال الجميلة عنها المستتبعة للمدح شرعا وعقلا(2).. أو هي آداب نفسانيّة، تحمل مراعاتها الإنسان على الوقوف عند محاسن الأخلاق وجميل العادات.

قلنا: فما سر شرفها؟

قال قيس: هي شريفة لأنها الصفة التي يفارق بها الإنسان الحيوان البهيم، والشّيطان الرّجيم.. ذلك أن في النّفس ثلاثة دواع متجاذبة: داع يدعوها إلى الاتّصاف بأخلاق الشّيطان، من الكبر، والحسد والعلوّ والبغي، والشّرّ والأذى، والفساد والغشّ.. وداع يدعوها إلى أخلاق الحيوان، وهو داعي الشّهوة.. وداع يدعوها إلى أخلاق الملك، من الإحسان، والنّصح، والبرّ، والطّاعة، والعلم.

5() موقها: الموق هو الخف، فارسي معرب. ومعنى نزعت موقها أي استقت. يقال: نزعت بالدلو إذا استقت به من البئر ونحوها، ونزعت الدلو أيضا.

6() رواه البخاري ومسلم.

1() أدب الدنيا والدين: 306.

2() التعريفات: 210.

والمروءة لا تكون إلا ببغض الدّاعيين الأوّلين وإجابة الدّاعي الثّالث.. ولهذا قيل في حدّها: (إنّها غلبة العقل للشّهوة)، ونقل عن الفقهاء قولهم: (حدّ المروءة: استعمال ما يجمّل العبد ويزينه، وترك ما يدنّسه ويشينه، سواء تعلّق ذلك به وحده أو تعدّاه إلى غيره)[1]

قلنا: إن هذا يجعل المروءة تدخل كل باب، وتقتحم حرم كل لطيفة.

قال قيس: أجل.. ولذلك ذكروا أن مروءة كلّ شيء بحسبه: فمروءة اللّسان: حلاوته وطيبه ولينه.. ومروءة الخلق: سعته وبسطه للحبيب والبغيض.. ومروءة المال: الإصابة ببذله مواقعه المحمودة عقلا وعرفا وشرعا.. ومروءة الجاه: بذله للمحتاج إليه.. ومروءة الإحسان والبذل: تعجيله وتيسيره، وتوفيره وعدم رؤيته حال وقوعه، ونسيانه بعد وقوعه..

قلنا: وعينا هذا.. فحدثنا عن درجات المروءة، فلا نحسب أن الناس متساوين فيها.

قال قيس: للمروءة ثلاث درجات:

أولاها: مروءة المرء مع نفسه، وهي أن يحملها قسرا على فعل ما يجمّل ويزين، وترك ما يقبّح ويشين، ليصير لها ملكة في العلانية، ولا يفعل خاليا ما يستحي من فعله في الملإ، إلّا مالا يحظره الشّرع والعقل.

الثّانية: مروءة المرء مع الخلق، بأن يستعمل معهم شروط الأدب والحياء، والخلق الجميل، ولا يظهر لهم ما يكرهه هو من غيره لنفسه.

الثّالثة: المروءة مع الحقّ سبحانه، ويكون ذلك بالاستحياء من نظره إليك، واطّلاعه عليك في كلّ لحظة ونفس، وإصلاح عيوب النفس جهد الإمكان فإنّه قد اشتراها منك، وأنت ساع في تسليم

1() المدارج: 2/ 353.

المبيع، وليس من المروءة تسليمه معيبا(1).

قال رجل منا: فما شروط المروءة التي لا تتحقق من دونها؟

قـال قيس: أن يتعفّـف المـرء عن الحـرام.. وينصـف في الحكم.. و يكفّ عن الظّلم.. وألّا يطمع فيما لا يسـتحقّ.. وألّا يعين قويّا على ضعيف.. وألّا يؤثر دنيّ الأفعال علي شـريفها.. وألّا يسـرّ ما يعقبه الوزر والإثم.. وألّا يفعل ما يقبّح الاسم والذّكر.

قـال آخـر: فهـل لمـا تـذكره من خصـال المـروءة من أدلـة تدعمها؟

قال قيس: قال رسول الله ﷺ :(كرم المؤمن دينـه، ومروءتـه عقله، وحسبه خلقه)(2)

وقال: (إنّ اللّه- عزّ وجلّ- كريم يحبّ الكرمـاء ويحبّ معـالي الأمور، ويكره سفسافها)(3)

وقال: (السّاعي على الأرملة والمسكين كالمجاهد في سـبيل اللّه وكالقائم لا يفتر، وكالصّائم لا يفطر)(4)

وسئل النبي ﷺ: أيّ العمل أفضل؟ قال: (إيمـان باللّـه، وجهـاد في سبيله). قلت: فأيّ الرّقاب أفضل؟ قال: (أعلاها ثمنا، وأنفسها عنـد أهلهـا): قلت: فـإن لم أفعـل؟ قـال: (تعين صـانعا، أو تصـنع لأخرق). قال: فإن لم أفعل؟ قـال: (تـدع النّـاس من الشّـرّ، فإنّهـا صدقة تصدّق بها على نفسك)(5)

***

1() مدارج السالكين 2/ 368.

2() رواه ابن حبّان في صحيحه. والحاكم وقال: صحيح على شرط مسلم.

3() رواه الطبراني في الكبـير والأوسـط بنحـوه إلا أنـه قـال: يحبّ معـالي الأخلاق، ورجـال الكبير ثقات.

4() رواه البخاري ومسلم.

5() رواه البخاري ومسلم.

بقينا مدة في صحبة قيس بن سعد يحدثنا عن المروءة، وعن أخبار من تحلوا بها.. وعندما رأى أسرارها تلوح علينا أذن لنا في أن نسير في ذلك التيه بحثا عن شيخ آخر، وخلق آخر من أخلاق الشدة الإيمانية.

7 ـ الثبات

قلت: فمن كان شيخكم في الواحة السابعة من واحات الشدة الإيمانية؟ وما تعلمتم على يديه؟

قال: لقد كان شيخنا فيها رجلا امتلأ علما وصلاحا، حتى صار وكأنه شجرة راسخة لا يزحزحها شيء تؤتي ثمارها كل حين بإذن ربها.. وقد كان الجميع يطلقون عليه (مرتضى مطهري)[1]

قلت: فما تعلمتم على يديه؟

قال: لقد علمنا علوم الثبات..

قلت: فأخبرني عن خبركم معه.

قال: عندما مثلنا بين يديه في واحته الفيحاء وجدناه مطأطئا رأسه إلى الأرض، وقد رسم عليها صورة قلب.. ثم ملأه بأنواع كثيرة من العيدان.. فتعجبنا من صنعه هذا، وسألناه عن سر القلب والعيدان التي تنغرز فيه، فقال: لقد أخبرنا أن هذا هو حال قلب ابن آدم إذا لم يثبت في مواجهة أنواع الفتن التي تتربص به.. قال : (عرضت الفتن على القلوب كالحصير عوداً عوداً، فأي قلب أشربها نكت فيه نكتة سوداء، وأي قلب أنكرها نكت فيه نكتة بيضاء، حتى يصير على قلبين، على أبيض مثل الصفا، فلا تضره فتنة ما دامت السموات والأرض، والآخر أسود مربداً كالكوز مجخياً لا يعرف معروفاً، ولا ينكر منكراً إلا ما أشرب من هواه)[2]

قلنا: فما النجاة من ذلك؟

---

[1] أشير به إلى العلامة الشهيد مرتضى مطهري، وهو من أبرز العلماء والمفكرين الإسلاميين في التاريخ المعاصر، وله العديد من المساهمات الفكرية في شتى مجالات الفكر الإسلامي، وفي خصوص الأخلاق له كتاب (فلسفة الأخلاق)، وغيره..

[2] رواه أحمد ومسلم.

قال: لقد أخبر عن ذلك، فقال: (بادروا الأعمال فتناً كقطع الليل المظلم، يصبح الرجل مؤمناً،ويمسي كافراً، ويمسي مؤمناً ويصبح كافراً يبيع دينه بعرض من الدنيا)(1)

وعن عبد الله بن عمرو قال: كنا مع رسول الله في سفر فنزلنا منزلا، فمنّا من يصلح خباء،ه ومنا من يتنضل، ومنّا من هو في جشرة، إذ نادى منادي رسول الله الصلاة جامعة فاجتمعنا إلى رسول الله فقال: (إنّه لم يكن نبي قبلي إلا كان حقاً عليه أن يدل أمته على خير ما يعلمه لهم، وينذرهم شر ما يعلمه لهم، وإنّ أمتّكم هذه جعل عافيتها في أولها وسيصيب آخرها بلاء وأمور تنكرونها وتجيء فتنة، يرقق بعضها بعضاً، وتجيء الفتنه فيقول المؤمن هذه مهلكتي، ثم تنكشف، وتجيء الفتنة فيقول المؤمن: هذه.. هذه، فمن أحب أن يزحزح عن النار ويدخل الجنة فلتأته منيته وهو يؤمن بالله وباليوم الآخر)(2)

وعن الإمام علي قال: (جعلت في هذه الأمة خمس فتن: فتنة عامة ثم فتنة خاصة ثم فتنة عامة ثم فتنة خاصة ثم تأتي الفتنة العمياء الصماء المطبقة التي تصير الناس فيها كالأنعام)(3)

قلنا: فهل هذه العيدان التي تنغرز في القلوب من جنس واحد؟

قال: كلا.. بل هي متنوعة بنتوع طينة ابن آدم ورغباته.

قلنا: فهلا ذكرت لنا منها ما ما نتحصن من شره.

قال: من ذلك **فتنة المال** التي ذكرها الله، فقال : ﴿ وَاعْلَمُوا أَنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلادُكُمْ فِتْنَةٌ وَأَنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴾ (الأنفال:28)، وقال :﴿ إِنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلادُكُمْ فِتْنَةٌ وَاللَّهُ عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴾ (التغابن:15)

1() رواه مسلم.

2() رواه أحمد.

3() رواه الحاكم، وقال: هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه.

وقد ضرب الله نموذجا لهذه الفتنة، فقال : وَمِنْهُم مَّنْ عَاهَدَ اللَّهَ لَئِنْ آتَانَا مِن فَضْلِهِ لَنَصَّدَّقَنَّ وَلَنَكُونَنَّ مِنَ الصَّالِحِينَ (75) فَلَمَّا آتَاهُم مِّن فَضْلِهِ بَخِلُواْ بِهِ وَتَوَلَّواْ وَّهُم مُّعْرِضُونَ (76) فَأَعْقَبَهُمْ نِفَاقًا فِي قُلُوبِهِمْ إِلَى يَوْمِ يَلْقَوْنَهُ بِمَا أَخْلَفُواْ اللَّهَ مَا وَعَدُوهُ وَبِمَا كَانُواْ يَكْذِبُونَ (77) (التوبة)

وبين السنة العامة لذلك، فقال : فَإِذَا مَسَّ الإِنسَانَ ضُرٌّ دَعَانَا ثُمَّ إِذَا خَوَّلْنَاهُ نِعْمَةً مِّنَّا قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَى عِلْمٍ بَلْ هِيَ فِتْنَةٌ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لا يَعْلَمُونَ (49) قَدْ قَالَهَا الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَمَا أَغْنَى عَنْهُم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ (50) فَأَصَابَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا كَسَبُوا وَالَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْ هَؤُلاء سَيُصِيبُهُمْ سَيِّئَاتُ مَا كَسَبُوا وَمَا هُم بِمُعْجِزِينَ (51) (الزمر)

وفي الحديث قال رسول الله : (إن لكل أمة فتنة، وفتنة أمتي المال)[1]

قلنا: فما غيرها؟

قال: **فتنة الجاه والمنصب**.. وهي الفتنة التي أشار إليها قوله تعالى : وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ وَلا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَن ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطًا (28) (الكهف)

وقد جمع بين هذه الفتنة وبين التي قبلها، فقال: (ما ذئبان جائعان أرسلا في غنم بأفسد لها من حرص المرء على المال والشرف لدينه)[2]، أي أن حرص المرء على المال والشرف أشد فساداً للدّين من الذئبين الجائعين للغنم.

قلنا: فما غيرها؟

قال: **فتنة الطاعة للزوجة والولد والأهل في معصية الله**.. وهي التي أشار إليها قوله : (فتنة الرجل في أهله وماله

1() رواه الترمذي، وقال: هذا حديث حسن صحيح.

2() رواه أحمد وابن حبان.

ونفسه)([1])، وقوله : (الولد مجبنة مبخلة محزنة)([2])

وأشار إليها قبل ذلك قوله تعالى : يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ وَأَوْلادِكُمْ عَدُوًّا لَّكُمْ فَاحْذَرُوهُمْ وَإِن تَعْفُوا وَتَصْفَحُوا وَتَغْفِرُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ (14) إِنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلادُكُمْ فِتْنَةٌ وَاللَّهُ عِندَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ (15) (التغابن)، وقد روي في سبب نزول الآيات عن ابن عباس أن رجلا سأله عن هذه الآية؟ فقال: (هؤلاء رجال أسلموا من أهل مكة فأرادوا أن يأتوا النبي فأبى أزواجهم وأولادهم أن يدعوهم أن يأتوا رسول الله، فلما أتوا رسول الله ورأوا الناس قد فقهوا في الدين همّوا أن يعاقبوهم، فأنزل الله : يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ وَأَوْلادِكُمْ عَدُوًّا لَّكُمْ فَاحْذَرُوهُمْ وَإِن تَعْفُوا وَتَصْفَحُوا وَتَغْفِرُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ (14) (التغابن)([3])

وأخبر تعالى عن أسباب معصية قوم نوح لنبيهم، فقال : قَالَ نُوحٌ رَّبِّ إِنَّهُمْ عَصَوْنِي وَاتَّبَعُوا مَن لَّمْ يَزِدْهُ مَالُهُ وَوَلَدُهُ إِلاَّ خَسَارًا (21) (نوح)

قلنا: فما غيرها؟

قال: **فتنة الاضطهاد والطغيان والظلم**.. وهي التي أشار إليها قوله تعالى : قُتِلَ أَصْحَابُ الأُخْدُودِ (4) النَّارِ ذَاتِ الْوَقُودِ (5) إِذْ هُمْ عَلَيْهَا قُعُودٌ (6) وَهُمْ عَلَى مَا يَفْعَلُونَ بِالْمُؤْمِنِينَ شُهُودٌ (7) وَمَا نَقَمُوا مِنْهُمْ إِلاَّ أَن يُؤْمِنُوا بِاللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ (8) الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ (9) إِنَّ الَّذِينَ فَتَنُوا الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَتُوبُوا فَلَهُمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَلَهُمْ عَذَابُ الْحَرِيقِ (10) (البروج)

وفي الحديث عن خباب بن الأرت قال : شكونا إلى رسول الله وهو متوسد بردة في ظل الكعبة، فقال : (قد كان من

---

[1]() رواه البخاري ومسلم.

[2]() رواه الحاكم، وقال:هذا حديث صحيح على شرط مسلم ولم يخرجاه، ورواه ابن ماجة.

[3]() رواه الترمذي، وقال:هذا حديث حسن صحيح.

قبلكم يؤخذ الرجل فيحفر له في الأرض فيجعل فيها فيجاء بالمنشار، فيوضع على رأسه فيجعل نصفين ويمشط بأمشاط الحديد، من دون لحمه وعظمه، فما يصده ذلك عن دينه)[1]

ولهذا أخبر تعالى أن الصالحين من عباده كانوا يستعيذون بالله من شر هذا النوع من الفتن، قال تعالى : وَقَالَ مُوسَى يَا قَوْمِ إِن كُنتُمْ آمَنتُم بِاللَّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُواْ إِن كُنتُم مُّسْلِمِينَ (84) فَقَالُواْ عَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْنَا رَبَّنَا لاَ تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ (85) (يونس)، وقال : فَإِذَا اسْتَوَيْتَ أَنتَ وَمَن مَّعَكَ عَلَى الْفُلْكِ فَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي نَجَّانَا مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ (28) وَقُل رَّبِّ أَنزِلْنِي مُنزَلاً مُّبَارَكًا وَأَنتَ خَيْرُ الْمُنزِلِينَ (29) (المؤمنون)، وقال : فَخَرَجَ مِنْهَا خَائِفًا يَتَرَقَّبُ قَالَ رَبِّ نَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ (21) (القصص)، وقال: وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً لِّلَّذِينَ آمَنُوا اِمْرَأَةَ فِرْعَوْنَ إِذْ قَالَتْ رَبِّ ابْنِ لِي عِندَكَ بَيْتًا فِي الْجَنَّةِ وَنَجِّنِي مِن فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِ وَنَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ (11) (التحريم)

قلنا: فما غيرها؟

قال: **فتنة مواجهة الظالمين ومجاهدتهم في الله..** وهي التي أشار إليها قوله تعالى : إذ يوحي إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى الْمَلائِكَةِ أَنِّي مَعَكُمْ فَثَبِّتُوا الَّذِينَ آمَنُوا سَأُلْقِي في قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ فَاضْرِبُوا فَوْقَ الْأَعْنَاقِ وَاضْرِبُوا مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ (الأنفال:12)، وقوله : إِذْ يُغَشِّيكُمُ النُّعَاسَ أَمَنَةً مِنْهُ وَيُنَزِّلُ عَلَيْكُمْ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً لِيُطَهِّرَكُمْ بِهِ وَيُذْهِبَ عَنْكُمْ رِجْزَ الشَّيْطَانِ وَلِيَرْبِطَ عَلَى قُلُوبِكُمْ وَيُثَبِّتَ بِهِ الْأَقْدَامَ (الأنفال:11)، وقوله : يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ تَنْصُرُوا اللَّهَ يَنْصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ (محمد:7)

وضرب الأمثلة عن أهلها.. ومنهم الفئة الصابرة التي كانت تحت إمرة طالوت، قال تعالى يحكي قصتهم: وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ آيَةَ مُلْكِهِ أَنْ يَأْتِيَكُمُ التَّابُوتُ فِيهِ سَكِينَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَبَقِيَّةٌ مِمَّا تَرَكَ آلُ مُوسى وَآلُ هارُونَ تَحْمِلُهُ الْمَلائِكَةُ إِنَّ فِي ذلِكَ لَآيَةً لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ (248) فَلَمَّا فَصَلَ طالُوتُ بِالْجُنُودِ قالَ إِنَّ اللَّهَ مُبْتَلِيكُمْ بِنَهَرٍ فَمَنْ شَرِبَ مِنْهُ فَلَيْسَ مِنِّي وَمَنْ لَمْ يَطْعَمْهُ فَإِنَّهُ

[1] رواه البخاري.

مِنِّي إِلَّا مَنِ اغْتَرَفَ غُرْفَةً بِيَدِهِ فَشَرِبُوا مِنْهُ إِلَّا قَلِيلًا مِنْهُمْ فَلَمَّا جاوَزَهُ هُوَ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ قالُوا لا طاقَةَ لَنَا الْيَوْمَ بِجالُوتَ وَجُنُودِهِ قالَ الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُمْ مُلاقُوا اللَّهِ كَمْ مِنْ فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللَّهِ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ (249) وَلَمَّا بَرَزُوا لِجالُوتَ وَجُنُودِهِ قالُوا رَبَّنا أَفْرِغْ عَلَيْنا صَبْراً وَثَبِّتْ أَقْدامَنا وَانْصُرْنا عَلَى الْقَوْمِ الْكافِرِينَ (250) فَهَزَمُوهُمْ بِإِذْنِ اللَّهِ وَقَتَلَ داوُدُ جالُوتَ وَآتاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَهُ مِمَّا يَشاءُ وَلَوْ لا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَفَسَدَتِ الْأَرْضُ وَلكِنَّ اللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْعالَمِينَ (251)﴾ (البقرة)

ولهذا ورد التشديد في حرمة الفرار من الزحف، وقد كان من الوصايا التي أوصى بها رسول الله ﷺ معاذا بن جبل قوله: (إياك والفرار من الزحف وإن هلك الناس، وإذا أصاب الناس موتان، وأنت فيهم فاثبت)[1]

قلنا: فما غيرها؟

قال: **فتنة مواجهة الكسل الصارف عن طاعة الله**.. ولذلك كان من أهم علامات الإيمان الثّبات على المداومة على الطاعات، وقد ورد في الحديث قوله ﷺ : (من ثابر على ثنتي عشرة ركعة من السنة بنى الله له بيتًا في الجنة)[2]، وقال ﷺ : (أحب العمل الله ما داوم عليه صاحبه)[3].. وحين سئل رسول الله ﷺ: أي العمل أحب إلى الله؟ قال: (أدومه وإن قلّ، وكان آل محمد ﷺ إذا عملوا عملاً أثبتوه)[4]

***

بقينا مدة في صحبة ابن قتيبة يعلمنا أنواع الفتن، وكيفية مواجهتها إلى أن توسم فينا أهليتنا للتخرج على يديه..

---

[1] رواه أحمد.

[2] رواه مسلم وغيره.

[3] رواه مسلم وغيره.

[4] رواه مسلم وغيره.

وقد شاء الله أننا ما فارقنا واحته حتى قابلنا العمـران، ورأينـا الناس.. وقد رأينا الحياة بصورة أخرى غير الصورة التي كنـا نراهـا بها.

وقـد رأيت فـوق ذلـك من أصـحابي من القـوة والنشـاط مـا جعلهم يتخلصـون من ضـعفهم، ويـترفعون إلى المقامـات العاليـة التي دعاهم إليها ولي الله (نوح)

قلت: عرفت السـر الرابـع من أسـرار الإنسـان.. فمـا السـر الخامس؟

قال: إنه السر الذي يشير إليه قوله تعـالى : يَـا أَيُّهَـا الَّذِينَ آمَنُوا مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمُ انْفِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ اثَّاقَلْتُمْ إِلَى الْأَرْضِ أَرَضِيتُمْ بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا مِنَ الْآخِرَةِ فَمَا مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فِي الْآخِـرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ (38) (التوبة)، وقوله: وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذِي آتَيْنَاهُ آيَاتِنَـا فَانْسَلَخَ مِنْهَا فَأَتْبَعَهُ الشَّيْطَانُ فَكَانَ مِنَ الْغَـاوِينَ (175) وَلَـوْ شِـئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا وَلَكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الْأَرْضِ وَاتَّبَعَ هَوَاهُ فَمَثَلُـهُ كَمَثَـلِ الْكَلْبِ إِنْ تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَثْ ذَلِكَ مَثَـلُ الْقَـوْمِ الَّذِينَ كَـذَّبُوا بِآيَاتِنَـا فَاقْصُـصِ الْقَصَـصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ (176) (الأعـراف)، وقوله: فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ وَرِثُوا الْكِتَابَ يَأْخُذُونَ عَـرَضَ هَـذَا الْأَدْنَى وَيَقُولُونَ سَيُغْفَرُ لَنَا وَإِنْ يَأْتِهِمْ عَرَضٌ مِثْلُهُ يَأْخُذُوهُ أَلَمْ يُؤْخَـذْ عَلَيْهِمْ مِيثَاقُ الْكِتَـابِ أَنْ لَا يَقُولُـوا عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَـقَّ وَدَرَسُـوا مَـا فِيــهِ وَالــدَّارُ الْآخِــرَةُ خَيْــرٌ لِلَّذِينَ يَتَّقُــونَ أَفَلَا تَعْقِلُــونَ (169) (الأعراف)

ويشـير إليـه قولـه :(يوشـك الأمم أن تـداعى عليكم كمـا تـداعى الأكلـة إلى قصـعتها)، فقـال قائـل: ومن قلّـة نحن يومئـذ؟ قال: (بل أنتم يومئذ كثير، ولكنّكم غثاء كغثاء السّيل، ولينزعنّ اللّه من صــدور عــدوّكم المهابــة منكم، وليقــذفنّ اللّــه في قلــوبكم الوهن)، فقال قائل: يا رسول اللّه، وما الـوهن؟ قـال: (حبّ الـدّنيا وكراهية الموت)[1]

قلت: إن هــذه النصــوص المقدســة تخــبر عن ضـعف همــة الإنسان وقصورها.

قــال: أجــل.. فالإنســان بحكم تركيبــه الطيــني يتثاقــل إلى الأرض، ويهواها، وقد لا تخـرج مطالبـه في الحيـاة عن الغـرق في دنسها.

[1] () رواه أحمد وأبو داود.

قلت: فهو غير ملوم إذن بسبب ذلك؟

قـــال: اللـــوم ليس في ممارســـة مـــا يتطلبـــه طينـــه من ممارسات.. ولكن اللوم على غرقه في أوحال الطين.. ألا ترى أننا لا نلوم من مشـى في الأوحـال إن اضـطر إلى ذلـك، ولكننـا نلـوم بشدة من راح يسبح فيها؟

قلت: فكيف يسبح الإنسان في الأوحال؟

قال: إذا أحب الأوحال، وأنس لها، ولم يـر في الحيـاة غيرهـا، أو لم ير الحياة غيرها.

قلت: فكيف يتخلص من غرقه؟

قال: إن عاش الحياة دون أن يتدنس بأوحالها.

قلت: هــل يمكن أن يحصــل ذلــك؟.. هــل يمكن لمن يــذوق الحلاوة أن لا تأسره في سجونها؟

قال: يمكن ذلك.. وقد رأيت من علم هذا السر مـا علمت بـه أن للإنسان قدرة عالية على رفع همتـه عن جميـع الأكـوان، لا عن الأرض وحدها..

قلت: فحدثني عن ذلك.

قـــال: بعـــد أن من اللـــه علي، فتعلمت من أســـرار الحـــزم والشدة ما كنت قد ذكرتـه لـك، سـرت في تلـك المدينـة العجيبـة التي فتح الله لي فيها من علوم الإنسان ما كـان منغلقـا.. فـرأيت جمعا من الناس يتسابون بكل ما في ألسنتهم من بذاءة، وبكل ما في قلـــوبهم من وقاحـــة.. ثم لم يلبث الســـباب أن تحـــول إلى الخناجر، فراحت الدماء تسيل.. وكانت دماء كثيرة.

ثم جـــاءت الشـــرطة، وســـاقت من تشـــاء إلى ســـجونها ومعتقلاتها.. وجاء معها الممرضون والأطبـاء، فحملـوا تلـك الجثث المشوهة، وكأنهم يحملون أكواما من الطين.

أثر في ذلك المشهد تأثيرا كبيرا.. فقـد رأيت الإنسـان فيـه لا

يختلف عما أراه من بعوض وذباب وخنافس..

في ظلال تلك الآلام قيض الله لي من علمني أسرار التثاقل، وأسرار الترفع عنها.

قلت: من هو؟

قال: رجل من أهل الله كان اسمه (يوسف).. وقد آتاه الله من الجمال والوقار ما يأسر الأبصار.. وآتاه معها من العلم والحكمة ما يأسر البصائر.

ربت على كتفي في ذلك الحين، وقال: أتعرف هؤلاء؟

قلت: لا.. ولكني متألم ألما شديدا لما نزل بهم.

قال: هؤلاء هم إخواني.. وقد نزل بهم حبهم للأرض، وتثاقلهم إليها إلى ما رأيته.

قلت: عجبا.. أيمكن لمن هو في رقتك وصفائك أن يكون له إخوانا مثل هؤلاء؟

قال: ألم يكن ليوسف من الإخوة من كان يحمل تثاقل هؤلاء؟

قلت: بلى.. وقد قص القرآن الكريم علينا خبرهم.. لقد وصل بهم الأمر إلى الحد الذي عزموا فيه على قتل أخيهم.. قال تعالى : ﴿ لَقَدْ كَانَ فِي يُوسُفَ وَإِخْوَتِهِ آيَاتٌ لِلسَّائِلِينَ (7) إِذْ قَالُوا لَيُوسُفُ وَأَخُوهُ أَحَبُّ إِلَى أَبِينَا مِنَّا وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّ أَبَانَا لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ (8) اقْتُلُوا يُوسُفَ أَوِ اطْرَحُوهُ أَرْضًا يَخْلُ لَكُمْ وَجْهُ أَبِيكُمْ وَتَكُونُوا مِنْ بَعْدِهِ قَوْمًا صَالِحِينَ (9) قَالَ قَائِلٌ مِنْهُمْ لَا تَقْتُلُوا يُوسُفَ وَأَلْقُوهُ فِي غَيَابَتِ الْجُبِّ يَلْتَقِطْهُ بَعْضُ السَّيَّارَةِ إِنْ كُنْتُمْ فَاعِلِينَ (10)﴾ (يوسف)

قال: لم يكن يوسف وحده في ذلك.. لقد سبقه أخ صالح كان ممتلئا إيمانا وسلاما، وقد كان له أخ ممتلئ حقدا وانتقاما..

قلت: أراك تومئ إلى ابني آدم.. أولئك الذين ورد ذكرهم في

قوله تعالى: وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ابْنَيْ آدَمَ بِالْحَقِّ إِذْ قَرَّبَا قُرْبَانًا فَتُقُبِّلَ مِنْ أَحَدِهِمَا وَلَمْ يُتَقَبَّلْ مِنَ الْآخَرِ قَالَ لَأَقْتُلَنَّكَ قَالَ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ (27) لَئِنْ بَسَطْتَ إِلَيَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِي مَا أَنَا بِبَاسِطٍ يَدِيَ إِلَيْكَ لِأَقْتُلَكَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ (28) إِنِّي أُرِيدُ أَنْ تَبُوءَ بِإِثْمِي وَإِثْمِكَ فَتَكُونَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ وَذَلِكَ جَزَاءُ الظَّالِمِينَ (29) فَطَوَّعَتْ لَهُ نَفْسُهُ قَتْلَ أَخِيهِ فَقَتَلَهُ فَأَصْبَحَ مِنَ الْخَاسِرِينَ (30) فَبَعَثَ اللَّهُ غُرَابًا يَبْحَثُ فِي الْأَرْضِ لِيُرِيَهُ كَيْفَ يُوَارِي سَوْءَةَ أَخِيهِ قَالَ يَا وَيْلَتَا أَعَجَزْتُ أَنْ أَكُونَ مِثْلَ هَذَا الْغُرَابِ فَأُوَارِيَ سَوْءَةَ أَخِي فَأَصْبَحَ مِنَ النَّادِمِينَ (31) (المائدة)

قال: أجل.. فهذه الآيات كتلك الآيات التي تحدثت عن يوسف وإخوته.. إنها جميعا تشير إلى أن في الإنسان استعدادا متساويا للتثاقل وللترفع.. فالإخوة الذين يشتركون في الزمان والمكان والعرق يختلفون كل ذلك الاختلاف الذي ذكره القرآن.

قلت: لكأن الآيات تشير بذلك إلى خطأ من يتصورون أن الأخلاق تورث.

قال: أجل.. فالأخلاق وليدة الكسب، لا وليدة العرق.. ووليدة الهمة لا وليدة اللقمة..

قلت: اسمح لي أن أخبرك بأني مع احترامي الشديد لك أعتبرك مقصرا غاية التقصير.. فكيف تكون لك كل هذه الحكمة، ثم تقصر في توجيهها لأقرب الناس إليك؟

قال: ألم يكن لنوح عليه السلام ولد قد غرق مع من غرق، وأبى أن يركب السفينة مع والده.

قلت: أجل.. وقد ذكر الله تعالى ذلك، فقال: وَنَادَى نُوحٌ ابْنَهُ وَكَانَ فِي مَعْزِلٍ يَا بُنَيَّ ارْكَبْ مَعَنَا وَلَا تَكُنْ مَعَ الْكَافِرِينَ (42) قَالَ سَآوِي إِلَى جَبَلٍ يَعْصِمُنِي مِنَ الْمَاءِ قَالَ لَا عَاصِمَ الْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ إِلَّا مَنْ رَحِمَ وَحَالَ بَيْنَهُمَا الْمَوْجُ فَكَانَ مِنَ الْمُغْرَقِينَ (43) (هود)

قال: ألم يستعمل إبراهيم عليه السلام كل وسائل اللطف مع أبيه

ليحثه على سلوك سبيل الله؟

قلت: أجل.. ومع ذلك ظل والـده يـرفض أن يتبعـه، بـل كـان يصر على أن يرجمه وينفيه من الأرض.. لقد ذكر الله ذلك، فقال : ﴿ وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِبْرَاهِيمَ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقًا نَبِيًّا (41) إِذْ قَالَ لِأَبِيــهِ يَا أَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِـرُ وَلَا يُغْنِي عَنْـكَ شَـيْئًا (42) يَـا أَبَتِ إِنِّي قَدْ جَاءَنِي مِنَ الْعِلْمِ مَـا لَمْ يَأْتِـكَ فَـاتَّبِعْنِي أَهْـدِكَ صِـرَاطًا سَوِيًّا (43) يَـا أَبَتِ لَا تَعْبُـدِ الشَّـيْطَانَ إِنَّ الشَّـيْطَانَ كَـانَ لِلـرَّحْمَنِ عَصِيًّا (44) يَا أَبَتِ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِنَ الرَّحْمَنِ فَتَكُونَ لِلشَّيْطَانِ وَلِيًّا (45) قَالَ أَرَاغِبٌ أَنْتَ عَنْ آلِهَتِي يَـا إِبْـرَاهِيمُ لَئِنْ لَمْ تَنْتَهِ لَأَرْجُمَنَّكَ وَاهْجُرْنِي مَلِيًّا (46)﴾ (مريم)

قال: فكيف تلومني في أمر لم يفلح الأنبياء في تحقيقــه لمن يحبونه؟

قلت: صـدقت.. فالهدايـة بيـد اللـه لا بأيـدينا.. لقـد ذكـر اللـه تعالى ذلك، فقال :﴿ إِنَّكَ لَا تَهْـدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْـدِي مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ (56)﴾ (القصص)

ولكن مع ذلك، فإنك لا تزال ملومـا.. فأولئـك القديسـون من أنبياء الله لم يقصروا في دعـوة أهليهم إلى طريـق اللــه.. ولـذلك رفع عنهم العتاب.

قال: ما كان لورثة الرسل أن يقصروا في هذا.

قلت: أراك تشير إلى أنك قد تحدثت معهم في هذا.

قـال: الحـديث وحـده لا يكفي.. فليس من السـهل أن يرتفـع الإنسان عن تثاقل الأرض بالحديث وحده.

قلت: فما فعلت؟

قال: لقد أسست مدرسة.. جلبت لها خيرة العلماء والأولياء.. وقد دعوت إخوتي إلى الانضمام لها، لكنهم رفضوا..

قلت: فهي مغلقة إذن..

قال: لا.. فإنه إن لم يدخلها إخوتي من أمي وأبي المباشرين.. فإن لي إخوة كثيرون من أبي وأمي غير المباشرين.

قلت: إخوانك في الإنسانية.

قال: أجل.. فأنا – كما أشعر بمسؤوليتي عن إخوتي المباشرين – أشعر بمسؤولتي عن جميع الإنسانية.

قلت: لقد ذكرت لي مدرستك.. ما اسمها؟.. وما التخصص الذي تتولاة؟

قال: لقد سميتها (مدرسة الحرية)

قلت: عجبا أتسميها بالاسم الذي يلهج به المتثاقلون إلى الأرض؟

قال: هم أصابوا الاسم وأخطأوا المسمى.. هم بحثوا عن الحرية في التثاقل، فلم يزدهم التثاقل إلى قيودا.

قلت: والحرية التي تنادي بها مدرستك؟

قال: الحرية التي تنادي بها مدرستي هي التحرر من كل قيود الأرض.. بل من كل القيود التي تصرف الإنسان عن إنسانيته.

قلت: فمدرستك تعلم الإنسان كيف يكسر تلك القيود التي تجذبه إلى الأرض؟

قال: أجل.. وبذلك تتحقق للإنسان حريته الحقيقية، فلا يمكن للمقيد أن ينعم بأي حرية.

قلت: فهل هي منقسمة إلى سبعة أقسام كسائر المدارس؟

قال: أجل.. فهلم بنا إليها.. فليس الخبر كالعيان.

1 ـ الدنيا

كان أول قسم من أقسام هذه المدرسة هو قسم (الدنيا)، وقد كتب على بابه قوله تعالى: الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَهُمْ لَهْوًا وَلَعِبًا

وَغَرَّتْهُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا فَالْيَوْمَ نَنْسَاهُمْ كَمَا نَسُوا لِقَاءَ يَوْمِهِمْ هَذَا وَمَا كَانُوا بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ (51) (الأعراف)

سألت ولي الله (يوسف) عن سر وضع الآية في باب القسم، فقال: ليقرأها كل من دخل هذا القسم.. فكل هذا القسم تفسير لها..

فالله تعالى يخبر فيها أن الذين تثاقلوا إلى الدنيا لن يلقوا من الله إلا الإهمال، ذلك أنهم باعوا ربهم في الدنيا بمتاع بخس حقير.. ولذلك يجازيهم الله جزاء وفاقا على صنيعهم.

كان أول من رأيت في مدخل القسم شيخ مهيب.. يبدو أنه قد أمضى عمرا طويلا في هذه الدنيا، وأنه قد خبر جميع شؤونها.. ولكن نظارة شابا مع ذلك لا تزال تطبعه بطابعها، وكأن جميع السنين بثقلها لم تستطع أن تؤثر فيه.

سألت ولي الله (يوسف) عنه، فقال لي: هذا رجل من أهل الله اسمه (نوح).. وهو كسميه نوح من المعمرين.. وقد رأيته مجتهدا مع أهل بلده داعيا لهم.. ولكنه مع طول دعوته لهم لم يقابلوه إلا بما قابل به قوم نوح نبيهم.. وقد أحضرته بعد أن رأيته قد يئس من قومه إلى هذه المدرسة ليكون شاهدا على الدنيا داعية إلى الترفع عنها.

دخلت المدرسة.. ولم ألبث حتى رأيت جموعا كثيرة تجتمع إلى نوح.. ولم يلبث حتى بدأ يكلمهم.. وكانت كلماته تنبع من بحر عميق من بحار الإيمان.. ومما لا أزال أذكره من حديثه قوله[1]: الحمد لله الذي عرف أولياءه غوائل الدنيا وآفاتها، وكشف لهم عن عيوبها وعوراتها حتى نظروا في شواهدها وآياتها، ووزنوا بحسناتها سيئاتها فعلموا أنه يزيد منكرها على معروفها، ولا يفي مرجوها بمخوفها، ولا يسلم طلوعها من كسوفها..

بعد أن بدأ حديثه بهذه الديباجة التفت إلى الحاضرين، وقال: لقد جئتكم اليوم بخمسة مفاتيح – بعدد الصلوات الخمس- من

1() من خطبة الغزالي في كتاب ذم الدنيا من الإحياء.

ملكها استطاع أن يترفع عن ثقل الدنيا، ويرفع همتـه إلى الآخـرة.. لأنه لن يجد مطالبه العليا إلا في الآخرة.

قالوا: فهات المفتاح الأول؟

قال: **المفتاح الأول أن تعلموا أن عمر الـدنيا قصـير**، ومطالب الإنسان أعظم من أن تنحصر في عمرهـا القصـير.. لقـد ذكـر اللـه تعـالى ذلـك، فقـال : وَيَـوْمَ تَقُـومُ السَّـاعَةُ يُقْسِـمُ الْمُجْرِمُونَ مَا لَبِثُوا غَيْرَ سَاعَةٍ كَذَلِكَ كَانُوا يُؤْفَكُونَ (55) (الروم)، وقـال : وَيَـوْمَ يَحْشُـرُهُمْ كَـأَنْ لَمْ يَلْبَثُـوا إِلَّا سَـاعَةً مِنَ النَّهَـارِ يَتَعَارَفُونَ بَيْنَهُمْ قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِلِقَاءِ اللَّهِ وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ (45) (يونس)، وقال : كَأَنَّهُمْ يَـوْمَ يَرَوْنَهَـا لَمْ يَلْبَثُـوا إِلَّا عَشِـيَّةً أَوْ ضُحَاهَا (46) (النازعات)، وقال: يَـوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّـورِ وَنَحْشُـرُ الْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ زُرْقًا (102) يَتَخَافَتُونَ بَيْنَهُمْ إِنْ لَبِثْتُمْ إِلَّا عَشْـرًا (103) نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَـا يَقُولُـونَ إِذْ يَقُـولُ أَمْثَلُهُمْ طَرِيقَـةً إِنْ لَبِثْتُمْ إِلَّا يَوْمًا (104) (طه)، وقال: وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُقْسِمُ الْمُجْرِمُونَ مَا لَبِثُوا غَيْرَ سَـاعَةٍ كَـذَلِكَ كَـانُوا يُؤْفَكُـونَ (55) وَقَـالَ الَّذِينَ أُوتُـوا الْعِلْمَ وَالْإِيمَانَ لَقَدْ لَبِثْتُمْ فِي كِتَـابِ اللَّهِ إِلَى يَـوْمِ الْبَعْثِ فَهَـذَا يَـوْمُ الْبَعْثِ وَلَكِنَّكُمْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ (56) (الـروم)، وقـال : قَـالَ كَمْ لَبِثْتُمْ فِي الْأَرْضِ عَدَدَ سِنِينَ (112) قَـالُوا لَبِثْنَـا يَوْمًـا أَوْ بَعْضَ يَـوْمٍ فَاسْأَلِ الْعَادِّينَ (113) قَالَ إِنْ لَبِثْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا لَوْ أَنَّكُمْ كُنْتُمْ تَعْلَمُـونَ (114) (المؤمنون)

وإن شئتم أن تعرفوا حقيقة هـذا، فـاعلموا أن الأحـوال الـتي يمر بها الإنسان ثلاثة: حالـة لم يكن فيهـا شـيئاً مـذكورا.. وهي مـا قبل وجوده إلى الأزل.. وحالة لا يكون فيها مشاهداً للدنيا، وهي ما بعد موته إلى الأبد.. وحالـة متوسـطة بين الأبـد والأزل، وهي أيـام الحياة في الدنيا..

فانظروا إلى مقدار طولها، وانسبوه إلى طرفي الأزل والأبد، لتعلموا أنه أقل من منزل قصـير في سـفر بعيـد.. ولـذلك ورد في الحديث قوله :(ما لى وللدنيا وما للدنيا ومـا لى والـذى نفسـى بيده ما مثلى ومثل الدنيا إلا كراكب سار فى يوم صائف فاسـتظل

تحت شجرة ساعة من نهار ثم راح وتركها)[1]

وقد أشار المسيح ﵇ إلى هذا، فقال: (الدنيا قنطرة فاعبروها ولا تعمروها).. وهذه حكمة عظيمة فالحياة الدنيا معبر إلى الآخرة، والمهد هو الميل الأول على رأس القنطرة، واللحد هو الميل الآخر، وبينهما مسافة محدودة، فمن الناس من قطع نصف القنطرة، ومنهم من قطع ثلثها، ومنهم من قطع ثلثيها، ومنهم من لم يبق له إلا خطوة واحدة، وهو غافل عنها.. وكيفما كان فلا بد له من العبور، والبناء على القنطرة وتزيينها بأصناف الزينة وأنت عابر عليها غاية الجهل والخذلان.

قال أحد الحاضرين: صدقت.. لقد تأملت الدنيا، فوجدتها[2] سريعة الفناء، قريبة الانقضاء، تعد بالبقاء ثم تخلف في الوفاء.. تنظر إليها فتراها ساكنة مستقرة، وهي سائرة سيراً عنيفاً ومرتحلة ارتحالاً سريعاً، ولكن الناظر إليها قد لا يحس بحركتها فيطمئن إليها، وإنما يحس عند انقضائها.

ومثالها الظل فإنه متحرك ساكن، متحرك في الحقيقة ساكن الظاهر، لا تدرك حركته بالبصر الظاهر، بل البصيرة الباطنة.

قال آخر: لقد ذكرت الدنيا عند بعضهم، فأنشد يقول:

أحلام نوم أو كظل زائل ... إن اللبيب بمثلها لا يخدع

قال آخر: وكان الحسن بن علي يتمثل كثيراً، ويقول:

يا أهل لذات دنيا لا بقاء لها ... إن اغتراراً بظل زائل حمق

قال آخر: وذكروا أن أعرابياً نزل بقوم فقدموا إليه طعاماً فأكل، ثم قام إلى ظل خيمة لهم فنام هناك فاقتلعوا الخيمة فأصابته الشمس فانتبه، فقام وهو يقول:

1() رواه أحمد وهناد والترمذى – وقال: حسن صحيح - وابن ماجه وابن سعد والطبرانى والحاكم والبيهقى فى شعب الإيمان.

2() استفدنا الأمثلة والمواعظ الواردة هنا من كتاب (ذم الدنيا) من جملة كتب (إحياء علوم الدين) للغزالي.

ألا إنما الدنيا كظل ثنية ولا بد يوماً أن ظلك زائل

قالوا: عرفنا الأول، ووعيناه.. فهات الثاني؟

قال: **المفتاح الثاني هو أن تعلموا أن متاع الدنيا قليل**، ومطالب الإنسان أكثر من أن يكفيها متاعها القليل.. لقد ذكر الله تعالى ذلك، فقال : ﴿ قُلْ مَتَاعُ الدُّنْيَا قَلِيلٌ وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ لِمَنِ اتَّقَى وَلَا تُظْلَمُونَ فَتِيلًا (77)﴾ (النساء)، وقال:﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمُ انْفِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ اثَّاقَلْتُمْ إِلَى الْأَرْضِ أَرَضِيتُمْ بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا مِنَ الْآخِرَةِ فَمَا مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ (38)﴾ (التوبة)، وقال مخبرا عن مؤمن آل فرعون: ﴿ وَقَالَ الَّذِي آمَنَ يَا قَوْمِ اتَّبِعُونِ أَهْدِكُمْ سَبِيلَ الرَّشَادِ (38) يَا قَوْمِ إِنَّمَا هَذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا مَتَاعٌ وَإِنَّ الْآخِرَةَ هِيَ دَارُ الْقَرَارِ (39)﴾ (غافر)

وفي الحديث قال رسول الله ﷺ :(لو كانت الدنيا تعدل عند الله جناح بعوضة ما سقى كافراً منها شربة ماء)[1]

وقال ﷺ: (ما الدنيا في الآخرة إلا كما يجعل أحدكم أصبعه في اليم، فلينظر بماذا ترجع)[2]

وعن جابر أن النبي ﷺ مر بسوق والناس كنفته، فمر بجدي أسك ميت، فتناوله، فأخذ بإذنه فقال: (أيكم يحب أن هذا له بدرهم؟)، فقالوا: ما نحب أنه لنا بشيء، وما نصنع به؟ قال: (أتحبون أنه لكم؟)، فقالوا: والله لو كان حياً عيباً فيه؛ لأنه أسكُ، فكيف وهو ميت؟ فقال: (والله للدنيا أهون على الله من هذا عليكم)[3]

وقال بعض الحكماء وهو يقارن بين الدنيا و الآخرة: (يحسب الجاهل الشيء الذي هو لا شيء شيئا، والشيء الذي هو الشيء لا شيء، ومن لا يترك الشيء الذي هو لا شيء لا ينال الشيء

---

[1] رواه الترمذي وابن ماجة.

[2] رواه مسلم.

[3] رواه مسلم.

الذي هو الشيء، ومن لا يعرف الشيء الذي هو الشيء لا يترك الشيء الذي هو لا شيء)[1]

قالوا: عرفنا الثاني، ووعيناه.. فهات الثالث.

قال: **المفتاح الثالث هو أن تعلموا أن الدنيا دار غرور**، وبذلك فإن من تثاقل إليها لن يظفر إلا بالسراب.. لقد ذكر الله تعالى ذلك، فقال :﴿ كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ وَإِنَّمَا تُوَفَّوْنَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَمَنْ زُحْزِحَ عَنِ النَّارِ وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْغُرُورِ (185)﴾ (آل عمران)، وقال :﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ وَاخْشَوْا يَوْمًا لَا يَجْزِي وَالِدٌ عَنْ وَلَدِهِ وَلَا مَوْلُودٌ هُوَ جَازٍ عَنْ وَالِدِهِ شَيْئًا إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُمْ بِاللَّهِ الْغَرُورُ (33)﴾ (لقمان)، وقال :﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُمْ بِاللَّهِ الْغَرُورُ (5)﴾ (فاطر)، وقال :﴿ اعْلَمُوا أَنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ الْكُفَّارَ نَبَاتُهُ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَاهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَكُونُ حُطَامًا وَفِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٌ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْغُرُورِ (20)﴾ (الحديد)

قال أحدهم: لقد قال الشاعر يصور ذلك:

وإن امرأ دنياه أكبر همه   لمستمسك منها بحبل غرور

قال آخر: وقال يونس بن عبيد: (ما شبهت نفسي في الدنيا إلا كرجل نام فرأى في منامه ما يكره وما يحب فبينما هو كذلك إذ انتبه، فكذلك الناس نيام فإذا ماتوا انتبهوا، فإذا ليس بأيديهم شيء مما ركنوا إليه وفرحوا به)

قال آخر: وقيل لبعض الحكماء. أي شيء أشبه بالدنيا؟ قال: أحلام النائم.

قال آخر: لقد حدثني الثقاة أن عيسى عليه السلام كوشف بالدنيا فرآها في صورة عجوز هتماء عليها من كل زينة، فقال لها: كم

[1] ذكره ابن أبي الدنيا في كتاب ذم الدنيا.

تـزوجت؟ قـالت: لا أحصـيهم، قـال: فكلهم مـات عنـك، أم كلهم طلقك؟ قالت: بل كلهم قتلت، فقال عيسى ﵇: (بؤسـاً لأزواجـك الباقين، كيف لا يعتبرون بأزواجك الماضين! كيـف تهلكينهم واحـداً بعد واحد ولا يكونون منك على حذر!)

قال آخر: أما أنا، فقد حدثني بعض الصالحين قـال: رأيت في المنـام عجـوزاً كبـيرة متعصـبة الجلـد عليهـا من كـل زينـة الـدنيا والنـاس عكـوف عليهـا معجبـون ينظـرون إليهـا، فجئت ونظـرت وتعجبت من نظـرهم إليهـا وإقبـالهم عليهـا، فقلت لهـا: ويلـك من أنت؟ قـالت: أو مـا تعرفـني؟ قلت: لا أدري! من أنت؟ قـالت: أنـا الدنيا، قلت: أعوذ بالله من شـرك! قـالت: إن أحببت أن تعـاذ من شري فابغض الدرهم.

قال آخر: أما أنا، فقد حدثني بعض الورثة، فقال: رأيت الـدنيا في النـوم عجـوزاً مشـوهة شـمطاء تصـفق بيـديها وخلفهـا خلـق يتبعونهـا ويصـفقون ويرقصـون، فلمـا كـانت بحـذائي أقبلت علي فقالت: لو ظفرت بك لصنعت بك مثل ما صـنعت بهـؤلاء، ثم بكى أبو بكر وقال: رأيت هذا قبل أن أقدم إلى بغداد.

قال آخر: أما أنا، فقد حدثني من امتلأ صلاحا وتقـوى وورعـا، فقال: يؤتى بالدنيا يوم القيامة في صـورة عجـوز شـمطاء زرقـاء، أنيابهـا باديـة ومشـوه خلقهـا، فتشـرف على الخلائـق فيقـال لهم أتعرفون هذه؟ فيقولون: نعوذ بالله من معرفة هذه! فيقـال: هـذه الدنيا التي تنـاحرتم عليهـا، بهـا تقـاطعتم الأرحـام، وبهـا تحاسـدتم وتباغضتم واغتررتم، ثم يقـذف بهـا في جهنم فتنـادي: أي رب أين أتبـاعي وأشـياعي؟ فيقـول اللـه عـز وجـل: ألحقـوا بهـا أتباعهـا وأشياعها.

قال آخر: أما أنا، فقد حدثني مرشدي في الطريـق إلى اللـه، فقال: بلغني أن رجلاً عرج بروحه فإذا امرأة على قارعـة الطريـق عليهـا من كـل زينـة من الحلي والثيـاب، وإذا لا يمـر بهـا أحـد إلا جرحته، فإذا هي أدبرت كـانت أحسـن شـيء رآه النـاس، وإذا هي أقبلت كانت أقبح شيء رآه الناس، عجوز شمطاء زرقاء عمشـاء، قال: فقلت: أعوذ بالله منك! قالت: لا والله. لا يعيـذنك اللـه مـني

حتى تبغض الدرهم! قال: فقلت من أنت؟ قالت: أنا الدنيا.

قالوا: عرفنا الثالث، ووعيناه.. فهات الرابع.

قال: **الرابع هو أن تعلموا أن الدنيا دار ضلال وطغيان لمن يفتن بها**، وبذلك فإنها تجرهم إلى سخط الله وغضبه وشديد عقابه.. لقد ذكر الله ذلك، فأخبر عن تأثير الدنيا في المفتونين بها، فقال : قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُمْ بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالًا (103) الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا (104) أُولَئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ وَلِقَائِهِ فَحَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَزْنًا (105) (الكهف)، وقال : فَأَمَّا مَنْ طَغَى (37) وَآثَرَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا (38) فَإِنَّ الْجَحِيمَ هِيَ الْمَأْوَى (39) (النازعات)

وفي الحديث قال رسول الله : (من كانت الآخرة همه جعل الله غناه في قلبه، وجمع له شمله، وأتته الدنيا وهي راغمة، ومن كانت الدنيا همه، جعل الله فقره بين عينيه، وفرّق عليه شمله، ولم يأته من الدنيا إلا ما قدر له)[1]

قال أحدهم: صدقت، فأوائل الدنيا تبدو هينة لينة يظن الخائض فيها أن حلاوة خفضها كحلاوة الخوض فيها وهيهات! فإن الخوض في الدنيا سهل، والخروج منها مع السلامة شديد.

قال آخر: صدقت.. وقد كتب الإمام علي إلى سلمان بمثال للدنيا في لين موردها وخشونة مصدرها، فقال: (مثل الدنيا مثل الحية لين مسها ويقتل سمها، فأعرض عما يعجبك منها لقلة ما يصحبك منها، وضع عنك همومها بما أيقنت من فراقها، وكن أسر ما تكون فيها أحذر ما تكون لها، فإن صاحبها كلما اطمأن منها إلى سرور أشخصه عنه مكروه والسلام)

قال آخر: وقد ضرب المسيح مثالا على هذا، فقال: (بحق أقول لكم، كما ينظر المريض إلى الطعام فلا يلتذ به من شدة الوجع كذلك صاحب الدنيا لا يلتذ بالعبادة ولا يجد حلاوتها مع ما يجد من حب الدنيا، وبحق أقول لكم، إن الدابة إذا لم تركب

1() رواه الترمذي.

وتمتهن تصعب ويتغير خلقها كذلك القلوب إذا لم ترقق بذكر الموت ونصب العبادة تقسو وتغلظ، وبحق أقول لكم، إن الزق ما لم ينخرق أو يقحل يوشك أن يكون وعاء للعسل كذلك القلوب ما لم تخرقها الشهوات أو يدنسها الطمع أو يقسيها النعيم فسوف تكون أوعية للحكمة)

قال آخر: وقد ضرب المسيح مثلا لتأدية علائق الدنيا بعضها إلى بعض حتى الهلاك، فقال:(مثل طالب الدنيا مثل شارب ماء البحر كلما شرب ازداد عطشاً حتى يقتله)

قال آخر: وقد ضرب الغزالي مثالا لمخالفة آخر الدنيا أولها، ولنضارة أوائلها وخبث عواقبها، فقال: (اعلم أن شهوات الدنيا في القلب لذيذة كشهوات الأطعمة في المعدة، وسيجد العبد عند الموت لشهوات الدنيا في قلبه من الكراهة والنتن والقبح ما يده للأطعمة اللذيذة إذا بلغت في المعدة غايتها، وكما أن الطعام كلما كان ألذ طعماً وأكثر دسماً وأظهر حلاوة كان رجيعه أقذر وأشد نتناً، فكذلك كل شهوة في القلب هي أشهى وألذ وأقوى، فنتنها وكراهتها والتأذي بها عند الموت أشد بل هي في الدنيا مشاهدة، فإن من نبهت داره وأخذ ماله وولده، فتكون مصيبته وألمه وتفجعه في كل ما فقد بقدر لذته به وحبه له وحرصه عليه، فكل ما كان عند الوجود أشهى عنده وألذ فهو عند الفقد أدهى وأمر، ولا معنى للموت إلا فقد ما في الدنيا)[1]

قالوا: عرفنا الرابع، ووعيناه.. فهات الخامس.

قال: **الخامس هي أن الدنيا دار خزي ولعنة للمعاندين**.. لقد ذكر الله ذلك، فقال : ﴿ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَأَتَاهُمُ الْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ (25) فَأَذَاقَهُمُ اللَّهُ الْخِزْيَ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ (26)﴾ (الزمر)، وقال :﴿ وَأَتْبَعْنَاهُمْ فِي هَذِهِ الدُّنْيَا لَعْنَةً وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ هُمْ مِنَ الْمَقْبُوحِينَ (42)﴾ (القصص)

وقد ضرب رسول الله ﷺ مثلا لما يحصل لأهل الدنيا من خزي

1() إحياء علوم الدين.

ولعنة بسبب تثاقلهم إليها، فقال: (إنما مثلي ومثلكم ومثل الدنيا كمثل قوم سلكوا مفازة غبراء، حتى إذا لم يدروا، ما سلكوا منها أكثر أو ما بقي؟ أنفدوا الزاد وخسروا الظهر وبقوا بين ظهراني المفازة ولا زاد ولا حمولة فأيقنوا بالهلكة، فبينما هم كذلك إذ خرج عليهم رجل في حلة تقطر رأسه، فقالوا: هذا قريب عهد بريف وما جاءكم هذا إلا من قريب، فلما انتهى إليهم قال: يا هؤلاء، فقالوا: يا هذا! فقال علام أنتم؟ فقالوا: على ما ترى، فقال: أرأيتم إن هديتكم إلى ماء رواء ورياض خضر ما تعملون؟ قالوا: لا نعصيك شيئاً، قال: عهودكم مواثيقكم بالله، فأعطوه عهودهم ومواثيقهم بالله لا يعصونه شيئاً، قال: فأوردهم ماء رواء ورياضاً خضراً فمكث فيهم ما شاء الله ثم قال: يا هؤلاء! قالوا: يا هذا! قال: الرحيل! قالوا: إلى أين؟ قال: إلى ماء ليس كمائكم وإلى رياض ليست كرياضكم، فقال أكثرهم: والله ما وجدنا هذا حتى ظننا أنا لن نجده وما نصنع بعيش خير من هذا؟ وقالت طائفة - وهم أقلهم - ألم تعطوا هذا الرجل عهودكم ومواثيقكم بالله أن لا تعصوه شيئاً وقد صدقكم في أول حديثه فوالله ليصدقنكم في آخره؟ فراح فيمن اتبعه وتخلف بقيتهم فبدرهم عدو فأصبحوا بين أسير وقتيل)[1]

قال بعضهم: لقد ذكرني هذا الحديث بمثال سمعته من بعض العلماء ضربه لعاقبة اشتغال أهل الدنيا بنعيم الدنيا وغفلتهم عن الآخرة وخسرانهم العظيم بسببها، فذكر أن مثل أهل الدنيا في غفلتهم مثل قوم ركبوا سفينة، فانتهت بهم إلى جزيرة، فأمرهم الملاح بالخروج إلى قضاء الحاجة وحذرهم المقام وخوفهم مرور السفينة واستعجالها، فتفرقوا في نواحي الجزيرة:

فقضى بعضهم حاجته، وبادر إلى السفينة فصادف المكان خالياً فأخذ أوسع الأماكن وألينها وأفقها لمراده.

وبعضهم توقف في الجزيرة ينظر إلى أنوارها وأزهارها العجيبة وغياضها الملتفة ونغمات طيورها الطيبة وألحانها الموزونة الغريبة وصار يلحظ من بريتها أحجارها وجواهرها ومعادنها

1() رواه ابن أبي الدنيا هكذا بطوله، ولأحمد والبزار والطبراني أخصر منه وإسناده حسن.

المختلفة الألوان والأشكال الحسنة المنظر العجيبة النقوش السالبة أعين الناظرين بحسن زبرجدها وعجائب صورها، ثم تنبه لخطر فوات السفينة فرجع إليها فلم يصادف إلا مكاناً ضيقاً حرجاً فاستقر فيه.

وبعضهم أكب على تلك الأصداف والأحجار وأعجبه حسنها ولم تسمح نفسه بإهمالها فاستصحب منها جملة، فلم يجد في السفينة إلا مكاناً ضيقاً وزاده ما حمله من الحجارة ضيقاً وصار ثقيلاً عليه ووبالاً، فندم على أخذه ولم يقدر على رميه ولم يجد مكاناً لوضعه، فحمله في السفينة على عنقه وهو متأسف على أخذه وليس ينفعه التأسف.

وبعضهم تولج الغياض ونسي المركب وبعد في متفرجه ومتنزهه منه حتى لم يبلغه نداء الملاح لاشتغاله بأكل تلك الثمار واستشمام تلك الأنوار والتفرج بين تلك الأشجار، وهو مع ذلك خائف على نفسه من السباع وغير خال من السقطات والنكبات، ولا منفك عن شوك ينشب بثيابه وغضن يجرح بدنه وشوكة تدخل في رجله وصوت هائل يفزع منه وعوسج يخرق ثيابه ويهتك عورته ويمنعه عن الانصراف لو أراده، فلما بلغه نداء أهل السفينة انصرف مثقلاً بما معه ولم يجد في المركب موضعاً فبقي في الشط حتى مات جوعاً.

وبعضهم لم يبلغه النداء وسارت السفينة، فمنهم من افترسته السباع، ومنهم من تاه فهام على وجهه حتى هلك، ومنهم من مات في الأوحال، ومنهم من نهشته الحيات، فتفرقوا كالجيف المنتنة.

وأما من وصل إلى المركب بثقل ما أخذه من الأزهار والأحجار، فقد استرقته وشغله الحزن بحفظها والخوف من فوتها وقد ضيقت عليه مكانه، فلم يلبث أن ذبلت تلك الأزهار وكمدت تلك الألوان والأحجار فظهر نتن رائحتها فصارت مع كونها مضيقة عليه مؤذية له بنتنها ووحشتها، فلم يجد حيلة إلا أن ألقاها في البحر هرباً منها، وقد أثر فيه ما أكل منها فلم ينته إلى الوطن إلا بعد أن ظهرت عليه الأسقام بتلك الروائح فبلغ سقيماً مدبراً.

ومن رجع قريباً ما فاته إلا سعة المحل فتأدى بضـيق المكـان مدة، ولكن لما وصل إلى الوطن استراح.

ومن رجع أولاً وجد المكان الأوسع ووصل إلى الوطن سالماً.

فهـذا مثـال أهـل الـدنيا في اشـتغالهم بحظـوظهم العاجلـة ونسيانهم موردهم ومصدرهم وغفلتهم عن عاقبة أمورهم.

وما أقبح من يزعم أنه بصـير عاقـل أن تغـره أحجـار الأرض وهي الذهب والفضة وهشـيم النبت وهي زينـة الـدنيا، وشـيء من ذلك لا يصبحه عند الموت، بل يصير كلاً ووبالاً عليه وهو في الحال شاغل له بالحزن والخـوف عليـه. وهـذه حـال الخلـق كلهم إلا من عصمه الله عز وجل.

قال آخر: وقد ضرب آخر مثلا لتنعم الناس بالـدنيا ثم تفجعهم على فراقها، فذكر أن مثل الناس فيما أعطوا من الدنيا مثل رجل هيأ داراً وزينها، وهو يدعو إلى داره على الترتيب قوماً، واحـداً بعـد واحد، فدخل واحد داره فقدم إليه طبق ذهب عليه بخور وريـاحين ليشمه ويتركه لمن يلحقه، لا ليتملكه ويأخذه، فجهـل رسـمه وظن أنه قد وهب ذلك فتعلق به قلبه لما ظن أنه له، فلما استرجع منـه ضجر وتفجع، ومن كان عالماً برسمه انتفع به وشكره ورده بطيب قلب وانشراح صدر، وكـذلك من عـرف سـنة اللـه في الـدنيا علم أنها دار ضـيافة سـبلت على المجتـازين لا على المقيمين ليـتزودوا منهـا وينتفعـوا بمـا فيهـا كمـا ينتفـع المسـافرون بـالعواري، ولا يصرفون إليها كل قلوبهم حتى تعظم مصيبتهم عند فراها.

***

لسـت أدري كيـف ثـارت في نزعـة الجـدل، فـرحت أقطـع حديثهم بقولي: ولكن ما تقولـون.. ألم تسـمعوا قولـه تعـالى وهـو يجمع لعباده المؤمنين بين ثواب الدنيا وثـواب الآخـرة، لقـد قـال : ﴿ فَآتَـاهُمُ اللَّهُ ثَـوَابَ الـدُّنْيَا وَحُسْـنَ ثَـوَابِ الْآخِـرَةِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ (148)﴾ (آل عمران)

بـل إنـه يـذكر النمـاذج الرفيعـة من أوليائـه وأصـفيائه الـذين

رزقوا من الحظوظ مالم يرزقه أهل الدنيا أنفسهم، ومنها حظ الجاه الذي وهب للمسيح ﷺ، قال تعالى : إِذْ قَالَتِ الْمَلائِكَةُ يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِنْهُ اسْمُهُ الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ وَجِيهاً فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ (45) (آل عمران)

ومنها نموذج إبراهيم ﷺ الذي جمع له بين الحسنتين حسنة الدنيا والآخرة، قال تعالى: وَآتَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ (122) (النحل)

وقد تأملت القرآن الكريم، فوجدت أن هذه النعم والحظوظ التي من الله بها على أصفيائه ليست خاصة بهم، بل هي قانون من قوانين الله وسنة من سننه، قال تعالى : مَنْ كَانَ يُرِيدُ ثَوَابَ الدُّنْيَا فَعِنْدَ اللَّهِ ثَوَابُ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَكَانَ اللَّهُ سَمِيعاً بَصِيراً (134) (النساء)

وكأن هذه الآية تخطاب القاصرين الذين ينظرون بعين واحدة إلى الأشياء، فيتصورون أن إقبالهم على الدين يحول بينهم وبين الإقبال على الدنيا، أو أن رغبتهم في الآخرة تحول بينهم وبين زينة الدنيا، ولهذا يستنكر الله تعالى أن تحرم الطيبات، ويعتبر أنها من منن الله على جميع البشر بما فيهم المؤمنون، وأنها خالصة لهم في الآخرة، قال تعالى : قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ(32) (الأعراف)

وذكر الله من أدعية المؤمنين قولهم :.. رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الْآخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ(201) (البقرة)، وقولهم : وَاكْتُبْ لَنَا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الْآخِرَةِ إِنَّا هُدْنَا إِلَيْكَ قَالَ عَذَابِي أُصِيبُ بِهِ مَنْ أَشَاءُ وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَالَّذِينَ هُمْ بِآياتِنَا يُؤْمِنُونَ(156) (الأعراف)، وقوله عن يوسف ﷺ : رَبِّ قَدْ آتَيْتَنِي مِنَ الْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِي مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ فَاطِرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ أَنْتَ وَلِيِّي فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ تَوَفَّنِي مُسْلِماً وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ(101) (يوسف)

وهكـذا وردت آيـات كثـيرة في القــرآن الكــريم تجمـع بين حسنتي الدنيا والآخرة، قال تعالى: وَقِيلَ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا مَـاذَا أَنْـزَلَ رَبُّكُمْ قَالُوا خَيْراً لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةٌ وَلَـدَارُ الْآخِـرَةِ خَيْرٌ وَلَنِعْمَ دَارُ الْمُتَّقِينَ(30) (النحل)، وقال

بعد أن أنهيت حديثي ابتسم نوح، وقال: صدقت يا بـني.. فمـا أجمل ما عقبت به.. وما كنا لنرده وقد نطق به القرآن، بل نطقت به كل الحقائق.. فقد أخبر الله أنه يعجل ثواب المؤمنين في الدنيا قبـل الآخـرة، قـال تعـالى : وَالَّذِينَ هَـاجَرُوا فِي اللَّهِ مِنْ بَعْـدِ مَـا ظُلِمُـوا لَنُبَـوِّئَنَّهُمْ فِي الـدُّنْيَا حَسَـنَةً وَلَأَجْـرُ الْآخِـرَةِ أَكْبَـرُ لَـوْ كَـانُوا يَعْلَمُونَ(41) (النحل)

ولكن الذي نريده من حديثنا، وهـو مـا أراده القـرآن الكـريم، وأراده جميع الأنبياء والأولياء، وهو ذم الركون إلى الـدنيا والتثاقـل إليها.. فالدنيا التي اجتمع كل أولئك الشهود على ذمها ليسـت دنيـا الصـالحين، وإنمـا هي دنيـا أهـل الهمم الـدنيا، الهمم الـتي تقصـر نظرها على نصيبها المحدود غافلة عن نصيبها غير المحدود.

هي دنيا الـذين اشـتغلوا بمـا رأو من عاجـل النعيم عن آجلـه، فانهمكوا ينتهزون فرصـة العمـر في اسـتيعاب مـا اسـتطاعت لهم قواهم من أصناف اللذات.

والنصوص المقدسة لا تعيب على هؤلاء مـا انهمكـوا فيـه من أصناف النعيم، بل تعيب عليهم اشـتغال أنفسـهم وهممهم بـه عن التدبر فيما بعده.. قال تعالى : وَقَالُوا إِنْ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا وَمَـا نَحْنُ بِمَبْعُـوثِينَ(29) (الأنعـام)، وقـال : أُولَئِكَ الَّذِينَ اشْـتَرَوُا الْحَيَـاةَ الـدُّنْيَا بِـالْآخِرَةِ فَلا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ الْعَـذَابُ وَلا هُمْ يُنْصَـرُونَ(86) (البقـرة)، وقـال: فَـإِذَا قَضَـيْتُمْ مَنَاسِـكَكُمْ فَـاذْكُرُوا اللَّهَ كَذِكْرِكُمْ آبَاءَكُمْ أَوْ أَشَـدَّ ذِكْـراً فَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَقُـولُ رَبَّنَـا آتِنَـا فِي الـدُّنْيَا وَمَـا لَـهُ فِي الْآخِـرَةِ مِنْ خَلاقٍ(200) (البقـرة)، وقـال : الَّذِينَ اتَّخَـذُوا دِينَهُمْ لَهْـواً وَلَعِبـاً وَغَـرَّتْهُمُ الْحَيَـاةُ الـدُّنْيَا فَـالْيَوْمَ نَنْسَاهُمْ كَمَا نَسُوا لِقَاءَ يَوْمِهِمْ هَذَا وَمَا كَانُوا بِآياتِنَـا يَجْحَـدُونَ(51) (الأعـراف)، وقـال : الَّذِينَ يَسْـتَحِبُّونَ الْحَيَـاةَ الـدُّنْيَا عَلَى الْآخِـرَةِ وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجاً أُولَئِكَ فِي ضَـلالٍ بَعِيـدٍ(3)

(إبراهيم)، وقال : ﴿ إِنْ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ(37)﴾ (المؤمنون)، وقال :﴿ وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ وَلا تَنْسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا وَأَحْسِنْ كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ وَلا تَبْغِ الْفَسَادَ فِي الْأَرْضِ إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ(77)﴾ (القصص)، وقال :﴿ بَلْ تُؤْثِرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا (16)﴾ (الأعلى)، وقال :﴿ وَآثَرَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا(38)﴾ (النازعات)

ولهذا عاب الله على المؤمنين تثاقلهم إلى الدنيا في بعض الأمور، وعاتبهم على ذلك، فقال: ﴿مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَنْ يَكُونَ لَهُ أَسْرَى حَتَّى يُثْخِنَ فِي الْأَرْضِ تُرِيدُونَ عَرَضَ الدُّنْيَا وَاللَّهُ يُرِيدُ الْآخِرَةَ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ(67)﴾ (الأنفال)، وقال :﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمُ انْفِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ اثَّاقَلْتُمْ إِلَى الْأَرْضِ أَرَضِيتُمْ بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا مِنَ الْآخِرَةِ فَمَا مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ(38)﴾ (التوبة)، وقال :﴿ وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ وَلا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَنْ ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطاً(28)﴾ (الكهف)

ولهذا يجمع الله تعالى بين همة المؤمنين الذين ترقت هممهم فلم تقف مع زينة الحياة الدنيا، ولم تحبس نفسها في قيودها مع همة الكافرين التي باعت نفسها لأول ما لاح لها من مظاهر الزينة، قال تعالى :﴿ زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَيَسْخَرُونَ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ اتَّقَوْا فَوْقَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَاللَّهُ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ(212)﴾ (البقرة)

وفي هذه الآية تصوير بديع لسخرية الكافرين الذين استغرقوا في حب الدنيا، وعبادتها، بل فنوا فيها عما سواها من المؤمنين الذين تعاملوا مع الدنيا بعقولهم لا بشهواتهم، وبربهم لا بأنفسهم، وبدينهم لا بأهوائهم.

وإلى هؤلاء يتوجه شهود نعي الدنيا وذمها.. وبسبب هؤلاء ذمت الدنيا ولعنت، وشهد الشهود على نعيها.

وإلى هذا وردت الإشارة بقوله ﷺ: (لا تَسُبُّوا الدنيا، فنِعمَت

مَطيّةُ المؤمن، فعليها يَبلَغ الخيرَ وبها ينجو من الشـرّ. إنّـه إذا قـال العبد: لَعَن اللهُ الدنيا، قالت الدنيا: لَعَن اللهُ أعصانا لربِّه!)[1]

وسمع الإمام عليّ رجلاً يذمّ الدنيا، فقال لهـ: أيُّها الذامُّ للـدنيا المغترُّ بغُرورها المخدوعُ بأباطيلها، أتغـترّ بالـدنيا ثمّ تَـذُمّها ؟! أنت المتجرّم عليها أم هي المتجرّمة عليك ؟! مـتى اسـتَهوَتك أم مـتى غَرَّتك ؟!... إنّ الدنيا دارُ صِدقٍ لمَن صَـدَقَها، ودار عافيـةٍ لمَن فَهِم عنها، ودار غنىً لمَن تَزوَّد منها)[2]

وقـال الإمـام الهـادي: (الـدنيا سـوق، رَبِح فيهـا قـومٌ وخَسِـر آخَرون)[3]

***

بقيت مدة في هذا القسم أستفيد من نوح علـوم الـترفع عن الدنيا.. وعندما أيقنت بأن الدنيا أحقـر من أن أبيـع بسـببها آخـرتي طلب مني، كما طلب من جمع معي فقهوا ما فقهت أن نسير إلى قسم آخر من أقسام تلك المدرسة[4].

2 ـ المال

بعد أن فتح الله علي، فتعلمت أسرار الـترفع عن ثقـل الـدنيا سرت إلى القسم الثاني، وكان خاصا بالترفع عن ثقل المال، وقـد أخبرني ولي الله (يوسف الصديق) أن شـيخ هـذا القسـم ولي من أولياء الله يقال له (شعيب)، وأنـه تعلم أسـرار الـترفع عن المـال من نبي من أنبياء الله اسمه شعيب ﵇، ذلك النبي الكـريم الـذي قص الله علينا خبره مع قومه، فقال : ﴿ وَإِلَى مَدْيَنَ أَخَـاهُمْ شُـعَيْبًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَـهٍ غَيْـرُهُ وَلَا تَنْقُصُـوا الْمِكْيَـالَ

1() بحار الأنوار 178:77.

2() نهج البلاغة: الحكمة 131.

3() بحار الأنوار 366:78.

4() سنذكر تفاصيل أخرى ترتبط بموقف الإسلام من الدنيا في رسالة (أسرار الحياة)، وهي الرسالة التالية لهذه الرسالة.

وَالْمِيزَانَ إِنِّي أَرَاكُمْ بِخَيْرٍ وَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ مُحِيطٍ (84) وَيَا قَوْمِ أَوْفُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ (85) بَقِيَّتُ اللَّهِ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِحَفِيظٍ (86) (هود)

وأخبرنا عن مواجهة قومه له، ورده عليهم بأفصح خطاب، فقال : قَالُوا يَا شُعَيْبُ أَصَلَاتُكَ تَأْمُرُكَ أَنْ نَتْرُكَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا أَوْ أَنْ نَفْعَلَ فِي أَمْوَالِنَا مَا نَشَاءُ إِنَّكَ لَأَنْتَ الْحَلِيمُ الرَّشِيدُ (87) قَالَ يَا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كُنْتُ عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّي وَرَزَقَنِي مِنْهُ رِزْقًا حَسَنًا وَمَا أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَى مَا أَنْهَاكُمْ عَنْهُ إِنْ أُرِيدُ إِلَّا الْإِصْلَاحَ مَا اسْتَطَعْتُ وَمَا تَوْفِيقِي إِلَّا بِاللَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ (88) وَيَا قَوْمِ لَا يَجْرِمَنَّكُمْ شِقَاقِي أَنْ يُصِيبَكُمْ مِثْلُ مَا أَصَابَ قَوْمَ نُوحٍ أَوْ قَوْمَ هُودٍ أَوْ قَوْمَ صَالِحٍ وَمَا قَوْمُ لُوطٍ مِنْكُمْ بِبَعِيدٍ (89) وَاسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ إِنَّ رَبِّي رَحِيمٌ وَدُودٌ (90) قَالُوا يَا شُعَيْبُ مَا نَفْقَهُ كَثِيرًا مِمَّا تَقُولُ وَإِنَّا لَنَرَاكَ فِينَا ضَعِيفًا وَلَوْلَا رَهْطُكَ لَرَجَمْنَاكَ وَمَا أَنْتَ عَلَيْنَا بِعَزِيزٍ (91) قَالَ يَا قَوْمِ أَرَهْطِي أَعَزُّ عَلَيْكُمْ مِنَ اللَّهِ وَاتَّخَذْتُمُوهُ وَرَاءَكُمْ ظِهْرِيًّا إِنَّ رَبِّي بِمَا تَعْمَلُونَ مُحِيطٌ (92) وَيَا قَوْمِ اعْمَلُوا عَلَى مَكَانَتِكُمْ إِنِّي عَامِلٌ سَوْفَ تَعْلَمُونَ مَنْ يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَمَنْ هُوَ كَاذِبٌ وَارْتَقِبُوا إِنِّي مَعَكُمْ رَقِيبٌ (93) (هود)

وأخبرنا عن الحال التي آلوا إليها بسبب مخالفته، فقال : وَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا شُعَيْبًا وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَأَخَذَتِ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دِيَارِهِمْ جَاثِمِينَ (94) كَأَنْ لَمْ يَغْنَوْا فِيهَا أَلَا بُعْدًا لِمَدْيَنَ كَمَا بَعِدَتْ ثَمُودُ (95) (هود)

وقد صادف دخولنا لهذا القسم المكتظ بالأغنياء وأصحاب الأموال قراءة شعيب لقوله تعالى : وَيْلٌ لِكُلِّ هُمَزَةٍ لُمَزَةٍ (1) الَّذِي جَمَعَ مَالًا وَعَدَّدَهُ (2) يَحْسَبُ أَنَّ مَالَهُ أَخْلَدَهُ (3) كَلَّا لَيُنْبَذَنَّ فِي الْحُطَمَةِ (4) وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْحُطَمَةُ (5) نَارُ اللَّهِ الْمُوقَدَةُ (6) الَّتِي تَطَّلِعُ عَلَى الْأَفْئِدَةِ (7) إِنَّهَا عَلَيْهِمْ مُؤْصَدَةٌ (8) فِي عَمَدٍ مُمَدَّدَةٍ (9) (الهمزة)

وبعد أن انتهى من قراءتها سأله بعضهم عنها، فقـال[1]:هـذه السورة تمثل نموذجاً من الناس الذين يطغى عليهم الغنى، ويرتفع بنظرتهم إلى نفوسـهم، حـتى يخيّـل إليهم أنهم في الدرجـة العليـا الـتي لا يبلغهـا أحـد، فينظـرون إلى مَنْ دونهم من الفقـراء نظـرة استعلاءٍ، ويكـثرون من الطعن فيهم بالكلمـات السـيئة الـتي تنـال منهم، وتؤذيهم وتسيء إلى كرامتهم وأعراضـهم، بإظهـار عيـوبهم والإكثار من سبّهم، ويـرون أن ذلـك من حقـوقهم الطبقيـة في مـا تفرضه من سحق نفسيتهم وإذلال مواقعهم.

وهذه السورة الكريم تبين حقيقة ما سيؤول إليـه مصـيرهم.. فقد أنذرهم الله بالويل، وعرّفهم بأن المال لن يمنحهم خلـوداً في الحيـاة، ولن يمنـع عنهم المـوت، فسـيموتون كمـا يمـوت النـاس، وستتحطّم كل هذه الكبريـاء في نـار جهنّم الـتي يُنبـذون فيهـا نبـذ الكلمات المهملة، وسيحترقون بها في ظاهر أجسـادهم، بـاطنهم، وسـيُربطون بالعمـد الممـدّدة، وسـتطبق عليهم فلا تفتح لهم ليخرجوا منها، لأنهم سيخلدون فيها بالعذاب، بدلاً مما كانوا يأملونه من الخلود في النعيم.

بعد أن انتهى من حديثه هذا سأله بعضهم، فقـال: فالسـورة الكريمة تعتبر المال السبب الأكبر في ذلك الانهيار النفسـي الـذي أدى بصاحبه الهمزة اللمزة إلى ذلك المصير الخطير الذي تقشـعر منه النفوس؟

قـال شـعيب: أجـل.. فـالقرآن الكـريم يقـدّم هـذه الصـورة الأخروية للمصير الذي يلقاه هـؤلاء، ليرتـدع النـاس عن الأخـذ بمـا أخذوا به في سلوكهم العملي الاستكباري على أساس المال الذي يجمعونه ويعدِّدونه، وليعرفوا أن المال لا يمثّل قيمـةً إنسـانية، بـل هو مجـرد حاجـة دنيويـة يحصـلون عليهـا من أجـل تلبيـة حاجـاتهم الغذائية والسكنية والكسائية وغير ذلك، فلا يمنح الإنسـان ارتفاعـاً في حجمـه الإنسـاني، ولا يزيـد في عملـه ووعيـه وانفتاحـه على الآفـاق الرحبـة في الحيـاة، إلاّ إذا اسـتعمله في الغايـات الكبـيرة الإنسـانية الـتي تتّصـل برعايـة المحـرومين وإعـانتهم على سـدّ

[1] () اقتبسنا المعاني الواردة في تفسير هذه السورة من تفسير السيد محمد حسـين فضـل الله.

حاجاتهم الطبيعية.

قال آخر: فأنت ترى أن كل ما ذكر في السورة يرتبط بعضه ببعض.

قال شعيب: أجل.. فالقرآن الكريم كتاب لا يجمع بين القضايا إلا لمناسبة بينها.. وقد تأملته، فوجدته في مناسبات عديدة يشير تصريحا أو تلميحا إلى أن للمال تأثيره الخطير في انتكاسة النفس.

اسمعوا إليه، وهو يحدثنا عن ذلك الذي تثاقل إلى الأرض، وأنسته أمواله تدبر القرآن، والتعرف على الله من خلالها.. قال تعالى : ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا (11) وَجَعَلْتُ لَهُ مَالًا مَمْدُودًا (12) وَبَنِينَ شُهُودًا (13) وَمَهَّدْتُ لَهُ تَمْهِيدًا (14) ثُمَّ يَطْمَعُ أَنْ أَزِيدَ (15) كَلَّا إِنَّهُ كَانَ لِآيَاتِنَا عَنِيدًا (16) سَأُرْهِقُهُ صَعُودًا (17) إِنَّهُ فَكَّرَ وَقَدَّرَ (18) فَقُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ (19) ثُمَّ قُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ (20) ثُمَّ نَظَرَ (21) ثُمَّ عَبَسَ وَبَسَرَ (22) ثُمَّ أَدْبَرَ وَاسْتَكْبَرَ (23) فَقَالَ إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ يُؤْثَرُ (24) إِنْ هَذَا إِلَّا قَوْلُ الْبَشَرِ (25) سَأُصْلِيهِ سَقَرَ (26) وَمَا أَدْرَاكَ مَا سَقَرُ (27) لَا تُبْقِي وَلَا تَذَرُ (28) (المدثر)

انظروا كيف حال حب المال دون هذا الرجل ومعرفة ربه، والتشرف بصحبة نبيه.

والأمر لا يقتصر على هذا، بل إنه يعم حتى أولئك الذين شرفوا بدراسة كتب الله المقدسة، وتولي رعايتها وحفظها.. فقد أعماهم حب المال عن كونها كلمات الله المقدسة.. فراحوا يعبثون بها كما تشاء لهم أهواؤهم، قال تعالى : : فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ يَكْتُبُونَ الْكِتَابَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَذَا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ لِيَشْتَرُوا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا فَوَيْلٌ لَهُمْ مِمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَهُمْ مِمَّا يَكْسِبُونَ (79) (البقرة)، وقال : إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ الْكِتَابِ وَيَشْتَرُونَ بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا أُولَئِكَ مَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ إِلَّا النَّارَ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (174) أُولَئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الضَّلَالَةَ بِالْهُدَى وَالْعَذَابَ بِالْمَغْفِرَةِ فَمَا أَصْبَرَهُمْ عَلَى النَّارِ (175) (البقرة)، وقال : إِنَّ الَّذِينَ يَشْتَرُونَ

بِعَهْدِ اللَّهِ وَأَيْمَانِهِمْ ثَمَنًا قَلِيلًا أُولَئِكَ لَا خَلَاقَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ وَلَا يَنْظُرُ إِلَيْهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (77) (آل عمران)

ولم يكتفوا بهذا.. بل كانوا يأكلون أموال الناس بطرق مختلفة كلها باطل وزور وضلال، قال تعالى: يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ كَثِيرًا مِنَ الْأَحْبَارِ وَالرُّهْبَانِ لَيَأْكُلُونَ أَمْوَالَ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلَا يُنْفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ (34) يَوْمَ يُحْمَى عَلَيْهَا فِي نَارِ جَهَنَّمَ فَتُكْوَى بِهَا جِبَاهُهُمْ وَجُنُوبُهُمْ وَظُهُورُهُمْ هَذَا مَا كَنَزْتُمْ لِأَنْفُسِكُمْ فَذُوقُوا مَا كُنْتُمْ تَكْنِزُونَ (35) (التوبة)

قال آخر: فما الذي مكن حب المال من قلوب هؤلاء.. ولم صاروا عاشقين ولهين للمال؟

قال شعيب[1]: لقد تأملت ذلك، وبحثت فيه فرأيت أن **لحب المال منبعان كلاهما يملأ القلب بالوله بالمال**.

قال الرجل: فما **أولهما**؟

قال شعيب: أولهما حب الشهوات التي لا وصول إليها إلا بالمال مع طول الأمل، فإن الإنسان لو علم أنه يموت بعد يوم ربما كان لا يبخل بما له، إذ القدر الذي يحتاج إليه في يوم أو في شهر أو في سنة قريب، وإن كان قصير الأمل ولكن كان له أولاد أقام الولد مقام طول الأمل، فإنه يقدر بقاءهم كبقاء نفسه فيمسك لأجلهم، ولذلك قال : (الولد مبخلة مجبنة مجهلة)[2]، فإذا انضاف إلى ذلك خوف الفقر وقلة الثقة بمجيء الرزق قوي تمسكه بالمال لا محالة.

قال الرجل: عرفت الأول، فما **الثاني**؟

قال شعيب: الثاني، أن يحب عين المال؛ فمن الناس من معه ما يكفيه لبقية عمره إذا اقتصر على ما جرت به عادته

[1] انظر: الإحياء.

[2] رواه الطبراني.

بنفقته، بل يزيد على ذلك آلافا مؤلفة، وهو شيخ بلا ولد، ومعه أموال كثيرة، ولا تسمح نفسه بإخراج الزكاة، بل قد لا تسمح نفسه بمداواة نفسه عند المرض، بل صار محباً للدنانير عاشقاً لها يلتذ بوجودها في يده وبقدرته عليها، فيكنزها تحت الأرض وهو يعلم أنه يموت فتضيع أو يأخذها أعداؤه، ومع هذا لا تسمح نفسه بأن يأكل أو يتصدق منها بحبة واحدة.

وهذا مرض للقلب، علاجه عسير لا سيما في كبر السن، بل هو مرض مزمن لا يرجى علاجه.. ومثال صاحبه: مثال رجل عشق شخصاً فأحب رسوله لنفسه ثم نسي محبوبه واشتغل برسوله.. فالدنانير رسول يبلغ إلى الحاجات فصارت محبوبة لذلك، لأن الموصل إلى اللذيذ لذيذ، ثم قد تنسى الحاجات ويصير الذهب عنده كأنه محبوب في نفسه وهو غاية الضلال، بل من رأى بينه وبين الحجر فرقاً فهو جاهل إلا من حيث قضاء حاجته به، فالفاضل عن قدر حاجته والحجر بمثابة واحدة.

قال آخر: عرفنا المنابع التي ينبع منها حب المال.. **فما السد الذي يحمينا من شر مياهه المتعفنة**؟

قال شعيب: أنتم تعلمون أن علاج كل علة بمضادة سببها.. فلذلك يعالج حب الشهوات بالقناعة باليسير وبالصبر، ويعالج طول الأمل بكثرة ذكر الموت والنظر في موت الأقران وطول تعبهم في جمع المال وضياعه بعدهم، ويعالج التفات القلب إلى الولد بأن خالقه خلق معه رزقه، وكم من ولد ولم يرث من أبيه مالاً وحاله أحسن ممن ورث؟ وبأن يعلم أنه يجمع المال لولده يريد أن يترك ولده بخير وينقلب هو إلى شر، وأن ولده إن كان تقياً صالحاً فالله كافيه، وإن كان فاسقاً فيستعين بماله على المعصية وترجع مظلمته إليه.

وقد روي في هذا أن بعضهم دخل على رجل يعوده في مرضه، فرآه يصوّب بصره في صندوق في بيته ويصعّده، ثمّ قال: يا فلان، ما تقول في مائة ألف في هذا الصّندوق، لم أؤدّ منها زكاة، ولم أصل منها رحما؟ قال: ثكلتك أمّك، ولمن كنت تجمعها؟ قال: لروعة الزّمان، وجفوة السّلطان، ومكاثرة العشيرة. ثمّ

مات، فشهده الرجل، فلمّا فرغ من دفنـه. قـال: انظـروا إلى هـذا المسـكين، أتـاه شـيطانه فحـذّره روعـة زمانـه، وجفـوة سـلطانه، ومكاثرة عشيرته. عمّا رزقه اللّه إيّـاه وغمـره فيـه، انظـروا كيـف خـرج منهـا مسـلوبا محروبـا. ثمّ التفت إلى الـوارث فقـال: (أيّهـا الوارث لا تخدعنّ كما خدع صويحبك بالأمس، أتاك هذا المال حلالا فلا يكوننّ عليك وبالا، أتاك عفوا صفوا ممّن كان له جموعا منوعا، من باطل جمعه، ومن حقّ منعـه، قطـع فيـه لجج البحـار، ومفـاوز القفـار، لم تكـدح فيـه بيمين، ولم يعـرق لـك فيـه جـبين. إنّ يـوم القيامة يوم ذو حسـرات، وإنّ من أعظم الحسـرات غـدا أن تـرى مالك في ميزان غيرك، فيالها عثرة لا تقال، وتوبة لا تنال)

قال آخر: فهل من علاج آخر غير هذا؟

قال شعيب: أجل.. يعالج نفسه بما ورد في الأخبار من مذمة كنز المال، ومنع الحقوق الواجبة فيه..

ومن ذلك مـا ورد في الحـديث من قولـه : (مـا من صـاحب إبل لا يفعل فيها حقّها إلّا جاءت يـوم القيامـة أكـثر مـا كـانت قـطّ وقعد لها بقاع قرقر، تسـتنّ عليـه بقوائمهـا وأخفافهـا، ولا صـاحب بقر لا يفعل فيها حقّها، إلّا جاءت يوم القيامة أكثر ما كـانت. وقعـد لها بقاع قرقر. تنطحه بقرونها وتطؤه بقوائمها. ولا صــاحب غنم لا يفعل فيها حقّها. إلّا جاءت يوم القيامـة أكـثر مـا كـانت. وقعـد لهـا بقاع قرقر. تنطحه بقرونها وتطـؤه بأظلافهـا، ليس فيهـا جمّـاء ولا منكسر قرنها. ولا صاحب كنز لا يفعل فيه حقّه. إلّا جاء كـنزه يـوم القيامة شجاعا أقرع. يتبعه فاتحا فاه. فإذا أتـاه فـرّ منـه. فيناديـه: خذ كنزك الّذي خبأته. فأنا عنه غنيّ. فإذا رأى أن لا بدّ منـه. سـلك يده في فيه فيقضمها قضم الفحل)[1]

وروي أنّ امرأة من أهل اليمن أتت رسول اللّـه وبنت لهـا، في يد ابنتها مسكتان (سواران) غليظتان من ذهب فقال: (أتـؤدّين زكاة هذا؟) قالت: لا، قال: (أيسرّك أن يسوّرك اللّه- عزّ وجلّ- بها يوم القيامة سوارين من نار)، قال: فخلعتهما فألقتهما إلى رسـول

[1] رواه مسلم.

اللّه . فقالت: هما للّه ولرسوله)(1)

وعن الأحنف بن قيس قال: قدمت المدينة، فبينا أنا في حلقة فيها ملأ من قـريش إذ جـاء رجـل أخشـن الثّيـاب أخشـن الجسـد، أخشن الوجه. فقام عليهم، فقال: بشّر الكـانزين برضف(2) يحمى عليه في نار جهنّم، فيوضع على حلمة ثدي أحدهم. حتّى يخرج من نغض كتفيه(3) ويوضـع على نغض كتفيـه، حتّى يخـرج من حلمـة ثدييه يتزلزل. قـال: فوضـع القـوم رؤسـهم، فمـا رأيت أحـدا منهم رجع إليه شيئا. قال: فأدبر، واتّبعته حتّى جلس إلى سـارية. فقلت: ما رأيت هؤلاء إلّا كرهـوا مـا قلت لهم. قـال: إنّ هـؤلاء لا يعقلـون شيئا، إنّ خليلي أبا القاسم دعاني فأجبته. فقال: (أتـرى أحـدا؟) فنظرت ما عليّ من الشّمس وأنا أظنّ أنّـه يبعثـني في حاجـة لـه فقلت: أراه. فقال: (مـا يسـرّني أنّ لي مثلـه ذهبـا أنفقـه كلّـه إلّا ثلاثة دنانير) ثمّ هؤلاء يجمعون الـدّنيا لا يعقلـون شـيئا. قـال: قلت: مالك ولإخوتك من قريش، لا تعتريهم وتصيب منهم. قال: لا. وربّك لا أسألهم عن دنيا ولا أستفتيهم عن دين حتّى ألحق باللّه ورسوله) (4)

وعن أبي ذرّ قال: انتهيت إلى النّـبيّ وهـو جـالس في ظـلّ الكعبة فلمّا رآني قال: (هم الأخسرون وربّ الكعبة!) قـال: فجئت حتّى جلست، فلم أتقارّ(5) أن قمت، فقلت: يا رسـول اللّـه فـداك أبي وأمّي من هم؟ قال: (هم الأكـثرون أمـوالا، إلّا من قـال هكـذا وهكذا وهكذا (من بين يديـه ومن خلفـه وعن يمينـه وعن شـماله) وقليل ما هم، ما من صاحب إبل ولا بقر ولا غنم لا يؤدّي زكاتها إلّا جاءت يوم القيامة أعظم ما كانت وأسمنه، تنطحه بقرونها وتطـؤه بأظلافها كلّما نفدت أخراهـا عـادت عليـه أولاهـا، حتّى يقضـى بين

1() رواه النسائي واللفظ له، والترمذي وأبو داود.

2() برضف: الرضف الحجارة المحماة، الواحدة رضفة، مثل تمر وتمرة.

3() من نغض كتفيه: النغض هو العظم الرقيق على طرف الكتف، ويقال له أيضا: الناغض.

4() رواه البخاري ومسلم.

5() فلم أتقار: أي لم يمكنني القرار والثبات.

النّاس)(1)

قال رجل منا: فإن لم يفد كل هذا في تقويمه؟

قال شعيب: حينها يحتاج إلى طبيب روحي مرشد قد يلزمه بما كان يلزم به بعض الصالحين تلاميذه، فقد كان يمنعهم من الاختصاص بشيء لهم.. وكان إذا توهم في تلميذ من تلاميذه فرحه بما عنده نقله عنه، وأخرجه عن جميع ما ملكه، وإذا رآه يلتفت إلى ثوب جديد يلبسه أو سجادة يفرح بها يأمره بتسليمها إلى غيره ويلبسه ثوباً خلقاً لا يميل إليه قلبه، فبهذا يتجافى القلب عن المتاع الزائل.

قال رجل منا: إن هذا لعسير.

قال شعيب: ولكنه قد يصير ضروريا.. فمن لم يسلك هذا السبيل أنس بالدنيا وأحبها، فإن كان له ألف متاع كل له ألف محبوب، ولذلك إذا سرق كل واحد منه ألمت به مصيبة بقدر حبه له، فإذا مات نزل به ألف مصيبة دفعة واحدة لأنه كان يحب الكل وقد سلب عنه، بل هو في حياته على خطر بالفقد والهلاك.

وقد روي في هذا أنه حمل إلى بعض الملوك قدح من فيروزج مرصع بالجواهر لم ير له نظير، ففرح الملك بذلك فرحاً شديداً فقال لبعض الحكماء عنده. كيف ترى هذا؟ قال: أراه مصيبة أو فقراً، قال: كيف؟ قال: إن كسر كان مصيبة لا جبر لها وإن سرق صرت فقيراً إليه ولم تجد مثله، وقد كنت قبل أن يحمل إليك في أمن من المصيبة والفقر، ثم اتفق يوماً أن كسر أو سرق وعظمت مصيبة الملك عليه فقال: صدق الحكيم ليته لم يحمل إلينا!

وهذا شأن جميع أسباب الدنيا فإن الدنيا عدوة لأعداء الله تسوقهم إلى النار، وعدوة أولياء الله إذ تغمهم بالصبر عنها، وعدوة الله إذ تقطع طريقه على عباده، وعدوة نفسها فإنها تأكل نفسها، فإن المال لا يحفظ إلا بالخزائن والحراس. والخزائن والحراس لا يمكن تحصيلها إلا بالمال وهو بذل الدراهم والدنانير،

(1) رواه البخاري ومسلم.

فالمال يأكل نفسه ويضاد ذاته حتى يفنى، ومن عـرف آفـة المـال لم يأنس به ولم يفرح ولم يأخذ منه إلا بقدر حاجته، ومن قنع بقدر الحاجة فلا يبخـل لأن مـا أمسـكه لحاجتـه فليس ببخـل، ولا يحتـاج إليه، فلا يتعب نفسه بحفظه فيبذلـه، بـل هـو كالمـاء على شـاطئ البحر إذ لا يبخل به أحد لقناعة الناس منه بمقدار الحاجة.

***

لسـت أدري كيـف ثـارت في نزعـة الجـدل، فـرحت أقطـع حديثهم بقولي: ولكن ما تقولـون.. ألم تسـمعوا قولـه تعـالى وهـو يسـمي المـال خـيرا في في مواضـع من كتابـه العزيـز، كمـا قـال تعالى : كُتِبَ عَلَيْكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ إِنْ تَرَكَ خَيْرًا الْوَصِيَّةُ لِلْوَالِـــدَيْنِ وَالْأَقْـــرَبِينَ بِـــالْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى الْمُتَّقِينَ (180) (البقرة)، وقال: وَإِنَّهُ لِحُبِّ الْخَيْرِ لَشَدِيدٌ (8) (العاديات)

بل اعتبر الله تعالى المـال قوامـا للحيـاة، فقـال : وَلا تُؤْتُـوا السُّـفَهَاءَ أَمْـوَالَكُمُ الَّتِي جَعَـلَ اللَّهُ لَكُمْ قِيَامـاً وَارْزُقُـوهُمْ فِيهَـا وَاكْسُوهُمْ وَقُولُوا لَهُمْ قَوْلاً مَعْرُوفاً(5) (النساء)

بل إنه لولا المال ما أمكن تطبيق أمثال قوله تعالى : الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ..(262) (البقرة)، وقوله : وَمَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُـونَ أَمْـوَالَهُمُ ابْتِغَـاءَ مَرْضَـاتِ اللَّهِ وَتَثْبِيتـاً مِنْ أَنْفُسِـهِمْ كَمَثَلِ جَنَّةٍ بِرَبْوَةٍ أَصَابَهَا وَابِلٌ فَـآتَتْ أُكُلَهَـا ضِـعْفَيْنِ فَـإِنْ لَمْ يُصِـبْهَا وَابِلٌ فَطَلٌّ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ (265) (البقرة)

بل إن الله تعالى – فوق ذلك كله- اعتبر الغنى من نعمه على عباده، فقد امتن على نبيه بقوله : وَوَجَـدَكَ عَـائِلاً فَـأَغْنَى (8) (الضـحى)، وقـال نـوح ﷺ لقومـه يبشـرهم بثمـرات الاسـتغفار : وَيُمْـدِدْكُمْ بِـأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَـلْ لَكُمْ جَنَّاتٍ وَيَجْعَـلْ لَكُمْ أَنْهَـاراً(12) (نـوح)، وامتن على بـني إسـرائيل بقولـه : ثُمَّ رَدَدْنَـا لَكُمُ الْكَرَّةَ عَلَيْهِمْ وَأَمْـدَدْنَاكُمْ بِـأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَجَعَلْنَـاكُمْ أَكْثَـرَ نَفِـيراً(6) (الاسراء)، وأخبر آثار التقوى، فقال : وَلَـوْ أَنَّ أَهْـلَ الْقُـرَى آمَنُـوا وَاتَّقَـوْا لَفَتَحْنَـا عَلَيْهِمْ بَرَكَـاتٍ مِنَ السَّـمَاءِ وَالْأَرْضِ وَلَكِنْ كَـذَّبُوا فَأَخَذْنَاهُمْ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ(96) (الأعراف)

وهكذا فإنه ﷺ صرح بخيرية المال، فقال:(نعما بالمال الصالح للرجل الصالح)[1]، ودعا لأنس، وكان في آخر دعائه قولـه:(اللهم أكثر ماله وولده وبارك له فيه)[2]

بعد أن أكملت حديثي، ابتسم شعيب، وقال: بورك فيك يا بني، فقد عقبت تعقيبا حسنا على ما ذكرنا..

وحتى يتناسق ما ذكرنا مع ذكرت أقول لك[3]: إن المال مثل حية فيها سم وترياق، ففوائده ترياقه، وغوائله سمومه.. فمن عرف غوائله وفوائده أمكنه أن يحترز من شره ويستدر من خيره.

قال بعض الحاضرين: فحدثنا عن فوائده حتى نستفيدها.

قال شعيب: **فوائد المال تنقسم إلى دنيوية ودينية**.. أما الدنيوية فأنتم تعرفونها، بل الكل مطبق على معرفتها.. فلذلك لا حاجة إلى ذكرها فإن معرفتها مشهورة مشتركة بين أصناف الخلق، ولولا ذلك لم يتهالكوا على طلبها..

وأما الدينية فتنحصر في ثلاثة أنواع..

قلنا: فما **النوع الأول**؟

قال شعيب: النوع الأول أن ينفقه على نفسه: إما في عبادة أو في الاستعانة على عبادة.. أما في العبادة: فهو كالاستعانة به على الحج، وهو من من أركان الإسلام.. وأما فيما يقويه على العبادة: فذلك هو المطعم والملبس والمسكن وغيرها من ضرورات المعيشة.. فإن هذه الحاجات إذا لم تتيسر كان القلب مصروفاً إلى تدبيرها فلا يتفرغ للدين، ومالا يتوصل إلى العبادة إلا به فهو عبادة، فأخذ الكفاية من الدنيا لأجل الاستعانة على الدين من الفوائد الدينية.. ولا يدخل في هذا التنعم والزيادة عن الحاجة فإن ذلك من حظوظ الدنيا فقط.

---

[1]) رواه أحمد والحاكم وابن سعد، وأبو يعلى والطبراني في الكبير والبيهقي.

[2] رواه أبو نعيم.

[3] ما نذكره هنا من محاسن المال ومذامه مقتبس بتصرف من (كتاب ذم البخل وذم حب المال)، وهو الكتاب السابع من ربع المهلكات من كتاب إحياء علوم الدين.

قلنا: عرفنا النوع الأول.. فما **النوع الثاني**؟

قال شعيب: النوع الثاني ما يصرفه إلى الناس، كالصدقة، والمروءة، ووقاية العرض، وأجرة الاستخدام.

قلنا: ما تعني بذلك؟

قال: أما الصدقة فلا يخفى ثوابها وأنها لتطفئ غضب الرب تعالى.. وأما المروءة فهي صرف المال في الضيافة والهدية والإعانة وما يجري مجراها.. وأما وقاية العرض فهي بذل المال لدفع ثلب السفهاء وقطع ألسنتهم ودفع شرهم، وهو أيضاً مع تنجز فائدته في العاجلة من الحظوظ الدينية.. وأما الاستخدام فهو أن الأعمال التي يحتاج إليها الإنسان لتهيئة أسبابه كثيرة، ولو تولاها بنفسه ضاعت أوقاته وتعذر عليه سلوك سبيل الآخرة بالفكر والذكر الذي هو أعلى مقامات السالكين.

قلنا: عرفنا النوع الثاني.. فما **النوع الثالث**؟

قال شعيب: النوع الثالث ما لا يصرفه إلى إنسان معين، ولكن يحصل به خير عام كبناء المساجد والقناطر والمستشفيات، وغير ذلك من الأوقاف المرصدة للخيرات، وهي من الخيرات المؤبدة الدارة بعد الموت المستجلبة بركة أدعية الصالحين إلى أوقات متمادية، وناهيك بها خيراً.

التفت إلي، وقال: هذه جملة فوائد المال في الدين سوى ما يتعلق بالحظوظ العاجلة من الخلاص من ذل السؤال وحقارة الفقر، والوصول إلى العز والمجد بين الخلق، وكثرة الإخوان والأعوان والأصدقاء، والوقار والكرامة في القلوب، فكل ذلك مما يقتضيه المال من الحظوظ الدنيوية.

قلنا: وعينا هذا.. فحدثنا عن **آفات المال الدينية والدنيوية**.

قال شعيب: أما **آفات المال الدينية فثنتان**.

قلنا: فما الآفة الأولى؟

قال شعيب: الآفة الأولى أن تجر الأموال صاحبها إلى المعاصي.. فإن الشهوات متفاضلة، والعجز قد يحول بين المرء والمعصية، ومن العصمة أن لا يجد.. ومهما كان الإنسان آيساً عن نوع من المعصية لم تتحرك داعيته، فإذا استشعر القدرة عليها انبعث داعيته، والمال نوع من القدرة يحرك داعية المعاصي وارتكاب الفجور، فإن اقتحم ما اشتهاه هلك وإن صبر وقع في شدة؛ إذ الصبر مع القدرة أشد، وفتنة السراء أعظم من فتنة الضراء.

قلنا: عرفنا الآفة الأولى.. فما **الآفة الثانية**؟

قال شعيب: الآفة الثانية أن يجر المال إلى التنعم في المباحات والاستغراق فيها، وهذا أول الدرجات، فمتى يقدر صاحب المال على أن يزهد في الدنيا كما كا يقدر عليه سليمان ﵇ في ملكه.. فأحسن أحواله أن لا يتنعم بالدنيا ويمرن عليها نفسه، فيصير التنعم مألوفاً عنده ومحبوباً لا يصبر عنه، ويجره البعض منه إلى البعض، فإذا اشتد أنسه به ربما لا يقدر على التوصل إليه بالكسب الحلال فيقتحم الشبهات ويخوض في المراءاة والمداهنة والكذب والنفاق وسائر الأخلاق الرديئة، لينتظم له أمر دنياه ويتيسر له تنعمه، فإن من كثر ماله كثرت حاجته إلى الناس، ومن احتاج إلى الناس فلا بد وأن ينافقهم ويعصي الله في طلب رضاهم، فإن سلم الإنسان من الآفة الأولى وهي مباشرة الحظوظ فلا يسلم عن هذه أصلاً.

ومن الحاجة إلى الخلق تثور العداوة والصداقة، وينشأ عنه الحسد والحقد والرياء والكبر والكذب والنميمة والغيبة وسائر المعاصي التي تخص القلب واللسان، ولا يخلو عن التعدي أيضاً إلى سائر الجوارح. وكل ذلك يلزم من شؤم المال والحاجة إلى حفظه وإصلاحه.

قلنا: عرفنا آفات المال الدينية.. فما آفاته الدنيوية؟

قال شعيب: ألستم ترون بأعينكم ما يقاسيه أرباب الأموال في الدنيا من الخوف والحزن والغم والهم والتعب في دفع

الحساد وتجشم المصاعب في حفظ المال وكسبه؟

قلنا: بلى..

قال شعيب: فحسبكم ذلك من آفات المال.

قلنا: لقد أوقعتنا في الحرج.. فما نفعل فيما اجتمع فيه النفع والضر؟

قال شعيب: خلصوا نفعه من ضرره، وخلصوا ترياقه من سمه.. ولا عليكم أن تستزيدوا منه ما أطقتم.

قلنا: كيف لنا ذلك؟

قال شعيب: في هذا القسم ستتعلمون علوم ذلك.

***

بقيت مدة في هذا القسم أستفيد من شعيب علوم الترفع عن المال.. وعندما أيقنت بأن المال أحقر من أن أبيع بسببه حقيقتي طلب مني، كما طلب من جمع معي فقهوا ما فقهت أن نسير إلى قسم آخر من أقسام تلك المدرسة.

3 ـ الطعام

بعد أن فتح الله علي فتعلمت أسرار الترفع عن ثقل المال سرت إلى القسم الثالث، وكان خاصا بالترفع عن ثقل الطعام، وقد أخبرني ولي الله (يوسف الصديق) أن شيخ هذا القسم ولي من أولياء الله يقال له (عيسى)، وأنه اختار أن يسمى بهذا الاسم لتأثره بسيد الزهاد المسيح عيسى عليه السلام.. فقد روت النصوص من زهده في الطعام ما لا يطيقه أحد.

وقد تعجبت إذ استقبلني المشرفون على هذا القسم بطعام لذيذ قدموه لي، فقلت لهم ساخرا: لقد حسبت نفسي ستحبس عن الطعام في هذا القسم، فإذا بها تبدأ به.

قال المشرف: عيسى يعلمنا في هذا القسم عدم السكون إلى الطعام، وعدم التثاقل به إلى الأرض، وعدم اختصار الحياة

في الطعام.. أما الطعام في نفسه، فهـو رزق اللـه، ورزق اللـه لا يستطيع عاقل في الدنيا أن يحرمه.

أكلت ذلك الطعام المضمخ بعطر البركـة، ثم دخلت القسـم، وقد وجدت عيسى يخاطب جمعا من الناس كـانوا كلهم قـد ابتلـوا بالسمنة.. وكأنهم جاءوا إليه ليزهدهم في الشهوات الـتي حـولتهم إلى براميل من الشحم واللحم.

بدأ عيسى حديثه بقوله[1]: مرحبا بكم في هذا القسـم الـذي تـدربون فيـه على تملـك شـهوة الطعـام.. فمن لم يملـك شـهوة الطعام ملكته.. ومن ملكته بطنه حصل له من الخراب ما لا يجبره شيء..

لقد اتفق على هذا كل الشهود العدول..

فالله تعالى رب العالمين والخبير بالنفس الإنسانية وبمطالبها وشهواتها قد جعل من أركـان دينـه الصـوم، وأخبرنـا أنـه قـد كتب على غيرنا من الأمم، قال تعالى : يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّـيَامُ كَمَـا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُـونَ (183) (البقرة)، وليس الصيام سوى سيف تضرب به الشـهوة لتعـود إلى وعيها.

وأخبرنا الله تعالى أن آدم وزوجـه أخرجـا من دار القـرار إلى دار الذل والافتقار؛ وكان سبب خروجهما أنهما نهيـا عن الأكـل من شجرة شجر الجنة، فغلبتهما شهواتهما حتى أكلا منها فحصل لهمـا بالأكل منها ما لم يكونا يتوقعانـه، قـال تعـالى : قَـالَ يَـا آدَمُ هَـلْ أَدُلُّكَ عَلَى شَجَرَةِ الْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَا يَبْلَى (120) فَأَكَلَا مِنْهَا فَبَدَتْ لَهُمَا سَوْآتُهُمَا وَطَفِقَـا يَخْصِـفَانِ عَلَيْهِمَـا مِنْ وَرَقِ الْجَنَّةِ وَعَصَـى آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَى (121) ثُمَّ اجْتَبَاهُ رَبُّهُ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَـدَى (122) قَـالَ اهْبِطَـا مِنْهَا جَمِيعًا بَعْضُـكُمْ لِبَعْضٍ عَـدُوٌّ فَإِمَّا يَـأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُـدًى فَمَنِ اتَّبَـعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَى (123) (طه)

[1] هذه الخطبة مقتبسة بتصرف من كتاب (كسر الشهوتين)، وهو الكتـاب الثـالث من ربـع المهلكات من إحياء علوم الدين، وننبـه هنـا إلى أن مـا ننقلـه هنـا من فوائـد الجـوع ومذامـه منقولة من هذا الكتاب بالتصرف الذي ألفناه في هذه السلسلة.

لا تحسبا أن تلك الشجرة موجـودة في الجنـة فقـط.. إن في الدنيا شجر مثلها كثـير.. وقـد نهينـا عنـه.. ولكن البطـون الممتلئـة بالشهوات تـأبى إلا أن تعيـد الحكايـة من جديـد.. وليتهـا إذ تعيـدها تستغفر وتتوب.. بل إنها تترنح بالشهوات حتى تسقط في مستنقع النفس الآسن.

وهكذا أخـبر القـرآن عن أقـوام كثـير صـرعى بطـونهم، قـال فيهم : .. وَالَّذِينَ كَفَرُوا يَتَمَتَّعُونَ وَيَأْكُلُونَ كَمَا تَأْكُلُ الْأَنْعَـامُ وَالنَّارُ مَثْوًى لَهُمْ (12) (محمد)

وعلى هذا المنول حذر نبينا أن نصير عبيدا لبطوننـا، وأخـبر عن الفرق بين أكل المؤمن وأكـل الكـافر، فقـال:(المـؤمن يأكـل في معي واحد والكافر يأكل في سبعة أمعاء)([1])

واعتبر السمنة انحرافا يقـع في الأمـة، فقـال:(إن خـيركم قرني، ثم الذين يلونهم ثم الذين يلونهم، ثم يكون من بعدهم قـوم يشهدون ولا يستشهدون ويخونون ولا يؤتمنون وينذرون ولا يوفون ويظهر فيهم السمن)([2])

واعتبر من الإسراف أن يأكل الإنسان كلما اشتهى، فقال:(إن من الإسراف أن تأكل كل ما اشتهيت)([3])

وتجشأ بعضهم عند رسول اللـه فقـال لـه:(أقصـر عنـا من جشائك، إن أطـول النـاس جوعـاً يـوم القيامـة أكـثرهم شـبعاً في الدنيا)([4])

ولم يكتف بذلك، بل حدد أقصى ما على العاقـل أن يأكلـه، فقـال:(مـا ملأ ابن آدم وعـاء شـراً من بطنـه، بحسـب ابن آدم لقيمـات يقمن صـلبه، فـإن كـان لابـد فـاعلاً فثلث لطعامـه وثلث

---

[1]() رواه البخاري وغيره.

[2]() رواه أحمد، والبخارى، ومسلم، وأبو داود، والترمذى، والنسائى.

[3]() رواه ابن ماجة.

[4]() رواه الترمذي، ورواه الحاكم وقال: صحيح الإسناد، وقال الترمـذي: هـذا حـديث حسـن غريب.

لشرابه وثلث لنفسه)[1]

ولم يكتف ﷺ بذلك، بل ضرب بنفسه المثل، فقد كان – كما روى جميع الثقاة عنه- يعيش حياة ممتلئة بالتقشف، تقول زوجه عائشة: (كان يأتي علينا الشهر، وما نوقد فيه نارا، إنما هوالتمر والماء، إلا أن نؤتى باللحم) [2]

وقالت:(ما شبع آل محمد من خبز بر ثلاثة أيام متتابعات، حتى قبض ﷺ)

وقالت:(ما أكل آل محمد أكلتين في يوم واحد إلا إحداهما تمر)

وقالت: توفي رسول الله ﷺ حين شبع الناس من الأسودين، التمر والماء.

وقالت: ما شبعنا من الأسودين التمر والماء.

وقالت: والله لقد مات رسول الله ﷺ وما شبع من خبز، وزيت في يوم واحد مرتين.

وقالت: ما رفع رسول الله ﷺ غداء لعشاء، ولا عشاء لغداء قط، ولا اتخذ من شئ زوجين لا قميصين، ولا رداءين، ولا إزارين، ولا من النعال ولا رئي فارغا قط في بيته، إما يخصف نعلا لرجل مسكين أو يخيط ثوبا لأرملة[3].

وقالت:(والذي بعث محمدا بالحق نبيا ما رأى منخلا، ولا أكل خبزا منخولا، منذ بعثه الله إلى أن قبض، قيل، كيف كنتم تصنعون؟ قالت: كنا نقول أف أف) [4]

1() رواه أحمد والترمذي وابن ماجة والحاكم.

2() رواه البخاري ومسلم وغيرهما.. والأقوال التي تلي قولها هذا روايات في الحديث، وقد اخترنا اعتبارها أحاديث قائمة بذاتها.

3() رواه ابن عساكر.

4() رواه أحمد.

وقالت: ما كان يبقى على مائدة رسول الله ﷺ من خبز الشعير قليل ولا كثير [1].

وقالت: ما رفعت مائدة رسول الله ﷺ من بين يديه، وعليها فضلة من طعام قط [2].

وقالت: ما شبع رسول الله ﷺ ثلاثة أيام تباعا حتى مضى لسبيله [3].

وقالت: لو أردت أن أخبركم بكل شبعة شبعها رسول الله ﷺ حتى مات، لفعلت[4].

وعلى هذا اتفق جميع العلماء والحكماء والصالحين:

فهذا لقمان الحكيم يقول لابنه: (يا بني إذا امتلأت المعدة نامت الفكرة وخرست الحكمة وقعدت الأعضاء عن العبادة)

وسئل حكيم: بأي قيد أقيد نفسي؟ قال: (قيدها بالجوع والعطش، وذللها بإخمال الذكر وترك العز، وصغرها بوضعها تحت أرجل أبناء الآخرة، واكسرها بترك زي القراء عن ظاهرها، وانج من آفاتها بدوام سوء الظن بها، واصحبها بخلاف هواها)

قال رجل من الحاضرين: لم كان الأمر كذلك.. **لم تشدد كل هؤلاء الشهود العدول على هذه الشهوة**؟

قال عيسى: لأن البطن ينبوع الشهوات ومنبت الأدواء والآفات، إذ يتبعها شهوات أخرى يستحيا من ذكرها.. ثم تتبع ذلك شدة الرغبة في الجاه والمال اللذين هما وسيلة إلى التوسع في تلك الشهوات؛ ثم يتبع استكثار المال والجاه أنواع الرعونات وضروب المنافسات والمحاسدات؛ ثم يتولد بينهما آفة الرياء

1() رواه الطبراني في الأوسط بسند حسن.

2() رواه الطبراني في الأوسط بسند حسن.

3() رواه البخاري ومسلم والبيهقي.

4() رواه ابن عساكر.

وغائلة التفاخر والتكاثر والكبرياء، ثم يتداعى ذلك إلى الحقد والحسد والعداوة والبغضاء، ثم يفضي ذلك بصاحبه إلى اقتحام البغي والمنكر والفحشاء، وكل ذلك ثمرة إهمال المعدة وما يتولد منها من بطر الشبع والامتلاء، ولو ذلل العبد نفسه بالجوع، وضيق به مجاري الشيطان لأذعنت لطاعة الله ولم تسلك سبيل البطر والطغيان، ولم ينجز به ذلك إلى الانهماك في الدنيا وإيثار العاجلة على العقبى، ولم يتكالب كل هذا التكالب على الدنيا.

قال آخر: إن ما ذكرته مجمل، ونحن نريد التفصيل.. فلا يصل بالحقائق إلى العقول إلا التفاصيل.

قال عيسى: سأذكر لكم **عشرا من فوائد الجوع**.. من علمها لم تستعبده بطنه، ولم يتثاقل إلى الأرض بسببها.

قلنا: فهات **الأولى**.

قال عيسى: هي ما عبر عنه لقمان الحكيم بقوله مخاطبا ابنه: (يا بني إذا امتلأت المعدة نامت الفكرة وخرست الحكمة وقعدت الأعضاء عن العبادة)

وعلى منواله عبر الصالحون، فقد قال أحدهم: (عليك بالجوع فإنه مذلة للنفس ورقة للقلب وهو يورث العلم السماوي)

وقال آخر : (الجوع سحاب فإذا جاع العبد أمطر القلب الحكمة)

وقال آخر: (ما جعت لله يوماً إلا رأيت في قلبي باباً مفتوحاً من الحكمة والعبرة ما رأيته قط)

قلنا: ما يعني جميع هؤلاء بهذا؟

قال عيسى: يعنون صفاء القلب وإيقاد القريحة وإنفاذ البصيرة، فإن الشبع يورث البلادة ويعمي القلب، وهو لذلك كالخمر يثقل القلب ويمنعه من الجريان في الأفكار وعن سرعة الإدراك، بل الصبي إذا أكثر الأكل بطل حفظه وفسد ذهنه وصار بطيء الفهم والإدراك.

قلنا: عرفنا الأولى.. فهات **الثانية**.

قال عيسى: الثانية رقة القلب وصفاؤه الذي بـه يتهيـأ لإدراك لذة المثابرة والتأثر بالذكر، فكم من ذكر يجـري على اللسـان مـع حضور القلب، ولكن القلب لا يلتذ به ولا يتأثر حتى كأن بينـه وبينـه حجاباً من قسوة القلب، وقد يرق في بعض الأحوال فيعظم تـأثره بالذكر وتلذذه بالمناجاة، وخلو المعدة هو السبب الأظهر فيه.

لقد قال أبو سليمان الداراني يعـبر عن هـذه الفائـدة: (أحلى ما تكون إلى العبادة إذا التصـق ظهـري ببطـني)، وقـال: (إذا جـاع القلب وعطش صبا ورق، وإذا شبع عمى وغلط)

وقـال الجنيـد: (يجعـل أحـدهم بينـه وبين صـدره مخلاة من الطعام ويريد أن يجد حلاوة المناجاة)

قلنا: عرفنا الثانية.. فهات **الثالثة**.

قـال عيسـى: الثالثـة الانكسـار والـذل وزوال البطـر والفـرح والأشر الذي هو مبدأ الطغيان والغفلة عن الله تعـالى، فلا تنكسـر النفس ولا تذل بشيء كما تذل بالجوع، فعنده تسكن لربها وتخشع لـه وتقـف على عجزهـا وذلهـا إذا ضـعفت منتهـا وضـاقت حيلتهـا بلقيمة طعام فاتتها، وأظلمت عليها الدنيا لشربة ماء تأخرت عنهـا، وما لم يشاهد الإنسان ذل نفسـه وعجـزه لا يـرى عـزة مـولاه ولا قهره، وإنما سعادته في أن يكون دائماً مشاهداً نفسـه بعين الـذل والعجز ومولاه بعين العز والقدرة والقهر.

قلنا: عرفنا الثالثة.. فهات **الرابعة**.

قال عيسى: الرابعة أن لا ينسى بلاء اللـه وعذابـه؛ ولا ينسـى أهـل البلاء، فـإن الشـبعان ينسـى الجـائع وينسـى الجـوع، والعبـد الفطن لا يشاهد بلاء من غـيره إلا ويتـذكر بلاء الآخـرة، فيـذكر من عطشه عطش الخلق في عرصات القيامة، ومن جوعه جوع أهــل النار، حتى إنهم ليجوعـون فيطعمـون الضـريع والزقـوم ويسـقون الغساق والمهل.

وهـذا أحـد الأسـباب الـذي اقتضـى اختصـاص البلاء بالأنبيـاء والأولياء والأمثل فالأمثل.. ولذلك قيل ليوسف عليه السلام: لم تجـوع وفي يديك خزائن الأرض؟ فقال: (أخاف أن أشبع فأنسى الجائع)، فذكر الجائعين والمحتـاجين فائـدة عظيمـة من فوائـد الجـوع فـإن ذلـك يدعو إلى الرحمة والإطعـام والشـفقة على خلـق اللـه عـز وجـل، والشبعان في غفلة عن كل ذلك.

قلنا: عرفنا الرابعة.. فهات **الخامسة**.

قـال عيسـى: الخامسـة كسـر شـهوات المعاصـي كلهـا، والاستيلاء على النفس الأمارة بالسوء، فإن منشـأ المعاصـي كلهـا الشهوات والقـوى، ومـادة القـوى والشـهوات لا محالـة الأطعمـة، فتقليلها يضعف كل شهوة وقوة.. وإنما السعادة كلها في أن يملك الرجل نفسه، والشقاوة في أن تملكه نفسـه، وكمـا أنـك لا تملـك الدابـة الجمـوح إلا بضـعف الجـوع فـإذا شـبعت قـويت وشـردت وجمحت، فكذلك النفس.

قلنا: عرفنا الخامسة.. فهات **السادسة**.

قال عيسى: السادسة دفع المبالغة في النوم، فـإن من شـبع شرب كثيراً، ومن كثر شـربه كـثر نومـه.. ولأجـل ذلـك كـان بعض الشيوخ يقول عند حضور الطعام: (معاشر المريدين لا تأكلوا كثيراً فتشربوا كثيراً فترقدوا كثيراً فتخسروا كثيراً)

قلنا: عرفنا السادسة.. فهات **السابعة**.

قـال عيسـى: السـابعة تيسـير المواظبـة على العبـادة، فـإن الأكل يمنع من كثرة العبادات، لأنـه يحتـاج إلى زمـان يشـتغل فيـه بالأكل، وربما يحتاج إلى زمان في شراء الطعام وطبخه، ثم يحتاج إلى غسـل اليـد والخلال، ثم يكـثر تـرداده إلى دورة الميـاه لكـثرة شــربه.. والأوقــات المصــروفة إلى هــذا لــو صــرفها إلى الــذكر والمناجاة وسائر العبادات لكثر ربحه.

قـال السـري: رأيت مـع علي الجرجـاني سـويقاً يسـتف منـه فقلت: ما حملك على هذا؟ قـال: إني حبسـت مـا بين المضـغ إلى

الاستفاف سبعين تسبيحة فما مضغت الخبز منذ أربعين سنة.

فانظروا كيف أشفق هذا الولي الصالح على وقته ولم يضيعه في المضغ.. وكل نفس من العمر جوهرة نفيسة لا قيمة لها فينبغي أن يستوفى منه خزانة باقية في الآخرة لا آخر لها وذلك بصرفه إلى ذكر الله وطاعته.

ومن جملة ما يتعذر بكثرة الأكل الصوم فإنه يتيسر لمن تعود الجوع، فالصوم ودوام الاعتكاف ودوام الطهارة وصرف أوقات شغله بالأكل وأسبابه إلى العبادة أرباح كثيرة، وإنما يستحقرها الغافلون الذين لم يعرفوا قدر الدين لكن رضوا بالحياة الدنيا واطمأنوا بها.

وقد أشار أبو سليمان الداراني إلى ست آفات من الشبع فقال: (من شبع دخل عليه ست آفات: فقد حلاوة المناجاة وتعذر حفظ الحكمة، وحرمان الشفقة على الخلق لأنه إذا شبع ظن أن الخلق كلهم شباع، وثقل العبادة، وزيادة الشهوات، وأن سائر المؤمنين يدورون حول المساجد، والشباع يدورون حول المزابل)

قلنا: عرفنا السابعة.. فهات **الثامنة**.

قال عيسى: الثامنة أن يستفيد من قلة الأكل صحة البدن ودفع الأمراض، فإن سببها كثرة الأكل وحصول فضلة الأخلاط في المعدة والعروق، ثم المرض يمنع من العبادات ويشوش القلب ويمنع من الذكر والفكر وينغص العيش ويحوج إلى الدواء والطبيب، وكل ذلك يحتاج إلى مؤن ونفقات لا يخلو الإنسان منها بعد التعب عن أنواع من المعاصي واقتحام الشهوات، وفي الجوع ما يمنع ذلك كله.

قلنا: عرفنا الثامنة.. فهات **التاسعة**.

قال عيسى: التاسعة خفة المؤونة، فإن من تعود قلة الأكل كفاه من المال قدر يسير، والذي تعود الشبع صار بطنه غريماً ملازماً له آخذاً بمخفته في كل يوم، فيقول: (ماذا تأكل اليوم؟)، فيحتاج إلى أن يدخل المداخل، فيكتسب من الحرام فيعصي، أو

من الحلال فيذل. وربما يحتاج إلى أن يمد أعين الطمع إلى الناس وهو غاية الذل.

وقد قال بعض الحكماء في هذا: (إني لأقضي عامة حوائجي بالترك فيكون ذلك أروح لقلبي)، وقال آخر: (إذا أردت أن أستقرض من غيري لشهوة أو زيادة استقرضت من نفسي فتركت الشهوة فهي خير غريم لي)، وكان إبراهيم ابن أدهم يسأل أصحابه عن سعر المأكولات فيقول إنها غالية فيقول: (أرخصوها بالترك)، وقال سهل: (الأكول مذموم في ثلاثة أحوال، إن كان من أهل العبادة فيكسل، وإن كان مكتسباً فلا يسلم من الآفات، وإن كان ممن يدخل عليه شيء فلا ينصف الله تعالى من نفسه)

قلنا: عرفنا التاسعة.. فهات **العاشرة**.

قال عيسى: العاشرة أن يتمكن من الإيثار والتصدق بما فضل من الأطعمة على اليتامى والمساكين، فيكون يوم القيامة في ظل صدقته، فما يأكله كان خزانته الكنيف، وما يتصدق به كان خزانته فضل الله تعالى، فليس للعبد من ماله إلا ما تصدق فأبقى أو أكل فأفني أو لبس فأبلى، فالتصدق بفضلات الطعام أولى من التخمة والشبع.

وكان بعضهم إذا تلا قوله تعالى: ﴿ إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا (72)﴾ (الأحزاب) قال: (عرضها على السموات فأبت، ثم عرضها على الإنسان فحملها إنه كان ظلوماً لنفسه جهولاً بأمر ربه.. فقد رأيناهم والله اشتروا الأمانة بأموالهم فأصابوا آلافاً فماذا صنعوا فيها؟ وسعوا بها دورهم وضيقوا بها قبورهم، وأسمنوا براذينهم وأهزلوا دينهم، وأتعبوا أنفسهم بالغدو والرواح إلى باب السلطان يتعرضوا للبلاء وهم من الله في عافية، يقول أحدهم تبيعني أرض كذا وكذا وأزيدك كذا وكذا، يتكئ على شماله ويأكل من غير ماله، حديثه سخرة وماله حرام حتى إذا أخذته الكظة ونزلت به البطنة قال: يا غلام ائتني بشيء أهضم به طعامي، يالكع أطعامك تهضم؟ إنما تهضم دينك،

أين الفقير أين الأرملة أين المسكين أين اليتيم الذي أمرك الله تعالى بهم؟)

قال رجل من الحاضرين كان بادي السمنة: يا لله كم كانت غفلتنا عظيمة.. لقد تثاقلت بنا بطوننا، فلم نربح لا الدنيا ولا الآخرة.

قال آخر: والله ما كنت أظن أن الجوع إلا مرض من الأمراض وآفة من الآفات حتى حدثتنا حديثك هذا.

قال آخر: ويكأن الجوع خزانة من خزائن فضل الله من بها على عباده، ولكنهم لا يعلمون.

قال عيسى: صدقت.. وقد قال بعض الصالحين في هذا: (الجوع مفتاح الآخرة وباب الزهد، والشبع مفتاح الدنيا وباب الرغبة)

***

لست أدري كيف ثارت في نزعة الجدل، فرحت أقطع حديثهم بقولي: ولكن ما تقولون؟.. ألم تسمعوا قوله تعالى وهو يمن على عباده بما خلق لهم من الطعام، لقد قال : هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً لَكُمْ مِنْهُ شَرَابٌ وَمِنْهُ شَجَرٌ فِيهِ تُسِيمُونَ (10) يُنْبِتُ لَكُمْ بِهِ الزَّرْعَ وَالزَّيْتُونَ وَالنَّخِيلَ وَالْأَعْنَابَ وَمِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ (11) وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومُ مُسَخَّرَاتٌ بِأَمْرِهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ (12) وَمَا ذَرَأَ لَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُخْتَلِفًا أَلْوَانُهُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ (13) وَهُوَ الَّذِي سَخَّرَ الْبَحْرَ لِتَأْكُلُوا مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُوا مِنْهُ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى الْفُلْكَ مَوَاخِرَ فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (14) (النحل)

هل تقبل عقولكم أن يكون الله قد من على عباده بكل هذا الفضل، وذكره لكم، ثم هو نفسه يحرمه عليهم؟

وقال مجيبا عباده عندما سألوه عما أحل لهم : يَسْأَلُونَكَ مَاذَا أُحِلَّ لَهُمْ قُلْ أُحِلَّ لَكُمُ الطَّيِّبَاتُ وَمَا عَلَّمْتُمْ مِنَ الْجَوَارِحِ

مُكَلِّبِينَ تُعَلِّمُونَهُنَّ مِمَّا عَلَّمَكُمُ اللَّهُ فَكُلُوا مِمَّا أَمْسَكْنَ عَلَيْكُمْ وَاذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهِ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ (4) الْيَوْمَ أُحِلَّ لَكُمُ الطَّيِّبَاتُ وَطَعَامُ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حِلٌّ لَكُمْ وَطَعَامُكُمْ حِلٌّ لَهُمْ..(5) (المائدة)

وذكر الله أنواعا من الطيبات دعا إلى أكلها، بل رغب في أكلها، فقال: هُوَ الَّذِي أَنْشَأَ جَنَّاتٍ مَعْرُوشَاتٍ وَغَيْرَ مَعْرُوشَاتٍ وَالنَّخْلَ وَالزَّرْعَ مُخْتَلِفًا أُكُلُهُ وَالزَّيْتُونَ وَالرُّمَّانَ مُتَشَابِهًا وَغَيْرَ مُتَشَابِهٍ كُلُوا مِنْ ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَآتُوا حَقَّهُ يَوْمَ حَصَادِهِ وَلَا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ (141) وَمِنَ الْأَنْعَامِ حَمُولَةً وَفَرْشًا كُلُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ (142) (الأنعام)

وقال مخاطبا رسله – عليهم الصلاة والسلام- : يَا أَيُّهَا الرُّسُلُ كُلُوا مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَاعْمَلُوا صَالِحًا إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ (51) (المؤمنون)

وقال ممتنا على بني إسرائيل بما أنزل إليهم من ألوان الطعام : وَظَلَّلْنَا عَلَيْكُمُ الْغَمَامَ وَأَنْزَلْنَا عَلَيْكُمُ الْمَنَّ وَالسَّلْوَى كُلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَمَا ظَلَمُونَا وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ (57) (البقرة)

وعندما حرم النبي على نفسه بعض الأطعمة نزل القرآن يعاتبه في ذلك، قال تعالى: يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكَ تَبْتَغِي مَرْضَاتَ أَزْوَاجِكَ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ (1) (التحريم)

بل نهى الله تعالى هذه الأمة جميعا عن تحريم ما أحل الله من الطيبات، قال تعالى : يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تُحَرِّمُوا طَيِّبَاتِ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكُمْ وَلا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ (87) (المائدة)

فهذه النصوص كلها تدل على تحريم الامتناع عن أكل ما خلق الله إلا ما نزل الشرع بتحريمه، أو حكم الطب بضرره[1].

---

[1] () ذكرنا التفاصيل الكثيرة المرتبطة بهذا في رسالة (رقية الجسد) من سلسلة (ابتسامة الأنين).

قال عيسى: بورك فيك.. ونحن في حديثنا لم نعدو ما تقـول، وما كان لنا أن نعدو ما تقول.

قلت: ولكنك حكيت كلاما عن الصالحين فيه مبالغات شديدة.

قال عيسى: صدقت.. وهي مبالغات مقصودة، وهم يعلمونها.

قلت: فكيف تحل هذا الإشكال؟

قال عيسى: اعلم – يا بني- أن المطلوب الأقصى في جميع الأمور والأخلاق: الوسط، إذ خير الأمور أوساطها وكلا طرفي قصد الأمور ذميم.. وما ذكرناه عن أولياء الله في فضائل الجوع ربما يومئ إلى أن الإفراط فيه مطلوب.. وليس الأمر كذلك.

ولكن من أسرار حكمة الشريعة أن كل ما يطلب الطبع فيه الطرف الأقصى، وكان فيه فساد، جاء الشرع بالمبالغة في المنع فيه، على وجه يومئ أن المطلوب مضادة ما يقتضيه الطبع بغاية الإمكان، أما العالم فيدرك أن المقصود الوسط.

قلت: فكيف تطبق هذا على ما نحن فيه؟

قال عيسى: تطبيق ذلك على ما نحن فيه يسير، فالشرع الحكيم إذا رأى أن الطبع يطلب غاية الشبع فإنه يورد له ما يمدح غاية الجوع، حتى يكون الطبع باعثاً والشرع مانعاً فيتقاومان ويحصل الاعتدال.. وذلك كما أن الشرع بالغ في الثناء على قيام الليل وصيام النهار، ثم لما علم النبي من حال بعضهم أنه يصوم الدهر كله ويقوم الليل كله نهى عنه.

فإذا عرفت هذا فاعلم أن الأفضل بالإضافة إلى الطبع المعتدل أن يأكل بحيث لا يحس بثقل المعدة ولا يحس بألم الجوع، بل ينسى بطنه فلا يؤثر فيه الجوع أصلاً، فإن مقصود الأكل بقاء الحياة وقوة العبادة، وثقل المعدة يمنع من العبادة، وألم الجوع أيضاً يشغل القلب ويمنع منها.. فالمقصود أن يأكل أكلاً لا يبقى المأكول فيه أثر ليكون متشبهاً بالملائكة فإنهم مقدسون عن ثقل الطعام وألم الجوع، وغاية الإنسان الاقتداء بهم.. وإذا لم يكن للإنسان خلاص من الشبع والجوع فأبعد الأحوال عن الطرفين

الوسط وهو الاعتدال.

وعنـه عـبر بقولـه: (خـير الأمـور أوسـاطها)(1)، وإلى ذلـك الإشارة بقوله تعالى : .. وَكُلُـوا وَاشْـرَبُوا وَلَا تُسْـرِفُوا إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ (31) (الأعراف)، ومهمـا لم يحس الإنسـان بجـوع ولا شبع تيسرت له العبادة والفكر وخف في نفسه وقوي على العمل مع خفته، ولكن هذا بعد اعتدال الطبع.

أمـا في بدايـة الأمـر إذا كـانت النفس جموحـاً متشـوقة إلى الشـهوات مائلـة إلى الإفـراط، فالاعتـدال لا ينفعهـا بـل لا بـد من المبالغة في إيلامها بـالجوع، فـإذا ارتاضـت واسـتوت ورجعت إلى الاعتدال ترك إيلامها.

***

بقيت مدة في هذا القسم أسـتفيد من عيسـى علـوم الـترفع عن الشهوات التي يدفعني إليها بطني، ويريـد أن يسـتعبدني بهـا.. وعنـدما أيقنت وتـدربت على أن الطعـام أقـل شـأنا من أن أبيـع بسببه ربي طلب مني، كما طلب من جمـع معي فقهـوا مـا فقهت أن نسير إلى قسم آخر من أقسام تلك المدرسة.

4 ـ الكلام

بعد أن فتح الله علي فتعلمت أسرار الترفع عن ثقل الطعـام سـرت إلى القسـم الرابـع، وكـان خاصـا بـالترفع عن ثقـل شـهوة الكلام، وقـد أخـبرني ولي اللـه (يوسـف الصـديق) أن شـيخ هـذا القسم ولي من أولياء اللـه يقـال لـه (هـارون)، وأنـه تعلم أسـرار الـترفع عن شـهوة الكلام من نـبي من أنبيـاء اللـه وصـفه اللـه بالفصاحة، وهو هارون ﵇ الذي قـال تعـالى في صـفته حاكيـا عن أخيه موسى : وَأَخِي هَارُونُ هُوَ أَفْصَـحُ مِنِّي لِسَـانًا فَأَرْسِـلْهُ مَعِيَ رِدْءًا يُصَدِّقُنِي إِنِّي أَخَافُ أَن يُكَذِّبُونِ (34) (القصص)

عندما دخلنا عليه مجلسه تعجبنا من الفصاحة الـتي آتـاه اللـه إياها، فقـد كـانت كلماتـه تنسـكب في الأذن لينـة سـهلة مضـمخة

(1) رواه البيهقى فى السنن الكبرى، وفى شعب الإيمان.

بعطر عجيب لا يمكن وصفه.. وقد كان مما سمعناه منه قوله[1] - وهو يشير إلى لسانه -: إن من أطلق عذبة اللسان وأهمله مرخى العنان سلك به الشيطان في كل ميدان، وساقه إلى شفا جرف هار إلى أن يضطره إلى البوار، ولا يكب الناس في النار على مناخرهم إلا حصائد ألسنتهم.. ولا ينجو من شر اللسان إلا من قيده بلجام الشرع، فلا يطلقه إلا فيما ينفعه في الدنيا والآخرة، ويكفه عن كل ما يخشى غائلته في عاجله وآجله.

قال بعض الحاضرين: لقد شققت علينا بحديثك هذا.. فلم كان للسان كل هذا الخطر؟

قال: لذلك أسباب كثيرة.. منها أن علم ما يحمد فيه إطلاق اللسان أو يذم غامض عزيز.. ومنها أن العمل بمقتضاه على من عرفه ثقيل عسير.. ومنها أن أعصى الأعضاء على الإنسان اللسان فإنه لا تعب في إطلاقه ولا مؤنة في تحريكه، ولذلك تساهل الخلق في الاحتراز عن آفاته وغوائله والحذر من مصائده وحبائله.

ومنها كثرة آفات اللسان من الخطأ والكذب والغيبة والنميمة والرياء والنفاق والفحش والمراء وتزكية النفس والخوض في الباطل والخصومة والفضول والتحريف والزيادة والنقصان وإيذاء الخلق وهتك العورات.. فهذه آفات كثيرة، وهي سياقة إلى اللسان لا تثقل عليه ولها حلاوة في القلب وعليها بواعث من الطبع ومن الشيطان، والخائض فيها قلما يقدر أن يمسك اللسان فيطلقه بما يحب ويكفه عما لا يحب فإن ذلك من غوامض العلم، ففي الخوض خطر وفي الصمت سلامة فلذلك عظمت فضيلته.

قال آخر: إن كل ما ذكرته عن خطر اللسان مجرد دعاوى تفتقر إلى دليل.. ولم نرك ذكرت دليلا واحدا على ما تقول؟

قال: ما أكثر الأدلة على ذلك.. وحسبك من ذلك قوله تعالى :﴿ مَا يَلْفِظُ مِنْ قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ (18)﴾ (ق)

وحسبك ما ورد في الأحاديث النبوية الكثيرة من بيان فضيلة الصمت، وخطر الإكثار من الكلام.. ومن قوله ﷺ: (الصمت حكم

[1] من خطبة الغزالي في كتاب (آفات اللسان) من الإحياء.

وقليـل فاعلـه)(1).. وقـال: (الصـمت أرفـع العبـادة)(2).. وقـال: (الصـمت زين للعـالم وسـتر للجاهـل)(3).. وقـال: (الصـمت سـيد الأخلاق، ومن مزح استخف به) (4).. وقـال: (إن اللـه تعـالى يحب الصمت عند ثلاث، عند تلاوة القرآن وعند الزحف، وعنـد الجنـازة) (5).. وقـال: (أول العبـادة الصـمت)(6).. وقـال: (العافيـة عشـرة أجزاء : تسعة في الصمت، والعاشر في العزلـة عن النـاس) (7).. وقال: (قولوا خيرا تغنموا، واسكتوا عن شـر تسـلموا)(8).. وقـال: (قيم الدين الصلاة، وسنام العمل الجهـاد، وأفضـل أخلاق الاسـلام الصمت حتى يسلم الناس منك)(9).. وقـال: (من سـره أن يسـلم فليلزم الصمت)(10).. وقال: (من صمت نجا)(11).. وقال: (ثكلتك أمك يا معاذ، إنك ما صمت فإنك عالم فإذا تكلمت فلـك أو عليـك) (12).. وقال: (ثكلتك أمـك يـا معـاذ، كيـف بـك إذا قـذف بـك يـوم القيامة في النار ؟ فتؤمر ان تأتي به)(13).. وقال: (رحم اللــه من

1() رواه القضاعي والديلمي في مسند الفردوس.

2() رواه الديلمي في مسند الفردوس.

3() رواه أبو الشيخ.

4() رواه الديلمي في مسند الفردوس.

5() رواه الطبراني في الكبير.

6() رواه هناد.

7() رواه الديلمي في مسند الفردوس.

8() رواه القضاعي.

9() رواه ابن المبارك.

10() رواه البيهقي في شعب الإيمان.

11() رواه أحمد والترمذي.

12() رواه أبو الشيخ في الثواب.

13() رواه سمويه.

حفظ لسانه، وعرف زمانه، واستقامت طريقته)[1].. وقال: (رحم الله امرءا أصلح من لسانه)[2].. وقال: (رحم الله امرءا قال حقا أو سكت، رحم الله رجلا قام من الليل فصلى، ثم قال لامرأته : قومي فصلي)[3].. وقال: (رحم الله امرءا كف لسانه عن أعراض المسلمين، لا تحل شفاعتي لطعان ولا لعان)[4].. وقال: (من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليقل خيرا أو ليسكت، ومن كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليكرم ضيفه، والضيافة ثلاث ليال، فما كان وراء ذلك فهو صدقة)[5].. وقال: (من كثر كلامه كثر سقطه، ومن كثر سقطه كثر كذبه، ومن كثر كذبه كثرت ذنوبه، ومن كثرت ذنوبه كانت النار أولى به)[6].. وقال: (من كف لسانه عن اعراض المسلمين أقال الله عثرته يوم القيامة)[7].. وقال: (لا تدخل حلاوة الايمان قلب امرئ حتى يترك بعض الحديث خوف الكذب وإن كان صادقا، ويترك المراء وإن كان محقا)[8].. وقال: (لا تقل بلسانك إلا معروفا، ولا تبسط يدك إلا إلى خير)[9].. وقال: (لا خير في الحياة إلا لاحد رجلين، رجل ستير صموت واع، أو ناطق بعلم)[10].. وقال: (لا يستكمل عبد حقيقة الايمان حتى يخزن من لسانه)[11].. وقال: (كلّ كلام ابن آدم عليه لا له إلّا أمر بمعروف،

---

[1] رواه الحاكم في تاريخه.

[2] رواه ابن الانباري في الوقف والمرهبي في العلم والقضاعي والديلمي وابن عساكر.

[3] رواه ابن أبي الدنيا في الصمت.

[4] رواه الديلمي.

[5] رواه الطبراني في الكبير.

[6] رواه العسكري في الامثال.

[7] رواه الديلمي.

[8] رواه الديلمي.

[9] رواه البخاري في التاريخ وقال: في اسناده نظر، وابن أبي الدنيا في الصمت والبغوي والباوردي وابن السكن وابن قانع وابن منده والبيهقي في الشعب وأبو نعيم وتمام وغيرهم.

[10] رواه أبو نعيم.

أو نهي عن منكر، أو ذكر اللّـه)(1).. وقـال: (لا تكـثروا الكلام بغـير ذكر اللّه، فإنّ كثرة الكلام بغير ذكر اللّـه قسـوة للقلب، وإنّ أبعـد النّـاس من اللّـه القلب القاسـي)(2).. وقـال: (من حسـن إسـلام المرء تركه ما لا يعنيه)(3).. وقال: (من يضمن لي ما بين لحييه(4) وما بين رجليه أضمن له الجنّـة)(5).. وقـال: (إنّ اللّـه يرضـى لكم ثلاثا، ويكره لكم ثلاثا. فيرضى لكم أن تعبدوه ولا تشركوا به شيئا، وأن تعتصموا بحبل اللّه جميعا ولا تفرّقـوا، ويكـره لكم قيـل وقـال وكثرة السّؤال وإضاعة المال)(6)

وقد كانت هذه وصية رسول الله لكثير من أصحابه..

فقد قال له بعضهم: أخبرني بـأمر أعتصـم بـه، فقـال رسـول اللّه : (املك هذا)، وأشار إلى لسانه(7).

وقــال لــه آخــر: أيّ المســلمين أفضــل؟ قــال: (من ســلم المسلمون من لسانه ويده)(8)

وقـال لـه آخـر: يـا رسـول اللّـه، أيّ الأعمـال أفضـل؟. قـال: (الصّـلاة على ميقاتهـا) قلت: ثمّ مـاذا يـا رسـول اللّـه؟ قـال: (أن يسلم النّاس من لسانك)(9)

11() رواه الخرائطي في مكارم الاخلاق والبيهقي في الشعب.

1() رواه الترمذي وقال: حديث حسن غريب، وابن ماجة.

2() رواه الترمذي واللفظ له وقال: هذا حديث حسن غريب، والبيهقي.

3() رواه مالك في الموطأ والترمذي وقال: هذا حديث غريب، وابن ماجة.

4() لحييه، بفتح اللام وسكون المهملة والتثنية هما العظمـان في جـانبي الفم، والمـراد بمـا بينهما: اللسان.

5() رواه البخاري واللفظ له. والترمذي.

6() رواه مسلم وبعضه عند البخاري.

7() رواه البخاري ومسلم.

8() رواه البخاري ومسلم والترمذي واللفظ له.

وقال له آخر: يا رسول اللّه ما الإسلام؟ قال: (أن يسلم قلبك للّه- عزّ وجلّ- وأن يسلم المسلمون من لسانك ويدك) (1)

وقال له آخر: يا رسول اللّه! أوصني. قال: (تملك يدك)؟ قلت: فماذا أملك إذا لم أملك يدي؟ قال: (تملك لسانك)؟. قلت: فماذا أملك إذا لم أملك لساني؟ قال: (لا تبسط يدك إلّا إلى خير، ولا تقل بلسانك إلّا معروفا)(2)

وقال له آخر: يا رسول اللّه! حدّثني بأمر أعتصم به. قال: قل: (ربّي اللّه ثمّ استقم). قلت: يا رسول اللّه! ما أكثر ما تخاف عليّ؟. فأخذ بلسان نفسه ثمّ قال: (هذا)(3)

وقال له آخر:: يا رسول اللّه ما النّجاة؟. قال: (أمسك عليك لسانك، وليسعك بيتك، وابك على خطيئتك)(4)

وقال له آخر: يا رسول اللّه، أوصني. قال: (اعبد اللّه كأنّك تراه، واعدد نفسك في الموتى، وإن شئت أنبأتك بما هو أملك بك من هذا كلّه). قال: (هذا)، وأشار بيده إلى لسانه)(5)

وعن معاذ قال: كنت مع النّبيّ في سفر، فأصبحت يوما قريبا منه ونحن نسير، فقلت: يا رسول اللّه، أخبرني بعمل يدخلني الجنّة، ويباعدني من النّار. قال: (لقد سألتني عن عظيم، وإنّه ليسير على من يسّره اللّه عليه. تعبد اللّه ولا تشرك به شيئا، وتقيم الصّلاة، وتؤتي الزّكاة، وتصوم رمضان، وتحجّ البيت). ثمّ قال: (ألا أدلّك على أبواب الخير: الصّوم جنّة، والصّدقة تطفئ الخطيئة كما يطفئ الماء النّار، وصلاة الرّجل من جوف اللّيل).

9() رواه الطبراني بإسناد صحيح وصدره في الصحيحين.

1() رواه أحمد وهذا لفظه بإسناد رجاله رجال الصحيح، والحديث أصله في مسلم.

2() رواه ابن أبي الدنيا. والطبراني بإسناد حسن والبيهقي.

3() رواه الترمذي وقال: حديث حسن صحيح، وابن ماجة.

4() رواه الترمذي وقال: حديث حسن.

5() رواه ابن أبي الدنيا بإسناد جيد.

قال: ثمّ تلا : تَتَجَافَى جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ (16) (السجدة)، ثمّ قال: (ألا أخبرك برأس الأمر كلّه وعموده وذروة سنامه؟) قلت: بلى. يا رسول اللّه! قال: (رأس الأمر الإسلام، وعموده الصّلاة، وذروة سنامه الجهاد). ثمّ قال: (ألا أخبرك بملاك ذلك كلّه)، قلت: بلى، يا نبيّ اللّه. فأخذ بلسانه. قال: (كفّ عليك هذا). فقلت: يا نبيّ اللّه! وإنّا لمؤاخذون بما نتكلّم به؟. قال: (ثكلتك أمّك يا معاذ، وهل يكبّ النّاس في النّار على وجوههم أو على مناخرهم إلّا حصائد ألسنتهم)[1]

وقد كانت هذه الصفة هي سنة رسول الله العملية، فعن عبد اللّه بن أبي أوفى قال: كان رسول اللّه يكثر الذّكر، ويقلّ اللّغو، ويطيل الصّلاة، ويقصر الخطبة، ولا يأنف أن يمشي مع الأرملة والمسكين فيقضي له الحاجة[2].

قال له رجل منا: وعينا هذا.. فهلا فصلت لنا **ما ينبغي اجتنابه من الكلام**.. فلا يمكن أن يظل أحدنا صامتا لا يتكلم.

قال: من ذلك اجتناب **الكلام فيما لا يعني**..

قال الرجل: فما ضابط ذلك؟

قال هارون: ضابطه أن أن تتكلم بكلام لو سكت عنه لن تأثم ولم تستضر به في حال ولا مال.

قال الرجل: فهلا ضربت لي مثالا على هذا.

قال هارون: مثاله أن تجلس مع قوم فتذكر لهم أسفارك وما رأيت فيها من جبال وأنهار، وما وقع لك من الوقائع، وما استحسنته من الأطعمة والثياب، وما تعجبت منه من مشايخ البلاد ووقائعهم.. فهذه أمور لو سكت عنها لم تأثم ولم تستضر.. وإذا بالغت في الجهاد حتى لم يمتزج بحكايتك زيادة ولا نقصان، ولا تزكية نفس من حيث التفاخر بمشاهدة الأحوال العظيمة، ولا

1() رواه الترمذي واللفظ له وقال: حسن صحيح وأحمد وابن ماجة.

2() رواه النسائي.

اغتياب لشخص ولا مذمة لشيء مما خلقه الله تعالى فأنت مع ذلك كله مضيع زمانك - وأنى تسلم من الآفات التي ذكرتها –

ومن جملتها أن تسأل غيرك عما لا يعنيك، فأنت بالسؤال مضيع وقتك وقد ألجأت صاحبك أيضاً بالجواب إلى التضييع، هذا إذا كان الشيء مما يتطرق إلى السؤال عنه آفة، وأكثر الأسئلة فيها آفات.. فإنك تسأل غيرك عن عبادته مثلاً فتقول له: هل أنت صائم؟ فإن قال نعم، كان مظهراً لعبادته فيدخل عليه الرياء، وإن لم يدخل سقطت عبادته من ديوان السر، وعبادة السر تفضل عبادة الجهر بدرجات، وإن قال: لا، كان كاذباً، وإن سكت كان مستحقراً لك وتأذيت به، وإن احتال لمدافعة الجواب افتقر إلى جهد وتعب فيه. فقد عرضته بالسؤال إما للرياء أو للكذب أو للاستحقار أو للتعب في حيلة الدفع، وكذلك سؤالك عن سائر عباداته، وكذلك سؤالك عن المعاصي وعن كل ما يخفيه ويستحي منه.

وقد روي في هذا أن لقمان الحكيم دخل على داود عليه السلام وهو يسرد درعاً ولم يكن رآها قبل ذلك اليوم فجعل يتعجب مما رأى، فأراد أن يسأله عن ذلك فمنعته حكمته فأمسك نفسه ولم يسأله، فلما فرغ قام داود ولبسه ثم قال: نعم الدرع للحرب، فقال لقمان: الصمت حكم وقليل فاعله، أي حصل العلم به من غير سؤال فاستغنى عن السؤال.. وقيل أنه كان يتردد إليه سنة وهو يريد أن يعلم ذلك من غير سؤال.

قال آخر: فما ترى السبب الباعث لهذا؟

قال هارون: سببه الباعث عليه هو الحرص على معرفة ما لا حاجة به إليه، أو المباسطة بالكلام على سبيل التودد، أو تزجية الأوقات بحكايات أحوال لا فائدة فيها.

قال آخر: فما ترى العلاج المستأصل لهذا؟

قال هارون: علاج ذلك أن يعلم أن الموت بين يديه، وأنه مسئول عن كل كلمة، وأن أنفاسه رأس ماله، وأن لسانه شبكة يقدر أن يقتنص بها ما شاء من الخير.. فإهماله ذلك وتضييعه

خسران مبين.. هذا من حيث العلم.. أما من حيث العمل فقد كان بعض الصالحين يضع حصاة في فيه ليتنبه بذلك، فيلزم نفسه السكوت عن بعض ما يعنيه حتى يعتاد اللسان ترك ما لا يعنيه.

قال الرجل: فهل تنصحنا بذلك؟

قال هارون: لا أنصحكم بذلك.. ولكني سأدلكم في التداريب على الكثير من السبل العملية لذلك.

قلنا: وعينا هذا.. فما غيره؟

قال هارون: **فضول الكلام**.

قلنا: فما تريد بهذا؟.. وما الفرق بينه وبين الذي قبله؟

قال هارون: هو الخوض فيما لا يعني أو الزيادة فيما يعني على قدر الحاجة.. فإن من يعنيه أمر يمكنه أن يذكره بكلام مختصر، ويمكنه أن يجسمه ويقرره ويكرره.. ومهما تأدى مقصوده بكلمة واحدة فذكر كلمتين، فالثانية فضول - أي فضل عن الحاجة –

قال رجل منا: أهذا أيضا مذموم، وإن لم يكن فيه إثم ولا ضرر ؟

قال هارون: أجل.. وقد اتفق على هذا كل من لقيتهم من الصالحين، وقد زرت بعضهم مع نفر من قومي، فقال لنا: (يا بني أخي، إنّ من كان قبلكم كانوا يكرهون فضول الكلام، وكانوا يعدّون فضول الكلام ما عدا كتاب اللّه أن تقرأه، أو تأمر بمعروف، أو تنهى عن منكر، أو تنطق بحاجتك في معيشتك الّتي لا بدّ لك منها، أتنكرون وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ (10) كِرَامًا كَاتِبِينَ (11) يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ (12) (الانفطار) عَنِ الْيَمِينِ وَعَنِ الشِّمَالِ قَعِيدٌ (17) مَا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلاَّ لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ (18) (ق). أما يستحي أحدكم أن لو نشرت عليه صحيفته الّتي أملى صدر نهاره، كان أكثر ما فيها ليس من أمر دينه ولا دنياه)

وقال لنا آخر: إن الرجل ليكلمني بالكلام لجوابه أشهى إلى

من الماء البارد إلى الظمآن فأترك جوابه خيفة أن يكون فضولاً..

وقال آخر: ليعظم جلال الله في قلوبكم فلا تذكروه عند مثل قول أحدكم للكلب والحمار: الله اخزه وما أشبه ذلك.

وقال آخر: من فتنة العالم أن يكون الكلام أحب إليه من الاستماع فإن وجد من يكفيه فإن في الاستماع سلامة، وفي الكلام تزيين وزيادة ونقصان.

وقال آخر: إنه ليمنعني من كثير من الكلام خوف المباهاة.

وقال آخر: إذا كان الرجل في مجلس فأعجبه الحديث فليسكت وإن كان ساكتاً فأعجبه السكوت فليتكلم.

وقال آخر: إن أحق ما طهر الرجل لسانه. ورأى أبو الدرداء امرأة سليطة فقال: لو كانت هذه خرساء كان خيراً لها.

وقال آخر: يهلك الناس خلتان: فضول المال وفضول الكلام.

قلنا: وعينا هذا.. فما غيره؟

قال هارون: **الخوض في الباطل**.

قلنا: فما تريد بهذا؟

قال هارون: هو الكلام في المعاصي كحكاية أحوال النساء ومجالس الخمر ومقامات الفساق وتنعم الأغنياء وتجبر الملوك ومراسمهم المذمومة وأحوالهم المكروهة، فإن كل ذلك مما لا يحل الخوض فيه وهو حرام.

وأنواع الباطل لا يمكن حصرها لكثرتها وتفننها، فلذلك لا مخلص منها إلا بالاقتصار على ما يعني من مهمات الدين والدنيا.

وفي هذا الجنس تقع كلمات يهلك بها صاحبها وهو يستحقرها، فقد قال رسول الله ﷺ: (إنّ أحدكم ليتكلّم بالكلمة من رضوان اللّه ما يظنّ أن تبلغ ما بلغت فيكتب اللّه- عزّ وجلّ- له بها رضوانه إلى يوم القيامة، وإنّ أحدكم ليتكلّم بالكلمة من سخط اللّه ما يظنّ أن تبلغ ما بلغت فيكتب اللّه- عزّ وجلّ- عليه

بها سخطه إلى يوم يلقاه)[1]

وقال : (إن الرجل ليتكم بالكلمة يضحك بها جلسائه يهوي بها أبعد من الثريا)[2]

وقال: (أعظم الناس خطايا يوم القيامة أكثرهم خوضاً في الباطل)[3]

وإلى هذا الإشارة بقوله تعالى حكاية عن أهل جهنم : وَكُنَّا نَخُوضُ مَعَ الْخَائِضِينَ (45) (المدثر)، وقوله : وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ أَنْ إِذَا سَمِعْتُمْ آيَاتِ اللَّهِ يُكَفَرُ بِهَا وَيُسْتَهْزَأُ بِهَا فَلاَ تَقْعُدُواْ مَعَهُمْ حَتَّى يَخُوضُواْ فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ إِنَّكُمْ إِذًا مِّثْلُهُمْ إِنَّ اللَّهَ جَامِعُ الْمُنَافِقِينَ وَالْكَافِرِينَ فِي جَهَنَّمَ جَمِيعًا (140) (النساء)

وعلى هذا اتفق جميع الصالحين، فقد قال بعضهم: أكثر الناس ذنوباً يوم القيامة أكثرهم كلاماً في معصية الله.. وقال آخر: كان رجل من الأنصار يمر بمجلس لهم فيقول لهم توضئوا فإن بعض ما تقولون شر من الحديث.

قلنا: وعينا هذا.. فما غيره؟

قال هارون: **المراء والجدال**[4]**..** وهو ما نص عليه حين قال: (ما ضل قوم بعد هدى كانوا عليه إلا أوتوا الجدل)، ثم قرأ: مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلَّا جَدَلًا.. (58) (الزخرف)[5].. وقال: (إن أبغض

---

[1] رواه ابن ماجه والترمذي في الزهد، وابن حبان وإسناده حسن.

[2] رواه ابن أبي الدنيا بسند حسن.

[3] رواه ابن أبي الدنيا من حديث قتادة مرسلا ورجاله ثقات ورواه هو والطبراني موقوفا على ابن مسعود بسند صحيح.

[4] سبق ذكر هذا في فصل (الضعيف).. وسنكتفي هنا ببعض ما ورد في هذا من النصوص.

[5] رواه الترمذي وابن ماجه وابن أبي الدنيا في كتاب الصمت وغيره وقال الترمذي حديث حسن صحيح.

الرجال إلى الله الألد[1] الخصم)[2].. وقال: (كفى بك إثما أن لا تزال مخاصما)[3].. وقال: (المراء في القرآن كفر)[4]

وعلى هذا اتفق جميع الصالحين، فقد قال بعضهم: (من جعل دينه عرضة للخصومات أكثر التنقل)، وقال آخر: (إياكم والمراء فإنه ساعة جهل العالم وعندها يبتغي الشيطان زلته)، وقال آخر: (ليس هذا الجدل من الدين في شيء)، وقال: (المراء يقسي القلوب ويورث الضغائن)، وقال آخر: (إذا رأيت الرجل لجوجاً ممارياً معجباً برأيه فقد تمت خسارته)، وقال آخر: (لو خالفت أخي في رمانة فقال حلوة وقلت حامضة لسعى بي إلى السلطان)، وقال: (صاف من شئت ثم أغضبه بالمراء فليرمينك بداهية تمنعك العيش)، وقال آخر: (لا أماري صاحبي فإما أن أكذبه وإما أن أغضبه)، وقال آخر: (كفى بك إثماً أن لا تزال ممارياً)، وقال آخر: (لا تتعلم العلم لثلاث ولا تتركه لثلاث. لا تتعلمه لتتمارى به، ولا لتباهي به، ولا لترائي به. ولا تتركه حياء من طلبه، ولا زهادة فيه، ولا رضا بالجهل به)

قلنا: وعينا هذا.. فما غيره؟

قال هارون: **التقعر في الكلام بالتشدق وتكلف السجع والفصاحة**.. فكل ذلك من التصنع المذموم ومن التكلف الممقوت الذي ورد النهي عنه في ضمن قوله تعالى : ﴿ قُلْ مَا أَسْئَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ وَما أَنَا مِنَ الْمُتَكَلِّفِينَ (86)﴾ (ص)

وفي الحديث قال رسول الله ﷺ : (إنّ من أحبّكم إليّ وأقربكم منّي مجلسا يوم القيامة أحاسنكم أخلاقا، وإنّ أبغضكم إليّ وأبعدكم منّي مجلسا يوم القيامة الثّرثارون والمتشدّقون والمتفيهقون)، قالوا: يا رسول اللّه قد علمنا الثّرثارون

1() الألد: هو شديد الخصومة.

2() رواه البخاري ومسلم والترمذي والنسائي.

3() رواه الترمذي وقال حديث غريب.

4() رواه أبو داود وابن حبان في صحيحه ورواه الطبراني وغيره.

والمتشدّقون. فما المتفيهقون؟ قال: (المتكبّرون)[1]، وقال: (شرار أمتي الذين غذوا بالنعيم يأكلون ألوان الطعام ويلبسون ألوان الثياب ويتشدقون في الكلام)[2]

قال رجل منا: ولكن ألا ترى أن لتحسين الكلام وتزيينه تأثيره في السامعين.. وقد طولبنا بذلك.

قال هارون: لا حرج في ذلك إن كان المقصود شريفا.. فلا يدخل في هذا تحسين ألفاظ الخطابة والتذكير من غير إفراد وإغراب، فإن المقصود منها تحريك القلوب وتشويقها وقبضها وبسطها، فرشاقة اللفظ تأثير فيه فهو لائق به.. فأما المحاورات التي تجري لقضاء الحاجات فلا يليق بها السجع والتشدق والاشتغال به من التكلف المذموم، ولا باعث عليه إلا الرياء وإظهار الفصاحة والتميز بالبراعة، وكل ذلك مذموم يكرهه الشرع ويزجر عنه.

***

بقيت مدة في هذا القسم أستفيد من هارون علوم الترفع عن شهوة الكلام.. وعندما أيقنت بأن رضوان الله والجنة أعظم من أبيعهما بألفاظ ينطقها لساني، طلب مني، كما طلب من جمع معي فقهوا ما فقهت أن نسير إلى قسم آخر من أقسام تلك المدرسة.

5 ـ التكاثر

بعد أن فتح الله علي فتعلمت أسرار الترفع عن ثقل شهوة الكلام سرت إلى القسم الخامس، وكان خاصا بالترفع عن ثقل شهوة التكاثر، وقد أخبرني ولي الله (يوسف الصديق) أن شيخ هذا القسم ولي من أولياء الله يقال له (سليمان)، وأنه تعلم أسرار الترفع عن شهوة التكاثر من نبي من أنبياء الله آتاه الله من كل شيء، ومع ذلك لم يحجب بما آتاه الله عن الله، إنه

---

[1] رواه الترمذى وقال: هذا حديث حسن غريب.

[2] رواه ابن أبي الدنيا والبيهقي في الشعب.

سليمان ﷺ ذلك الذي قال تعالى في صفته: ﴿ فَلَمَّا جَاءَ سُلَيْمَانَ قَالَ أَتُمِدُّونَنِ بِمَالٍ فَمَا آتَانِيَ اللَّهُ خَيْرٌ مِمَّا آتَاكُمْ بَلْ أَنْتُمْ بِهَدِيَّتِكُمْ تَفْرَحُونَ (36)﴾ (النمل)

عندما دخلنا عليه مجلسه سمعناه يردد قوله تعالى: ﴿ وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعاً يا مَعْشَرَ الْجِنِّ قَدِ اسْتَكْثَرْتُمْ مِنَ الْإِنْسِ وَقالَ أَوْلِياؤُهُمْ مِنَ الْإِنْسِ رَبَّنَا اسْتَمْتَعَ بَعْضُنا بِبَعْضٍ وَبَلَغْنا أَجَلَنَا الَّذِي أَجَّلْتَ لَنا قالَ النَّارُ مَثْواكُمْ خالِدِينَ فِيها إِلَّا ما شاءَ اللَّهُ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ (128)﴾ (الأنعام)، وقوله: ﴿ قُلْ لا أَمْلِكُ لِنَفْسِي نَفْعاً وَلا ضَرًّا إِلَّا ما شاءَ اللَّهُ وَلَوْ كُنْتُ أَعْلَمُ الْغَيْبَ لَاسْتَكْثَرْتُ مِنَ الْخَيْرِ وَما مَسَّنِيَ السُّوءُ إِنْ أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ (188)﴾ (الأعراف)، وقوله: ﴿ اعْلَمُوا أَنَّمَا الْحَياةُ الدُّنْيا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفاخُرٌ بَيْنَكُمْ وَتَكاثُرٌ فِي الْأَمْوالِ وَالْأَوْلادِ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ الْكُفَّارَ نَباتُهُ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَراهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَكُونُ حُطاماً وَفِي الْآخِرَةِ عَذابٌ شَدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ مِنَ اللَّهِ وَرِضْوانٌ وَمَا الْحَياةُ الدُّنْيا إِلَّا مَتاعُ الْغُرُورِ (20)﴾ (الحديد)، وقوله: ﴿ يا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ (1) قُمْ فَأَنْذِرْ (2) وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ (3) وَثِيابَكَ فَطَهِّرْ (4) وَالرُّجْزَ فَاهْجُرْ (5) وَلا تَمْنُنْ تَسْتَكْثِرُ (6) وَلِرَبِّكَ فَاصْبِرْ (7)﴾ (المدثر)، وقوله: ﴿ أَلْهاكُمُ التَّكاثُرُ (1) حَتَّى زُرْتُمُ الْمَقابِرَ (2) كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ (3) ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ (4) كَلَّا لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ الْيَقِينِ (5)لَتَرَوُنَّ الْجَحِيمَ (6) ثُمَّ لَتَرَوُنَّها عَيْنَ الْيَقِينِ (7) ثُمَّ لَتُسْئَلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ النَّعِيمِ (8)﴾ (التكاثر)

ثم حدثنا بقوله ﷺ: (لينتهينّ أقوام يفتخرون بآبائهم الّذين ماتوا إنّما هم فحم جهنّم، أو ليكوننّ أهون على اللّه من الجعل الّذي يدهده الخرء بأنفه، إنّ اللّه قد أذهب عنكم عبّيّة[1] الجاهليّة، إنّما هو مؤمن تقيّ وفاجر شقيّ، النّاس كلّهم بنو آدم، وآدم خلق من تراب)[2]

وقوله ﷺ: (من سأل النّاس أموالهم تكثّرا[3]، فإنّما يسأل

---

[1] عبية الجاهلية: أى تخونها وكبرها وأصلها من العبء وهو الثقل.

[2] أبو داود والترمذى واللفظ له وقال: حديث حسن غريب.

[3] تكثرا: أي يكثر ماله.

جمرا، فليستقلّ أو ليستكثر)[1]

وقوله : (ما أخشى عليكم الفقر، ولكن أخشى عليكم التّكاثر، وما أخشى عليكم الخطأ ولكن أخشى عليكم العمد)[2]

وقوله : (ثلاث كلّهنّ حقّ، ما من عبد ظلم بمظلمة فيفضي عنها للّه عزّ وجلّ إلّا أعزّ اللّه بها نصره، وما فتح رجل باب عطيّة يريد بها صلة إلّا زاده اللّه بها كثرة، وما فتح رجل باب مسألة يريد بها كثرة إلّا زاده اللّه عزّ وجلّ بها قلّة)[3]

وقوله : (قلب الشّيخ شاب على حبّ اثنتين: طول الحياة وكثرة المال)[4]

وقوله : (اقرأوا القرآن ولا تغلوا فيه ولا تجفوا عنه، ولا تأكلوا به، ولا تستكثروا به)[5]

وقوله : (إنّه سيصيب أمّتي داء الأمم) قالوا: وما داء الأمم؟ قال: (الأشر[6] والبطر[7] والتّكاثر والتّنافس في الدّنيا، والتّباعد والتّحاسد حتّى يكون البغي ثمّ الهرج[8])[9]

وقوله : (ما ذئبان جائعان أرسلا في غنم بأفسد لها من

1() رواه مسلم.

2() رواه أحمد ورواته محتج بهم في الصحيح، وابن حبان في صحيحه والحاكم وقال صحيح على شرط مسلم.

3() رواه أحمد والطبراني في الأوسط بنحوه، ورجال أحمد رجال الصحيح.

4() رواه الترمذي، وقال: حديث حسن صحيح.

5() رواه أحمد.

6() الأشر: أشدّ البطر.

7() البطر: الطغيان عند النعمة وطول الغنى.

8() الهرج: القتل والاختلاط، وأصله الكثرة في الشيء والاتساع فيه.

9() رواه ابن أبي الدنيا في ذم الحسد والطبراني في الأوسط بإسناد جيّد.

حرص المرء على المال والشّرف[1] لدينه)[2]

وروى لنا عن عن أبي ذرّ أنه قال: كنت أمشي مع النّبيّ في حرّة المدينة فاستقبلنا أحد، فقال: (يا أبا ذرّ)، قلت: لبّيك يا رسول اللّه، قال: (ما يسرّني أنّ عندي مثل أحد هذا ذهبا، تمضي عليّ ثالثة[3] وعندي منه دينار، إلّا شيئا أرصده لدين، إلّا أن أقول به في عباد اللّه هكذا وهكذا وهكذا)- عن يمينه وعن شماله ومن خلفه- ثمّ مشى ثمّ قال: (إنّ الأكثرين[4] هم المقلّون يوم القيامة، إلّا من قال: هكذا وهكذا وهكذا- عن يمينه، وعن شماله، ومن خلفه- وقليل ما هم) ثمّ قال لي: (مكانك، لا تبرح حتّى آتيك)، ثمّ انطلق في سواد اللّيل حتّى توارى، فسمعت صوتا قد ارتفع، فتخوّفت أن يكون أحد عرض للنّبيّ ، فأردت أن آتيه، فتذكّرت قوله لي: (لا تبرح حتّى آتيك) فلم أبرح حتّى أتاني، قلت: يا رسول اللّه، لقد سمعت صوتا تخوّفت (منه)، فقال: (وهل سمعته؟) قلت: نعم، قال: (ذاك جبريل أتاني فقال: من مات من أمّتك لا يشرك باللّه شيئا دخل الجنّة)[5]

بعد أن شنف آذاننا بهذه النصوص المقدسة سألناه عن حقيقة التكاثر، وعن مجالاته، فقال: التكاثر طبيعة من طبائع الإنسان التي غذيت بها فطرته، وأمدت بها جبلته، وهي دليل كمال، ومعراج وصول، ومسلك تحقيق.

وهي في نفس الوقت مصيدة النفوس الشرهة والأفواه الجائعة والأجساد الظمآنة.

من أجلها بنيت الدور التي لم تسكن، وجمعت الأموال التي لم تنفق، وطرزت الثياب التي لم تلبس، ومن أجلها امتلأت

[1] () الشرف: أي الجاه، وقوله لدينه: أي أفسد لدينه، والمعنى: ليس الذئبان الجائعان بأفسد للغنم من إفساد المال والجاه لدين المسلم.

[2] () رواه الترمذي وقال: حديث حسن صحيح، وأحمد.

[3] () المراد ليلة ثالثة، وقيّد الليالي بالثلاث لأنها الوقت الذي يلزم لتوزيع مثل هذا المال.

[4] () المراد الإكثار من المال والإقلال من ثواب الآخرة.

[5] () رواه البخاري ومسلم.

القمامات بأصناف الطعام، وشغل الخلق الكثير بخدمة فرد لا يشبع.

ومن أجلها امتلأت الأرض بؤسا، وتجرع أهلها الشقاء بكل أصنافه، ورمي الطعام في البحر وتراشق الخلق بأصناف الفواكه والحلويات ليموت ملايين الآخرين جوعا.

إذا حلت حمياها في قلوب الملوك واستحلوا لذتها وفرحوا بنشوتها جندوا الجنود وملئوا الأرض حربا والديار خرابا.

وإن حلت في عقول المترفين خربوا الأكواخ وشردوا أهلها ليبنوا بدلها قصورا لا يسكنونها.

وإن حلت في عقول الحمقى تحولوا لصوصا..

وإن حلت في نفوس العامة تحولوا غوغاء..

وإن حلت في جيوب الأغنياء شحوا على أنفسهم وعيالهم لتكثر كنوزهم.

قال رجل منا: إنا نرى نفوسنا مفطورة على حب الكثرة والانشغال بها، فهي لا ترضى بالقليل، ولا تركن إليه، ولا تكاد تلتذ به.

قال سليمان: فابحثوا عن الكثرة النافعة.. فلا خير في السم الكثير.

قال الرجل: فأين نجدها؟

قال سليمان: لقد دلنا عليها رسول الله ، فقال: (استكثروا من الباقيات الصّالحات) قيل: وما هي يا رسول اللّه؟ قال: (الملّة) (ثلاث مرّات) قيل: وما الملّة يا رسول اللّه؟ (للمرّة الرّابعة) قال: (التّكبير والتّهليل والتّسبيح والتّحميد، ولا حول ولا قوّة إلّا باللّه العليّ العظيم)(1)

ودلنا عليها قبل ذلك الله تعالى، فقال يصف المؤمنين

---

(1) رواه أحمد.

ذكورهم وإناثهم: وَالذَّاكِرِينَ اللَّهَ كَثِيرًا وَالذَّاكِرَاتِ أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا (35) (الأحزاب:35)

وقال يستثنهم من العذاب الذي حل بالمتكاثرين : إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَذَكَرُوا اللَّهَ كَثِيرًا وَانْتَصَرُوا مِنْ بَعْدِ مَا ظُلِمُوا وَسَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَيَّ مُنْقَلَبٍ يَنْقَلِبُونَ (227) (الشعراء)، وقال : لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَنْ كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا (21) (الأحزاب)

وهؤلاء الذين انشغلوا بالكثرة الحقيقية هم الذين ينالون من فضل الله ما لا قدرة على العادين على عده، قال تعالى: مَنْ ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَاعِفَهُ لَهُ أَضْعَافًا كَثِيرَةً وَاللَّهُ يَقْبِضُ وَيَبْسُطُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ (245) (البقرة)، وقال : مَنْ ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَاعِفَهُ لَهُ وَلَهُ أَجْرٌ كَرِيمٌ (11) (الحديد)

***

بقيت مدة في هذا القسم أستفيد من سليمان علوم الترفع عن التكاثر.. وعندما أيقنت بأن متاع الدنيا أحقر من أن أبيع بسببه آخرتي طلب مني، كما طلب من جمع معي فقهوا ما فقهت أن نسير إلى قسم آخر من أقسام تلك المدرسة.

6 ـ البنيان

بعد أن فتح الله علي فتعلمت أسرار الترفع عن التكاثر سرت إلى القسم الخامس، وكان خاصا بالترفع عن ثقل شهوة البنيان، وقد أخبرني ولي الله (يوسف الصديق) أن شيخ هذا القسم ولي من أولياء الله يقال له (هود)، وأنه تعلم أسرار الترفع عن شهوة البنيان من نبي من أنبياء الله أرسله الله إلى قوم انشغلوا بالبنيان عن الإنسان، إنه هود ﵇ ذلك الذي خاطب قومه محذرا لهم من هذه الشهوة الخطيرة: أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ آيَةً تَعْبَثُونَ (128) وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ (129) وَإِذَا بَطَشْتُمْ بَطَشْتُمْ جَبَّارِينَ (130) فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ (131) (الشعراء)

عندما دخلنا عليه مجلسه تعجبنا إذ رأينا حوله صنفين من الناس، أما أحدهما فقد عضه الفقر بنابه، فلا يكاد يرى من الضعف والسقم، وأما الآخر، فقد احتضنه الغنى في قصوره، فامتلأ لحما وشحما وأنفة واستعلاء.

عندما دخلنا عليه رأيناه يلتفت إلى الفقراء المعوزين قائلا: لا تحزنوا ـ يامن فاتتكم سكنى القصور ـ وحولوا من أكواخكم قصورا منيفة تقصر أمامها قصور الجبارين.

لا تحزنوا ففي أكواخكم من القصور المبنية بلبنات السعادة، والمغشاة بطلاء السكينة، والمفرشة بفراش الرضا ما يغنيكم عن القصور المبنية بالحجارة والحديد، والمسقية بعرق المحرومين والمستضعفين، والمفرشة بفرش الكبرياء والعزة الوهمية.

ثم يلتفت إلى المترفين المشغولين بترفهم قائلا: التفتوا يا عباد القصور للحقائق المسجلة في دواوين القبور، فإنها تقول بلسان فصيح لمن انشغل ببنيانه عن نفسه:

يا من يُطيلُ بناءهُ ... ريبَ المنونِ وصَرْفَه
فالموتُ يفزعُ كل ... والموتُ يفتحُ كُلَّ

وتقول:

تعالى اللّهُ! كم ... تبدَّلَ، بعد قَصْرٍ،

وحقائق الآخرة المدونة في الدواوين المقدسة تقول:

لا دارَ للمرءِ بعدَ ... إِلا التي كانَ قبلَ
فإِن بناها بخيرٍ طابَ ... وإِن بناها بشرٍ خابَ

وتقول:

الموتُ ضيفٌ ... قبلَ النزولِ
واعملْ لدارٍ أنتَ ... دارِ المقامةِ آخرَ

وحكمة الحكماء تردد مع الإمام علي قوله:

رَأيْتُ الدهرَ مختلفاً ... فلا حُزْنٌ يدومُ ولا
وقدْ بَنَتِ الملوكُ به ... فم تبْقَ الملوكُ ولا
إِن اللياليَ للأنامِ ... تُطوُى وتُنْشَرُ دونَها
فقِصارُهن مع ... وطِوالُهنَ مع

وتردد مع أسامة بن منقذ:

احذرْ من الدنيا ... تغترَّ بالعمرِ
وانظرْ إِلى آثارِ ... صَرَعَتْه منا
عَمَروا وشادو ... هُ من المنازلِ
وتحوَّلوا من بعدِ ... ها إِلى سُكنى

فإذا عرفتم هذا، فاحذروا أن تنظـروا إلى قصـوركم بعيـونكم الفانية، بل انظروا إليها بعين الأزل والأبد، لتروها خرابا يبتني فـوق الخراب.

فـإن وصـلت هـذه الرؤيـة العرفانيـة إلى محـل التحكم في سـلوككم منعتكم من أن تـذلوا أمـام القصـور والأبـراج، وجعلتكم ترددون ما قال الشاعر:

شادَ الملوكُ قصورَهم ... عن كُلِّ طالبِ حاجةٍ،
غَلَّوا بأبوابِ الحديد ... وتنوقوا في قبحِ وجه
وإِذا تلطفَ للدخولِ ... راجٍ تلقَّوهُ بوعدٍ كاذبِ
فارغُبْ إِلى ملكِ الملوكِ ... يا ذا الضراعةِ طالباً

***

بعد أن تحدث بهذا وغيره للفـريقين ثـارت في نزعـة الجـدل، فرحت أقطع حديثه بقولي: ولكن ما تقـول؟.. وبم تسـتدل؟ أراك تريد أن تهدم بالأشعار مـا أمـرت النصـوص المقدسـة ببنائـه.. ألم تسمع إلى الله تعـالى، وهـو يثـني خـيرا على صـرح سـليمان ﵇، والذي كان سـببا في إسـلام ملكـة سـبأ، قـال تعـالى :﴿ قِيـلَ لَهَـا ادْخُلِي الصَّرْحَ فَلَمَّا رَأَتْهُ حَسِبَتْهُ لُجَّةً وَكَشَفَتْ عَنْ سَـاقَيْهَا قَـالَ إِنَّهُ

صَرْحٌ مُمَرَّدٌ مِنْ قَوَارِيرَ قَالَتْ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَانَ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ (44) (النمل)

التفت إلي مبتسما، وقال: صدقت.. لقد أثنى الله على صرح سليمان.. ولكنه في نفس الوقت ذم صرح فرعون.. لقد قال في ذلك : وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرِي فَأَوْقِدْ لِي يَا هَامَانُ عَلَى الطِّينِ فَاجْعَلْ لِي صَرْحًا لَعَلِّي أَطَّلِعُ إِلَى إِلَهِ مُوسَى وَإِنِّي لَأَظُنُّهُ مِنَ الْكَاذِبِينَ (38) وَاسْتَكْبَرَ هُوَ وَجُنُودُهُ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ إِلَيْنَا لَا يُرْجَعُونَ (39) فَأَخَذْنَاهُ وَجُنُودَهُ فَنَبَذْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الظَّالِمِينَ (40) (القصص)، وقال: وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَا هَامَانُ ابْنِ لِي صَرْحًا لَعَلِّي أَبْلُغُ الْأَسْبَابَ (36) أَسْبَابَ السَّمَاوَاتِ فَأَطَّلِعَ إِلَى إِلَهِ مُوسَى وَإِنِّي لَأَظُنُّهُ كَاذِبًا وَكَذَلِكَ زُيِّنَ لِفِرْعَوْنَ سُوءُ عَمَلِهِ وَصُدَّ عَنِ السَّبِيلِ وَمَا كَيْدُ فِرْعَوْنَ إِلَّا فِي تَبَابٍ (37) (غافر)

قلت: أتراك تريد أن تضرب القرآن بعضه ببعض؟

قال: معاذ الله.. ولكني أحذر هؤلاء من أن يقعوا ضحية لما وقع فيه فرعون من التعالي في البنيان.

قلت: ولم لم ترغبهم في صروح سليمان؟

قال: لا يبني صروح سليمان إلا سليمان أو هو على قلب سليمان.

قلت: ما تعنى؟

قال: لقد آتى الله سليمان حكمة وعلما، فلذلك لم يسقط في هاوية التثاقل إلى البنيان..

قلت: أهناك تثاقل للبنيان؟

قال: أجل.. ولا يحصل الكمال إلا بعد الترفع عنه.. ولذلك[1] أخذ علينا العهد العام من رسول الله أن لا نبني في هذه الدار بناء فوق الحاجة، ولا نزخرف لنا دارا خوفا من حب الإقامة في

[1] هذا العهد من العهود المحمدية التي ذكرها الشعراني في عهوده.

هذه الدار ونسيان الدار الآخرة.

قلت: إن المسافة بيننا وبين رسول الله عظيمة.. فكيف تذكر أن العهد قد أخذ عليكم منه في هذا؟

قال: ألم تقرأ سنة رسول الله .. إن كل حرف منها عهد من عهوده إلينا؟

قلت: فما في هذا؟

قال: لقد حدثنا الثقاة عن رسول الله أنه قال: (أما إن كل بناء وبال على صاحبه إلا ما لا بد للإنسان منه مما يستره من الحر والبرد والسباع ونحو ذلك)[1]

وقال: (إذا أراد الله بعبد شرا خضر له في اللبن والطين حتى يبنى)[2]

وقال: (إذا أراد الله بعبد هوانا أنفق ماله في البنيان) [3]

وقال: (من بنى فوق ما يكفيه كلف أن يحمله يوم القيامة)[4]

وقال: (وما أنفق العبد المؤمن من نفقة فإن خلفها على الله والله ضامن إلا ما كان في بنيان أو معصية)[5]

وقال: (يؤجر الرجل في نفقته كلها إلا التراب، أو قال في البنيان)[6]

وروي أنه لما بنى رسول الله المسجد قال: ابنوه عريشا

1() رواه أبو داود.

2() رواه الطبراني بإسناد جيد.

3() رواه الطبراني بإسناد جيد.

4() رواه الطبراني بإسناد جيد.

5() رواه الدراقطني والحاكم.

6() رواه الترمذي.

كعريش موسى، قيل للراوي: وما عـريش موسـى؟ قـال إذا رفـع يده بلغ العريش يعني السقف(1).

وفي الحديث المشهور الـذي ذكـر فيـه رسـول اللـه بيـان الإسـلام والإيمـان والإحسـان قـال جبريـل للنـبي : أخـبرني عن أماراتها - يعـني السـاعة - فقـال: (أن تلـد الأمـة ربتهـا، وأن تـرى الحفاة العراة العالة رعاء الشـاء يتطـاولون في البنيـان)(2)، وفي روايـة: (وإذا رأيت رعـاء البهم يتطـاولون في البنيـان فـذلك من أشراطها)

وفي حديث آخر أن رسول الله مر بقبة على باب رجل من الأنصار فقال: ما هذه؟ قالوا قبة بناها فلان، فقال رسـول اللـه : (كـل مـا كـان هكـذا فهـو وبـال على صـاحبه يـوم القيامـة)، فبلـغ الأنصاري ذلك فوضعها(3)، فمر النبي بعد فلم يرها فسأل عنها؟ فأخبر أنه وضعها، لما بلغه عنه فقال: (يرحمه اللـه، يرحمـه اللـه)(4)

قلت: فأنت تحكم من خلال هذه النصوص على حرمة البناء؟

قال: معاذ الله أن أحرم ما أحل الله.

قلت: أراني لا أطيق فهمك؟

قال: نحن هنا في هـذه المدرسـة لا نحـرم مـا أحـل اللـه من متاع، ولكنا نحرم التثاقل إليه، وأنا في هذا المحل لا أقول للنـاس: (اهدموا ما بنيتم من بناء.. أو اقعدوا عن بنـاء مـا تريـدون بنـاءه).. ولكـني أقـول لهم: (احـذروا أن يتسـلل غـول البنـاء إلى قلـوبكم، فتنشغلون ببناء الطوب عن بناء القلوب، أو تنشغلوا بقصور الـدنيا عن قصور الآخرة)

1() رواه ابن أبي الدنيا.

2() رواه البخاري ومسلم.

3() وضعها: هدمها.

4() رواه أبو داود وابن ماجه.

***

بقيت مدة في هذا القسم أستفيد من هود علـوم الـترفع عن البنيان.. وعندما أيقنت بأن قصور الدنيا أحقـر من أن أبيـع بسـببها قصـور الآخـرة طلب مـني، كمـا طلب من جمـع معي فقهـوا مـا فقهت أن نسير إلى قسم آخر من أقسام تلك المدرسة.

7 ـ الجاه

بعـد أن فتح اللـه علي، فتعلمت من علـوم الـترفع عن ثقـل البنيان بعض ما ذكرته لك، سرت نحو قسم آخر في تلك المدرسة كان اسمه (قسم الترفع عن الجاه)، وقد كـان شـيخه – كمـا ذكـر لي ولي الله يوسف الصديق- رجل من أهـل اللـه اسـمه (زكريـا)، وكان كسميه زكريا ﷺ يعيش بين قوم لا يأبهون به، ولا يستفيدون منه مـع مـا آتـاه اللـه من العلم والحكمـة.. ولـذلك اختـار يوسـف الصديق أن يأتي به إلى مدرسته ليكون معلما في هذا القسم.

وقد فوجئت عندما دخلت لذلك القسـم إذ وجـدت فيـه كثـيرا من المشاهير.. كلهم – كما أخبرني يوسف الصـديق- قصـد زكريـا ليتخلص من أوهـام الجـاه الـتي امتلأت بهـا نفسـه، وكـدرت عليـه حياته.

كان أول ما سـمعت من زكريـا قولـه في بدايـة حلقتـه الـتي اجتمعنا إليه فيها[1]: من أخطر أمراض النفـوس تطلعهـا إلى غـير مولاها.. فلا تكتفي بنظره.. بل تريد أن ينظـر إليهـا غـيره.. مـع أن تطلعها لنظر غيره لا يزيدها إلا وبالا.. ولا تجني منه إلا هباء.

لقـد ذكـر القـرآن الكـريم هـذا المـرض من أمـراض النفس، وحذر منه أشد تحذير، فقال في المتصدقين المرائين بصدقاتهم: يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تُبْطِلُـوا صَـدَقاتِكُمْ بِـالْمَنِّ وَالْأَذى كَالَّذِي يُنْفِـقُ مالَهُ رِئاءَ النَّاسِ وَلا يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَمَثَلُـهُ كَمَثَـلِ صَـفْوانٍ عَلَيْهِ تُرابٌ فَأَصابَهُ وابِـلٌ فَتَرَكَـهُ صَـلْداً لا يَقْـدِرُونَ عَلى شَـيْءٍ مِمَّا

1() من خطبة الغزالي في مقدمة (كتاب ذم الجـاه والريـاء)، وهـو الكتـاب الثـامن من ربـع المهلكات من كتاب إحياء علوم الدين، وننبه إلى أن هذا الكتـاب من مراجعنـا الأساسـية في هذا المبحث.

كَسَبُوا وَاللَّهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكافِرِينَ (264) (البقرة)

انظـروا كيـف صـور القـرآن الكـريم ثمـرة تلـك الأمـوال المبذولة.. إنها كالتراب الذي يكون على الصـخر، ثم يـأتي المطـر ليحيله صلدا فارغا من كل خير.

بـل صـورهم القـرآن الكـريم بصـورة أخطـر من ذلـك، حيث قرنهم بالشيطان مع أنهم يبذلون أموالهم، فقال: وَالَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْـوالَهُمْ رِئـاءَ النَّاسِ وَلا يُؤْمِنُـونَ بِاللَّهِ وَلا بِـالْيَوْمِ الْآخِـرِ وَمَنْ يَكُنِ الشَّيْطانُ لَهُ قَرِيناً فَساءَ قَرِينـاً (38) وَمـا ذا عَلَيْهِمْ لَـوْ آمَنُـوا بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَأَنْفَقُوا مِمَّا رَزَقَهُمُ اللَّهُ وَكـانَ اللَّهُ بِهِمْ عَلِيمـاً (39) (النساء)

واعتبر القرآن من امتلأ قلبه بحب الجاه والرياء منافقا يخادع الله، ولا يجني من يريد أن يخدع الله إلا الخداع، قـال تعـالى: إِنَّ الْمُنافِقِينَ يُخادِعُونَ اللَّهَ وَهُوَ خادِعُهُمْ وَإِذا قامُوا إِلَى الصَّلاةِ قـامُوا كُسالى يُراؤُنَ النَّاسَ وَلا يَذْكُرُونَ اللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا (142) مُذَبْذَبِينَ بَيْنَ ذلِكَ لا إِلى هؤُلاءِ وَلا إِلى هؤُلاءِ وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَلَنْ تَجِدَ لَـهُ سَـبِيلًا (143) (النساء)

ومثل المال، أخبر القرآن عن المرائين بجهادهم، فقـال: وَلا تَكُونُوا كَالَّذِينَ خَرَجُوا مِنْ دِيارِهِمْ بَطَراً وَرِئـاءَ النَّاسِ وَيَصُـدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَاللَّهُ بِما يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ (47) (الأنفال)

وهكذا أخـبر عن المـرائين بصـلاتهم، وأخـبر عن الويـل الـذي ينتظرهم، قال تعالى: فَوَيْلٌ لِلْمُصَلِّينَ (4) الَّذِينَ هُمْ عَنْ صَـلاتِهِمْ سـاهُونَ (5) الَّذِينَ هُمْ يُـراؤُنَ (6) وَيَمْنَعُـونَ الْمـاعُونَ (7)ـ (5) (الماعون)

وأخبر عن جزاء من يريدون أن يراهم النـاس، ويسـمع بهم الناس، فقال: (من سمّع سمّع اللّه به، ومن يرائي يرائي اللّه به) [1]

وروي أن أعرابيّا أتى النّبيّ فقـال: يـا رسـول اللّـه، الرّجـل

---

[1] رواه البخاري ومسلم والترمذي.

يقاتل للمغنم، والرّجل يقاتل ليذكر، والرّجل يقاتل لـيرى مكانه[1]، فمن في سبيل اللّه؟ فقال رسول اللّه : (من قاتل لتكـون كلمـة اللّه أعلى فهو في سبيل اللّه)[2]

وسـأله بعضـهم، فقـال: يـا رسـول اللّـه أخـبرني عن الجهـاد والغـزو، فقـال : (إن قـاتلت صـابرا محتسـبا بعثـك اللّـه صـابرا محتسبا، وإن قاتلت مرائيا مكابرا بعثـك اللّـه مرائيـا مكـابرا، على أيّ حال قاتلت أو قتلت بعثك اللّه على تيك الحال)[3]

وقـال : (الغـزو غـزوان، فأمّـا من ابتغى وجـه اللّـه وأطـاع الإمام وأنفق الكريمة، وياسر الشّريك، واجتنب الفساد. فإنّ نومـه ونبهه أجر كلّه، وأمّا من غزا فخـرا وريـاء وسـمعة وعصـى الإمـام وأفسد في الأرض فإنّه لم يرجع بالكفاف)[4]

وقـال: (إنّ أوّل النّـاس يقضـى يـوم القيامـة عليـه، رجـلّ استشهد، فأتي به فعرّفـه نعمـه فعرفهـا، قـال: فمـا عملت فيهـا؟ قال: قاتلت فيك حتّى استشهدت، قال: كذبت، ولكنّـك قـاتلت لأن يقال جريء، فقد قيل، ثمّ أمـر بـه فسـحب على وجهـه حتّى ألقي في النّار، ورجل تعلّم العلم وعلّمه، وقرأ القرآن، فأتي به، فعرّفـه نعمه فعرفها، قال: فمـا عملت فيهـا؟ قـال: تعلّمت العلم وعلّمتـه وقـرأت فيـك القـرآن، قـال: كـذبت، ولكنّـك تعلّمت العلم ليقـال: عالم، وقـرأت القـرآن ليقـال: هـو قـاريء، فقـد قيـل: ثمّ أمـر بـه فسحب على وجهـه حتّى ألقي في النّـار، ورجـل وسّـع اللّـه عليـه وأعطاه من أصناف المال كلّه، فأتي به فعرّفه نعمه فعرفها، قال: فما عملت فيها؟ قال: ما تركت من سـبيل تحبّ أن ينفـق فيهـا إلّا أنفقت فيها لك، قال: كذبت، ولكنّك فعلت ليقـال: هـو جـواد، فقـد قيل، ثمّ أمر به فسحب على وجهه، ثمّ ألقي في النّار)[5]

1() أي: لترى مكانته ومرتبته وقدرته على القتال أو شجاعته ونحو ذلك مما يقصد به الرّياء.

2() رواه البخاري ومسلم.

3() رواه أبو داود والحاكم.

4() رواه أبو داود والحاكم.

5() رواه مسلم.

وقال : (تعوّذوا باللّـه من جبّ الحـزن(1)، قـالوا: يـا رسـول اللّه، وما جبّ الحـزن؟ قـال: (واد في جهنّم يتعـوّذ منـه جهنّم كـلّ يوم أربعمائة مرّة) قالوا: يا رسول اللّه، ومن يدخلـه؟ قـال: (أعـدّ للقرّاء المرائين بأعمـالهم، وإنّ من أبغض القـرّاء إلى اللّـه تعـالى الّذين يزورون الأمراء)(2)

وقال: (إنّ أخوف ما أخاف عليكم الشّرك الأصغر)، قـالوا: يـا رسول اللّه، ومـا الشّـرك الأصـغر؟ قـال: (الرّيـاء، إنّ اللّـه تبـارك وتعالى يقول يوم تجازى العبـاد بأعمـالهم: اذهبـوا إلى الّـذين كنتم تراءون بأعمالكم في الدّنيا فانظروا، هـل تجـدون عنـدهم جـزاء؟) (3)

وقال: (أتخوّف على أمّتي الشّرك، والشّهوة الخفيّة)، قيل: يا رسـول اللّـه، أتشـرك أمّتـك من بعـدك؟ قـال: (نعم، أمـا إنّهم لا يعبـدون شمسـا ولا قمـرا، ولا حجـرا ولا وثنـا، ولكن يـراءون بأعمالهم)(4)

وقال: (من صلّى يـرائي فقـد أشـرك ومن صـام يـرائي فقـد أشرك، ومن تصدّق يرائي فقد أشرك)(5)

وقال: (إنّما الأعمال بالنّيّة، وإنّما لامريء ما نوى فمن كـانت هجرته إلى اللّه ورسوله، فهجرتـه إلى اللّـه ورسـوله، ومن كـانت هجرته لدنيا يصيبها أو امرأة يتزّوجها، فهجرته إلى مـا هـاجر إليـه) (6)

وقال: (قال اللّه تعالى: أنـا أغـنى الشّـركاء عن الشّـرك، من

1() الجب: هو البئر التي لم تطو، والمراد جبّ فيه الحزن..

2() رواه الترمذي، وابن ماجة، وقال الترمذي: حسن غريب.

3() رواه أحمد، ورجاله رجال الصحيح.

4() رواه أحمد والبيهقي.

5() رواه أحمد.

6() رواه البخاري ومسلم.

عمل عملا أشرك فيه معي غيري تركته وشركه)[1]

وقـال: (لا تعلّمـوا العلم لتبـاهوا بـه العلمـاء، ولا لتمـاروا بـه السّفهاء، ولا تخيّروا به المجالس. فمن فعل ذلك فالنّار النّار)[2]

وقال: (من أكل برجل مسلم[3] أكلة فإنّ اللّه يطعمـه مثلهـا من جهنّم، ومن كسي ثوبا برجل مسلم فإنّ اللّه يكسوه مثلـه من جهنّم، ومن قام برجل مقام سمعة ورياء فإنّ اللّه يقـوم بـه مقـام سمعة ورياء يوم القيامة)[4]

وقال: (الإيمان يمـان، والكفـر قبـل المشـرق، والسّـكينة في أهل الغنم، والفخر والرّياء في الفدّادين[5] أهل الخيل والوبر)[6]

وقال: (الوليمة أوّل يوم حقّ، والثّاني معروف، واليوم الثّـالث سمعة ورياء)[7]

بعد أن ذكر زكريـا هـذا وغـيره قـام بعض الحاضـرين، وقـال: فليأذن لنا شيخنا أن نسأله عن بعض مـا يرتبـط بمـا تحـدث عنـه، فإن منه الواضح الجلي، ومنه ما يحتاج إلى مزيد بيان.

قال زكريا: سل ما بدا لك.. وسـلوا مـا بـدا لكم.. فلم أجلس هذا المجلس إلا لتسألوني، وأجيبكم.

قـال الرجـل: الحكم على الشـيء فـرع عن تصـوره.. ونحن

1() رواه مسلم.

2() رواه ابن ماجة والحاكم.

3() أكل برجل مسلم: أي اغتابه فأكل بسبب ذلك، ومثل ذلـك اكتسـى بـه، قـال ابن الأثـير: معنى ذلك: الرّجل يكون صديقا للرّجل ثم يذهب إلى عدوه فيتكلّم فيه بغير الجميـل ليجـيزه عليه بجائزة فلا يبارك اللّه له فيها. انظر: النهاية (1/ 57- 58)

4() رواه أحمد وأبو داود.

5() الفدّادين: هم الذين تعلو أصواتهم في إبلهم وخيلهم وحروثهم، ونحو ذلك.

6() رواه مسلم والترمذي.

7() رواه أحمد وأبو داود والترمذي وابن ماجة.

نطلب منكم أن تذكروا لنا حقيقة الجاه أوحقيقة الشهرة التي امتلأت قلوبنا محبة لها.. فإن الغارق في شيء قد لا يدرك ما هو فيه كما يدركه من بعد عنه.

قال زكريا: الجاه كالمال.. كلاهما ركنان من أركان الدنيا.. وبما أن المال واضح جلي، ومحسوس وملموس، فإنا نتخذه مطية للتعرف على الجاه.. أجيبوني: أليس المال هو ملك الأعيان المنتفع بها؟.. أو ليس الغني هو الذي يملك الدراهم والدنانير، أي يقدر عليهما ليتوصل بهما إلى الأغراض والمقاصد وقضاء الشهوات وسائر حظوظ النفس؟

قلنا: بلى..

قال زكريا: فهكذا الجاه.. فهو ليس إلا ملك القلوب المطلوب تعظيمها وطاعتها.. وليس ذو الجاه إلا الذي يملك قلوب الناس، أي يقدر على أن يتصرف فيها ليستعمل بواسطتها أربابها في أغراضه ومآربه.

وكما أنه يكتسب الأموال بأنواع من الحرف والصناعات فكذلك يكتسب قلوب الخلق بأنواع من المعاملات.

قال رجل منا: فمعنى الجاه إذن هو قيام المنزلة في قلوب الناس، أي اعتقاد القلوب لنعت من نعوت الكمال فيه، فبقدر ما يعتقدون من كماله تذعن له قلوبهم، وبقدر إذعان القلوب تكون قدرته على القلوب، وبقدر قدرته على القلوب يكون فرحه وحبه للجاه.

قال زكريا: أجل.. الأمر كما تقول.. ولذلك ثمرات ينالها ذو الجاه كالمدح والإطراء، فإن المعتقد للكمال لا يسكت عن ذكر ما يعتقده، فيثني عليه.. وكالخدمة والإعانة فإنه لا يبخل ببذل نفسه في طاعته بقدر اعتقاده فيكون سخرة له مثل العبد في أغراضه.. وكالإيثار وترك المنازعة والتعظيم والتوقير بالمفاتحة بالسلام وتسليم الصدر في المحافل والتقديم في جميع المقاصد.. فهذه آثار تصدر عن قيام الجاه في القلب.

قام آخر، وقال: فما السبب في كون القلـوب مفطـورة على حب الجاه، بحيث لا تكاد تنفك عنه؟

قال زكريا: هـو نفس السـبب الـذي جعـل القلـوب مفطـورة على حب المال.. بل إن التأمل يـدل على أن حب الجـاه يلـزم أن يكون أعظم من حب المال.

قال الرجل: كيف ذلك؟

قـال زكريـا: أنت تعلم أن الـدراهم والـدنانير لا غـرض في أعيانهمـا، إذ لا تصـلح لمطعم ولا مشـرب ولا ملبس، وإنمـا هي والحصباء بمثابة واحدة، ولكنهما محبوبان لأنهما وسـيلة إلى جميـع المحاب وذريعـة إلى قضـاء الشـهوات، فكـذلك الجـاه، لأن معنـاه الجاه ملك القلوب والقدرة على استسخارها، وهو يفيد قدرة على التوصـل إلى جميـع الأغـراض.. فالاشـتراك في السـبب اقتضـى الاشتراك في المحبة، وترجيح الجاه على المال اقتضـى أن يكـون الجاه أحب من المال.

قال الرجل: أنا أسألك عن مرجحات الجاه على المال.

قال زكريا: لملـك الجـاه تـرجيح على ملـك المـال من وجـوه ثلاثة.

قال الرجل: فما أولها؟.

قال زكريا: أولها هو أن التوصل بالجـاه إلى المـال أيسـر من التوصيل بالمال إلى الجاه، فالعالم أو الزاهـد الـذي تقـرر لـه جـاه في القلوب لو قصد اكتساب المال تيسـر لـه، فـإن أمـوال أربـاب القلوب مسخرة للقلـوب ومبذولـة لمن اعتقـد فيـه الكمـال، وأمـا الخسيس الذي لا يتصف بصفة كمال إذا وجد كنزاً ولم يكن له جاه يحفـظ مالـه وأراد أن يتوصـل بالمـال إلى الجـاه لم يتيسـر لـه.. وبذلك فإن الجاه وسـيلة إلى المـال، فمن ملـك الجـاه فقـد ملـك المال، ومن ملك المـال لم يملـك الجـاه بكـل حـال، فلـذلك صـار الجاه أحب.

قال الرجل: وعيت هذا.. فما الثاني؟

قال زكريا: الثاني هو أن المال معرض للبلوى والتلف بأن يسرق ويغصب، ويحتاج فيه إلى الحفظة والحراس، وأما القلوب إذا ملكت فلا تتعرض لهذه الآفات فهي على التحقيق خزائن عتيدة لا يقدر عليها السراق.

قال الرجل: وعيت هذا.. فما الثالث؟

قال زكريا: الثالث هو أن ملك القلوب يسري ويتزايد من غير حاجة إلى تعب ومقاساة، فإن القلوب إذا أذعنت لشخص واعتقدت كماله بعلم أو عمل أو غيره أفصحت الألسنة لا محالة بما فيها، فيصف ما يعتقده لغيره ويقتنص ذلك القلب أيضاً له، ولهذا المعنى يحب الطبع الصيت وانتشار الذكر.. لأن ذلك إذا استطار في الأقطار اقتنص القلوب ودعاها إلى الإذعان والتعظيم، فلا يزال يسري من واحد إلى واحد ويتزايد وليس له مرد معين، وأما المال فمن ملك منه شيئاً فهو مالكه ولا يقدر على استنمائه إلا بتعب ومقاساة.

قام آخر، وقال: ما دام هذا هو غرض الجاه، فلم يحب الإنسان اتساع الجاه وانتشار الصيت إلى أقاصي البلاد التي يعلم قطعاً أنه لا يطؤها ولا يشاهد أصحابها، ليعظموه أو ليعينوه على غرض من أغراضه.. ومع اليأس من ذلك فإنه يلتذ به غاية الالتذاذ، بل إن حب ذلك ثابت في الطبع؟

قال زكريا: لذلك سببان، أحدهما: جلي تدركه الكافة.. والآخر: خفي وهو أعظم السببين، وهو أدقهما وأخفاهما.

قال الرجل: فما **السبب الأول**؟

قال زكريا: هو دفع ألم الخوف، لأن الشفيق بسوء الظن مولع، والإنسان وإن كان مكفياً في الحال فإنه طويل الأمل ويخطر بباله أن المال فيه كفايته ربما يتلف فيحتاج إلى غيره، فإذا خطر ذلك بباله هاج الخوف من قلبه ولا يدفع ألم الخوف إلا الأمن الحاصل بوجود مال آخر يفزع إليه إن أصابت هذا المال جائحة، فهو أبدا لشفقته على نفسه وحبه للحياة يقدر طول الحياة؛ ويقدر هجوم الحاجات؛ ويقدر إمكان تطرق الآفات إلى

الأموال، ويستشعر الخوف من ذلك، فيطلب ما يـدفع خوفـه وهـو كثرة المال، حتى إن أصيب بطائفة من ماله استغنى بالآخر.

قال الرجل: صدقت في هذا، وقـد أشـار إليـه رسـول اللـه عندما قال: (لو كـان لابن آدم واد من مـال لابتغى إليـه ثانيـا، ولـو كان له واديان لابتغى لهما ثالثا، ولا يملا جوف ابن آدم إلا الـتراب، ويتوب الله على من تاب)[1].. فما **السبب الثـاني**.. ذلـك الـذي نعته بالخفي؟

قال زكريا: نعم هو خفي.. لأنه يرتبط بحقيقة الروح التي قال الله فيهـا : وَيَسْـأَلُونَكَ عَنِ الـرُّوحِ قُـلِ الـرُّوحُ مِنْ أَمْـرِ رَبِّي وَمَـا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا (85) (الإسراء)، فقـد أخـبر اللـه تعـالى أن الروح أمر رباني.. وذلك يشير إلى أنهـا بطبعهـا تحب الربوبيـة، ومعـنى الربوبيـة التوحـد بالكمـال والتفـرد بـالوجود على سـبيل الاستقلال.. ولذلك قـال بعض الصـالحين: (مـا من إنسـان إلا وفي باطنه مـا صـرح بـه فرعـون من قولـه : أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَى (24) (النازعات)، ولكنه ليس يجد له مجالاً)

قام آخر، وقـال: لقـد بث تشـبيهك للجـاه بالمـال في نفسـي شبهة أستحيي من ذكرها.

قال زكريا: لا عليك.. سأجيبك عنها من غير أن تسألني.. أنت تريد أن تقول: **بما**

أنه لا بد من المال لتقوم الحيـاة، فلا بـد من الجـاه كذلك..

قـال الرجـل: ذلـك مـا أردت قولـه.. فمـا جوابـك عن هـذه الشبهة؟

قـال زكريـا: كمـا أنـه لابـد من أدنى مـال لضـرورة المطعم والمشرب والملبس، فلا بد – قياسا عليه- من أدنى جـاه لضـرورة المعيشة مع الخلق.. والإنسان كمـا لا يسـتغني عن طعـام يتناولـه فيجوز أن يحب الطعام أو المال الذي يبتاع به الطعـام، فكـذلك لا

---
[1] () رواه البخاري وغيره.

يخلو عن الحاجة إلى رفيق يعينه، وأستاذ يرشده، وسلطان يحرسه ويدفع عنه ظلم الأشرار، فحبه لأن يكون له في قلب قلوب هؤلاء جميعا من المنزلة ما يدعوهم إلى رعايته والاهتمام به ليس حبا مذموما..

قال الرجل: لقد أورد علي حديثك هذا شبهة أخرى.

قال زكريا: والجواب عليها سهل يسير، فيمكن استعمال القياس لتفهم الحقيقة، وتزول الشبهة.

قال الرجل: أنت لم تسمع شبهتي.

قال زكريا: أنت تريد أن تقول: ما دام الأمر كذلك، فكيف يذم طلب الجاه مع أنه لا يذم طلب المال حتى لو كثر؟

قال الرجل: أجل.. هذا ما كنت أريد أن أقوله.

قال زكريا: والجواب عليه هو نفس الجواب في المال.. فالمال إن طلب من حله ووضع في محله كان مباركا.

قال الرجل: فهل للجاه محال حلال يكسب فيها، ومحال حلال ينفق فيها؟

قال زكريا: أجل.. ولهذا عرف الله برسله وجعل لهم من الشهرة ما صرف القلوب إليهم.. لأنه لا يمكن أن تعرف حقائق الإيمان من دون أن يعرف الناس مبلغيها.

وهكذا المؤمن الصالح الذي امتلك من القدرات ما يتيح له أن يخلف الرسل، فإنه إن أحب أن يكون له جاه في القلوب، وشهرة في المجتمع، فإنه لا يعاب في ذلك ما دام يريد بذلك نصرة دينه لا نصرة نفسه.

أما إن أراد الجاه لنفسه، فإنه يلام على ذلك كما يلام من أحب المال لذاته من غير أن يتوسل به إلى غرض شرعي صحيح.

وإلى هذا المعنى الإشارة بقوله : (إن الله تعالى إذا أحب عبدا دعا جبريل فقال : إني أحب فلانا فأحبه ! فيحبه جبريل ثم

ينادي في السماء فيقول : إن الله يحب فلانا فأحبوه ! فيحبه أهل، ثم يوضع له القبول في الارض، وإذا أبغض عبدا دعا جبريل فيقول : إني أبغضه، فيبغضه جبريل ثم ينادي في أهل السماء : إن الله تعالى يبغض فلانا فأبغضوه ! فيبغضونه ثم توضع له البغضاء في الارض)[1]

قام آخر، وقال: وعينا هذا.. لقد ذكرت لنا أنه لا حرج على من طلب المنزلة والجاه في قلب أستاذه ورفيقه وسلطانه ومن يرتبط به، فهل ذلك مباح على الإطلاق؛ أو أنه يباح إلى حد مخصوص على وجه مخصوص؟

قال زكريا: **لذلك ثلاثة وجوه؛ وجهان مباحان، ووجه محظور**.

قال الرجل: فما الوجه المحظور؟

قال زكريا: هو أن يطلب قيام المنزلة في قلوبهم باعتقادهم فيه صفة وهو منفك عنها، مثل العلم والورع، فيظهر لهم أنه عالم أو ورع وهو لا يكون كذلك.. فهذا حرام لأنه كذب وتلبيس إما بالقول أو بالمعاملة.

قال الرجل: فما الوجهان المباحان؟

قال زكريا: أما أولهما فهو أن يطلب المنزلة بصفة هو متصف بها كقول يوسف فيما أخبر الله تعالى عنه : اجْعَلْنِي عَلَى خَزَائِنِ الْأَرْضِ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ (55) (يوسف)، فإنه طلب المنزلة في قلبه بكونه حفيظاً عليماً، وكان محتاجاً إليه وكان صادقاً فيه.

وأما الثاني، فأن يطلب إخفاء عيب من عيوبه ومعصية من معاصيه، حتى لا يعلم فلا تزول منزلته به، فهذا أيضاً مباح لأن حفظ الستر على القبائح جائز، ولا يجوز هتك الستر وإظهار القبيح.. وهذا ليس فيه تلبيس، بل هو سد لطريق العلم بما لا فائدة في العلم به، كالذي يخفي عن السلطان أنه يشرب الخمر

[1] رواه أحمد وغيره.

ولا يلقى إليه أنه ورع، فإنه قوله: إني ورع تلبيس، وعدم إقراره بالشرب لا يوجب اعتقاد الورع، بل يمنع العلم بالشرب.

ومن جملة المحظورات في هذا تحسين الصلاة بين يديه ليحسن فيه اعتقاده، فإن ذلك رياء، وهو ملبس إذ يخيل إليه أنه من المخلصين الخاشعين لله وهو مراء بما يفعله، فكيف يكون مخلصاً؟ فطلب الجاه بهذا الطريق حرام وكذا بكل معصية، وذلك يجري مجرى اكتساب المال الحرام من غير فرق، وكما لا يجوز له أن يتملك مال غيره بتلبيس في عوض أو غيره فلا يجوز له أن يتملك قلبه بتزوير وخداع، فإن مللك القلوب أعظم من ملك الأموال.

قام آخر، وقال: وعينا كل ما ذكرت.. ونحن نريد الآن أن تذكر لنا **الجذور التي ينبت منها حب المدح الذي هو ثمرة حب الجاه**، فلا يمكن معالجة شيء من غير معرفة جذوره.

قال زكريا: صدقت.. وقد تأملت هذا.. فوجدت أربعة جذور تنبت منها شجرة الجاه في القلب.

قال الرجل: فما الجذر الأول؟

قال زكريا: الأول هو شعور النفس بالكمال، فقد عرفنا أن الكمال محبوب، وكل محبوب فإدراكه لذيذ.. فمهما شعرت النفس بكمالها ارتاحت واعتزت وتلذذت.. ولذلك فإنها إذا مدحت ترسخ حب الجاه فيها، وصعب قلعه.

قال الرجل: فما الجذر الثاني؟

قال زكريا: هو أن المدح الذي هو مطلوب محب الجاه يدل على أن قلب المادح مملوك للممدوح وأنه مريد له ومعتقد فيه ومسخر تحت مشيئته.. وملك القلوب محبوب والشعور بحصوله لذيذ.. وبهذه العلة تعظم اللذة مهما صدر الثناء ممن تتسع قدرته وينتفع باقتناص قلبه، ويضعف مهما كان المادح ممن لا يؤبه له ولا يقدر على شيء، وبهذه العلة أيضاً يكره الذم ويتألم به القلب، وإذا كان من الأكابر كانت نكايته أعظم لأن الفائت به أعظم.

قال الرجل: فما الجذر الثالث؟

قال زكريا: هو أن ثناء المثني ومدح المادح سبب لاصطياد قلب كل من يسمعه، لا سيما إذ كان ذلك ممن يلتفت إلى قوله ويعتد بثنائه، وهذا مختص بثناء يقع على الملأ، فلا جرم كلما كان الجمع أكثر والمثني أجدر بأن يلتفت إلى قوله كان المدح ألذ والذم أشد على النفس.

قال الرجل: فما الجذر الرابع؟

قال زكريا: هو أن المدح يدل على حشمة الممدوح، واضطرار المادح إلى إطلاق اللسان بالثناء على الممدوح إما عن طوع وإما عن قهر، فإن الحشمة أيضاً لذيذة لما فيها من القهر والقدرة، وهذه اللذة تحصل وإن كان المادح لا يعتقد في الباطن ما مدح به، ولكن كونه مضطراً إلى ذكره نوع قهر واستيلاء عليه.

قام آخر، وقال: عرفنا حقيقة الجاه والجذور التي ينبت منها.. فعلمنا الآن كيف نوجهه التوجيه الصحيح؟

قال زكريا: سأذكر لكم **سبعة أدوية من عرف كيف يستعملها فإنه لا يبالي إلا بنظر مولاه**.

قلنا: فما **أولها**؟

قال زكريا: أن يتفكر في الأخطار التي يستهدف لها أرباب الجاه في الدنيا، فإن كل ذي جاه محسود ومقصود بالإيذاء وخائف على الدوام على جاهه ومحترز من أن تتغير منزلته في القلوب.. والقلوب أشد تغيراً من القدر في غليانها، وهي مترددة بين الإقبال والإعراض، فكل ما يبنى على قلوب الخلق يضاهي ما يبنى على أمواج البحر، فإنه لا ثبات له، والاشتغال بمراعاة القلوب وحفظ الجاه ودفع كيد الحساد ومنع أذى الأعداء كل ذلك غموم عاجلة ومكدرة للذة الجاه، فلا يفي في الدنيا مرجوها بمخوفها.

وقد راعى الشاعر الناصح هذا المعنى حين قال:

عش خامل الذكر بين	فذاك أسلم للدنيا

من عاشر الناس لم تسلم ... ولم يزل بين تحريك ...

وقال بعض الحكماء: (الخمول نعمة والنفس تأبـاه، والظهـور نقمة والنفس تهواه)

قلنا: عرفنا الترياق الأول.. فما **الثاني**؟

قال زكريا: أن يعلم أن السبب الذي لأجله أحب الجاه - وهــو كمال القدرة على أشخاص الناس وعلى قلوبهم - إن صـفا وسـلم فآخره الموت.. فليس هو من الباقيات الصالحات، بل لو سجد لك كل من على بسيط الأرض من المشرق إلى المغرب إلى خمسين سـنة لا يبقى الساجد ولا المسجود لـه، ويكـون حالـك كحال من مات قبلك من ذوي الجاه مـع المتواضـعين لـه.. فهـذا لا ينبغي أن يترك به الدين الذي هو الحياة الأبدية التي لا انقطاع لها.

قلنا: عرفنا الترياق الثاني.. فما **الثالث**؟

قال زكريا: أن يعلم خطر حب الجاه على دينه، فإن من غلب على قلبــه حب الجــاه صــار مقصــور الهم على مراعــاة الخلــق، مشــغوفاً بــالتودد إليهم والمــراءاة لأجلهم، ولا يــزال في أقوالــه وأفعالـه ملتفتـاً إلى مـا يعظم منزلتـه عنـدهم، وذلـك بـذر النفـاق وأصـل الفسـاد، ويجـر ذلـك لا محالـة إلى التسـاهل في العبـادات والمــراءاة بهـا وإلى اقتحــام المحظــورات للتوصــل إلى اقتنــاص القلــوب، ولــذلك شــبه رســول اللــه حب الشــرف والمــال وإفسادهما للـدين بـذئبين ضـاريين، فقـال :(مـا ذئبـان جائعـان أرسلا في غنم بأفسد لها من حـرص المـرء على المـال والشـرف لدينه)[1]

وذلك لأن النفاق هو مخالفة الظاهر للباطن بالقول أو الفعل، وكل من طلب المنزلة في قلوب الناس فيضطر إلى النفاق معهم وإلى التظاهر بخصال حميدة هو خال عنها، وذلك هو عين النفاق.

قلنا: عرفنا الترياق الثالث.. فما **الرابع**؟

قال زكريا: أن يملأ قلبه بما ورد في النصـوص المقدسـة من

[1] رواه أحمد والترمذي.

مدح الخمول وذم الدح..

أما مدح الخمول، فمما ورد فيه قوله : (تعس عبد الدينار وعبد الدرهم وعبد الخميصة إن أعطي رضي، وإن لم يعط تعس وانتكس، وإذا شيك فلا انتقش طوبي لعبد أخذ بعنان فرسه في سبيل الله أشعث رأسه مغبرة قدماه إن كان في الحراسة كان في الحراسة وإن في الساقة كان في الساقة إن استأذن لم يؤذن له وإن شفع لم يشفع)(1) وحسبك بهذا الحديث ثناء على الخاملين.

ومر رجل على النبي ، فقال لرجل عنده جالس : (ما رأيك في هذا ؟) فقال : رجل من أشراف الناس هذا والله حري إن خطب أن ينكح وإن شفع أن يشفع. فسكت رسول الله صلى الله عليه وسلم، ثم مر رجل آخر، فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم : (ما رأيك في هذا ؟) فقال : يا رسول الله هذا رجل من فقراء المسلمين، هذا حري إن خطب أن لا ينكح، وإن شفع أن لا يشفع، وإن قال أن لا يسمع لقوله. فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم (هذا خير من ملء الأرض مثل هذا)(2)

وأما ذم المدح، فمما ورد فيه قوله : (احثوا التراب في وجوه المادحين)(3)

وقال الإمام علي لما أثني عليه: (اللهم اغفر لي ما لا يعلمون ولا تؤاخذني بما يقولون واجعلني خيرا مما يظنون)

وأثنى رجل عليه في وجهه، وكان قد بلغه أنه يقع فيه، فقال: (أنا دون ما قلت وفوق ما في نفسك)

قلنا: عرفنا الترياق الرابع.. فما **الخامس**؟

قال زكريا: أن يعمل على إسقاط الجاه عن قلوب الخلق

---

(1) رواه أحمد والبخاري.

(2) رواه البخاري ومسلم.

(3) رواه مسلم.

بمباشرة أفعال مباحة يلام عليها حتى يسقط من أعين الخلق وتفارقه لذة القبول ويأنس بالخمول ويرد الخلق ويقنع بالقبول من الخالق.. كما روي أن بعض الملوك قصد بعض الزهاد، فلما علم بقربه منه استدعى طعاماً وبقلاً وأخذ يأكل بشره ويعظم اللقمة، فلما نظر غليه الملك سقط من عينه وانصرف، فقال الزاهد: الحمد لله الذي صرفك عني.

قلنا: عرفنا الترياق الخامس.. فما **السادس**؟

قال زكريا: أن يرجع إلى عقله، ويقول لنفسه: هذه الصفة التي أحب أن أمدح بها هل أنا متصف بها أم لا؟ فإن كنت متصفاً بها فهي إما صفة تستحق المدح كالعلم والورع، وإما صفة لا تستحق المدح كالثروة والجاه والأعراض الدنيوية فإن كانت من الأعراض الدنيوية فالفرح بها كالفرح بنبات الأرض الذي يصير على القرب هشيماً تذروه الرياح، وهذا من قلة العقل، بل العاقل يقول كما قال المتنبي:

أشد الغم عندي في سرور تيقن عنه صاحبه انتقالا

فلا ينبغي أن يفرح الإنسان بعروض الدنيا، وإن فرح فلا ينبغي أن يفرح بمدح المادح بها بوجودها، والمدح ليس هو سبب وجودها..

وإن كانت الصفة مما يستحق الفرح بها كالعلم والورع فينبغي أن لا يفرح بها لأن الخاتمة غير معلومة، وهذا إنما يفتضي الفرح لأنه يقرب عند الله زلفى، وخطر الخاتمة باق، ففي الخوف من سوء الخاتمة شغل عن الفرح بكل ما في الدنيا..

فينبغي أن يكون فرحك بفضل الله عليك بالعلم والتقوى لا بمدح المادح، فإن اللذة في استشعار الكمال والكمال موجود من فضل الله لا من المدح والمدح تابع له فلا ينبغي أن تفرح بالمدح، والمدح لا يزيدك فضلاً وإن كانت الصفة التي مدحت بها أنت خال عنها ففرحك بالمدح غاية الجنون.

قلنا: عرفنا الترياق السادس.. فما **السابع**؟

قال زكريا: أن يعلم أن الذم – الذي لا يخاف محب الجاه من شيء كما يخاف منه - لا يخلو من ثلاثة أحوال: إما أن يكون قد صدق فيما قال وقصد به النصح والشفقة؛ وإما أن يكون صادقاً ولكن قصده الإيذاء والتعنت، وإما أن يكون كاذباً.

فإن كان صادقاً وقصده النصح فلا ينبغي أن يذمه ويغضب عليه بسببه، بل ينبغي أن يتقلد منته، فإن من أهدى إليك عيوبك فقد أرشدك إلى المهلك حتى تتقيه، فينبغي أن تفرح به وتشتغل بإزالة الصفة المذمومة عن نفسك إن قدرت عليها، فأما اغتمامك وكراهتك له وذمك إياه فإنه غاية الجهل..

أما إن كان قصده التعنت فأنت قد انتفعت بقوله إذ أرشدك إلى عيبك إن كنت جاهلاً به، وأذكرك عيبك إن كنت غافلاً عنه، أو قبحه في عينك لينبعث من حرصك على إزالته إن كنت قد استحسنته. وكل ذلك أسباب سعادتك وقد استفدته منه فاشتغل بطلب السعادة فقد أتيح لك أسبابها بسبب ما سمعته من المذمة.

وأما قصد العدو التعنت فجناية منه على دين نفسه، وهو نعمة منه عليك، فلم تغضب عليه بقول انتفعت به أنت وتضرر هو به؟

قال رجل منا: فإن افترى علي بما أنا بريء منه عند الله تعالى.

قال زكريا: لا تكره ذلك أيضا.. ولا تشتغل بذمه، بل تتفكر في ثلاثة أمور:

أحدها أنك إن خلوت من ذلك العيب فلا تخلو عن أمثاله وأشباهه، وما ستره الله من عيوبك أكثر، فاشكر الله تعالى إذ لم يطلعه على عيوبك ودفعه عنك بذكر ما أنت بريء عنه.

والثاني أن ذلك كفارات لبقية مساويك وذنوبك فكأنه رماك بعيب أنت بريء منه وطهرك من ذنوب أنت ملوث بها وكل من اغتابك فقد أهدى إليك حسناته، وكل من مدحك فقد قطع ظهرك.. فما بالك تفرح بقطع الظهر وتحزن لهدايا الحسنات التي

تقربك إلى الله تعالى وأنت تزعم أنك تحب القرب من الله.

وأما الثالث، فهو أن المسكين قد جنى على دينه حتى سقط من عين الله وأهلك نفسه بافترائه وتعرض لعقابه الأليم، فلا ينبغي أن تغضب عليه مع غضب الله عليه فتشمت به الشيطان وتقول: اللهم أهلكه، بل ينبغي أن تقول: اللهم أصلحه اللهم تب عليه اللهم ارحمه، كما قال : (اللهم اغفر لقومي.. اللهم اهد قومي فإنهم لا يعلمون)، وهم قد كسروا ثنيته وشجوا وجهه وقتلوا عمه حمزة يوم أحد.

ودعا إبراهيم بن أدهم لمن شج رأسه بالمغفرة فقيل له في ذلك فقال: (علمت أني مأجور بسببه، وما نالني منه إلا خير، فلا أرضى أن يكون هو معقباً بسببي)

ومما يهون عليك كراهة المذمة قطع الطمع فإن من استغنيت عنه مهما ذمك لم يعظم أثر ذلك في قلبه، وأصل الدين القناعة وبها ينقطع الطمع عن المال والجاه، وما دام الطمع قائماً كان حب الجاه والمدح في قلب من طمعت فيه غالباً، وكانت همتك إلى تحصيل المنزلة في قلبه مصروفة، ولا ينال ذلك إلا بهدم الدين، فلا ينبغي أن يطمع طالب المال والجاه ومحب المدح ومبغض الذم في سلامة دينه فإن ذلك بعيد جداً.

***

لست أدري كيف ثارت في نزعة الجدل، فرحت أقطع حديثهم بقولي: ولكن ما تقولون.. ألم تسمعوا قوله تعالى لرسوله : ﴿ وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ (4)﴾ (الشرح).. أليس هذا قمة الجاه؟..

ثم أي شهرة تزيد على شهرة الأنبياء والأولياء ووأئمة العلماء! فكيف فاتهم فضيلة الخمول؟

ثم ألا ترون أن عبد الله الحقيقي هو العبد الذي لا يبالي أظهره الله، أو أبطنه، رفعه أو وضعه.. فهو عبد ربه لا عبد الظهور، ولا عبد البطون.. كما قال أبو العباس المرسي: (من أحب الظهور فهو عبد الظهور ومن أحب الخفاء فهو عبد الخفاء

وعبد الله سواء عليه أظهره أم أخفاه)

قال زكريا: صدقت يا بني.. وما قلته لا يناقض ما قلنا.. فـأنت تتحدث عن الأنبيـاء والأوليـاء.. وهـؤلاء لابـد أن يسـمع بهم النـاس حـتى يسـتفيدوا منهم.. ولكنـا نتحـدث عن قـوم قـد يتضـررون بالشهرة أو بمحبتهم لها.

ثم إن المذموم هو طلب الشهرة، فأما وجودها من جهة اللـه تعالى من غير تكلف من العبد فليس بمذموم.. نعم فيه فتنـة على الضـعفاء دون الأقويـاء، وهم كـالغريق إذا كـان معـه جماعـة منن الغـرقى فـالأولى بـه أن لا يعرفـه أحـد منهم فـإنهم يتعلقـون بـه فيضعف عنهم فيهلك معهم، وأما القوي فالأولى أن يعرفه الغرقى ليتعلقوا به فينجيهم ويثاب على ذلك.

وإن شئت قولا فصلا في هذا، فاعلم أن للناس أربعـة أحـوال بالإضافة إلى هذا:

أما أولاها، فهي أن يفرح بالمدح ويشكر المـادح ويغضـب من الذم ويحقد على الذام ويكافئه أو يحب مكافأتـه، وهـذا حـال أكـثر الخلق.. وهذا ما كنا نبحث فيه وفي علاجه.

وثانيهــا، أن يمتعض في البــاطن على الــذام ولكن يمســك لسانه وجوارحه عن مكافاته ويفـرح باطنـه، ويرتـاح للمـادح ولكن يحفـظ ظـاهره عن إظهـار السـرور، وهـذا من النقصـان إلا أنـه بالإضافة إلى مـا قبلـه كمـال.. وهـو أيضـا مـا كنـا نبحث فيـه وفي علاجه.

وثالثهـا، وهي أول درجـات الكمـال أن يسـتوي عنـده ذامـه ومادحه فلا تغمه المذمة ولا تسره استثقالاً..

ورابعهـا، وهي الصـدق في العبـادة؛ أن يكـره المـدح ويمقت المادح، إذا يعلم أنه فتنة عليه قاصمة للظهر مضرة له في الـدين، ويحب الذام إذ يعلم أنه مهد إليه عيبه ومرشد له إلى مهمه ومهـد إليه حسناته.

وكل واحدة من هذه الرتب أيضاً فيها درجات..

أما الدرجات في المدح فهو أن من الناس من يتمنى المدحة والثناء وانتشار الصيت، فيتوصل إلى نيل ذلك بكل ما يمكن حتى يرائي بالعبادات، ولا يبالي بمفارقة المحظورات لاستمالة قلوب الناس واستنطاق ألسنتهم بالمدح وهذا من الهالكين.

ومنهم من يريد ذلك ويطلبه بالمباحات ولا يطلبه بالعبادات، ولا يباشر المحظورات، وهذا على شرف جرف هاو، فإن حدود الكلام الذي يستميل به القلوب وحدود الأعمال لا يمكنه أن يضبطها فيوشك أن يقع فيما لا يحل لنيل الحمد، فهو قريب من الهالكين جداً.

ومنهم من لا يريد المدحة ولا يسعى لطلبها، ولكن إذا مدح سبق السرور إلى قلبه فإذا لم يقابل ذلك بالمجاهدة ولم يتكلف الكراهية فهو قريب من أن يستجره فرط السرور إلى الرتبة التي قبلها وإن جاهد نفسه في ذلك وكلف قلبه الكراهية وبغض السرور إليه بالتفكر في آفات المدح، فهو في خطر المجاهدة فتارة تكون اليد له وتارة تكون عليه.

ومنهم من إذا سمع المدح لم يسر به ولم يغتم به ولم يؤثر فيه وهذا على خير، وإن كان قد بقي عليه بقية من الإخلاص.

ومنهم من يكره المدح إذا سمعه ولكن لا ينتهي به إلى أن يغضب على المادح وينكر عليه، وأقصى درجاته أن يكره ويغضب ويظهر الغضب وهو صادق فيه، لا أن يظهر الغضب وقلبه محب له فإن ذلك عين النفاق، لأنه يريد أن يظهر من نفسه الإخلاص والصدق وهو مفلس عنه.

***

بقيت مدة في هذا القسم أستفيد من زكريا علوم الترفع عن الجاه.. وعندما أيقنت بأن الجاه والشهرة أحقر من أن أبيع بسببهما آخرتي أجازني، كما أجاز جمعا ممن كان معي ممن فقهوا ما فقهت ..

وبتخــرجي من هــذا القســم، تخــرجت من هــذه المدرســة العظيمة التي جعلتني أشعر بحريـة عظيمـة، بعـد أن تخلصـت من كل تلك القيود التي كانت تجذبني إلى الأرض.

قلت: عرفت السر الخامس من أسرار الإنسان.. فما السر السادس؟

قال: إنه السر الذي يشير إليه قوله تعالى : لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ (4) (التين)، وقوله تعالى : وَلَقَدْ كَرَّمْنا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْناهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْناهُمْ مِنَ الطَّيِّباتِ وَفَضَّلْناهُمْ عَلى كَثِيرٍ مِمَّنْ خَلَقْنا تَفْضِيلًا (70) (غافر)

قلت: هذه الآيات تتحدث عن كرامة الإنسان، وما من الله به عليه من ألطافه.

قال: كرامة الإنسان مرتبطة بتساميه وترفعه.. فلا كرامة للإنسان المدنس بدنس أهوائه، المختوم على قلبه بختم كبريائه.

قلت: فما التسامي؟.. وكيف يتسامى الإنسان؟

قال: التسامي هو أن يعيش الإنسان بجسده في الأرض من غير أن يلطخ قلبه ومشاعره ووجدانه بأوحالها.

قلت: هل يمكن ذلك؟

قال: أجل.. بالتسامي يصعد الإنسان إلى السموات العلا، ويعرج إلى الملأ الأعلى..

قلت: من غير أن يفارق جسده الأرض.. ومن غير حاجة إلى مركبات فضائية.

قال: الإنسان كائن سماوي.. وهو لا يحتاج لذلك لأي مركبات.. فالمركبات للطين لا للروح.

قلت: أراك تملؤني فخرا بحقيقتي..

قال: حقيقتك لن تظل كذلك حتى تحافظ عليها..

قلت: فحدثني كيف أحافظ عليها..

قال: هذا هو سر التسامي الذي رزقني الله تعلمه في تلك المدينة العجيبة التي فتح لي فيها من أسرار الإنسان ما كان منغلقا[1] ..

في ذلك اليوم، قصدت جبلا من جبال تلك المدينة العالية، وقد صممت أن أصل إلى قمته.. تلك القمة التي يحن الكل للوصول إليها.. ولكن الحجب تحول بينهم وبينها..

في ذلك اليوم خطر لي أن أسير إليها..

وكنت أردد أثناء سيري قصيدة ابن سينا في النفس، والتي يقول فيها:

هبطت إليك من المحل	ورقاء ذات تعزز وتمنع
محجوبة عن كل مقلة	وهي التي سفرت ولم
وصلت على كره إليك	كرهت فراقك فهي
أنفت وما أنست فلما	ألفت مجاورة الخراب
وأظنها نسيت عهوداً	ومنازلاً بفراقها لم تقنع
حتى إذا اتصلت بهاء	عن ميم مركزها بذات
علقت بها ثاء الثقيل	بين المعالم والطاول
تبكي وقد ذكرت عهوداً	بمدامع تهوى ولم
وتظل ساجعة على	درست بتكرار الرياح
إذ عاقها الشرك الكثيف	قفص عن الأوج
حتى إذا قرب المسير	ودنا الرحيل إلى
وغدت مفارقة لكل	عنها حليف البرق غير
سجعت وقد كشف الغطا	ما ليس يدرك بالعيون

---

[1] () نحب أن نشير هنا إلى أنا ذكرنا بعض المقامات المذكورة في هذا الفصل في رسالة (النبي الهادي)، فصل (المربي) عند بيان وظيفة التربية.. وسنذكرها هنا لغرض آخر، وبأسلوب آخر، وقد يتفق بعض ما ذكرنا هنا مع ما ذكرنا هناك، وليس ذلك من باب التكرار، ولكن لكل غرضه.

وغدت تغرد فوق ذروة | والعلم يرفع كل من
فلأي شيء أهبطت من | عالٍ إلى قعر الحضيض
إن كان أهبطها الإله | طويت على الفذ
وهبوطها إن كان ضربة | لتكون سامعة بما لم
وتعود عالمة بكل خفية | في العالمين فخرقها
وهي التي قطع الزمان | حتى لقد غربت بغير
فكأنها برق تألق بالحمى | ثم انطوى فكأنه لم
أنعم برد جواب ما أنا | عنه فنار العلم ذات

***

عندما اقتربت من الجبل رأيته مشكلا من سبع طبقات.. وقد كانت السدود الكثيرة تحول دون الانتقال من طبقة إلى طبقة.. وقد امتلأت حينها أسفا وألما.. فقد عرفت أن العجز سيحول بيني وبين تلك القمة الجميلة التي هفت إليها نفسي..

1 ـ الإخلاص

لكني ما إن قلت هذا، أو ما خطر هذا الخاطر على خاطري حتى رأيت شيخا كبيرا متربعا على سفح ذلك الجبل، وهو يقول لي: لا تيأس.. فكما أن الله جعل الأبواب المغلقة جعل المفاتيح الفاتحة.

قلت: وأنى لي أن أصل إلى مفاتيح الأبواب.. وأنا لست بوابا، ولا علاقة لي بالبوابين.

قال: في كل طبقة من الطبقات التي رأيت بوابا يعطيك من المفاتيح ما يمكنك أن تتجاوز به الطبقة التي ولي حراستها.

قلت: ما أسهل الأمر إذن.. بورك فيك.

قلت ذلك، ثم سرت مهرولا، وقد استخفني الطرب، فاستوقفني، وقال: مهلا.. كيف تريد أن تقطع الطبقة الأولى من

غير أن تحمل معك مفاتيحها؟

قلت: لقد نسيت.. أين أجد مفاتيح هذه الطبقة؟

قال: هي عندي..

قاطعته قائلا: هيا افتح لي إذن.. أو سلمني المفاتيح لأفتحها بنفسي.

ابتسم، وقال: أهكذا.. بهذه السهولة؟

قلت: فأنت تريد أن تعيقني عن السير إذن؟

قال: معاذ الله.. أنا أريد أن أنبهك إلى أن القمة الجميلة تحتاج نفوسا جميلة.. نفوسا في منتهى الرقة والسمو والكمال، فلا يمكن للحقير أن يطمع في الجميلة، ولا يمكن للوضيع أن يصل إلى الرفيعة.

قلت: فأنت تطلب مالا إذن؟

قال: لا يمكن للمال أن يحقق شيئا.

قلت: فما تطلب إن كنت لا تطلب مالا؟

قال: أنا أطلب الإخلاص.. فمفتاح الطبقة الأولى هو الإخلاص.. ولا يمكن لمن فقد هذه الجوهرة النفيسة أن يطأ درجة واحدة من درجات هذا الجبل الرفيع.

قلت: الإخلاص لمن؟

قال: هذا الجبل النفيس.. وتلك القمة الرفيعة.. لم يكتسبا نفاستهما ولا رفعتهما إلا لكونهما منتسبين لله.. فلذلك لا يرتفع إلى مقامات هذا الجبل الرفيع إلا من طلق كل نسبة إلا نسبته لربه.. فلا يحظى بالانتساب لله من حجب بهواه.

قلت: فهذا طور سيناء إذن.. ذلك الذي تجلى الرب فيه لموسى، كما قال تعالى :﴿ فَلَمَّا تَجَلَّى رَبُّهُ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُ دَكًّا وَخَرَّ مُوسَى صَعِقًا فَلَمَّا أَفَاقَ قَالَ سُبْحَانَكَ تُبْتُ إِلَيْكَ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُؤْمِنِينَ

(143) (الأعراف)

أو هو الجبل الذي رفعه الله على رؤوس بني إسـرائيل.. كمـا قال تعالى : وَإِذْ نَتَقْنَا الْجَبَلَ فَوْقَهُمْ كَأَنَّهُ ظُلَّةٌ وَظَنُّوا أَنَّهُ وَاقِعٌ بِهِمْ خُـذُوا مَـا آتَيْنَـاكُمْ بِقُـوَّةٍ وَاذْكُـرُوا مَـا فِيـهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُـونَ (171) (الأعراف)

أو هو الجبل الذي أحبه رسول الله ، فقال:(أحد جبل يحبنـا ونحبه)[1]

قال: بل هذا الجبل هو جبل الإنسان الذي تسامى عن أوحـال الطين، وأدران المسـتنقعات، وراح يرفـع قامتـه السـامقة نحـو السماء.. تلك التي ولد فيها..

قلت: فهذا جبل السوبرمان إذن؟

قال: أجل.. فلا يمكن للإنسان أن يصـير كـاملا دون أن يقطـع طبقات هذا الجبل جميعا.

قلت: فهذا الجبل يكشف سرا من أسرار الإنسان التي أبحث عنها.

قـال: أجـل.. هـذا الجبـل يكشـف سـر التسـامي.. فلا يمكن للإنسان أن يصير إنسانا مـا لم يفكـر في التسـامي، ومـا لم يسـر ليتسامى.

قلت: فمن أنت من أهل الله؟.. فأنـا أعلم أن أسـرار مفـاتيح الإنسان لا يملكهـا إلا أهـل اللـه.. أولئـك الـذين جعلهم اللـه عيونـا للفيوضات والبركات.

قال: أنا كل الأولياء.. فلا يمكن للـولي أن يصـير وليـا دون أن يقطع الأهواء، ويترفع إلى الأجواء.

قلت: فما اسمك من بينهم؟

قال: أنا سمي ذلك النبي الذي ذكره الله، فقال : وَاذْكُرْ فِي

1() رواه البخاري، ومسلم.

الْكِتَابِ مُوسَى إِنَّهُ كَانَ مُخْلَصًا وَكَانَ رَسُولًا نَبِيًّا (51) (مريم)

قلت: مرحبا بموسى.. لقد كانت حياته كلها رمزا للإخلاص لله.

قال: وهكذا كل الأنبياء والأولياء.. فالحياة التي يلفها الزور حياة متثاقلة للطين، مستسلمة للرغبة، مدفونة في الأنا.

قلت: فالإخلاص هو السكين التي تقطع حبال الأنا التي تشدها إلى السفل؟

قال: أجل.. فلا يمكن للمقيد بقيود أهوائه أن يحلق مع العارفين في سموات الأنس.

قلت: فعلمني من أسرار الإخلاص ما أقطع به هذه الحبال التي تشدني إلى السفل، وتمنعني من التحليق.

قال: أي إخلاص تريد؟

قلت: أليس الإخلاص واحدا؟

قال: الإخلاص عند المخلصين إخراج الخلق من معاملة الحق، وأول الخلق النفس.. والإخلاص عند المحبين أن لا يعملوا عملاً لأجل النفس، وإلا دخل عليها مطالعة العوض، أو الميل إلى حظ النفس.. والإخلاص عند الموحدين خروج الخلق من النظر إليهم في الأفعال وعدم السكون والإستراحة إليهم في الأحوال.

قلت: حدثني عن الإخلاص الذي نص عليه قوله تعالى: قُلْ أَتُحَاجُّونَنَا فِي اللَّهِ وَهُوَ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ وَلَنَا أَعْمالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُخْلِصُونَ (139) (البقرة)، وقوله: قُلْ أَمَرَ رَبِّي بِالْقِسْطِ وَأَقِيمُوا وُجُوهَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ كَما بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ (29) (الأعراف)، وقوله: إِنَّا أَنْزَلْنا إِلَيْكَ الْكِتابَ بِالْحَقِّ فَاعْبُدِ اللَّهَ مُخْلِصاً لَهُ الدِّينَ (2) أَلا لِلَّهِ الدِّينُ الْخالِصُ وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِياءَ ما نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونا إِلَى اللَّهِ زُلْفى إِنَّ اللَّهَ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فِي ما هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ إِنَّ اللَّهَ لا يَهْدِي مَنْ هُوَ كاذِبٌ كَفَّارٌ (3) (الزمر)، وقوله: قُلْ إِنِّي أُمِرْتُ

أَنْ أَعْبُدَ اللَّهَ مُخْلِصاً لَهُ الدِّينَ (11) وَأُمِرْتُ لِأَنْ أَكُونَ أَوَّلَ الْمُسْلِمِينَ (12) (الزمر)، وقوله: قُلِ اللَّهَ أَعْبُدُ مُخْلِصاً لَهُ دِينِي (14) فَاعْبُدُوا ما شِئْتُمْ مِنْ دُونِهِ قُلْ إِنَّ الْخاسِرِينَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ الْقِيامَةِ أَلا ذلِكَ هُوَ الْخُسْرانُ الْمُبِينُ (15) (الزمر)، وقوله: هُوَ الَّذِي يُرِيكُمْ آياتِهِ وَيُنَزِّلُ لَكُمْ مِنَ السَّماءِ رِزْقاً وَما يَتَذَكَّرُ إِلَّا مَنْ يُنِيبُ (13) فَادْعُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ وَلَوْ كَرِهَ الْكافِرُونَ (14) (غافر)، وقوله: هُوَ الْحَيُّ لا إِلهَ إِلَّا هُوَ فَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعالَمِينَ (65) (غافر)، وقوله: وَما تَفَرَّقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتابَ إِلَّا مِنْ بَعْدِ ما جاءَتْهُمُ الْبَيِّنَةُ (4) وَما أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفاءَ وَيُقِيمُوا الصَّلاةَ وَيُؤْتُوا الزَّكاةَ وَذلِكَ دِينُ الْقَيِّمَةِ (5) (البينة)، وقوله: إِنَّ الْمُنافِقِينَ فِي الدَّرْكِ الْأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ وَلَنْ تَجِدَ لَهُمْ نَصِيراً (145) إِلَّا الَّذِينَ تابُوا وَأَصْلَحُوا وَاعْتَصَمُوا بِاللَّهِ وَأَخْلَصُوا دِينَهُمْ لِلَّهِ فَأُولئِكَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ وَسَوْفَ يُؤْتِ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ أَجْراً عَظِيماً (146) (النساء)

قال: إن هذه الآيات الكريمة التي قرأتها تقصد جميع أنواع الإخلاص.. إخلاص المخلصين، وإخلاص المحبين، وإخلاص الموحدين.

قلت: فحدثني عن الإخلاص الذي ذكره رسول الله ، فقال: (ثلاث لا يغلّ[1] عليهنّ قلب امريء مسلم: إخلاص العمل للّه، والنّصح لأئمّة المسلمين ولزوم جماعتهم)[2]، وقال: (ما قال عبد لا إله إلّا اللّه قطّ مخلصا، إلّا فتحت له أبواب السّماء حتّى تفضي إلى العرش ما اجتنب الكبائر)[3]

قال: رسول الله يقصد ذلك جميعا.

قلت: كيف ذلك؟

---

[1] لا يغلّ: لا يغلّ عليه قلب مؤمن أي لا يكون معها في قلبه غش وزغل ونفاق ولكن يكون معها الإخلاص في ذات اللّه- عز وجل- وهو في الإغلال بمعنى الخيانة ويروى يغلّ من الغلّ وهو الحقد.

[2] رواه أحمد والبزار وابن ماجة.

[3] رواه الترمذي وحسنه.

قـال: إن كـل مقـام من مقامـات الـدين منـازل مختلفـة.. والإخلاص كذلك.

قلت: لم أفهم ما تعني؟

قال: لقد ذكر الله في كتابه الكريم مراتب الناس.

قلت: أجل.. وذلك في مواضع من القرآن الكريم، قال تعـالى : ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِنَفْسِـهِ وَمِنْهُمْ مُقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ بِـإِذْنِ اللَّهِ ذَلِـكَ هُـوَ الْفَضْـلُ الْكَبِيرُ (32) (فاطر)

قال: فكل هؤلاء ورثوا الكتاب؟

قلت: أجل.

قال: فهل ورثوه بدرجة واحدة؟

قلت: لا.. إن الفروق بينهم كما بين السماء والأرض.

قال: فأنبئني عن الصلاة.. هل صلاة جميع الناس متشابهة؟

قلت: هي متشابهة في الشكل.. ولكنها مختلفة في الحقيقــة وفي التـأثير وفي الأجـر الـذي ينـال صـاحبها، وفي الدرجـة الـتي يترقى إليها.

قال: وهكذا الإخلاص.. فهو في معناه العام واحد.. ولكنـه في حقيقته العميقة مختلف.

قلت: فحدثني عن معناه العام..

قال[1]: اعلم أن كل شيء يتصور أن يشوبه غيره، فإذا صــفا عن شـوبه وخلص عنـه سـمي خالصـاً، ويسـمى الفعـل المصـفى المخلص: إخلاصاً، كما قال تعالى : مِنْ بَيْنِ فَرْثٍ وَدَمٍ لَبَنًا خَالِصًـا سَائِغًا لِلشَّارِبِينَ (66) (النحـل)، فخلـوص اللبن أن لا يكـون فيـه

[1] استفدنا المعـاني الـواردة هنـا في حقيقـة الإخلاص وغيرهـا من (كتـاب النيـة والإخلاص والصدق)، وهو الكتاب السابع من ربع المنجيات من كتاب إحياء علوم الدين بالتصـرف الـذي ألفناه في هذه السلسلة.

شوب من الدم والفرث ومن كل ما يمكن أن يمتزج به.

وهكـذا الإخلاص فـإن فرثـه ودمـه هـو الإشـراك، فمن ليس مخلصاً فهو مشرك..

وبما أن الشرك منه خفي ومنه جلي، فهكذا الإخلاص، فمنـه خفي وجلي.. فمهما كان باعثه في جميـع الأمـور هـو التقـرب إلى الله تعالى، ولكن انضـاف إليـه خطـرة من الخطـرات، حـتى صـار العمل أخف عليه بسببها، فقد خرج عمله عن حـد الإخلاص وخـرج عن أن يكون خالصاً لوجه الله تعـالى وتطـرق إليـه الشـرك، وقـد قال تعالى في الحديث القدسي: (أنا أغنى الشّـركاء عن الشّـرك، من عمل عملا أشرك فيه معي غيري تركته وشركه)([1])

وقـال : (تضـمّن اللّـه لمن خـرج في سـبيله. لا يخرجـه إلّا جهادا في سبيلي، وإيمانا بي، وتصديقا برسـلي- فهـو عليّ ضـامن أن أدخله الجنّة، أو أرجعه إلى مسكنه الّذي خرج منه نائلا مـا نـال من أجر أو غنيمة)([2])

وقال: (تكفّل اللّه لمن جاهد في سـبيله لا يخرجـه إلّا الجهـاد في سبيله وتصديق كلماته بأن يدخله الجنّة أو يرجعـه إلى مسـكنه الّذي خرج منه مع ما نال من أجر أو غنيمة)([3])

وجاء رجل إلى النّبيّ فقال: أرأيت رجلا غـزا يلتمس الأجـر والذّكر، ما لـه؟ فقـال رسـول اللّـه : (لا شـيء لـه)، فأعـاد ثلاث مرّات يقول له رسول اللّه : (لا شـيء لـه)، ثمّ قـال: (إنّ اللّـه لا يقبل من العمل إلّا ما كان له خالصا وابتغي به وجهه)([4])

وقال في شأن الصلاة: (صلاة الرّجـل في جماعـة تزيـد على صلاته في بيته وصلاته في سوقه بضعا وعشرين درجـة، وذلـك أنّ

---

[1]() رواه مسلم.

[2]() رواه البخاري ومسلم.

[3]() رواه البخاري ومسلم.

[4]() رواه النسائي والبيهقي.

أحـدهم إذا توضّـأ فأحسـن الوضـوء ثمّ أتى المسـجد لا ينهـزه إلّا الصّلاة لا يريد إلّا الصّلاة، فلم يخـط خطـوة إلّا رفـع لـه بهـا درجـة وحطّ عنه بها خطيئة حتّى يدخل المسجد، فإذا دخل المسجد كـان في الصّلاة ما كـانت الصّـلاة هي تحبسـه، والملائكـة يصـلّون على أحدكم مادام في مجلسه الّذي صلّى فيـه، يقولـون: اللّهم ارحمـه، اللّهم اغفر له، اللّهم تب عليه، ما لم يؤذ فيه، مـا لم يحـدث فيـه) (1)

وهكذا في كل الأعمال.. فكل حظ من حظوظ الدنيا تسـتريح إليه النفس ويميل إليه القلب - قل أم كثر - إذا تطرق إلى العمـل تكدر به صفوه وزال به إخلاصه.

وبما أن الإنسـان مرتبـط في حظوظـه منغمس في شـهواته فإنه قلما ينفك فعـل من أفعالـه وعبـادة من عباداتـه عن حظـوظ وأغراض عاجلة من هذه الأجناس، ولذلك قيـل: (من سـلم لـه من عمره لحظة واحد خالصـة لوجـه اللـه نجـا)، وذلـك لعـزة الإخلاص وعسر تنقية القلب عن هذه الشوائب.

قلت: فقد رجع أمر الإخلاص إلى النية الباعثة على العمل؟

قال: أجل.. وإلى ذلك الإشارة بقوله ﷺ: (إنّما الأعمال بالنّيّـة، وإنّما لكلّ امريء مـا نـوى، فمن كـانت هجرتـه إلى اللّـه ورسـوله فهجرته إلى اللّه ورسوله، ومن كانت هجرته لدنيا يصيبها، أو امرأة يتزوّجها، فهجرته إلى ما هاجر إليه)(2)

قلت: فلا مناص لك إذن أن تحدثني عن حقيقة النية..

قال: النية هي حالـة أو صـفة للقلب يحيـط بهـا أمـران: علم، وعمل.. فالعلم يسبقها لأنه أصلها وشـرطها.. والعمـل يتبعهـا لأنـه ثمرتها وفرعها.

وذلــك لأن كــل عمــل اختيــاري لا يتم إلا بثلاثــة أمــور: علم، وإرادة، وقـدرة.. فلا يريـد الإنسـان مـا لا يعلمـه، ولا يعمـل مـا لم

(1) رواه البخاري ومسلم.

(2) رواه البخاري ومسلم.

يرد.. فوجبت الإرادة في كلا الأمرين.

قلت: فقد آل أمر النية إلى الإرادة.. فما هي؟

قال: الإرادة هي انبعاث القلب إلى ما يـراه موافقـاً للغـرض إما في الحال أو في المآل، فقد خلق الإنسان بحيث يوافقـه بعض الأمـور ويلائم غرضـه، ويخالفـه بعض الأمـور، فيحتـاج إلى جلب الملائم الموافـق إلى نفسـه ودفـع الضـار المنـافي عن نفسـه.. فافتقر لذلك إلى معرفة الشـيء المضـر والنـافع حـتى يجلب هـذا ويهرب من هـذا، فـإن من لا يبصـر الغـذاء ولا يعرفـه لا يمكنـه أن يتناوله.. ثم لو أبصر الغذاء وعرف أنـه موافـق لـه فلا يكفيـه ذلـك لنتناول ما لم يكن فيه ميل إليـه ورغبـة فيـه وشـهوة باعثـة عليـه، فخلق الله تعـالى لـه الميـل والرغبـة والإرادة.. ثم ذلـك لا يكفيـه، فخلقت له القدرة والأعضاء المتحركة حتى يتم به التناول.

قلت: فالقدرة – بحسب تحليلك هذا- خادمـة للإرادة، والإرادة تابعة لحكم الاعتقاد والمعرفة.

قال: أجل..

قلت: فالنيـة - إذن- هي تلـك الصـفة المتوسـطة الـتي هي الإرادة أو انبعاث النفس بحكم الرغبة والميل إلى ما وافق الغرض إما في الحال وإما في المآل.

قـال: أجـل.. فـالمحرك الأول هـو الغـرض المطلـوب وهـو الباعث، والغرض الباعث هو المقصد المنوي، والانبعاث هو القصد والنية، وانتهاض القدرة لخدمة الإرادة بتحريك الأعضاء هو العمل.

قلت: فما علاقة الإخلاص بكل هذا؟

قال: إن انتهاض القدرة للعمل قد يكـون ببـاعث واحـد، وقـد يكون بباعثين اجتمعا في فعل واحد.. وإذا كان بباعثين فقـد يكـون كل واحد بحيث لو انفرد لكان كافيـا لإنهـاض القـدرة.. وقـد يكـون كل واحد قاصراً عنه إلا بالاجتماع؟ وقـد يكـون أحـدهما كافيـاً لـولا الآخر لكن الآخر انتهض عاضداً له ومعاوناً.

قلت: إن حديثك هذا يحصر الأمر في أربعة أقسام؟

قال: أجل.. وبفهمك لها تفهم سر الإخلاص.

قلت: فما أولها؟

قال: **أولها** فهـو أن ينفـرد البـاعث الواحـد ويتجـرد، كمـا إذا هجم على الإنسان سبع فقام من موضعه، فلا غرض له إلا الهـرب من السبع.. ذلـك أنـه يعلم خطورتـه، فـانبعثت نفسـه إلى الهـرب ورغبت فيه، فانتهضـت القـدرة عاملـة بمقتضـى الانبعـاث.. وهـذه النية تسمى خالصة ويسمى العمل بموجبهـا إخلاصـاً بالإضـافة إلى الغرض الباعث.

قلت: وعيت هذا.. فما الثاني؟

قال: الثاني هو أن يجتمع باعثان كل واحد مسـتقل بالإنهـاض لـو انفـرد، ومثالـه من المحسـوس أن يتعـاون رجلان على حمـل شيء بمقدار من القوة كان كافيـاً في الحمـل لـو انفـرد.. ومثالـه فيما نحن فيه أن يسأله قريبه الفقير حاجة فيقضيها نـاظرا لفقـره وقرابته، وعلم أنه لولا فقره لكان يقضيها بمجرد القرابة، وأنه لولا قرابته لكان يقضيها بمجرد الفقر..

قلت: وعيت هذا.. فما الثالث؟

قال: الثالث هو أن لا يستقل كل واحد لو انفـرد.. ومثالـه في المحسوس أن يتعاون ضعيفان على حمل ما لا ينفرد أحدهما بـه.. ومثال ذلك الرجل يتصدق بين يدي الناس لغرض الثـواب ولغـرض الثنـاء، ويكـون بحيث لـو كـان منفـرداً لكـان لا يبعثـه مجـرد قصـد الثواب على العطاء، ولو كان الطالب فاسقاً لا ثـواب في التصـدق عليه لكان لا يبعثـه مجـرد الريـاء على العطـاء، ولـو اجتمعـا أورثـا بمجموعهما تحريك القلب.

قلت: وعيت هذا.. فما الرابع؟

قال: الرابع أن يكون أحد البـاعثين مسـتقلاً لـو انفـرد بنفسـه والثـاني لا يسـتقل.. ولكن لمـا انضـاف إليـه لم ينفـك عن تـأثير

بالإعانة والتسهيل.. ومثاله أن يكون للإنسان ورد في الصلاة وعادة في الصدقات، فاتفق أن حضر في وقتها جماعة من الناس، فصار الفعل أخف عليه بسبب مشاهدتهم، وعلم من نفسه أنه لو كان منفرداً خالياً لم يفتر عن عمله، وعلم أن عمله لو لم يكن طاعة لم يكن مجرد الرياء يحمله عليه، فهو شوب تطرق إلى النية.

قلت: فالباعث – بهذه القسمة- إما أن يكون رفيقاً أو شريكاً أو معيناً؟

قال أجل.

قلت: فما الإخلاص العالي من بينها؟

قال: هو الذي لا يلاحظ صاحبه غير مولاه، كما لا يلاحظ من خاف السبع إلا السبع.. لقد قال بعض الصالحين يشير إلى هذا: (لا يتحقق الإخلاص حتى يسقط من عين الناس، ويسقط الناس من عينه)، وقال آخر: (ما دام العبد يراقب الناس ويهابهم لا يتحقق إخلاصه أبداً)، وقال آخر: (لا تجتمع مراقبة الحق مع مراقبة الخلق أبداً، إذ محال أن تشهده وتشهد معه سواه)

وعلى هذا اتفق جميع أولياء الله.. فقد قال أحدهم: (الإخلاص فقد رؤية الإخلاص، فإن من شاهد في إخلاصه الإخلاص فقد احتاج إخلاصه إلى إخلاص)، وقال آخر: (الإخلاص أن يكون سكون العبد وحركاته لله تعالى خاصة)، وقيل له: أي شيء أشد على النفس؟ فقال: (الإخلاص إذ ليس لها فيه نصيب)، وقال آخر: (الإخلاص صدق النية مع الله تعالى)، وقال آخر: (الإخلاص في العمل هو أن لا يريد صاحبه عليه عوضاً في الدارين)، وقال آخر: (الإخلاص نسيان رؤية الخلق بدوام النظر إلى الخالق فقط)، وقال آخر: (الإخلاص هو إخراج الخلق عن معاملة الرب)، وقال آخر: (الإخلاص تصفية العمل من الكدورات)، وقال آخر: (ترك العمل من أجل الناس رياء، والعمل من أجل الناس شرك، والإخلاص بأن يعافيك الله منهما)

بل هذا ما وردت به النصوص المقدسة، فالله تعالى يقول:

﴿ فَمَنْ كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا (110)﴾ (الكهف)

وفي الحديث أن رسول الله ﷺ قال: (إن أدنى الرياء شرك، وإن أحب العباد إلى الله ، عز وجل ، الأتقياء الأخفياء الذين إن غابوا لم يفتقدوا، وإن شهدوا لم يعرفوا، أولئك أئمة الهدى مصابيح العلم)[1]

قلت: فما تقول فيمن يعمل لأجل أن يظفر بالجنة، أو لأجل أن ينجو من النار.. هل يقدح ذلك في إخلاصه؟

قال: ذلك يقدح في إخلاص المقربين.. وهو لا يقدح في إخلاص أهل اليمين.. لقد عرفت أن لكل مقام أحكامه الخاصة به.

قلت: فكيف يقدح في إخلاص المقربين؟

قال: أرأيت لو أن شخصا تحبه وتقربه إليك قال لك يوما: أنا لا أحب الجلوس إليك، ولا المكث معك إلا لأجل ذلك الطعام الذي تطعمني إياه، أو لأجل أنك تستضيفني.. أو لأجل أن أستفيد منك شيئا.. هل ترى مثل هذا الشخص لائقا بالمحل الذي وضعته فيه؟

قلت: لا.. إن كلامه هذا يدل على لؤمه.. بل إنه بكلام هذا يدعوني إلى أن أبعده عني.

قال: فهذا ما لا حظه الصديقون.. فقد رأوا أن الذي يعمل لرجاء الجنة وخوف النار مخلص بالإضافة إلى الحظوظ العاجلة، وإلا فهو في طلب حظوظ آجلة.. والمطلوب الحق لذوي الألباب وجه الله تعالى فقط.

ولذلك يقول العارفون:(ليس خوفنا من نار جهنم ولا رجاؤنا للحور العين وإنما مطالبنا اللقاء ومهربنا من الحجاب فقط)

وقالوا:(من يعبد الله بعوض فهو لئيم كأن يعبده لطلب جنته أو لخوف ناره، بل العارف يعبده لذاته فلا يطلب إلا ذاته فقط، فأما الحور العين والفواكه فقد لا يشتهيها، وأما النار فقد لا يتقيها.

1() رواه أحمد بن منيع.

إذ نار الفراق إذا استولت ربما غلبت النار المحرقة للأجسام، فـإن نار الفراق نار الله الموقدة التي تطلع على الأفئـدة، ونـار جهنم لا شغل لها إلا مع الأجسام، وألم الأجسام يستحقر مع ألم الفؤاد)

وقالوا:

وفي فؤاد المحبِّ نار جوى   أحرّ نار الجحيم أبردُها

وقيـل لرابعـة العدويـة:(كيـف رغبتـك في الجنـة؟)، فقـالت: (الجار ثم الدار)

وهي في هذا تردد ما رددته امـرأة فرعـون من قبلهـا عنـدما قالت: رَبِّ ابْنِ لِي عِنْدَكَ بَيْتاً فِي الْجَنَّةِ (التحريم:11) فقـدمت الجار قبل الدار.

قلت: أيمكن هذا.. أيمكن أن يصل الإخلاص بصاحبه إلى هـذه الدرجة؟

قـال: إنمـا يصـل إلى هـذه الدرجـة المحبـون الـذي شـغلهم محبوبهم عن كل شغل.. إن حال هؤلاء كحـال العاشـق المسـتهتر بمعشوقه المستوفي همه بالنظر إلى وجهه والفكر فيه، فإنــه في حال الاستغراق غافل عن نفسه لا يحس بمـا يصـيبه في بدنـه، لم يبق في قلبه متسع لغير محبوبه حتى يلتفت إليه لا نفسـه ولا غـير نفسه.

لقد أشار الله تعالى إلى هـذا عنـدما ذكـر النسـوة في قصـة يوسف، فقال : فَلَمَّا سَمِعَتْ بِمَكْرِهِنَّ أَرْسَلَتْ إِلَيْهِنَّ وَأَعْتَدَتْ لَهُنَّ مُتَّكَأً وَآتَتْ كُلَّ وَاحِدَةٍ مِنْهُنَّ سِكِّينًا وَقَالَتِ اخْـرُجْ عَلَيْهِنَّ فَلَمَّا رَأَيْنَـهُ أَكْبَرْنَهُ وَقَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ وَقُلْنَ حَاشَ لِلَّهِ مَا هَذَا بَشَرًا إِنْ هَذَا إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ (31) (يوسف)

قلت: وعيت هذا.. وبورك لأولياء الله مـا فتح اللـه عليهم من معرفته ومحبته.. فحدثنا عني وعن الظالمين لأنفسهم من أمثالي.

قال: ما تريد أن أحدثك؟

قلت: حدثني عن **العمل الذي شـيب ببعض الحظـوظ**..

هل أنال عليه ثوابا، أم أنال عليه عقابا، أم أني لا أنال عليه شيئا؟

قال: لقد اختلف العلماء في ذلك اختلافا شديدا بناء على ما فهموه من النصوص المقدسة..

قلت: فما ترى من الترجيح بينهم في هذا الخلاف؟

قال: هو ما نص عليه قوله تعالى : فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ (7) وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ (8) (الزلزلة)، وقوله تعالى : إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ وَإِنْ تَكُ حَسَنَةً يُضَاعِفْهَا وَيُؤْتِ مِنْ لَدُنْهُ أَجْرًا عَظِيمًا (40) (النساء)

قلت: فكيف تطبق الموازين التي نصت عليها هذه الآيات على ما نحن فيه؟

قال: أرى أنه ينظر إلى قدر قوة الباعث.. فإن كان الباعث الديني مساوياً للباعث النفسي تقاوماً وتساقطا، وصار العمل لا له ولا عليه، وإن كان باعث الرياء أغلب وأقوى فهو ليس بنافع، وهو مع ذلك مضر ومفض للعقاب.. نعم العقاب الذي فيه من عقاب العمل الذي تجرد للرياء ولم يمتزج به شائبة التقرب.. وإن كان قصد التقرب أغلب بالإضافة إلى الباعث الآخر فله ثواب بقدر ما فضل من قوة الباعث الديني.

قلت: فهل لك مرجع في هذا غير ما ذكرت من الآيات؟

قال: أجل.. تعالى : وَأَقِمِ الصَّلَاةَ طَرَفَيِ النَّهَارِ وَزُلَفًا مِنَ اللَّيْلِ إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ ذَلِكَ ذِكْرَى لِلذَّاكِرِينَ (114) (هود)، وقوله : (إن الله قسم بينكم أخلاقكم كما قسم بينكم أرزاقكم، وإن الله يعطي الدنيا من يحب ومن لا يحب، ولا يعطي الدين إلا من أحب. فمن أعطاه الله الدين فقد أحبه، والذي نفسي بيده، لا يسلم عبد حتى يسلم قلبه ولسانه، ولا يؤمن حتى يأمن جاره بوائقه)، قيل: وما بوائقه يا نبي الله؟ قال: (غشه وظلمه، ولا يكسِبُ عبد مالا حراما فينفق منه فيبارك له فيه، ولا يتصدق فيقبل منه، ولا يتركه خلف ظهره إلا كان زادَه إلى النار، إن الله لا يمحو السيئ بالسيئ، ولكنه يمحو السيئ بالحسن، إن

الخبيث لا يمحو الخبيث)[1]

قلت: تقصد من الحديث قوله :(إن الله لا يمحو السيئ بالسيئ، ولكنه يمحو السيئ بالحسن)؟

قال: أجل..

قلت: فما فيه من العلم المرتبط بهذا؟

قال: لاشك أنك تعلم أن للأعمال تأثيرها في القلوب بتأكيد صفاتها.. فداعية الرياء من المهلكات، وإنما غذاء هذا المهلك وقوته العمل على وفقه.. وداعية الخير من المنجيات، وإنما قوتها بالعمل على وفقها.. فإذا اجتمعت الصفتان في القلب فهما متضادتان، فإذا عمل على وفق مقتضى الرياء فقد قوي تلك الصفة، وإذا كان العمل على وفق مقتضى التقرب فقد قوي أيضاً تلك الصفة، وأحدهما مهلك والآخر منج، فإن كان تقوية هذا بقدر تقوية الآخر فقد تقاوما، فكان كالمستضر بالحرارة إذا تناول ما يضره ثم تناول من المبردات ما يقاوم قدر قوته، فيكون بعد تناولهما كأنه لم يتناولهما..

وإن كان أحدهما غالباً لم يخل الغالب عن أثر، فكما لا يضيع مثقال ذرة من الطعام والشراب والأدوية ولا ينفك عن أثر في الجسد بحكم سنة الله تعالى، فكذلك لا يضيع مثقال ذرة من الخير والشر ولا ينفك عن تأثير في إنارة القلب أو تسويده وفي تقريبه من الله أو إبعاده.. فإذا جاء بما يقربه شبراً مع ما يبعده شبراً فقد عاد إلى ما كان فلم يكن له ولا عليه، وإن كان الفعل مما يقربه شبرين والآخر يبعده شبراً واحداً فضل له لا محالة شبر، وقد قال النبي : (أتبع السيئة الحسنة تمحها)[2]، فإذا كان الرياء المحض يمحوه الإخلاص المحض عقيبه، فإذا اجتمعا جميعاً فلا بد وأن يتدافعا بالضرورة.

قلت: فما تقول فيما في ورد في النصوص المقدسة من أن

[1] () رواه أحمد.

[2] () رواه أحمد، والترمذي وقال: حديث حسن صحيح، والدارمي، الحاكم وقال: حديث صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه.

شـوب الريـاء محبـط للثـواب، وفي معنـاه شـوب طلب الغنيمـة والتجارة وسائر الحظوظ.. ومن ذلك مـا روي أن رجلاً قـال للنـبي : يا رسول الله، إني أقف المواقف أريد وجه الله، وأحب أن يرى موطني، فلم يرد عليه رسـول اللـه حـتى نـزلت هـذه الآيـة:.. فَمَنْ كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَـادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا (110) (الكهف)[1]

وفي حديث آخر قال : (يقـول اللـه يـوم القيامـة: أنـا خـير شريك، من أشرك بي أحدًا فهو له كله)[2]

وقال فيما يرويه عن ربه، عز وجل: (أنـا خـير الشـركاء، فمن عمل عملا أشرك فيه غيري، فأنا منه برئ، وهو للذي أشرك)[3]

قال: إن هذه الأحاديث لا تنـاقض مـا ذكرتـه لـك، لأن المـراد منها أن صاحبها لم يرد بذلك إلا الدنيا، أو كان ذلك هو الأغلب على همه.. وقد ذكرت لك أن ذلك عصيان وعدوان.. لا لأن طلب الـدنيا حرام، ولكن طلبها بأعمال الدين حرام لما فيـه من الريـاء وتغيـير العبادة عن موضعها.

أما لفظ الشركة حيث ورد فمطلق للتساوي، وقد ذكرت لـك أنه إذا تساوى القصدان تقاوما ولم يكن له ولا عليـه، فلا ينبغي أن يرجى عليه ثواب، ثم إن الإنسان عند الشركة أبداً في خطـر فإنـه لا يدري أي الأمرين أغلب على قصده فربما يكون عليه بالاً ولذلك قال تعالى:.. فَمَنْ كَانَ يَرْجُـو لِقَـاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَـلْ عَمَلًا صَـالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا (110) (الكهف)، أي لا يـرجى اللقـاء مـع الشركة التي أحسن أحوالها التساقط.

قلت: وعيت هذا.. فحدثني عن **البواعث الصالحة، والـتي تجعلني من المخلصين**، فقد علمت أنه بقدر نيـة المـرء يكـون جزاؤه، وقد قال رسول اللـه في ذلـك: (إنّمـا الأعمـال بالنّيّـات،

1() رواه ابن أبي الدنيا في كتاب السنة والحاكم نحوه من رواية طاوس مرسلا.

2() رواه البزار.

3() رواه أحمد وابن خزيمة في صحيحه.

وإنّما لكلّ امرئ ما نـوى. فمن كـانت هجرتـه إلى دنيـا يصـيبها، أو إلى امرأة ينكحها، فهجرته إلى ما هاجر إليه)(1)

قال: أنت تعلم أن الأعمال مهمـا تنـوعت، فهي لا تعـدو - من حيث حكمها الشرعي - ثلاثة أقسام: معاص وطاعات ومباحات..

قاطعته قائلا: هل يمكن للنية أن تغير من المعصـية، فتحولهـا إلى طاعة.. فإن هناك من يغتاب ليؤنس جلساءه، أو يطعم فقـيراً من مال غيره، أو يبـني مدرسـة أو مسـجداً بمـال حـرام، وقصـده الخير من كل ذلك؟

قال: لا.. هذا كله جهل.. فالنية لا تـؤثر في إخـراج الظلم عن كونه ظلماً وعدواناً ومعصية.. بل إن من قصد الخير بالشــر - على خلاف مقتضى الشرع – يكون قـد ارتكب شـرا آخـر.. فـإن عرفـه فهـو معانـد للشـرع.. وإن جهلـه فهـو عـاص بجهلـه إذ طلب العلم فريضـة على كـل مسـلم، والخـيرات إنمـا يعـرف كونهـا خـيرات للشرع، فكيف يمكن أن يكون الشر خير؟ هيهات.

بل المـروج لـذلك على القلب خفي الشـهوة وبـاطن الهـوى، فإن القلب إذا كان مائلاً إلى طلب الجاه واسـتمالة قلـوب النـاس وسـائر حظـوظ النفس توسـل الشـيطان بـه إلى التلـبيس على الجاهل، ولذلك قال بعض الصالحين: (ما عصي الله تعالى بمعصية أعظم من الجهل!) قيل: هل تعرف شـيئاً أشـد من الجهـل؟ قـال: (نعم الجهل بالجهل)

قلت: لا بأس.. فحدثني عن النيات المرتبطة بالطاعات.

قال: هذا هو ميدان النيات الصالحة الأكـبر.. فبهـا تصـح، وبهـا تتضاعف.

قلت: كيف ذلك؟

قال: أما صحتها فإنه يكفي فيها أن ينوي بها عبادة الله تعالى لا غير، فإن نوى الرياء صارت معصية.

1() رواه البخاري ومسلم.

وأما تضاعف الفضل: فبكثرة النيات الحسنة، فإن الطاعة الواحدة يمكن أن ينوي بها خيرات كثيرة فيكون له بكل نية ثواب، إذ كل واحدة منها حسنة ثم تضاعف كل حسنة عشر أمثالها كما وردت بذلك النصوص المقدسة.

قلت: ما أجمل هذا.. فهلا ضربت لي عنه مثالا.

قال: للقعود في المسجد – مثلا، والذي هو طاعة كسائر الطاعات - نيات كثيرة يمكن أن ترفعه إلى فضائل أعمال المتقين، بل يمكن أن تبلغ به درجات المقربين:

فمن ذلك مثلا أن يعتقد أنه بيت الله، وأن داخله زائر الله، فيقصد به زيارة مولاه رجاء لما وعد به رسول الله حيث قال: (من قعد في المسجد فقد زار الله تعالى وحق على المزور أن يكرم زائره)(1)

ومن ذلك أن ينوي انتظار الصلاة بعد الصلاة فيكون من المرابطين الذين نص عليهم قوله تعالى : يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اصْبِرُوا وَصَابِرُوا وَرَابِطُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ (200) (آل عمران)، وذكرهم رسول الله ، فقال: (ألا أدلّكم على ما يمحو اللّه به الخطايا، ويرفع به الدّرجات؟ قالوا: بلى، يا رسول اللّه قال: إسباغ الوضوء على المكاره وكثرة الخطا إلى المساجد وانتظار الصّلاة بعد الصّلاة فذلكم الرّباط)(2)

ومن ذلك الترهب بكف السمع والبصر والأعضاء عن الحركات والترددات، فإن الاعتكاف نوع صوم، ونوع ترهب.

ومن ذلك عكوف الهم على الله ولزوم السر للفكر في الآخرة ودفع الشواغل الصارفة عنه بالاعتزال إلى المسجد.

ومن ذلك التجرد لذكر الله أو لاستماع ذكره وللتذكر به.

ومن ذلك أن يقصد إفادة العلم بأمر بمعروف ونهي عن

---

(1) رواه أبو نعيم.

(2) رواه مسلم.

منكر، إذ المسجد لا يخلو عمن يسيء في صلاته أو يتعاطى ما لا يحل له فيأمره بالمعروف ويرشده إلى الدين فيكون شريكاً معه في خيره الذي يعلم منه فتتضاعف خيراته.

ومن ذلك أن يستفيد أخاً في الله فإن ذلك غنيمة وذخيرة للدار الآخرة، والمسجد محل أهل الدين المحبين لله وفي الله.

ومن ذلك أن يترك الذنوب حياء من الله تعالى وحياء من أن يتعاطى في بيت الله ما يقتضي هتك الحرمة، وقد قال الحسن بن علي: (من أدمن الاختلاف إلى المسجد رزقه الله إحدى سبع خصال: أخاً مستفاداً في الله، أو رحمة مستنزلة، أو علماً مستظرفاً، أو كلمة تدل على هدى، أو تصرفه عن ردى، أو يترك الذنوب خشية أو حياء)

قلت: وعيت هذا.. فحدثني عن كيفية تأثير النيات في المباحات.

قال: ما من شيء من المباحات إلا ويحتمل نية أو نيات يصير بها من محاسن القربات وينال بها معالي الدرجات.

قلت: ما أجمل هذا وأعظمه.. فاضرب لي مثالا عنه يقربه لي..

قال: أليس التطيب من المباحات؟

قلت: أجل.. بل إن حبه فطره في النفوس.. وقد كان رسول الله يحبه.. ولم يرد أي نص بتحريمه.. ولكن ما الذي يمكن أن ينوي بالطيب وهو حظ من حظوظ النفس؟

قال: من تطيب وهو يقصد التنعم بلذات الدنيا، أو يقصد به إظهار التفاخر بكثرة المال ليحسده الأقران، أو يقصد به رياء الخلق ليقوم له الجاه في قلوبهم ويذكر بطيب الرائحة.. كل هذا يجعل التطيب معصية، فبذلك يكون أنتن من الجيفة في القيامة إلا القصد الأول وهو التلذذ والتنعم فإن ذلك ليس بمعصية إلا أنه يسأل عنه، ومن نوقش الحساب عذب، ومن أتى شيئاً من مباح الدنيا لم يعذب عليه في الآخرة ولكن ينقص من نعيم الآخرة له

بقدره.

قلت: حدثني عن النية الحسنة فيه.

قال: من ذلك مثلا أن ينوي به اتباع سنة رسول الله في التطيب، أو ينوي تعظيم المسجد واحترام بيت الله فلا يرى أن يدخله زائراً لله إلا طيب الرائحة، أو يقصد به ترويح جيرانه ليستريحوا في المسجد عند مجاورته بروائحه، أو يقصد به دفع الروائح الكريهة عن نفسه التي تؤدي إلى إيذاء مخالطيه، أو يقصد جسم باب الغيبة عن المغتابين إذا اغتابوه بالروائح الكريهة فيعصون الله بسببه، فمن تعرض للغيبة وهو قادر على الاحتراز منها فهو شريك في تلك المعصية.

قلت: ما أجمل هذا.. فهل يمكن تعميم هذا على سائر المباحات؟

قال: أجل..ولذلك قال بعض الصالحين: (إني أستحب أن يكون لي في كل شيء نية حتى في أكلي وشربي ونومي ودخولي إلى الخلاء)، وكل ذلك مما يمكن أن يقصد به التقرب إلى الله تعالى، لأن كل ما هو سبب لبقاء البدن وفراغ القلب من مهمات البدن فهو معين على الدين.

ورؤي بعضهم في المنام فقيل له: كيف وجدت أعمالك؟ فقال: (كل شيء عملته لله وجدته، حتى حبة رمان لفظتها من طريق، وحتى هرة ماتت لنا رأيتها في كفة الحسنات، وكان في قلنسوتي خيط من حرير فرأيته في كفة السيئات، وكان قد نفق حمار لي قيمته مائة دينار فما رأيت له ثواباً فقلت: موت سنور في كفة الحسنات وموت حمار ليس فيها؟ فقيل لي: إنه قد وجه حيث بعثت به، فإنه لما قيل لك: قد مات، قلت: في لعنة الله، فبطل أجرك فيه، ولو قلت: في سبيل الله، لوجدته في حسناتك. وفي رواية قال: وكنت قد تصدقت بصدقة بين الناس فأعجبني نظرهم إلي فوجدت ذلك لا علي ولا لي)

قلت: ما أجمل ما تذكره.. إن الإنسان بهذا يمكن أن يحول من حياته كلها إلى مضمار طاعة.

قال: أجل.. ولـذلك الإشـارة بقولـه تعـالى :﴿ قُـلْ إِنَّ صَـلَاتِي وَنُسُـكِي وَمَحْيَـايَ وَمَمَـاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَـالَمِينَ (162) لَا شَـرِيكَ لَـهُ وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ (163)﴾ (الأنعام)

قلت بيـني، وبين نفسـي: مـا أيسـر أمـر النيـة.. فمن اليـوم وصاعدا كلما أردت أن آكل أقول: نويت أن آكل لله.. وكلمـا أردت النوم، أقول: نويت أن أنام لله.. وهكذا.

ابتسم، وقال: لا.. ليس الأمر كما تتصور.

قلت: ما تقصد؟

قال: أرأيت لو أن جائعا قال: نـويت أن أشـبع.. أو أن شـبعانا قال: نويت أن أشتهي الطعام وأميـل إليـه.. هـل يمكن أن يتحقـق لهما ذلك بمجرد القول؟

قلت: لا.. لا يمكن لهما ذلك.

قال: فهكذا النية.. فليست هي مجرد حـديث نفس أو حـديث لسان أو فكر أو انتقال من خاطر إلى خاطر.

قلت: فما هي إذن؟

قال: النية ما ذكرت لـك من انبعـاث النفس وتوجههـا وميلهـا إلى ما ظهر لها أن فيه غرضها إما عـاجلاً وإمـا آجلاً.. وإنمـا تنبعث النفس إلى الفعل إجابة للغـرض البـاعث الموافـق للنفس الملائم لها، وما لم يعتقد الإنسان أن غرضه منـوط بفعـل من الأفعـال فلا يتوجه نحوه قصده.

وذلك مما لا يقدر على اعتقاده في كل حين، وإذا اعتقد فإنما يتوجه القلب إذا كان فارغاً غير مصروف عنـه شـاغل أقـوى منـه، وذلـك لا يمكن في كـل وقت، والـدواعي والصـوارف لهـا أسـباب كثيرة بها تجتمع، ويختلف ذلك بالأشخاص وبالأحوال وبالأعمال.

ولهذا امتنع جماعة من الصالحين من جملـة من الطاعـات إذ لم تحضرهم النية، وكانوا يقولون: ليس تحضـرنا فيـه نيـة.. ونـادى بعضهم امرأته وكان يسرح شعره أن هات المدري، فقـالت: أجيء

بالمرآة؟ فسكت ساعة، ثم قال: نعم، فقيل له في ذلك، فقال: كان لي في المدري نية ولم تحضرني في المرآة نية فتوقفت حتى هيأها الله تعالى.. وكان أحدهم إذا سئل عملاً من أعمال البر يقول: إن رزقني الله تعالى نية فعلت..

وكانوا لا يرون أن يعملوا عملاً إلا بنية لعلمهم بأن النية روح العمل وأن العمل بغير نية صادقة رياء وتكلف وهو سبب مقت لا سبب قرب، وعلموا أن النية ليست هي قول القائل بلسانه: نويت، بل هو انبعاث القلب يجري مجرى الفتوح من الله تعالى، فقد تتيسر في بعض الأوقات وقد تتعذر في بعضها.

***

ما وصل موسى من حديثه معي إلى هذا الموضع حتى رأيت سلما من نور لم أكن أراه من قبل، فقلت من غير أن أشعر: ما أجمل هذا السلم.. وما أبهاه.. وما أعظم نوره!

قال: هل رأيته؟

قلت: أجل.. فما أجمله من سلم!

قال: ما دمت قد رأيته، فقد فتح لك - إذن - باب هذه الطبقة.. وقد أذن لك في أن ترقى هذا السلم لتصل إلى الطبقة الأخرى من هذا الجبل المقدس.

2 ـ الصدق

اقتربت من السلم، ورقيت درجاته إلى أن وصلت إلى أرض ممتلئة بالجمال والنور والصفاء.. ما سرت فيها قليلا حتى وجدت رجلا طويلا قد كساه جلال ووقار، فسألته: من أنت؟

قال: أنا سمي ذلك الذي وصفه الله بأنه : كَانَ صَادِقَ الْوَعْدِ وَكَانَ رَسُولًا نَبِيًّا (54) وَكَانَ يَأْمُرُ أَهْلَهُ بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ وَكَانَ عِنْدَ رَبِّهِ مَرْضِيًّا (55) (مريم)

قلت: ذاك إسماعيل.

قال: فقد شرفني الله بأن أتسمى باسمه، وبأن أسير على قدمه في الطريق المقدسة لأهل الله.

قلت: فهل أنت من أصحاب المفاتيح؟

قال: أجل.. لدي المفتاح الذي تفتح به جميع منازل السالكين، والطريق الأقوم الذي من لم يسر عليه فهو من المنقطعين الهالكين، وبه تميز أهل النفاق من أهل الإيمان، وبه تميز سكان الجنان من أهل النيران.. وهو سيف الله في أرضه الذي ما وضع على شيء إلا قطعه، ولا واجه باطلا إلا أرداه وصرعه، من صال به لم ترد صولته، ومن نطق به علت على الخصوم كلمته، فهو روح الأعمال، ومحك الأحوال، والحامل على اقتحام الأهوال، والباب الذي دخل منه الواصلون إلى حضرة ذي الجلال، وهو أساس بناء الدين، وعمود فسطاط اليقين، ودرجته تالية لدرجة النبوة التي هي أرفع درجات العالمين، ومن مساكنهم في الجنات تجري العيون والأنهار إلى مساكن الصديقين كما كان من قلوبهم إلى قلوبهم في هذه الدار مدد متصل ومعين[1].

قلت: لاشك أن لديك مفتاح الصدق؟

قال: أجل.. إنه المقام الذي أمر الله أهل الإيمان أن يكونوا مع أهله، كما قال تعالى: يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ (119) (التوبة)

وأخبر الله تعالى أنه منزل المؤمنين الذي يؤون إليه في الدنيا، قال تعالى: الصَّابِرِينَ وَالصَّادِقِينَ وَالْقَانِتِينَ وَالْمُنْفِقِينَ وَالْمُسْتَغْفِرِينَ بِالْأَسْحَارِ (17) (آل عمران)، وقال : إِنَّ الْمُسْلِمِينَ وَالْمُسْلِمَاتِ وَالْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَالْقَانِتِينَ وَالْقَانِتَاتِ وَالصَّادِقِينَ وَالصَّادِقَاتِ وَالصَّابِرِينَ وَالصَّابِرَاتِ وَالْخَاشِعِينَ وَالْخَاشِعَاتِ وَالْمُتَصَدِّقِينَ وَالْمُتَصَدِّقَاتِ وَالصَّائِمِينَ وَالصَّائِمَاتِ وَالْحَافِظِينَ فُرُوجَهُمْ وَالْحَافِظَاتِ وَالذَّاكِرِينَ اللَّهَ كَثِيرًا وَالذَّاكِرَاتِ أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا (35) (الأحزاب)

---

[1] هذا الوصف لمنزلة الصدق مقتبس من كلام جميل لابن القيم في (مدارج السالكين)، وننبه إلى أن تناولنا هذا المقام في رسالة (النبي الهادي) بأسلوب مختلف، ولغرض مختلف.

وأخبر أنه منزلهم الذي يؤون إليه في الآخرة، قال تعالى: ﴿ قَالَ اللَّهُ هَذَا يَوْمُ يَنْفَعُ الصَّادِقِينَ صِدْقُهُمْ لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ (119)﴾ (المائدة)، وقال:﴿ لِيَجْزِيَ اللَّهُ الصَّادِقِينَ بِصِدْقِهِمْ وَيُعَذِّبَ الْمُنَافِقِينَ إِنْ شَاءَ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَحِيمًا (24)﴾ (الأحزاب)، وقال :﴿ إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَنَهَرٍ (54) فِي مَقْعَدِ صِدْقٍ عِنْدَ مَلِيكٍ مُقْتَدِرٍ (55)﴾ (القمر)

وأخبر ﷺ أن الصدق هو الباب الذي تفتح به أبواب البر، فقال: (إنّ الصّدق يهدي إلى البرّ، وإنّ البرّ يهدي إلى الجنّة، وإنّ الرّجل ليصدق حتّى يكون صدّيقا، وإنّ الكذب يهدي إلى الفجور، وإنّ الفجور يهدي إلى النّار، وإنّ الرّجل ليكذب حتّى يكتب عند اللّه كذّابا)[1]

قلت: فكيف كان الصدق هو الدليل الذي يهدي إلى البر؟

قال: لأن أصول البر التي ترجع إليها جميع أعمال البر من إيمان.. وإحسان.. وتقوى.. وتوكل.. وخوف.. ورجاء.. وإنابة.. وتسليم وغيرها ترجع إلى الصدق.. فكل عمل صالح ظاهر وباطن فمنشؤه الصدق.

وأضداد ذلك من أعمال القلوب المنهي عنها من الرياء.. والعجب.. والكبر.. والفخر.. والخيلاء.. والبطر.. والأشر.. والعجز.. والكسل.. والجبن، وغيرها كلها نوع من أنواع الكذب.

وبذلك فإن كل عمل فاسد ظاهر وباطن يرجع إلى الكذب ويؤول إليه.

قلت: لم كان الأمر كذلك؟

قال: لذلك أسباب عديدة، أولها، وهو أهمها أنه لا يسك سالك إلى الله إلا بتوفيق الله وإذنه.. والكاذب أهل للخذلان لا للتوفيق.. ولهذا أمر الله تعالى رسوله ﷺ، فقال:﴿ وَقُلْ رَبِّ أَدْخِلْنِي مُدْخَلَ صِدْقٍ وَأَخْرِجْنِي مُخْرَجَ صِدْقٍ وَاجْعَلْ لِي مِنْ لَدُنْكَ سُلْطَانًا نَصِيرًا (

[1] () رواه البخاري ومسلم.

80) (الإسراء)

قلت: فما الطريق إلى الصدق؟

قال: عندما تمتلئ محبة وشوقا لربك.. فإنك ستكون صادقا.. فلا يحق لكاذب أن يحظى بصحبة الله، وهو أصدق الصادقين.

قلت: أجل.. فقد وصف الله تعالى نفسه بالصدق في مواضع كثيرة من القرآن الكريم، قال تعالى: قُلْ صَدَقَ اللَّهُ فَـاتَّبِعُوا مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفاً وَمَا كَانَ مِنْ الْمُشْرِكِينَ(95) (آل عمران)، وقـال : اللَّهُ لا إِلَـهَ إِلا هُـوَ لَيَجْمَعَنَّكُمْ إِلَى يَـوْمِ الْقِيَامَـةِ لا رَيْبَ فِيـهِ وَمَنْ أَصْـدَقُ مِنْ اللَّهِ حَـدِيثاً (87) (النسـاء)، وقـال : وَالَّذِينَ آمَنُـوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَنُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِـدِينَ فِيهَا أَبَداً وَعْدَ اللَّهِ حَقّاً وَمَنْ أَصْدَقُ مِنْ اللَّهِ قِيلاً (122) (النساء)، وقال : وَأَتَيْنَاكَ بِالْحَقِّ وَإِنَّا لَصَادِقُونَ (64) (الحجر)، وقال : ثُمَّ صَـدَقْنَاهُمْ الْوَعْـدَ فَأَنجَيْنَـاهُمْ وَمَنْ نَشَـاءُ وَأَهْلَكْنَـا الْمُسْـرِفِينَ(9) (الأنبياء)

قال: ولهذا، فقد وصف الله أنبياء الكـرام، وهم أقـرب خلقـه إليه بالصدق، فقال: وَاذْكُرْ فِي الْكِتَـابِ إِبْـرَاهِيمَ إِنَّهُ كَـانَ صِـدِّيقاً نَبِيّاً (41) (مريم)، وقـال : فَلَمَّا اعْتَـزَلَهُمْ وَمَـا يَعْبُـدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَكُلّاً جَعَلْنَا نَبِيّـاً (49) وَوَهَبْنَـا لَهُمْ مِنْ رَحْمَتِنَـا وَجَعَلْنَـا لَهُمْ لِسَـانَ صِـدْقٍ عَلِيّـاً (50) (مـريم)، وقـال : وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِسْمَاعِيلَ إِنَّهُ كَانَ صَادِقَ الْوَعْـدِ وَكَـانَ رَسُـولًا نَبِيًّا (54) وَكَانَ يَأْمُرُ أَهْلَهُ بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ وَكَانَ عِنْـدَ رَبِّهِ مَرْضِـيًّا (55) وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِدْرِيسَ إِنَّهُ كَـانَ صِـدِّيقًا نَبِيًّا (56) وَرَفَعْنَـاهُ مَكَانًا عَلِيًّا (57) (مريم)

قلت: صدقت .. وقد ذكر اللـه تعـالى أن الصـدق من صـفات عباد الله المؤمنين المتقين، فلا يكتمل لهم الإيمـان ولا التقـوى إلا بتحقيق الصـدق، قـال تعـالى : الصَّـابِرِينَ وَالصَّـادِقِينَ وَالْقَـانِتِينَ وَالْمُنْفِقِينَ وَالْمُسْـتَغْفِرِينَ بِالأَسْـحَارِ (17) (آل عمـران)، وقـال: مِنَ الْمُـؤْمِنِينَ رِجَـالٌ صَـدَقُوا مَـا عَاهَـدُوا اللَّهَ عَلَيْـهِ فَمِنْهُمْ مَنْ قَضَى نَحْبَـهُ وَمِنْهُمْ مَنْ يَنْتَظِـرُ وَمَـا بَـدَّلُوا تَبْـدِيلًا (23) لِيَجْـزِيَ اللَّهُ

الصَّادِقِينَ بِصِدْقِهِمْ وَيُعَذِّبَ الْمُنَافِقِينَ إِنْ شَاءَ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَحِيمًا (24) (الأحزاب)، وقال : وَالَّذِي جَاءَ بِالصِّدْقِ وَصَدَّقَ بِهِ أُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ (33) لَهُمْ مَا يَشَاءُونَ عِنْدَ رَبِّهِمْ ذَلِكَ جَزَاءُ الْمُحْسِنِينَ (34) لِيُكَفِّرَ اللَّهُ عَنْهُمْ أَسْوَأَ الَّذِي عَمِلُوا وَيَجْزِيَهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ الَّذِي كَانُوا يَعْمَلُونَ (35) (الزمر)، وقال : إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُوْلَئِكَ هُمْ الصَّادِقُونَ (15) (الحجرات)، وقال : لِلْفُقَرَاءِ الْمُهَاجِرِينَ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيارِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلاً مِنْ اللَّهِ وَرِضْوَاناً وَيَنْصُرُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُوْلَئِكَ هُمْ الصَّادِقُونَ (8) (الحشر)

قال: فهل وعيت قيمة الصدق إذن؟

قلت: أجل.. ولكن كيف السبيل إليه؟

قال: من تعلم الإخلاص تعلم الصدق.. ومن جعل الإخلاص باعثه على كل عمل، جعل الصدق صاحبه فيه.

قلت: لم أفهم ما تعني.

قال: الصادق هو الذي يصحب الصدق في كل مقام من مقامات الدين، فيصدق في الإخلاص.. وفي الصبر.. وفي الورع .. و في الزهد.. و في التوكل .. وفي كل شيء.

قلت: ما تعني؟

قال: في أول تلمذتي على بعض الصالحين، قال لي: (اجعل الصدق مطيتك والحق سيفك والله تعالى غاية طلبتك) .. وقال لي: (وجدنا دين الله تعالى مبنيا على ثلاثة أركان: على الحق والصدق والعدل، فالحق على الجوارح، والعدل على القلوب، والصدق على العقول).. وقال لي: (أجمع الفقهاء والعلماء على ثلاث خصال أنها إذا صحت ففيها النجاة ولا يتم بعضها إلا ببعض: الإسلام الخالص عن البدعة والهوى، والصدق لله تعالى في الأعمال، وطيب المطعم) .. وقال لي: (إذا طلبت الله بالصدق آتاك الله تعالى مرآة بيدك حتى تبصر كل شىء من عجائب الدنيا

والآخرة) .. وقال لي: (احفظ الصدق فيما بينك وبين الله تعالى والرفق فيما بينك وبين الخلق)

قلت: وعيت كل هذا.. وكل ذلك مما دلت عليه النصوص المقدسة.. لكن ما معنى الصدق، وكيف أتحقق به؟

قال[1] : لن تكون صادقا حتى تكون صادقا في ستة معان: صدق في القول، وصدق في النية والإرادة، وصدق في العزم، وصدق في الوفاء بالعزم، وصدق في العمل، وصدق في تحقيق مقامات الدين كلها.

قلت: فحدثني عن الصدق الأول.. **صدق اللسان**.

قال: لهذا الصدق كمالان.

قلت: فما أولهما؟

قال: الاحتراز عن المعاريض، وذلك لأنها تقوم مقام الكذب، إذ المحذور من الكذب تفهيم الشيء على خلاف ما هو عليه في نفسه.. فمن اضطر إلى شيء من ذلك فصدقه فيه أن يكون نطقه فيه لله فيما يأمره الحق به ويقتضيه الدين، فإذا نطق به فهو صادق وإن كان كلامه مفهما غير ما هو عليه.

وفي مثل هذا الموضع ينبغي أن يعدل إلى المعاريض ما وجد إليه سبيلا، فقد كان رسول الله ﷺ إذا توجه إلى سفر ورى بغيره[2] ، وذلك كي لا ينتهى الخبر إلى الأعداء فيقصد.

وليس هذا من الكذب في شيء، فقد قال رسول الله ﷺ : (ليس بكذاب من أصلح بين اثنين فقال خيرا أو أنمى خيرا)[3]

وطريقه ما حكي عن بعضهم أنه كان يطلبه بعض الظلمة وهو في داره، فقال لزوجته. خطي بإصبعك دائرة، وضعى الإصبع

1() الكلام الوارد هنا مقتبس من إحياء علوم الدين، وغيره من كتب الأخلاق والسلوك.

2() رواه البخاري ومسلم.

3() رواه البخاري ومسلم.

على الدائرة، وقـولي ليس هـو هاهنـا. واحـترز بـذلك عن الكـذب، ودفع الظالم عن نفسه، فكان قوله صدقا، وأفهم الظالم أنه ليس في الدار.

قلت: وعيت الكمال الأول، وهو أن يحـترز عن صـريح اللفـظ وعن المعاريض أيضا إلا عند الضرورة .. فما الكمال الثاني؟

قال: الكمال الثاني أن يراعي معنى الصدق في ألفاظه الـتي ينـاجي بهـا ربـه، كقولـه: (وجهت وجهي للـذي فطـر السـموات والأرض)، فـإن قلبـه إن كـان منصـرفا عن اللـه تعـالى، مشـغولا بأمانى الدنيا وشهواتها. فهو كذب..

قلت: وعيت هذا.. فحـدثني عن الصـدق الثـاني.. حـدثني عن الصدق في النية والإرادة.

قال: الصدق في النية والإرادة يرجع إلى الإخلاص، وهـو أن لا يكون له باعث في الحركات والسكنات إلا الله تعالى، فإن ما زجه شوب من حظوظ النفس بطل صدق النية، وصاحبه يسمى كاذبا.. كما قال اللـه تعـالى عن المنـافقين: (وَ اللـه يَشْـهَدُ إِنَّ الْمُنـافِقِينَ لَكاذِبُونَ) وقد قالوا: (إِنَّكَ لَرَسُولُ اللَّهِ)، وهذا صدق، ولكن كذبهم لا من حيث نطق اللسان، بل من حيث ضمير القلب.

قلت: وعيت هذا.. فحدثني عن الصـدق الثـالث.. حـدثني عن الصدق في العزم.

قال: الصادق والصديق هو الذي تصادف عزيمته في الخيرات كلها قوة تامة، ليس فيها ميل ولا ضعف ولا تردد، بل تسخو نفسـه أبدا بالعزم المصمم الجازم على الخيرات.

قلت: وعيت هذا.. فحـدثني عن الصـدق الرابـع.. حـدثني عن الصدق في الوفاء بالعزم.

قـال: النفس قـد تسـخو بـالعزم في الحـال، إذ لا مشـقة في الوعد والعزم، والمؤنة فيـه خفيفـة، فـإذا حقت الحقـائق، وحصـل التمكن، وهاجت الشهوات انحلت العزيمة، وغلبت الشـهوات، ولم يتفق الوفـاء بـالعزم. وهـذا يضـاد الصـدق فيـه. ولـذلك قـال اللـه

تعالى: ﴿مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُمْ مَنْ قَضَى نَحْبَهُ وَمِنْهُمْ مَنْ يَنْتَظِرُ وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلًا ﴾ [الأحزاب: 23]

قلت: لقد ذكرتني في ذلك بما روى أنس أن عمه أنس بن النضر لم يشهد بدرا مع رسول الله ﷺ، فشق ذلك على قلبه وقال: أول مشهد شهده رسول الله ﷺ غبت عنه، أما والله لئن أرانى الله مشهدا مع رسول الله ﷺ ليرين الله ما أصنع. قال فشهد أحدا في العام القابل، فاستقبله سعد بن معاذ فقال: يا أبا عمرو إلى أين؟ فقال ولها لريح الجنة، إنى أجد ريحها دون أحد. فقاتل حتى قتل، فوجد في جسده بضع وثمانون، ما بين رمية، وضربة، وطعنة. فقالت أخته بنت النضر: ما عرفت أخي إلا بثيابه[1].

قال: وقد روي في ذلك عن رسول الله ﷺ قوله: (الشهداء أربعة: رجل مؤمن جيد الإيمان لقى العدو فصدق الله حتى قتل فذلك الذي يرفع الناس إليه أعينهم يوم القيامة هكذا ـ ورفع رأسه حتى وقعت قلنسوته ـ و رجل جيد الإيمان إذا لقي العدو فكأنما يضرب وجهه بشوك الطلح أتاه سهم عاثر فقتله فهو في الدرجة الثانية، ورجل مؤمن خلط عملا صالحا وآخر سيئا لقي العدو فصدق الله حتى قتل فذلك في الدرجة الثالثة، ورجل أسرف على نفسه لقي العدو فصدق الله حتى قتل فذاك في الدرجة الرابعة)[2]

قلت: وعيت هذا.. فحدثني عن الصدق الخامس.. حدثني عن الصدق في الأعمال.

قال: رب واقف على هيئة الخشوع في صلاته، ليس يقصد به مشاهدة غيره، ولكن قلبه غافل عن الصلاة، فمن ينظر إليه يراه قائما بين يدي الله تعالى، وهو بالباطن قائم في السوق بين يدي شهوة من شهواته.. فهذه أعمال تعرب بلسان الحال عن الباطن إعرابا هو فيه كاذب وهو مطالب بالصدق في الأعمال.

1() رواه الترمذي وقال حسن صحيح والنسائي في الكبرى وهو عند البخاري مختصرا.

2() رواه الترمذي.

ومثله من يمشى الرجل على هيئـة السـكون والوقـار، وليس باطنه موصوفا بذلك الوقار، فهـذا غـير صـادق في عملـه، وإن لم يكن ملتفتا إلى الخلق، ولا مرائيا إياهم.

قلت: إن هذا الصدق لعسير.

قال: أجل.. فلا ينجو من هذا إلا باسـتواء السـريرة والعلانيـة، بأن يكون باطنه مثل ظاهره أو خيرا من ظاهره..

قلت: لقد ذكرتني بقول بعض الشعراء في ذلك:

إذا السر والإعلان في ... فقد عز في الدارين

فإن خالف الإعلان سرا ... على سعيه فضل سوى

فما خالص الدينار في ... و مغشوشه المردود لا

قـال: ولهـذا عظم خـوف الصـالحين من اختلاف العلانيـة عن السر، وقد قال بعضهم، وهو يبكي: إلهى، عاملت الناس فيما بيني وبينهم بالأمانة وعاملتك فيما بيني وبينك بالخيانة.

قلت: وعيت هذا.. فحدثني عن الصدق السادس.. حدثني عن الصدق في مقامات الدين.

قال: الصـدق في مقامـات الـدين هـو أعلى درجـات الصـدق وأعزهــا، الصــدق في مقامــات الــدين، في الخــوف، والرجــاء، والتعظيم، والزهد، والرضا، والتوكـل، والحب، وسـائر هـذه الأمـور فإن هذه الأمور لها مبـاد ينطلـق الاسـم بظهورهـا، ثم لهـا غايـات وحقائق، والصادق المحقق من نال حقيقتها.

لقد أشار القرآن الكريم إلى ذلك في قوله: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُــونَ الَّذِينَ آمَنُــوا بِاللَّهِ وَرَسُــولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَــابُوا وَجَاهَــدُوا بِــأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُولَئِكَ هُمُ الصَّـادِقُونَ ﴾ [الحجـرات: 15]، وقولـه: ﴿لَيْسَ الْبِـرَّ أَنْ تُوَلُّوا وُجُـوهَكُمْ قِبَـلَ الْمَشْـرِقِ وَالْمَغْـرِبِ وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِـرِ وَالْمَلَائِكَـةِ وَالْكِتَـابِ وَالنَّبِيِّينَ وَآتَى الْمَــالَ عَلَى حُبِّهِ ذَوِي الْقُــرْبَى وَالْيَتَــامَى وَالْمَسَــاكِينَ وَابْنَ السَّــبِيلِ وَالسَّــائِلِينَ وَفِي الرِّقَــابِ وَأَقَــامَ الصَّــلَاةَ وَآتَى الزَّكَــاةَ

وَالْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ أُولَئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ [البقرة: 177]

***

بقيت مدة في صحبة إسماعيل يشرح لي كيفية مصاحبة الصدق لكل عمل أو مقام من مقامات الدين إلى أن رأيت سلما من نور لم أكن أراه من قبل، فقلت من غير أن أشعر: ما أجمل هذا السلم.. وما أبهاه.. وما أعظم نوره!

قال: هل رأيته؟

قلت: أجل.. فما أجمله من سلم!

قال: ما دمت قد رأيته، فقد فتح لك - إذن - باب هذه الطبقة.. وقد أذن لك في أن ترقى هذا السلم لتصل إلى الطبقة الأخرى من هذا الجبل المقدس.

3 ـ الصبر

اقتربت من السلم، ورقيت درجاته إلى أن وصلت إلى أرض ممتلئة بالجمال والنور والصفاء.. ما سرت فيها قليلا حتى وجدت رجلا ممتلئا نورا، فسألته: من أنت؟

قال: أنا سمي ذلك الذي جعله الله نموذجا للصبر العالي.

قلت: تقصد أيوب.. ذلك الذي ذكره الله، فقال : وَاذْكُرْ عَبْدَنَا أَيُّوبَ إِذْ نَادَى رَبَّهُ أَنِّي مَسَّنِيَ الشَّيْطَانُ بِنُصْبٍ وَعَذَابٍ (41) ارْكُضْ بِرِجْلِكَ هَذَا مُغْتَسَلٌ بَارِدٌ وَشَرَابٌ (42) وَوَهَبْنَا لَهُ أَهْلَهُ وَمِثْلَهُمْ مَعَهُمْ رَحْمَةً مِنَّا وَذِكْرَى لِأُولِي الْأَلْبَابِ (43) وَخُذْ بِيَدِكَ ضِغْثًا فَاضْرِبْ بِهِ وَلَا تَحْنَثْ إِنَّا وَجَدْنَاهُ صَابِرًا نِعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ (44) (ص)

قال: أجل.. وليس أيوب عليه السلام وحده في ذلك.. فكل الأنبياء والأولياء كانوا كذلك.. بل لا يكون النبي نبيا، ولا الولي وليا حتى يكون صابرا.

قلت: من أين لك هذه الدعوى؟

قال: لقد قال تعالى مبينا ذلك: ﴿وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ ﴾ [السجدة: 24]، فقد أخبر الله تعالى أن استحقاقهم للإمامة كان بسبب صبرهم ويقينهم.. ولا يكون يقين إلا بصبر.. ولا صبر إلا بيقين.

قلت: أراك تعطي الصبر قيمة كبيرة.

قال: لست أنا من يفعل ذلك.. فالله رب الإنسان، والعليم بأسراره هو الذي أخبرنا أنه لا يمكن للإنسان أن يرقى في مراتب الكمال، ولا أن ينال حظه من السعادة والقرب إلا بالصبر.. ألم تقرأ قوله تعالى: ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ الْحُسْنَى عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ بِمَا صَبَرُوا ﴾ [الأعراف: 137]، وقوله: ﴿ إِنِّي جَزَيْتُهُمُ الْيَوْمَ بِمَا صَبَرُوا أَنَّهُمْ هُمُ الْفَائِزُونَ﴾ [المؤمنون: 111]، وقوله: ﴿ولَئِكَ يُجْزَوْنَ الْغُرْفَةَ بِمَا صَبَرُوا وَيُلَقَّوْنَ فِيهَا تَحِيَّةً وَسَلَامًا (75) خَالِدِينَ فِيهَا حَسُنَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا﴾ [الفرقان: 75، 76]، وقوله: ﴿أُولَئِكَ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُمْ مَرَّتَيْنِ بِمَا صَبَرُوا وَيَدْرَءُونَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ﴾ [القصص: 54]، وقوله: ﴿وَجَزَاهُمْ بِمَا صَبَرُوا جَنَّةً وَحَرِيرًا ﴾ [الإنسان: 12]

قلت: بورك فيك.. وقد أشار رسول الله ﷺ إلى ذلك في أحاديث كثيرة.. كقوله: (الصّبر نصف الإيمان)[1] وقوله: (لو كان الصّبر رجلا لكان كريما واللّه يحبّ الصّابرين)[2]

وقد روي أنّ ناسا من الأنصار سألوا رسول الله ﷺ فأعطاهم، ثمّ سألوه فأعطاهم. حتّى إذا نفد ما عنده قال: (ما يكن عندي من خير فلن أدّخره عنكم. ومن يستعفف يعفّه الله، ومن يستغن يغنه الله. ومن يصبر يصبّره الله وما أعطي أحد من عطاء خير وأوسع من الصّبر)[3]

---

[1] رواه أبو نعيم والخطيب.

[2] رواه الترمذي.

[3] رواه البخاري ومسلم.

قال: وقد روي عن أمير المؤمنين الإمام عليّ قوله: (بنى الإيمان على أربع دعائم اليقين، والصبر، والجهاد، والعدل)، وقال: (الصبر من الإيمان بمنزلة الرأس من الجسد ولا جسد لمن لا رأس له، ولا إيمان لمن لا صبر له)

قلت: وعيت هذا.. لكن ما سر كون الصبر بهذه الدرجة من الأهمية.

قال: لتفهم ذلك تحتاج أن تعرف حقيقة الصبر..

قلت: فما حقيقة الصبر؟

قال: لن تعرف حقيقة الصبر حتى تعرف كيفية الترتيب بين الملائكة، والإنس، والبهائم، فإن الصبر خاصية الإنس. ولا يتصور في البهائم ولا الملائكة؟

قلت: فاشرح لي ذلك..

قال: البهائم سلطت عليها الشهوات، وصارت مسخرة لها، فلا باعث لها على الحركة والسكون إلا الشهوة، وليس فيها قوة تصادم الشهوة وتردها عن مقتضاها، حتى يسمى ثبات تلك القوة في مقابلة مقتضى الشهوة صبرا.

وأما الملائكة عليهم السلام. فإنهم جردوا للشوق إلى حضرة الربوبية، والابتهاج بدرجة القرب منها، ولم تسلط عليهم شهوة صارفة صادة عنها حتى تحتاج إلى مصادمة ما يصرفها عن حضرة الجلال بجند آخر يغلب الصوارف.

وأما الإنسان فإنه خلق في ابتداء الصبا ناقصا مثل البهيمة، لم يخلق فيه إلا شهوة الغذاء الذي هو محتاج إليه، ثم تظهر فيه شهوة اللعب والزينة، ثم غيرها من الشهوات..

وبما أن اللّه تعالى بفضله وسعة جوده، أكرم بني آدم، ورفع درجتهم عن درجة البهائم، فقد وكل بهم عند كمال شخصهم بمقاربة البلوغ ملكين، أحدهما يهديهم، والآخر يقويهم. فتميز بمعونة الملكين عن البهائم، واختص بصفتين إحداهما معرفة اللّه

تعالى، ومعرفة رسوله، ومعرفة المصالح المتعلقة بالعواقب. وكل ذلك حاصل من الملك الذي إليه الهداية والتعريف.

فصار الإنسان بنور الهداية يعرف أن اتباع الشهوات له مغبات مكروهة في العاقبة، ولكن لم تكن هذه الهداية كافية ما لم تكن له قدرة على ترك ما هو مضر، فافتقر إلى قدرة وقوة يدفع بها في نحر الشهوات، فيجاهدها بتلك القوة حتى يقطع عداوتها عن نفسه. فوكل اللّه تعالى به ملكا آخر يسدده، ويؤيده ويقويه بجنود لم تروها. وأمر هذا الجند بقتال جند الشهوة. فتارة يضعف هذا الجند وتارة يقوى. وذلك بحسب إمداد اللّه تعالى عبده بالتأييد، كما أن نور الهداية أيضا يختلف في الخلق اختلافا لا ينحصر.

قلت: فالصراع القائم إذن موجود بين شهوات الإنسان التي تطلبها نفسه الأمارة وجند الله الذي أيد به.

قال: أجل.. وقد أطلق الصالحون على هذه الصفة التي بها فارق الإنسان البهائم في قمع الشهوات وقهرها باعثا دينيا.. وأطلقوا على مطالبة الشهوات بمقتضياتها باعث الهوى.

قلت: فالصبر إذن هو ثبات باعث الدين في مقابلة باعث الهوى.

قال: أجل.. فإن اختار الإنسان تأييد باعث الدين حتى يقهر باعث الهوى واستمر على مخالفة الشهوة، فقد نصر حزب اللّه، والتحق بالصابرين.. وإن تخاذل وضعف حتى غلبته الشهوة ولم يصبر في دفعها، التحق باتباع الشياطين.

قلت: وعيت هذا.. فكيف كان الصبر نصف الإيمان، كما أخبر رسول الله ﷺ؟

قال: إذا كان الإيمان هو التصديقات والأعمال جميعا، فإن للإيمان ركنان: اليقين، والصبر.. أما اليقين، فهو المعارف القطعية الحاصلة بهداية الله تعالى .. وأما الصبر، فهو العمل بمقتضى اليقين.

قلت: هلا وضحت لي هذا.

قـال: اليقين يعـرف المـؤمن أن المعصـية ضـارة، والطاعـة نافعة.. ولا يمكن ترك المعصية والمواظبة على الطاعة إلا بالصبر، وهو استعمال باعث الدين في قهر باعث الهوى والكسـل. فيكـون الصبر نصف الإيمان بهذا الاعتبار.

قلت: وعيت هــذا.. فــإن أريــد بالإيمــان الأحــوال المثمــرة للأعمال لا على المعارف.

قال: عند ذلك ينقسم جميع ما يلاقيه العبد إلى مـا ينفعـه في الدنيا والآخرة، أو يضره فيهما.. وله بالإضـافة إلى مـا يضـره حـال الصبر، وبالإضافة إلى ما ينفعه حـال الشـكر. فيكـون الشـكر أحـد شطرى الإيمان بهذا الاعتبار كما أن اليقين أحد الشطرين بالاعتبار الأول.

قلت: بهـذا الاعتبـار فـإن جميـع مقامـات الـدين لهـا علاقـة بالصبر.

قال: أجل، فالصـبر تختلـف أسـاميه بـاختلاف المكـروه الـذي غلب عليه .. فإن كان في مصيبة اقتصر على اسم الصبر، وتضاده حالة تسـمى الجـزع والهلـع.. وإن كـان في احتمـال الغـنى سـمى ضبط النفس، وتضـاده حالـة تسـمى البطـر.. وإن كـان في حـرب ومقاتلة سمى شجاعة، ويضاده الجبن.. وإن كان في كظم الغيــظ والغضـب سـمى حلمـا، ويضـاده التـذمر.. وإن كـان في نائبـة من نوائب الزمان مضجرة سمى سعة الصدر ويضاده الضـجر والتـبرم وضـيق الصـدر.. وإن كـان في إخفـاء كلام سـمى كتمـان السـر، وسمى صاحبه كتوما.. وإن كـان عن فضـول العيش سـمى زهـدا، ويضاده الحـرص.. وإن كـان صـبرا على قـدر يسـير من الحظـوظ سمى قناعة، ويضاده الشره.

قلت: فأكثر أخلاق الإيمان بهذا داخلة في الصبر.

قال: أجل.. فمن يأخذ المعاني من الأسامي يظن أن الأحوال مختلفة في ذواتهـا وحقائقهـا.. والـذي يسـلك الطريـق المسـتقيم

وينظر بنور اللّه، يلحظ المعاني أولا، فيطلع على حقائقها، ثم يلاحظ الأسامي فإنها وضعت دالة على المعاني. فالمعاني هي الأصول، والألفاظ هي التوابع.

قلت: بورك فيك.. فهل الصبر شيء واحد.. أم أنه يختلف قوة وضعفا؟

قال: بحسب قوة باعث الدين أمام باعث الهوى تكون قوة الصبر.. وله في ذلك ثلاثة أحوال.

قلت: فما الحال الأولى؟

قال: أن يقهر داعي الهوى فلا تبقى له قوة المنازعة.. و يتوصل إلى ذلك بدوام الصبر.. وهذا صبر الصديقين المقربين، الذين لازموا الطريق المستقيم، واستووا على الصراط القويم، واطمأنت نفوسهم على مقتضى باعث الدين. وإياهم ينادى المنادى: ﴿يَاأَيَّتُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ (27) ارْجِعِي إِلَى رَبِّكِ رَاضِيَةً مَرْضِيَّةً (28) فَادْخُلِي فِي عِبَادِي (29) وَادْخُلِي جَنَّتِي﴾ [الفجر: 27 - 30]

قلت: وعيت هذا.. فما الحال الثانية؟

قال: أن تغلب دواعي الهوى، وتسقط بالكلية منازعة باعث الدين، فيسلم نفسه إلى جند الشياطين، ولا يجاهد ليأسه من المجاهدة. وهؤلاء هم الغافلون الذين استرقتهم شهواتهم، وغلبت عليهم شقوتهم، فحكموا أعداء اللّه في قلوبهم التي هي سر من أسرار اللّه تعالى ..وهؤلاء هم الذين اشتروا الحياة الدنيا بالآخرة، فخسرت صفقتهم وقيل لمن قصد إرشادهم: ﴿فَأَعْرِضْ عَنْ مَنْ تَوَلَّى عَنْ ذِكْرِنَا وَلَمْ يُرِدْ إِلَّا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا (29) ذَلِكَ مَبْلَغُهُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اهْتَدَى ﴾ [النجم: 29، 30]

قلت: فما علامة من هذا حاله؟

قال: صاحب هذه الحالة إذا وعظ قال: أنا مشتاق إلى التوبة ولكنها قد تعذرت عليّ، فلست أطمع فيها.. أو يقول: إن اللّه

غفور رحيم كريم، فلا حاجة به إلى توبتي.. وهذا المسكين قد صار عقله رقيقا لشهوته، فلا يستعمل عقله إلا في استنباط دقائق الحيل التي بها يتوصل إلى قضاء شهوته. فقد صار عقله في يد شهواته كمسلم أسير في أيدي الكفار، فهم يستسخرونه في رعاية الخنازير، وحفظ الخمور وحملها، ومحله عند اللّه تعالى محل من يقهر مسلما ويسلمه إلى الكفار، ويجعله أسيرا عندهم.

قلت: وعيت هذا.. فما الحال الثانية؟

قال: أن يكون الحرب سجالا بين الجندين، فتارة له اليد عليها، وتارة لها عليه.. وأهل هذه الحالة هم الذين خلطوا عملا صالحا وآخر سيئا، عسى اللّه أن يتوب عليهم.

***

بقيت مدة في صحبة أيوب يشرح لي ضرورة الصبر وأهميته ودرجاته، ويعلمني كيفية التدرب عليه إلى أن رأيت سلما من نور لم أكن أراه من قبل، فقلت من غير أن أشعر: ما أجمل هذا السلم.. وما أبهاه.. وما أعظم نوره!

قال: هل رأيته؟

قلت: أجل.. فما أجمله من سلم!

قال: ما دمت قد رأيته، فقد فتح لك - إذن - باب هذه الطبقة.. وقد أذن لك في أن ترقى هذا السلم لتصل إلى الطبقة الأخرى من هذا الجبل المقدس.

4 ـ الشكر

اقتربت من السلم، ورقيت درجاته إلى أن وصلت إلى أرض ممتلئة بالجمال والنور والصفاء.. ما سرت فيها قليلا حتى وجدت رجلا ممتلئا نورا، فسألته: من أنت؟

قال: أنا سمي ذلك الذي جعله الله وأهله نموذجا للشكر.

قلت: تقصد داود.. ذلك الذي ذكره الله، فقال :﴿ لَقَدْ آتَيْنَا

دَاوُودَ مِنَّا فَضْلًا يَا جِبَالُ أَوِّبِي مَعَهُ وَالطَّيْرَ وَأَلَنَّا لَهُ الْحَدِيدَ (10) أَنِ اعْمَلْ سَابِغَاتٍ وَقَدِّرْ فِي السَّرْدِ وَاعْمَلُوا صَالِحًا إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ (11) وَلِسُلَيْمَانَ الرِّيحَ غُدُوُّهَا شَهْرٌ وَرَوَاحُهَا شَهْرٌ وَأَسَلْنَا لَهُ عَيْنَ الْقِطْرِ وَمِنَ الْجِنِّ مَنْ يَعْمَلُ بَيْنَ يَدَيْهِ بِإِذْنِ رَبِّهِ وَمَنْ يَزِغْ مِنْهُمْ عَنْ أَمْرِنَا نُذِقْهُ مِنْ عَذَابِ السَّعِيرِ (12) يَعْمَلُونَ لَهُ مَا يَشَاءُ مِنْ مَحَارِيبَ وَتَمَاثِيلَ وَجِفَانٍ كَالْجَوَابِ وَقُدُورٍ رَاسِيَاتٍ اعْمَلُوا آلَ دَاوُودَ شُكْرًا وَقَلِيلٌ مِنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ (13)﴾ (سبأ)

قال: أجل.. وقد أخبر الله تعالى أن هذا هو مقام أهل الله من أنبياء الله ورسله وأوليائه، قال تعالى عن إبراهيم ﵇:﴿ رَبَّنَا إِنِّي أَسْكَنْتُ مِنْ ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِنْدَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا الصَّلاةَ فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ وَارْزُقْهُمْ مِنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ﴾ (ابراهيم:37)

وقال عن يوسف ﵇:﴿ وَاتَّبَعْتُ مِلَّةَ آبَائي إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ مَا كَانَ لَنَا أَنْ نُشْرِكَ بِاللَّهِ مِنْ شَيْءٍ ذَلِكَ مِنْ فَضْلِ اللَّهِ عَلَيْنَا وَعَلَى النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَشْكُرُونَ﴾ (يوسف:38)

وقال عن سليمان ﵇:﴿ فَتَبَسَّمَ ضَاحِكاً مِنْ قَوْلِهَا وَقَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَى وَالِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحاً تَرْضَاهُ وَأَدْخِلْنِي بِرَحْمَتِكَ فِي عِبَادِكَ الصَّالِحِينَ﴾ (النمل:19)، وقال عنه:﴿ قَالَ الَّذِي عِنْدَهُ عِلْمٌ مِنَ الْكِتَابِ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَنْ يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ فَلَمَّا رَآهُ مُسْتَقِرّاً عِنْدَهُ قَالَ هَذَا مِنْ فَضْلِ رَبِّي لِيَبْلُوَنِي أَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ وَمَنْ شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّي غَنِيٌّ كَرِيمٌ﴾ (النمل:40)

وقال عن لقمان ﵇:﴿)وَلَقَدْ آتَيْنَا لُقْمَانَ الْحِكْمَةَ أَنِ اشْكُرْ لِلَّهِ وَمَنْ يَشْكُرْ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ حَمِيدٌ﴾ (لقمان: 12)

وأخبر عن الفضل العظيم الذي خصصه لأهل هذا المنزل العظيم، فقال:﴿ وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِنْ شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِنْ كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ﴾ (ابراهيم: 7)

قلت: لقد وردت الروايات الكثيرة تحدث عن دعوة النبي ﷺ ـ بفعله وقوله ـ لهذا المقام العظيم من مقامات الدين.. ففي الحديث قال ﷺ:(خصلتان من كانتا فيه كتبه الله شاكرا صابرا، ومن لم تكونا فيه لم يكتبه الله شاكرا ولا صابرا، من نظر في دينه إلى من هو

فوقه فاقتدى به، ونظر في دنياه إلى من هو دونه فحمد الله على ما فضله به عليه كتبه الله شاكرا صابرا، ومن نظر في دينه إلى من هو دونه، ونظر في دنياه إلى من هو فوقه فاسف على ما فاته منه لم يكتبه الله لا شاكرا ولا صابرا)(1)

قال: وقال ﷺ:(الطاعم الشاكر بمنزلة الصائم الصابر)(2).. وقال:(قال الله تعالى: يا ابن آدم إنك ما ذكرتني شكرتني وإذا ما نسيتني كفرتني)(3)

قلت: عرفت فضل الشكر.. فما هو الشكر؟.. هل هو تلك الكلمات التي تقولها ألسنتنا، وقلوبنا غافلة عن معناها؟.. أم هو معاني معينة في القلب.. وما هي تلك المعاني؟.. ولم حكم الله بقلة الشاكرين؟.. ولم كانت لهم الزيادة دون غيرهم؟.. ولم كان هذا مقاما من مقامات التقديس؟.. ولم..

قاطعني، وقال: رويدك.. لا العلم ينال بالعجلة .. ولا السلوك .. أنسيت أنك مررت بمقام الصبر؟

قلت: أجل فاعذرني.. لقد ذكر لي من قبلك أن كل مقام ينتظم من علم وحال وعمل.. فهل الشكر مثل غيره من المقامات في هذا؟

قال: أجل.. فكل شيء ينتظم من علم وحال وعمل..

قلت: فما **علم** الشكر؟

قال: هو ينتظم من ثلاثة أمور: عين النعمة، ووجه كونها نعمة في حقه، وبذات المنعم ووجود صفاته التي بها يتم الإنعام ويصدر الإنعام منه عليه.

قلت: هذا ما تقتضيه القسمة العقلية، ذلك أنه في كل نعمة من النعم لابد من هذه الثلاثة: نعمة، ومنعم، ومنعم عليه تصل إليه النعمة من المنعم بقصد وإرادة.

قال: هذا في الشكر عموما.. أما في حق الله تعالى، فلا يتم الشكر إلا بأن يعرف أن النعم كلها من الله تعالى، وأنه هو المنعم

1) رواه الترمذي.

2) رواه أحمد والترمذي وأبو داود والحاكم.

3) رواه الطبراني في الأوسط.

الوحيد، وأن الوسائط مسخرون من جهته.

وتتأسس هذه المعرفة على التقديس، وذلك بأن يعرف أن اللـه هو القدوس، وأنه لا مقدس إلا واحد، وما عداه غير مقـدس.. ثم يعلم أن كل ما في العالم فهو موجود من ذلك الواحد فقـط، فالكـل نعمـة منه، فتقع هذه المعرفة في الرتبة الثالثة، إذ ينطوي فيها مع التقديس والتوحيد: كمال القدرة والانفراد بالفعل.

وقد عبر رسول الله ﷺ عن هذا، فقـال:(من قـال سـبحان اللـه والحمـد للـه ولا إلـه إلا اللـه واللـه أكـبر كتب لـه بكـل حـرف عشـر حسنات)(1)، وقال:(أفضل الذكر لا اله الا الله، وأفضل الدعاء الحمـد لله)(2)، وقال:(والحمد لله تملأ الميزان)(3)

فسبحان الله كلمة تدل على التقديس، ولا إله إلا الله كلمة تـدل على التوحيد، والحمد لله كلمة تـدل على النعمـة من الواحـد الحـق.. والحسنات بإزاء هذه المعارف التي هي من أبواب الإيمان واليقين.

وتمام هذه المعرفة ينفي الشـرك في الأفعـال، فمن أنعم عليـه ملك من الملوك بشـيء، فـإن رأى لـوزيره أو وكيلـه دخلاً في تيسـير ذلك وإيصـاله إليـه فهـو إشـراك بـه في النعمـة، فلا يـرى النعمـة من الملك من كل وجه، بل منـه بوجـه ومن غـيره بوجـه، فيتـوزع فرحـه عليهما فلا يكون موحداً في حق الملك.

قلت: وعيت هذا، فلا يشكر إلا من أفرد الله بالشكر، واعتقد أن الخير كله بيده.. فما يثمر هذا من **الأحوال**؟

قال: لقد اختلفت تعابير أهل الله عن تلـك الحـال اللذيـذة الـتي يجدونها عند حصول هذه المعرفة في قلوبهم.. فقال بعضـهم:(لسـت بشاكر مادمت تشكر، وغاية الشكر التحير، وذلك أن الشكر نعمة من الله يجب الشكر عليها وهذا لا يتناهى).. وقال آخـر:(شـكر النعمـة أن تـرى نفسـك فيهـا طفيليـا).. وقـال آخـر:(الشـكر معرفـة العجـز عن الشكر).. وقال آخر:(الشكر أن لا ترى نفسك أهلا للنعمة)

قلت: فما تقول أنت؟

1) رواه ابن أبي الدنيا بإسناد لا بأس به.

2) رواه الترمذي وحسنه والنسائي في اليوم والليلة وابن ماجه وابن حبان.

3) رواه مسلم.

قال: إن الملك الذي يريد الخروج إلى سفر، فيهدي فرسا لبعض الناس.. فإن هؤلاء الناس سينقسمون في فرحهم بالفرس إلى ثلاثة أقسام:

أما الأول، فيفرحون بالفرس من حيث إنه فرس.. وهذا فرح من لاحظ له في الملك، بل غرضه الفرس فقط، ولو وجده في صحراء فأخذه، لكان فرحه مثل ذلك الفرح.

أما الثاني، فيفرحون به لا من حيث إنه فرس، بل من حيث يستدلون به على عناية الملك بهم، وشفقته عليهم واهتمامه بجانبهم، ولو وجد هؤلاء هذا الفرس في صحراء أو أعطاهم إياه غير الملك لكانوا لا يفرحون به أصلاً لاستغنائهم عن الفرس أصلاً أو استحقارهم له بالإضافة إلى خلوه من نيل المحل في قلب الملك.

أما الثالث، فيفرحون به لأجل الخروج به في خدمة الملك، فيتحملون مشقة السفر لينالوا بخدمته القرب منه، وهم لا يريدون من ذلك إلا مشاهدة الملك والقرب منه، حتى لو خيروا بين القرب منه دون الوزارة وبين الوزارة دون القرب لاختاروا القرب.

قلت: عرفت أحوال الشاكرين للملك الذي أهدى فرسا، فما حال الشاكرين لله الذي أعطى من النعم ما لا يحصى؟

قال: هم كذلك ثلاثة.. وبينهما درجات لا يعلمها إلا الله:

أما الأولون، فحالهم كحال الذي يفرح بالفرس لا بالمعطى، وهذا حال كل من فرح بنعمة من حيث إنها لذيذة وموافقة لغرضه، وهو بعيد عن معنى الشكر.

وأما الثانية، فهي داخلة في معنى الشكر من حيث إنه فرح بالمنعم، ولكن لا من حيث ذاته بل من حيث معرفة عنايته التي تستحثه على الإنعام في المستقبل، وهذا حال الصالحين الذين يعبدون الله ويشكرونه خوفاً من عقابه ورجاءً لثوابه.

أما الشكر التام فهو في الفرح الثالث، وهو أن يكون فرح العبد بنعمة الله تعالى من حيث إنه يقدر بها على التوصل إلى القرب منه تعالى والنزول في جواره والنظر إلى وجهه على الدوام، فهذا هو الرتبة العليا.

قلت: وعيت هذا، فما **الأعمال** التي تثمرها هذه الأحوال؟

قال: لقد عبر الشاعر عن ذلك وأحسن، فقال:

أفـادتكم النعمـاء يدي ولساني والضمير
مـــــــــــــــني ثلاثة المحجبا

وقد قيل للجنيد ـ وهـو ابن سـبع سـنين ــ: يـا غلام مـا الشـكر؟ فقال: (أن لا يعصى الله بنعمه)

قلت: ما يعني هذا؟

قال: من فرح بشيء فرحا اسـتولى على كيانـه، فإنـه لا محالـة سيتحرك بموجب ما يهديه إليه فرحه.. فمن فرح بمركوب ركبه، ومن فرح بمأكول أكله.. ومن فرح بشيء ارتبط به.

وهكذا فرح من رأى نعم اللـه عليـه، فإنـه لا محالـة يسـتعملها.. ولكن الفرق بين استعماله لها واستعمال غيره هـو أنـه يسـتعملها في طاعـة مـولاه الـذي أهـداها لـه.. فلا يحـق لمن أهـديت لـه هديـة أن يستعملها في مضادة من أهداها له.

قلت: فاضرب لي أمثلة على ذلك.

قال: شـكر القلب ــ مثلا ــ وهـو تصـور النعمـة، والاعـتراف بهـا للمنعم، والعزم علي طاعته، وفي ذلك يقـول رسـول اللـه ﷺ:(عجبـا لأمـر المـؤمن، إن أمـره كلـه خـير، وليس ذاك لأحـد إلا للمـؤمن، إن أصابته سراء شكر، فكان خيرا له، وإن أصابته ضراء صبر، فكان خيرا له)(1)

وشكر اللسان ـ مثلا ـ هو الثناء على المنعم بفضله، ومما يــروى في ذلك أن رسول الله ﷺ صلى صلاة الصبح بالحديبية في إثر سـماءٍ كانت من الليل، فلما انصرف أقبـل على النـاس، فقـال: هـل تـدرون ماذا قال ربكم؟ قالوا: اللـه ورسـوله أعلم. قـال: (أصـبح من عبـادي مؤمنٌ بي، وكافرٌ، فأما من قال مطرنـا بفضـل اللـه ورحمتـه، فـذلك مؤمنٌ بي كافرٌ بالكوكب، وأما من قال: مطرنا بنوء كذا وكـذا، فـذلك كافرٌ بي مؤمنٌ بالكوكب)(2)

وهكذا شكر سائر الجوارح، فشـكرها هـو مكافـأة النعمـة بفعـل الجوارح من خلال خضوعها واستجابتها لأمر الله تعالى ونهيه، كما قال تعالى: اعْمَلُوا آلَ دَاوُدَ شُكْراً وَقَلِيلٌ مِنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ (سـبأ: 13)

---

1) رواه مسلم.

2) رواه البخاري ومسلم.

وقد روي أن النبي ﷺ كان يقوم من الليل حتى تتفطر قدماه، فقيل له: لم تصنع هذا يا رسول الله، وقد غفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر؟! قال: (أفلا أحب أن أكون عبداً شكوراً؟)(1)

قلت: سلمت بهذا، ووعيته.. ولكن شبهة ترد على خاطري.. وربما ترد على خواطر الكثير، وهي أن في الشكر حظا للمشكور.. وبما أن الله غني عن عباده غنى مطلقا، فكيف يطلب منا أن نشكره، وكيف يعتبر الشكر مقاما من مقامات الوصول إليه؟

قال: تعالى الله عن الحظوظ.. فالله هو الغني الحميد، وكل ما نفعله ليس إلا لمصالحنا.. فالله الكريم الجواد الحكيم اللطيف بعباده، اقتضى جوده وحكمته أن يرتبا لطفه بعباده على أسباب من العبادة والسلوك.. وليس لله من ذلك شيء.

لقد قال رسول الله ﷺ في الحديث القدسي يشير إلى ذلك:(يا عبادي إني حرمت الظلم على نفسي وجعلته بينكم محرماً فلا تظالموا، يا عبادي كلكم ضالٌ إلا من هديته؛ فاستهدوني أهدكم، يا عبادي كلكم جائعٌ إلا من أطعمته؛ فاستطعموني أطعمكم، يا عبادي كلكم عارٍ إلا من كسوته، فاستكسوني أكسكم، يا عبادي إنكم تخطئون بالليل والنهار وأنا أغفر الذنوب جميعاً، فاستغفروني أغفر لكم، يا عبادي إنكم لن تبلغوا ضري فتضروني، ولن تبلغوا نفعي فتنفعوني، يا عبادي لو أن أولكم وآخركم، وإنسكم وجنكم، كانوا على أتقى قلب رجلٍ واحدٍ منكم ما زاد ذلك في ملكي شيئاً، يا عبادي لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم كانوا على أفجر قلب رجلٍ واحدٍ منكم ما نقص ذلك من ملكي شيئاً، يا عبادي لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم قاموا في صعيدٍ واحدٍ، فسألوني فأعطيت كل إنسانٍ مسألته، ما نقص ذلك مما عندي إلا كما ينقص المخيط إذا أدخل البحر، يا عبادي إنما هي أعمالكم أحصيها لكم، ثم أوفيكم إياها، فمن وجد خيراً فليحمد الله، ومن وجد غير ذلك فلا يلومن إلا نفسه)(2)

قلت: شبهة أخرى تعرض لي، كما تعرض لغيري.. ولست أدري الجواب فيها.. أنا أعلم أن كل ما نتعاطاه باختيارنا نعمة من نعم الله.. فكيف نشكر نعمة بنعمة، وهل يمكن أن يشكر أحد نعمة بنعمة أخرى؟

قال: لقد خطر هذا الخاطر لداود وموسى ـ عليهما السلام ـ

---

1) رواه البخاري ومسلم.

2) رواه مسلم.

فقال كلا منهما لله: يا رب كيف أشكرك، وأنا لا أستطيع أن أشكرك إلا بنعمة ثانية من نعمك؟ فأوحى الله تعالى إلى كل منهما: (إذا عرفت هذا فقد شكرتني)

***

ما وصل داود من حديثه معي إلى هذا الموضع حتى رأيت سلما من نور لم أكن أراه من قبل، فقلت من غير أن أشعر: ما أجمل هذا السلم.. وما أبهاه.. وما أعظم نوره!

قال: هل رأيته؟

قلت: أجل.. فما أجمله من سلم!

قال: ما دمت قد رأيته، فقد فتح لك - إذن - باب هذه الطبقة.. وقد أذن لك في أن ترقى هذا السلم لتصل إلى الطبقة الأخرى من هذا الجبل المقدس.

5 ـ الزهد

اقتربت من السلم، ورقيت درجاته إلى أن وصلت إلى أرض ممتلئة بالجمال والنور والصفاء.. ما سرت فيها قليلا حتى وجدت رجلا ممتلئا نورا، فسألته: من أنت؟

قال: أنا سمي ذلك الحصور الذي امتلأ رغبة عن الدنيا وشهواتها..

قلت: تقصد يحي الذي وصفه الله، فقال : فَنَادَتْهُ الْمَلَائِكَةُ وَهُوَ قَائِمٌ يُصَلِّي فِي الْمِحْرَابِ أَنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِيَحْيَى مُصَدِّقًا بِكَلِمَةٍ مِنَ اللَّهِ وَسَيِّدًا وَحَصُورًا وَنَبِيًّا مِنَ الصَّالِحِينَ (39) (آل عمران)

قال: أجل.. فيحي وزكريا والمسيح وكل الأنبياء وكل الأولياء لم ينالوا تلك المقامات العالية لولا زهدهم.

قلت: فما الزهد؟

قال: إنه الذي أمر الله تعالى به نبيه ، فقال : فَاصْبِرْ عَلَى

ما يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِها وَمِنْ آناءِ اللَّيْلِ فَسَبِّحْ وَأَطْرافَ النَّهارِ لَعَلَّكَ تَرْضى (130) وَلا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلى ما مَتَّعْنا بِهِ أَزْواجاً مِنْهُمْ زَهْرَةَ الْحَياةِ الدُّنْيا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقى (131) (طه)

وذكر همة أهله، فقال: اللَّهُ لَطِيفٌ بِعِبادِهِ يَرْزُقُ مَنْ يَشاءُ وَهُوَ الْقَوِيُّ الْعَزِيزُ (19) مَنْ كانَ يُرِيدُ حَرْثَ الْآخِرَةِ نَزِدْ لَهُ فِي حَرْثِهِ وَمَنْ كانَ يُرِيدُ حَرْثَ الدُّنْيا نُؤْتِهِ مِنْها وَما لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ نَصِيبٍ (20) (الشورى)

وذكر مواقفهم من الأعراض الحادثة، فقال : ما أَصابَ مِنْ مُصِيبَةٍ فِي الْأَرْضِ وَلا فِي أَنْفُسِكُمْ إِلَّا فِي كِتابٍ مِنْ قَبْلِ أَنْ نَبْرَأَها إِنَّ ذلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ (22) لِكَيْلا تَأْسَوْا عَلى ما فاتَكُمْ وَلا تَفْرَحُوا بِما آتاكُمْ وَاللَّهُ لا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتالٍ فَخُورٍ (23) (الحديد)

قلت: لقد قرأت علي آيات من القرآن الكريم.. لكني لم أفهم ما الذي تقصده منها.

قال: لقد شرحها رسول الله ﷺ بقوله وفعله.. فقد كان أعظم داعية للزهد.. بل كان أعظم الزاهدين.. ففي الحديث أن رجلا أتى النّبيّ ، فقال: يا رسول اللّه، دلّني على عمل، إذا أنا عملته، أحبّني اللّه، وأحبّني النّاس، فقال رسول اللّه : (ازهد في الدّنيا يحبّك اللّه، وازهد فيما في أيدي النّاس، يحبّوك)[1]

وذكر شعار أهله، فقال مرتجزا:

اللّهمّ لا عيش إلّا عيش الآخره فاغفر للأنصار والمهاجره [2]

وعبر عن القانون الذي يحكم أهله، والقيم التي توجههم، فقال بعد أن قرأ قوله تعالى: أَلْهَاكُمُ التَّكَاثُرُ (1) (التكاثر): (يقول ابن آدم: مالي، مالي.. وهل لك يا بن آدم من مالك إلّا ما

[1] رواه ابن ماجة.

[2] رواه البخاري ومسلم.

أكلت فأفنيت، أو لبست فأبليت، أو تصدّقت فأمضيت)[1]

وقال: (أصدق كلمة قالها شاعر كلمة لبيد: ألا كلّ شيء ما خلا اللّه باطل)[2]

وعن ابن عمر قال: أخذ رسول اللّه بمنكبي فقال: (كن في الدّنيا كأنّك غريب أو عابر سبيل)[3]

وعن جابر أنّ رسول اللّه مرّ بالسّوق، داخلا من بعض العالية والنّاس كنفته فمرّ بجدي أسكّ ميّت، فتناوله فأخذ بأذنه، ثمّ قال: (أيّكم يحبّ أنّ هذا له بدرهم؟)، فقالوا: ما نحبّ أنّه لنا بشيء، وما نصنع به؟. قال: (أتحبّون أنّه لكم؟)، قالوا: واللّه لو كان حيّا، كان عيبا فيه، لأنّه أسكّ. فكيف وهو ميّت؟ فقال: (فو اللّه! للدّنيا أهون على اللّه من هذا عليكم)[4]

وهو الذي مثله رسول الله في سلوكه ومواقفه، فقد عرضت عليه الدنيا بحليها وحللها، فأعرض عنها.. ففي الحديث: (لقد مات رسول اللّه وما شبع من خبز وزيت في يوم واحد مرّتين)[5]

قلت: لا زلت أحتاج منك حدودا حقيقية أو رسمية تبين لي حقيقته، وتفسر لي معناه.

قال[6]: الزهد مقام من مقامات الدين الشريفة.. والتي لا تنال الدرجات العليا إلا بارتقائها.

---

[1] رواه مسلم.

[2] رواه البخاري ومسلم.

[3] رواه البخاري.

[4] رواه مسلم.

[5] رواه مسلم والترمذي.

[6] اقتبسنا الكثير من المادة المرتبطة بهذا من كتاب الفقر والزهد من جملة كتب إحياء علوم الدين بتصرف.

قلت: لقد تعودت من مشايخي الذين مررت عليهم، وسلكت على أيديهم، أن يذكروا لي عند كل مقام العلوم التي تحض عليه، والأحوال التي يجدها السالك عنده، والثمرات العملية التي يثمرها..

قال: وهكذا الزهد.. فهو ينتظم من علم وحال، وعمل .. فالعلم هو السبب في الحال، وهو يجرى مجرى المثمر، والعمل يجرى من الحال مجرى الثمرة.

قلت: فهلا وضحت لي العلم الذي يدعو إلى الزهد.

قال: لن تفهمه حتى تفهم الحال التي تسمى زهدا.

قلت: أنبدأ باللاحق قبل السابق، وبالمتأخر قبل المتقدم.

قال: إن توقف فهم المتقدم على المتأخر، والسابق على اللاحق، فلا حرج عليك أن تبدأ به.. بل عليك أن تبدأ به.

قلت: لا بأس .. فحدثني عن حال الزهد.

قال: حال الزهد هو عبارة عن انصراف رغبات النفس عن الشيء إلى ما هو خير منه.. فكل من رغبت نفسه عن شيء إلى غيره بمعاوضة وبيع وغيره فإنما عدل عنه لرغبته عنه.. وإنما عدل إلى غيره لرغبته في غيره، فحاله بالإضافة إلى المعدول عنه يسمى زهدا، وبالإضافة إلى المعدول إليه يسمى رغبة وحبا.

قلت: وعيت هذا.. أي أن الزهد يستدعى مرغوبا عنه، ومرغوبا فيه هو خير من المرغوب عنه.

قال: أجل بشرط واحد، وهو أن يكون المرغوب عنه أيضا مرغوبا فيه بوجه من الوجوه.. فمن رغب عما ليس مطلوبا في نفسه لا يسمى زاهدا .. فتارك الحجر والتراب وما أشبهه لا يسمى زاهدا.. وإنما يسمى زاهدا من ترك الدراهم والدنانير، لأن التراب والحجر ليسا في مظنة الرغبة .. وشرط المرغوب فيه أن يكون عنده خيرا من المرغوب عنه، حتى تغلب هذه الرغبة.

قلت: وعيت هذا.. وقد أشار إليه القرآن الكريم في قوله

تعالى عن يوسف عليه السلام: ﴿وَشَرَوْهُ بِثَمَنٍ بَخْسٍ دَرَاهِمَ مَعْدُودَةٍ وَكَانُوا فِيهِ مِنَ الزَّاهِدِينَ﴾ [يوسف: 20]، فقد وصف الله تعالى إخوة يوسف بالزهد فيه، إذ أرادوا بذلك أن يخلو لهم وجه أبيهم، وكان ذلك عندهم أحب إليهم من يوسف، فباعوه طمعا في العوض.

قال: أجل.. ولهذا فإن الزهد يشمل جميع الناس .. من زهد منهم في الدنيا، ومن زهد في الآخر.. فمن باع الدنيا بالآخرة فهو زاهد في الدنيا.. وكل من باع الآخرة بالدنيا فهو أيضا زاهد، ولكن في الآخرة.

قلت: ما دام الأمر كذلك.. فلم خصصتم الزهد بالزهد في الدنيا؟

قال: هكذا جرى العرف، وإلا فإن الزاهد الحقيقي هو ذلك الذي باع آخرته بدنياه.. أما من آثر أخراه على أولاه، فهو أكثر الناس حرصا، وأعظمهم رغبة.

قلت: وعيت هذا.. والزهد بهذا الذي وصفت مراتب عديدة ودرجات كثيرة.

قال: أجل.. وأعلاها درجة، وأرفعها منزلة من رغب عن كل ما سوى الله تعالى، حتى الفردوس الأعلى، فلا يحب إلا الله، ولا يرغب إلا في القرب منه.. وبعده الذي يرغب في حظوظ الآخرة، ويقدمها على حظوظ الدنيا.. وبعده الذي يترك من حظوظ الدنيا البعض دون البعض، كالذي يترك المال دون الجاه، أو يترك التوسع في الأكل ولا يترك التجمل في الزينة.. وهكذا.

قلت: كيف يعتبر ذلك زاهدا، وقد آثر الفاني على الباقي.

قال: كما أن التوبة عن بعض المعاصي صحيحة.. فكذلك الزهد في بعض الحظوظ صحيح.

قلت: كيف ذلك؟

قال: لأنه لا فرق بينهما سوى أن التوبة عبارة عن ترك

المحظـورات، والزهـد عبـارة عن تـرك المباحـات الـتي هي حـظ النفس .. ولا يبعد أن يقـدر على تـرك بعض المباحـات دون بعض، كما لا يبعد ذلك في المحظورات.

قلت: وعيت هذا، وأحسبني عرفت حقيقة حـال الزهـد.. فمـا العلم الذي يدعو إليه؟

قال: هو كعلم التاجر بأن العوض خير من المـبيع فـيرغب في العوض، ويسلم النقود التي امتلأ قلبه محبة لها..

قلت: هلا وضحت لي هذا.

قال: من عرف أن الدنيا مهما كـانت جميلـة وممتعـة، فهي لا تختلــف عن الثلج الموضــوع في الشــمس، والــذي لا يــزال في الذوبان إلى الانقراض.. وعرف أن الآخـرة كـالجوهر الـذي لا فنـاء لـه.. فبقـدر قـوّة اليقين والمعرفـة بالتفـاوت بين الـدنيا والآخـرة، تقـوى الرغبـة في الـبيع والمعاملـة حـتى أن من قـوي يقينـه يـبيع نفسه وماله، كما قال اللَّه تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ اشْـتَرَى مِنَ الْمُـؤْمِنِينَ أَنْفُسَــهُمْ وَأَمْــوَالَهُمْ بِــأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ﴾ [التوبــة: 111]، ثم بين أن صفقتهم رابحة، فقال: ﴿فَاسْتَبْشِرُوا بِبَيْعِكُمُ الَّذِي بَايَعْتُمْ بِـهِ وَذَلِـكَ هُـوَ الْفَـوْزُ الْعَظِيمُ ﴾ [التوبـة: 111]، فليس يحتـاج من العلم في الزهد إلا إلى هذا القدر، وهو أن الآخرة خير وأبقى.

قلت: وعيت هذا.. فما الركن الثالث من أركان الزهد؟

قال: العمل الصادر عن حال الزهد.. فكما أن العمـل الصـادر من عقد البيع هو تـرك المـبيع، وإخراجـه من اليـد، وأخـذ العـوض، فكذلك الزهد يوجب ترك المزهود فيه بالكلية، وهي الدنيا بأســرها مع أسبابها، ومقدماتها، وعلائقها، فيخرج من القلب حبهـا، ويـدخل حب الطاعــات، ويخــرج من العين واليــد مــا أخرجــه من القلب، ويوظف على اليد والعين وسائر الجوارح وظائف الطاعات.

قلت: إن هــذا يتنـافى مـع مـا أرادت بـه الشـريعة من عـدم نسيان نصيبنا من الدنيا.. هل تراك نسيت قولـه تعـالى: ﴿وَلَا تَنْسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا﴾ [القصص: 77]

قال: وهل تراك نسيت قوله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّا كَتَبْنَا عَلَيْهِمْ أَنِ اقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ أَوِ اخْرُجُوا مِنْ دِيَارِكُمْ مَا فَعَلُوهُ إِلَّا قَلِيلٌ مِنْهُمْ وَلَوْ أَنَّهُمْ فَعَلُوا مَا يُوعَظُونَ بِهِ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ وَأَشَدَّ تَثْبِيتًا ﴾ [النساء: 66] ؟

قلت: ما تعني هذه الآية؟

قال: إنها تعني الزهد في كل شيء حتى في النفس.. فالزاهد هو الذي يسلمها له متى طلبها.

قلت: وإذا لم يطلبها.

قال: الزاهد هو الذي يعتبر كل شيء لله طلبه أو لم يطلبه.. ولذلك يقدمه راضيا مطمئنة به نفسه.

***

بقيت مدة مع يحي يحدثني عن الزهد وأركانه، ويرغبني فيه، وفي كيفية تنظيم حياتي على أساسه، حتى رأيت سلما من نور لم أكن أراه من قبل، فقلت من غير أن أشعر: ما أجمل هذا السلم.. وما أبهاه.. وما أعظم نوره!

قال: هل رأيته؟

قلت: أجل.. فما أجمله من سلم!

قال: ما دمت قد رأيته، فقد فتح لك - إذن - باب هذه الطبقة.. وقد أذن لك في أن ترقى هذا السلم لتصل إلى الطبقة الأخرى من هذا الجبل المقدس.

6 ـ التوكل

اقتربت من السلم، ورقيت درجاته إلى أن وصلت إلى أرض ممتلئة بالجمال والنور والصفاء.. ما سرت فيها قليلا حتى وجدت رجلا ممتلئا نورا، فسألته: من أنت؟

قال: أنا سمي ذلك الذي جعله الله نموذجا للتوكل العالي.

قلت: من تعني؟

قال: ذلك الذي وضع في المنجنيق ليرمى به إلى ما أضْرَم له أعداء الله من النار، فلم يتحرك قلبه، ولم ترتعد فرائصه، بل بقي كالطود الأشم لا تزعزعه الرياح، بل سرت السكينة من باطنه إلى ظاهره إلى ما حوله، فأطفأت ببرودتها وسلامها نار أعدائه.

قلت: تقصد إبراهيم الذي ذكره الله، فقال : قَالُوا حَرِّقُوهُ وَانْصُرُوا آلِهَتَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ فَاعِلِينَ (68) قُلْنَا يَا نَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلَامًا عَلَى إِبْرَاهِيمَ (69) وَأَرَادُوا بِهِ كَيْدًا فَجَعَلْنَاهُمُ الْأَخْسَرِينَ (70) (الأنبياء)

وذكر توكله، فقال : الَّذِي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهْدِينِ (78) وَالَّذِي هُوَ يُطْعِمُنِي وَيَسْقِينِ (79) وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ (80) وَالَّذِي يُمِيتُنِي ثُمَّ يُحْيِينِ (81) وَالَّذِي أَطْمَعُ أَنْ يَغْفِرَ لِي خَطِيئَتِي يَوْمَ الدِّينِ (82) رَبِّ هَبْ لِي حُكْمًا وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ (83) (الشعراء)

قال: أجل.. فالتوكل منزل من منازل الدين، ومقام من مقامات الموقنين.. بل هو من معالى درجات المقربين.. ولذلك فإنه مقام كل الأنبياء والأولياء والورثة.

قلت: فحدثني عنه وعن حقيقته، فإني أرى الناس يختلفون فيه اختلافا شديدا..

قال: التوكل باب من أبواب الإيمان.. وهي جميعا لا تنتظم إلا بعلم، وحال، وعمل.

قلت: أعرف ذلك.. وأعرف أن العلم هو الأصل، وأن العمل هو الثمرة، وأن الحال هو المراد باسم التوكل.. فهل ستبدأ بتعريف السابق، أم تراك تبدأ باللاحق؟

قال: بل نبدأ بالسابق، نبدأ بالعلم، الذي هو أصل التوكل.

قلت: فما العلم الذي نصل به إلى حال التوكل.

قال: التوحيد، الذي يترجمه قولك: لا إله إلا الله وحده لا

شريك له.. والإيمان بالقدرة التي يترجم عنها قولك: له الملك .. والإيمان بالجود والحكمة الذي يدل عليه قولك: وله الحمد.. فمن قال (لا إله إلا اللّه وحده لا شريك له، له الملك وله الحمد، وهو على كل شيء قدير)، تمّ له الإيمان الذي هو أصل التوكل.

رحت أصيح بهذه الكلمات، وأنا ممتلئ فرحا، وقلت: ها أنا الآن قد أصبحت متوكلا، فلم لم يظهر سلم النور الذي أرتقي به إلى المقام التالي.

ابتسم، وقال: لو كان الدين ينال باللسان وحده، لكان كل الناس أولياء وصديقين وشهداء..

قلت: فقد قلت تلك الكلمات بكل لطائفي، واستشعرها جميع وحداني، وأنا الآن أشعر بأن الله واحد.. وليس معه إله ثان.

ابتسم، وقال: وهذا الشعور وحده لا يكفي لتحقيق التوكل.. فعلم التوكل أعظم من ذلك.

قلت: هلا وضحت لي.

قال: للتوحيد أربع مراتب، فأولها: أن يقول الإنسان بلسانه لا إله إلا اللّه، وقلبه غافل عنه، أو منكر له، كتوحيد المنافقين.. والثانية: أن يصدق بمعنى اللفظ قلبه، كما صدق به عموم المسلمين، وهو اعتقاد العوام.. والثالثة: أن يشاهد ذلك بواسطة نور الحق، وهو مقام المقربين، وذلك بأن يرى أشياء كثيرة، ولكن يراها على كثرتها صادرة عن الواحد القهار.. والرابعة: أن لا يرى في الوجود إلا واحدا، وهي مشاهدة الصديقين، وهذا الذين نسميه هنا الفناء في التوحيد.

قلت: إن ما تقوله عجيب.. فكيف يتصور أن لا يشاهد إلا واحدا، وهو يشاهد السماء، والأرض، وسائر الأجسام المحسوسة وهي كثيرة، فكيف يكون الكثير واحدا؟

قال: كم من شخص يشاهد إنسانا ولا يخطر بباله كثرة أمعائه، وعروقه، وأطرافه، وتفصيل روحه، وجسده، وأعضائه.. بل لا يخطر على باله إلا أنه إنسان واحد.. ذلك أنه في حالة

الاستغراق والاستهتار به مستغرق بواحد ليس فيه تفريق.

قلت: قـد يصـعب علي فهم هـذا.. ولكن لا بـأس حـدثني عن التوحيد الذي يمكنني أن أتحقق بمقام التوكل.

قال: عندما ينكشف لقلبك انكشافا يقينيا أن لا فاعل إلا اللّـه تعالى، وأن كـل موجـود من خلـق، ورزق، وعطـاء، ومنـع، وحيـاة، وموت، وغنى، وفقر.. وغيرها بيد الله تعالى، وأنه المنفرد بإبداعـه واختراعه، لا شـريك لـه فيـه.. إذا انكشـف لـك هـذا لم تنظـر إلى غيره، بل كان منه خوفك، وإليه رجاؤك، وبه ثقتك، وعليه اتكالك.. تحققت بعلم التوكل.

قلت: أنى ينكشـف لي هـذا.. وأنـا أرى خـروج الـزرع ونباتـه ونمائـه يعتمـد على المطـر، وعلى الغيم في نـزول المطـر، وعلى البرد في اجتماع الغيم، وعلى الريح في استواء السفينة وسيرها..

قال: فأغمض عينيك عن كل ذلك، لترى الله هو المـدبر لكـل شيء.. فلولاه لما كان الماء ولا الغيم ولا النبات.. ألم تسمع قولـه تعالى: ﴿أَفَرَأَيْتُمْ مَا تَحْرُثُونَ (63) أَأَنْتُمْ تَزْرَعُونَهُ أَمْ نَحْنُ الزَّارِعُونَ (64)﴾ [الواقعـة: 63، 64] .. ألم تسـمع قولـه تعـالى: ﴿أَفَـرَأَيْتُمُ الْمَــاءَ الَّذِي تَشْــرَبُونَ (68) أَأَنْتُمْ أَنْزَلْتُمُــوهُ مِنَ الْمُــزْنِ أَمْ نَحْنُ الْمُنْزِلُونَ﴾ [الواقعة: 68، 69] .. ألم تسمع قوله تعالى: ﴿أَفَرَأَيْتُمُ النَّارَ الَّتِي تُورُونَ (71) أَأَنْتُمْ أَنْشَأْتُمْ شَجَرَتَهَا أَمْ نَحْنُ الْمُنْشِـئُونَ ﴾ [الواقعة: 71، 72]؟

قلت: بلى .. قد سمعت كل ذلك.

قال: من سمع كل ذلـك بقلبـه وروحـه وكـل لطائفـه علم أن الريح هو الهواء، والهـواء لا يتحـرك بنفسـه مـا لم يحركـه محـرك، وكذلك محركـه، وهكـذا إلى أن ينتهي إلى المحـرك الأول الـذي لا محرك له، ولا هو متحرك في نفسه الله تعالى.

قلت: وعيت هذا.. لكن ما علاقته بالتوكل؟

قـال: التفـات العبـد في النجـاة إلى أي سـبب من الأسـباب يضاهي التفات من أخذ لتحـز رقبتـه، فكتب الملـك توقيعـا بـالعفو

عنه وتخليته، فأخذ يشتغل بذكر الحبر والكاغد والقلم الذي به كتب التوقيع يقول: لو لا القلم لما تخلصت، فيرى نجاته من القلم لا من محرك القلم.. ومن علم أن القلم لا حكم له في نفسه، وإنما هو مسخر في يد الكاتب، لم يلتفت إليه، ولم يشكر إلا الكاتب.. بل ربما يدهشه فرح النجاة، وشكر الملك والكاتب، من أن يخطر بباله القلم، والحبر، والدواة. والشمس، والقمر، والنجوم، والمطر، والغيم، والأرض، وكل حيوان وجماد .. فكلها مسخرات في قبضة القدرة، كتسخير القلم في يد الكاتب.

قلت: وعيت هذا، ولكن كيف تريدني أن أرى الكل من الله تعالى، وأنا أرى أن هذا الإنسان يعطيك رزقك باختياره، فإن شاء أعطاك، وإن شاء قطع عنك .. وهذا الشخص هو الذي يحز رقبتك بسيفه، وهو قادر عليك، إن شاء حزّ رقبتك، وإن شاء عفا عنك، فكيف لا تخافه، وكيف لا ترجوه، وأمرك بيده، وأنت تشاهد ذلك ولا تشك فيه؟

قال: عباد الله المخلصين، الذين لا سلطان للشيطان عليهم شاهدوا بنور البصائر أن الكاتب مسخر مضطر، كما شاهد جميع الضعفاء كون القلم مسخرا، وعرفوا أن غلط الضعفاء في ذلك كغلط النملة لو كانت تدب على الورق، فترى رأس القلم يسود الورق! ولم يمتد بصرها إلى اليد والأصابع فضلا عن صاحب اليد، فغلطت وظنت أن القلم هو المسود للبياض، وذلك لقصور بصرها عن مجاوزة رأس القلم لضيق حدقتها.

قلت: وعيت هذا.. ولكن كيف نجمع بين ما قلت وبين الشريعة التي تثبت الأفعال للعباد، فإن كان العبد فاعلا فكيف يكون اللّه تعالى فاعلا، وإن كان اللّه تعالى فاعلا فكيف يكون العبد فاعلا، ومفعول بين فاعلين غير مفهوم، بل غير معقول؟

قال: ألا يقال قتل الأمير فلانا، ويقال قتله الجلاد؟

قلت: بلى..

قال: إذا فهمت هذا أجبت عن سؤالك.

قلت: كيف ذلك؟

قال: ذلك أن تلك العبارة تفيد أن الأمير قاتل بمعنى، والجلاد قاتل بمعنى آخر..

قلت: فكيف نقيس هذا على ما نحن فيه؟

قال: العبد فاعل بمعنى، واللّه عز وجل فاعل بمعنى آخر.. فمعنى كون اللّه تعالى فاعلا أنه المخترع الموجد. ومعنى كون العبد فاعلا أنه المحل الذي خلق فيه القدرة؛ بعد أن خلق فيه الإرادة بعد أن خلق فيه العلم فارتبطت القدرة بالإرادة، والحركة بالقدرة ارتباط الشرط بالمشروط، وارتبط بقدرة اللّه ارتباط المعلول بالعلة، وارتباط المخترع بالمخترع.

ومثال ذلك قوله تعالى في الموت: ﴿قُلْ يَتَوَفَّاكُمْ مَلَكُ الْمَوْتِ الَّذِي وُكِّلَ بِكُمْ﴾ [السجدة: 11]، ثم قال عز وجل: ﴿اللَّهُ يَتَوَفَّى الْأَنْفُسَ حِينَ مَوْتِهَا ﴾ [الزمر: 42] .. وقال تعالى: ﴿أَفَرَأَيْتُمْ مَا تَحْرُثُونَ﴾ [الواقعة: 63] أضاف ذلك إلينا، ثم قال تعالى: ﴿أَنَّا صَبَبْنَا الْمَاءَ صَبًّا (25) ثُمَّ شَقَقْنَا الْأَرْضَ شَقًّا (26) فَأَنْبَتْنَا فِيهَا حَبًّا (27) وَعِنَبًا وَقَضْبًا ﴾ [عبس: 25 - 28]

وهكذا قال الله تعالى: ﴿قَاتِلُوهُمْ يُعَذِّبْهُمُ اللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ﴾ [التوبة: 14]، فأضاف القتل إليهم والتعذيب إلى نفسه، والتعذيب هو عين القتل.. بل صرح، فقال: ﴿فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ قَتَلَهُمْ ﴾ [الأنفال: 17] ، وقال: ﴿وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ رَمَى﴾ [الأنفال: 17] وهو جمع بين النفي والإثبات ظاهرا، ولكن معناه وما رميت بالمعنى الذي يكون الرب به راميا إذ رميت بالمعنى الذي يكون العبد به راميا.

قلت: وعيت هذا.. فما حال التوكل؟

قال: إن ثبت في نفسك بقين صادق أنه لا فاعل إلا الله تعالى، واعتقدت مع ذلك تمام العلم والقدرة على كفاية العباد، ثم تمام العطف والعناية والرحمة بجملة العباد والآحاد، وأنه ليس وراء منتهى قدرته قدرة، ولا وراء منتهى علمه علم، ولا وراء

منتهى عنايته بك ورحمته لك عناية ورحمة، اتكل لا محالة قلبك عليه وحده، ولم يلتفت إلى غيره بوجه، ولا إلى نفسه وحوله وقوته، فإنه لا حول ولا قوة إلا باللّه.

قلت: فإن لم أجد هذه الحال؟

قال: يبحث عن أسباب ذلك..

قلت: فما تراها؟

قال: ذلك يعود لأحد علتين: إما ضعف اليقين بالعلوم التي يقتضيها التوكل.. وإما ضعف القلب ومرضه باستيلاء الجبن عليه، وانزعاجه بسبب الأوهام الغالبة عليه. فإن القلب قد ينزعج تبعا للوهم، وطاعة له، عن غير نقصان في اليقين. فإنه لو كلف العاقل أن يبيت مع الميت في فراش، أو بيت، نفر طبعه عن ذلك، وإن كان متيقنا بكونه ميتا، وأنه جماد في الحال، وأن سنة اللّه تعالى مطردة بأنه لا يحشره الآن ولا يحييه وإن كان قادرا عليه.. وذلك جبن في القلب، وهو نوع ضعف قلما يخلو الإنسان عن شيء منه وإن قلّ، وقد يقوى فيصير مرضا.

قلت: وعيت هذا.. فما مراتب المتوكلين في هذا؟

قال: مراتب التوكل لا تحصى.. ولكن يمكن تقسيم مجامعها الكبرى إلى ثلاث.

قلت: فما المرتبة الأولى؟

قال: أن يكون حاله في حق اللّه تعالى، والثقة بكفالته وعنايته، كحاله في الثقة بالوكيل الذي توفرت له جميع القدرات.

قلت: وما الثانية؟

قال: أن يكون حاله مع اللّه تعالى كحال الطفل مع أمه. فإنه لا يعرف غيرها، ولا يفزع إلى أحد سواها، ولا يعتمد إلا إياها. فإذا رآها تعلق في كل حال بها، ولم يخلها. وإن نابه أمر في غيبتها كان أول سابق إلى لسانه يا أماه، وأول خاطر يخطر على قلبه أمه، فإنها مفزعه. فإنه قد وثق بكفالتها، وكفايتها، وشفقتها.. فمن كان

باله إلى اللّه عز وجل، ونظره إليه، واعتماده، عليه، كلف بـه كمـا يكلف الصبي بأمه، فيكون متوكلا حقـا. فـإن الطفـل متوكـل على أمـه. والفـرق بين هـذا وبين الأول أن هـذا متوكـل وقـد فـني في توكله عن توكله، إذ ليس يلتفت قلبه إلى التوكل وحقيقته، بل إلى المتوكل عليه فقط، فلا مجال في قلبه لغير المتوكـل عليـه. وأمـا الأول فيتوكل بـالتكلف والكسـب. وليس فانيـا عن توكلـه، لأن لـه التفاتا إلى توكلـه وشـعورا بـه، وذلـك شـغل صـارف عن ملاحظـة المتوكل عليه وحده.

قلت: وعيت هذا.. فما المرتبة الثالثة؟

قال: أن يكون بين يدي اللّه تعالى في حركاته وسـكناته مثـل الميت بين يـدي الغاسـل، لا يفارقـه إلا في أنـه يـرى نفسـه ميتـا تحركه القدرة الأزلية كمـا تحـرك يـد الغاسـل الميت.. وهـو الـذي قوى يقينه بأنه سبحانه وتعالى مجرى للحركـة، والقـدرة، والإرادة، والعلم، وسائر الصفات.. وهو مثـل الصـبي الـذي علم أنـه وإن لم يزعق بأمه فالأم تطلبه، وأنه وإن لم يتعلق بذيل أمه فالأم تحمله، وإن لم يسألها اللبن فالأم تفاتحه وتسقيه.

قلت: وعيت هذا.. فما الأعمال التي يقتضيها التوكل؟

قال: لكل درجة من درجات التوكل ثمراتها الخاصة بها..

قلت: فهل درجة التوكل العليـا، والـتي يتحـول فيهـا المتوكـل بين يدي ربه كالميت بين يدي الغسال، تقتضي السـكون المطلـق وعدم العمل أو الحركة.

قال: لا.. ذلك حـرام في الشـرع.. وقـد روي أن بعض الزهـاد فارق الأمصار وأقام في سـفح جبـل سـبعا، وقـال: لا أسـأل أحـدا شيئا حتى يأتيني ربي برزقي، فقعـد سـبعا، فكـاد يمـوت ولم يأتـه رزق. فقال: يا رب إن أحييتنى فأتني برزقي الذي قسمت لي، وإلا فاقبضنى إليك. فأوحى اللّه جل ذكره إليه. وعزتي لا رزقتـك حـتى تدخل الأمصار وتقعد بين الناس.. فدخل المصر وقعـد، فجـاء هـذا بطعام، وهذا بشراب، فأكل وشرب، وأوجس في نفسه من ذلـك، فأوحى اللّه تعالى إليه: أردت أن تذهب حكمتى بزهدك في الـدنيا.

أمـا علمت أنى أن أرزق عبـدي بأيـدي عبـادي أحب إلى من أن أرزقه بيد قدرتى.

***

بقيت مدة مع إبراهيم يحدثني عن التوكل، ويدربني عليـه إلى أن رأيت سـلما من نـور لم أكن أراه من قبـل، فقلت من غـير أن أشعر: ما أجمل هذا السلم.. وما أبهاه.. وما أعظم نوره!

قال: هل رأيته؟

قلت: أجل.. فما أجمله من سلم!

قـال: مـا دمت قـد رأيتـه، فقـد فتح لـك - إذن - بـاب هـذه الطبقة.. وقد أذن لك في أن ترقى هذا السلم لتصـل إلى الطبقـة الأخرى من هذا الجبل المقدس.

7 ـ المحبة

اقتربت من السلم، ورقيت درجاتـه إلى أن وصـلت إلى أرض ممتلئة بالجمال والنور والصفاء.. ما سرت فيها قليلا حـتى وجـدت رجلا ممتلئا نورا، فسألته: من أنت؟

قال: أنا سمي ذلك الذي كـان يـردد كـل حين: (أسـألك حبّـك وحبّ من يحبّك، وحبّ عمل يقرّب إلى حبّك)(1)

قلت: تقصد محمدا ﷺ ..

قال: أجل.. فكما أن رسول اللـه ﷺ هـو أشـرف المرسـلين، وسـيد الخلـق أجمعين.. فـإن محبـة اللـه هي الغايـة القصـوى من المقامـات، والـذروة العليـا من الـدرجات فمـا بعـد إدراك المحبـة مقام إلا وهو ثمرة، من ثمارها، وتابع من توابعها، ولا قبل المحبــة، مقام إلا وهو مقدمة من مقدماتها.

قلت: ألهذا كان هذا المقام في قمة هذا الجبل؟

1() الترمذي، وقال: هذا حديث حسن صحيح.

قال: أجل.. فمن لم يصل إلى هذا المقام لا يمكنـه أن يعـرج إلى سـماء الحقـائق.. فالحقـائق عزيـزة، ولا ينالهـا إلا من بـاعوا قلوبهم لله، فلم يسكن فيها غيره.

قلت: لقد سمعت بعض الصالحين يقـول: (إن من خلـق اللّـه خلقا ما يشغلهم الجنان وما فيها من النعيم عنه؛ فكيـف يشـتغلون عنه بالدنيا)

قال: صدق.. فالمؤمن إذا عرف ربه عز وجل أحبه، وإذا أحبه أقبل إليه، وإذا وجـد حلاوة الإقبـال إليـه لم ينظـر إلى الـدنيا بعين الشـهوة، ولم ينظـر إلى الآخـرة بعين الفـترة، وهي تحسـره في الدنيا وتروحه في الآخرة.

قلت: فحـدثني عن حقيقـة الحب.. وكيـف أعـرج بقلـبي إلى مقامه السامي.

قـال: لن تعـرف حقيقـة الحب حـتى تعـرف حقيقـة الجمـال والكمال الذي يتوجه إليه الحب.

قلت: فما حقيقة الجمال والكمال؟

قال: لن تعرفها حـتى تطهـر قلبـك وعقلـك من تلـك الكثافـة التي تجعلك محبوسا في قمقم الحس.. فتكـون كـذلك المسـجون الذي لا يرى للحسن والجمال معـنى إلا تناسـب الخلقـة والشـكل، وحسن اللون، وكون البياض مشربا بالحمرة، وامتداد القامة.

قلت: فكيف أتخلص من هذا؟

قال: عندما تدرك أن جمال كل شيء وحسـنه في أن يحضـر كماله اللائـق بـه، الممكن لـه.. فـإذا كـان جميـع كمالاتـه الممكنـة حاضرة فهو في غاية الجمـال، وإن كـان الحاضـر بعضـها فلـه من الحسن والجمال بقدر ما حضر.

قلت: لم أفهم ما تقصد.. فهلا شرحت لي.

قال: الفرس الحسن هو الذي جمع كل ما يليـق بـالفرس من هيئة وشكل، ولون، وحسن عدو، وتيسـر كـرّ وفـرّ عليـه.. والخـط

الحسن هو كل ما جمع ما يليق بالخط من تناسب الحروف، وتوازيها واستقامة ترتيبها وحسن انتظامها..

قلت: هذه الأشياء التي ذكرتها لا تنفك عن إدراك الحواس لها.. وإنما ينكر ذلك في غير المدرك بالحواس.

قال: الحسن والجمال ليس قاصرا على المحسوسات.. ألا ترى أنك تقول: هذا علم حسن، وهذه سيرة حسنة، وهذه أخلاق جميلة، وإنما الأخلاق الجميلة.

قلت: بلى..

قال: ألا ترى أن العلم، والعقل، والعفة، والشجاعة، والتقوى، والكرم، والمروءة، وسائر خلال الخير، لا تدرك بالحواس، ومع ذلك فإن الموصوف بها محبوب بالطبع عند من عرف صفاته؟

قلت: بلى.. ولذلك نرى الطباع مجبولة على حب الأنبياء والأولياء ممن اتصفوا بهذه الصفات العظيمة.

قال: ألا ترى أن البشر مع بعد المسافة بينهم وبين من يعظمونهم من الناس لا يزالون يمتلئون محبة وتقديسا لهم، مع أنهم لم يروا أجسادهم ولا صورهم؟

قلت: بلى.. فقد كفتهم صورتهم الباطنة عن صورتهم الظاهرة.

قال: فالمحبوب إذن هو تلك السير الجميلة، والأخلاق الحميدة، والفضائل الشريفة.

قلت: أجل .. ذلك صحيح.

قال: إذا عرف العبد هذا.. وتخلص من سجون الكثافة، وقيود البصر.. يمكنه أن يعرج في معراج محبة الله.

قلت: كيف ذلك؟

قال: ما مرجع كل ما ذكرته من صفات الجمال الباطني؟

قلت: عند تحليل كل ما ذكرته من صفات يمكن إرجاعهـا إلى العلم والقدرة والتنزه عن العيوب والنقائص..

قال: فـأين علم الأولين والآخـرين من علم اللّـه تعـالى الـذي يحيط بالكل إحاطة خارجة عن النهاية، حتى لا يعـزب عنـه مثقـال ذرّة في السـموات ولا في الأرض.. بـل لـو اجتمـع أهـل الأرض والسماء على أن يحيطوا بعلمه وحكمته في تفصيل خلـق نملـة أو بعوضة لم يطلعوا على عشر عشير ذلك، ولا يحيطـون بشـيء من علمه إلا بما شاء.

فإن كـان جمـال العلم وشـرفه أمـرا محبوبـا، وكـان هـو في نفسه زينة وكمالا للموصف به، فلا ينبغي أن يحب بهذا السـبب إلا الله تعالى. فعلوم العلماء جهل بالإضافة إلى علمه..

قلت: والقدرة؟

قـال: يسـتحيل أن يحب عبـدا من عبـاد اللّـه تعـالى لقدرتـه، وسياسته، وتمكينه، واستيلائه، وكمـال قوتـه، ولا يحب اللّـه تعـالى لذلك، ولا حول ولا قوة إلا باللّه العلي العظيم، فهو الجبار القـاهر، والعليم القـادر، السـموات مطويـات بيمينـه، والأرض وملكهـا ومـا عليها في قبضته، وناصية جميع المخلوقـات في قبضـة قدرتـه، إن أهلكهم من عنـد آخـرهم لم ينقص من سـلطانه وملكـه ذرة، وإن خلق أمثالهم ألف مرة لم يعي بخلقها، ولا يمسـه لغـوب ولا فتـور في اختراعها، فلا قدرة ولا قادر إلا وهـو أثـر من آثـار قدرتـه، فلـه الجمال والبهاء، والعظمة والكبريـاء، والقهـر والاسـتيلاء فـإن كـان يتصور أن يحب قادر لكمال قدرته فلا يستحق الحب بكمال القدرة سواه أصلا.

قلت: وصـفة التـنزه عن العيـوب والنقـائص، والتقـدس عن الرذائل والخبائث؟

قال: لا يتصور كمال التقدس والتنزه إلا للواحد الحـق الملـك القـدوس، ذى الجلال والإكـرام.. وأمـا كـل مخلـوق فلا يخلـو عن نقص .. بل كونه عاجزا، مخلوقا، مسخرا، مضطرا، هو عين العيب والنقص، فالكمـال للَّه وحـده، و ليس لغـيره كمـال إلا بقـدر مـا

أعطاه الله، وليس في المقدور أن ينعم بمنتهى الكمال على غيره فإن منتهى الكمال أقل درجاتـه أن لا يكـون عبـدا مسـخرا لغـيره، قائما بغيره، وذلك محـال في حـق غـيره، فهـو المنفـرد بالكمـال، المنزه عن النقص، المقدس عن العيوب.

قلت: فقد بان بذلك أن صاحب الجمال والكمال المطلق هــو الله تعالى.

قال: الجميل المطلق هو الواحد الذي لا ندّ له، الفرد الذي لا ضدّ له، الصمد الذي لا منازع له، الغني الـذي لا حاجـة لـه، القـادر الـذي يفعـل مـا يشـاء ويحكم مـا يريـد، لا راد لحكمـه، ولا معقب لقضائه، العالم الذي لا يعزب عن علمه مثقـال ذرة في السـموات والأرض، القاهر الذي لا يخرج عن قبضة قدرته أعناق الجبابرة، ولا ينفلت من سطوته وبطشـه رقـاب القياصـرة، الأزلي الـذي لا أول لوجوده، الأبدي الذي لا آخر لبقائه، الضروري الوجود الذي لا يحوم إمكان العدم حول حضرته، القيوم الذي يقـوم بنفسـه ويقـوم كـل موجــود بــه، جبــار الســموات والأرض، خــالق الجمــاد والحيــوان والنبات، المنفرد بالعزة والجبروت، المتوحد بالملك والملكوت، ذو الفضل والجلال، والبهاء والجمال، والقدرة والكمـال، الـذي تتحـير في معرفة جلاله العقول، وتخرس في وصفه الألسنة، الذي كمـال معرفة العارفين الاعتراف بالعجز عن معرفته، ومنتهى نبوة الأنبياء الإقرار بالقصور عن وصفه.

قلت: فكيف احتجب كـل هـذا الجمـال عن بصـائر الغـافلين.. وكيف تاه الخلق في الحب المدنس، وفروا من الحب المدنس؟

قال: سبحان من احتجب عن بصائر العميان غيرة على جماله وجلاله أن يطلع عليه إلا من سـبقت لـه منـه الحسـني، الـذين هم عن نـار الحجـاب مبعـدون، وتـرك الخاسـرين في ظلمـات العمى يـتيهون وفي مسـارح المحسوسـات وشـهوات البهـائم يـترددون، يعلمون ظاهرا من الحياة الدنيا وهم عن الآخرة هم غافلون.

بقيت مــدة في صــحبة محمــد يعلمــني المحبــة وأســرارها، ويشــوقني إلى معانيهــا الســامية إلى أن لاح لي ســلم نــوراني لا

يمكن وصفه عـرج بي إلى عـوالم لا يمكن أن يسـطر وصـفها في كتاب، فقد وضع بينها وبين الحروف والأصوات كل أنواع الحجاب.

سابعا ـ الهابط

قلت: عرفت السر السادس من أسرار الإنسان.. فما السر السابع؟

قال: هو السر الذي أشار إليه قوله تعالى : قَالَ أَتَسْتَبْدِلُونَ الَّذِي هُوَ أَدْنَى بِالَّذِي هُوَ خَيْرٌ اهْبِطُوا مِصْراً فَإِنَّ لَكُمْ مَا سَأَلْتُمْ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ وَالْمَسْكَنَةُ وَبَاءُوا بِغَضَبٍ مِنَ اللَّهِ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ بآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّينَ بِغَيْرِ الْحَقِّ ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ (البقرة:61).. وقوله: قَالَ فَاهْبِطْ مِنْهَا فَمَا يَكُونُ لَكَ أَنْ تَتَكَبَّرَ فِيهَا فَاخْرُجْ إِنَّكَ مِنَ الصَّاغِرِينَ (لأعراف:13).. وقوله: قَالَ اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَى حِينٍ (لأعراف:24)

قلت: كل هذه الآيات تتحدث عن الهبوط.

قال: فذلك هو السر التاسع من أسرار الإنسان.. ولا يمكن أن تعرف الإنسان دون أن تعرفه.

قلت: فحدثني عنه.. وكيف تعرفت عليه؟

استغرق في صمت طويل، ثم قال: ما أمر تلك الذكريات التي تربطني بهذا السر..

قال ذلك، ثم عاد إلى صمته، فاستحييت، وقلت: لا بأس.. دعنا منه.. وهلم بنا إلى غيره.

قال: لا.. معاذ الله.. أتريدني أن أخون؟

قلت: من تخون؟

قال: الإنسان.. أعظم خيانة للإنسان ألا نحذره من أنواع الآلام التي تنتظره إن أدمن الهبوط.

قلت: لكني أراك متألما.

قال: لست وحدي المتألم.. كل من ورث رحمة رسول الله

ورقة قلبه لابد أن يتألم ويحزن.. ألم تسمع إلى ربك، وهو يقول : ﴿ وَلا يَحْزُنْكَ الَّذِينَ يُسَارِعُونَ فِي الْكُفْرِ إِنَّهُمْ لَنْ يَضُرُّوا اللَّهَ شَيْئاً يُرِيدُ اللَّهُ ألا يَجْعَلَ لَهُمْ حَظّاً فِي الْآخِرَةِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾ (آل عمران:176).. وقوله: ﴿ فَلَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَفْسَكَ عَلَى آَثَارِهِمْ إِنْ لَمْ يُؤْمِنُوا بِهَذَا الْحَدِيثِ أَسَفًا (6)﴾ (الكهف).. وقوله: ﴿ يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ لا يَحْزُنْكَ الَّذِينَ يُسَارِعُونَ فِي الْكُفْرِ ﴾ (المائدة:41).. وغيرها من الآيات الكثيرة التي تصور حال رسول الله ﷺ.. وهو ينظر إلى العاصين والمشركين والمنافقين..

قلت: بورك لك هذه الوراثة.. فأنت تحيي بها سنة تقتل كل حين.

قال: ما تعني؟

قلت: إني أعيش مع نفر من الناس يريدون أن يحتكروا الجنة.. وكأنها ضيعة ورثوها عن آبائهم.. فهم يحجبون الخلق عنها بصنوف الحجب.. وهم لا يفرحون بشيء كما يفرحون بتكفير الناس وتبديعهم وتفسيقهم وتطليق زوجاتهم ودفنهم في غير مقابر المسلمين.

قال: فأخبرهم بقوله ﷺ : (إذا قال الرجل لأخيه : يا كافر فقد باء بها أحدهما إن كان الذي قيل له كافرا فهو كافر وإلا رجع على من قال)[1].. وقوله : (ما شهد رجل على رجل بكفر إلا باء بها أحدهما إن كان كافرا فهو كما قال، وإن لم يكن كافرا فقد كفر بتكفيره إياه) [2].. وقوله: (ما من مسلمين إلا بينهما ستر من الله، فإذا قال أحدهما لصاحبه هجرا هتك ستر الله، وإذا قال : يا كافر فقد كفر أحدهما)[3].. وقوله : (إذا قال الرجل لأخيه : يا كافر فهو كقتله، ولعن المؤمن كقتله) [4].. وقوله : (أيما رجل

---

[1] رواه الطبراني.

[2] رواه الخرائطي والديلمي وابن النجار.

[3] رواه الطبراني والبيهقي.

[4] رواه الطبراني.

مسلم كفر رجلا مسلما فإن كان كافرا وإلا كـان هـو الكـافر)(1).. وقوله : (من قال : إني بريء من الإسلام، فإن كان كاذبا فهو كمـا قال وإن كان صادقا لم يعد إلى الإسلام سالما) (2).. وقوله : (إذا قال الرجل لأخيه : يـا كـافر فقـد بـاء بهـا أحـدهما) (3).. وقولـه : (كفوا عن أهل لا إله إلا الله.. لا تكفروهم بذنب، فمن كفر أهـل لا إله إلا الله.. فهو إلى الكفر أقرب) (4).. وقوله : (أيما امرئ قـال لأخيه : يا كافر فقد باء بهـا أحـدهما إن كـان كمـا قـال وإلا رجعت عليه) (5).. وقوله : (ما كفر رجل رجلا قط إلا باء بها أحدهما)(6)

قلت: هم يعلمون ذلك.. ولا يحتاجون مني أن أخبرهم.

قال: هم يعلمون.. ولكنهم يغفلون.

قلت: ليتهم كـانوا كـذلك.. هم يعلمـون ولكنهم يفـرون ممـا يعلمون بصنوف التحريف والتأويل..

قال: فدعك منهم.. وهلم نخبر الإنسان عن هبوط الإنسان.

استغرق الشيخ الصالح في صمت عميق.. ثم قـال: في ذلـك اليوم.. وفي تلك المدينة العجيبة ـ التي فتح الله لي فيها من علوم الإنسان ما كان منغلقا ـ سرت إلى مغارة كان السـواح يقصـدونها من كل مكان.. بل كان الكثير يقيم في البلدة من أجلها..

عندما حدثني بعضهم عنها تحركت نفسي لزيارتها..

في البدء كنت أتصورها مغارة طبيعية كسائر المغـارات الـتي يقصدها السواح.. وتهفو النفوس للنظر إلى جمالها وسحرها..

1() رواه أبو داود.

2() رواه النسائي وابن ماجه والحاكم.

3() رواه البخاري وغيره.

4() رواه الطبراني.

5() رواه مسلم والترمذي.

6() رواه ابن حبان.

لكني وجدتها مختلفة تماما.. لقد ذكر لي بعضهم أن بعض رجال الأعمال حول من تلك المغارة فتنة للناظرين.. فقد استغل حفرها العميقة ليبني فيها طوابق كثيرة.. أو دركات كثيرة.. تحوي من كل لهو ولعب بحسب أصناف الناس ومطالبهم.

عند باب المغارة العجيبة.. استقبلني النادل بكأس، وقال: اشرب من هذه الكأس العتيقة.. فقد تعودنا أن نستقبل بها كل ضيف جديد.. ذق.. فإنك إن ذقتها ذهب عقلك.. وطرت في عوالم الأحلام السبعة.

قلت: عوالم الأحلام السبعة!؟.. ما عوالم الأحلام السبعة؟

قال: كل درك من دركات هذا القصر عالم من عوالم الأحلام.. وهي جميعا عوالم عجيبة لها من اللذة والجمال ما لم تره عين، ولم تسمع به أذن، ولم يخطر على قلب بشر.

قلت: فهات الكأس إذن..

ما إن قربت الكأس من فمي حتى تذكرت أني مسلم.. وأنه ينبغي أن أسأل عن خلو الشراب من الكحول والمواد المسكرة قبل أن أشربه.. فلذلك سألت النادل عنه، فقال: هي خمر عتيقة لم تذق مثلها في حياتك.

أعطيته الكأس، وقلت: آسف.. لم أتعود أن أشرب خمرا.. فقد كنت رجل دين.. وأنا مرتبط بالدين.. وأنت تعلم أن الدين يحرم مثل هذا.

قهقه بصوت عال، وقال: تتحدث عن الدين.. ثم تأتي إلى هذه المغارة.

قلت: لقد أتيت لأنظر إلى ما يحكى عنها من صنوف الجمال.

قال: ما دامت كذلك.. فسأحضر لك كأسا أخرى.. هي الأخرى تطير بك في عوالم الأحلام السبعة.. ولكنها مع ذلك خالية من الكحول.

قلت: الحرمات ليست مرتبطة بالكحول وحدها.. المخدرات

أعظم حرمة من الكحول.

قال: لا تخف.. ليست بمخدرات.. إنها شراب خاص نعده لأمثالك..

قلت: لا أريد أن أشرب أي شراب.. أريد فقط أن أتفرج وأتمتع كما يتمتع السواح.

نظر إلي بارتباك وقال: لا.. لا يمكن أن تدخل أي درك من دركات هذا القصر المهيب حتى تتناول من شرابنا.. وإلا فإنك لن تتمتع بشيء.

قلت: لست أدري ما سر حرصك على هذا.. عهدي بالفنادق احترامها لرغبات زبائنها.

قال: كلها ما عدا هذا الفندق.. هذا الفندق يفرض على من يدخله أن يشرب من شرابه.. وإلا فإن القوانين تمنعه من الدخول..

قلت: لا بأس.. أعطني أسهل شراب..

فرح، وقال: لا بأس.. سأعطيك أسهل شراب..

قال ذلك، ثم سار وهو يردد بينه وبين نفسه: وسنرى كيف تشرب كل الأشربة بعد أن تتناول هذا الشراب.

لم يلبث إلا قليلا حتى جاءني بقارورة، وقال لي: اشرب من هذه.. إن بها شرابا لذيذا خال من كل المحرمات.. ولكنه لا يسمح لك إلا بالدخول في الدرك الأول فقط دون ما عداه..

قلت: لا بأس.. سيكفيني النظر إلى الأول.. ولعلي أستدل به على الآخر..

1 ـ الغافلون

لما قربت الكأس من فمي التفت إلى الزجاجة، فوجدت مكتوبا عليها (شراب الغافلين).. فامتلأت بالمخافة.. وكادت الكأس تسقط من يدي..

في ذلك الحين قيض الله لي رجلا أسـر في أذني من حيث لا أدري، وقال لي: قل قبل أن تشرب منه كل ما أقوله لك.

قلت: من أنت؟

قال: لن تعرفني.. ولن تطيق معرفتي.. قل فقـط مـا أطلبـه منك.

قلت: عجبا.. لست أدري في أي محل أنـا.. ذاك يفـرض علي الشراب.. وأنت تفرض علي الكلام.. أي فندق هذا؟

قال: خف منه، ولا تخف مني.

قلت: من أنت؟.. ومن هو؟

قال: لن تطيق معرفتنـا.. ولـذلك فإنـه من العبث أن أحـدثك عني أو عنه.

قلت: وأنا لن أردد ما تريد مني أن أردده إلا بعد أن أعرفك..

قال: إذا كـان الأمـر كـذلك.. فأنـا واعـظ اللـه.. هكـذا يطلـق علي(1).. واعلم أني لا آمرك إلا بخير.

قلت: مرحبا بك.. ومن الآخر؟

قال: له وظيفة تختلف عن وظيفـتي.. ولـه اسـم يختلـف عن اسمي.. إن أذعنت له عصيتني.. وإن أذعنت لي عصيته(2).

قلت: فأنت الآن تأمرني بطاعته؟

قال: لا.. أنا أحفظك من شره.

1() أشير به إلى قوله ﷺ :(إذا أراد الله تعالى بعبد خـيرا جعـل لـه واعظـا من نفسـه يـأمره وينهاه) رواه الديلمي في مسند الفردوس.

2() أشير به إلى ما ورد الحديث عنه في النصوص من القرين الصالح والقرين السـوء، ومن ذلك قوله ﷺ : (إن للشيطان لمة بـابن آدم وللملـك لمـة فأمـا لمـة الشـيطان فإيعـاد بالشـر وتكذيب بالحق وأما لمة الملك فإيعاد بالخير وتصديق بـالحق فمن وجـد ذلـك فليعلم أنـه من الله فليحمد الله ومن وجـد الآخـرى فليتعـوذ باللـه من الشـيطان)(رواه الترمـذي والنسـائي وابن حبان)

قلت: ولكنك لم تمنعني من شراب الغافلين.

قال: لم أمنعك منه لأنك أردت التحقيق في منازل الغافلين.. ولا يمكن أن تحقق في شيء دون أن تلبس لباسه.

ابتسـمت، وقلت: صـدقت.. لقـد رأيت الشـرطة في الأفلام البوليسية يفعلون هـذا.. هم أحيانـا يتنكـرون في ثيـاب المجـرمين ليكشفوا ألاعيب المجرمين..

قال: فمارس هذا الـدور اليـوم حـتى تكتشـف حقيقـة هبـوط الإنسان ومداركها.

قلت: وما يؤمنني أن أقع في فخ الهبوط.. وأظل في هاويته.

قال: ردد فقط عند شربه ما أذكره لك.. ولن يصيبك شـيء.. نعم ستتألم كثيرا.. ولكنه ألم يمكن أن يداوى ببلاسم أهل الله.

قلت: ألديك هذه البلاسم؟

قال: أجل.. وكيف لا تكون لي وأنا واعظ الله.

قلت: لا بأس.. أنا طوع أمرك.. قل ما الذي تريد أن أقوله.

قال: قل (اللهم إن أذقتني من شـراب الغـافلين.. فـاحفظني من الإدمان.. واحفظ جـوارحي من السـكون.. واجعلـني أفـر منـه إليك.. وأزداد معرفة به لك)

قلت ما طلبت مني، ثم شربت تلك الكأس.. وقد وجـدت لهـا من اللـذة والحلاوة مـا لم أذق في أي شـراب من الأشـربة الـتي يصنعها قومي..

بمجرد أن شربت منه شعرت بشوق كبير لكل لهو ولعب..

لقد صارت همتي كهمة الصبي الصغير.. يـبيع كـل شـيء من أجل لعبه.. لست أدري كيف صحت، وأنا على أبواب الدرك الأول: أريد لعبا.. أريد تسلية.. لقد ضاقت نفسي.

أسرع إلي النادل الذي سلمني الكأس.. وقال: تعال.. سـتجد

كل اللعب في هذا الدرك.. درك الغافلين..

لم أنتبه للكلمة التي قالها.. فقد كنت منشغلا انشغالا كلية بتلك الهمة العجيبة التي تحركت في نفسي.

دخلت مع النادل إلى (درك الغافلين).. فوجدت كل ما تهفو إليه النفس من شهوات..

رأيت سينما كبيرة ثلاثية الأبعاد.. وقد كتب عليها (كل ما تتمناه نفسك، ويهفو إليه خيالك ستجده هنا.. بضغطة زر واحدة سترحل إلى عوالم الأحلام السبعة)

ورأيت بجانت السينما جهاز كمبيوتر من آخر طراز.. فاقتربت منه لأرى ما كتب على شاشته.. فوجدت هذه العبارة (لدينا آلاف المواقع.. بل ملايين المواقع.. ستجد فيها كل ما يرضيك من أنواع اللهو واللعب.. بضغطة زر واحدة سترحل إلى عوالم الأحلام السبعة)

ورأيت بجانت جهاز الكمبيوتر أصنافا كثيرة من اللعب.. كلها تطلب مني أن أضغط على أزرارها لأرحل إلى عوالم الأحلام السبعة.

كدت أضغط على بعض تلك الأزرار.. لكن الواعظ الذي كان يأتيني فلا أعرف كيف جاء، وينصرف فلا أعرف أين انصرف نبهني، وحذرني.. فلم أجد إلا أن أطيعه..

نعم كنت أتألم لطاعته.. فقد كان لنفسي حنين شديد لكل لهو ولعب.. ولكني مع ذلك ألزمت نفسي وجاهدتها على ألا أقصر في طاعته..

ولولا أن من الله علي بالتثبيت لظللت في ذلك القصر الخطير طول عمري.

قلت: فما رأيت غير هذا؟

قال: رأيت جموعا كثيرة من الناس.. جموعا كثيرة جدا لا يمكن تصورها.. وكأن الكرة الأرضية جميعا قد اجتمعت في ذلك

المحل.

قلت: وما تفعل فيه؟

قال: لقد كانت كلها منصرفة انصرافا كليا إلى لهوها ولعبها حتى أنها لا تشعر بمن جاء وبمن راح..

لا أكتمك أني في البداية، وربما بفعل الشراب الذي شربته، حننت لأن يكون لي من الهمة ما لها.. لكن الواعظ كان يشير لي إلى تلك الكآبة التي تختفي وراء اللهو الذي يبدو لي..

رأيت رجلا في تلك الجموع ينشد.. وهو يشرب من تلك القارورة التي كنت قد شربت منها:

ليس يدرى بمنطق	أي وقت دارت به
أو متى تصبح السماء	فتداعت وانهد منها
دع عنك حرص	إن أحسن الدهر أو
واعبث بشعر الحبيب	فالعمر يمضي غدا
إن تواعدتم رفاقي	وسعدتم بالغادة
وأدار الساقي كؤوس	فاذكروني في

ورأيت آخر يردد، وهو يجري خلف صبية من الصبابا هي في عمر ابنته:

حامِلُ الهوى	يَسْتَخِفّهُ
إَنْ بُكَى يحقّ	ليسَ ما بهِ
تضحكينَ	والمُحبّ
تَعْجَبِينَ مِنْ	صِحّتي هِيَ
كُلّمَا انقَضَى	مِنْكِ عادَ لي

ورأيت آخر منشغلا انشغالا كليا بلبنات من اللعب يرصفها بصنوف من الرصف ليشكل منها قصرا..

ورأيت آخر، وقد جمع أصناف المطاعم.. وهو يأكل منهـا بنهم غير ملتفت لبطنه الكبيرة.. ولا لشكله العجيب الذي تصـرفت فيـه أصناف المطاعم فحولته إلى كتل من اللحم والشحم المبعثر.

ورأيت آخــر يلبس حلــة جديــدة، وهــو ينظــر إلى عطفيــه.. ويتبختر كما يتبختر الطاووس..

ورأيت آخــر يترصــد كــل تجمــع للنــاس.. ليقــف بينهم ويــبرز عضلاته ولسانه.. فإذا صفق الناس بدا السـرور على وجهـه.. وراح يستعمل أسلوبا آخر ليصفق له الناس من جديد.

ورأيت آخر يقف في الصلاة، فـأعجبني حالـه، واسـتغربت أن يوجد مثله في هذا المحل.. لكن عجبي زال عندما رأيتـه يضـع في يده لعبة من لعب الصبيان، وهو يلعب فيها في الـوقت الـذي كـان يؤدي جميع حركات الصلاة، ويردد جميع أقوالها.

ورأيت آخر نائما مستغرقا في نومـه.. وأمامـه ورقـة مكتـوب عليها (لا توقظني فأني صائم)

ورأيت كثيرين لا يمكن حصرهم ..

تعجبت من كل هذه المنـاظر، وبـدأ يتسـرب لي بعض الملـل منها، فقـد رأيت أن الغشـاوة الـتي تحيـط بأهلهـا كافيـة لأن تمنـع عنهم كل أنس..

بمجرد أن خطر هذا الخاطر على خاطري ظهـر لي الواعـظ، بل جلس بجانبي، وقال: صدقت.. ما تشعر بـه هـو الحقيقـة الـتي غفل عنها هؤلاء..

قلت: من هؤلاء؟

قال: هؤلاء هم الذي شربوا من شراب الغفلـة الـذي شـربت منه.

قلت: ولكني لم يحصل لي ما حصل لهم.

قال: عندما تدمن عليه سيحصل لك ما حصل لهم.

قلت: أعوذ بالله من ذلك.

قال: هذا ما ينبغي أن تقولـه.. فلا يحفـظ أحـد من الغفلـة إلا بحفظ الله..

قلت: أجل.. لكني مـع ذلـك لا ألـوم هـؤلاء كثـيرا.. فلم أرهم يفعلـون إلا المباحـات.. فلا سـرقة في هـذا المحـل ولا خـداع ولا فواحش ولا منكرات..

قال: الغفلة أم الفواحش.. فلا تحقرنها.. لقـد اعتبرهـا أوليـاء الله أوّل المعاصي.. بل أصل الكبـائر.. لقـد سـأل عمـار بن ياسـر عليا بن أبي طالب، فقال : يا أمير المؤمنين أخبرنا عن الكفر على مـا بــني ؟ فقــال : (على أربــع دعــائم : على الجفــاء، والعمى، والغفلـة، والشـك، فمن جفـا احتقـر الحـق وجهـر بالباطـل ومقت العلماء، ومن عمى نسي الذكر، ومن غفل حاد عن الرشـد وغرّتـه الأمـاني فأخذتـه الحسـرة والندامـة وبـدا لـه من اللّـه مـا لم يكن يحتسب، ومن شكّ تاه في الضلالة)

وفوق ذلك كلـه أخـبر اللـه تعـالى بالمصـير الـذي يصـير إليـه الغافلون، فقال : ﴿ وَلَقَـدْ ذَرَأْنَـا لِجَهَنَّمَ كَثِـيراً مِنَ الْجِنِّ وَالْأِنْسِ لَهُمْ قُلُــوبٌ لا يَفْقَهُــونَ بِهَــا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لا يُبْصِــرُونَ بِهَــا وَلَهُمْ آذَان لا يَسْـمَعُونَ بِهَـا أُولَئِكَ كَالْأَنْعَـامِ بَـلْ هُمْ أَضَـلُّ أُولَئِكَ هُمُ الْغَـافِلُونَ ﴾ (الأعراف:179)

قلت: لقـد رتب اللـه في كونـه أسـبابا وأدويـة.. فمـا أسـباب الغفلة وما أدويتها؟

قال: اقـترب من هـؤلاء.. فسـترى أن اللـه قيض لكـل واحـد منهم من يعظه.. فاسمع لما يعظونهم به.. لتجد جوابك.

اقتربت من أحـدهم، وكـان يـردد السـين وسـوف كـل حين.. فسمعت واعظه يقول له: (إياك والسين والتسويف، فإنك بيومــك ولست بغدك)..

إيـاك والتسـويف فإنــك لا تضــمن أن تعيش إلى الغــد.. وإن ضمنت حياتك إلى الغد فإنك لا تأمن المعوِّقات من مرض طــارئ،

أو شغل عارض، أو بلاء نازل.

ثم اعلم أن لكل يوم عملاً، ولكل وقت واجباته، فليس هناك وقت فراغ في حياتك..

كان الرجل منشغلا كل الانشغال، وكأنه لا يسمع ولا يرى هذا الواعظ البليغ الذي يعظه.

راح الواعظ ينشد بصوت جميل:

تزوَّد من التقوى فإنك لا	إن جنَّ ليلٌ هل تعيشُ إلى الفجر
فكم من سليمٍ مات من غير علَّةٍ	وكم من سقيمٍ عاش حيناً من الدهر
وكم من فتىً يمسي ويصبح آمناً	وقد نُسجتْ أكفانُه وهو لا يدري

لم يلتفت الرجل إليه مع أن صوته الجميل كان كمزامير آل داود يحرك له الجبال وتهتز له الطير.

راح الواعظ يقول له: اسمع.. فقد قال رسول الله ﷺ : (اغتنم خمسا قبل خمس: حياتك قبل موتك، وصحتك قبل سقمك، وفراغك قبل شغلك، وشبابك قبل هرمك، وغناءك قبل فقرك)(1)

لم يلتفت الرجل له، فراح الواعظ يرتل بصوت خاشع قوله تعالى :﴿ اقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ مُعْرِضُونَ﴾ (الانبياء:1).. يقرؤها ويكررها..

لكن الرجل ظل في غفلته.. يلهو ويلعب.. منشغلا بالنادل الذي يسقيه كل حين من شراب الغافلين عن الواعظ الذي يرتل عليه كلام رب العالمين.

تركته، وذهبت إلى الذي كان يبني قصورا من اللعب.. فسمعت واعظه يقول له منشدا بصوت جميل تتحرك له الجبال:

يا من يُطيلُ بناءهُ	ريبَ المنونِ وصَرْفَه
فالموتُ يفزعُ كل	والموتُ يفتحُ كُلَّ

(1) رواه الحاكم والبيهقي وأحمد.

لم يلتفت الرجل إليه، فراح يقول له: اسمع.. فإن حقائق الآخرة المدونة في الدواوين المقدسة تقول بلسان فصيح:

لا دارَ للمرءِ بعدَ ... إلا التي كانَ قبلَ

فإِن بناها بخيرٍ طابَ ... وإِن بناها بشرٍ خابَ

وتقول:

الموتُ ضيفٌ ... قبلَ النزولِ

واعملْ لدارٍ أنتَ ... دارِ المقامةِ آخرَ

وحكمة الحكماء تردد مع علي :

رَأيْتُ الدهرَ مختلفاَ ... فلا حُزْنٌ يدومُ ولا

وقدْ بَنَتِ الملوكَ به ... فم تبْقَ الملوكَ ولا

إِن اللياليَ للأنامِ ... تُطوُى وتُنْشَرُ دونَها

فقِصارُهن مع ... وطِوالُهنَ مع

وتردد مع أسامة بن منقذ:

احذرْ من الدنيا ... تغترَّ بالعمرِ القصيرِ

وانظرْ إِلى آثارِ ... صَرَعَتْه منا بالغرورِ

عَمَروا وشادو ... هُ (تراه) من المنازلِ

وتحَوَّلوا من بعدِ ... ها (سكناها) إلى

كان الرجل غافلا عن تلك الكلمات الجميلة، والألحان العذبة التي يرددها واعظه.. وقد تعجبت من كل ذلك، ولكن عجبي زال عندما رأيته كل حين يرتشف من كأس الغافلين ما يصم أذنيه عن وعظ الواعظين.

تركته وانصرفت إلى الذي كان يرصد التجمعات ليصفق له الناس.. فسمعت واعظه يقول له بلسان فصيح:

احذر من الشهرة..

فكم شهرةٍ أدت إلى وألقَتْ عليه البؤسَ

وماذا تفيدُ الهالعَ تدقُ دفوفٌ حولَها

هبوني حياةً لاتروَّعُ وسيانُ عندي شهرةٌ

احذر.. فعابد الجاه تنهشه السهام من كل الجهات.. فهو في ترقب مستمر لانقلاب أحمر أو أبيض، يأتيه من صديقه أو عدوه، يقض مضجعه بالليل، ويفسد راحته بالنهار.

احذر.. فإن هذا الانقلاب لا بد أن يأتيك، فحركات الشمس وتقلبات الليل والنهار تأبى الثبوت.

لكن الرجل المسكين كان منشغلا بالتصفيقات وبالتحضير لها.. فلم يلتفت لواعظه الذي بحت حنجرته، وهو يعظه بكل أصناف المواعظ.

تركته، وانصرفت إلى الذي كان منشغلا بلباسه عن حقيقته ووظيفته.. فسمعت واعظه يقول له بلسان فصيح: دعك من هذا.. وانشغل بالتحضير للباس الذي قال الله فيه وفي أهله: ﴿ أُولَئِكَ لَهُمْ جَنَّاتُ عَدْنٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهِمُ الْأَنْهَارُ يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِنْ ذَهَبٍ وَيَلْبَسُونَ ثِيَاباً خُضْراً مِنْ سُنْدُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ مُتَّكِئِينَ فِيهَا عَلَى الْأَرَائِكِ نِعْمَ الثَّوَابُ وَحَسُنَتْ مُرْتَفَقاً ﴾ (الكهف:31)..

لكن المسكين لم ينتبه.. فقد كان تحت تأثير شراب الغفلة..

تركته، وانصرفت إلى الذي كان غافلا في صلاته.. فسمعت واعظه يقرأ عليه قوله تعالى: ﴿ قُلْ آَمِنُوا بِهِ أَوْ لَا تُؤْمِنُوا إِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مِنْ قَبْلِهِ إِذَا يُتْلَى عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّدًا (107) وَيَقُولُونَ سُبْحَانَ رَبِّنَا إِنْ كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولًا (108) وَيَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ يَبْكُونَ وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعًا (109)﴾ (الإسراء)، ثم يقول له: هكذا وصف الله أهل العلم من عباده، فارفع همتك لتكون مثلهم.. فلا خير في همتك لا ترفعك إلى مقام أهل العلم.

تركته، وانصرفت إلى الذي كان غافلا عن صيامه.. فسمعت واعظه يقرأ عليه قوله تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ (البقرة:

183).. ثم يقول له: لهذه الغاية شرع اللـه الصـيام.. ولا يمكن أن تنال هذه الغاية، وأنت غافل عنها منشغل بنـوم لا يزيـدك من اللـه بعدا..

وهكذا.. ظللت وقتا طويلا أسمع المواعظ البليغة من القرآن، ومن السنة، ومن كلام الحكماء العقلاء.. ولكن الغافلين المساكين كانوا منشغلين عنها إما بشراب الغفلـة.. أو ببعض اللهـو واللعب.. أو بالنوم الطويل.. أو باللغو الكثير..

2 ـ الفاسقون

بعـد أن رأيت مـا رأيت في درك الغـافلين حنت نفسـي لأرى الدرك الثـاني.. فسـألت الواعـظ المكلـف بي عن كيفيـة الـدخول إليه.. وأي شراب سأشربه لأدخل إليه.. وماذا أقول.

فقال: الدرك الثاني درك الفاسقين.

قلت: من الفاسقون؟

قال: أولئك الذين لم يقنعوا بما أباح اللـه لهم من الطيبـات.. فراحوا يملأون حـرص نفوسـهم على الأهـواء والشـهوات بـاللجوء للفواحش والمنكرات.

قلت: تبا لهم.. ألم يكفهم أن الله أباح لهم من كل الطيبات؟

قال: نفس الإنسـان تـأبى الاسـتقرار.. ولـذلك فإنهـا لا تحـط الرحال أبدا.. ولذلك فهي إما في صعود أو هبوط.

قلت: فلتحط رحالها في المباحات.. ألا تكفي المباحات؟

قال: النفس التي تدمن على الغفلة تطالب صاحبها كـل يـوم بجديد.. فإن لم تجد في المباحات الجديد لجأت إلى الحرام..

ولهـذا فقـد جعـل أهـل اللـه بينهم وبين الحرمـات جـدارا من المباحات، فهم يفرون منه ولا يقربونه..

قلت: مبتـدعون هم.. كيـف يحرمـون مـا أبـاح اللـه من الطيبات.. ألم يقرأوا قوله تعالى :﴿ قُـلْ مَنْ حَـرَّمَ زِينَـةَ اللَّهِ الَّتِي

أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ (لأعراف:32)، وقوله تعالى : يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكَ)(التحريم:1)

قال: بلى.. وقد قرأوا معها قوله تعالى : وَلا تَمُدَّنَ عَيْنَيْكَ إِلَى مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجاً مِنْهُمْ زَهْرَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَى (طه:131)

ومعها قوله ، فقال: (الحلال بين والحرام بين، وبينهما أمور مشتبهات، لا يعلمها كثير من الناس، فمن اتقى الشبهات استبرأ لعرضه ودينه، ومن وقع في الشبهات وقع في الحرام، كراع يرعى حول الحمى، يوشك أن يواقعه، ألا وإن لكل ملك حمى، وإن حمى الله تعالى في أرضه محارمه، ألا وان في الجسد مضغة إذا صلحت صلح الجسد كله، وإذا فسدت فسد الجسد كله، ألا وهي القلب)[1]

قلت: صدقت في هذا.. ولكن كيف يبيح الله شيئا، ثم نحرمه على أنفسنا؟

قال: الصالحون لم يحرموا المباحات.. فلا أحد يجرؤ على تحريم ما أباح الله.. ولكنهم حرموا على أنفسهم الركون إليها والتثاقل إلى الأرض بسببها..

قلت: لم؟

قال: لأن من تثاقل إلى الأرض لطخته أوحالها لا محالة.. لكن من ارتفع إلى السماء، وهو يعيش على الأرض لم يصبه من أحال الأرض شيء.. فإن أصابه شيء سهل عليه تطهيره بمياه التوبة.

قلت: أفي نفس الإنسان نزوع للهبوط؟

قال: كما أن فيه نزوعا للصعود فيه نزوع للهبوط.. هو ينزع للهبوط لأنه يحن إلى التراب الذي خلق منه.. وهو ينزع للصعود.. لأنه يحن للروح التي نفخت فيه.

---

[1] () رواه البخاري ومسلم.

والمؤمن هو الذي يحفظ صعوده في الوقت الذي يمارس فيه ما تتطلبه حياة التراب من مطالب.

قلت: فالفاسق إذن هو من تغلب ترابه على روحه؟

قال: أجل.. ولكنه مع ذلك لا يزال يحتفظ بالحنين إلى الروح.. وعوالم الروح.

قلت: هو مؤمن إذن؟

قال: هو مؤمن.. ولكنه في حال وقوعه في المعاصي يخلع ثوب إيمانه.. فالإيمان أرفع من أن يتدنس بالمعاصي.. لقد ذكر رسول الله ذلك، فقال: (لا يزني الزاني حين يزني وهو مؤمن، ولا يسرق السارق حين يسرق وهو مؤمن، ولا يشرب الخمر حين يشربها وهو مؤمن.. فإذا فعل ذلك فقد خلع ربقة الإسلام من عنقه فإن تاب تاب الله عليه)[1]

وقال: (لا يسرق السارق وهو مؤمن، ولا يزني الزاني وهو مؤمن، الإيمان أكرم على الله من ذلك)[2]

قلت: فهل سأسقى من شراب الفاسقين لأنزل إلى دركهم؟

قال: لا .. لن تحتاج إلى ذلك.. فسوف أريكهم من غير أن تشرب من شرابهم.. لكنك ستتعذب كثيرا.

قلت: ألا يصيبني العذاب لو شربت من شرابهم؟

قال: بلى .. سيصيب روحك لا جسدك.. فلذلك لن تفطن له ما دمت في هذه الدار.. لكنك إن عدت إلى بيتك الذي هو حقيقتك، فستشعر بكل حريق، وتتألم لكل سم.

قلت: فشرابهم مخدر إذن؟

قال: أجل.. فلذلك يتحول السم في أفواههم عسلا.. وتتحول النار التي تحرق أرواحهم بردا وسلاما.

1() رواه البخاري ومسلم وأبو داود والترمذي والنسائي، والزيادة بعد النقاط للنسائي.

2() رواه البزار.

قال ذلك، ثم كساني ثوبا من نور.. ونزل بي في سلم ممتلئ بالظلمــات إلى أن وصــلت إلى درك الفاســقين.. وهنــاك رأيت جموعا كثيرة من الناس، والنار تحيـط بهـا من كـل جـانب، وهي لا تلتفت لها، بل تظل تضحك وتلعب وتسـخر.. والنـار تمتـد، فتحـرق ثيابها، بل تصل إلى سويداء قلوبها، وهي لا تشعر بشيء.

3 ـ الظالمون

بعد أن امتلأت غثاء بسبب ما رأيت في درك الفاسقين نزلت دركـا آخـر.. سـألت الواعـظ عنـه، فـأخبرني أنـه درك الظـالمين، فسـألته عنهم، فقـال: إنهم الـذين لم يكتفـوا بمـا رزقهم اللـه من فضله، بل راحـوا يطلبـون مـا عنـد غـيرهم، وراحـوا – فـوق ذلـك- يحرفون الحقائق ليخدموا بها أهواءهم.

قلت: ما أكثر الظلمة بهذا.

قال: أجل.. فكل من تعدى حده، وتمرد على ربه، وطغـا على فطرته كان ظالما..

ولذلك ذكر الله الشرك، واعتبره ظلمـا عظيمـا، فقـال: وَإِذْ قالَ لُقْمانُ لِابْنِهِ وَهُوَ يَعِظُهُ يا بُنَيَّ لا تُشْرِكْ بِاللَّهِ إِنَّ الشِّـرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ (13) (لقمان)

وقـال: وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ ذُكِّرَ بِآيـاتِ رَبِّهِ ثُمَّ أَعْـرَضَ عَنْهـا إِنَّا مِنَ الْمُجْرِمِينَ مُنْتَقِمُونَ (22) (السجدة)

لا يمكنني أن أحكي لكم مـا رأيت من مشـاهد.. لكن أبشـعها كان لنفر من الناس، كانوا يتحـدثون، ويضـحكون، وفجـأة وبعـد أن غادر أحدهم مجلسهم، راحـوا يسـرعون إليـه، ويغمـدون سـيوفهم في ظهره.. ثم راحوا يجتمعون على أكله وهم يضحكون.

سألت صاحبي الواعظ عنهم، فقرأ قوله تعالى: يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اجْتَنِبُـوا كَثِـيرًا مِنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ وَلَا تَجَسَّسُـوا وَلَا يَغْتَبْ بَعْضُــكُمْ بَعْضًــا أَيُحِبُّ أَحَــدُكُمْ أَنْ يَأْكُــلَ لَحْمَ أَخِيــهِ مَيْتًــا فَكَرِهْتُمُوهُ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ رَحِيمٌ [الحجرات: 12]

قلت: كنت أتصور أن ذلك في الآخرة.

قال: أجل .. هو في الآخرة.

قلت: ولكن القيامة لم تقم بعد.

قال: الدنيا والآخرة حالتـان نعيشـهما في كـل لحظـة.. فحـظ الدنيا لجسدك.. وحظ الآخرة لروحك.. ولو أنه كشف لك الحجــاب لرأيت أرواح هؤلاء، وهي تتعذب عذابا شديدا بأكلها لتلك الجيفة.

قلت: ولكني أراهم يضحكون؟

قال: لأنهم شربوا من شراب إبليس المخدر.. والذي سرعان ما سيزول تأثيره ليكتشفوا الحقيقة المرة التي غابت عنهم.

قلت: فأين وعاظهم من الملائكة؟

قال: لقد طردوهم، وأبعـدوهم، وأغلقـوا قلـوبهم دون سـماع مواعظهم.

4 ـ المبتدعون

بعد أن امتلأت غثاء من درك الظالمين، نزلت درك المبتدعة، وقد تعجبت من وجـود مسـاجد ودور عبـادة كثـيرة فيهـا.. والعجب أنها كانت جميعـا كبـيرة وضـخمة ومزخرفـة بكـل ألـوان الزخرفـة الجميلة، وقد جعلني ذلك أحتار في المحل الذي نزلت إليــه، وهــل هو حقا درك المبتدعة.

لكــني بمجــرد دخــولي لتلــك المســاجد المزخرفــة المــزين ظاهرها، وجـدت باطنهـا على خلاف ظاهرهـا.. فقـد كـانت أرضـها مفروشة بأشواك السعدان، وكان طلاؤها مشكل من جميـع أنــواع القاذورات والنجاسات.. وكانت سماؤها نيران متلهبة.

والعجب الأكبر من ذلك هو أني وجدت المصلين فيها يــأتمون في صلاتهم وراء إمام هو أشبه الناس بالشيطان.. وكـانت قراءتــه للقرآن الكريم قراءة مقلوبة ممتلئة بالتحريف.

وبعد أن صلى بهم وقف خطيبا عليهم، والعجب أنه في جميـع

خطبته كان لا يدعو إلا للظلم والاستبداد والطغيان.

وقد تعجبت عندما رأيت تلـك الجمـوع الـتي تسـمع لـه، تبكي وتتأثر ويبدو عليها الخشوع، وكأنهـا لم تسـمع مـا يـدعوها إليـه من فتنة وإهراق دماء.

وقد تعجبت عند سماعي لقراءتهم القرآن الكريم، فقد كـانوا يعكسـون كـل معانيـه، ويغيرونهـا تغيـيرا شـديدا، مـع أنهم كـانوا يخرجون حروفه من مخارجهـا، بـل يلـتزمون بكـل مـا أعرفـه من أحكام الترتيل.

سـألت صـاحبي الواعـظ عنهم، فقـال: هـؤلاء هم المبتدعـة الذين ذكرهم رسول الله ﷺ ، فقال: (يأتي في آخر الزمان حـدثاء الأسنان سفهاء الأحلام يقرؤون القرآن لا يتجاوز تراقيهم، يقولون: من قول خير البريـة لا يتجـاوز حنـاجرهم يمرقـون من الـدين كمـا يمرق السهم من الرمية، فإذا رأيتموهم، فاقتلوهم فان قتلهم أجـر لمن قتلهم يوم القيامة)[1]

وقال عنهم: (يخـرج قـوم من أمـتي يقـرؤون القـرآن ليسـت قـراءتكم الى قـراءتهم شـيئا، ولا صـلاتكم الى صـلاتهم شـيئا ولا صيامكم الى صيامهم شيئا، يقرأون القرآن يحسبون أنـه لهم وهـو عليهم لا تجاوز صلاتهم تراقيهم، يمرقـون من الاسـلام كمـا يمـرق السهم من الرمية)[2]

وقال عنهم: (يرث هذا القـرآن قـوم يشـربونه شـرب اللبن، لا يجاوز تراقيهم)[3]

وقال عنهم: (يخرج قوم أحداء أشداء ذليقـة ألسـنتهم بـالقرآن يقرأونه ينثرونه نثر الدقل لا يجاوز تراقيهم فإذا رأيتموهم فـائتوهم

---

1) رواه البخاري ومسلم وأحمد والنسائي وابن جرير وابو داود الطيالسي وابن ماجه وابو عوانة وابو يعلى وابن حبان عن علي، وابن أبي شيبة والامام أحمـد والترمـذي وقـال: حسـن صحيح وابن ماجه وابن جرير عن ابن مسعود .

2) رواه مسلم وابو داود وابو عوانة.

3) رواه أبو نصر السجزي في الابانة والديلمي.

فاقتلوهم فالمأجور من قتل هؤلاء)[1]

وقال عنهم: (يأتي على الناس زمان يتعلمون القرآن فيجمعون حروفه، ويضيعون حدوده، ويل لهم مما جمعوا وويل لهم مما صنعوا، ان أولى الناس بهذا القرآن من جمعة لم ير عليه أثره)[2]

قلت: لقد سمعت من قومي من يروي هذه الأحاديث، لكنه يجد لها مخرجا، فيذكر أنها مختصة بالخوارج ..

قال: إن هؤلاء أعظم من أن ينحصروا في زمن دون زمن.. أو مكان دون مكان.. إنهم من حرف كل دين، وشوه كل رسالة.

قلت: ألهذا ورد في النصوص المقدسة التحذير من البدعة، ومن أخطارها، ومن ذلك قوله ﷺ : (لا يذهب من السُنّة شيء حتّى يظهر من البدعة مثله ، حتّى تذهب السُنّة وتظهر البدعة ، حتّى يستوفي البدعة من لا يعرف السُنّة ، فمن أحيى ميّتاً من سنّتي قد أُميتت ، كان له أجرُها وأجرُ من عمل بها ، من غير أن ينقص من أُجورهم شيئاً ، ومَنْ أبدَعَ بدعة كان عليه وزرها ووزر من عمل بها ، لا ينقص من أوزارهم شيئاً)[3]

قال: أجل.. فكلما ابتدع الشيطان للناس بدعة جديدة، كلما ضاع من السنة ومن الدين القويم مثلها.. فالبدعة تمحو السنة، وتهيل عليها أكواما من التراب.. إلى أن يصبح الناس ما ابتدعوه، لا ما ورثوه عن أنبيائهم.

قلت: لقد أخبر رسول الله ﷺ عن ذلك.. وأخبر أن كل ما ابتدعه الناس، وانحرفوا به عن هدي الله بدعة ضلالة، فعن جابر قال : خطبنا رسول الله ﷺ فحمد الله وأثنى عليه بما هو أهل له ثمّ قال : (أمّا بعد فإنَّ أصدق الحديث كتاب الله ، وأنّ أفضل الهدي هدي محمّد ، وشرّ الأُمور محدثاتها وكلّ بدعة ضلالة)[4]

---

1) رواه احمد والبخاري والطبراني في الكبير، والبيهقي.

2) رواه أبو نعيم.

3() العلل المتناهية، لابن الجوزي.

قال: أجل.. فالشيطان الذي توعد بني آدم بأن يضلهم ويغويهم لا يجد سبيلا لذلك إلا البدع وتحريف الأديان.. فبالبدع ينشر صراعه وفتنته، ويحول الأرض إلى خراب ودمار.

قلت: لقد أخبر رسول الله ﷺ عن ذلك، فقال: (لا ترجعنَّ بعدي كفّاراً ، مرتدين، متأوّلين للكتاب على غير معرفة ، وتبتدعون السُنّة بالهوى لأن كلّ سُنّة وحدث وكلام خالف القرآن فهو ردّ وباطل)[1]

قال: صدق رسول الله ﷺ .. وقد تحقق ما توعد به.. فقد وضع الشيطان للناس من الأحاديث التي تخالف القرآن ما جعلهم يهجرون بسببه القرآن، ويحرفون معانيه، ويبتعدون عن قيمه النبيلة.

قلت: لقد أخبر رسول الله ﷺ عن ذلك، فقال: (يأتي على الناس زمان وجوههم وجوه الآدميين وقلوبهم قلوب الشياطين ، السُنّة فيهم بدعة ، والبدعة فيهم سُنّة)[2]

قال: وقد أخبر عن ذلك الإمام علي، فقال: (إنّما بَدْءُ وقوع الفتن ، أهواءٌ تُتَّبع ، وأحكام تُبتدع ، يُخالف فيها كتاب الله ، يتولّى فيها رجال رجالاً ، فلو أنّ الباطل خلص لم يُخف على ذي حجى ، ولو أنّ الحقّ خلص لم يكن اختلاف ، ولكن يؤخذ من هذا ضغث ومن هذا ضغث فيمزجان فيجيئان معاً فهنالك استحوذ الشيطان على أوليائه ، ونجا الذين سبقت لهم من الله الحسنى)[3]

بينما كنا نتحدث بمثل هذه الأحاديث إذا بأهل المسجد، يثورون بقوة، وترتفع بينهم الأصوات، ثم يضرب بعضهم بعضا، ومن سقط منهم قتيلا راحوا إلى لحمه يشوونه، ويأكلونه، وهم يضحكون.

4() رواه مسلم.

1() خصائص الأئمّة ، للشريف الرضي : ٧٥.

2() جامع الأخبار ، لتاج الدين الشعيري : ١٢٥.

3() الكافي للكليني: 1/55.

5 ـ المشركون

بعـــد أن امتلأت غثـــاء من درك المبتدعـــة، نـــزلت درك المشركين، وقـد أصـابني هـذا الـدرك بكـل أنـواع الـدوار الـتي لم أتخلص منها إلا بعد فترة طويلة..

وكـان أول مـا أصـابني بـه هـو أني رأيت السـاكنين في ذلـك الدرك يرتقون في معارج نورانيـة إلى السـماء المضـيئة الممتلئـة بالجمـال، لكنهم مـا إن تسـتقر أرجلهم في بعض جنباتهـا، حـتى تتحرك رؤوسهم حركات غريبة.. ثم يهرولون إلى الحافة، ويرمـون أنفسهم في الجو.. ويسقطون سقوطا حـرا تتنـاثر فيـه أجسـامهم لتلتهمها طيور وحشية ممتلئة بالبشاعة..

سألت صـاحبي عن هـؤلاء الحمقى الـذين رفضـوا البقـاء في تلك الأماكن العالية الجميلة الممتلئة بالسلام، فقال لي: هـؤلاء هم المشركون الـذين وصـفهم الله تعـالى في قولـه: ﴿ وَمَنْ يُشْـرِكْ بِاللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ السَّمَاءِ فَتَخْطَفُهُ الطَّيْرُ أَوْ تَهْوِي بِـهِ الـرِّيحُ فِي مَكَانٍ سَحِيقٍ ﴾ [الحج: 31]

قلت: هلا فسرت لي ذلك.

قـال[1] : إن هـذه الآيـة الكريمـة ترسـم صـورة واقعيـة حيّـة ناطقة عن حال المشركين وسقوطهم وسـوء طـالعهم.. فالسّـماء الجميلة التي صعدوا إليها هي سماء التوحيد النقي الصافي الخالي من أي شرك، والشـرك هـو تلـك الأوهـام الـتي دارت برؤوسـهم، فجعلتهم يرفضون البقاء في السماء، ويؤثرون عليها الانحــدار إلى السلفل.

ومن الطـبيعي أن الـذي يسـقط من هـذا المكـان العـالي سيصبح طعماً للطيـور الجـوارح أثنـاء سـقوطه وقبـل وصـوله إلى الأرض، وإذا نجا بسلام منها، ابتلي بعاصفة هوجاء تدكّه في إحـدى زوايا الأرض بقوّة تفقده سلامته وحياته، ويتناثر بدنه قطعاً صـغيرة في أنحاء المعمورة.

---

[1] انظر: تفسير الأمثل، مكارم الشيرزي (10/ 341)

قلت: فما بال هؤلاء المجانين لا يستعملون عقولهم، ليعــودوا إلى السماء من جديد؟

قال: الـذي يسـقط من السّـماء يفقـد كـلّ قـدرة على اتّخـاذ القرار المناسب.. ومثله الذي يفقد قاعدة السّماء التوحيديّة. يفقد القدرة على تقرير مصيره بنفسه. وكلّما سار في هذا الإتّجاه ازداد سرعة نحو الهاوية، وفقد كلّ ما لديه.

قلت: صدقت .. حـتى أن الـذي يسـقط مثـل ذلـك السـقوط المريـع يصـبح كالمعـدوم، لا وزن لـه، ولا قيمـة .. ولهـذا تجـرى اختبارات على الفضائيين للاستفادة من هذه الحالة ليعدّوا أنفسهم للسفر إلى الفضاء.

لم يكن ذلك فقط ما رأيت في ذلـك الـدرك.. بـل رأيت رجلا كان مشتت الذهن لدرجة غريبة جدا.. وحق لـه أن يكـون كـذلك.. فقد كان يحيط به مجموعـة من الشـياطين.. كـل شـيطان يـدعوه إلى عكس ما يدعوه إليه الآخر.. وكان يحاول إرضاء الجميع، لكنـه لم يكن يستطيع، فلذلك كان يتألم ألما شديدا.

سألت صاحبي عنه، فقرأ عليه قوله تعالى: ﴿ضَـرَبَ اللَّهُ مَثَلًا رَجُلًا فِيهِ شُرَكَاءُ مُتَشَاكِسُونَ وَرَجُلًا سَلَمًا لِرَجُلٍ هَـلْ يَسْـتَوِيَانِ مَثَلًا الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ [الزمر: 29]

قلت: ما معنى هذا المثل.. وما علاقته بالشرك؟

قـال[1]: هـذا المثـل يصـور حقيقـة المشـرك باللـه، فهـو لا يرتضي أن يكون الله وحده من يأمره وينهاه، أو يوجهه ويربيه، بل وضع لذلك أندادا كثيرين، كل يأمره بخلاف ما يـأمره الآخـر.. وهـو في وسـطهم كالتائـه الحـيران، لا يـدري أي أمـر ينفّـذ، فـالأمران متناقضان ومتضادان، ولا يدري أيّاً منهما يرضيه؟

والأدهى من كـلّ ذلـك أنّـه عنـدما يطلب من أحـدهم توفـير مسـتلزمات حياتـه، يرميـه على الآخـر، والآخـر يرميـه على الأوّل، وهكذا يبقى محروماً محتاجاً عاجزاً تائهاً.

1() تفسير الأمثل (15/ 73)

وفي مقابله الموحد، وهو رجـل سـلم لرجـل واحـد .. فخطـه ومنهجه واضح، وولي أمره معلوم، فلا تردد ولا حـيرة ولا تضـاد ولا تناقض، يعيش بروح هادئة ويخطو خطوات مطمئنـة، ويعمـل تحت رعاية فرد يدعمه في كلّ شيء وفي كلّ أمر وفي كلّ مكان.

قلت: وعيت هـذا.. لكن مـا الشـرك.. فـإني أرى بين قـومي صراعا كبيرا حوله.

قال: أول الشرك أن تعتقد أن مع الله آلهة أخرى تنافسه في الألوهية، وتشاركه فيها، وتماثل الله وتكافئه وتساويه..

قلت: مجنون من يعتقـد ذلـك.. وقـد قـال تعـالى: ﴿ لَـوْ كَـانَ فِيهِمَـــا آلِهَـــةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَـــدَتَا فَسُـــبْحَانَ اللَّهِ رَبِّ الْعَـــرْشِ عَمَّا يَصِـــفُونَ ﴾ [الأنبيــاء: 22]، وقــال الإمــام علي في وصــيته لابنــه الحســن: (واعلم يـابني أنّـه لـو كـان لربّـك شـريك لأتتـك رسـله، ولرأيت آثار ملكه وسلطانه، ولعرفت أفعالـه وصـفاته، ولكنّـه إلـه واحد كما وصف نفسه)[1]

قال: ومن الشرك أن تعتقد أن الله تعالى مركب من أبعاض، ومجزأ إلى أجزاء، لأن كل جزء حينها سيصبح إلها قائما بذاته..

قلت: صدقت .. وقد قال تعالى ينفي هذا النـوع من الشـرك: ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ﴾ [الإخلاص: 1] ، فالأحد يطلق على الذات التي لا تقبل الكثرة لا في الخارج ولا في الذهن، ولذلك لا تقبل العدّ ولا تدخل في زمرة الأعداد، خلافـاً للواحـد الـذي لـه ثـان وثـالث، في الخارج أو في الذهن.

قال: ومن الشرك أن تعتقد أن الصفات زائدة عن الــذات، أو تعتقد أن هناك ثنائية بين الذّات والصّفات[2].

قلت: أجـل .. وقـد أشـار إلى هـذا الشـرك الإمـام علي في قولــه: (وكمــال توحيــده الإخلاص لــه، وكمــال الإخلاص لــه نفي

---

[1] نهج البلاغة، وصيته لابنه المجتبى (قسم الرسائل، الرسالة 31)

[2] وهي من المسائل الخلافيـة بين المسـلمين، ولـذلك فـإن هـذا عنـد من يقـول بـه من الشرك الخفي لا الجلي الذي يؤدي إلى الخروج من الإسلام.

الصفات عنه، لشهادة كل صفة أنها غير الموصوف، وشهادة كل موصوف أنه غير الصفة، فمن وصف الله عز وجل فقد قرنه، ومن قرنه فقد ثناه، ومن ثناه فقد جزأه، ومن جزأه فقد جهله)

قال: ومن الشرك أن تعتقد أن بنسبة فعل من الأفعال المختصة بالله تعالى تعالى لغيره تعالى بالاستقلال والذات.

قلت: صدقت.. وقد قال تعالى: ﴿يَاأَيُّهَا النَّاسُ اذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ هَلْ مِنْ خَالِقٍ غَيْرُ اللَّهِ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَأَنَّى تُؤْفَكُونَ﴾ [فاطر: 3]، ولكن ما تعني بالاستقلال والذات؟

قال: الحكم بالشرك في الأفعال متوقف في بعض الصفات المختصة بالله تعالى، كالإحياء والإماتة والشفاء والضر على تحقّق قيد الإستقلالية.. أي أنّه لا يمكن الحكم بالشرك على شخص لمجرد اعتقاده بأنّ نبي الله عيسى عليه السلام هو الذي أحيا الموتى بإذن وإرادة من اللّه عز وجل.. بل للحكم عليه بالشرك لا بدّ أن يكون معتقده متضمنًا لمفهوم الاستقلال، أي يكون معتقدًا أنّ نبي الله عيسى عليه السلام أحيا الموتى بذاته ومستقلاّ عن قدرة وإرادة وإذْن اللّه عز وجل.

قلت: ذلك واضح، وقد صرح به القرآن الكريم عندما نسب الله تعالى على لسان نبيّه عيسى عليه السلام إحياءه للموتى وعلمه بالغيب وشفائه للأكمه بإذن الله، قال تعالى حاكيا قول المسيح عليه السلام: ﴿ أَنِّي أَخْلُقُ لَكُمْ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ فَأَنْفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِ اللَّهِ وَأُبْرِئُ الْأَكْمَهَ وَالْأَبْرَصَ وَأُحْيِي الْمَوْتَى بِإِذْنِ اللَّهِ وَأُنَبِّئُكُمْ بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدَّخِرُونَ فِي بُيُوتِكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴾ [آل عمران: 49]

قال: ومن الشرك الشرك في الحاكمية .. فالله خالق الكون ومالكه ومدبر أمره هو ملكه وحاكمه..

قلت: صدقت.. وقد قال تعالى: ﴿إِنِ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ يَقُصُّ الْحَقَّ وَهُوَ خَيْرُ الْفَاصِلِينَ ﴾ [الأنعام: 57]، وقال: ﴿وَمَنْ لَمْ يَحْكُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ ﴾ [المائدة: 44]

قال: ومن الشرك الخضوع والتذلل لغير الله مع الإعتقاد بـأنّ المخضوع له إله و ربّ.

قلت: رأيت بعضـهم لا يضـع قيـدا لهـذا.. فيعتـبر كـل خضـوع شرك.

قال: لو كان الأمر كـذلك لكـان الملائكـة الـذين سـجدوا لآدم مشـركين بسـجودهم.. وكـان اللـه بـذلك هـو الـذي دعـاهم إلى الشرك.

قلت: صدقت .. وقـد ذكرتـني بنفـر من قـومي يصـفون كـل الأمة بالشرك بأمثال هذه الأمور.

قال: وذلك من شركهم.. فلو كانوا موحدين لله صـادقين في توحيدهم، لخضعوا لله في مراده.. لكنهم تركوا الله وأحكـام اللـه، وراحوا إلى الأنداد الذين اتخذوهم من دون اللـه يقولـون بقـولهم، ويعتقدون بعقائدهم.

6 ـ الملحدون

نـزلت دركـا آخـر، فشـممت روائح منتنـة، ورأيت أجسـاما غليظة، وسمعت أصواتا ممتلئة بالفضاضة..

وقد شد انتباهي في هذه الضوضاء المزعجة رجـل هـو أشـبه الناس بالشيطان، بل لعله الشيطان نفسه، وكـان يحيـط بـه جمـع من الغوغاء، وهو يصيح فيهم بصوته المزعج قائلا: لقد جبنا الكـون مشرقه ومغربه.. وطفنا أقمـاره ونجومـه.. فوجـدنا كـل شـيء إلا شـيئا واحـدا لم نجـده، فعرفنـا أن الـوهم هـو الـذي اخترعـه، وأن الخيال هو الذي أسسه.. أنبئوني ما هو؟

صاح الجميع بصوت عال: إنه الله..

رد عليهم ذلـك الصـوت المـزعج قـائلا: صـدقتم.. فاللـه هـو الخرافة التي ظل أجدادكم طوال عمرهم يرددونها، ولا يملون من تردادها.

قالوا: فبم تنصحنا يا من هو إمامنـا في كـل سـفاهة، وقائـدنا

في كل ضلالة، ودليلنا في كل غواية؟

قال: أشيعوا بأن الإله قد مات.. وأن البشرية قد وصلت إلى الطور الذي لا تحتاج فيه إلى أي إله.. وأنبئوهم أن من ذكر الله في هذا العصر متخلف ورجعي وبدائي وظلماني ولا عقل له..

رددوا على آذانهم كل حين مقولة حكيم الحكماء: (الدين أفيون الشعوب)، ورددوا معها قوله: (إن الله لم يخلق الجنس البشري، بل الإنسان هو الذي خلق الله)..

ورددوا بفخر مقالة ستالين: (يجب أن يكون مفهوما أن الدين خرافة، وأن فكرة الله خرافة، وأن الإلحاد مذهبنا)

قالوا: ومن أبى أن يستمع لنا؟

قال: اهجروه كما يهجر البعير الأجرب.. وإن استطعتم أن تقيموا دولة الإلحاد فعليكم برأسه، فاجعلوها علفا لدوابكم.

ضحك الجميع بصوت عال، ثم انصرفوا عن ذلك الشيطان.. وانصرفت معهم..

***

ما سرت إلا قليلا حتى رأيت في ناحية من نواحي ذلك الدرك رجل ممتلئ حزنا يحمل قيثارة، ويردد بعواء كعواء الذئاب هذه الأبيات:

جئت لا أعلم من أين، ولكني أتيت

ولقد أبصرت قدامى طريقا فمشيت

وسأبقى سائراً إن شئت هذا أم أبيت

كيف جئت؟ كيف أبصرت طريقي؟

لست أدري!

أجديد أم قديم أنا في هذا الوجود؟

هل أنا حر طليق، أم أسير في قيود؟

هل أنا قائد نفس في حياتي أم مقود؟

أتمنى أنني أدري، ولكن.....

لست أدري؟

وطريقي ما طريقي، أطويل أم قصير؟

هل أنا أصعد، أم أهبط فيه وأغور؟

أأنا السائر في الدرب أم الدرب يسير؟

أم كلانا واقف، والدهر يجري؟

لست أدري؟

أتراني قبلما أصبحت إنساناً سوياً

كنت محواً ومحالاً أم تراني كنت شيا؟

ألهذا اللغز حل، أم سيبقى أبديا؟

لست أدري ... ولماذا لست أدري؟؟

لست أدري؟

ثم يعوي بعدها كالذئاب عواء طويلا.. فتردد البشرية الممسوخة أمامه عواءه.. ثم تعود معه إلى أحزانها.

***

سرت في ناحية أخرى، فسمعت جمعا من الناس مصطفين أمام علم يرفعونه، وهم ينشدون بصوت واحد:

دولة الإلحاد معبودي وأمي وأبي

وزعيمي ماركس عقل عظيم المأرب

بطل أحيا عصور الغاب في ذي الحقب

أنكر الله و لم يؤمن بدين أو نبي

إن في مبدئه تأمنوا شرور النّوب.

وعندما انتهوا من الإنشاد، قام أحدهم، وقال بصوت مبحوح ممتلئ بالحماسة:

هذه قوميتي ديني وأهدافي السنيّة

إنها فلسفة تصنع للشعب رقيّه

فانصروها تبلغوا الغاية من كل قضية

قام آخر، وقال:

لو أقاموا دولة الإسلام مات الناس جوعا

حرّموا الخمرة والرّشوة والفنّ الرفيعا

كيف نجني بعدها الربح.. ألا ماتوا جميعا.

***

تركتهم ينتناشدون الأشعار، وسرت في ناحية أخرى، فرأيت رجلا يحاور صاحبه، ويقول له بصوت هو أقرب إلى الهمس منه إلى الجهر[1]: لست وحدك في هذا.. فأنا ومن تراه من الناس.. جميعنا نعتقد بأشياء كثيرة، ثم لا تلبث حتى ينسخها الواقع.. فقد أعتقد أن لدي ما يكفي من اللبن في الثلاجة، ثم أذهب لأتأكد، فأكتشف خطئي.

ورغم ذلك فمن المبرر عادة أن نصدق شخصا يزعم بوجود اللبن في ثلاجته، لمجرد أنه يقول ذلك.

بينما من يزعم بأن لديه تنينا في بيته، فهو لن يحظى بهذه السهولة بالتصديق حتى ولو أرانا صورة له، فقد تكون صورة مزورة.

1() اهتممنا هنا بذكر مقالات الملاحدة وشبههم، أما الرد المفصل عليها، فقد ذكرناه في رسالة (الباحثون عن الله) من هذه السلسلة.

قال له صاحبه: فأنت ترى أن الزعم بوجود إلـه أو آلهـة زعم استثنائي؟

قال: أجل.. وبكل المقاييس.. فلم ير أحد منـا إلهـا في حياتـه اليومية، ولا يعرف أحد شكل مثل هذا الإله، ولا يستطيع التخـاطب معه للتأكد من أفكاره حوله.. ولذلك فهذا الإعتقاد بحاجة إلى أدلة استثنائية لتبريره.

وللأسف، فإن ما نراه لدى جميع الأديـان هـو عـدم وجـود أي أدلـة اسـتثنائية، تتناسـب مـع الطبيعـة الاسـتثنائية للـزعم بوجـود الآلهـة.. وإنمـا نجـد مقابـل ذلـك آليـات اجتماعيـة ثقافيـة لانتقـال المعتقدات بشكل وراثي بين الأجيال.

وكما أن المـؤمن باللـه يـرفض وجـود إلـه الإغريـق (زيـوس) لعدم كفاية الأدلة، فكذلك يرفض الملحد وجود (الله) لعـدم وجـود الأدلـة.. لـذلك فعلى المـؤمن بإلـه أو آلهـة أن يـبرر إيمانـه بأدلـة استثنائية.

قال له صاحبه: ولكن الإلحاد الذي تدعوني إليه قد يحتـاج هـو الآخر إلى هذه الأدلة الاستثنائية؟

قـال: لا.. لا.. يكفي لتـبرير الإلحـاد أن نظهـر ضـعف أدلـة المعتقدين بوجود الله وعدم تماسكها.. فليس من الضروري لتبرير الإلحـاد أن نـبرهن على عـدم وجـود هـذه الآلهـة، أو حـتى تقـديم تفسيرات بديلة.

قال له صاحبه بنـوع من الـتردد: ولكن طريـق الإيمـان – مـع ذلك- مملوء بالأنبياء والأوليـاء والأصـفياء.. بينمـا طريـق الإلحـاد لا أحد يسلكه.

رد عليه صاحبه: لا.. لا تقل هذا.. فطريق الإلحاد هـو المملـوء بخلاصة خلاصة العقول البشرية..

لا شـك أنـك لا تعـرف (دولبـاخ).. إنـه فيلسـوف من القـرن الثامن عشر.. لقد رفض كل الأدلـة المطروحـة على وجـود اللـه.. واعتبر الطبيعة في الكون كله كُلا واحدا بذاتـه لا يحتـاج إلى غـيره

في تفسيره، ولهذا أنكر الإلهَ، حتى أنه كان يتباهى بأنه العدو الشخصي للإله.

ومثله الفيلسوف العبقري (نيتشه).. صاحب فلسفة القوة..لقد ذكر أن (الإنسان في لحظة تعسه من حياته اخترع خرافةً أسماها (الله)، وظلَّ منذ ذلك الحين مكبّلاً بقصة من خلقه هو، إلا أنه ليس من إله غير الإنسان لو واتته الشجاعة على أن يعرف قدره..).. وقد أعلن في كتابه المقدس (هكذا تكلَّم زرادشت) موتَ الإله، إذ يقول: (إن الله قد مات)

ومثلهما كثير من عباقرة الفلاسفة كماركس ولينين وكونت وغيرهم..

قال له صاحبه: ولكن الكثير من الفلاسفة ذكروا أنهم يؤمنون بالله؟

رد عليه: هم يذكرون ذلك من باب التقية لا من باب العقل.. هم يقولون ذلك حرصا على العوام وربما حرصا على سمعتهم ومناصبهم لا على أن الإيمان هو الحقيقة التي هداهم إليها العقل والبحث..

(بسكال) مثلا كان يرى أن الإيمان الدِّيني لا يخضع للعقل، بل يتعلّق بالوجدان القلبي؛ فهو يقول: (إن القلب هو الذي يستشعر الله لا العقل، هذا هو الإيمان، الله محسوس للقلب لا للعقل)

أما (إيمانويل كانت)، فقد كانت فلسفته النقدية تتمحور حول تأكيد عجز العقل عن إثبات الميتافيزيقيا ــ أي: الغيوب ــ وأعظم تلك الغيوب مسألة (وجود الله) و(حرية الإرادة) و(خلود النفس)، لكن (كانت) يعود ويؤكد ثبوت هذه المسائل الميتافيزيقية، لكن من طريق آخر، وهو الأخلاق أي: الوجدان الداخلي، أو كما يسميه (العقل العملي)

وهكذا كان (برتراند رسل).. فعلى الرغم من كونه ملحداً لا يدين بدين إلا أنه كان يؤكد على أن (الدِّين) لا يأتي بحلول مقنعة عقلية للمشكلات، وإنما هو قائم على الإرغام لا الإقناع العقلي،

ففي سياق وصفه الفلسفة يقول: (.. لكنها ـ أي: الفلسفة ـ كذلك تشبه العلم في أنها تخاطب العقل أكثر مما تستند إلى الإرغام، سواءً كان ذلك الإرغام صادراً عن قوة التقاليد أو قوة الوحي..)

وهكذا (جورج سنتيانا)، فقد قال عن الإيمان الدِّيني إنه (غلطة جميلة أكثر ملاءمة لنوازع النفس ومن الحياة نفسها).. وقد كان يميل إلى الدِّين شعورياً، لكن يكفر به عقلياً.. وقد أرَّقته هذه المشكلة فدفعته إلى تأليف كتابه الشهير (العقل في الدِّين)، انتهى فيه إلى اللاأدرية المظلمة ممتزجة بميل عاطفي إلى الدِّين.

كانوا يتحدثون بذلك وغيره، بينما النيران والعقارب والحيات تلتهم قلوبهم وعقولهم وأرواحهم وكل لطائفهم، وهم في غفلة تامة عنها..

وكان وعاظهم يصيحون فيهم بكل اللغات، وبكل الأدلة لكنهم بسبب شراب الإلحاد الذي سقاهم إياه الشيطان لا يسمعون شيئا، ولا يبصرون.

7 ـ المنافقون

بعد أن رأيت ما رأيت وسمعت ما سمعت في درك الملحدين نزلت دركا آخر، علمت من الواعظ أنه الدرك الأسفل الذي تنحدر فيه النفس إلى أبعد قعر مظلم فيها.. وعلمت منه أنه درك مخصص للمنافقين.. وهو ما يصرح به قوله تعالى : ﴿ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ فِي الدَّرْكِ الْأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ وَلَنْ تَجِدَ لَهُمْ نَصِيرًا (145)﴾ (النساء).. فسألته عنهم، وعن سر كونهم في الدرك الأسفل من النار، فقال[1]: المنافقون هم الذي يبدون في الظاهر منسوبين إلى الإيمان، بينما هم في الحقيقة أعداؤه الألداء، يخرجون عداوته في كل قالب.. فلله كم من معقل للإيمان قد هدموه!؟.. وكم من

[1] () من كلام جميل لابن القيم في وصف المنافقين ذكره في مدارج السالكين في مواضع متفرقة - بالتصرف الذي ألفناه في هذه السلسلة - وقد أوردناه هنا لكونه جمع أكثر ما ورد في القرآن الكريم من أوصاف المنافقين ببلاغة وإتقان.. ونحب أن ننبه هنا إلى أن بعض ما ذكره ابن القيم قد يحمل محامل سيئة بسبب الصراع بين المدارس الإسلامية.. ونحن لا نريد منه هنا هذه المحامل السيئة، فنحن نعتقد أن الخلاف بين المدارس الإسلامية خلاف سببه الاجتهاد، ولا علاقة له بالنفاق.

حصن لـه قـد قلعـوا أساسـه وخربـوه!؟.. وكم من علم لـه قـد طمسوه!؟.. وكم من لواء له مرفوع قـد وضـعوه!؟.. وكم ضـربوا بمعاول الشبه في أصـول غراسـه ليقلعوهـا!؟.. وكم عمـوا عيـون موارده بآرائهم ليدفنوها ويقطعوها!؟

فلا يزال أهل الحـق منهم في محنـة وبليـة، ولا يـزال يطرقـه من شبههم سرية بعد سرية، ويزعمون أنهم بذلك مصلحون : أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ الْمُفْسِدُونَ وَلَكِنْ لَا يَشْعُرُونَ (12) (البقرة).. يُرِيدُونَ أَنْ يُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَيَأْبَى اللَّهُ إِلَّا أَنْ يُتِمَّ نُـورَهُ وَلَـوْ كَـرِهَ الْكَافِرُونَ (32) (التوبة)

اتفقـوا على مفارقـة الـوحي، فهم على تـرك الإهتـداء بـه مجتمعـون : فَتَقَطَّعُـوا أَمْـرَهُمْ بَيْنَهُمْ زُبُـرًا كُـلُّ حِـزْبٍ بِمَـا لَـدَيْهِمْ فَرِحُـونَ (53) (المؤمنـون)، يُـوحِي بَعْضُـهُمْ إِلَى بَعْضٍ زُخْـرُفَ الْقَـوْلِ غُـرُورًا.. (112) (الأنعـام)، ولأجـل ذلـك .. اتَّخَـذُوا هَـذَا الْقُرْآنَ مَهْجُورًا (30) (الفرقان)

قـد أنهكت أمـراض الشـبهات والشـهوات قلـوبهم فأهلكتهـا، وغلبت القصور السيئة على إراداتهم ونياتهم فأفسدتها، ففسـادهم قد ترامى إلى الهلاك، فعجز عنه الأطباء العارفون : فِي قُلُـوبِهِمْ مَـرَضٌ فَـزَادَهُمُ اللَّهُ مَرَضًـا وَلَهُمْ عَـذَابٌ أَلِيمٌ بِمَـا كَـانُوا يَكْـذِبُونَ (10) (البقرة)

أضاءت لهم نـار الإيمـان فأبصـروا في ضـوئها مواقـع الهـدى والضــلال، ثم طفئ ذلــك النــور، وبقيت نــارا تتــأجج ذات لهب واشتعال، فهم بتلك النار معـذبون، وفي تلـك الظلمـات يعمهـون: مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الَّذِي اسْتَوْقَدَ نَارًا فَلَمَّا أَضَـاءَتْ مَـا حَوْلَـهُ ذَهَبَ اللَّهُ بِنُورِهِمْ وَتَرَكَهُمْ فِي ظُلُمَاتٍ لَا يُبْصِرُونَ (17) (البقرة)

قلت: لقـد عظمت لي شـأنهم.. وملأت قلـبي مخافـة منهم.. فكيف السبيل إلى معرفتهم لتجنب شرهم؟

قال: لقد ذكر الله لهم علامات بها يعرفون..

قلت: أين أجدها؟

قال: في نصـوص الوحـيين.. هي باديـة لمن تـدبرها من أهـل بصائر الإيمان..

قلت: فهلا ذكرت لي منها ما أتبصر به أحوالهم؟

قال: منها الرياء، وهو أقبح مقام قامه الإنسان، فقد قعـد بهـم الكسل عما أمروا بـه من أوامـر الـرحمن، فأصـبح الإخلاص عليهم لذلك ثقيلا :.. وَإِذَا قَامُوا إِلَى الصَّلَاةِ قَامُوا كُسَالَى يُرَاءُونَ النَّاسَ وَلَا يَذْكُرُونَ اللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا (142) (النساء)

أحدهم كالشاة العائرة بين الغنمين، تيعر إلى هذه مــرة وإلى هذه مرة ولا تستقر مع إحدى الفئتين، فهم واقفـون بين الجمعين، ينظرون أيهم أقوى وأعز قـبيلا : مُذَبْـذَبِينَ بَيْنَ ذَلِـكَ لَا إِلَى هَـؤُلَاءِ وَلَا إِلَى هَؤُلَاءِ وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَلَنْ تَجِدَ لَهُ سَبِيلًا (143) (النساء)

يتربصون الدوائر بأهـل الإيمـان، فـإن كـان لهم فتح من اللـه قالوا: ألم نكن معكم؟ وأقسموا على ذلك بالله جهد أيمــانهم، وإن كان لأعداء الإيمان من النصرة نصيب، قـالوا: ألم تعلمـوا أن عقـد الإخاء بيننـا محكم، وأن النسـب بيننـا قـريب؟.. الَّذِينَ يَتَرَبَّصُـونَ بِكُمْ فَــإِنْ كَــانَ لَكُمْ فَتْحٌ مِنَ اللَّهِ قَــالُوا أَلَمْ نَكُنْ مَعَكُمْ وَإِنْ كَــانَ لِلْكَافِرِينَ نَصِيبٌ قَـالُوا أَلَمْ نَسْـتَحْوِذْ عَلَيْكُمْ وَنَمْنَعْكُمْ مِنَ الْمُـؤْمِنِينَ فَاللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ يَــوْمَ الْقِيَامَــةِ وَلَنْ يَجْعَــلَ اللَّهُ لِلْكَــافِرِينَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ سَبِيلًا (141) (النساء)

يعجب السامع قول أحدهم لحلاوته ولينه، ويشهد الله على ما في قلبه من كذبه ومينه، فتراه عند الحق نائما، وفي الباطـل على الأقدام.. فخذ وصـفهم من قـول القـدوس السـلام : وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يُعْجِبُكَ قَوْلُـهُ فِي الْحَيَـاةِ الـدُّنْيَا وَيُشْـهِدُ اللَّهَ عَلَى مَـا فِي قَلْبِـهِ وَهُوَ أَلَدُّ الْخِصَامِ (204) (البقرة)

أوامــرهم الـتي يـأمرون بهـا أتبـاعهم متضـمنة لفسـاد البلاد والعباد، ونواهيهم عما فيه صلاحهم في المعاش والمعـاد، وأحـدهم تلقــاه بين جماعــة أهـل الإيمــان في الصــلاة والــذكر والزهــد والاجتهاد : وَإِذَا تَوَلَّى سَعَى فِي الْأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ الْحَرْثَ وَالنَّسْلَ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْفَسَادَ (205) (البقرة)

فهم جنس بعضه يشبه بعضا، يأمرون بالمنكر بعد أن يفعلوه، وينهون عن المعروف بعد أن يتركوه، ويبخلـون بالمـال في سـبيل اللـه ومرضـاته أن ينفقـوه، كم ذكـرهم اللـه بنعمـه فأعرضـوا عن ذكـره ونسـوه؟ وكم كشـف حـالهم لعبـاده المؤمـنين ليجتنبـوه؟.. ﴿ الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ بَعْضُهُمْ مِنْ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمُنْكَرِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمَعْرُوفِ وَيَقْبِضُونَ أَيْـدِيَهُمْ نَسُـوا اللَّهَ فَنَسِـيَهُمْ إِنَّ الْمُنَـافِقِينَ هُمُ الْفَاسِقُونَ (67)﴾ (التوبة)

إن حـاكمتهم إلى صـريح الـوحي وجـدتهم عنـه نـافرين، وإن دعوتهم إلى حكم كتاب اللـه وسـنة رسـوله رأيتهم عنـه معرضـين فلو شهدت حقائقهم لرأيت بينها وبين الهـدى أمـدا بعيـدا، ورأيتهـا معرضة عن الوحي إعراضا شديدا :﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَـالَوْا إِلَى مَـا أَنْزَلَ اللَّهُ وَإِلَى الرَّسُـولِ رَأَيْتَ الْمُنَـافِقِينَ يَصُـدُّونَ عَنْـكَ صُـدُودًا (61)﴾ (النساء)

فكيــف لهم بــالفلاح والهــدى بعــد مــا أصــيبوا في عقــولهم وأديــانهم، وأنى لهم التخلص من الضــلال والــردى، وقــد اشــتروا الكفر بإيمانهم.. فما أخسر تجارتهم البائرة، وقد استبدلوا بالرحيق المختوم حريقا :﴿ فَكَيْفَ إِذَا أَصَابَتْهُمْ مُصِيبَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْـدِيهِمْ ثُمَّ جَاءُوكَ يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ إِنْ أَرَدْنَا إِلَّا إِحْسَانًا وَتَوْفِيقًا (62)﴾ (النساء)

قلت: لقد وصفتهم.. وأطلت في وصفهم.

قال: لا تستطل أوصاف القوم، فالمتروك أكثر من المذكور.. بل كاد القرآن كله أن يكون في شأنهم، لكثرتهم على ظهر الأرض وفي أجــواف القبــور، فلــو خلت بقــاع الأرض منهم لاســتوحش المؤمنون في الطرقات، ولتعطلت بفقدهم أسباب المعايش، وقـد سمع حذيفة رجلا يقول : اللهم أهلـك المنـافقين، فقـال : (يـا ابن أخي، لــو هلــك المنــافقون لاستوحشــتم في طرقــاتكم من قلــة السالك)

قلت: لقد ملأتني بالمخافة.. فلعلي أكون أحدهم ولا أعلم.

قال: حـدث ابن أبي مليكـة، قـال: أدركت ثلاثين من أصـحاب النبي ﷺ، كلهم يخاف النفاق على نفسه، ما منهم أحد يقـول: (إنـه

على إيمان جبريل وميكائيل)..

وحدث جبير بن نفير قال: دخلت على أبي الدرداء منزله بحمص، فإذا هو قائم يصلي في مسجده، فلما جلس يتشهد فجعل يتعوذ بالله من النفاق، فلما انصرف قلت له: غفر الله لك يا أبا الدرداء، ما أنت والنفاق!؟ ما شأنك وما شأن النفاق!؟ فقال: (اللهم غفرا- ثلاثا- لا يأمن البلاء من يأمن البلاء، والله إن الرجل ليفتن في ساعة واحدة فينقلب عن دينه)

***

بعد أن سئمت نفسي وضاقت من تلك الدركات الخطيرة التي رأيت فيها الإنسان بأبشع صوره وأشكاله، طلبت من صاحبي الواعظ أن نخرج منها، فأخرجني، وكلفني بالقيام بمجاهدات كثيرة للتخلص من آثار ذلك الشراب الذي شربته.

والحمد لله، فبعد خلوة لم تستمر سوى أسبوع واحد من الله علي بالتخلص من كل ألوان السموم التي زرعت في ذلك الشراب.

ثامنا ـ الصاعد

قلت: عرفت السر السابع من أسرار الإنسان.. فما السر الثامن؟

قال: هو الصعود.. فكما أن الإنسان يمكن أن ينزل إلى الهاوية.. فإن الله تعالى برحمته وحكمته ولطفه وهبه القدرة على الترقي والترفع والصعود.

قلت: إلى أين؟

قال: إلى جميع الكمالات التي تحملها بذرة ذاته.. لقد خلق الله ذات الإنسان في أحسن تقويم.. وخلق لها القدرة على الترقي في ذلك التقويم الحسن الذي جبلها عليه.

قلت: فكيف اهتديت إلى هذا السر؟

قال: بعد أن امتلأت هما نتيجة ما رأيت من انحدار الإنسان وسقوطه، سرت في تلك المدينة العجيبة ـ التي فتح الله لي فيها من علوم الإنسان ما كان منغلقا ـ إلى البرية.. وكأني أفر من هذا الإنسان الذي لا يعرف إلا الانحدار..

وبينما أنا أسير لا أدري إلى أين رأيت شابا لم يتجاوز المراهقة إلا قليلا، أو لعله لا يزال مراهقا.. فقلت في نفسي: ويل لهذا الشاب المسكين.. وماذا ينتظره من جحيم هذه الحياة وحفرها.. ما أصعب أن ينجو الإنسان في هذا العالم..

ما قلت ذلك، حتى قصدني الشاب، وسلم علي بأدب، وقال: أرى ـ يا عم ـ أنك قد تهت عن طريق الجبل.. الطريق ليست من هنا.

قلت مستغربا: أي جبل؟.. أنا أسير فقط.. لست قاصدا أي جبل.

قال: عجيب ما أرى.. كيف تترك الجبل.. وتهيم على نفسك في هذه البراري التي لا تورثك إلا الغفلة.

قلت: لم أفهم ما تقصد.

قال: عمر الإنسان أضيق من أن يمضيه في السير الأفقي..

قلت: لم أفهم.. ما الذي ترمي إليه..

قال: لقد خلقنا الله لنسير السير العمودي، لا السير الأفقي.

قلت: وضح يا فتي.. فأنا لا علاقة لي بالهندسة..

قال: سأبدأ لك من الأول.. أجبني.. ما الذي قال الله لآدم وزوجه عندما أخرجهما من الجنة؟

قلت: لقد قال الله لهما ـ كما نص القرآن الكريم ـ :﴿ اهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعاً بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدىً فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلا يَضِلُّ وَلا يَشْقَى ﴾ (طـه:123)

قال: فعندما هبط آدم.. ما الذي كان يشغل باله؟

قلت: لقد تعب آدم بعد هبوطه.. فبدل أن يأتيه الطعام جاهزا صار يبحث عنه بعناء.. وبعد أن كان يعيش في أجواء الجنة الصحية صار يعيش في أجواء الأرض التي تزرع فيه جميع الآلام.. لكن ذرية آدم تغلبوا بعد ذلك على كل تلك الصعاب بما أنتجوه من حضارة.

قال: همة دنية هي تلك التي تتحدث عنها.. وآدم أرفع شأنا من أن يفكر مثل هذا التفكير.

قلت: فأخبرني ما الذي كان يفكر فيه آدم حين هبط؟

قال: كان يفكر في الصعود.. من عوقب بالهبوط فإنه لا يحن إلا إلى الصعود.

قلت: صدقت.. ولكن إلى أين يصعد؟

قال: إلى المحل الرفيع الذي نزل منه.

قلت: الجنة.

قال: الجنة بجميع معانيها.. فالجنة ليست مطعما ولا فندقا فقط.

قلت: أهناك جنة أخرى غير جنة المطاعم والفنادق؟

قال: لن تظفر بجنة المطاعم والفنادق حتى تظفر بجنان كثيرة.. فلن يدخل جنة الآخرة من لم يدخل جنة الدنيا.

قلت: أهناك جنان في الدنيا؟

قال: أجل.. وأحمق هو من لم يفكر في الصعود إليها.

قلت: صدقت.. أحمق من لا يفكر في الصعود إلى الجنان.

قال: فهيا إذن إلى الجبل..

قلت: أراك تعود كل حين إلى الجبل.. فما شأنه؟

قال: لا يمكن أن تظفر بجنان الدنيا التي تؤهلك لجنان الآخرة إلا بعد أن ترقى هذا الجبل..

نظرت إلى الشاب، فوجدت فيه ما تعودت أن أجده في الورثة.. لقد كانت سيما محمد الوارث[1] تبدو على ملامح وجهه.. فسألته: من أنت يا فتى.. ألست من الورثة؟

قال: أنا محمد.. وليس لي من هم في حياتي إلا البحث عن الورثة.. أو الدلالة على الورثة.

قلت: فأي سر للإنسان أجده عندك؟

قال: سر الصعود.. والترفع.. والعروج.

قلت: أيمكن أن نعرج؟

قال: كما يمكن أن نهبط يمكن أن نعرج.

قلت: أنا لا أراك إلا شابا مراهقا، وعهدي بالشباب

---

[1] () هو بطل رسالة (النبي الإنسان) من هذه السلسلة.. ولا يخفى وجه الإشارة التي يحملها هذا الاسم.

والمراهقين عدم انشغالهم بمثل هذه الأمور.. فهذه الأمـور عنـدنا لا ينشغل بها إلا الكبار.

قال: إن لم أصعد الجبل وأنا في كامل قواي.. فمتى أصعده؟

قلت: عدت بنا إلى الجبل.

قال: لا يمكن أن تعرفه.. ولا أن تسير إليه.. ولا أن تتأدب بين يديه إلا إذا سرت في ذلك الجبل.

قلت: لقد ملأتني أشواقا إليه.. فهلم بنا إليه.

ظهر فرح عظيم على وجه الشاب.. ثم أخذ بيدي.. ولم نسـر إلا قليلا حتى بدا لنا جبل في منتهى الجمال.. وكأن فنانا نابغـة هـو الذي صممه.

لقد كـان بشـكل طبقـات مختلفـة.. كـل طبقـة هي جنـة من الجنان.. يحوي من جميع الثمار والألوان.

وقد عجبت إذ رأيت المياه تصـعد إليـه بقـوة، فقلت للشـاب: لكأني أرى بعيني حدائق بابل المعلقة[1].. كيف تصـعد الميـاه إلى هذا الجبل من غير مضخات.

قـال: هنـاك مضـخات أنت لا تراهـا.. هم يسـمونها مضـخات البركات.. وهي التي أشار إليها قوله تعالى : وَلَوْ أَنَّ أَهْـلَ الْقُـرَى آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِمْ بَرَكَاتٍ مِنَ السَّـمَاءِ وَالْأَرْضِ (لأعـراف: 96)

قلت: فكل أهل هذا الجبل من المؤمنين الأتقياء..

قـــال: لا يمكن أن يفكـــر في الصـــعود إلى هـــذا الجبـــل إلا المؤمنون الأتقياء.

قلت: لـو أن قـومي سـمعوا بـه لهرعـوا إليـه.. ولـتركوا تلـك الجبال الكثيرة التي لا تمتلئ إلا بالصخور والجليد.

1() حدائق بابل المعلقة: هي إحدى عجائب الدنيا السبع، وتقع بابل قُرب بغداد الحاليــة في العراق..

ثم التفت إليه، وقلت: كيف لم تلتفت الوكالات السياحية إلى هذا الجبل العجيب؟

قال: لقد سأل هذ الجبل ربه ألا يراه إلا المؤمنون.. وألاّ يسير عليه إلا المتقون.. ولذلك فقد حجب عن أنظار الغافلين.. ولهـذا لا يمكن أن يعرفه أحد أو يهتم به إلا إذا فكر في السير إلى مولاه.

قلت: فهلم بنا نسير إليه.

قال: لا يصح أن تسير فيه قبل أن تعـرف طبقاتـه.. ثم تحـدد لنفسك الطبقة التي تتناسب معها.

قلت: ألكل طبقة أهلها؟

قـال: أجـل.. ألا تـرى أن في كـل طبقـة بسـاتين تختلـف عن الطبقة الأخرى؟

نظرت إلى الطبقات المختلفة.. فرأيتها كما وصـف الشـاب.. فقلت: إن هذا عجيب.. لم كان الأمر كذلك؟

قـال: أنت تعلم أن اللــه خلــق الإنســان من تربــة مختلفــة متنوعة.

قلت: ذلك صحيح.. وقد ورد في الحديث الإشارة إلى ذلك.

قـال: فلـذلك.. فـإن همم النـاس مختلفـة.. واللـه تعـالى هـو الواسع.. ويمكن لكل تربة أن تسير إليه بحسبها.. فلا يصح أن نعبد الله ونحن خارجون عن طبيعتنا.

قلت: إن كـان الأمـر كـذلك.. فحـدثني عن كـل طبقـة.. وأنـا سأختار ما يناسبني منها.

قال: أما الطبقة الأولى فللعلماء.

قلت: علماء الفيزياء، أم علماء الكيمياء؟

قال: جميع العلماء.. وجميع العلوم يمكنها أن تلج هذا البـاب.. وأن تسكن هذه الطبقة بشـرط واحـد هـو أن تعـرف غايـة غايـات

العلوم..

قلت: فما غاية غاياتها؟

قال: الله.. فلا يصح أن يسير أحد في هذا الجبل وهو لا يقصد الله.

قلت: فلم كان هؤلاء في أسـفل الجبـل.. ألم يكن الأولى بهم أن يكونوا في أعلاه؟

قال: لقد كانوا كذلك.. ولكنهم آثروا أن ينزلوا إلى أسفله لأنه لا يصح لأحد أن يسير في هذا الجبـل دون أن يمـر عليهم، ويتتلمـذ على أيديهم.. فلا يصح لمن لم ينضبط بضوابط العلم أن يسير في هذا السبيل.. فالله لا يعبد بالجهل.

قلت: فما الطبقة التالية؟

قال: طبقة العباد..

قلت: فلم كانوا في هذه الطبقة؟

قال: من علم حقيقة العلم كان أول ما يخطر على باله عبادة ربه والسلوك إليه.

قلت: فما الطبقة التي تليها؟

قال: طبقة المتقين..

قلت: من المتقون؟

قال: هم أهل الورع..

قلت: أهم الذين يتحرون الحلال؟

قال: هم الذين ملأ خوف غضب الله قلوبهم.. فلـذلك تجـدهم يتورعون عن كل فتنة.. ويتهربون من كل شبهة.

قلت: فما الطبقة التي تليها؟

قال: طبقة الزهاد..

قلت: أعـرفهم.. أولئـك الـذين رغبـوا عن الـدنيا الـتي رغب الناس فيها.

قال: هم رغبوا عن كل ما يحجبهم عن مـولاهم.. سـواء كـان من الدنيا أو من غيرها.

قلت: فما الطبقة التي تليها؟

قال: طبقة الفتيان..

قلت: عجيب هذا.. وما علاقة أهل الفتوة بالسلوك؟

قال: أهل الفتوة هم الذين يسـلكون إلى اللـه عـبر الإحسـان والمروءة وخدمة خلق الله.

قلت: فلم كانت لهم هذه المرتبة الرفيعة؟

قـال: لأن اللـه برحمتـه ولطفـه بهم جـازاهم على إحسـانهم للعباد بتلك المكانة.. ألم تسمع قوله : (أنا وكافل اليـتيم كهـاتين فى الجنة) ، وأشار بالسبابة والوسطى ، وفرق بينهما قليلا[1].

قلت: بلى..

قال: فهذا يدلك على مكانتهم.. فلا يمكن أن يعـرف اللـه من لم يحسن إلى عباد الله.

قلت: فما الطبقة التي تليها؟

قال: المجاهدون في سبيل الله.

قلت: أولئك الذين يحملون السلاح.

قال: كل الأسلحة.. وأولها سلاح السلام.. فلا يمكن أن ينصــر الله أحدا لم يحمل سلاح السلام.

قلت: أنا لا أعرف إلا السلاح الذي ينفث الرصاص القاتل.

قال: فأنت لا تعـرف إذن قولـه تعـالى : فَلا تُطِـعِ الْكَـافِرِينَ

---

[1] رواه البخاري.

وَجَاهِدْهُمْ بِهِ جِهَاداً كَبِيراً (الفرقان:52)

قلت: بأي سلاح أمر الله نبيه أن يجاهد؟

قال: بسلاح القرآن.. فليس في الدنيا سلاح يقهر عتو النفس وطغيانها ويقوم النفس ويرفعها مثل القرآن.

قلت: فما الفرق بين هؤلاء وبين الفتيان؟

قال: الفتيان يحسنون إلى الأجساد برعايتها وحفظها.. والمجاهدون يحسنون إلى الأرواح بدعوتها إلى الله وحفظها من المستبدين الذين يحولون بينها وبينه.

قلت: فما الطبقة التالية؟

قال: طبقة الصديقين.

قلت: فمن الصديقون؟

قال: العارفون.

قلت: ألم نمر عليهم في طبقة العلماء؟

قال: العلماء سائرون.. والعارفون واصلون..

قلت: فما الطبقة التي تليها؟

قال: ليس هناك طبقة تليها.. ألم تسمع قوله تعالى : وَمَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَئِكَ رَفِيقاً (النساء: 69)؟

قلت: بلى.. فما فيها من العلم؟

قال: إلا ترى كيف جعل الله أول مرتبة تلي النبيين هي مرتبة الصديقين؟

قلت: بلى.. فلم كان الأمر كذلك؟

قال: لأن : إِلَى رَبِّكَ الْمُنْتَهَى)(لنجم:42).. وليس هناك

غاية بعد غايات العارفين الصديقين.

قلت: لقد شوقتني إلى الصعود.. فهلم بنا نصعد.

قال: إلى أي طبقة؟

قلت: إلى علياها.. فلا يمكنني أن أرضى بأدناها، وأنا أستطيع أن أسير إلى أعلاها.

قال: إن كانت همتك كذلك.. فاحذر من الوقوف في أي طبقة.. فلا يمكن أن يصل أحد في هذا الطريق إلا ببذل نفسه في الصعود..

1 ـ العلماء

في سفح الجبل.. كانت هناك جنان كثيرة ممتلئة بأصناف الثمار.. وكان سكان هذه الطبقة لا يتركون شيئا إلا اهتموا به وفحصوه ودرسوه..

مررت عليهم، فلم يلتفت لي أحد منهم، فقد كان الكل مشغولا..

لكن حلقة اجتمع فيها نفر يظهر على سيماهم أنهم من طلبة العلم شدت انتباهي.. فرحت مع صاحبي الشاب محمد إليها.. وانضممنا إلى الجلوس..

فوجدنا شيخها كالشمس تلتف به هالة تلاميذه.. أخبرني محمد أن شيخها من قنوج بالهند.. وأنه رجل من العلماء الصالحين.. وأن اسمه الذي يعرفه الناس به في هذه الطبقة هو (صديق حسن خان)[1]

---

[1] أشير به إلى أبي الطيب المعروف بـ (صديق حسن خان) (1248 ـ 1307 هـ الموافق لـ 1832 ـ 1890 م)، وهو محمد صديق خان بن حسن بن علي بن لطف الله الحسيني البخاري القنوجي.. ومن كتبه (حسن الاسوة في ما ثبت عن الله ورسوله في النسوة) و(فتح البيان في مقاصد القرآن) عشرة أجزاء في التفسير، و(لف القماط) في اللغة، و(حصول المأمول من علم الاصول) و(عون الباري) في الحديث، و(العلم الخفاق من علم الاشتقاق) و (العبرة مما جاء في الغزو والشهادة والهجرة)، و(أبجد العلوم).. وقد اخترناه هنا لأجل كتابه هذا.. ولا تخفى أهميته.. وننبه هنا كما نبهنا مرات كثيرة إلى أن ما نسوقه من حديث لا علاقة له بالشخصية التي نتحدث عنها.

بدأ الشيخ حديثه كعادة علماء المسلمين وفضلائهم بحمد الله.. وكان حمده لله متناسبا مع وظيفته ومع طبقته.. لقد قال : الحمد لله الذي له الأسماء الحسنى، فاوت بحكمته بين المخلوقات، ورفع أهل العلم أعلى الدرجات، فقال :﴿ يَرْفَعِ اللَّهُ الَّذِينَ ءامَنُواْ مِنكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُواْ الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ ﴾ (المجادلة:11)

الحمد لله الذي جعل العلم ضياءً والقرآن نوراً، ورفع الذين أوتوا العلم درجات عليّة، وكان ذلك في الكتاب مسطوراً، وجعل العلماء ورثة الأنبياء، وكفى بربك هادياً ونصيراً، نحمده تعالى حمداً كثيراً، ونشكره عز وجل وهو القائل :﴿ إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِراً وَإِمَّا كَفُوراً ﴾ (الإنسان:3)

الحمد لله الذي علّم بالقلم، علّم الإنسان ما لم يعلم، أحمده سبحانه وأشكره، رفع منار العلم وأشاد بالعلماء والمتعلمين.

ثم أعقب حمده هذا بدعائه، فقال: اللهم إنا نعوذ بك من علم لا ينفع، ومن قلب لا يخشع، ومن نفس لا تشبع، ومن دعوة لا يستجاب لها.. لا إله إلا أنت سبحانك اللهم وبحمدك، نستغفرك لذنوبنا، ونسألك رحمةً، اللهم زدنا علماً، ولا تزغ قلوبنا بعد إذ هديتنا، وهب لنا من لدنك رحمةً، إنك أنت الوهاب.. اللهم انفعنا بما علمتنا، وعلمنا ما ينفعنا، وزدنا علماً، الحمد لله على كل حال، ونعوذ بالله من حال أهل النار.. اللهم إنا نسألك علماً نافعاً، وعملاً صالحاً، ورزقاً طيباً.. اللهم فقهنا في الدين، وعلمنا التأويل.

أما بعد.. أيها الطلبة الطيبون.. لقد اختاركم الله لأشرف الأعمال وأجلها.. فأنتم طلبة العلم الذين وردت الأخبار الكثيرة في فضلهم.. أنتم الذين قال فيهم ربنا :﴿ بَلْ هُوَ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ فِي صُدُورِ الَّذينَ أُوتُوا العِلْمَ ﴾ (العنكبوت: 49)

وأنتم الذين قال فيهم ربنا :﴿ قَدْ فَصَّلْنَا الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴾ (الأنعام: 97)

وأنتم الذين قال فيهم ربنا :﴿ شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لا إِلَهَ إلا هُوَ وَالْمَلائِكَةُ وَأُولُو الْعِلْمِ قَائِماً بِالْقِسْطِ لا إِلَهَ إلا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ (آل عمران:18). فشهد الله بنفسه على وحدانيته، وثنى بخيار

خلقه، فـذكر الملائكـة أولا، والعلمـاء ثانيـا، وفي هـذا من التكـريم والتشريف ما لا يعدله شيء.

وأنتم الـذين قـال فيهم ربنـا : يَرْفَـعِ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُـوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَـاتٍ وَاللَّهُ بِمَـا تَعْمَلُـونَ خَبِـيرٌ (المجادلـة: 11).. وهذا من باب ذكر الخاص بعد العام تنبيها على أهميته، فقـد ذكر أهل العلم ضمن المؤمنين أولا، ثم أفردوا بالذكر، إشــارة إلى عظيم فضلهم، وعلو مرتبتهم.

وأنتم الـذين قـال فيهم ربنـا : إِنَّمَـا يَخْشَـى اللَّهَ مِنْ عِبَـادِهِ الْعُلَمَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ غَفُـورٌ (فـاطر:28) أي العـالمين باللـه عـز وجل الذين قدروا الله حق قدره.

وأنتم الذين قال فيهم ربنا : أَمَّنْ هُوَ قَانِتٌ آنَاءَ اللَّيْلِ سَـاجِداً وَقَائِمـاً يَحْـذَرُ الْآخِـرَةَ وَيَرْجُـو رَحْمَـةَ رَبِّهِ قُـلْ هَـلْ يَسْـتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لا يَعْلَمُونَ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُو الْأَلْبَابِ (الزمـر:9) فمن يتعلم ويعلم العلم الذي يقرب من الله والدار الآخرة لا يستوي هو ومن لا يعلم ذلك العلم.

وأنتم الذين قـال فيهم ربنـا : وَيَـرَى الَّذِينَ أُوتُـوا الْعِلْمَ الَّذِي أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ هُوَ الْحَقَّ وَيَهْـدِي إِلَى صِـرَاطِ الْعَزِيـزِ الْحَمِيـدِ (سـبأ:6)

وأنتم الـذين قـال فيهم ربنـا : يَرْفَـعِ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُـوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ)(المجادلة:11)

وأنتم الذين قال فيهم نبينا وحبيبنا : (من يرد اللـه بـه خـيرا يفقهه في الدين)[1]

وقـال: (إذا أراد اللـه بعبـد خـيرا فقهـه في الـدين وألهمـه رشده)[2]

---

[1] رواه البخاري ومسلم.

[2] رواه البزار والطبراني.

وقال: (أفضل العبادات الفقه، وأفضل الدين الورع)[1]

وقال: (فضل العلم خير من فضل العبادة وخير دينكم الورع)[2]

وقال: (قليل العلم خير من كثير العبادة وكفى بالمرء فقها إذا عبد الله وكفى بالمرء جهلا إذا عجب برأيه)[3]

وقال: (من سلك طريقا يلتمس فيه علما سهل الله له به طريقا إلى الجنة)[4]

وقال: (إن الملائكة لتضع أجنحتها لطالب العلم رضا بما يصنع، وإن العالم يستغفر له من في السماوات ومن في الأرض حتى الحيتان في الماء، وفضل العالم على العابد كفضل القمر على سائر الكواكب، وإن العلماء ورثة الأنبياء إن الأنبياء لم يورثوا دينارا ولا درهما إنما ورثوا العلم فمن أخذه أخذ بحظ وافر)[5]

وقال: (طلب العلم فريضة على كل مسلم، وواضع العلم عند غير أهله كمقلد الخنازير الجوهر واللؤلؤ والذهب)[6]

وقال: (من جاء أجله وهو يطلب العلم لقي الله لم يكن بينه وبين النبيين إلا درجة النبوة)[7]

وقال: (لأن تغدو فتعلم آية من كتاب الله تعالى خير لك من أن تصلي مائة ركعة، ولأن تغدو فتعلم بابا من العلم عملت به أو

1() رواه الطبراني.

2() رواه الطبراني والبزار بإسناد حسن.

3() رواه الطبراني.

4() رواه مسلم وأبو داود والترمذي والنسائي وغيرهم.

5() رواه أبو داود والترمذي وابن ماجه.

6() رواه ابن ماجه وغيره.

7() رواه الطبراني.

لم تعمل به خير لك من أن تصلي ألف ركعة)(1)

وقـال: (العلم علمـان : علم في القلب فـذلك العلم النـافع، وعلم في اللسان وذلك حجة الله على ابن آدم)(2)

وقال: (إن من العلم كهيئة المكنون لا يعلمه إلا العلماء باللــه تعالى فإذا نطقوا به لا ينكره إلا أهل الغرة بالله عز وجل)(3)

وقال:(تعلموا العلم، فـإن تعلمـه للـه خشـية وطلبـه عبـادة، ومذاكرته تسبيح، والبحث عنه جهاد، وتعليمه لمن لا يعلمه صـدقة، وبذله لأهلـه قربـة لانـه معـالم الحلال والحـرام ومنـار سـبل أهـل الجنة، وهو الأنيس في الوحشة، والصاحب في الغربـة، والمحـدث في الخلوة، والدليل على السراء والضراء، والسـلاح على الأعـداء والزين عند الأخلاء، يرفع الله بـه أقوامـا فيجعلهم في الخـير قـادة قائمـة تقتص آثـارهم ويقتـدى بفعـالهم، وينتهى إلى رأيهم، تـرغب الملائكة في خلتهم، وبأجنحتها تمسحهم، ويسـتغفر لهم كـل رطب ويابس، وحيتان البحر وهوامه، وسباع البر وأنعامه لأن العلم حيـاة القلوب من الجهل، ومصابيح الأبصار من الظلم، يبلغ العبـد بـالعلم منـازل الأخيـار والـدرجات العلى في الـدنيا والآخـرة، التفكـر فيـه يعدل الصيام، ومدارسته تعدل القيام، به توصل الأرحام وبه يعرف الحلال من الحــرام، وهــو إمــام العمــل، والعمــل تابعــه، يلهمــه السعداء، ويحرمه الأشقياء)(4)

قام بعض الطلبـة، وقـال: لقـد حـدثتنا ـ شـيخنا ـ عن العلم، ورغبتنا فيـه.. ولكنـا نجـد من الكسـالى المقعـدين من يرضـى من العلم بتكريره.. ولا نراه يحرص على العمل.. وليته يكتفي بـذلك.. بـل إنـه لا يطلب العلم إلا لينـال بـه من الشـهرة والجـال والمـال والدنيا ما لا يناله أهل الدنيا أنفسهم.

1() رواه ابن ماجه بإسناد حسن.

2() رواه الخطيب بإسناد حسن.

3() رواه الديلمي في مسنده وأبو عبدالرحمن السلمي في الأربعين الـتي لـه في التصـوف والحكيم الترمذي في نوادر الأصول.

4() رواه ابن عبد البر في كتاب العلم.

قال الشيخ: فرتل على هؤلاء قوله تعـالى : وَاتْـلُ عَلَيْهِمْ نَبَـأَ الَّذِي آَتَيْنَاهُ آَيَاتِنَا فَانْسَلَخَ مِنْهَا فَأَتْبَعَهُ الشَّيْطَانُ فَكَانَ مِنَ الْغَـاوِينَ (175) وَلَـوْ شِـئْنَا لَرَفَعْنَـاهُ بِهَـا وَلَكِنَّهُ أَخْلَـدَ إِلَى الْأَرْضِ وَاتَّبَـعَ هَـوَاهُ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ الْكَلْبِ إِنْ تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَثْ ذَلِـكَ مَثَـلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآَيَاتِنَا فَاقْصُصِ الْقَصَـصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ (176) سَـاءَ مَثَلًا الْقَـوْمُ الَّذِينَ كَـذَّبُوا بِآَيَاتِنَـا وَأَنْفُسَـهُمْ كَـانُوا يَظْلِمُـونَ (177) (الأعراف)

ورتل عليهم قوله تعـالى : مَثَـلُ الَّذِينَ حُمِّلُـوا التَّوْرَاةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ الْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَاراً بِئْسَ مَثَلُ الْقَـوْمِ الَّذِينَ كَـذَّبُوا بِآياتِ اللَّهِ وَاللَّهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ (الجمعة:5)

وحدثهم بقوله : (إن أول الناس يقضى عليه يـوم القيامـة، رجل استشهد، فأتي به فعرفه نعمه، فعرفهـا، قـال: فمـاذا عملت فيها ؟ قال : قاتلت فيك حـتى استشـهدت، قـال : كـذبت، ولكنـك قاتلت ليقال : جرئ، فقد قيل، ثم أمر به فسحب على وجهه حتى ألقي في النار، ورجـل تعلم العلم وعلمـه وقـرأ القـرآن، فـأتي بـه فعرفه نعمه فعرفها، قال : فما عملت فيهـا ؟ قـال : تعلمت العلم وعلمته، وقرأت فيـك القـرآن، قـال : كـذبت ولكنـك تعلمت العلم ليقال عالم وقرأة القرآن ليقال هـو قـارئ، فقـد قيـل، ثم أمـر بـه فسحب على وجهه حـتى ألقي في النـار، ورجـل وسـع اللـه عليـه وأعطاه من أصناف المال كله، فأتي به فعرفه نعمه، فعرفها، قال : فما عملت فيها قال : ما تركت من سبيل تحب أن ينفق فيهـا إلا أنفقت فيها لك، قال : كـذبت ولكنـك فعلت ليقـال هـو جـواد فقـد قيل، ثم أمر به فسحب على وجهه، ثم ألقي في النار)[1]

وبقوله :(أفضل العلم العلم باللـه، قليـل العمـل ينفـع مـع العلم، وكثير العمل لا ينفع مع الجهل)[2]

وبقوله:(العلماء ثلاثة : رجل عاش به النـاس وعـاش بعلمـه، ورجل عاش به الناس وأهلك نفسه، ورجل عاش بعلمـه ولم يعش

[1] رواه مسلم.

[2] رواه الديلمي.

به أحد غيره)[1]

وبقولـه:(إن من العلم كهيئـة المكنـون لا يعلمـه إلا العلمـاء بالله، فإذا نطقوا به لا ينكره إلا أهل الغرة[2] بالله)[3]

وبقوله:(ألا أنبئكم بالفقيه كـل الفقيـه ؟ من لا يقنـط النـاس من رحمة الله، ولا يؤيسهم من روح الله، ولا يؤمنهم مكر الله، ولا يدع القـرآن رغبـة إلى مـا سـواه، ألا لا خـير في عبـادة ليس فيهـا تفقه، ولا في علم ليس فيه تدبر)[4]

وبقوله:(العلم حياة الإسلام، وعماد الايمـان، ومن علم علمـا أنمى الله له أجره إلى يوم القيامة، ومن تعلم علما فعمل به كـان حقا على الله أن يعلمه ما لم يكن يعلم)[5]

وبقوله:(العلم خير من العمل، وملاك الدين الـورع، والعـالم من يعمل بالعلم وإن كان قليلا)[6]

وبقوله:(العلم علمـان : فعلم ثـابت في القلب فـذاك العلم النافع، وعلم في اللسان فذاك حجة الله على عباده)[7]

وبقوله:(خير النـاس أقـرؤهم للقـران، وأفقهم في دين اللـه واتقاهم وآمرهم بالمعروف وأنهاهم عن المنكر وأوصـلهم للـرحم)[8]

1() رواه الديلمي.

2() الغرة : أهل الغفلة الذين ركنوا إلى الدنيا.

3() رواه الديلمي.

4() رواه ابن لال في مكارم الخلاق.

5() رواه أبو الشيخ.

6() رواه أبو الشيخ.

7() رواه أبو نعيم.

8() رواه أحمد والطبراني في الكبير والبيهقي والخرائطي في مكارم الاخلاق.

وبقوله:(من كتب عني علما أو حديثا لم يزل يكتب له الاجــر ما بقي ذلك العلم والحديث)([1])

وبقولـه:(إذا علم العـالم فلم يعمـل كـان كالمصـباح يضـئ للناس ويحرق نفسه)([2])

وبقوله:(مثل العالم الذي يعلم النـاس الخـير وينسـى نفسـه مثل الفتيلة تضئ للناس وتحرق نفسها)([3])

وبقوله:(أشد الناس عذابا يوم القيامة عالم لم ينفعه علمــه) ([4])

وبقوله:(أكثر مـا اتخـوف على أمـتي من بعـدي رجـل يتـأول القرآن يضعه على غير مواضعه، ورجل يرى أنـه أحـق بهـذا الامـر من غيره)([5])

وبقولـه:(إن اللـه تعـالى لا يقبض العلم انتزاعـا ينتزعـه من العبـاد، ولكن يقبض العلم بقبض العلمـاء حـتى إذا لم يبـق عالمـا اتخذ الناس رؤساء جهالا فسئلوا فأفتوا بغير علم فضـلوا وأضـلوا) ([6])

وبقوله:(إن الله تبارك وتعالى يبغض كل عالم بالـدنيا جاهـل بالآخرة)([7])

وبقوله:(إن الله تبارك وتعالى يسأل العبـد عن فضـل علمـه

---

[1] () رواه ابن عساكر في تاريخه.

[2] () رواه ابن قانع في معجمه.

[3] () رواه الطبراني في الكبير.

[4] () رواه ابن عدي والبيهقي.

[5] () رواه الطبراني في الأوسط.

[6] () رواه البخاري ومسلم.

[7] () رواه الحاكم في تاريخه.

كما يسأل عن فضل ماله) (1)

وبقوله:(إن الله تبارك وتعالى يعافي الاميين يوم القيامة ما يعافي العلماء)(2)

2 ـ العباد

بعد أن رأيت ما رأيت في جنان العلماء حنت نفسي لأرى جنان العباد.. فطلبت من محمد أن نسير إليها.. فسار بي، وطلب مني أن أتأدب بين أيديهم حتى لا أشغلهم عما هم فيه من ألوان العبادة..

كان أول من استقبلنا شاب يكاد يكون تربا لمحمد.. استقبلنا بقوله: مرحبا بكم في ديار العباد..

قلت: من أنت؟

قال: أنا محمد.. أنا مرشد العباد إلى ديار العُبَّاد.

قلت: مرحبا بك.. فمن العُبَّاد؟

قال(3): هم من شغلهم تحصيل زادهم عن أهليهم وأولادهم ، ومال بهم ذكر المآل عن المال في معادهم، وصاحت بهم الدنيا فما أجابوا شغلا بمرادهم ، وتوسدوا أحزانهم بدلا عن وسادهم ، واتخذوا الليل مسلكا لجهادهم واجتهادهم ، وحرسوا جوارحهم من النار عن غيهم وفسادهم..

هم الذين حرموا راحة النوم أجفانهم ، ولفوا على الزفرات ضلوعهم.. أقبلت قلوبهم تراعي حق الحق ، فذهلت بذلك عن مناجاة الخلق.. فالأبدان بين أهل الدنيا تسعى ، والقلوب في رياض الملكوت ترعى.. نازلهم الخوف فصاروا والهين، وناجاهم الفكر فعادوا خائفين، وجن عليهم الليل فباتوا ساهرين ، وناداهم

1() رواه الطبراني في الأوسط.

2() رواه أبو نعيم في الحلية، والضياء.

3() هذه الكلمات منقولة بتصرف من كتاب (العبادة واجتهاد السلف فيها) للشيخ صلاح عبد الموجود.

منادى الصلاح حى على الفلاح فقاموا متهجـدين، وهبت عليهم ريح الأسحار فـتيقظوا مسـتغفرين ، وقطعـوا بنـد المجاهـدة فأصـبحوا واصلين ، فلما رجعـوا وقت الفجـر بـالأجر نـادى الهجـر : يـا خيبـة النائمين.

ثم راح ينشد بصوت عذب:

لله قوم شروا من الله	فأتعبوها بذكر الله
أما النهار فقد وافوا	وفي الظلام تراهم
أبدانهم أتعبت في الله	وأنفس أتعبت في
ذابت لحومهم خوف	وقطعوا الليل

قلت: فســـر بي إليهم.. فمـــا أشـــوقني إلى النظـــر إلى من يذكرني مرآه (الله).

سار بي إلى رجل كان وجهه كالشمس في رابعـة النهـار.. أو كالبدر في اكتماله.. رأيته راكعا خاشعا تقع الطير على ظهره.. فلا يلتفت لها.

سألت عنه، فقال لي: هذا الوارث.. هذا الـذي ضـبط حركاتـه بحركات رسول الله .. وضبط حاله حتى صار سنة تمشي..

قلت: فما يفعل؟

قال: هـو يحـيي سـنة رسـول اللـه في عبادتـه.. فقـد كـان رسول الله من أعظم الناس عبادة[1]..

قلت: ما كان لي أن أتجاوز هذا دون أن أعلم سره.

انتظرت حـتى انتهى من صـلاته، ورحت أقـول لـه: مـا الـذي هيجك إلى العبادة؟

فقال، وعيناه تغرورقان بالدموع: حبيبي وأسوتي رسول اللـه .. لقد رزقني الله محبة عظيمة له.. ولذلك جعلته مثلي الأعلى.. فلم أتحرك حركة إلا ضبطتها بحركاته.. وقد أنالني الله بفضله من

[1] () انظر فصلا خاصا بعبادة رسول الله في رسالة (النبي الإنسان) من هذه السلسلة.

لذة ذلك ما لا تعدله أي لذة.

قلت: ألا تحدثك نفسك بالهبوط؟

قال: لقد جاهدتها بأسياف الرياضة حتى لم تعد تستحلي إلا الصعود.

قلت: إن الناس ينظرون إلى أمثالك، فيحزنون.

قال: لو عاينوا ما نحن فيه لجالدونا عليه، ونافسونا فيه.

قلت: لقد حدثتني أن أسوتك هو رسول الله .. فحدثني عنه..

قال: رسول الله أعظم من أن يحاط به..

قلت: فحدثني عن عبادته.

قال: لقد وصفه شاعره ابن رواحة، فقال :

وفينا رسول الله يتلو كتابه ... إذا انشق معروف من الفجر ساطع
أرانا الهدى بعد العمى فقلوبنا ... به موقنات أن ما قال واقع
يبيت يجافي جنبه عن فراشه ... إذا استثقلت بالكافرين المضاجع

وحدث عبد الله بن الشخير قال : رأيت رسول الله يصلي وفي صدره أزيز كأزيز الرحى ، من البكاء.

وعن عبد الله بن مسعود قال: صليّت مع النبي ذات ليلة فلم يزل قائماً حتى هممت بأمر سوءٍ. قلنا: ما هممت؟ قال: هممت أن أجلس وأدعه(1).

وعن حذيفة، قال: صليّت مع النبي ذات ليلة، فافتتح البقرة فقلت: يركع عند المائة. قال: ثُمّ مضى فقلت: يصلي بها في ركعة فمضى، فقلت: يركع بها ثم افتتح النساء فقرأها، ثم افتتح آل عمران فقرأها، يقرأ مترسلاً إذا مرّ بآية فيها تسبيح سبّح، وإذا مرّ بسؤال سأل، وإذا مر بتعوّذ تعوَّذ، ثم ركع فجعل يقول: سبحان

---

(1) رواه البخاري ومسلم.

ربي العظيم، فكان ركوعه نحواً من قيامه، ثم قال: سمع الله لمن حمده، ثم قام طويلاً قريباً مما ركع، ثم سجد فقال: سبحان ربي الأعلى، فكان سجوده قريباً من قيامه[1].

وعن أبي الدرداء قال : خرجنا مع النبي في بعض أسفاره في يوم حار ، حتى يضع الرجل يده على رأسه من شدة الحر ، وما فينا صائم إلا ما كان من النبي ، وابن رواحة.

حدثنا بهذه الأحاديث، ثم استأذننا.. وانصرف لعبادة ربه..

3 ـ المتقون

بعد أن رأيت ما رأيت في جنان العباد حنت نفسي لأرى الطبقة التالية من الجبل.. فطلبت من محمد أن نسير إليها.. فسار بي، وطلب مني أن أتأدب بين أيديهم.. وأخبرني أن طبقتهم هي طبقة المتقين الذين يحاسبون أنفسهم على الأنفاس..

كان أول من استقبلنا شاب يكاد يكون تربا لمحمد.. استقبلنا بقوله: أنا محمد الأمين.. وسأكون دليلكم إلى ديار المتقين.

قلت: فمن المتقون؟

قال: هم الذين جعلوا بينهم وبين غضب الله جدرانا من الورع.. فلا يتحركون إلا بما يقتضيه الشرع.

قلت: فأين أجد علومهم.. وكيف أهتدي بهديهم.. وكيف أسلك سبيلهم؟

قال: أنت الآن في طبقتهم.. فسر، والزم الصمت لتلقن من أفواههم من حكم التقوى ما يرفعك الله به إلى درجات المتقين..

قلت: هل تدلني على شخص أسير إليه، أو علم أهتدي به؟

قال: ليس في أهل هذه الطبقة إلا المتقون، ولا يتحدث أهلها إلا عن التقوى، فسر وأعر سمعك لهم، وكن من الَّذِينَ

---

[1] () رواه مسلم، وسورة النساء في هذا الحديث مقدمة على آل عمران، وكذلك هي في مصحف ابن مسعود.

يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَاهُمُ اللَّهُ وَأُولَئِكَ هُمْ أُولُو الْأَلْبَابِ (18) (الزمر)

بينما أنا أسير إذ وجدت رجلين يتحدثان..

قال أحدهما[1] : لقد رغبتني في التقوى، وملأت قلبي شوقا لدرجاتها العالية، فصف لي المتقين كأني أنظر إليهم.

قال الآخر: يا همام؛ اتق الله وأحسن فـ ﴿إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوْا وَالَّذِينَ هُمْ مُحْسِنُونَ﴾ [النحل: 128]

رأيت الرجل الأول لم يقنع بهذا الكلام، وصار يلح عليه، فقال الثاني: إن المتقين هم أهل الفضائل؛ منطقهم الصواب، وملبسهم الاقتصاد، ومشيهم التواضع. غضوا أبصارهم عما حرم الله عليهم، ووقفوا أسماعهم على العلم النافع لهم. نزلت أنفسهم منهم في البلاء، كالتي نزلت في الرخاء.. ولولا الأجل الذي كتب الله عليهم، لم تستقر أرواحهم في أجسادهم طرفة عين، شوقا إلى الثواب، وخوفا من العقاب.

قال الأول: زدني..

قال الثاني: المتقون هم الذين عظم الخالق في أنفسهم، فصغر ما دونه في أعينهم. فهم والجنة كمن قد رآها، فهم فيها منعمون. وهم والنار كمن قد رآها، فهم فيها معذبون. قلوبهم محزونة، وشرورهم مأمونة، وأجسادهم نحيفة، وحاجاتهم خفيفة، وأنفسهم عفيفة. صبروا أياما قصيرة أعقبتهم راحة طويلة، تجارة مربحة، يسرها لهم ربهم. أرادتهم الدنيا ولم يريدوها، وأسرتهم ففدوا أنفسهم منها.

قال الأول: فصف لي ليلهم.

قال الثاني: أما الليل فصافون أقدامهم، تالين لأجزاء القرآن يرتلونها ترتيلا، يحزنون به أنفسهم، ويستثيرون به دواء دائهم. فإذا مروا بآية فيها تشويق ركنوا إليها طمعا، وتطلعت نفوسهم إليها

1() سنسوق هنا بتصرف واختصار خطبة الإمام علي في وصف المتقين كما وردت في نهج البلاغة.

شوقا، وظنوا أنها نصب أعينهم. وإذا مروا بآية فيها تخويف أصغوا إليها مسامع قلوبهم، وظنوا أن زفير جهنم وشهيقها في أصول آذانهم، فهم حانون على أوساطهم، مفترشون لجباههم وأكفهم، وأطراف أقدامهم، يطلبون إلى الله تعالى في فكاك رقابهم.

قال الأول: فصف لي نهارهم.

قال الثاني: وأما النهار فحلماء علماء، أبرار أتقياء، قد براهم الخوف بري القداح، ينظر إليهم الناظر فيحسبهم مرضى، وما بالقوم من مرض، ويقول: قد خولطوا! ولقد خالطهم أمر عظيم! لا يرضون من أعمالهم القليل، ولا يستكثرون الكثير. فهم لانفسهم متهمون، ومن أعمالهم مشفقون.

قال الأول: فكيف حالهم إذا أثنى الناس عليهم؟

قال الثاني: إذا زكي أحد منهم خاف مما يقال له، فيقول: أنا أعلم بنفسي من غيري، وربي أعلم مني بنفسي! اللهم لا تؤاخذني بما يقولون، واجعلني أفضل مما يظنون، واغفر لي ما لا يعلمون.

قال الأول: فزدني من علاماتهم ما يرفع همتي، ويملؤني شوقا لمنازلهم.

قال الثاني: من علامة أحدهم أنك ترى له قوة في دين، وحزما في لين، وإيمانا في يقين، وحرصا في علم، وعلما في حلم، وقصدا في غنى، وخشوعا في عبادة، وتجملا في فاقة، وصبرا في شدة، وطلبا في حلال، ونشاطا في هدى، وتحرجا عن طمع.. يعمل الأعمال الصالحة وهو على وجل، يمسي وهمه الشكر، ويصبح وهمه الذكر. يبيت حذرا، ويصبح فرحا؛ حذرا لما حذر من الغفلة، وفرحا بما أصاب من الفضل والرحمة. إن استصعبت عليه نفسه فيما تكره لم يعطها سؤلها فيما تحب.

كان الأول يسمع بلهفة شديدة، وروحه تكاد تخرج شوقا وطمعا، ولم يلتفت الثاني إليه، بل راح يقول وهو مستغرق في عوالم لا أراها: قرة عينه فيما لا يزول، وزهادته فيما لا يبقى،

يمزج الحلم بالعلم، والقول بالعمل.. تراه قريبـا أملـه، قليلا زللـه، خاشعا قلبه، قانعة نفسه، منزورا أكلـه، سـهلا أمـره، حريـزا دينـه، ميتـة شـهوته، مكظومـا غيظـه. الخـير منـه مـأمول، والشـر منـه مـأمون. إن كـان في الغـافلين كتب في الـذاكرين، وإن كـان في الـذاكرين لم يكتب من الغـافلين. يعفـو عمن ظلمـه، ويعطي من حرمه، ويصل من قطعه.

بعيدا فحشه، لينا قوله، غائبـا منكـره، حاضـرا معروفـه، مقبلا خيره، مدبرا شره. في الزلازل وقـور، وفي المكـاره صـبور، وفي الرخــاء شــكور. لا يحيــف على من يبغض، ولا يــأثم فيمن يحب. يعترف بالحق قبل أن يشهد عليه. لا يضيع ما استحفظ، ولا ينســى ما ذكر، ولا ينابز بالالقاب، ولا يضار بالجار، ولا يشمت بالمصــائب، ولا يدخل في الباطل، ولا يخرج من الحق.

إن صمت لم يغمه صمته، وإن ضحك لم يعل صوته، وإن بغي عليه صبر حتى يكون الله هو الذي ينتقم له.

نفســه منــه في عنــاء، والنــاس منــه في راحــة. أتعب نفســه لآخرته، وأراح الناس من نفسه. بعده عمن تباعد عنه زهد ونزاهة، ودنوه ممن دنـا منـه لين ورحمـة. ليس تباعـده بكـبر وعظمـة، ولا دنوه بمكر وخديعة.

مـا وصـل الثـاني من حديثـه لهـذا الموضـع حـتى صـاح الأول صيحة شديدة، كانت روحه فيها..

***

مــا ســرت إلا قليلا حــتى رأيت قومــا مجتمعين على مائــدة طعام، قال أحدهم: يا قوم اتقوا الله، وإياكم أن تطعمونا شيئا مما حرم الله، فإن الحرام حجاب بين العباد وربهم، وقـد قـال :(إن الله تعالى طيب لا يقبل إلا طيبا، وإن الله تعالى أمر المؤمنين بما أمر به المرسلين، فقال تعالى : يَا أَيُّهَا الرُّسُلُ كُلُوا مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَاعْمَلُوا صَالِحًا..(51) (المؤمنون)، وقال تعـالى : يَـا أَيُّهَـا الَّذِينَ آمَنُـوا كُلُـوا مِنْ طَيِّبَـاتِ مَـا رَزَقْنَـاكُمْ وَاشْـكُرُوا للـه إِنْ كُنْتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ (172) (البقـرة)، ثم ذكـر الرجـل يطيـل السـفر أشـعث

أغـبر، يمـد يديـه إلى السـماء: يـا رب يـا رب، ومطعمـه حـرام، ومشربه حـرام، وملبسـه حـرام، وغـذي بـالحرام، فـأنى يسـتجاب لذلك)[1]

قال آخر: وقد روي أنه تليت عند رسـول اللـه هـذه الآيـة : ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ كُلُوا مِمَّا فِي الْأَرْضِ حَلَالًا طَيِّبًا.. (168)﴾ (البقرة)، فقام سعد، فقال: يـا رسـول اللـه ادع اللـه أن يجعلـني مسـتجاب الـدعوة، فقـال النـبي : (يـا سـعد أطب مطعمـك تكن مسـتجاب الدعوة، والذي نفس محمد بيده إن العبـد ليقـذف اللقمـة الحـرام في جوفه مـا يتقبـل اللـه منـه عملا أربعين يومـا، وأيمـا عبـد نبت لحمه من سحت فالنار أولى به)[2]

قال آخر: وقد روينـا فـوق ذلـك أن الأعمـال لا تقبـل إن أكـل صاحبها حرامـا.. فقـد ورد في الحـديث قولـه :(من اشـترى ثوبـا بعشرة دراهم في ثمنه درهم حرام لم يتقبل الله له صلاته ما كان عليه)[3]

قال آخر: ومثل ذلـك قـال : (إذا خـرج الرجـل حاجـا بنفقـة طيبة ووضع رجله في الغرز فنـادي: لبيـك اللهم لبيـك، نـاداه منـاد من السـماء: لبيـك وسـعديك وزادك حلال وراحلتـك حلال وحجـك مبرور غير مأزور.. وإذا خرج الرجل بالنفقة الخبيثـة، فوضـع رجلـه في الغرز فنادى: لبيك اللهم لبيك ناداه مناد من السماء: لا لبيك لا لبيك ولا سعديك، زادك حرام، ونفقتك حرام، وحجـك غـير مـبرور)[4]

قال آخر: بل ورد ذلك في كتاب الله، فقد قال تعالى :﴿ إِنَّمَـا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ (27)﴾ (المائدة)

قال آخر: قد كان الصـالحون شـديدي الخـوف على أنفسـهم

1() رواه مسلم.

2() رواه الطبراني.

3() رواه أحمد.

4() رواه الطبراني.

من هذه الآية، خافوا أن لا يكونوا من المتقين الذين يتقبل الله منهم، وقد قال بعضهم: (خمس خصال بها تمام العمل: الإيمان بمعرفة الله عز وجل، ومعرفة الحق، وإخلاص العمل لله، والعمل على السنة، وأكل الحلال، فإن فقدت واحدة لم يرتفع العمل، وذلك إذا عرفت الله عز وجل ولم تعرف الحق لم تنتفع، وإذا عرفت الحق ولم تعرف الله لم تنتفع، وإن عرفت الله وعرفت الحق ولم تخلص العمل لم تنتفع، وإن عرفت الله وعرفت الحق وأخلصت العمل ولم يكن على السنة لم تنتفع، وإن تمت الأربع ولم يكن الأكل من حلال لم تنتفع)

قال آخر: لقد قال لي بعض الصالحين: (لو قمت مقام هذه السارية لم ينفعك شيء حتى تنظر ما يدخل في بطنك حلال أم حرام)، وقال لي آخر: (ذكروا لنا أن مَنْ صلّى وفي جوفه طعام حرام، أو على ظهره سلك من حرام لم تقبل صلاته)

قال آخر: لقد قال لي بعض الصالحين، وهو يعظني: يا مسكين إذا صمت فانظر عند من تفطر وطعام من تأكل، فإنّ العبد ليأكل الأكلة فيتقلب قلبه وينغل كما نغل الأديم، فلا يعود إلى حاله أبداً.

قال آخر: وقد روينا عن سلفنا من الصالحين قولهم: (إنما حرموا مشاهدة الملكوت، وحجبوا عن الوصول بشيئين سوء الطعمة وأذى الخلق)

قال آخر: وحدثونا من آثار السلف أنّ الواعظ والمذكر كان إذا جلس للناس ونصب نفسه سئل أهل العلم عن مجالسته فكانوا يقولون : تفقدوا منه ثلاثاً، انظروا إلى صحة اعتقاده، وإلى غريزة عقله، وإلى طعمته، فإن كان معتقدا لبدعة فلا تجالسوه فإنه عن لسان الشيطان ينطق، وإن كان سيّء الطعمة فاعلموا أنه ينطق عن الهوى، وإن كان غير ممكن العقل فإنه يفسد بكلامه أكثر مما يصلح فلا تجالسوه.

قال آخر: وحدثنا بعضهم أن (المعدة حوض البدن، والعروق إليها واردة، فإذا صحت المعدة صدرت العروق إليها بالصحة، وإذا

سقمت المعدة صدرت العروق إليها بالسقم.. ومثل الطعمة من الدين مثل الأساس من البنيان ؛ فإذا ثبت الأساس وقوي استقام البناء وارتفع، وإذا ضعف الأساس واعوج انهار البنيان ووقع، وقد قال اللّه تعالى : ﴿ أَفَمَنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُ عَلَى تَقْوَى مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٍ خَيْرٌ أَمْ مَنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُ عَلَى شَفَا جُرُفٍ هَارٍ فَانْهَارَ بِهِ فِي نَارِ جَهَنَّمَ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ (109)﴾ (التوبة)

***

تركتهم يتحدثون، ثم سرت قليلا، فرأيت رجلين يتحاوران أحدهما يبدو عليه الغنى والآخر تبدو عليه الفاقة..

قال الغني للفقير: ما تقول؟.. أترى أنه لا يصح الصدقة من المال الحرام؟

قال: أجل.. فقد روينا عن رسول الله ﷺ أنه قال: (لا يقبل الله صلاة بغير طهور، ولا صدقة من غلول)[1]

وقال: (ما تصدق عبد بصدقة من مال طيب، ولا يقبل الله إلا الطيب، إلا أخذها الرحمن بيمينه.. الحديث)[2]

وقال: (لا يكتسب عبد مالا من حرام فينفق منه فيبارك فيه ولا يتصدق به فيتقبل منه ولا يتركه خلف ظهره إلا كان زاده إلى النار.. إن الله لا يمحو السيىء بالسيئ، ولكن يمحو السيىء بالحسن، إن الخبيث لا يمحو الخبيث)[3]

وقال: (من كسب مالا حراما فتصدق به لم يكن له فيه أجر، وكان إصره عليه)[4]

وروي في الأثر أن (من أصاب مالا من مأثم فوصل به رحمه

1() رواه مسلم.

2() رواه البخاري ومسلم.

3() رواه أحمد.

4() رواه ابن حبان.

وتصدق به أو أنفقه في سبيل الله جمع ذلك جميعا ثم قذف به في نار جهنم)

وروي عن أبي الدرداء ويزيد بن ميسرة أنهما جعلا مثل من أصاب مالا من غير حله فتصدق به مثل من أخذ مال يتيم وكسا به أرملة.

وسئل ابن عباس عمن كان على عمل فكان يظلم ويأخذ الحرام، ثم تاب فهو يحج ويعتق ويتصدق منه فقال: (إن الخبيث لا يكفر الخبيث)

ومثل ذلك قال ابن مسعود: (إن الخبيث لا يكفر الخبيث، ولكن الطيب يكفر الخبيث)

وقال الحسن: (أيها المتصدق على المسكين ترحمه، ارحم من قد ظلمت)

***

تركتهما، ثم سرت حتى رأيت رجلا يخطب في قوم، وهو يقول لهم: اسمعوا إلى رسول الله ، فقد قال يتحدث عن هذا، ويحض عليه: (دع ما يريبك إلى ما لا يريبك)[1]

وورد في بعض روايات الحديث أنه قال لرجل: (دع ما يريبك إلى ما لا يريبك)، فقال الرجل: وكيف لي بالعلم بذلك؟ قال: (إذا أردت أمرا فضع يدك على صدرك، فإن القلب يضطرب للحرام، ويسكن للحلال، وإن المسلم الورع يدع الصغيرة مخافة الكبيرة)[2]

قالوا: هلا عرفتنا بالغرض الذي سقت من أجله هذه النصوص؟

قال: إن هذه النصوص جميعا تدعونا إلى الوقوف عند الشبهات واتقائها، فإن الحلال المحض لا يحصل لمؤمن في قلبه

1() رواه النسائي والترمذي وقال حسن صحيح.

2() رواه الطبراني.

منه ريب ولا قلق ولا اضطراب.. بل تسـكن إليـه النفس، ويطمئن بـه القلب.. وأمـا المشـتبهات فيحصـل بهـا للقلـوب القلـق والاضطراب الموجب للشك.

إن هذا – أيها الجمع المبارك- هو المنهـاج الـذي اعتمـد عليـه المتقـون في سـلوكهم إلى اللـه، وهـو القـانون الـذي ساسـوا بـه حياتهم.. لقد قال بعضهم يعبر عنه: (يزعم الناس أن الورع شـديد، وما ورد علي أمران إلا أخذت بأشدهما، فـدع مـا يريبـك إلى مـا لا يريبك).. وقال آخر: (مـا شـيء أهـون من الـورع: إذا رابـك شـيء فدعه)

لم تكن هذه الكلمات مجرد مراسيم نظرية.. بل كانت واقعـا ملموسا عاشه الصالحون:

ومما يروى في هذا أن غلامـا لبعض الصـالحين كتب إليـه من يقول له: (إن قصب السكر أصابته آفة فاشتر السكر فيما قبلـك)، فاشتراه من رجل، فلم يأت عليه إلا قليل، فـإذا فيمـا اشـتراه ربح ثلاثين ألفا، فأتى صاحب السكر فقال: (يا هذا، إن غلامي كـان قـد كتب إلى فلم أعلمك فأقلني فيما اشتريت منك)، فقال لـه الآخـر: (قد أعلمتني الآن وقد طيبته لك)، فرجـع فلم يحتمـل قلبـه فأتـاه، فقـال: (يـا هـذا إني لم آت هـذا الأمـر من قبـل وجهـه، فـأحب أن تسترد هذا البيع)، فما زال به حتى رده عليه.

وكان بعضهم إذا طلب المتاع ونفـق وأرسـل ليشـتريه يقـول لمن يشتري له: (أعلم من تشتري منه أن المتاع قد طلب)

وكان بعضهم قد بعث طعاما إلى البصرة مع رجل، وأمـره أن يبيعـه يـوم يـدخل بسـعر يومـه، فأتـاه كتابـه أني قـدمت البصـرة فوجدت الطعام منقصا فحبسته فزاد الطعام فـازددت فيـه كـذا أو كذا، فكتب إليه يقول: (إنك قـد خنتنـا، وعملت بخلاف مـا أمرنـاك به، فإذا أتاك كتابي فتصـدق بجميـع ذلـك الثمن ثمن الطعـام على فقراء البصرة، فليتني أسلم إذا فعلت ذلك)

ومن جنس هـذا مـا روي أنّ بعض الـورعين وقـع منـه دينـار، فانكبّ ليأخذه، فوجد دينارين فلم يعرف ديناره منها فتركهما معاً.

ويـروى أن امـرأة من المتعبـدّات من أهـل القلـوب سـألت الخواص عن تغير وجدته في قلبها فقال : عليك بالتفقـد، فقـالت : قد تفقدت فما وجدت شـيئاً أعرفـه، فـأطرق سـاعة، ثم قـال: ألاّ تذكرين ليلة المشعل فقـالت : بلى فقـال : هـذا التغـير من ذلـك، فذكرت أنها كـانت تغـزل فـوق سـطح لهـا فـانقطع خيطهـا، فمـر مشـعل السـلطان فغـزلت في ضـوئه خيطـاً وأدخلت في غزلهـا، ونسـجت منــه قميصــاً فلبســته قــال : فــنزعت القميص وباعتــه وتصدقت بثمنه، فرجع قلبها إلى الصفا.

وروي عن ذي النون المصري أنه لما سـجن لم يأكـل طعامـاً ولم يشرب أياماً، فوجهت إليه امرأة يعرفهـا من العابـدات بطعـام إلى السجن وقالت : هذا من حلال، فلم يأكله فقالت له بعد ذلـك، فقال : ذلك الطعام من حلال إلاّ أنه جاءني في طريــق حــرام فلم آكلـه فقـالت : وكيـف ذلـك قـال : جـاءني في يـد السـجان وهـو ظالم[1] فلذلك لم آكله.

وروي أنــه كـان لطـاووس بضـاعة يتجـر لـه فيهـا من التمـر، فاشترى مضاربه ببضـاعة أديمـاً من بعض أوليـاء السـلطان وكتب إليه بذلك، وكتب إليه طاووس : أفسدت علينـا مالنـا، مـا أحبّ أن أتلبس بشيء منه فبع الأديم باليمن، وتصدق بثمنه، ولا تدخل منــه إلى الحرم درهمـاً واحـداً، وأنـا أسـتغفر اللّـه من طعمـة الفقـراء، وأرجو أنْ أنجو كفافاً لا عليّ ولا لي.

وروي أنّ امرأة أهدت إلى بشر سلة عنب، فقالت : هـذه من صنيعة أبي فردها بشر عليها، فقالت : سبحان اللّه تشك في كــرم أبي وفي صحة ملكـه ومـيراثي منـه وشـهادتك مكتوبـة في كتـاب الشراء، فقال : صدقت ملك أبيك ولكنك أفسدت الكـرم، قـالت : بماذا ؟ قال : سقيته من نهر طاهر - يعني طاهر صاحب المــأمون –

ومن جنس هذا ما ما يفعلـه المتقـون من التسـامح في بعض حقوقهم خشية أنْ يستوفوا الحلال كله، فيقعون في الشبهة، وقــد

1() وظيفة السـجان ليسـت ظلمـا بحـد ذاتهـا، ولكنهـا تكـون كـذلك إن كـان السـجان تابعـا للظلمة، أو ساجنا للمظلومين.

قالوا في هذا: (من استوعب الحلال حام حول الحرام)

وقد أشار رسول الله إلى هذا المعنى في قوله :(من يرتع حول الحمى يوشك أنْ يواقعه)(1)

وأشار إليه قبل ذلك قوله تعالى: إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ..(90) (النحل)، فقد فهم المتقون من هذه الآية أن العدل هو أنْ يأخذ المرء حقه كله ويعطي الحق كله، أما الإحسان فهو أنْ يترك بعض حقه، ويبذل فوق ما عليه من الحق ليكون محسناً.

وقد روي في هذا عن بعضهم أنه قال : أتيت بعض الورعين بدين له عليّ وكان خمسين درهماً، قال : ففتح يده فعددت فيها إلى تسع وأربعين درهماً فقبض يده، فقلت : هذا درهم قد بقي لك من حقك، قال : قد تركته لك إني أكره أنْ أستوعب مالي كله، فأقع بما ليس لي.

وكان بعضهم يقول: (من اتّقى من تسعة وتسعين شيئاً ولم يتّقِ من شيء واحد لم يكن من المتّقين، ومن تاب من تسعة وتسعين ذنباً ولم يتب من ذنب واحد لم يكن من التوّابين، ومن زهد في تسعة وتسعين شيئاً ولم يزهد في شيء واحد فليس من الزاهدين)

وكان آخر يقول: (إنما التقوى أن يتقي اللهّ العبد في مثقال ذرة حتى يترك بعض ما يرى أنه حلال خشية أنْ يكون حراماً، يكون حجاباً بينه وبين الحرام)

***

تركت الرجل مع جمعه، ثم سرت، فلم ألبث أن رأيت جماعة كلهم يحملون معاول ومناجل وغيرها من أدوات العمل إلا واحدا منهم، فقد كان يحمل بدل ذلك مسبحة.. فاقتربت منهم، فسمعت صاحب المسبحة يقول لأصحابه: ألا ترون أنكم تضيعون ما طلب منكم من تحصيل التقوى بهذه المعاول والمناجل.. لقد ضمن الله

(1) رواه البخاري ومسلم.

رزقكم، فلم تسعون إليه، وتضيعون ما طلب منكم أن تسعوا فيه..

ألم تسمعوا قوله تعالى : ﴿ وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا كُلٌّ فِي كِتَابٍ مُبِينٍ (6)﴾ (هود)، وقوله :﴿ وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ (56) مَا أُرِيدُ مِنْهُمْ مِنْ رِزْقٍ وَمَا أُرِيدُ أَنْ يُطْعِمُونِ (57) إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ (58)﴾ (الذاريات)؟

ألم تسمعوا ما ورد في الآثار الصحيحة من قوله ﷺ في الحديث القدسي: (قال الله: يا ابن آدم، تَفَرَّغ لعبادتي أملأ صدرك غِنًى، وأسدّ فقرك، وإلا تفعل ملأت صدرك شغلا ولم أسد فقرك)[1] ؟

ألم تسمعوا ما حدث به حَبَّة وسواء ابني خالد.. لقد قالا: أتينا رسول الله ﷺ وهو يعمل عملا أو يبني بناء فأعناه عليه، فلما فرغ دعا لنا وقال: (لا تيأسا من الرزق ما تهززت رءوسكما، فإن الإنسان تلده أمه أحمر ليس عليه قشرة، ثم يعطيه الله ويرزقه)[2] ؟

ألم تقرأوا ما ورد في بعض الكتب الإلهية.. لقد جاء فيها: (يقول الله تعالى: ابن آدم، خلقتك لعبادتي فلا تلعب، وتكفلت برزقك فلا تتعب فاطلبني تجدني؛ فإن وجدتني وجدت كل شيء، وإن فُتك فاتك كل شيء، وأنا أحب إليك من كل شيء)؟

ألم تسمعوا ما قال الحكيم.. لقد قال: (اجتهادُكَ فيما ضَمِنَ لكَ وتقصيرُكَ فيما طَلَبَ منكَ دليلٌ على انْطماسِ البصيرةِ منْكَ)؟

بعد أن أنهى الرجل موعظته قال له رجل كان يحمل مسحاة: بورك فيك يا أخانا، فإنك لم تأل جهدا في نصحنا، ولكنا قوم بدأنا بما ذكرت، وقد آلينا على أنفسنا ألا نحرك جوارحنا إلا في عبادة الله.. فمن العار على الجوارح التي أبدع الله صنعها ألا

1() رواه الترمذي وابن ماجه، وقال الترمذي: حسن غريب.

2() رواه أحمد.

تتحرك في طاعة مولاها.

ابتسم صاحب المسبحة، وقال: ولكن قولك يخالف فعلك.. كيف تقول ذلك، وأنا لا أرى في يدك مسبحة، بل أرى فيها مسحاة.. فهلا استبدلت المسحاة بالمسبحة حتى يطابق قولك فعلك.

قال الرجل: أرأيت إن أمرك الله أن تحمل المسحاة.. واعتبر ذلك من العبودية.. ألن تصبح المسحاة بذلك مسبحة؟

قال صاحب المسبحة: أجل.. ولكن دون إثبات ما تقول خرط القتاد..

قال الرجل: لقد وردت النصوص المقدسة الكثيرة تدعو إلى العمل، وتعتبره عبادة لا تقل عن أي عبادة.. بل ورد فيها ما يعتبر طالب الحلال كالمجاهد الصائم القائم..

لقد قال تعالى يقرن بين العمل والجهاد :.. وَآخَرُونَ يَضْرِبُونَ فِي الْأَرْضِ يَبْتَغُونَ مِنْ فَضْلِ اللَّهِ وَآخَرُونَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ..(20) (المزمل)

وفي الآثار الصحيحة الكثيرة ما يدل على الأجور العظيمة التي ينالها أصحاب المساحي والتي قد لا ينالها أصحابها المسابح.. لقد قال في فضل إحياء الأرض:(ما من امرئ يحي أرضا فتشرب منها كبد حرى أو تصيب منها عافية إلا كتب الله تعالى له به جرا)[1]

وقال في أجر من أحيا أرضا ميتة: (من أحيا أرضا ميتة فله فيها أجر، وما أكلت العافية منها فهو له صدقة)[2]

وقال في غرس الغرس:(ما من مسلم يزرع زرعا أو يغرس غرسا فيأكل منه طير أو إنسان أو بهيمة إلا كانت له به صدقة)[3]، وقال:(ما من رجل يغرس غرسا إلا كتب الله له من الأجر

---

[1] رواه الطبراني في الكبير عن أم سلمة.

[2] رواه أحمد والترمذي وابن حبان، قال الترمذي: هذا حديث حسن صحيح.

قدر ما يخرج من ثمر ذلك الغرس)[1]، وقال:(ما من مسلم يغرس غرسا إلا كان ما أكل منه له صدقة وما سرق منه صدقة، وما أكل السبع فهو له صدقة، وما أكلت الطير فهو له صدقة ولا يرزؤه[2] أحد إلا كان له صدقة)[3]

قال آخر: ألم تسمع ما ورد في الآثار من أن (من سعى على عياله من حله فهو كالمجاهد في سبيل اللّه عزّ وجلّ، ومن طلب الدنيا حلالاً في عفاف كان في درجة الشهداء)

قال آخر: وقد قال لنا سلفنا من الصالحين: (إنّ أول لقمة يأكلها العبد من حلال يغفر له ما سلف من ذنوبه، ومن أقام نفسه في مقام ذل في طلب الحلال، تساقطت عنه ذنوبه كما يتساقط ورق الشجر في الشتاء إذا يبس)

قال آخر: وكان بعض العلماء يقول لبعض المجاهدين: (أين أنت من عمل الأبطال: كسب الحلال والنفقة على العيال؟)

قال آخر: وكان الصالحون يرددون لنا كل حين قولهم: (لا تحقر دانقاً من حلال تكسبه تنفقه على نفسك وعيالك أو أخ من إخوانك، فلعله لا يصل إلى جوفك أو لا يصل إلى غيرك حتى يغفر لك)

لم يجد الرجل صاحب المسبحة بعد أن سمع كل هذا إلا أن قال: بورك فيكم.. ولكن ما أعمل بمسبحتي.

قال له صاحب المسحاة: ضعها مع مسابحنا.. فللمسبحة وقتها وللمسحاة وقتها.. والغافل من باع مسبحته بمسحاته، والعاجز من ضيع مسحاته لأجل مسبحته.

قال آخر: لقد ذكر لنا عن سلفنا من الصالحين أنهم كانوا

3() رواه أحمد والترمذي.

1() رواه أحمد.

2() ولا يرزؤه: أي لا ينقصه ويأخذ منه.

3() رواه مسلم.

يجعلون من مساحيهم وفؤوسهم مسابح تسبح الله.. فقد كانوا لا يهوون على الأرض بها إلا بصحبة ذكر الله، ولا يرفعونها إلا بذكر الله.

قال آخر: إنهم يستنون في ذلك بسنة رسول الله وأصحابه من المتقين، فقد كانوا في أعمالهم يذكرون الله، وقد ورد في الحديث عن أنس أن الأنصار والمهاجرين كانوا يرتجزون وينقلون التراب على متونهم يقولون:

نحن الذين بايعوا محمداً على الإسلام ما بقينا أبداً

فيجيبهم الرسول :

اللهم إنه لا خير إلا خير الآخرة فبارك فى الأنصار و المهاجرة(1)

***

تركتهم يبتسم بعضهم لبعض، وقد تحركوا جميعا إلى أعمالهم.. ثم سرت إلى أن رأيت رجلين مجتمعين، قال أحدهما لأخيه: لقد سمعت الآثار الكثيرة الواردة في فضل صلاة الجماعة، بل الدالة على وجوبها.. وسمعت مثلها الآثار الدالة على فضل أكل الحلال، بل على وجوبه.. وأنا محتار في الجمع بينهما.. فإني إن صليت في جماعة أضررت بعملي وطلبي للحلال، وإن طلبت الحلال أضررت بصلاة الجماعة.. فما تقول يا أخي؟

قال الثاني: لقد وقع لي ما وقع لك.. وقد ذهبت إلى الولي الصالح إبراهيم بن أدهم، فقال لي من غير أن أسأله: لقد حضر الساعة رجل قال لي: (أنا رجل أتكسب في السوق، فإذا عملت فاتتني الصلاة في جماعة فأيما أحبّ إليك أصلّي في جماعة أو أكتسب؟).. قلت: فما أجبته، فهذا ما جئتك من أجله.. فقال لي: لقد قلت له: (اكتسب من حلال وأنت في جماعة)

وقد علمت أن يوسف بن أسباط قال لشعيب بن حرب: (أشعرت أنّ الصلاة جماعة سنّة وأن كسب الحلال فريضة؟)

(1) رواه البخاري.

قال : نعم.

وقد علمت أيضا أن إبراهيم بن أدهم كان يعمل هو وإخوانه في الحصاد في شهر رمضان، فكان يقول لهم : (انصحوا في عملكم بالنهار حتى تأكلوا حلالاً ولا تصلّوا بالليل، وإنّ لكم ثواب الصلاة في جماعة وأجر المصلّين بالليل)

ابتسم الأول، وقال: بورك فيك.. فقد أزحت عن قلبي غشاوة كدرت علي حياتي.

***

بقيت في طبقة المتقين مدة من الزمان إلى أن ملأ الله صدري ورعا، وشعرت أنه لا سعادة ولا لذة ولا راحة إلا في تقوى الله.. وقد صحت حينها بما قالها الشاعر الصالح:

ليس من يقطع	إنما من يتق اللّه
فاتق اللّه فتقوى	جاورت قلب امرئ

4 ـ الزهاد

بعد أن رأيت ما رأيت في جنان المتقين حنت نفسي لأرى الطبقة التالية من الجبل.. فطلبت من محمد أن نسير إليها.. فسار بي، وطلب مني أن أتأدب بين أيديهم.. وأخبرني أن طبقتهم هي طبقة الزهاد [1] .

وقد كان في استقبالنا شاب هو كمحمد خلقا وخلقا، وقد سألته عن الزهد، فقال: لقد ذكر بعض الصالحين الزهد، فقال: (ليس الزّهد في الدّنيا بتحريم الحلال وإضاعة المال، ولكن أن تكون بما في يد اللّه أوثق منك بما في يدك، وأن تكون في ثواب المصيبة إذا أصبت بها، أرغب منك فيها لو لم تصبك)

وسئل آخر عنه، فقال: (أن لا يغلب الحلال شكره، ولا الحرام صبره)، أي لا يقصّر في شكر الحلال إذا أصابه، ويصبر عن الحرام

1() تحدثنا في الفصل السابق عن الزهد وحقيقته وفضله، وسنكتفي هنا بذكر بعض ما ورد في التراث الإسلامي حوله.

إذا اشتهاه ولا يواقعه.

وذكره آخر، فقال: (الزّهد خلوّ القلب عمّا خلت منه اليد)

وذكره آخر، فقال : (الزّهد في الدّنيا قصر الأمل، ليس بأكــل الغليظ ولا بلبس العباءة)

وذكره آخر ، فقـال: (الزّهـد هـو الرّغبـة عن حظـوظ النّفس كلّها إلى ما هو خير منها، علما بـأنّ المـتروك حقـير بالإضـافة إلى المأخوذ)

وذكره آخر، فقال: (الزّهـد هـو انصـراف الرّغبـة عن الشّـيء إلى ما هو خير منه، وشرط المرغوب عنه أن يكون مرغوبـا بوجـه من الوجوه، فمن رغب عن شـيء ليس مرغوبـا فيـه، ولا مطلوبـا في نفسه لم يسمّ زاهدا. كمن ترك التّراب لا يسـمّى زاهـدا وإنّـه ليس الزّهد ترك المال وبذله على سبيل السّخاء والقوّة واسـتمالة القلوب فحسب، بل الزّهد أن يترك الدّنيا للعلم بحقارتهـا بالنّسـبة إلى نفاسة الآخرة)

قلت: بورك فيك.. فقـد اختصـرت لي الطريـق.. فهـل أسـير إلى الطبقة التالية؟

قال: لا.. لقد عرفت الزهـد ولم تعرفـه أهلـه.. ولا يمكنـك أن تتحقق بالزهد ما لم تعرف الزهاد.

قلت: فأين أجدهم؟

قـال: كـل من في هـذه الطبقـة قـوم امتلأوا بالزهـد.. فسـر بينهم، وتعلم على أيـديهم.. لعـل اللـه ينقـل لـك من أحـوالهم مـا يرفعك إلى درجاتهم.

***

ما سرت إلا قليلا حتى رأيت رجلا وقـع في نفسـي أن اسـمه عثمان بن حنيف، وكان يقرأ رسالة أرسلها له أمير المؤمـنين علي بن أبي طـالب، وممـا سـمعته من رسـالته قولـه: (ألا وإنّ لكـلّ مأموم إماماً يقتدي به، ويستضي ء بنور علمه، ألا وإنّ إمامكم قــد

اكتفى من دنياه بطِمريه، ومن طَعمه بقرصيه.. ولو شئت لاهتديت الطريق إلى مصفّى هذا العسل، ولُباب هـذا القمح، ونسـائج هـذا القزّ، ولكن هيهات أن يغلبـني هـواي، ويقـودني جشـعي إلى تخيّـر الأطعمة، ولعلّ بالحجاز أو اليمامة من لا طمع له في القــرص، ولا عهد له بالشبع، أو أبيتَ مبطاناً وحولي بطون غرثى، وأكباد حـرّى، أو أكون كما قال القائل:

وحَسبُكَ داءً أن تَبيتَ ببِطنةٍ   وحوَلكَ أكبادٌ تَحِنُّ إلى القِدِّ

أأقنع من نفسي بأن يقال: هـذا أميرالمؤمـنين، ولا أُشـاركهم في مكـاره الـدهر، أو أكـون أُسـوةً لهم في جشـوبة العيش! وايم اللّه - يميناً أستثني فيها بمشيئة اللّه - لأروضنّ نفسي رياضةً تهشّ معها إلى القرص إذا قدرت عليه مطعومـاً، وتقنـع بـالملح مأدومـاً، ولأدعنّ مقلتي كعين ماء نضب معينها، مسـتفرغةً دموعهـا، أتمتلئ السائمة من رعيهـا فتـبرُك، وتشـبع الربيضـة من عشـبها فـتربض، ويأكل عليّ من زاده فيهجع؟! قرّت إذاً عينه إذا اقتدى بعد السنين المتطاولة بالبهيمة الهاملة، والسائمة المرعيّة)

سألت صاحبي عن الرسالة ومرسـلها، فقـال: هـذه الرسـالة نمـوذج عن زهـد الحـاكم العـادل، وهي تـدل على أثـر الزهـد في العــدل، فلا يمكن أن يعــدل من امتلأ حرصــا وجشــعا ورغبــة في الدنيا.

***

مـا سـرت إلا قليلا حـتى رأيت رجلا تبـدو عليـه سـيما الزهـاد يرفع يديه إلى السماء، وهو يردد بصوت خاشع: ربّ مـا أحرصـني على ما زهّدتني فيه وحثثتني عليه! إن لم تُعنّي على دنيـاي بزهـد، وعلى آخرتي بتقواي، هلكتُ.

ربّي، دعتني دواعي الدنيا؛ فأجبتُها سريعاً، وركنتُ إليها طائعاً. ودعتني دواعي الآخرة من الزهد والاجتهاد فكَبَوت لها، ولم أُسارع إليها مسـارعتي إلى الحطـام الهامـد، والهشـيم البائـد، والسـراب الذاهب عن قليل.

ربّ خوّفتَني وشوّقتَني واحتجبتَ عليّ فما خفتُك حقّ خوفـك، وأخاف أن أكون قد تثبّطتُ عن السعي لك، وتهـاونت بشـي ء من احتجابك. اللهمّ فاجعـل في هـذه الـدنيا سـعيي لـك وفي طاعتـك، واملأ قلبي خوفك، وحوّل تثبيطي وتهاوني وتفريطي وكلّ ما أخافه من نفسي فَرَقاً منك، وصبراً على طاعتك، وعملاً به، يـا ذا الجلال والاكرام.

واجعل جُنّتي من الخطايا حصينة، وحسـناتي مضـاعفة؛ فإنّـك تضاعف لمن تشاء.

اللهمّ اجعل درجـاتي في الجنـان رفيعـة، وأعـوذ بـك ربّي من رفيع المطعم والمشرب، وأعوذ بك من شرّ ما أعلم ومن شـرّ مـا لا أعلم، وأعوذ بك من الفـواحش كلّهـا؛ مـا ظهـر منهـا ومـا بطن، وأعوذ بـك ربّي أن أشـتري الجهـلَ بـالعلم كمـا اشـترى غـيري، أو السَّـفهَ بـالحلم، أو الجـزعَ بالصـبر، أو الضـلالةَ بالهـدى، أو الكفـرَ بالإيمان.. يا ربّ مُنَّ عليّ بذلك؛ فإنّك تتولّى الصـالحين، ولا تُضـيع أجر المحسنين، والحمد لله ربّ العالمين.

ثم أخذ ينشد بصوت عذب جميل ممتلئ بحشرجة الدموع:

إلهي لا تعذبني ... مقر بالذي قد كان مني
وما لي حيلة إلا ... وعفوك إن عفوت،
فكم من زلة لي ... وأنت علي ذو فضل
يظن الناس بي ... لشر الناس إن لم
أجن بزهرة الدنيا ... وأفني العمر فيها
وبين يدي محتبس ... كأني قد دعيت له
ولو أني صدقت ... قلبت لأهلها ظهر

سألت صاحبي عن الداعي والدعاء، فقال: هذا رجل من أهل الله امتلأ قلبه زهدا، وهو يسأله المزيد..

***

تركنا الرجل مع دموعه وأشعاره، وسرنا، فلم نلبث في سيرنا إلا قليلا حتى رأيت رجلا يخاطب ابنه قائلا(1): بني..

أراك تحب عرسا	أبت طلاقها
تنام الدهر ويحك	بها حتى إذا مت
فكم ذا أنت مخدوع	متى لا ترعوي

قال له ابنه: أعرف ذلك يا أبت.. وأنا الآن بين يديك، فعلمني كيف أتخلص من شباك هذه الدنيا الخداعة الغرارة.

نظر الأب إلى ابنه مليا، ثم قال:

أبا بكر دعوتك لو أجبتا	إلى ما فيه حظك إن عقلتا
إلى علم تكون به إماما	مطاعا إن نهيت وإن أمرتا
فرأس العلم تقوى الله	وليس بأن يقال لقد رأستا
وضافي ثوبك الإحسان لا	ترى ثوب الإسادة قد لبستا
إذا ما لم يفدك العلم خيرا	فخير منه أن لو قد جهلتا
وإن ألقاك فهمك في مهاو	فليتك ثم ليتك ما فهمتا
ستجنى من ثمار العجز	وتصغر في العيون إذا كبرنا
وتفقد إن جهلت وأنت باق	وتواجد إن علمت وقد فقدن
وتذكر قولتي لك بعد حين	وتغبطها إذا عنها شغلتا
لسوف تعض من ندم	وما تغني الندامة إن ندمتا
إذا أبصرت صحبك في	قد ارتفعوا عليك وقد سفلتا
فراجعها ودع عنك الهوينى	فما بالبطء تدرك ما طلبنا
ولا تحفل بمالك واله عنه	فليس المال إلا ما علمتا
وليس لجاهل في الناس	ولو ملك العراق له تأتى

(1) ما نذكره من هذه المقتطفات الشعرية هو من قصيدة حكمية وعظية لأبي إسحاق الإلبيري، وهو من شعراء الأندلس الأفاضل.

سينطق عنك علمك في ... ويكتب عنك يوما إن كتبتا

وما يغنيك تشييد المباني ... إذا بالجهل نفسك قد هدمتا

جعلت فو العلم جهلا ... لعمرك في القضية ما عدلتا

وبينهما بنص الوحي بون ... ستعلمه إذا طه قرأتا

لئن رفع الغنى لواء مال ... لأنت لواء علمك قد رفعتا

وإن جلس الغنى على ... لأنت على الكواكب قد

وإن ركب الجياد مسومات ... لأنت مناهج التقوى ركبتا

وليس يضرك الإقتار شيئا ... إذا ما أنت ربك قد عرفتا

فماذا عنده لك من جميل ... إذا بفناء طاعته أنختا

فقابل بالقبول صحيح ... فإن أعرضت عنه فقد

وإن راعيته قولا وفعلا ... وتاجرت الإله به ربحتا

فليست هذه الدنيا بشيء ... تسؤوك حقبة وتسر وقتا

وغايتها إذا فكرت فيها ... كفيئك أو كحلمك إن حلمتا

وتطعمك الطعام وعن ... ستطعم منك ما منها طعمتا

وتعرى إن لبست لها ثيابا ... وتكسى إن ملابسها خلعتا

وتشهد كل يوم دفن خل ... كأنك لا تراد بما شهدتا

ولم تخلق لتعمرها ولكن ... لتعبرها فجد لما خلقتا

وإن هدمت فزدها أنت ... وحصن أمر دينك ما استطعتا

ولا تحزن على ما فات ... إذا ما أنت في أخراك فزتا

فليس بنافع ما نلت فيها ... من الفاني إذا الباقي حرمتا

ولا تضحك مع السفهاء ... فإنك سوف تبكي إن ضحكتا

وكيف لك السرور وأنت ... ولا تدري أتفدى أم غلقتا

وسل من ربك التوفيق ... وأخلص في السؤال إذا

وناد إذا سجدت له اعترافا بما ناداه ذو النون بن متى
ولازم بابه قرعا عساه سيفتح بابه لك إن قرعتا
وأكثر ذكره في الأرض دأبا لتذكر في السماء إذا ذكرتا
ولا تقل الصبا فيه مجال وفكر كم صغير قد دفنتا

تركت الرجل مع ابنه يعظه، ثم استأنفت سيري في تلك الطبقة.. وقد رأيت فيها ما لا يمكن وصفه ولا الإحاطة به مما لا تسعه العبارة، ولا تكفي في الدلالة عليه الإشارة.

5 ـ الفتيان

بعد أن رأيت ما رأيت في جنان العباد حنت نفسي لأرى الطبقة التالية من الجبل.. فطلبت من محمد أن نسير إليها.. فسار بي، وطلب مني أن أتأدب بين أيديهم.. وأخبرني أن طبقتهم هي طبقة الفتوة، وأهلها هم الفتيان، فقلت متعجبا: الفتوة.. والفتيان.. ما كنت أحسب للفتوة محلا في هذا الجبل.

قال: إن لم يكن للفتيان محلا في هذا الجبل، فأين ترى يكون محلهم؟

قلت: عهدي بالفتيان في المقاهي والأسواق يتصارعون تصارع الديكة.

قال: أولئك فتيان الشيطان.. أما هنا، فلن تجد إلا فتيان الرحمن.

قلت: ومن فتيان الرحمن؟

قال: منهم إبراهيم ﷺ ذلك الذي وصفه قومه، فقالوا : ﴿ قَالُوا سَمِعْنَا فَتًى يَذْكُرُهُمْ يُقَالُ لَهُ إِبْرَاهِيمُ (60)﴾ (الأنبياء)

ومنهم أهل الكهف، أولئك الذين وصفهم ربهم، فقال :﴿ نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ نَبَأَهُمْ بِالْحَقِّ إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ آمَنُوا بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَاهُمْ هُدًى (13) وَرَبَطْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ إِذْ قَامُوا فَقَالُوا رَبُّنَا رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَنْ نَدْعُوَ مِنْ دُونِهِ إِلَهًا لَقَدْ قُلْنَا إِذًا شَطَطًا (14)﴾ (الكهف)

وذكـرهم، فقـال : أَمْ حَسِـبْتَ أَنَّ أَصْـحَابَ الْكَهْـفِ وَالـرَّقِيمِ كَانُوا مِنْ آيَاتِنَا عَجَبًا (9) إِذْ أَوَى الْفِتْيَةُ إِلَى الْكَهْفِ فَقَـالُوا رَبَّنَـا آتِنَـا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا (10) (الكهف)

قلت: فما سر فتوتهم؟

قال: شجاعة ومروءة ونبل..

قلت: شجاعة ومروءة ونبل!.. ما تقصد بهذا؟

قـال: لقـد اتفـق من ذكـر الفتـوة وعاشـها على أنهـا (منزلـة الإحســان إلى النــاس، وكــف الأذى عنهم، واحتمــال أذاهم.. فهي اســتعمال حســن الخلــق معهم، فهي في الحقيقــة نتيجــة حســن الخلق واستعماله)(1)

واتفقـوا على أنهـا (من أعظم خصـال الخـير جامعـة كمـال المروءة وحسن الخلق والإيثـار على النفس واحتمـال الأذى وبـذل الندى وطلاقـة الوجـه والقـوة على ذلـك.. والصـفح عن العـثرات، ويكون خصما لربه على نفسه، وينصف من نفسه ولا ينتصــف، ولا ينازع فقيرا ولا غنيا، ويستوي عنده المدح والـذم والـدعاء والطـرد ولا يحتجب ولا يدخر ولا يعتذر ويظهر النعمة ويحقـق المحبـة سـرا وعلنا)(2)

قلت: مـا شـاء اللـه.. مـا كنت أحسـب أن للفتـوة كـل هـذه القيمة.

قال: ذلك أن المتصارعين حرفوا معناها، فحولوهـا من أخلاق زاكية إلى رسوم فارغة.. ثم حولوها إلى فتـوة شـيطانية لا علاقـة لها بالإيمان، ولا بالإنسان.

قلت: فأين أتعلم علوم الفتيان؟.. وكيف أتخلق بأخلاقهم؟

قـال: سـر في جنـان هـذه الطبقـة، فإنـك لن تجـد فيهـا إلا الفتيان.

1() مدارج السالكين:2/340.

2() فتاوى السبكي: 2/548.

***

ما سرت إلا قليلا حتى رأيت جمعا من الناس كلهم تبدو عليهم سيما الفتيان.. وبينما هم كذلك إذ دخل عليهم رجل غريب لا يبدو على وجهه ما يبدو على وجوههم.. فالتفتوا إليه، وكأنهم قد استغربوا وجوده بينهم، فقال: لا تنظروا إلي هكذا.. فأنا لم آت إلا لأتتلمذ على أيديكم.. لقد عضتني الدنيا بأنيابها وهجرتني مع أني لم أقصر في خدمتها، ولم آل جهدها في سبيل إرضائها.. وقد رأيت أن أسلك سبيل الفتيان.. أولئك الذين امتلأوا بالمروءة والنبل.. فقد علمت أنهم هم وحدهم الذين ضحكوا على الدنيا، وهم وحدهم من نجوا من غرورها، وهم وحدهم من عاشوا الإنسان وكرامة الإنسان وطهارة الإنسان.

قال أحدهم: سل ما بدا لك.

قال الرجل: ما الفتوة؟

قال أحدهم: لقد كان الإمام جعفر بن محمد الصادق سليل بيت النبوة من أوائل من تحدث عنها، وقد سئل عما سألت عنه، فقال للسائل:(ما تقول أنت؟) فقال:(إن أعطيت شكرت، وإن منعت صبرت)، فقال:(الكلاب عندنا كذلك)، فقال السائل:(يا ابن رسول الله فما الفتوة عندكم؟)، فقال:(إن أعطينا آثرنا، وإن منعنا شكرنا)

قال آخر: وكان الفضيل بن عياض من الذين تحدثوا عنها، وقد أجاب عما سألت عنه، فقال: (الفتوة الصفح عن عثرات الإخوان)

قال آخر: وقد سئل أحمد، فأجاب بقوله:(ترك ما تهوى لما تخشى)

قال آخر: وسئل الجنيد عنها، فقال:(لا تنافر فقيرا ولا تعارض غنيا)

قال آخر: وسئل الحارث المحاسبي عنها، فقال:(الفتوة أن تنصف ولا تنتصف)

قال آخر: وسئل عمر بن عثمان المكي، فقال:(الفتوة حسن الخلق)

قال آخر: وسئل الدقاق عن كمال الفتوة، فقال:(هذا الخلق لا يكون كماله إلا لرسول الله ، فإن كل أحد يقول يوم القيامة نفسي نفسي، وهو يقول أمتي أمتي)(1)

قال الرجل: فهلا حدثتموني من أخبار الفتيان ما يملؤني رغبة في سلوك سبيلهم.. وابدأوا لي بما روي عن تغافلهم عن عيوب الغير وأخطائهم.. فإن ذلك من خصال المروءة العظيمة.

قال أحدهم: لقد ذكروا من أخبار هذا الباب أن رجلا من الفتيان تزوج امرأة، فلما دخلت عليه رأى بها الجدري، فقال: اشتكيت عيني، ثم قال: عميت، فبعد عشرين سنة ماتت، ولم تعلم أنه بصير، فقيل له في ذلك، فقال:(كرهت أن يحزنها رؤيتي لما بها)، فقيل له:(سبقت الفتيان)

قال آخر: ومثل ذلك ما روي أن امرأة سألت حاتما عن مسألة، فاتفق أنه خرج منها صوت في تلك الحالة، فخجلت، فقال حاتم:(ارفعي صوتك)، فأوهمها أنه أصم، فسرت المرأة بذلك، وقالت:(إنه لم يسمع الصوت) فلقب بحاتم الأصم.

قال آخر: واستضاف رجل جماعة من الفتيان، فلما فرغوا من الطعام خرجت جارية تصب الماء على أيديهم، فانقبض واحد منهم، وقال:(ليس من الفتوة أن تصب النسوان الماء على أيدي الرجال)، فقال آخر منهم:(أنا منذ سنين أدخل إلى هذه الدار، ولم أعلم أن امرأة تصب الماء على أيدينا أو رجلا)

قال آخر: وقدم جماعة فتيان لزيارة فتى، فقال الرجل:(يا غلام قدم السفرة)، فلم يقدم، فقالها ثانياوثالثا فلم يقدم، فنظر بعضهم إلى بعض، وقالوا:(ليس من الفتوة أن يستخدم الرجل من يتعاصى عليه في تقديم السفرة كل هذا)، فقال الرجل:(لم أبطأت بالسفرة)، فقال الغلام:(كان عليها نمل، فلم يكن من الأدب تقديم السفرة إلى الفتيان مع النمل، ولم يكن من الفتوة

1() مدارج السالكين:2/342.

إلقاء النمل وطردهم عن الزاد، فلبثت حتى دب النمل)، فقالوا: (يا غلام مثلك يخدم الفتيان)

قال الرجل: فحدثوني عن تضحية الفتيان.

قال أحدهم: من ذلك ما يروى عن سيد الفتيان ومعلمهم الإمام جعفر الصادق.. فقد روي أن رجلا نام من الحاج في المدينة، ففقد همیانا فيه ألف دينار، فقام فزعا فوجد جعفر بن محمد، فعلق به وقال:(أخذت همياني)، فقال:(أي شيء كان فيه؟)، قال:(ألف دينار)، فأدخله داره، ووزن له ألف دينار، ثم إن الرجل وجد هميانه، فجاء إلى جعفر معتذرا بالمال، فأبى أن يقبله منه، وقال:(شيء أخرجته من يدي لا أسترده أبدا)، فقال الرجل للناس:(من هذا؟)، فقالوا:(هذا جعفر بن محمد)

قال آخر: ومن ذلك ما يروى عن أبي حامد بن خضرويه البلخي، وقد كان من كبار مشايخ خراسان، وقد صحب أبا تراب التخشبي.. وكان كبيراً في الفتوَّة.. ومما يروى عنه فيها أنه كان عليه سبعمائة دينار، وغرماؤه عنده، فنظر إليهم. وقال: اللهم إنك جعلت الرهون وثيقة لأرباب الأموال، وأنت تأخذ عنهم وثيقَتَهم فأدّعنيِّ.. فدّق داقٌّ الباب وقال: أين غرماء أحمد؟ فقضي عنه، ثم خرجت روحه، ومات.

قال آخر: ومما يروى في هذا، أو هو قريب منه ما روي عن ذي النون المصري أنه قال: من أراد الظرف فعليه سقاة الماء ببغداد.. فقيل له: كيف هو؟ فقال: لما حُملت إلى الخلفية، فيما نُسب لى من الزندقة، رأيت سقاء عليه عمامة، وهو مترد بمنديل مصري، وبيده كيزان خزف رقاق، فقلت: هذا ساقي السلطان، فقالوا: لا، هذا ساقي العامة.. فأخذت الكوز وشربت.. وقلت لمن معي: أعطه ديناراً.. فلم يأخذه، وقال: أنت أسير، وليس من الفتوة أن آخذ منك شيئاً..

***

سرت في جنان الفتيان ما قدر الله لي أن أسير، وقد رأيت منهم الكثير، وتعلمت منهم من شؤون المروءة وعلومها وفنونها

ما ينقضي دونه العجب.

6 ـ المجاهدون

بعـد أن رأيت مـا رأيت في جنـان الفتيـان حنت نفسـي لأرى الطبقـة التاليـة من الجبـل.. فطلبت من محمـد أن نسـير إليهـا.. فسار بي، وطلب مني أن أتأدب بين أيديهم.. وأخبرني أن طبقتهم هي طبقة المجاهدين.. وعندما تعجبت من علو طبقتهم على طبقة الفتيان، قال: لأنهم سـادة الفتيـان.. فـالفتى قـد يضـحي بمالـه أو جهده.. أما المجاهد فيضحي بماله ونفسه وكل شيء.

قلت: والزهاد؟

قال: الزهاد يزهـدون في المتـاع، أمـا المجاهـدون فيزهـدون في أنفسـهم.. وشـتان بين مـا يزهـد في الأشـياء ومن يزهـد في نفسه..

قلت: والعباد؟

قال: لقد أجاب بعض المجاهدين رجلا كان قـد جـاور الحـرم، وترك الجهاد، تفضيلا للتفرغ للعبادة على التفرغ للجهاد، فقال[1]:

يا عابدَ الحرمين لو   لعلمتَ أنَّكَ في
مَنْ كانَ يخضبُ خدَّه   فنحورُنا بدمائِنا
أوكانَ يتعبُ خيله في   فخيولُنا يوم الصبيحة
ريحُ العبيرِ لكم ونحنُ   رَهَجُ السنابكِ والغبارُ
ولقدْ أتانا من مقالِ   قولٌ صحيحٌ صادقٌ لا
لا يستوي غبارُ أهلِ   أنفِ أمرئٍ ودخانُ نارٍ

1() أصل هذه الأبيات رواها الحافظ ابن عساكر في ترجمة عبد الله بن المبارك من طريـق محمـد بن إبـراهيم بن أبي سـكينة قـال أملي عليَّ عبـدُ اللـه بنُ المبـارك هـذه الأبيـاتَ بطرطوس، وودعتُه للخروج وأنشدها معي إلى الفضل بن عياض في سنة سبعين ومائة.

وقد طعن في صحة سندها، ونحن لم نوردها هنا إلا على المعـنى الـذي أردنـاه ولا يهمنـا من نقلها، والشواهد الكثيرة من النصوص تدل على صحة المعاني الـواردة فيهـا إذا كـان الجهـاد في محله الصحيح.

هذا كتابُ الله ينطقُ ليسَ الشهيدُ بميتٍ لا

قلت: هذا الجـواب لا يكفي.. فلَيسُ للشـعراء في هـذا البـاب نصيب.

قال: إن أبيت هذا.. فقد قـال تعـالى يـبين فضـل المجاهـدين في سبيله : أَجَعَلْتُمْ سِقايَةَ الْحاجِّ وَعِمارَةَ الْمَسْـجِدِ الْحَـرامِ كَمَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَجاهَدَ فِي سَـبِيلِ اللَّهِ لا يَسْـتَوُونَ عِنْـدَ اللَّهِ وَاللَّهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ (19) الَّذِينَ آمَنُوا وَهاجَرُوا وَجاهَـدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ أَعْظَمُ دَرَجَةً عِنْدَ اللَّهِ وَأُولئِكَ هُمُ الْفـائِزُونَ (20) (التوبـة)، وقـال : لا يَسْـتَوِي الْقاعِـدُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُولِي الضَّـرَرِ وَالْمُجاهِـدُونَ فِي سَـبِيلِ اللَّهِ بِـأَمْوالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فَضَّلَ اللَّهُ الْمُجاهِدِينَ بِأَمْوالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ عَلَى الْقاعِـدِينَ دَرَجَـةً وَكُلًّا وَعَـدَ اللَّهُ الْحُسْـنى وَفَضَّـلَ اللَّهُ الْمُجاهِـدِينَ عَلَى الْقاعِدِينَ أَجْراً عَظِيماً (95) دَرَجاتٍ مِنْهُ وَمَغْفِرَةً وَرَحْمَةً وَكانَ اللَّهُ غَفُـوراً رَحِيمـاً (96) (النسـاء)، وقـال : وَمـا لَكُمْ أَلَّا تُنْفِقُـوا فِي سَـبِيلِ اللَّهِ وَلِلَّهِ مِـيراثُ السَّـماواتِ وَالْأَرْضِ لا يَسْـتَوِي مِنْكُمْ مَنْ أَنْفَقَ مِنْ قَبْلِ الْفَتْحِ وَقاتَلَ أُولئِكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً مِنَ الَّذِينَ أَنْفَقُوا مِنْ بَعْدُ وَقاتَلُوا وَكُلًّا وَعَدَ اللَّهُ الْحُسْنى وَاللَّهُ بِمـا تَعْمَلُـونَ خَبِـيرٌ (10) (الحديـد)، وقـال: يـا أَيُّهَـا الَّذِينَ آمَنُـوا مَنْ يَرْتَـدَّ مِنْكُمْ عَنْ دِينِـهِ فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَـوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَـهُ أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُـؤْمِنِينَ أَعِـزَّةٍ عَلَى الْكافِرِينَ يُجاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلا يَخافُونَ لَوْمَةَ لائِمٍ ذلِـكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشاءُ وَاللَّهُ واسِعٌ عَلِيمٌ (54) (المائدة)

وفي الحديث قـال رسـول اللـه : (أفضـل العمـل: الإيمـان باللّه، والجهاد في سبيله)[1]

وقال: (ألا أخبرك برأس الأمر كلّه وعمـوده وذروة سـنامه؟.. رأس الأمر الإسلام، وعموده الصّلاة، وذروة سنامه الجهاد)[2]

وقال: (إنّ في الجنّة مائة درجة أعـدّها اللّـه للمجاهـدين في سبيل اللّه، ما بين الدّرجتين كما بين السّماء والأرض، فـإذا سـألتم

1() رواه البخاري ومسلم.

2() رواه الترمذي، وقال: هذا حديث حسن صحيح.

اللّه فاسألوه الفردوس فإنّه أوسط الجنّة، وأعلى الجنّة، وفوقه عرش الرّحمن، ومنه تفجّر أنهار الجنّة)(1)

وسئل: أيّ العمل أفضل؟ فقال: (إيمان باللّه ورسوله)، قيل: ثمّ ماذا؟ قال: (الجهاد في سبيل اللّه) قيل: ثمّ ماذا؟ قال: (حجّ مبرور)(2)

وقال: (تكفّل اللّه لمن خرج في سبيله، لا يخرجه إلّا جهاد في سبيلي، وإيمان بي، وتصديق برسلي، فهو عليّ ضامن أن أدخله الجنّة، أو أرجعه إلى منزله الّذي خرج منه بما نال من أجر، أو غنيمة، والّذي نفس محمّد بيده، ما من كلم يكلم في سبيل اللّه إلّا جاء يوم القيامة كهيئته يوم كلم. لونه لون دم، وريحه ريح مسك.. والّذي نفس محمّد بيده، لولا أن يشقّ على المسلمين ما قعدت خلاف سريّة تغزو في سبيل اللّه أبدا. ولكن لا أجد سعة فأحملهم، ولا يجدون سعة، ويشقّ عليهم أن يتخلّفوا عنّي، والّذي نفس محمّد بيده لوددت أن أغزو في سبيل اللّه فأقتل، ثمّ أغزو فأقتل، ثمّ أغزو فأقتل)(3)

وجاء أعرابيّ إلى النّبيّ ، فقال: يا رسول اللّه أيّ النّاس خير؟ قال: (رجل جاهد بنفسه وماله، ورجل في شعب من الشّعاب يعبد ربّه ويدع النّاس من شرّه)(4)

وجاء رجل إلى رسول اللّه ، فقال: دلّني على عمل يعدل الجهاد. قال: (لا أجده)، قال: (هل تستطيع إذا خرج المجاهد أن تدخل مسجدك فتقوم ولا تفتر، وتصوم ولا تفطر؟) قال: ومن يستطيع ذلك؟)(5)

وقال: (مثل المجاهد في سبيل اللّه- واللّه أعلم بمن يجاهد

---

(1) رواه البخاري.

(2) رواه البخاري ومسلم.

(3) رواه البخاري ومسلم.

(4) رواه البخاري.

(5) رواه البخاري.

في سبيله- كمثل الصّائم القائم، وتوكّـل اللّـه للمجاهـد في سـبيله بأن يتوفّاه أن يدخله الجنّة أو يرجعه سالما مع أجر أو غنيمة)[1]

وقال: (من آمن باللّه وبرسوله وأقام الصّـلاة وصـام رمضـان كان حقّا على اللّه أن يدخله الجنّة. جاهد في سـبيل اللّـه أو جلس في أرضه الّتي ولد فيها)، فقالوا: يا رسول اللّه أفلا نبشّر النّـاس؟ قال: (إنّ في الجنّة مائة درجة أعـدّها اللّـه للمجاهـدين في سـبيل اللّه. ما بين الدّرجتين كما بين السّـماء والأرض. فـإذا سـألتم اللّـه فاسألوه الفردوس، فإنّه أوسط الجنّـة وأعلى الجنّـة، ومنـه تفجّـر أنهار الجنّة)[2]

وقال: (لا يكلم أحد في سبيل اللّـه واللّـه أعلم بمن يكلم في سبيله، إلّا جاء يوم القيامـة وجرحـه يثعب، اللّـون لـون دم والـرّيح ريح مسك)[3]

وقال: (لغدوة في سبيل اللّـه، أو روحـة، خـير من الـدّنيا ومـا فيها)[4]

وقال: (لا يلج النّار رجل بكى من خشية اللّه، حتّى يعود اللّبن في الضّرع، ولا يجتمع على عبد غبار في سبيل اللّه ودخـان جهنّم)[5]

وقال: (ما أحد يدخل الجنّة يحبّ أن يرجع إلى الـدّنيا ولـه مـا على الأرض من شيء إلّا الشّهيد يتمنّى أن يرجع إلى الدّنيا فيقتـل عشر مرّات، لما يرى من الكرامة)[6]

---

[1] رواه البخاري ومسلم.

[2] رواه البخاري.

[3] رواه البخاري ومسلم.

[4] رواه البخاري ومسلم.

[5] رواه الترمذي وقال: هذا حديث حسن صحيح، والنسائي.

[6] رواه البخاري.

وقال: (ما اغبرّتا قدما عبد في سبيل اللّه فتمسّه النّار)([7])

وقـال: (من قاتـل في سـبيل اللّـه فـواق ناقة([2]) وجبت لـه الجنّة، ومن سأل اللّه القتل في سـبيل اللّـه صـادقا من نفسـه ثمّ مات أو قتل فإنّ له أجر شهيد، ومن جرح جرحا في سبيل اللّـه أو نكب نكبة، فإنّها تجيء يـوم القيامـة كـأغزر مـا كـانت، لونهـا لـون الزّعفـران، وريحهـا ريح المسـك، ومن خـرج بـه خـراج في سـبيل اللّه، فإنّ عليه طابع الشّهداء)([3])

بعـد أن ذكـر لي محمـد بعض مـا ذكرتـه لـك من النصـوص المقدسـة الدالـة على فضـل الجهـاد، قلت: فكيـف السـبيل إلى سلوك سبيلهم؟

قـال: سـر في هـذه الجنـان، وسـترى المجاهـدين، وتعـرف الجهاد الحقيقي الذي وردت جميع النصوص المقدسة بفضله.

***

سـرت في تلـك الجنـان، وكـان أول مـا صـادفته رجـل جـرح جراحا شديدة، قد أصابت مقاتله، وقد وقف بجنبه رجل آخر، وهذا بعض ما دار بينهما من حوار:

قال الأول: الحمد لله.. أنا أشعر براحة عظيمة.. فقد أديت ما أمرني الله به من جهاد الظلمـة.. وأنـا الآن في غايـة الشـوق إلى لقاء الله.

قـال الثـاني: بـورك فيـك – يـا أخي – لقـد رأيتـك، ورأيت المواقف البطولية التي وقفتها، وأنت تنقذ ذلـك الطفـل وأمـه من براثن الظالمين.

قال الأول: أنا لم أفعل إلا ما أمرني الله بـه.. لقـد قـال اللـه

7() رواه البخاري.

2() فواق ناقة: أي قدر مدة حلب الناقة.

3() رواه أبو داود واللفظ له. والترمذي والحاكم في المسـتدرك وقـال: هـذا حـديث صـحيح على شرط مسلم ولم يخرجاه وله إسناد صحيح على شرط الشيخين مختصرا.

تعـالى يعـاتب المتخلفين عن نصـرة المستضـعفين : ﴿ وَمَـا لَكُمْ لَا تُقَـاتِلُونَ فِي سَـبِيلِ اللَّهِ وَالْمُسْتَضْـعَفِينَ مِنَ الرِّجَـالِ وَالنِّسَـاءِ وَالْوِلْدَانِ الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْ هَـذِهِ الْقَرْيَـةِ الظَّالِمِ أَهْلُهَـا وَاجْعَلْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ وَلِيًّا وَاجْعَـلْ لَنَـا مِنْ لَـدُنْكَ نَصِـيرًا (75) الَّذِينَ آمَنُـوا يُقَـاتِلُونَ فِي سَـبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ كَفَـرُوا يُقَـاتِلُونَ فِي سَـبِيلِ الطَّاغُوتِ فَقَاتِلُوا أَوْلِيَاءَ الشَّيْطَانِ إِنَّ كَيْدَ الشَّـيْطَانِ كَـانَ ضَـعِيفًا (76)﴾ (النساء)، وقال :﴿ أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا وَإِنَّ اللَّهَ عَلَى نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ (39) الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّا أَنْ يَقُولُوا رَبُّنَا اللَّهُ وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَهُدِّمَتْ صَوَامِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَاتٌ وَمَسَاجِدُ يُـذْكَرُ فِيهَـا اسْـمُ اللَّهِ كَثِـيرًا وَلَيَنْصُـرَنَّ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ (40)﴾ (الحج)

قال الثاني: بورك فيك.. وأنـا أعجبـك من دقـة حفظـك لكلام ربك رغم ما نزل بك.

قال الأول: والله – يا أخي- ما تحركت إلا بتحريك اللــه.. ومـا حركني إلا ما قرأته لك من القرآن الكريم.. وأنا لم أخرج بطرا ولا لصا، بل خـرجت لنصـرة العدالـة والحـق في وجـه أولئـك الظلمـة المسـتبدين الـذي سـفكوا الـدماء واسـتحلوا الأعـراض ونهبـوا الأموال..

ومع ذلك، فإني لم أسفك ما سفكت من دماء الظلمة إلا وأنا ممتلئ حزنـا عليهم.. وقـد وددت أنهم كفـوا عن ظلمهم وجنحـوا للسـلم لأجنح معهم إليـه.. فأنـا أعلم أن الإسـلام دين الإسـلام والمحبة والأخوة.. وأنه لا يكره شيئا كما يكره سفك الدماء.

بينما نحن كذلك إذا بامرأة مع ولدها يجثيان بين يديه يبكيـان، قالت المرأة: اغفر لنا.. نحن الذين تسببنا لك فيما حصل لك.

ابتسم الرجـل، وقـال: غفـر اللـه لكمـا.. أنـا مـا فعلت إلا مـا أمـرني اللـه بـه.. ومـا كـان لي أن أتخلـف عن نصـرتكما ونصـرة المستضعفين إني إذن للئيم.

قالت المرأة: ولكنك تموت.

ابتسم الرجل، وقال: الميت هو من لم يمت هذه الموتة الشريفة.. أما أنا فقد أخبرني الله بأني حي.. ألم تسمعي - أختاه- قوله تعالى : وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ (169) فَرِحِينَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَيَسْتَبْشِرُونَ بِالَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا بِهِمْ مِنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ (170) يَسْتَبْشِرُونَ بِنِعْمَةٍ مِنَ اللَّهِ وَفَضْلٍ وَأَنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُؤْمِنِينَ (171) الَّذِينَ اسْتَجَابُوا لله وَالرَّسُولِ مِنْ بَعْدِ مَا أَصَابَهُمُ الْقَرْحُ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا مِنْهُمْ وَاتَّقَوْا أَجْرٌ عَظِيمٌ (172) (آل عمران)

قالت المرأة: وآلام الجراح التي أصابتك؟

قال: لقد وجدتها كما أخبر رسول الله .. لقد قال يذكرها: (الشهيد لا يجد مس القتل إلا كما يجد أحدكم القَرْصَة يُقْرَصُهَا)[1]

قالت المرأة: والقرح الذي أصابك؟

قال: لقد ذكره الله، فقال : وَلا تَهِنُوا وَلا تَحْزَنُوا وَأَنْتُمُ الْأَعْلَوْنَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ (139) إِنْ يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ قَرْحٌ مِثْلُهُ وَتِلْكَ الْأَيَّامُ نُداوِلُها بَيْنَ النَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَتَّخِذَ مِنْكُمْ شُهَداءَ وَاللَّهُ لا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ (140) وَلِيُمَحِّصَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَمْحَقَ الْكافِرِينَ (141) أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جاهَدُوا مِنْكُمْ وَيَعْلَمَ الصَّابِرِينَ (142) وَلَقَدْ كُنْتُمْ تَمَنَّوْنَ الْمَوْتَ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَلْقَوْهُ فَقَدْ رَأَيْتُمُوهُ وَأَنْتُمْ تَنْظُرُونَ (143) (آل عمران)

قالت المرأة: ولكن مع ذلك لو بقيت في بيتك لما أصابك ما أصابك بسببنا.

قال: كيف تقولين ذلك.. أتريدين أن أكون من المخلفين الذين ذكرهم الله، فقال : يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَكُونُوا كَالَّذِينَ كَفَرُوا وَقالُوا لِإِخْوانِهِمْ إِذا ضَرَبُوا فِي الْأَرْضِ أَوْ كانُوا غُزًّى لَوْ كانُوا عِنْدَنا ما ماتُوا وَما قُتِلُوا لِيَجْعَلَ اللَّهُ ذلِكَ حَسْرَةً فِي قُلُوبِهِمْ وَاللَّهُ يُحْيِي وَيُمِيتُ وَاللَّهُ بِما تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ (156) وَلَئِنْ قُتِلْتُمْ فِي سَبِيلِ

---

[1] رواه النسائي والبيهقي.

اللّهِ أَوْ مُتُّمْ لَمَغْفِرَةٌ مِنَ اللّهِ وَرَحْمَةٌ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ (157) وَلَئِنْ مُتُّمْ أَوْ قُتِلْتُمْ لَإِلَى اللَّهِ تُحْشَرُونَ (158) (آل عمران)

قالت المرأة: ولكني ممتلئة حزنا على ما أصاب أهلك بسببي؟

قال: لا تقولي ذلك.. ألم تسمعي إلى قوله تعالى : قُلْ إِنْ كانَ آباؤُكُمْ وَأَبْناؤُكُمْ وَإِخْوانُكُمْ وَأَزْواجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوالٌ اقْتَرَفْتُمُوها وَتِجارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسادَها وَمَساكِنُ تَرْضَوْنَها أَحَبَّ إِلَيْكُمْ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ وَاللَّهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفاسِقِينَ (24) (التوبة)

قال ذلك، ثم ابتسم ابتسامة هادئة، وقال: ما شاء الله.. ماذا أرى.. من بجانبي.. مرحبا بكِ.. ما كنت أظن أنكِ بهذا الجمال.. صدق حبيبي عندما قال: (يعطى الشهيد ثلاثا: أول دفعة من دمه تغفر له ذنوبه، وأول من يمسح التراب عن وجهه زوجته من الحور العين، وإذا وجب جنبه إلى الأرض وقع فى الجنة)(1)

قال ذلك، ثم افتر ثغره عن ابتسامة عريضة، قبضت روحه خلالها.

لم تجد المرأة ومن حولها إلا أن يكبروا الله، وقد كبرت معهم بعد أن اقشعر جلدي لما رأيت..

***

تركتهم وسرت.. فوجدت رجلا يتحدث إلى طائفة من الناس يعظهم.. ومما لا أزال أحفظه قوله لهم: اسمعوا إلى وصايا رسول الله في الحرب.. لقد كان يوصي أصحابه بقوله: (اغزوا باسم اللّه في سبيل اللّه فاقتلوا من كفر باللّه اغزوا ولا تغلّوا ولا تغذروا ولا تمثلوا ولا تقتلوا وليدا) (2)

إنكم - أيها المجاهدون في سبيل الله – لم تخرجوا من

(1) رواه الدارقطنى فى الأفراد، والديلمى، والرافعى.

(2) رواه مسلم.

بيوتكم التي هدمت على رؤوسكم إلا لتقفوا في وجوه المستكبرين الذين ظلموكم.. فإياكم أن تتشبهوا بهم في ظلمهم، فيمحقكم الله، فإن موازين الله العادلة لا تفرق بين مسلم وكافر..

احرصوا على أن كلمة الله هي العليا.. وكلمة الله هي الحق والعدالة والخير والسلام..

احرصوا على أن تكون حربكم حرب الشرفاء الذين لا يحاربون حقدا ولا ظلما.. بل يحاربون بقلوب ممتلئة بالرحمة والسلام.

واعلموا – أيها المجاهدون- أن الله لا ينصر إلا من ينصر، ولا يرفع إلا من يرفع كلمته..

قال ذلك.. ثم سار مع جنوده إلى حيث لا أدري..

***

سرت في تلك الجنان، فرأيت رجلا شيخا كبيرا، وأمامه صبية وبعض نساء، وهو يرفع يديه إلى السماء، ويقول: يا رب.. لقد بغوا علينا وظلمونا.. ونحن نستنصرك.. فأرسل إلينا من جندك الذين ارتضيتهم من ينقذهم من براثن الذئاب الظلمة الطغاة.

ما قال ذلك حتى رأيت مجاهدا يدخل عليهم، وهو يقول: ابشر يا شيخ بنصر الله.. لقد نصرنا الله على أعدائه، وأنتم الآن أحرار.. فتحركوا في الأرض التي أمركم الله بالتحرك فيها بكل حرية، فلن يصيبكم بإذن الله أي أذى.

***

سرت في تلك الجنان فترة من الزمن، وقد رأيت فيها من مشاهد النبل والشجاعة والبطولة ما تمتلئ به أقطار النفس، ويعلم الله أنه لولا شوقي إلى مشاهدة غير هذه الطبقة لتمنيت أني رزقت الشهادة فيها.. فقد صارت الشهادة في عيني حلما لذيذا، ورغبة عارمة لا يقاومها شيء.

7 ـ الصديقون

بعد أن رأيت ما رأيت في جنان المجاهدين حنت نفسي لأرى الطبقـة التاليـة من الجبـل.. فطلبت من محمـد أن نسـير إليهـا.. فسار بي، وطلب مني أن أتأدب بين أيديهم.. وأخبرني أن طبقتهم هي طبقة الصديقين.. وأخبرني أنها أعلى طبقات هذا الجبل..

قلت: من الصديقون؟

قال: هم قوم لا يعرفـون إلا اللـه، ولا يتحـدثون إلا عن اللـه.. فمـــر عليهم، واســتفد من أحـــوالهم، واعلم أن لكــل كلمـــة من كلماتهم نورا قد يرفعك الله به من حضيض الأوحـال إلى سـموات الأبطال.

كان أول من رأيته في تلك الجنان شيخ كبير لـه لحيـة بيضـاء زادته وقارا.. وقد أحاط به جمـع من الشـباب تلـوح على سـيماهم ملامح المتقين.

قال أحدهم: صف لنا – يا شيخنا- أولياء الله حتى نميزهم عن أولياء الشيطان.

قال الشيخ: أولياء الله لا يحبون ولا يبغضـون إلا في اللـه، ولا يشتاقون ولا يحبون إلا لله، ولا يتوكلون ولا يعتمدون إلا على اللــه، إذا صفا مشرب معاملة الله لم ينالوا كدر المشارب، وإذا أينع لهم مذهب السلوك إلى الله لم يهتموا لضيق المـذاهب، وإذا ظنـوا أن الله عنهم راض لم يكترثوا بغضب غاضب، وإذا لم يكن رسول الله عليهم عاتب لم يشغل قلوبهم عتب عاتب.

لقد ذكرهم الله تعالى، وذكر فضلهم، والخصال التي استحقوا بها ذلك الفضل، فقـال: أَلا إِنَّ أَوْلِيـاءَ اللَّهِ لا خَـوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ (62) الَّذِينَ آمَنُوا وَكـانُوا يَتَّقُـونَ (63) (يـونس)، وقـال : إِنَّ الَّذِينَ قالُوا رَبُّنَـا اللَّهُ ثُمَّ اسْـتَقامُوا تَتَنَـزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلائِكَـةُ أَلَّا تَخـافُوا وَلا تَحْزَنُـوا وَأَبْشِـرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنْتُمْ تُوعَـدُونَ (30) نَحْنُ أَوْلِيـاؤُكُمْ فِي الْحَيـاةِ الـدُّنْيا وَفِي الْآخِـرَةِ وَلَكُمْ فِيهـا مـا تَشْـتَهِي أَنْفُسُـكُمْ وَلَكُمْ فِيهـا مـا تَـدَّعُونَ (31) نُـزُلًا مِنْ غَفُـورٍ رَحِيمٍ (32)

وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِمَّنْ دَعا إِلَى اللَّهِ وَعَمِلَ صالِحاً وَقالَ إِنَّنِي مِنَ الْمُسْلِمِينَ (33) (فصلت)

ووصفهم رسول الله ، وذكر فضلهم ومرتبتهم، ففي الحديث أن رسول الله أقبل على النّاس بوجهه، فقال: (يأيّها النّاس، اسمعوا واعقلوا، واعلموا أنّ لله عزّ وجلّ- عبادا ليسوا بأنبياء ولا شهداء، يغبطهم الأنبياء والشّهداء على مجالسهم وقربهم من اللّه)، فجاء رجل من الأعراب من قاصية النّاس وألوى بيده إلى نبيّ اللّه فقال: يا نبيّ اللّه! ناس من النّاس ليسوا بأنبياء ولا شهداء، يغبطهم الأنبياء والشّهداء على مجالسهم وقربهم من اللّه؟! انعتهم لنا، فسرّ وجه رسول اللّه لسؤال الأعرابيّ، فقال رسول اللّه : (هم ناس من أفناء النّاس[1] ونوازع القبائل[2]، لم تصل بينهم أرحام متقاربة، تحابّوا في اللّه، وتصافوا، يضع اللّه لهم يوم القيامة منابر من نور، ويجلسهم عليها، فيجعل وجوههم نورا وثيابهم نورا، يفزع النّاس يوم القيامة ولا يفزعون، وهم أولياء اللّه لا خوف عليهم ولا هم يحزنون)[3]

وذكر حرمتهم والطريق التي وصلوا بها إلى ولاية الله، فقال: (إنّ اللّه- تعالى- قال: من عادى لي وليّا فقد آذنته بالحرب، وما تقرّب إليّ عبدي بشيء أحبّ إليّ ممّا افترضته عليه، وما يزال عبدي يتقرّب إليّ بالنّوافل حتّى أحبّه، فإذا أحببته كنت سمعه الّذي يسمع به، وبصره الّذي يبصر به، ويده الّتي يبطش بها، ورجله الّتي يمشي بها، وإن سألني لأعطينّه، ولئن استعاذ بي لأعيذنّه وما تردّدت عن شيء أنا فاعله تردّدي عن نفس المؤمن يكره الموت، وأنا أكره مساءته)[4]

ووصفهم المسيح ﵇، فقال: (هم الذين نطق بهم الكتاب

1() أفناء الناس: أي لم يعلم ممن هو، الواحد فنء.

2() نوازع القبائل: جمع نازع ونزيع، وهو الغريب الذي نزع أهله وعشيرته، أي بعد وغاب.

3() رواه أحمد والطبراني بنحوه ورجاله وثقوا، وله شاهد جيد عنده، ورواه أبو يعلى ورجاله رجال الصحيح، ورواه الحاكم وقال صحيح الإسناد.

4() رواه البخاري.

وبه نطقوا، وبهم علم الكتـاب وبـه علمـوا، وبهم قـام الكتـاب وبـه قـاموا، نظـروا إلى بـاطن الـدنيا حين نظـر النـاس إلى ظاهرهـا، وعاينوا أجل الدنيا حين عاين الناس عاجلها فأمـاتوا منهـا ماخشـوا أن يميتهم، وتركوا منها ما علموا أن سيتركهم، فصـار دركهم منهـا فواتاً، وفرحهم بها حرماناً، ما عارضهم منها رفضـوه، ومـا أشـرف لهم بغير الحق وضعوه، خلقت الدنيا عندهم فلم يجددوها، وخربت فيما بينهم فلم يعمروها، وماتت في صدورهم فلم يحيوها، قدموها فبنوا بها آخرهم، أحيوا ذكـر المـوت، وأمـاتوا ذكـر الحيـاة، يحبـون اللّه، ويحبـون ذكـره، ويستضـيئون بنـوره، ويضـيئون بـه، لهم خـبر عجيب، وعندهم أعجب الخبر العجيب)

***

مـررت على أحـدهم، كـان سـاجدا قـد بلـل الأرض بدموعـه، وكان يردد بصـوت خاشـع مختلـط بحشـرجة الـدموع هـذا الـدعاء الممتلئ بالعرفان[1]: اللهمّ إنّي أسألك برحمتك التي وسـعت كُـلّ شيء، وبقوّتك التي قهرت بها كلّ شـيء، وخضـع لهـا كُـلّ شـيءٍ، وذلّ لها كلّ شيء، وبجبروتك التي غلبت بهـا كـلّ شـيء، وبعزّتـك التي لا يقوم لها شـيء، وبعظمتـك الـتي ملأت أركـان كـلّ شـيء، وبسـلطانك الـذي علا كـلّ شـيء، وبوجهـك البـاقي بعـد فنـاء كـلّ شيء، وبأسمائك التي غَلَبَت أركان كلّ شيء، وبعلمك الذي أحاط بكلّ شيء، وبنور وجهك الذي أضاء له كلّ شيء، يا نور يا قُدّوس، يا أوّل الأوّلين، ويا آخر الآخرين.

اللهمّ اغفـر لي الـذنوب الـتي تهتـك العصـم، اللهمّ اغفـر لي الذنوب التي تُنزل النقم، اللهمّ اغفر لي الـذنوب الـتي تغيِّر النِّعم، اللهمّ اغفر لي الذنوب التي تحبس الدعاء، اللهمّ اغفر لي الـذنوب التي تُنزل البلاء، اللهمّ اغفر لي الذنوب التي تقطـع الرجـاء، اللهمّ اغفر لي كلّ ذنب أذنبته، وكلّ خطيئةٍ أخطأتها.

اللهمّ إنّي أتقـرّب إليـك بـذكرك، وأستشـفع بـك إلى نفسـك،

---

[1] () هذا الدعاء الطويل والمهم من أدعية الإمام علي بن أبي طالب، رواه عنه كميل بن زياد النخعيّ، وقد روي أنه رآه ساجداً يدعو بهـذا الـدعاء في ليلـة النصـف من شـعبان.. وهـو من الأدعية الممتلئة بالمعاني العرفانية العظيمة الدالة على المقام العالي الذي كـان عليـه أمـير المؤمنين علي بن أبي طالب، وهو مقام الصديقية، الذي شهدت له به النصوص الكثيرة.

وأسألك بجودك أن تـدنيني من قربـك، وأن توزعـني شـكرك، وأن تُلهمني ذكرك.

اللهمّ إنّي أسألك سُؤال خاضـعٍ مُتـذلّل خاشـع، أن تسـامحني وترحمـني، وتجعلـني بقسـمك راضـياً قانعـاً، وفي جميـع الأحـوال مُتواضعاً.

اللهمّ وأسـألك سـؤال من اشـتدّت فاقتـه، وأنـزل بـك عنـد الشدائد حاجته، وعظم فيما عندك رغبته.

بعد أن انتهى من هذا الدعاء الرقيق رفع رأسه من السـجود، فإذا وجه كالشمس، وهو أشبه الناس بصاحبك معلم السلام.. وقد سألت صـاحبي عنـه، فقـال لي: هـذا إمـام الأئمـة وسـراج الـدين وشمس الصديقين هذا علي الذي أعلى الله مقامه، فلا يعرفـه ولا يرقى إليه إلا الصديقون.

***

تركناه في خشوعه ودعائه وصلاته.. وسـرنا في ذلـك الهزيـع من الليل، فما هي إلا خطوات قليلة حتى سـمعنا صـوتا خافتـا هـو أقرب إلى الهمس.. يقول[1]: لا يستقل بـه من دوني شـيء.. ولا يصلح من دوني لشيء.. وأنا العزيز الذي لا يستطاع مجاورتـه، ولا ترام مداومته.. أظهرت الظاهر وأنا أظهر منه، فما يدركني قربـه، ولا يهتدي إلي وجوده.. وأخفيت الباطن وأنا أخفي منـه فمـا يقـوم علي دليله ولا يصح إلي سبيله.

أنا أقرب إلى كل شيء من معرفته بنفسـه فمـا تجـاوزه إلي معرفته، ولا يعرفني أين تعرفت إليه نفسه.

لـولاي مـا أبصـرت العيـون مناظرهـا، ولا رجعت الأسـماع بمسامعها.

لو أبديت لغة العز لخطفت الأفهام خطف المناجل، ودرسـت

[1] () العبارات الحكيمة المذكورة هنا منقولة من كتاب (المواقـف والمخاطبـات) للنفـري، ولا شك في المعاني السامية التي تتضمنها.. وهي معاني تتناسب مع الصديقية والولاية.. ونعتـذر لتصرفنا في بعضها، وذلك للضرورة التي يقتضيها المنهج الذي اعتمدناه.

المعارف درس الرمال عصفت عليها الرياح العواصف.. ولو نطــق ناطق العز لصمتت نواطق كـل وصـف، ورجعت إلى العـدم مبـالغ كل حرف.

أين من أعد معارفه للقائي لو أبديت له لسان الجبروت لأنكر ما عرف، ولمار مور السماء يوم تمور موراً.

سـألت صـاحبي عن الصـوت، وصـاحبه، وعن هـذه الكلمـات الغريبة التي ينطق بها، فقـال: هـذا رجـل من أهـل اللـه آلى على نفسه ألا يسمع إلا من الله، وألا يخاطب إلا الله، وقـد أوقفـه اللـه مواقف جليلة، وخاطبه مخاطبات رفيعة ممتلئة بالقداسة.

قلت: خاطبه.. أهو الكليم إذن؟

قال: تقدس الله أن لا يكلم إلا واحدا من خلقه.

قلت: ولكن الله ذكر أنه كلم موسى تكليما، واعتـبر ذلـك من مزاياه.. قال تعالى:﴿ وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَى تَكْلِيمًا (164)﴾ (النساء)

قال: ذلك تكليم الأنبياء، وهذا تكليم الأولياء.

قلت: ولكن الأنبياء يتلقون الوحي.

قال: والأولياء يتلقون الإلهام.. ألم تسـمع قولـه تعـالى، وهـو يخاطب أم موسى ؟

قلت: أجـل.. فقـد قـال تعـالى:﴿ وَأَوْحَيْنَـا إِلَى أُمِّ مُوسَـى أَنْ أَرْضِعِيهِ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيـهِ فِي الْيَمِّ وَلَا تَخَـافِي وَلَا تَحْـزَنِي إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ (7)﴾ (القصص)

قال: أترى أن أم موسى أكـرم على اللـه من أوليـاء أمـة محمد ؟

لم أجد ما أجيبه به، فقلت: فمن الرجل؟

قال: هذا الرجل يقال له عبـد الجبـار النفـري[1].. ولا نعـرف

[1] () أشير به إلى العارف الكبير أبي عبد الله محمد بن عبـد الجبـار بن الحسـن النفـري (ت 354 هـ)، من كبـار الصـوفية.. ينسـب إلى بلـدة (نفـر) بين الكوفـة والبصـرة..من كتبـه

عنه إلا مواقفه مع ربه، ومخاطباته معه.

قلت: ذرنا نسمع شيئا منها.. فإني أشعر أن لحديثه من الحلاوة ما يملأ القلوب، وما تسمو به الأرواح.

عدنا إلى التنصت عليه، فسمعته يقول: يا عبد أنا الناطق وما نطقي النطق، وأنا الحي وما حياتي الحياة، أحلت العقول عني فوقفت في مبالغها، وأذهلت الأفكار عني فرجعت إلى متقلبها..

يا عبد أنا الحاكم الذي لا يحكم عليه، وأنا العالم الذي لا يطلع عليه.

يا عبد لولا صمودي ما صمدت ولولا دوامي ما دمت.

يا عبد اخرج من همك تخرج من حدك.

يا عبد لو لم أكتبك في العارفين قبل خلقك ما عرفتني في مشهود وجدك لنفسك.

يا عبد إن لم تعرف من أنت مني لم تستقر في معرفتي.

يا عبد إن لم تستقر في معرفتي لم تدر كيف تعمل لي.

يا عبد إن عرفت من أنت مني كنت من أهل المراتب.

يا عبد قف بين يدي في الدنيا وحدك أسكنك في قبرك وحدك، وأخرجك منه إلي وحدك، وتقف بين يدي في القيامة وحدك، وإذا كنت وحدك لم تر إلا وجهي، وإذا لم تر إلا وجهي فلا حساب ولا كتاب، وإذا لا حساب ولا كتاب فلا روع، وإذا لا روع فأنت من الشفعاء.

يا عبد أخلصتك لنفسي فإن أردت أن يعلم بك سواي فقد أشركت بي وإذا سمعت من سواي فقد أشركت بي، أنا ربك الذي سواك لنفسه واصطفاك لمحادثته وأشهدك مقام كل شيء منه لتعلم أن لا مقام لك في شيء من دونه، إنما مقامك رؤيته وإنما إفرادك حضرته.

(المواقف) و(المخاطبات) ومنهما اقتبسنا بعض المعاني الواردة هنا.

***

تركنا الرجل في عالمه العلوي، وسرنا في تلـك الجنـان، ولم نسر إلا قليلا حتى رأينا رجلا يكاد يذوب من الشوق، وقد كان يميد كما يميد الشجر في اليوم العاصف.. اقتربت منـه، فسـمعته يـردد بشوق عظيم هذه الأبيات الرقيقة:

زدني بفرطِ الحبِّ فيكَ ... وارحمْ حشىً بلظي هواكَ
وإذا سألتكَ أنْ أراكَ حقيقةً ... فاسمَحْ، ولا تجعلْ جوابي :
يا قلبُ ! أنتَ وعدتَني في ... صبراً فحاذرْ أنْ تضيقَ
إنَّ الْغَرامَ هوَ الحَياة، فَمُتْ ... صَبّاً، فحقّكَ أن تَموتَ،
قُل لِلّذِينَ تقدّمُوا قَبْلي، ... بَعْدي، ومَن أضحى
عنَي خذوا، وبيَ اقْتدوا، ... وتحدَّثوا بصَبابتي بينَ
ولقَدْ خلْوتُ معَ الحبيبِ ... سِرٌّ أرَقّ مِنَ النّسيمِ، إذا
وأباحَ طرفي نظرةً أمَّلتها ... فغدَوتُ معروفاً وكنتُ
فدهشتُ بينَ جمالهِ وجلالهِ ... وغدا لسانُ الحالِ عني
فأدِرْ لِحاظَكَ في مَحاسِن ... تَلْقَى جَميعَ الحُسْنِ، فيهِ،
لَوْ أنّ كُلّ الحُسْنِ يكمُلُ ... ورآهُ كانَ مهلّلاً ومكبَّراً

سألت صاحبي عن الرجل، فقال: ألا تعرفه؟

قلت: أعرف جمـال المعـاني الـتي يـذكرها في شـعره هـذا.. ولكني لم أتشرف بمعرفته.

قال: هذا من نصبه العاشقون سلطانا لهم(1).. إنه رجل بحث في جميع مدن العشق ورعاياه، فلم يجـد أشـرف من عشـق اللـه ومحبته.. فأفنى كل عمره فيه.. وقد قال يذكر ذلك:

1() أشير به إلى عُمر بن علي بن مرشد بن علي الحموي الأصـل، المصـري المولـد والـدار والوفاة، الملقب شرف الدين بن الفارض (576 ـ 632 هـ)، من شـعراء الصـوفية الكبـار، يلقب بسلطان العاشقين.

نشرتُ في موكبِ العشاقِ أعلامي | وكانَ قبلي بُلى في الحبِّ أعلامِ
وسِرْتُ فيهِ ولم أبْرَحْ بِدولتِهِ | حتى وَجَدْتُ مُلوكَ العشقِ خُدّامي
ولَمْ أزلْ منذُ أخذِ العهدِ في قِدَمٍ | لكَعْبَةِ الحُسْنِ، تجريدي وإحرامي
وقد رَماني هَواكُم في لُجَجٍ | مقامِ حبٍّ شريفٍ شامخٍ سامِ
جهلتُ أهليَ فيهِ أهلَ نسبَتِهِ | وهمْ أعزَّ أخلاّئي وألزامي
قضيتُ فيهِ إلى حين انقضى أجلي | شهري ودهري وساعاتي وأيامي
ظنَّ العذولُ بأنَّ العذلَ يوقِظُني | نامَ العذولُ وشوقي زائدٌ نامي
إن عامَ إنسانُ عَيني في مدامعِهِ | فقدْ أمِدّ بإحْسانٍ وإنعامِ
يا سائقاً عيسَ أحبابي بذي سَلَمٍ | وسرْ رُوَيْداً، فقَلبي بينَ آكامِ
سَلَكْتُ كُلَّ مَقامٍ في مَحَبّتِكُمْ | وما تَرَكْتُ مَقاماً قَطّ قُدّامي

قلت: ألا تراه يدعي بقوله هذا ادعاءات كثيرة؟

قال: حاشا لأولياء الله وأصفيائه أن يدعوا دعوى بدون أن يكون لديهم برهانها.

قلت: ولكن سلاطين العاشقين الذين نشروا في مواكب العشق أعلامهم هم الأنبياء والأوصياء والورثة.. أولئك هم أقرب الخلق إلى الله، وأعظمهم محبة لله.

قال: وهذا لا يعارض ما ذكر هذا الولي..

قلت: فكيف يستقيم الأمران، وهما في الظاهر متعارضان؟

قال: التعارض في مقامات أهل الدنيا لانحصارها وضيقها.. أما أهل الله، فلا تعارض في مقاماتهم.. فالله هو الواسع الذي لا يحاط به، وهو العظيم الذي لا يقدر قدره..

***

تركنا الرجل يبث مواجيده وأشواقه لإلهه، وسرنا في تلك الجنان، وفي ذلك الهزيع من الليل المنار بنور الصديقين.. ولم نسر إلا قليلا حتى رأينا شابا يقف أمام جامع كبير، وهو ينشد

بصوت عذب يخاطبنا كما يخاطب كل مار بذلك الجامع(1):

ما لذة العيش إلا صحبة ... هم السلاطين و السادات
فاصحبهم و تأدب في ... و خلي حظك مهما
و استغنم الوقت و احضر ... و اعلم بأن الرضاء يخص
و لازم الصمت إلا أن ... لا علم عندي و كن
و لا ترى العيب إلا فيك ... عيبا بدا بينا لكنه استترا
و حط رأسك و استغفر بلا ... و قم على قدم الإنصاف
و إن بدا منك عيب ... وجه اعتذارك بما فيك
و قل عبيدكم أولى ... فسامحوا و خذوا بالرفق
هم بالتفضل أولى و هو ... فلا تخف دركا منهم و لا
و بالتفتي على الإخوان جد ... حسا و معنى و غض
و راقب الشيخ في أحواله ... يرى عليك من استحسانه
و قدم الجد و انهض عند ... عساه يرضى و حاذر أن
ففي رضاه رضى الباري و ... يرضى عليك فكن من
متى أراهم و أنى لي ... أو تسمع الأذن مني عنهم
من لي و أنى لمثلي أن ... على موارد لم آلف بها
أحبهم و أداريهم و أوثرهم ... بمهجتي و خصوصا منهم
قوم كرام السجايا حيثما ... يبقى المكان على آثارهم
يهدي التصوف من ... حسن التآلف منهم راقني
هم أهل ودي وأحبابي ... عمن يجر ذيول العز
لا زال شملي بهم في الله ... و ذنبنا فيه مغفورا و
ثم الصلاة على المختار ... محمد خير من وفى و من

1() هذه مقتطفات من قصيدة للشيخ أبى مدين، وقد ذكرناها هنا لما لها علاقة بآداب السلوك إلى مراتب الصديقين.

سألت صاحبي عن المنشد، وسر إنشاده، وسر وقوفه على باب ذلك الجامع، فقال: في هذا الجامع مدرسة تخرج الصديقين.. وهذا المنشد يعلم كل داخل آداب الدخول في مدارس الصديقين.. فلا يصح الدخول على الصديقين إلا بصحبة الأدب..

عندما سمعت هذا شعرت بشوق عظيم يدفعني إلى دخول ذلك الجامع، والتعلم في مدرسته..

وقد وفقني الله فرأيت فيه ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر.

وقد رأيت فيه من السعادة ما لم أجده في أي محل من محال الدنيا.. وأغرب ما وجدته فيه معلمك (معلم السلام)

قلت: عجبا.. كيف ذلك؟ هل عرفت سره وحقيقته؟.. لطالما شغلت بالتعرف عليها.

قال: أجل لقد رزقني الله بعض علوم ذلك..

قلت: فهيا خبرني.. وأزل عني الغموض الذي لا طالما أرقني.

قال: لا.. لم يؤذن لي في الحديث عن ذلك.. فحسبك ما ذكرته لك.

النهاية

بعد أن حدثني الشيخ الصالح عن نبأ رحلته سألته متعجبا: ولكن.. أنت لم تخبرني كيف عدت من تلك البلاد العجيبة؟

قال: ومن أخبرك أني عدت منها.. أنا لا زلت فيها.. بل لا زلت بحمد الله في تلك القمة السامقة التي رأيت فيها صاحبك معلم السلام.

قلت: رأيت صاحبي معلم السلام في القمة.. أي قمة؟

قال: قمة جبل الصاعدين إلى الله.. أتراك نسيتها؟

قلت: أجل.. ولكن..

قال: لقد ذكرت لك أن قمة الجبل كانت مخصصة للصديقين.. وقد رأيت بحمد الله صاحبك فيها.. ولم أرتض أن أنزل منها.. وكيف أنزل منها، وفيها ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر.. وكيف أنزل منها وفيها الأنبياء والأولياء والصديقون.. وكيف أنزل منها وفيها القرب والمحبة والأنس وجميع المعاني السامية.. وكيف ينزل إلى دنس الحظيظ من رأى قدس أقداس العلو؟

قلت: ولكنك معي.

قال: طيني معك.. أما روحي، فلا تزال هناك.

قلت: أنا أسألك عن طينك.. فمن أرجعك إلى أرضك بعد أن نفيت عنها؟.. ومن أخرجك عن أرض الأوحال إلى أرض الإنسان؟

قال: بعد أن يسر الله لي الوصول إلى القمة.. وبعد أن رأيت فيها ما ذكرت لك.. وبعد أن قررت قرارا لا رجعة فيه أن تكون تلك القمة هي وطني الدائم، وهي مستقري الأخير جاءت الطائرة التي حملتني لتعود بترابي إلى البلد الذي خرج منه..

قلت: عجبا.. هل بقيت كل تلك الفترة منفيا.. ولم تأت

الطائرة إلا بعد أن انتهت رحلتك؟

قال: لا تعجب.. فإن الذي يصرف الأمور هو الله.. والله لطيف خبير.

قلت: ولكن ما كنت تأكل في ذلك الخلاء الذي لا يمتلئ إلا بالطين؟

قال: من انشغل بعالم الروح أشبع الله جسده من حيث يحتسب، ومن حيث لا يحتسب.

قلت: فما فعل أخوك بعد أن رآك؟

قال: لقد قال لي أول ما قابلني: هل قابلته؟.. فأجبته: أجل.. وما كان لي أن لا أقابله.

قلت متعجبا: من يقصد أخوك بقوله هذا؟

قال: هو يقصد صاحبك (معلم السلام).

قلت: و هل يعرفه؟

قال: وكيف لا يعرفه؟.. أنسيت أن أخي هو توأمي، وأني لا يمكن أن أرى شيئا ثم لا يراه، أو أسمع شيئا ثم لا يسمعه؟

قلت: فلم لم يسمع له كما سمعت له أنت؟

قال: ذلك سر من الأسرار لا يمكن أن أبوح لك به الآن.. فحسبك ما ذكرته لك.. وحسبك ما أذكره لك.

هذا الكتاب

تهدف هذه الرواية إلى الإجابة ـ وفق المنظور الإسلامي ـ على عن كل التساؤلات التي يطرحها العقل حول الإنسان، وحقيقته، ووظيفته، وطاقاته التي زود بها، ولم زود بها، وكيف يستخدمها، وما هي نتيجة استخدامه لها؟

وهي لذلك تدخل ضمن ما يسمى [الحكمة العملية]، أو [العرفان العملي] أو [السلوك التخلقي والتحققي]

وقد كان اعتمادنا فيها بالدرجة الأولى على ما ورد في النصوص المقدسة فيما يتعلق بهذه الجوانب.. بالإضافة إلى ما كتب في علم السلوك والعرفان والتصوف.